

بنات سبأ

رحلة في جنوب الجزيرة العربية

مع ملحق عن النقوش
من إعداد أ.ف.ل. بيستون

تعريب
د. يوسف مختار الأمين

تأليف
هاري سانت جون فيليب
«عبدالله فيلبي»

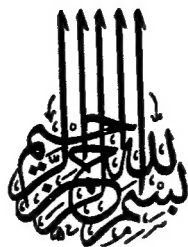
مراجعة وتدقيق وتعليق

د. عمر العمري
عبدالرحمن الشقير

د. فهد بن عبدالله السماري
عبدالله المنيف

مكتبة العبيكان

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



الإهداء

إلى أثينا

(P . L)

لقد كانت هناك حسرة شديدة بالجزيرة العربية
وفي سبأ تجلس ابنة ملك تحكم بلا رفيق
غير محبوبة، وبلا زوج
تنهمر الدموع من عينيها
وتمتد أحلامها عبر السهول

**

جون فريمان

سليمان ويلقيس

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قائمة الأشكال	٩
كلمة الناشر	١١
المقدمة	١٣
الفصل الأول : التكوين	٢٣
الفصل الثاني : الخروج	٣٩
الفصل الثالث : البرية	٧٧
الفصل الرابع : شبوة	١١٥
الفصل الخامس : وادي الموت	١٧١
الفصل السادس : فاصل	١٩٥
الفصل السابع : القضاء والقدر	٢٤٣
الفصل الثامن : حتى رُتِبَ تسكانيا	٢٨٥
الفصل التاسع : البوابات الجنوبية	٣٠٧
الفصل العاشر : طريق الحج	٣٦٣
الفصل الحادي عشر : أرض أُر	٣٨٣
الفصل الثاني عشر : أرض سبأ	٤٣١
الفصل الثالث عشر : العودة	٤٧٩
ملحق كتبه أ. ف. يستون عن النقوش التي اكتشفها فيليب	٥٠٧
كشاف مفردات النقوش	٥٢٨
ملاحق الصور	٥٣١
الكشاف (أعلام، أماكن)	٥٨١

قائمة بالأشكال

رقم الصفحة	الصورة
٥٣٣	- بالعام وسليمان وملكة سبأ تمثال في كاتدرائية تشارترس (تصوير بي آرثود جرينوبل)
٥٣٤	- المؤلف مع فهد ابن الأمير سعود وبندر الدويش إبراهيم النشمي وجماعة أمام حقل ذرة في قصر
٥٣٥	- أبا السعود بنجران
٥٣٦	- بشر الخضراء - أول مجموعة تسقي عند الفجر
٥٣٧	- خيمة ابن حدبان وعائلته في وادي الطرفاء
٥٣٨	- دفع السيارة لتهبط من منحدر رملي في تلال السبعين
٥٣٨	- شبوة - قرية هجر، باتجاه الجنوب
٥٣٩	- المخيم أمام قرية هجر، شبوة
٥٣٩	- معبد عشتار في شبوة - قواعد أعمدة
٥٤٠	- مسجد مثنة في شبوة
٥٤٠	- سور قصر قديم في هجر - شبوة
٥٤١	- مسجد هجر والقلعة خلفه في شبوة
٥٤٢	- هجر - منظر من قلعة شبوة
٥٤٣	- بقايا مبنى قرب السور الغربي لشبوة
٥٤٣	- بئر ديبان في وادي معشر، شبوة
٥٤٤ - ٥٤٥	- منظر عام للآثار في شبوة من الجنوب للغرب من ستقار
٥٤٦	- آثار عقم بالقرب من شبوة قنوات ري
٥٤٦	- داخل منجم مغيرة للملح - شبوة
٥٤٧	- ضريح محمد بن بريك - شبوة
٥٤٧	- قرية هينن عند مدخل وادي حضرموت
٥٤٨	- مسجد القطن ، وادي حضرموت
٥٤٨	- بنات السلطان علي بن صالح في القطن
٥٤٩	- أحد بيوت آل الكاف في تريم
٥٥٠	- الطريق إلى العقبة، قرب تريم
٥٥١	- واحة المعدي - بالقرب من المحيط الهندي
٥٥٢	- صندل في طريقه إلى الباخرة كاوسجي في شحر
٥٥٣	- البوابة الغربية وسور المدينة في شحر
٥٥٤	- أحمد ناصر البطاطي - حاكم المكلا
٥٥٥	- وادي عشرة أثناء السيول
٥٥٥	- الصوري والريضة - تطل على صدع قرب تريم

٥٥٦	العلمية المصرية	-
٥٥٦ ١٠٥٥٠٠٦	قرية ربيعة وتل عُرْف الديك	-
٥٥٧	بئر الجديرة	-
٥٥٨	سحلال والمخيم من الشرق	-
٥٥٨	رجل وولده مع ثلاث إبل - قابلونا في الصحراء، قرب الواديان.	-
٥٥٩	نقوش على صخرة قلعة قديمة في العقلة - الناصية الجنوبية	-
٥٥٩	ويظهر الشيخ صالح الحذيق من شبوة	-
٥٦٠	قلعة العقلة الصخرية من الغرب	-
٥٦١	آبار أجفر الرخم في وادي أنصاص	-
٥٦٢	الاستقبال في عياذ	-
٥٦٣	البئر والحصن الرئيس في عياذ	-
٥٦٤	السيارات والإبل تتقابل في صحراء خرج	-
٥٦٤	داخل فوهة البركان - تل الكرش	-
٥٦٥	وادي مرخه - بقايا سدود ري قديمة	-
٥٦٥	استقبال مُحسنة - في المخيم في وادي أنصاص	-
٥٦٦	أضرحة أقاليل - الصحن والمحراب؟ من الشرق	-
٥٦٧	المخيم في حرة الثنية - النظر عبر فجوة الثنية من الجنوب	-
٥٦٨	صالح الحذيق فوق قمة الثنية في اتجاه شمال غرب	-
٥٦٨	رابية فوقها طريق مسور عند طرف الرويك	-
٥٦٩	سلاسل تلال الرويك	-
٥٧٠	قبور على سلسلة تلال العلم الأبيض	-
٥٧١	أحد قبور العلم الأبيض	-
٥٧٢	«جيشي» عند آبار مسعودة	-
٥٧٢	آثار فضية - النظر شمال / غرب من الركن الجنوبي الشرقي	-
٥٧٣	قلعة السحيل من الداخل من الجنوب	-
٥٧٣	آثار خربة أبي السعود - النظر جنوب - شرق على طول	-
٥٧٤	السور الشرقي من الداخل	-
٥٧٥	السور الغربي لخربة أبي السعود - النظر شمال / غرب	-
٥٧٦	خربة أبي السعود: ابن حديان بجوار مذبح حجري في المعبد	-
٥٧٧	بئر بوع وجمال الأحمر في الخلف	-
٥٧٧	تلال أوبن	-
٥٧٨	شعيب أم الذياب	-
٥٧٩	سلسلة تلال هريرة وكثبان عرق القورة	-
٥٨٠	بئر الخضراء في منتصف النهار	-

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية، وذلك بمناسبة مرور مئة عام على استرداد الملك عبدالعزيز -رحمه الله- الرياض وبداية مسيرة التأسيس التي توجت بتوحيد المملكة العربية السعودية.

وتأتي مشاركة مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع في هذه المناسبة إدراكاً من القائمين عليها بأهمية الدور الثقافي الذي تضطلع به دور النشر الكبرى في خدمة بلادها من خلال إبراز الجوانب المضيئة في البلاد دراسةً، وتحقيقاً، وترجمة.

ومكتبة العبيكان، وهي تشارك بإصدار مجموعة منتقاة من كتب التاريخ والرحلات التي دونها فيلبي عن المملكة العربية السعودية، لتؤكد أن هذا الإصدار ليس الهدف منه مجرد الاحتفال لإحياء الذكرى المئوية الخالدة؛ ولكن إحياء للقيم والمبادئ التي دعا إليها المؤسس الراحل ورافقه في ذلك رجاله المخلصون وجاهد من أجلها حتى أصبحت المملكة العربية السعودية تنعم بما أفاء الله عليها من أمن ورخاء واستقرار في جميع المجالات.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه تحقيق وتبويب عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

وما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية

(الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة خلال تلك الفترة.

وسيالاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وأثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دار الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق،

الناشر

مكتبة العبيكان

المقدمة

منذ بضع سنوات مضت حاولت جريدة التايمز البريطانية - بنجاح واضح، تجربة نشر إعلان نعي كتبه المتوفى بنفسه. وأحدث من ذلك تم السماح للأفراد المتهمين في روسيا السوفيتية بأن يتمتعوا بمزايا محاكمة أنفسهم بأنفسهم في تُهم خطيرة عقوبتها الإعدام، وقد نجحوا بشكل واضح في معظم ذلك. ويتوقع الناشرون بصورة متكررة أن يكتب المؤلف أو يقدم مادة للدعاية أو للتعريف بالكتاب. ولكن - فيما أعلم - لم يُطلب من أي مؤلف قط أن يراجع كتاباً ألفه هو بنفسه. وهذا ما أود تنفيذه يوماً ما، وهذا المجلد بالذات يوفر فرصة رائعة لمثل هذه التجربة. إن موضوع الكتاب يدور في معظمه حول بلد ليس معروفاً إلا لنفسه فقط. إن الدكتور هوجارث (Dr. Hogarth) - الذي أعد دراسة خاصة عن خفايا الجزيرة العربية المجهولة - كان سيتمتع بمراجعته، لأنه سيجد الكثير لينقده، والكثير ليعارضه والكثير ليقدره تقدير الحبيب. وحيث إنه قد خطفته يد المنون، ولم يعد معنا في عالمنا فإنني أشعر بأنني مثل محاضر يخاطب مقاعد فارغة.

ومع ذلك، فهناك بالتأكيد شخص ما في ظلام السنين التي لم تولد بعد يستمع بإنصات لكل كلمة من كلمات هذا الكتاب. لهذا الشخص، وربما يكون أكثر من شخص، أوجه هذا المجلد. وبالنسبة للآخرين، حسبما أتمنى أنا والناشرون، يمكنهم قراءة الكتاب أو شراءه على الأقل. ولكن لن يتمتع به أحد مثلما يتمتع به ذلك الذي يأخذه معه في رحلاته بذلك البلد الذي يخطيه. هذا الرجل سوف يستمتع بثروة التفاصيل التي يحويها والتي سوف يتخطاها القارئ العادي المشغول هذه الأيام، إن استطاع. وفوق كل شيء آخر أتمنى أن أقابل ذلك الرجل أو المرأة، فلربما قابلته يوماً ما في شيخوختي كما قابل داوتي لورنس بعد أربعين عاماً من رحلاته العظيمة في الصحاري العربية. وإنتاج سنوي يُقدَّر بحوالي ١٤٠٠٠ كتاب في العام، أي بمعدل

أربعين كتاباً كل يوم بما فيها عطلات أيام الأحد وإجازات البنوك، ببريطانيا العظمى وحدها فلربما أجد نفسي مضطراً للاعتذار لزيادة هذا الرقم. ولكنني أقدر أن أدافع عن نفسي وأرد ذلك الاتهام وأبرر عملي هذا بأن هذه المناسبة فريدة ومميزة. ولا أستطيع حتى أن أعد بعدم تكرارها مرة أخرى. إن هذا الكتاب بحجمه الضخم هذا، ليس في الحقيقة سوى نصف كتاب. إنه سجل لأنشطتي خلال ثلاثة شهور فقط من أصل تسعة شهور استغرقتها رحلاتي في الجنوب المجهول. هذا القدر قد أخذ مني ما يربو على عام كامل لكتابته. وقد أمضى داوتي من قبل عشر سنوات في تأليف كتابه، ولكن الشمس قد وقفت مكانها في الصحاري العربية كما رسمها. أما في حالتي، وبعيداً عن الأمور الأخرى التي تشتت اهتمامي، فإن منظر الجنوب ما فتئ يتغير بسرعة البرق منذ أن وليت مديراً عنه. وكان عليّ أن أصف بعضاً من تلك التغيرات بلا تردد.

إن أيام القوة التي تمكنتني من الاستكشاف قد أدبرت عني الآن. ربما -ولكنني أشك في ذلك- فمن الصعب أن يتخلى المرء عن عادات ظلت تلازمه طوال حياته. بيد أن المشكلة تكمن في أن موجات رحلاتي في الأجزاء المجهولة أو التي لا يعرف عنها إلا القليل بالجزيرة العربية قد بدأت تنكسر على حواف المعرفة الساطعة. وإذا لم يلزم المرء جانب الحيلة والحذر فلربما «داس على ذيل أحد معاطف الفرو». إن من يتتهك حرمة الآخرين أو يسرق صيدهم ليس مرغوباً في أي مكان. ولكن يجب على الإنسان أن يستحوذ على أرنب أو قطاة جاءت عَرَضاً. «إن المعتدين سوف يحاكمون». إنهم سوف يخضعون للمحاكمة بالطبع إذا ما دعوا السجناء ليشهد جريمتهم. إن هذا العالم المسكين يصبح بحق أصغر كل يوم عما قبله. ولا يستطيع المرء أن يذهب إلى أي مكان دون التعرض لتحذير بالابتعاد عن الخطر. وهذا ما قد حدث لي خمس مرات بالفعل، وسوف يحدث بلا ريب مرة أخرى. فقد مرت مرتين بهذه التجربة أثناء هذه الرحلة الأخيرة -كما سوف يظهر في حينه-. وقد حدثت مرة في عام ١٩٢٢م،

عندما لم يكتفوا بتحذيري بالابتعاد فقط، بل قاموا في الحقيقة بترحيلي أيضاً. وفي المرة الرابعة وجدت السجنان في طريقي، وفي مزاج وحشي يتوق للخصام والقتال، وهكذا هربت بعيداً. وكانت المرة الخامسة في عام ١٩٢٥م، عندما تجاهلت تحذيراً دينياً، ولم أسمع شيئاً عنه بعد ذلك. وعندما أنظر للماضي وأتأمل فيه أرى أنها كلها كانت تبدو غريبة جداً، ولكنها على أي حال تضيف طعماً لمغامرة الرحلات بالجزيرة العربية، والتي كانت لولا ذلك ستصبح كثيفة وغير مثيرة. ومشكلتي هي أن «الإمبراطورية البريطانية» شديدة الضخامة والكبر بشكل يفوق الخيال، ولا تزال تنتهك باستمرار خصوصياتي. وكل ما أريده هو الهدوء والعزلة. وهذان الشيئان أضحي الحصول عليهما من الصعوبة بمكان أكثر مما قد يتخيله المرء، ولو حتى في الصحراء. ولم يكن الأمر بهذا السوء دائماً، ولكن في هذه الأيام ذات السرعة والجرأة فقد ظهر حتى لتلك الأقاليم المهجورة أو المهملة قيمة محتملة. فإذا كانت هذه الأقاليم منبسطة فيمكن أن يهبط عليها الإنسان من الجو، وإذا كانت جبلية فلربما أخفت البترول بين طياتها. ومن سوء الحظ أن الجزيرة العربية ظلت موسومة إلى الأبد بأنها هدية لسكانها فقط لأكثر من عشرين عاماً مضت قبل أن تؤدي تلك الاعتبارات دوراً خطيراً. وقد قبل العرب الهدية بكل امتنان، ولم يطلبوا شيئاً إلا أن يُتركوا وشأنهم. وصادق أهل بريطانيا العظمى على هذه الهدية بحماس شديد. ورحبوا بقرار يتفادى التقيد بالتزامات إمبراطورية في الجزيرة العربية. ولقد كنت واحداً من الجموع الكثيرة التي أيدت هذه السياسة. ولكن يبدو أنني الوحيد الذي تخلف عن تلك الجماعة. فلقد ندمت الحكومة البريطانية، واستاءت من اضطرابها لتفسير وعودها. إن نكث العهد له دلالة وقحة في لغتنا. ومع ذلك فقد نقضت بريطانيا العظمى عهدها مع العرب، والعرب يدركون ذلك، ويعلنون هذه الحقيقة من أعلى أسطح بيوتهم، وفي النهاية لا يعلم أحد لغتهم ولا عما يتحدثون على أي حال. وتأخذ الأمور شكلاً مختلفاً عندما تستغل هذه الحقيقة أمم أوروبية منافسة أو معادية لنا للدعاية ضد

بريطانيا. وما يزيد الأمر سوءاً وخطورة أن الحكومة البريطانية تواجه مظاهراً تدل على القلق المتزايد وتأييب الضمير داخل بريطانيا نفسها. بيد أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء أشد سوءاً من أن يمضي رجل شرطة، كان معتدياً، قدماً ليتنقد سلوك وتصرفات الشرطة. وأعتقد أنني أصبحت تحت هذه الفئة.

فلثمانية عشر عاماً، منها فترة الحرب العنيفة، مكثت في خدمة الحكومة. ومنذ ثلاثة عشر عاماً مضت استقلت منها بسبب مقنع تماماً وهو عدم موافقتي على سياسة الحكومة. ولقد رفضت الحكومة أن تقبل تقديري المبكر لأهمية ابن سعود في الخطة العربية وزعمت أنه غير صحيح. وأترك الأمر للقراء كي يحكموا بين الحكومة وبينني في هذه القضية. ففي خطاب حديث لجريدة التايمز (١١ مارس ١٩٣٨م) كتب السيد كاري لورد يقول: «لقد أيدنا بالتأكيد الحصان الخطأ» وفي العراق اعترضت على كل من سياسة وطرق الحكومة البريطانية بالإشارة على وجه الخصوص إلى استفتاءين اثنين عُقدَا في سنتين متابعتين تحت رعاية جهتين مختلفتين وأسفرا عن نتائج مختلفة بشكل غريب. ولقد تخلت عن وظيفتي بدلاً من أن أتحمل أي مسؤولية عن الاستفتاء الثاني (١٩٢١م)، ويجب أن أقول: إنني لم أتحمس كثيراً لموقف الحكومة المعلن تجاه الاستفتاءات المنافسة التي يجريها سكوشن وهنلر. إنهم لم يكونوا أول الناس الذين يعرفون أن الردود الحكيمة، إذا تمت صياغتها بصورة صحيحة، فسوف تعطي النتائج المرجوة.

ولكن الموضوع الحقيقي الذي قررت بناءً عليه أن أقطع علاقتي مع الحكومة البريطانية وأذهب للصحاري كان هو الورطات التي خلقتها «سياسة الانتداب» في فلسطين والأردن الكبرى. ولقد استغرق الأمر بضع سنوات إلى أن ثبت صحة موقعي الذي اتخذته في عام ١٩٢٤م، وقد شجبت لجنة اللورد بيل، التي تشكلت عام ١٩٣٧م، الانتداب ووصفته بأنه غير قابل للتنفيذ، وقالت بالحرف الواحد: إن «الحكومة البريطانية تتفق معنا على أنه كذلك».

وقد يفاجأ أصدقاؤني -البريطانيون والعرب- باتفاقي مع الحكومة على أن التقسيم هو الحل الوحيد الممكن للمشكلة التي خلقتها محاولة تطبيق نظام انتداب غير صالح للعمل أصلاً. علاوة على ذلك، أتفق مع الحكومة على أن الاحتلال الإيطالي للحبشة يجب الاعتراف به. كما أوافق على الاعتراف الفوري بالاتحاد النمساوي-الألماني. ولكن مثل هذه الإهانات الحتمية هي مجرد إفرازات لأخطاء السياسة السابقة، التي كان يمكن تفاديها بشكل كبير. وعندما أتفق مع الحكومة فإنني لست خائفاً من أن أقول ذلك. بالقدر نفسه عندما أختلف معها فإن اعتراضاتي قد يحد على إجراء تغيير في السياسة أو الطريقة قبل أن تنشأ عواقب مهينة من الأخطاء.

ومهما يكن من أمر فقد رحلت منطلقاً في البرية عام ١٩٢٥م، واستطيع القول بأمانة أنه ليس عندي داع للندم على دور «الصوت الجمهوري القوي» الذي وصموني به منذ ذلك الحين. إن الاستقلال في حد ذاته مصدر قوة لا يقدر بثمن بالنسبة للأمم والأفراد. وكانت الجزيرة العربية قد أصبحت مثيرة أكثر فأكثر حيث إنها قد استيقظت من سباتها الطويل، واستجمعت قواها لتواجه ظروف العالم الحديث. وهي في أقطابها قد مرت بتجارب قيمة، وأحياناً جد عنيفة، مثل الأهداف والطرق الاستبدادية (الإمبريالية) لكل من فرنسا وإيطاليا.

وفي كل مكان آخر كانت اتصالاتها السياسية وما تزال مع بريطانيا العظمى وحدها. والآن، فإن الجزيرة العربية بلد مسلم أساساً، ولهذا السبب على وجه الخصوص، ولأسباب أخرى كثيرة، فإن حب الاستقلال، لا سيما الاستقلال من السيطرة والهيمنة الكافرة، متأصل وراسخ في العرب. إنهم يدركون أنه لا يمكن ضمان مثل هذا الاستقلال من مكائد العالم إلا بوحدة المظهر المادي والمعنوي. فالعربي عنده، مثل أي رجل إنجليزي، الشغف نفسه للحرية الشخصية والاستقلال، ولكنه لم يتعلم ضرورة إخضاعهما للصالح العام لمواجهة خطر مشترك. إن الخطر لا ينشأ من فرنسا أو إيطاليا، اللتين قد تخلق محاولتهما السيطرة على الجزيرة العربية

«سبباً أو ذريعة للحرب» بالنسبة لبريطانيا العظمى. بل يأتي الخطر من بريطانيا العظمى نفسها. وقد يبدو ذلك شيئاً صعباً لرجل إنجليزي مثلي ليعلمه، ولكن الرجل الإنجليزي ليس بحاجة أن يخاف من قول الحقيقة بكل تأكيد. إن الاختراق السياسي البريطاني للجزيرة العربية قد بلغ بالفعل مبلغاً بعيداً أكثر مما ينبغي. وما يزال يسعى لكي يتمدد أبعد مما بلغ. ولا يوجد هناك حد لمثل هذه العمليات من الطموحات الاستبدادية (أو الإمبريالية). وليس لها مبرر. وإذا لم يوافق أحد على قولي هذا فإن وعود مكماهون في ١٩١٥م تثبت أن كثيراً من الناس، بما فيهم الحكومة البريطانية نفسها، قد اتفقوا معه منذ ثلاثة وعشرين عاماً مضت، عندما كان على الناس أن يفكروا بعناية أكثر مما يبدو أنهم يفعلونه هذه الأيام.

وإذا لم يكن هناك أي مبرر للطموحات البريطانية في الجزيرة العربية، فلا يوجد كذلك إلا أقل القليل من المبررات لطرق التوسع التي تتبناها الحكومة - عمداً فيما يبدو - في الآونة الأخيرة. لقد استنكر الرأي العام البريطاني والحكومة البريطانية استخدام طرق التوسع هذه والطموحات الاستبدادية في الحبشة، وفي أسبانيا، وفي الصين. فلماذا تستخدمهم الحكومة البريطانية إذاً في الجزيرة العربية؟! إن الإجابة جد سهلة ويسيرة: إنهما أقل تكلفة، وأشد فاعلية، وأكثر إنسانية من أي شكل آخر من أشكال العمليات العسكرية أو البوليسية. ولا يستطيع المرء حقيقة أن يتخيل أي شيء أشد رعباً من قصف جوي بالقنابل لا يقدر أن يرد عليه بمثل. وإذا لم تفن الحصار الإنسانية في السعير الذي خلقتة بأيديها فليس بمقدور المرء أن يتصور أي شيء أحوج للتأكيد من تحريم طائرات القصف على الإطلاق. وإلى أن يأتي ذلك اليوم يجب علينا بشكل واضح أن نوفر ونجهز عددًا كافيًا من تلك الماكينات الجهنمية للدفاع عن أنفسنا ضد عدو مسلح بأسلحة ماثلة أو لنرد على هجماته علينا بمثلها. ولكن ذلك لا يبرر استخدامها ضد أصدقاء أو أعداء ليس لديهم مثل هذه المعدات. ولم يعلن «رئيس الوزراء» إلا مؤخراً أن الحكومة البريطانية ستكون مستعدة لوقف

«جميع أنواع القصف من الجو» إذا كانت الدول الأخرى مستعدة لعمل مثل ذلك !! . إن هذا سوف يمنح الحكومة البريطانية وقتاً كافياً لتقصف تلك الأجزاء من الجزيرة العربية التي تشتهي إخضاعها . ولست بالتأكيد غير منطقي في توقع شيء أحسن من ذلك من الحكومة البريطانية . هل يوجد أي شيء يمنع من اتخاذ قرار من جانب واحد بالآلا تقوم الطائرات البريطانية بقصف أي جزء من الإمبراطورية البريطانية مرة أخرى؟! أو هل هناك سلسلة من الاتفاقيات الثنائية أو متعددة الأطراف مع الدول الأخرى لتحريم القصف الجوي المتبادل؟ إن الأمر سيصبح بالطبع أشد صعوبة وأكثر تكلفة لتهريب فلسطين وحضرموت لإخضاعهما تحت سيطرتنا . ولكن هل نحن جديرون بحكم أي من هاتين الدولتين ، أو أي بلد آخر ، إذا كنا نستطيع ذلك فقط من خلال قصفهما؟! .

وعندي كلمة أخرى إضافية عن فلسطين ، إننا نتحدث عن الأنشطة التي ينفذها العرب ، وسوف يمدح التاريخ بالتأكيد كفاحهم الوطني ضد قوى مضادة يائسة . إن قتل الطغاة والمستبدين دعوة قديمة ومشرفة . والمستبدون -سواء كانوا أفراداً أو حكومات- يعاقبونهم بالموت طبعاً . وهذا يبدو شيئاً معقولاً تماماً في حدود الظروف التي تحيط به ، ومهما يكن من رأي المرء في القاتل فإننا لا نستطيع أن نتذمر من حكم الإعدام المقرر بناءً على إثبات الجريمة . بيد أن حياة أسلحة أو ذخيرة لا يمكن اعتباره بصورة معقولة جريمة كبرى تستحق الإعدام . إنها يمكن أن تكون كذلك بقوة القانون ، مثلما كانت سرقة الأغنام في إنجلترا منذ قرن مضى أو أكثر . وفي الوقت نفسه فإن العقل البشري يتمرّد ضد مثل هذا الإفراط في إصدار القوانين ، والرأي والوجدان البريطاني كله يميل إلى -أو اعتاد بدرجة ما أن يكون ميسالاً إلى- جانب العدل والإنصاف . ولكن القتل القانوني (وهو مصطلح يغطي بدرجة كافية تنفيذ طرق الإعدام التي بررها صدور قوانين لأغراض خاصة) ، فالقصف الجوي ليس من العدل ولا الإنصاف .

وهذا يبدو للبعض مقدمة غير قويمة إلى حد ما لكتاب رحلات . وفي الواقع لقد نبتت من هذه الظروف التي ناقشتها هنا المغامرة الوحيدة الحقيقية لرحلتي الطويلة .

ومن هذه الرحلة نفسها نشأت المناسبة لكثير من انتقاداتي. إن زيارتي لحضرموت قد تزامنت تقريباً مع إعلان الحكومة البريطانية - في سبتمبر ١٩٣٦م - عن خطط استحداث «مستعمرة عدن» على أن يبدأ سريانها من تاريخ بداية سريان قانون «حكومة الهند» الجديد. وكان الأمر أو النظام بالمجلس الذي يضفي صلاحية على هذه الخطط - في حدود علمي - لم يواجه أي اعتراض قانوني. ولم يزد الأمر على نقل منطقة عدن من وزارة معينة إلى أخرى. ولم يحتو على أي تلميح للمكائد الخفية للإقليم الواقع خارج منطقة عدن، وهو الإقليم المستقل للسلطنات الجنوبية.

ويبدو أن رحلتي قد نهت السلطات في عدن إلى الإحساس بالخطر المحقق بهم. وخلال شهور قليلة تم تصحيح ما أغفل عنه الاقتراح الأصلي بالمجلس من خلال إصدار أمر آخر. هذا الأمر الثاني كان قانوناً للضم والإلحاق، صريحاً وواضحاً، والذي ألغى بازدراء وقسوة مجموعة من المعاهدات قديمة العهد والوعود المهيبة من السير هنري مكماهون. ولكي يتم تنفيذ ذلك القانون كان من الواجب استخدام طائرات القصف بمتهى الحرية^(١)، وما زالت تُستخدم عمداً بشكل تام، ولكن سوف يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يستطيع هذا السلاح البربري الوحشي تمكين حكومة عدن من أن تجعل هذا الضم والإلحاق نافذاً. وقد نفت الحكومة البريطانية بالطبع ارتكاب أي عمل أو إصدار أي قانون قد يؤدي إلى الإلحاق. إن اليابان تنفي أنها تحارب الصين، إنها فقط تساعد الصينيين على إدارة شؤونهم بصورة صحيحة. وقد انطلقت إيطاليا في الحبشة فقط لتساعد الأحباش البؤساء ضد نظام الحكم الوحشي الذي يسيطر على مصائرهم. وقامت ألمانيا بغزو النمسا بناءً على طلب صريح من شعبها. وطلب الروس بصورة إيجابية إصدار حكم الإعدام على أنفسهم لأنه هو فقط الذي يستطيع أن يكفّر عن خزي حياتهم الإجرامية أوعارها. إن طرق الدعاية الحديثة قد خلقت أساليب كلامية جديدة. ولكن هذا كثيراً ما يتغير!

(١) منذ مطلع إبريل ١٩٣٨م يبدو أنه لم تعد هناك عمليات قصف في محمية عدن. (المؤلف).

وإلى هنا سوف أترك الأمر حتى يتمكن القارئ من مصاحبتني في رحلاتي . وفي إعداد هذا الوصف لها فإنني أدين بقدر عظيم لزوجتي لتكريس عملها الشاق على الآلة الكاتبة ولكثير من المساعدة والتشجيع بطرق أخرى . وبالنسبة للخريطة التي ترافق هذا المجلد ، ولا يمتنعني التواضع من أن أزيكها للقارئ كأحد الإسهامات الكبرى التي يعرف بها الإنسان عالمه المعاصر ، فإنني لا أستطيع أن أعبر بصورة كافية عن عميق امتناني للسيد هـ . ف . مايلن من الجمعية الجغرافية الملكية ، ولا أستطيع كذلك أن أخفي أسفي البالغ لأن الاعتبارات المالية قد حالت دون طبعها ونشرها على مقياس رسم يوضح كافة التفاصيل الواردة برسمه الأصلي . ولتحديد الإحداثيات الجغرافية لعدد هائل من المواقع والأماكن التي استطعت أن أدون فيها ملاحظات فلكية فإنني مدين في المقام الأول للثيودولايت القديم ، والذي انهار تماماً تحت ضغط كثرة العمل وهو الآن قد أحيل للتقاعد بشرف وكرامة . وفي المقام الثاني فإنني مدين لتلك المحطات الإذاعية التي جعلتني أتحقق من الوقت الصحيح ، وخاصة الموجودة في القاهرة والقدس ، والتي كانت أحياناً تختلف فيما بينها حول هذا الموضوع ، وأخيراً للدكتور . إل . جي . كومري وفرقه ، وكلها نجوم لامعة - من الحاسبات البشرية والآلية البشريين والآليين الذي يملكون ، أو هيؤوا ، براعة ممتازة في تشخيص تفاصيل أنشطتي تحت ستار الليالي العربية ، وكانوا قادرين بدرجة فائقة على تحديد مكاني كل ليلة بكل دقة حتى إنه لا يمكنني أن أزعم وجودي في موقع آخر . وكالعادة أدين للمتحف البريطاني بالشكر لتشجيعه الدائم لمجهوداتي واهتمامه الفعال بتنظيم وترتيب ما جمعته من معلومات .

وفي هذه الظروف من المثير للأشياء أن نذكر الأفراد . ولكن لا يمكن أن نترك البعض دون ذكر أسمائهم . فبالنسبة للحيوانات الثديية والمعادن الموجودة بالجزيرة العربية فقد ألقى السادة تي . سي . إس . موديسون - سكوت ، وبـ . إم . جايم على التوالي فيضاً من الضوء الجديد بعملهم حديثاً في جميع المراجع المتوفرة ومنها المواد

التي قدمتها أنا. وقد استطاع الدكتور إل. آر. كوكس بالتأكيد أن يستفيد قليلاً من المعارف عن الحفريات العربية. وقد قام السيد جي. رامبوتوم والسيد هـ. و. باركر فوراً بتحديد النباتات والزواحف على التوالي، وفي يوم ما سيكون السيد بي. بي. يوفاروف جاهزاً بعمل تذكاري رائع عن جنادب الجزيرة العربية عندما ينتهي من العثور على الأسماء الصحيحة للأجناس التي ما تزال تنهال عليه من الصحراء وما جاورها. ولكن «غرفة الطيور» تحتل مكانة الفخر في قلبي وعواطفني، لأنني بقيت سنوات حتى الآن أعمل في تحالف وثيق مع السيد ن. ب. كنير والسيد جي. إل. بيتس للهجوم المستمر على طيور الصحراء، ولم نحرز حتى الآن نصراً كاملاً وهو هدفنا المشترك الذي نبغي تحقيقه. وفي الوقت نفسه يوجد لدى السيد بيتس عمل شامل عن طيور الجزيرة العربية جاهز للطبع، وأستطيع فقط أن أعبر عن خالص تمنياتي بأن ينشره قريباً.

ولم يبق إلا أن أزيح الستار عن حكايتي، مع التعبير عن تقدير خاص للسيد أ. ف. ل. بيسون من كنيسة المسيح في أكسفورد الذي سوف يختتمها بملحق عن النقوش التي أوردتها من أرض سبأ.

هاري سانت جون. بي. فيلبي

مكة المكرمة - ١٩٣٨ م

الفصل الأول

التكوين

فيلبي، (الحاج عبدالله فيلبي) خبير الصحراء ومراقب بريطانيا العظمى قام بزيارة هذه المنطقة بغرض معين وهو جس نبض الشخصيات المحلية. وجاء من بعده السيد "انجرامز" وهو من كبار المسؤولين في عدن الذي استطاع أن ينتهز الفرصة السانحة في الخلافات بين السلاطين ورؤساء القبائل لكي يوسع سيطرة حكومته على هذه الإمارات.

مجلة الشرق الحديث

نوفمبر ١٩٣٧م

إن الأشياء ليست دائماً كما تبدو !!! وقد يكون من المفيد في بداية قصتي أن أشرح كيف أن رحلتي عبر أرض سبأ الحاملة قد تحققت تقريباً بسلسلة غريبة من المصادفات الرائعة. وكانت مساهماتي الشخصية الوحيدة في تلك العملية هي ما اعتدتُ عليه من عادة، نَمْتُ عُنْدِي من إقامتي لما يربو عن عشرين عاماً في الأراضي العربية، التنقل والترحال المستمر بحثاً عن مراع جديدة. فلقد كنت دائماً متأهباً لمجابهة أي طارئٍ بأكبر قدر من الاستعداد مثل أي عرض يقدمه رجل واحد ويمكن اعتباره بالمقاييس الحديثة مجهزاً تجهيزاً جيداً للاستكشاف. بيد أن الربع الخالي كان يبدو كما لو أنه تاج ملائم لي بإحكام، وهدفٌ لطموحاتي كمستكشف. وكنت في الحقيقة أكثر من مستعد للتقاعد بشرف والخروج من الساحة. فقد أتى عليَّ حين من الدهر -بعد هذه المغامرة بلغ مني فيه التعب مبلغاً. كما أن الجزيرة العربية- وهذه حقيقة واقعة- لم تكن قد استنفذت بكل الوسائل كميدان للاستكشاف. وحين وقت اشتراك معشر الشباب في تلك المهنة. علاوة على ذلك، وكما لم يقصر أصدقائي في

الإشارة إلى ذلك بابتسامات متعاطفة، فقد أدى ما عُرف عني من ارتباطي الوثيق بصداقة ابن سعود إلى تضيق مدى تحوالي. ولقد كانت هناك أجزاء من الجزيرة العربية لم أحلم قط برؤيتها، منها اليمن وحضرموت وغيرها الكثير. ويبدو أن أصدقائي، مثل معزّي أيوب كانوا يعلمون عما يتحدثون. فليس هناك من داع للقلق بأي حال. هكذا كنت أرد على أصدقائي بابتسام.

وفي ١٩ ديسمبر ١٩٣٥م تم إيداعي رسمياً على رف أعمدة جريدة «بريطانيا العظمى والشرق». وكانت المناسبة مع إعادة إصدار، ربما للتعبير بلطف عن التذكير، بكتابي عن الربع الخالي، حيث قال كاتب المقال المجهول في ملاحظته ما يلي: - إننا قد نلاحظ هنا أنه على الرغم من احتمال انتهاء أيام استكشاف السيد فيليبي، إلا أنه لا يوجد أي سبب يجعلنا نفترض أن عصر تأليفه للكتب قد انتهى أيضاً. ولن يكون من المدهش حقيقة أن يقوم بإصدار مزيد من الكتب في الوقت المناسب من مأواه بمكة. هذه الملاحظة كانت ستثير مثيراً نفسه حتى يتخذ عملاً ما. ويبدو أن هذا الكاتب يعلم ما يتحدث عنه. ومرة أخرى، وبعد حوالي أسبوعين من قراءتي لهذا الإعلان الودي، تبسّمت وأنا أشارك مع زوجتي وحدثنا، سرّاً، سوف يضع نظرية مرضي أو عجزني موضع الاختبار بالتمام. وفي الحقيقة قبل أيام قليلة من نشر هذه الكلمات في إنجلترا كنت أنا وزوجتي وكلانا على أعتاب الشيخوخة، قد وصلنا جدة في نهاية رحلة ذهاب وعودة، عظيمة، وبالتأكيد فريدة، من جدة إلى لندن، والعودة بالبر عبر ثلاث قارات. والحقيقة أننا قمنا بهذه الرحلة بالسيارة، ولكننا لم نكن أول من استخدم هذه العربات للاستكشاف. وكان الجزء العربي من الرحلة - وهو أول عبور لامرأة أوروبية لشبه الجزيرة وآخر مرحلة في رحلة العودة من دمشق عن طريق الجوف وحائل وبريدة إلى الرياض - قد وفر لنا فرص الاستكشاف الجغرافي. وكان الباقي مجرد سفر عادي، على الرغم من أن السفر على طرق الأناضول وفي ليبيا قبل أن ينفذ موسوليني الطريق السريع كان قاسياً ويحتاج إلى براعة فائقة

مثل أي تجوال بالصحراء. وبالتأكيد لم أشعر أنني عاجز (بسبب الشيخوخة) كما يبدو أن الناس يعتقدون أنني يجب أن أكون كذلك.

ولكن الشباب كانوا قد بدؤوا يظهرين على الساحة ولم يعد عبور الجزيرة العربية بالعرض يمثل موضوعاً يثير العجب أو يلفت الانتباه والملاحظة. وقد تعرضت المساحات المجهولة من شبه الجزيرة لمحاولات الاكتشاف من أطرافها. كما أن الطائرات -وقد نفذ صبرها من خطوات الإبل البطيئة منذ العصور القديمة- وتزدي قليلاً حتى السيارات، كانت قد أنتجت بالفعل خرائط تصويرية لمناطق هائلة. بل إن النساء، اللاتي بقين في مكانهن الصحيح حتى الآن طبقاً لأحكام الفروسية والشهامة العربية القديمة، قد بدأن في غزو ميدان الرجال. فقد وصل ما لا يقل عن ثلاث نساء إلى حائل مؤخراً اقتفاء لأثر الليدي آن بلانت وجيرترود بيل وزارت ثماني نساء أوروبيات الرياض أنفسها، التي لم ترها أي مستكشفة من النساء قط قبل العقد الحالي. والآن ظهرت نجومات جدد في الجنوب يتحددين مجد السيدة ثيودور فنت الذي ذُبل. ولن أتحدث عن الأولى، السيدة إنجرامز التي خبأت بريقها حتى الآن تحت غطاء شهرة زوجها. والثانية كانت «فرايا ستارك».

وفي ١٦ ديسمبر ١٩٣٥م، أي قبل نشر الملاحظات المذكورة أعلاه في جريدة «بريطانيا العظمى والشرق» بثلاثة أيام فقط كانت «فرايا ستارك» تسحر مستمعيها في «الجمعية الجغرافية الملكية» بوصف زيارتها لحضرموت. وأشار السير بيرسي كوكس -الذي كان يترأس الاجتماع بصفته رئيساً للجمعية- إلى هذا البلد بأنه «هو المنطقة الواقعة شرق محمية عدن في جنوب الجزيرة العربية، حيث لم يصل إلى هناك حتى وقتنا الحاضر إلا رحالة قليلون نظراً لاعتراض الشعب على دخول الأجانب بلدهم». وبعد المحاضرة ذكر العقيد إم. سي. ليك السكرتير السياسي لعدن ملاحظة قال فيها: «لا أعتقد أنه من المعروف بصورة عامة أن حضرموت تشكل جزءاً لا يتجزأ من محمية عدن. وأنتم ترونها تظهر على الخريطة خارج المحمية بعيداً إلى الشرق...».

وسوف أحتفظ بملاحظاتى على هذا الخلاف الابتدائي وأضعها بمكانها الملائم في هذا الكتاب. وما يهمنى أكثر في هذه المناسبة هي الملاحظات التي أنهى بها السير بيرسي كوكس هذا الاجتماع المهم وهو يهئ فريبا ستارك على مجهودها الشجاع - على الرغم من أنه ليس ناجحاً - للوصول إلى شبة. وقال: «بالنسبة لي تعد رحلة من «المكلا» على طول المنطقة الداخلية، وعبر الحدود الغربية للجزيرة العربية الكبرى حتى الطائف رحلة رائعة من الرحلات، في ذلك الجزء الوحيد من شبه الجزيرة العربية الذي لم يُكتشف بالكامل». وكان السير بيرسي كوكس يدرك بالتأكيد عما يتحدث. كما أنه كان يعرف تمام المعرفة، قبل أن يتوفى وهو فوق السرج بعد ذلك بأربعة عشر شهراً فقط، أن الرحلة نفسها التي كان يتصورها في تلك الكلمات قد تم إنجازها كما يجب. ولكن أيام رئيسي القديم خلال الحرب في ما بين النهرين لم تطل لسمع التفاصيل الكاملة لتلك المغامرة، وقد كان سعيداً لعلمه أنه تم إنجازها بشخص اختاره هو بنفسه لأداء خدمة خاصة في الجزيرة العربية قبل عشرين عاماً^(١).

وملاحظاته التي قيلت في هذه المناسبة، ولم أعلم بها حتى مارس التالي، لم يكن لها أي ارتباط أو تأثير بأي حال على خططي. وفي الحقيقة قبل أن يقال تلك الملاحظات كنت أنا وزوجتي قد وصلنا إلى الرياض في ١٠ ديسمبر أثناء رحلة عودتنا من إنجلترا التي ذكرتها سابقاً. وفي اليوم التالي لوصولنا استدعاني الملك عبدالعزيز لمقابلة خاصة، وسألني: «هل تود الذهاب إلى نجران؟» فأجبت: «في الحقيقة نعم». فواصل كلامه قائلاً: «حسناً، سوف تذهب وهناك الحدود الجديدة التي سيتم ترسيمها بالخرائط. سوف تذهب عندما يكون الوقت ملائماً. سأكون أنا في مكة للحج.

(١) يشير فيليبي هنا إلى أول مهمة قام بها إلى داخل الجزيرة العربية في عامي ١٣٣٦هـ - ١٣٣٧هـ التي نشر تفصيلاتها في التقرير الذي كتبه عن الرحلة وقام الدكتور عبدالله العثيمين بترجمته ونشره بعنوان: بعثة إلى نجد. لمزيد من التفصيلات عن الرحلة انظر:

عبدالله الصالح العثيمين، بعثة إلى نجد، الرياض ١٤١٨هـ. (المراجعون).

وعندما أنتهي من عملي هناك سوف تأتي معي إلى عشيرة. ومن هناك ستبدأ رحلتك. جهز نفسك للرحلة. متى تذهب لجدّة؟». فقلت: «غداً». وشكرت له عطفه الكريم وترك المكان وخرج. وبعد ذلك جاء الحجاج وذهبوا، وانهمك الملك في الشؤون المترتبة على ذلك. وكنت أراه كل يوم، أتناول معه الغذاء والعشاء كالعادة يومياً، وأحضر جلساته في الصباح وبعد الظهر والمساء. ومضى مارس حتى إبريل، وأوشك أبريل على الانتهاء. ولم ينس كلانا بنت شفة عن الاتفاق الذي عقدناه بالرياض. وسارت الاستعدادات لرحيل الملك على قدم وساق. وفي اليوم السابق لرحيله للإقامة لمدة شهر في مخيم بعشيرة استدعاني إلى جواره وسألني: «هل نسيت؟» فقلت: «لا» فقال: «هل أنت مستعد؟» فأجبت: «نعم» فأردف: «سوف نركب لعشيرة غداً إن شاء الله». وبقى هناك، لمدة شهر، مع زيارة متقطعة لمكة وجدة. مكثت في المدينة المكونة من الخيام العظيمة بين سكانها البالغ عددهم ٤٠٠٠ شخص. وكانت هذه الأيام مثيرة مفعمة بالحياة والنشاط أيضاً والعالم يمر بمخاض ميلاد إمبراطورية جديدة. وكان المذيع (الراديو) يفيدنا بالأخبار أولاً بأول. وجاءنا سقوط أديس أبابا وبالتالي ضم أثيوبيا للإمبراطورية الرومانية كقصف الرعد في عاصفة تستجمع قواها. وساد شعور بقوة القضاء والقدر على مخيم الملك، ولكن الشؤون اليومية سارت كالمعتاد. وبعثتي لم تغب عن الأذهان. ففي أحد الأيام سألتني الملك عن البرنامج التقريبي لرحلتي المقترحة. فقلت: إنه يكفيني فترة خمسة شهور، منها نزهة في الربع الخالي بحثاً عن حيوان البقر الوحشي (Oryx)، على أن يبدأ سير الرحلة على مهل من الطائف عبر المرتفعات إلى أبها. وبناءً على اقتراح الملك تمّ تأجيل هذا البند لوقت آخر لصالح إنجاز تقدم سيرتي بالسيارة نحو أبها. وقال الملك: «لن تضيع وقتاً في الوصول إلى نجران. فهناك بعثة من الرجال المتعلمين من مصر موجودة الآن باليمن. وطلبوا تصريحاً للدخول لبلدنا عبر نجران وقد منحهم إياه. وسوف يكونون أول من يصل هنا إذا تلكأت في الطريق». وحيث إن الحدود سيتم ترسيمها في خرائط عبر

التلال الوعرة بعسير وتهامة فقد تم تخصيص معظم الوقت المتوفر بطريقة غير مؤكدة لنجران. وبعد ذلك أحال صاحب الجلالة البرنامج -بعد التعديل- إلى بعض وزرائه لإبداء ملاحظاتهم. ومسألة احتمال رفع دعوى مطالبة من قبل التابعين لي ضد الحكومة في حالة وفاتي أثناء البعثة تم التغلب بسهولة عليها من خلال توقيع خطاب رسمي بالتعويض. وقبول الهدف العام لرحلتي، الصيد، والاستكشاف، ورسم خريطة الحدود، بالرضا والقبول من الجميع. ومع ذلك - على كل حال - ثار اعتراض -مبني على حق تماماً- على الأمور المالية. وبدون استشارتي قرر الملك أن يتم تمويل بعثتي من قبل الحكومة، التي طلبت بصورة معقولة تماماً، ما دامت قد وافقت على التمويل من حيث المبدأ. تقديراً للمبلغ المطلوب على الأرجح. وذات صباح أرسل الملك في طلبي لمناقشة هذه الأمور، وسألتني: «كم ستحتاج من النقود؟» فأجبت: «لا شيء، فعندي كل ما أحتاج إليه، ولا أريد لرحلتي أن تورط الحكومة في أي تكلفة مالية. فلو كنت ذاهباً إلى أوروبا لكان لزاماً عليّ أن أنفق مبلغاً معيناً من المال. هذا المبلغ سوف يكفي للوفاء بنفقتي في هذه الرحلة».

وكان عندي من الأسباب الشخصية الجادة ما يجعلني أرفض أن أورط الحكومة في أي مسؤولية محددة عن بعثتي. إن تمويلها قد ينطوي ضمناً على مثل هذه المسؤولية، وكان وزير المالية على الأقل مسروراً بعدم اضطرابه لتوفير أموال لأبذرها. كما كانت وزارة الخارجية البريطانية لديها من الأسباب الكافية في حينه لتبارك بُعد نظري. ولتلطيف الأجواء وتسهيل الأمور ترك الملك هذا الأمر ينتهي حيث استقر الرأي. وقدم وزير المالية عرضاً بصورة سخية حيث قبلت عربة (لوري) لتحمل الإمدادات الضرورية من المواد البترولية التي لن نجدها بالطريق إلى أن نصل نجران. وكان المخيم قد تم إقامته يوم ١٩ مايو، وبدأ الجزء الأعظم من الموكب رحلته متجهاً نحو الرياض مباشرة، بينما مضى الملك مع جماعة صغيرة فقط إلى الآبار المحدثه القرية ليملك هناك ليلتين.

ومن هناك بدأت مغامرتي في صباح ٢١ مايو^(١). وعندما ذهبت للاستئذان من الملك وجدته يُعَلِّي خطابات لأحد سكرتارته الخاصة. وكانت موجهة إلى عدد من الحكام والمسؤولين المحليين الذين تقع مدنهم في طريق رحلتي، وكانت تحتوي على أوامر موجزة ومهذبة لعمل كل ما يقدرُونَ عليه لتعزيز رغبتِي وسُروري. وسألني الملك: «أهذا كل ماتريده؟» فأجبت: «نعم هذا كل ما هناك» وأضاف قائلاً: «إذن على بركة الله !!» وهذه عبارة معتادة للإذن ببدء رحلة ما من الرحلات ثم واصل قائلاً: «ولكن قف !! هل عندك أي نقود؟» فأجبت: «كثيراً» فنظر لي نظرة فيها شيء من الشك وألح في السؤال: «كم من النقود معك؟» فأجبت: «مائتا جنيه من الذهب ومئات قليلة من الريالات». فقال: «هذا شيء طيب» ثم التفت إلى سكرتيره وأردف: «إنه معتاد على بدء الرحيل وليس معه شيء، وينسى أنه، حتى إذا استطاع أن يعيش بالكفاف أن رفاقه لا يستطيعون ولن يفعلوا». ولقد شعر بالتأكيد بكل راحة عندما تيقن أنني قد ادرخت بعض المؤونة للطريق. وإذا كنت خالي الوفاض لكان قد أصرّ عليّ أن آخذها من مخصصاته الشخصية. وكان عندي بالطبع تصريح للحصول على مبلغ من المال من حين لآخر من خزانة الحكومة في طريقي مقابل فواتير تُرسل إلى جدة. وعلى أي حال فقد كانت موافقة الملك على دعمي مادياً بمثابة ملاك يحرسني طول مغامرة لا يمكن التنبؤ بمجراها. وبدونها لم أكن أستطيع بدء رحلتي أبداً أو أنني لن أرجع منها أبداً.

وعندما ذكر صاحب الجلالة هذا المشروع لأول مرة بالرياض في ديسمبر برز في ذهني عاملان اثنان فوراً وبصورة تلقائية كأساس لمشروعي. ويطيب لي أن أقول: إنني حتى هذه اللحظة لم أفكر أبداً أن تكون هذه الرحلة في حدود الممكن - ناهيك عن احتمال تنفيذها. ولكن ذكر الملك لنجران جعل عقلي يتخيل صورة أراض قصية

(١) ٢١ مايو ١٩٣٦ الموافق ١ ربيع الأول ١٣٥٥ هـ. (المراجعون).

ونائية. لماذا لا يجوز أن يكون هناك أي نهاية لمثل هذه الرحلات والجولات إلى «أقصى الشمال» نفسه؟ وكنت أعلم طبعاً من قبل أن فريبا ستارك قد فشلت في الوصول إلى شبوة، وأعلنت أنها في كامل عزلتها وقوتها. وأنا نفسي كنت قد أتيت للرياض من عرض البحر المتوسط. وكنت بالفعل على مقربة من المحيط الهندي، وتقع شبوة في مكان ما على طريقي. وعلى نطاق متضاعف في خيالي أبعاد اقتراح الملك، ولكنني لزممت جانب الحذر حتى تظل مثل هذه التخيلات لنفسي فقط، فلربما ثبت أنه لا يمكن تنفيذها بالكامل، وإذا أخفقت في الوصول لشبوة يمكنني دائماً أن أظهار بأنني لم أنو ذلك أبداً. وعلى أية حال أصبحت شبوة النجم الهادي الذي أرنو إليه سراً منذ تلك اللحظة. ومن هناك كانت حضرموت - بمدنها التي تناطح السحاب - لا تبعد إلا مرمى حجر. ووراءها بمسافة غير بعيدة كان هناك البحر يومئ إليّ ويدعوني بإغراء - ولم يُعرف حتى الآن أن كائناً بشرياً قد سار براً من البحر المتوسط حتى المحيط الهندي، وهكذا سأكون أول من يفعل ذلك.

وفي نطاق هذه الحدود القصية التي نشأت في أحلامي كان هناك ما يكفي لإنجازه في الوعي. إن نجران نفسها قد زارها ذات مرة رجل أوروبي، وهو فرنسي يدعى جوزيف هاليفي^(١) منذ ما يقرب من سبعين عاماً. كما أن الحدود الجديدة بين اليمن والمملكة العربية السعودية التي تم مؤخراً فقط الاتفاق عليها وترسيمها من قبل لجنة مشتركة لم توضع على الخريطة. كما أن الجبال الشاهقة التي تحيط بنجران، وكذلك الهضاب المثيرة لعسير كانت أرضاً مجهولة. ووراء نجران يمد الربع الخالي غطاء الرمل حتى عتبة اليمن نفسها. ولم تعبر سيارة حتى الآن تلك الرمال الرهيبة، وفي مكان ما على طول حافتها سوف أتبع الحدود الطبيعية، وأقرب من ذلك على

(١) جوزيف هاليفي. أستاذ الدراسات العليا بالسوربون، له رحلات في جنوبي البلاد العربية، وزار اليمن سنة ١٨٦٩م في ذي يهود اليمن، وزار نجران أيضاً وجمع أثناء رحلته ٦٨٦ نقشاً من كتابات قديمة، نشر ترجمتها وعلق عليها في المجلة الآسيوية. توفي سنة ١٩١٧م. عقيقي، المستشرقون ج١، ص١٩٩. بدول، الرحالة الغربيون، ص١٥٦. (المراجعون).

الجانب الثاني من نجران يقع وادي حبونا^(١)، وهو أرض غامضة لم ترها عيون أوروبية قط. وأقرب من هذا وذاك تقع أودية تثليث المجهولة، وخميس مشيط في وادي بيشة، وأبها المدينة المشهورة في شمال عسير التي لم يزرها أي أوروبي على الرغم من أنها معروفة بصورة كافية للأتراك. كل هذا إقليم بكر سوف أراه في جولاتي القادمة - وسوف أملاً عيني بكل شبر منه. وكان مجال الرحلة هائلاً في إمكانياته. واحتمالات إنجازاتي لا يمكن أن تقاس إلا بأبعاد حائلة. ومع ذلك، وفي الحقيقة المائلة للعيان وأنا في حالة الوعي فإن نتائج رحلتي الممتدة لتسعة شهور مقابل الخمسة التي كانت مقترحة لبرنامجي - قد تجاوزت تقديري الأول المتفائل بقدر عظيم.

وكان هناك إمكانية واحدة فشلت تماماً في وضع احتمال لها، وهو احتمال لم يظهر أبداً في حدود مجال رؤيتي، ألا وهو «علامات الشرف والرفعة لمدينة ضبابية في الفضاء والنور». فلم يدر بخلدي أبداً أنه، بالإضافة إلى شبة ستكون أرض سبأ أو أرض أز ضمن نطاق تجولي. وقد وضعت الظروف كليهما في متناول يدي، ليتوجا معاً قمة موضوع هذا الكتاب، ويقدم لي عنوانه. فسوف أرى في الحقيقة بنات سبأ، وأهمهم مدينة مأرب نفسها، التي لم تعد جميلة كما كانت في الأيام الحالية، إذ أصابتها التجاعيد بفعل الزمن والإهمال، مهجورة بين الفياقي والقفار، أشلاء ممزقة لاسم كان عظيماً ذات يوم، وتتأمل بوهن وضعف في الكنوز الدفينة من تاريخها التليد. ولكن من خلال كنوزها ويوسها الحاضر استطعت أن أستشف الروح الرائعة لمجدها العتيق. وسوف أرى البقعة نفسها التي تجلس عليها «الملكة» العظيمة التي ما زالت تذكرها الروايات في ثلاثة أديان سماوية عظيمة على الرغم من أن التاريخ قد نسيها أو لم يكتشفها بعد، بكل حليها وزخارفها ذات الروعة الإمبراطورية الفاتنة، وجماعة

(١) حبونا: واد يعد أكبر واد في المنطقة بعد وادي نجران، واسمه القديم حبونن، وينطق الآن حبونا والبعض يسميه حبونه (بالهاء)، وهو خطأ، وحبونا الآن محافظة تابعة لمنطقة نجران. أشار البلادي إلى بعض قرى حبونا وروافد واديه. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ٢٠٦-١٩٩. (المراجعون).

الفيلة، وسرايا حملة الرماح، ومظلة الهدهد الذهبية والسوداء لتظلّها من وهج شمس الصحراء أثناء رحلتها الرومانسية للملك سليمان. وسوف أسير أيضاً في طريقها، طريق الفيل، ممتطياً مركبة حديدية لم يُر مثلها في أرض سبأ حتى وقتي هذا. إن رحلتها، قد تكون في الحقيقة منافسة لرحلتي أنا كأول رحلة محفوظة أو مدونة لعبور الجزيرة العربية بالطول. والشخص الثالث الآخر الذي يحتمل أنه قد فعل الشيء نفسه هو إيلوس جاللوس الذي أرسلته الإمبراطورية الرومانية بعد عهد هذه الملكة بألف عام لضم أراضي البخور للإمبراطورية. ولكن جاللوس - الذي كان مصرأ على تدمير الاكتفاء الذاتي الاقتصادي لبلاد العرب السعيدة، لم يصل إلى أبعد من، حسبما يخبرنا بليني، كارتا (وربما تكون خريات أو خربة أبي السعود)، وفقد معظم جيشه في رمال الصحراء الكبرى أثناء رحلة عودته المشؤومة^(١). ومن ناحية أخرى، يعتقد أن بلقيس كانت على دراية كافية بالبحر الجنوبي، ويبدو أنها قابلت سليمان في تدمر. ومن اللطف في الحكم على الناس أن نفترض على الأقل أنها، مادامت قد وصلت إلى هذه النقطة البعيدة، لم تولّ ظهرها عائدة دون أن تلقي نظرة على البحر الداخلي، وربما قامت بزيارة ابن عمها، حرام (Hiram) ملك صور. وهكذا تظل بلقيس منافستي الوحيدة^(٢). والنظرة التي اختلستها على بيتها قد أثارت في شعوراً ودياً

(١) كانت حملة إيلوس جاللوس، سنة ٢٤ ق.م، واعتمد في دخوله الجزيرة العربية على حلفائه النبط ووصلت هذه القوة إلى نجران واستولت عليها ثم تقدمت جنوباً إلى مأرب، ولم يجد مقاومة في طريقه ثم حاصر مأرب ولم تسقط في يده حصاناتها، مما دفعه إلى العودة على أعقابها، وقد كانت حملة فاشلة لم تحقق أهدافها في احتلال بلاد العرب السعيدة مصدر التجارة والثراء في العالم القديم. انظر بافقيه: تاريخ اليمن القديم ص ٧٤-٧٧. (المراجعون).

(٢) من خلال هذا الكتاب ستلاحظ أن المؤلف يخوض في بعض الأحيان بالحديث عن سليمان - عليه السلام - وعن بلقيس. ولسنا بحاجة للتنبيه إلى أن فيما يذكره الكثير من المغالطات التاريخية أو الدينية لاعتماده في ذلك على الأساطير أو الروايات الإسرائيلية. وما نعتقه ونعتمد عليه مصدراً موثقاً في هذا الجانب هو ما ذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأنبياء وأتباعهم. (المراجعون).

نجاه شخصيتها، واهتماماً غريباً بحياتها الخاصة. وتقدمها التقاليد لنا، طبقاً لانحيازها المحلي، على أنها الجدة الأعلى لاثنتين من الأسر الحاكمة، واحدة قد انقرضت منذ زمن طويل، والأخرى قضى عليها الغزو الأجنبي. والقصة العربية تغند مزاعم الأثيوبي. وهذا الأخير يكذب الشرير وينكر همس الفضيحة الذي أعطاه مادتها. وحافظت أوروبا في العصور الوسطى أو اخترعت رواية مغايرة للقصة والتي تميل إلى تفنيد قصة بأخرى، وتطعن في زعم الأثيوبي بالانتماء إلى أصل سبئي. ويتقابل الشرق والغرب في قياس حكمة سليمان المشهورة أو ينكر احتمال وجود علاقة بينه وبين قوم سبأ. ولا يقدم الشرق إلا دليلاً مروياً لروايته التي جاءتنا عبر مئات الأجيال من المستمعين "للإذاعة العربية" وهم الرواة، أما الحكاية الغربية فقد كانت مكتوبة في الحجارة، وبقيت حتى يومنا هذا تتحدى أي ترجمة دقيقة لها.

إن هذا اللغز يمكن أن يكون ممتعاً إلى حد كبير لمؤلفينا الذين يشتغلون بقصص الخيال البوليسية، ناهيك عن قادة الشرطة الأكفاء في إسكوتلنديارد الذين يضحك الناس عليهم أحياناً. ويعود الفضل لاثينا نفسها، التي كنت أستغيث بها أثناء حيرتي بمجرد أن وطأت قدمي عتبة سبأ، بمعرفتي بالإجابة. فمثل كلب بوليسي سري، أو ربما بالأحرى مثل كلب سلوقي جميل من صحرائي، كانت اثينا تلاحق هذه الأحجية عبر الوثائق الترايبية في جبال الأوليمب. وهناك وجدت مفتاح اللغز - مفتاح سر سبأ - مختفياً بعيداً في سجل أحد المباني غير معروف ولم يعد له وجود للأسف. ولا يمكنني أن أفعل شيئاً أفضل من إيراد القصة كما هي بالفاظ مؤلفها - إميل مال حيث يقول:

"ولكن على بوابة سانت - بنين في ديجون . . . التي لم تعد موجودة اليوم - إلا أن دوم بالنشير احتفظ لنا بالصورة التي كانت عليها . . . يكتمل الزخرف (أي زخرف البوابة) بوجود ثلاثة تماثيل للملك توراثين وتمثال لملكة. وهذه الملكة

الغامضة ستكشف لنا هذه المرة عن سرها. بدراسة الرسم الخاص بهذه الملكة يلاحظ المرء أمراً كان من الصعب أن يصدق له لولا أن الشواهد القديمة كانت تؤكد: فالملكة المرسومة على بوابة سانت - بنين كان لها قدمي أوزة. هكذا صورَ فنان ديجون هذه الملكة الشهيرة التي لم تكن سوى ملكة سبأ.

لفترة طويلة من الزمن نسج الخيال اليهودي كثيراً من القصص حول ملكة سبأ. في الشرق نُسجت حولها قصص أسطورية خيالية.

بكل هذه الملاحظات الطريفة أترك سر ملكة سبأ للآخرين يتصارعون فيه. وبينما كنت أجهز لبدء الرحلة فقط أعطيت وصفاً لكيفية تكوين رحلتي مع فصل إضافي عن نتائج ما جاءني من إلهامات أثناءها - البداية والنهاية لسيرتي مع سبأ. ولذلك لم يبق إلا أن أنغمس في صميم الموضوع مع تصوير موجز لبيانات خروجي الذي، كما سيرى القارئ في الفصل القادم، يبدأ على نحو مفاجئ وغير متوقع، بقدر ما يتصل الأمر بهذا الكتاب - في نجران، بعد أكثر من ثلاثة شهور من افتراقي عن الملك في آبار (المحدثه) وربما كان هناك كتاب آخر يصور يوماً ما الطريق على حدود اليمن عبر المرتفعات العالية إلى البحر الأحمر بالقرب من ميدي ومن هناك عبر طريق الساحل مروراً بتهامة التي كانت مزدهرة يوماً ما إلى مكة المكرمة. وفي عام ١٩٣٢م عندما جئت من الربع الخالي حتى وادي الدواسر وبيشة عدت إلى مكة بطريق الفيل الذي ذكرته من قبل ولذلك -في هذه المناسبة- آثرت أن أسير في طريق السيارات العادية. ومشيت في دائرة واسعة، بدأت أولاً بالاتجاه للشرق خلال واحة الحرمه، ثم صوب الجنوب بطريق وادي رنية إلى بيشة حيث أخذت طريق الفيل من هناك مرة أخرى. وحتى بيشة، لم تكن المنطقة التي مررت بها معروفة لأي فرد من البشر غيري. فقد غطت رحلاتي عام ١٩١٧م و ١٩٣٢م و ١٩٣٤م معظم هذه

الأرض ونتج عنها رسم خرائط لها. وكانت بيشة ورنية بالإضافة إلى زيارتي لهما، قد زارهما رجل ألماني في عام ١٩٣٠م يُدعى ليوبولد فايس^(١) والذي لم يكن على أي حال مجهزاً بطريقة مناسبة للعمل الجغرافي الجاد، ولم ينشر في حدود علمي أكثر من بعض الرسومات الصحفية البسيطة لرحلته في هذه الأضلاع. وأجد لازماً عليّ أن أذكر أيضاً أن السيد لاركن وربما آخرين غيره من «شركة التعدين العربية السعودية» قد تفحصوا المرتفعات في جنوب الطائف حتى صغير وجحيفة شمال - غرب بيشة في عام ١٩٣٦م بحثاً عن الذهب. وعلى أي حال لم ينشر وصف أو تُرسم خريطة لهذا الجزء الشيق من الاستكشاف.

وفيما وراء بيشة، عبر خير الجنوب وخميس مشيط إلى أبها ومرتفعاتها التي تكسوها الغابات، ومن هناك بطريق أودية تثليث حتى حبونا ونجران كانت تلك المنطقة لم تستكشف بالكامل بعد وإن وجدت لها خرائط على الإطلاق، فهي من نسج الخيال الذي يعتمد على دليل سماعي من الدرجة الثالثة. ومن المدهش حقاً أن الأتراك، الذين لهم باع طويل في الاحتلال العسكري والإداري لأبها، لم يفكروا أبداً أنه من المجدي أن يعدوا خريطة معقولة لمنطقة عسير. والمشكلة هي أن الخرائط ليس لها قيمة نقدية إلا في زمن الحرب. والخرائط الحبشية - مهما كانت سيئة - كان لها رواج طيب في عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦م عندما كانت أجهزة المذيع والصحف تعج بالزينات الأثيوبية. أما الخرائط العربية فما زالت تشكل الاهتمام عند الخبراء الواعين،

(١) ليوبولد فايس (١٩٠٠-١٩٩٢م) مستشرق نمساوي وليس المانياً أسلم وتسمى بمحمد أسد كتب عدداً من الدراسات معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وترجم صحيح البخاري، وله كتاب الطريق إلى مكة وكتاب الإسلام على مفترق طرق وغيرهما. انظر: العقيلي، المستشرقون، ج٢، ص٢٩١، (المراجعون).

على الرغم من أنه كانت ستواتيهم فرص سانحة لإظهار براعتهم في عام ١٩٣٤م لو كان هناك مسرح لعمليات الحرب على الحدود اليمنية. ياله من قاتل شرير: أدعو الله أن تظل الجزيرة العربية دائماً وأبداً خالية من المشاعر التي تبدو أنها وحدها تطعن الناس في أحاسيسهم. إن الذين يستطيعون أن يصمدوا لوجبات مشبعة من الطبوغرافيا الجافة خالية من البهارات سوف يجدون الكثير من طبعي هنا. وفي نوعيته وكميته يكمن ادعائي الرئيس بالشهرة، وإذا كنت قد غفلت هنا وهناك أثناء تأدية واجبي فإنني أستطيع بالتأكيد أن أطالب النقاد بأن يغفروا لي ذلك لأنني، طول الوقت الذي قضيته كله بالجزيرة العربية - كنت أعمل بمفردي، وأشعل السراج حتى منتصف الليل «لأترك ملذات الحياة وأعيش أيام الجد والكفاح».

وقد كانت بعض هذه الأيام مليئة فعلاً بالعمل الجاد والشاق، ولكن هذا العمل الشاق كان لذيذاً وممتعاً بدرجة كافية، لاسيما في تلك الأماكن مثل نجران حيث كنت أمشي على حُطى هاليفي تماماً. مثل امرأة في عنفوان شبابها، هادئة ووداعة في تذكرها للمشاكل الماضية، ولكنها تواجه بسرور ما تبشر به أيام السلم من وعود تحت رعاية الحاكم الجديد^(١). ويمتد شريط عريض من الرمل الأبيض مثل الثلج، كخيطة حيكت به ثوب متباين الألوان فهناك الأخضر الفاتح لمروج الحلفاء يلقي ظلاله على لون الدخن الفاتح والداكن في آن واحد. كما أن هناك اللون الأخضر الداكن لأشجار النخيل التي تخفي البيوت الريفية الشبيهة بالقلاع - وعلى كلا الجانبين تنهض الأهداب العظيمة للجُرْف السوداء التي يكسو قمتها شريط وعر من الصخور الرملية ذات اللون الحمري. ولم أر شيئاً أجمل منها في جميع أنحاء الجزيرة العربية. ولن

(١) يقصد هنا - حكم الملك عبدالعزيز - رحمه الله -. (المراجعون).

أنسى أبداً مشهد ذلك الوادي الساحر وهو يتدثر بضباب الصباح أو عندما يضيء بنور خافت، في حرّ ظهيرة الصحراء أو عندما تتوهج الجبال الغرايب السود حتى تصير بيضاء براقعة في الشمس الدانية، أو تحمرّ خجلاً مرة أخرى بنعومة ورفق في أشعة الغروب المائلة، إلى أن تمسي ذات لون أبيض وأسود تحت ستار الليل. ويوماً بعد يوم ولمدة شهر الآن، وشهر آخر أثناء عودتي من أرض سبأ كنت أكحل عيني بهذا الوادي العظيم الذي ينساب عبر الجبال حتى بحر الرمال، ذلك الذي يدعى «الربع الخالي». ويوماً بعد يوم كنت أنطلع عبر النهر إلى تاج المجد التليد، إلى المباني الأثرية المهتمة لنجران.

وفي قلبي تقف نجران، عظيمة في حجمها وأهميتها. ولكن أسباب اعتقادي ذلك يجب أن تبقى حبيسة لأبوح بها في كتاب آخر. وربما يقوم الجراف ذات يوم بكشف جميع أسرار سبأ، حتى نتمكن من تقدير القيمة النسبية لمناطقها المختلفة ومكانها في تاريخ إمبراطورية طواها النسيان. وحتى ذلك الوقت نستطيع فقط أن نقترح بعض الرسومات الابتدائية لتملأ الفراغات الضخمة في الخارطة التاريخية. وعندما حان وقت ركوبي للخروج من نجران بعد هذه الأسابيع الأولى التي قضيتها تحت سقف الجود والكرم لإبراهيم النشمي أميرها^(١) - كنت قد ملأت أوراقاً فعلاً بالكثير من المواد التي يمكن فهمها واستيعابها على مهل.

(١) هو إبراهيم بن عبدالرحمن بن إبراهيم النشمي من رجالات الملك عبدالعزيز المعروفين. ولد في شقراء عام ١٣١٣هـ واشتغل بالتجارة خاصة تجارة السلاح وعن طريقها تعرف على الملك عبدالعزيز، تولى عدداً من المهام منها إمارة ينبع البحر، ونجران والخرج واستمر على مكانته حتى توفي -رحمه الله- عام ١٣٩٨هـ. للمزيد انظر: مجلة الدرعية، العدد الأول والثاني المحرم، ربيع ١٤١٩هـ، مقالة عن إبراهيم النشمي بقلم الدكتور عبداللطيف بن محمد الحميد. (المراجعون).

الفصل الثاني

الخروج

. . . هب . . . ياهيا ، هيبا ، هيا . . . ياهيا - إيب ، ها ، هيا -
إيب ، ها ، هيا - إيب ها ها هياى - ها ها إيب .

هكذا تهتف بنات ونساء يام المقدمات بالحوية والقوة، وهن يمشين بطريقة محفوفة بالمخاطر في مجموعات من ثلاثة أو أربعة على السلم الصخري عند فوهة البئر الواسعة، ثم يسحبن بكل قوة الحبال الغليظة ليرفعن الماء الذي يهب الحياة من الأعماق السفلى. ومن عمق ١٨ قامة يسحبن هذا الماء في دلو من جلود الماعز مشدودة على إطارات من الوتّل، وينشدن نشيدهن ذا النغمات العذبة عندما يسحبن الحبال، كل واحدة منهن في دورها تمسك الحبال بيد واحدة أو بكليتا يديها. هذه الحبال تجري على بكرات صنعت بالمنازل، ومثبتة على مسافات فيما بينها حول البئر على إطار خشبي تسنده أعمدة متينة. وكل جبل من هذه الحبال أطول قليلاً من عمق فتحة البئر، وبه دلو في كلا طرفيه حتى يمكن أن يتم ملء أحدهما أسفل البئر بينما الآخر يتم الإمساك به عندما يصل إلى القمة لكي يتم تفريغه في أحواض تشبه دلاء البئر ولكنها أكبر منها وموضوعة على منصات، والتي وصفت في مكان قريب. وكل منصة من تلك المنصات تحيط بها دائرة من الأغنام والماعز أو الإبل تنتظر إطفاء ظمأها بعد قضاء أيام معلومة في مراعي الصحراء التي تمتد ليومين على أقصى تقدير للأغنام والماعز وأربعة وخمسة أيام في هذا الموسم من السنة للإبل.

ولقد وصلنا بئر الخضراء العظيم قبل الظهر بقليل يوم ٢٥ يوليو، بعد رحلة يسيرة لحوالي خمسة عشر ميلاً عبر أرض صحراوية منبسطة تكسوها الأشجار القصيرة المتناثرة، من (ابن منجم) وهي أقصى قرية إلى الشرق من نجران، حيث كنا قد قضينا الليل بها. وقد انطلقت مجموعة منا بإبلها عند انفلاق الفجر، حيث خيّمَت بالفعل في

أىكة صغيرة من أشجار السط الكبيرة المتناثرة فوق البئر عندما التحقنا بها مرة أخرى. وكان الغداء جاهزاً تقريباً في مراحل تغلي تفوح منها رائحة الطعام، وفور انتهائي من ترتيب متاعي تحت الظل الكثيف للشجرة التي اختيرت لجلوسي تحتها، مشيت على مهل للبئر. وكان بعض رجالنا قد سبقونا إلى هناك بالفعل، يحدثون البنات تحت ستار عمل تريتبات للسقيا النهائية لجمالنا في اليوم التالي. ولذلك جلست معهم على سلم البئر لأستمع بهذا اللهو والمزاح. وقد كن أيضاً جميلات وبعضهن يخفن من جهدهن غير اليسير على الإطلاق، وضحكات المرح والثرثرة التي لا تنتهي. وكانت أجسامهن تنحني وتهتز فوق حافة فتحة البئر عندما كن يجتهدن لسقي حيواناتهن. وكانت ملابهن البسيطة - أحياناً - والمبللة بالماء المتساقط من الدلاء، تنم عن جمال أجسامهن بالداخل، ولم يخف وجوههن أي ستار عن أعين الرجال، فقد كن يتمتعن بحرية الصحراء أثناء تنفيذ أعمال الصحراء - مثل سحب الماء وقطع الأخشاب.

وبدت واحدة من بين النساء الحاضرات كما لو كانت ملكة وسطهن، فربما كانت بنت شيخ أو زوجة شيخ. وبوقار واضح، مثل واحدة اعتادت على القيادة، أخذت مكانها في أحد المجموعات الصغيرة لسحب الحبال تماماً مثل الباقيات، ولكنها كانت تعمل في صمت إلا في أحيان قليلة يصدر منها صوت «هيب».

كانت تتمتع بوجه وجسم جميلين، وترتدي ملابس جديدة زرقاء داكنة، مع حزام من نسيج الصوف مطرز حول وسطها النحيل في تباين مع جدائل الحبل الأسود التي كانت بمثابة أحزمة للنساء الأخريات. إن بئر الخضراء يبلغ قطرها عشرين قدماً ومكسوة بالحجارة في جميع جوانبها الداخلية حتى مستوى الماء، وتقع على الضفة اليمنى لوادي فجران وترتفع قليلاً فوق النقطة التي تخرج عندها القناة من الصخور في سفح التلال إلى رمال الربع الحالي. ولذلك تعد البشر منطقة توقف للسقيا ذات أهمية عظيمة لبدو يام الذين يجوبون الصحراء برجالهم وقطعانهم. وأثناء شتاء ١٩٣٣ - ١٩٣٤م قام الجيش اليمني، الذي احتل وادي فجران لأربعة أو خمسة شهور، بتدمير

هذه البئر لحرمان قبيلة يام المناوئة من نقطة التجميع المحتملة هذه. ولقد قامت الحكومة السعودية في الحقيقة بإعادة حفرها وإصلاحها في غضون الشهور الستة الماضية، والآن استعادت دورها الطبيعي في اقتصاد الصحراء. وتعود ملكيتها لقبيلة يام ولكن تزورها القبائل الأخرى بحرية، من أقرب الأماكن وأبعدها. حيث تأتي إليها قبيلة وائلة من وادي الفُرع المجاور، وقبيلة الدواسر من واديهم العظيم خلف الصحراء، بل وحتى قبيلة الصيغر تأتي إليه من حدود حضرموت البعيدة.

وقد وجدناه الآن منتجعا ملائماً يمكننا فيه أن نعتني بتنفيذ ترتيباتنا ومعداتنا للرحلة الطويلة إلى شبوة وما وراءها. وكان أمير نجران ومسؤولون آخرون سوف يزوروننا في اليوم التالي ليروا أن كل شيء على ما يرام وتوديعنا في رعاية الله. وفي الوقت نفسه وبعد قيلولة هنيئة في ظل أيكة كثيفة أطلقت لنفسي العنان لاستكشاف المنطقة المجاورة. وتسلفت أنا وجعل، وهو دليلي اليامي من فخذ جُشم قمة جرانيتية مستدقة الطرف تسمى الغر يبلغ ارتفاعها حوالي ٥٠٠ قدم فوق مستوى الوادي في سلسلة التلال المنخفضة التي تشكل الضفة اليمنى للوادي. ومن هنا تمتعنا بمنظر رائع للمنطقة المحيطة بنا في كل اتجاه. فعند أقدامنا يقع البئر مع مخيمنا الصغير المنظم بطريقة مريحة بين أشجار السنط. وعلى البعد تجاه الغرب ترتفع رؤوس الصخور الرملية لقرن بلحارث. وعبر الوادي بعرض خمسة أميال من هنا، تمتد سلسلة جبال شعثاء التي تشكل الضفة اليسرى وتمتد في ذيل ضئيل يكاد لا يدرك بالعين داخل سلسلة التلال الطويلة والمنخفضة والأرض الرأسية لعين حبونا الناتئة في الصحراء. ونحو الشرق يبسط الربع الخالي عباءته من الرمال الذهبية على وجه الأرض إلى الأفق البعيد. وتسير قنوات حبونا ونجران وصلة في أقصى الجنوب، خارجة من حافة المرتفعات في خط مستقيم مثل النرد أو كأشرطة خضراء داكنة وسط الرمل الذي كان يتخلله هنا وهناك مجموعات من التلال المنخفضة ذات اللون الداكن من صخور البازلت أو

الجرانيت. ويرفع كل من تصلال وتنصاب رأسيهما الشاهقين لأعلى من الجبال حولهما، كأنما يمثلان حارسين توأمين لفتحات الوادي. وعلى مسافة أبعد قليلاً إلى الشرق تبرز مجموعة تلال بني كلب المنخفضة مثل جبل جليدي أسود في بحر من الروابي. ونحو الجنوب يقع جبل الثار الهرمي القاتم ليخفي بشموخ بين صخوره شديدة الانحدار وذات الرؤوس الناتئة والحادة. وكأنما يقف حارساً على فم وادي الفرع حيث يبرز هناك من المنطقة المرتفعة في خليج صلة الرملي العميق. وخلف «الثار» وإلى الجنوب الشرقي قليلاً يرتفع برج ميه^(١) المكوّن من الصخور الرملية ذوات الرؤوس المربعة، والذي يرتبط في الأسطورة المحلية بأبي زيد الهلالي البطل القديم من جنوب الجزيرة العربية، ويبرز بوضوح بين جبالها. وإلى البعيد في الشرق بين الرمال أشار جعلمل إلى نقطة سوداء صغيرة وهي تل خباش والذي اضطررنا أن ندور حوله في دائرة واسعة لتفادى الرمل الناعم لوادي صلة في أول مرحلة من رحلتنا. وفي الوقت الذي كنت فيه أشهد هذا المنظر كله كانت الشمس تغطس في حمام من ألونة الذهب الضبابية، وأشعتها تنطلق بصعوبة لتشق عباب السماء المليئة بالتراب والضباب خلف جبال حبونا الشمالية - الغربية. وأسرعنا للنزول ونحن نقفز من صخرة إلى أخرى في جانب التل المنحدر بشدة عندما كان الغسق يزداد ظلاماً شيئاً فشيئاً. وكانت الخفافيش تطير فوقنا محدثة طنيناً وهي تخرج من كهوفها وشقوقها بين الصخور القديمة. وهكذا تجاوزنا البئر الذي أمسى الآن مهجوراً وعدنا إلى المعسكر.

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي سمعنا من على بُعد أزيزاً غير واضح لسيارة تقترب منا، وبعد ذلك بدقائق قليلة كنا نرحب بالأمر وصحبه بينما عبرت سيارتهم الشاحنة قاع الوادي الرملي ووقفت بجوار البئر. ثم سرنا إلى منطقة فيها كتل من الصخور الجرانيتية الهائلة حيث تقرر أن نقضي اليوم هناك في الظل

(١) ميه: جبل في بلاد وائلة - من بكيل - به آثار حميرية، يشير المؤلف إلى بعضها لاحقاً. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤، ص٤٦٦. (المراجعون).

البارد الذي توفره تجاويها التي تشبه الكهوف وأقواسها الطبيعية. وتم إحضار الشاي والقهوة من معسكرنا للترحيب بالجماعة وإنعاشها، وفي الوقت المناسب تم تقديم وجبة الغداء الوفيرة عند منتصف النهار والتي شملت الأرز ولحم الضأن. وفي الوقت نفسه قمت أنا والشيخ عبدالمحسن^(١)، قاضي نجران، بالتجول حول الصخور بحثاً عن أي نقوش ورسوم. وقد عثرنا على عدد من كليهما، ولكنها كانت جميعاً قد أصبحت تالفة بصورة سيئة من أثر الرياح والطقس باستثناء بعض الخربشات القليلة المكتوبة باللغة العربية الحديثة نسبياً وليس لها أية أهمية على وجه الخصوص. وعلى أي حال كان من الواضح أن هذه الصخور قد آوت العرب الرعاة منذ وقت موغل في القدم. وقد سجل جوزيف هالفي نقوشاً حميرية من هنا ولكني لم أستطع إعادة اكتشافها، وقد عثرت على كل حال على خربشة باللغة العربية القديمة بين الكتابات الكثيرة الكوفية العربية على الجدران الصخرية. ويمكن العثور على كتابات أخرى من الخط البدائي نفسه على الصخور المواجهة للجنوب في الجانب الآخر من سلسلة الجبال الرئيسية. وكانت صور الإبل وطيور النعام والحيوانات الأخرى شائعة بدرجة كافية، ولكن الأشياء الأكثر إثارة كانت عدداً من الأشكال الهندسية ذات أهمية غامضة. وقد كان القاضي شغوفاً بدرجة عميقة بالتاريخ القديم والمعاصر لمنطقة نجران، وكان يقضي كثيراً من وقته في مقابلة البدو الزائرين ليجمع منهم معلومات عن الأماكن والقرى التي توجد بها نقوش أو أي سجلات أخرى تعود للماضي. وفي الحقيقة يعود له ولأبحاثه الفضل في أنني قد سمعت بالكثير من مثل تلك الأماكن التي تمكنت لاحقاً من زيارتها ورؤيتها بنفسي.

(١) هو الشيخ عبدالمحسن بن سليمان بن محمد الخريديلي قاضي نجران آنذاك تولى القضاء في نجران بعد عام

١٣٥١هـ وتزوج واستقر بها إلى أن كانت وفاته فيها عام ١٣٥٥هـ أو ١٣٥٦هـ.

عبدالله البسام: علماء نجد خلال ثمانية قرون، ج ٥، ص ٢٢-٢٤. (المراجعون).

ولقد استحوذ على الأمير نفسه منذ البداية اهتمام عميق بمشروع بعثتنا المقترح، وإليه يرجع الفضل في تنفيذ جميع الترتيبات الضرورية بصورة حسنة جداً وسريعة. والحق أنني قد تركت له الحبل على الغارب ليكون حراً في إنفاق تلك المصروفات الضرورية نيابة عني. ومن واجبي أن أسجل هنا مع الشكر والعرفان بالجميل أن إجراءاته المالية الناجحة لا يضارعهها إلا كفاءة تصرفاته. وربما يكفي أن أذكر أن الإبل التي استأجرها لاستخدامنا لم تكلف أكثر من خمسة عشر ريالاً (حوالي جنيه استرليني فقط) لكل جمل في رحلة استغرقت شهرين ونصف.

وكان الأمير، إبراهيم النشمي، قد أحضر معه لوداعنا ابنه الصغير الواعد، محمداً، وهو فتى في مقتبل الشباب ويبلغ حوالي خمسة عشر عاماً من العمر، وأخاه، واسمه أيضاً محمد، الذي كان في ذلك الوقت نائب الأمير على منطقتي حبونا وبدر. واكتملت الصحبة بحضور موظف المالية المحلي وقائد قوة الأمن وعدد من أتباع الأمير النجديين. وفي الوقت الذي انتهينا فيه أنا والقاضي من بحثنا عن النقوش كان الغداء جاهزاً، في حين كان الأمير قد انتهى من المراجعة الختامية لجميع الترتيبات المتصلة بأفراد ومعدات بعثتنا. ولم أستغرق الآن وقتاً طويلاً في مناقشة جميع التدابير التي تم اتخاذها. وتم تسليمي قوائم بالدفعات المقدمة التي تم تسديدها لأصحاب الإبل على اختلافهم وقوائم المبالغ الباقية التي يجب دفعها عند عودتنا، وفي تلك الأثناء تم تعريفني على سعد ابن معيلم الذي سيكون مسؤولاً عن جميع الأفراد بالبعثة. ولم تستهوني عينه البيضاء ونعومة سحته حتى تجمعني أنحاز لصالحه كثيراً عند أول نظرة. ومع ذلك ثبت أنه كفء بدرجة معقولة كوسيط للتصرف في كثير من بنود الأشغال الصغيرة، مثل: المشتريات المحلية، والتفاوض مع المرشدين لإدراجهم في قوائم الأفراد العاملين معنا، والإشراف على تحميل الجمال وتزليها وخلافه، والتي تعد جزءاً لا يتجزأ من مثل هذه المغامرة ولا يمكنني أن أدخر وقتاً لها وسط خضم الانشغال بالأمور الأخرى الأكثر أهمية. وعلى أي حال كان من الواضح أنه لا يستطيع السيطرة على العناصر المختلفة في جماعتنا، لاسيما

أولئك التجديين الثمانية من أتباع الأمير الذين كانوا يشكلون نوعاً من الحراسة الشخصية المسؤولة عن سلامتي. وحيث إنهم كلهم كانوا من فئة الزكرت^(١) مثل سعد فإن كل واحد منهم كان يعد نفسه مساوياً له أو أفضل منه، قد جعلهم أقل العناصر سهولة في قيادتهم من بين الجماعة عامة. وبالمقارنة معهم كان البدوي يعد قديساً. وفي الوقت نفسه كانت ملابسهم الرائعة وإبلهم المكسوة بأغطية مزركشة بشكل جذاب قد جعلتهم يبدون في صورة بهية وجميلة وكانوا محط إعجاب الجميع أثناء إقامتنا المؤقتة في شبة ومنطقة حضر موت. وأنا مقتنع تمام الاقتناع، على الرغم من أنه لم تأت مناسبة أبداً لاختبار ذلك، أن هؤلاء الثمانية سوف يقفون معي وقفة رجل واحد في أي موقف جاد أو خطير. ولبعض من الوقت تكونت صحبتي من التجديين الثمانية تحت قيادة سعد وحوالي اثني عشر رجلاً أو أكثر من رجال قبيلة يام تحت قيادة جعمل، بالإضافة إلى فرج بن قرقاح من قبيلة قحطان الذي رافقني من أبها وتحول إلى صياد طيور كفاء بدرجة معقولة أثناء إقامتنا في نجران. كما كان هناك أيضاً بين المرافقين سعد بن عثمان الذي التحق بنا من مجموعة رحلتي في الربع الخالي ويعمل على سلخ الطيور وخادم عمومي، علاوة على طباح وقهوجي وكلاهما وفرهما الأمير. وهناك محمد السائق وبلال الميكانيكي الذي ارتبط بنا في نجران كمساعد لمحمد. وكان يزعمني قليلاً حقيقة أن المجموعة لا تضم مثلاً واحداً أو دليلاً من القبائل الأخرى الموجودة في مناطق أخرى غير منطقة قبيلة يام، مثل قبائل دهم، والصيعر، والكرب، ولم أستطع أن أتمالك نفسي من التساؤلات إذا ما كانت تأكيدات الأمير بأن هذا القصور سوف يتم استيفاؤه في الأماكن المختلفة أثناء سيرنا بالطريق لاستكمال الإجراءات والترتيبات التي اتخذها، وهل ستبرر النتائج ذلك. والحق أنني أسأت إلى الرجل بمجرد الشك في تأكيداته، ففي كل حالة كان الرجال الذين سماهم يصلون إلى معسكرنا في الأماكن التي دبرها.

(١) ترجع هذه الكلمة إلى الكلمة الإيطالية (Sacurta) أو (Shurta) الشرطة، وأيضاً من الكلمة الفرنسية (Surete). (المؤلف).

وهكذا كان كل شيء جاهزاً فيما بعد ظهر هذا اليوم. وتبذل الوداع الحزين الطويل بين النجدين معنا وأولئك الذين يتبعون الأمير العائدين معه إلى نجران. إنهم سيعودون إلى زوجاتهم وإلى الحياة المريحة الرتيبة بمقر الإمارة. ووقفنا على حافة المجهول، ولم يعلم أحد سواي طول المسافة التي ننوي أن نقطعها إذا سارت الأمور لصالحنا. وكانت شوبة قد ذكرت في الاتفاق غير المكتوب الذي عقدناه مع رجال الإبل على أنها أقصى نقطة في رحلتنا والتي لن يطلب منهم بعدها السير تحت أي ظرف من الظروف. ولم تتمكن من بدء الرحلة إلا في الصباح التالي، وبعد مغادرة إبراهيم الشمسي وصحبه تجولت حول الوادي وأشجار السنط بحثاً عن الطيور. وكانت البئر مزدحمة طول الصباح، وهي تمد قطعاً هائلة من الإبل بالماء بما فيها جمالنا نحن. وفي منتصف النهار كانت البئر قد جفت تقريباً، ونزل فيها رجلان بالحبال ليغرفا الماء في أوانٍ من القطرات الضئيلة في أطراف البئر، وجاء الماء مثقلاً بالطين الأسود، بيد أن الجمال قد سحبت الماء في بطونها وهي تصفيه من خلال الضغط على شفافها. ثم تم صب رواسب الطين على الأرض، وشكلت بركة صغيرة من الوحل الأسود كريهة الرائحة حول البئر. وقد تقلّب أحد الجمال في هذه القذارة ليخفف من الحكة في جلده المغطى بالقراد، ولكن صاحبه قد انهال عليه بضربات مدوية حتى انتصب الجمل واقفاً على قدميه مرة أخرى. وجاء زوجان، كان من الواضح أنهما قد تزوجا حديثاً، إلى البئر ومعهما حيوانات قليلة لسقيها. وكان معهما جمل جديد تماماً، حيث أنزلاه في البئر حتى يتشبع بالماء قبل الاستخدام. ثم اختبرا استعماله، ولكن ثبت أنه أقصر من عمق الماء بقامة واحدة. وأخرجوا جديدة من جمل قديم من متاعهما الضئيل، وقاما بجعلها مع الحبل الجديد، وبدأ العمل - حيث انهك الرجل وزوجته في سحب الحبل ولا يتبادلان كلمة واحدة إلا ما ندر إلى أن انتهيا من عملهما وغادرا المكان.

وهكذا انقضى النهار، وحلّ الظلام، وكان كل شيء جاهزاً للمغامرة التي ستبدأ مع الفجر. وتضاءلت نيران المعسكر عندما هجعت كل جماعة في سبات عميق، وبقي سراجي المتوهج الوحيد ليضيء الظلال المظلمة للشجيرات المحيطة بنا. وبينما كان الظلام لا يزال يلطنا بصمت مطبق، وكنت تقريباً قد أخذت لنوم مريح، على ما يبدو، فإذا ببدء الصلاة يعلن مجيء يوم جديد. وكانت جماعة الإبل سوف تسلك طريقاً مباشراً عبر المنطقة الجبلية والرملية إلى أن تصل إلى النقطة المتفق عليها لإقامة المعسكر القادم، أما نحن، ركاب السيارات، فقد بدأنا السفر عند الساعة الثامنة صباحاً حينما بدأت القطعان الأولى من الأغنام ورعاتها البنات تصل للبرث. ولحوالي ميل التزمنا قاع الوادي، ونحن نمر بين تلال هضبة الرويكة وهي ترتفع شامخة على كل من الجانبين مثل مدخلين هائلين مهيبين. ومن هنا تنحدر التلال للوراء نحو الجنوب، وتشكّل خطاً حاداً فاصلاً بين الجبال والصحراء. ويسير الوادي في خط مستقيم إلى أن يصل بئراً قديمة مطمورة تسمى بئر الحجف^(١) في بطن الوادي قرب تل فريع الصغير، ثم يواصل امتداده إلى أن يدخل في الرمال التي لا حدود لها - مثل شريط واسع أخضر من شجيرات الراك والسود وسط التلال الصفراء.

وعندما تركنا الوادي خلفنا، اندفعت السيارات الآن على طول الحافة الخارجية للتلال عبر سهل رملي منبسط ينذر فيه غطاء الأشجار إلا من بعض الأجمات اليابسة القصيرة وشجيرات السط القصيرة مثل مظلات كثيرة تقف على مقابضها. وبعد أن مشينا حوالي خمسة أميال عبر هذا السهل، الذي يعرفه البدو بصورة غامضة باسم عضيات نجران، أتينا على هضبة صغيرة مدورة تسمى «جعل الأبيض» وهي من صخور الجرانيت والكوارتز، تمتد نظيرها «جعل الأسود» المكوّنة من صخور البازلت، إلى البعيد قليلاً نحو الجنوب الغربي. هذه الهضاب الصغيرة المتناثرة، مثل لقيلاء

(١) الحجف: قرية تقع على ضفاف وادي حونا. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ٢٠٦. (المراجعون).

وخباش التي وصلناها فيما بعد - لا ترتفع إلا حوالي خمسين أو ستين قدماً تقريباً فوق سطح السهل الرملي. وفي هضبة جعل الأبيض عثرت على رسم بدائي على الصخر لرجل شاهر سيفه مستقيماً في يده اليمنى وخنجر في وسطه.

وكان توقفنا الثاني في «القبلاء» على بعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال للشرق. وقد كانت عبارة عن هضبة صغيرة مكوّنة من صخور الجرانيت الضخمة التي تتراكم فوق بعضها بصورة مفككة في وسط السهل الواسع نفسه، الذي كان هنا مكسوّاً بالرمال بشكل كثيف حيث تلاشى فيه الشريط الضيق من الشجيرات الذي يميز قناة وادي صلة بالقرب من الهضبة الصغيرة مقابل الخط الزهري المنخفض في أول سلسلة حقيقية من سلاسل التلال الرملية في الصحراء. وبعد مواصلة السير حوالي سبعين ميلاً على طول خط سلع وصلنا إلى خباش وهي عبارة عن كتلة صخرية منخفضة مكوّنة من الجرانيت الرمادي ذي الحبيبات الخشنة وقد طمسها الرمل تقريباً. وكانت هذه أبعد نقطة وصلناها في الشرق حتى الآن. وخلفها تمتد رمال الربع الخالي الكثيفة. والحقيقة أننا حتى هذه اللحظة لم نواجه أي صعوبة تذكر، على الرغم من أننا قد قاومنا إغراء مطاردة بعض الغزلان التي رأيناها في طريقنا وزوج من طيور الحبارى. وفي جولة بحث حول هضبة خباش لم نعرث إلا على قشر بيضة نعام، ولا شيء أكثر من ذلك. وإلى البعيد باتجاه الشرق لاحظنا هضبة أخرى سوداء صغيرة تسمى «القفال» وسط الرمال، بينما في الضباب البعيد في اتجاه جنوب - جنوب شرق كانت ترتفع سلسلة هضبة ذات الصخور الجرانيتية العظيمة، والتي سوف نصلها في غضون يومين من هنا. والنباتات في هذه المنطقة كانت محدودة تقريباً على حشائش النصي، ولكنها كانت ميتة وجافة جداً.

وامتد سيرنا الآن باتجاه الجنوب - الجنوب الغربي نحو فم الوادي ويسمى إمارة والذي يهبط في اتجاه جنوب - شرق من تل مرتفع قليلاً بهذا الاسم نفسه في قرية ميهر المجاورة. وبعد حوالي تسعة أو عشرة أميال في الرمال وصلنا إلى نقطة يتلاشى عندها

هذا الوادي في الصحراء بين سلاسل تلال البقع وعباسة المنخفضة. ومن هناك انطلقنا في قاع الوادي الوعر قليلاً حوالي ثلاثة أميال حتى وصلنا إلى مجموعة صغيرة من شجر السمر (أي السنط) وفيرة النماء والتي كانت مكان الالتقاء المتفق عليه مع مجموعة الجمالة. وهكذا اخترنا هنا موقعاً ملائماً لمعسكرنا. وكان الوقت قد تجاوز الواحدة ظهراً بقليل، ولكن الريح الشديدة كانت بالفعل قد بدأت تهب علينا، مثلما كانت تفعل كل مساء في الخضراء، وكان الرمل يندفع بقوة في عواصف عظيمة عبر الوادي. وكان معسكرنا يقع قريباً من المقدمة المنخفضة لسلسلة جبال طويلة من صخور الجرانيت القائم تسمى خرطم الصعرة، والتي تشكل الجبهة الشرقية لتلال اليمن.

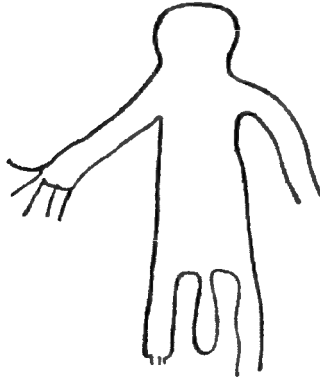
وكنا في هذه النقطة ما نزال في الأراضي السعودية، ومع ذلك لم يحتفظ جباة ضرائب نجران إلا حديثاً فقط بسجلات سنوية للأغنام والإبل التي تشرب من المايين كذلك في وادي الحشوة وكلاهما يقع بعيداً إلى الغرب من معسكرنا. ومسألة الحدود بين اليمن والسعودية قد خضعت مؤخراً جداً للنظر من قبل الحكومتين، وسوف نردها بالشرح في الوقت المناسب. إن الحدود الجغرافية الطبيعية دقيقة إلى حد يثير الدهشة، ولكن يجب النظر في مسألة حقوق السقيا داخل حواف التلال؛ ولذلك يجب أن تسير الحدود السياسية مع الحدود القبلية المعترف بها، والتي تم تحديدها منذ زمن طويل مع الاعتبار الملائم لجميع المصالح المعنية.

وبعد الظهر تسلقت إلى نقطة ممتازة في سلسلة الصعرة التي تطل على المنطقة وتوفر رؤية جيّدة. ويمتد وادي إمارة في خط عريض من الأشجار الذابلة وحشيش الثمام الجاف نحو ميهر ويفصله رف منخفض من الحصباء عن وادي الحشوة المشابه له الذي تقع في جانبه، على بعد مسيرة يوم مع اتجاه المجرى قرية يمنية تحمل الاسم نفسه، وتتكون من مبان متناثرة تشبه القلاع وسط البساتين، وتسكنها عشيرة وائلة، وعلى مقربة من أعالي القرية يتلقى الوادي المياه المتصرفة من وادي أملح وضدح وكلاهما به مجموعة من منازل عشيرة وائلة في مجراه البعيد. ويصل وادي الحشوة

إلى الصحراء جنوب سلسلة البقع التي ذكرناها من قبل، ولكن لا هو ولا وادي إمارة يتقدمان كثيراً للأمام عكس الرمال الزاحفة التي تعترض تقدمهما. وكلا القناتين تندمجان بصورة عامة في حديث البدو تحت اسم واحد وهو وادي العطفين.

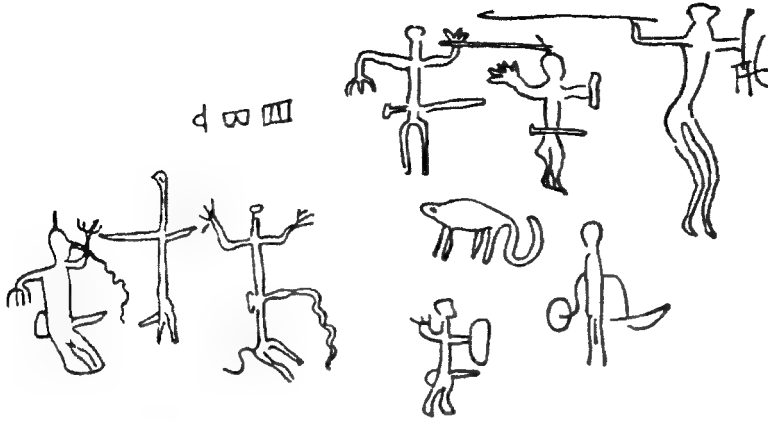
وحيث إن فترة بعد الظهر قد انقضت دون ظهور أي أثر لجماعة الإبل التابعة لنا فقد بدأنا نساءل ما إذا كانوا قد أخطؤوا في الوصول إلى مكان الالتقاء أو ضلوا في الطريق. وفي الحقيقة لم يصلوا إلا الساعة الثامنة ليلاً. ويعود سبب التأخير جزئياً إلى سقوط أحد الأحمال، ولكن السبب الأكثر خطورة كان اختفاء ناقة أثناء توقفهم منتصف النهار. ولم يكتشف أحد اختفاءها إلا بعد أن تم إعادة الإبل من المرعى لاستئناف السير في فترة بعد الظهر، وبعد ذلك تم اقتفاء أثرها في طريق طويل حتى الخضراء حيث عادت إلى هناك بحثاً عن صغيرها الذي انفصل عنها ذلك الصباح. وبدأ كل فرد في غاية السرور على الرغم من ذلك الحادث، وسار كل شيء على ما يرام. وكان الليل وساعات الصباح الباكراً جميلة جداً بصورة عامة، إذ كانت باردة وخالية من الريح في تلك الفترة من العام. وفي ذلك المساء على وجه الخصوص كانت السماء ملبدة بالغيوم بعد الغروب مباشرة، ولكن عندما غاب القمر حوالي الساعة العاشرة مساءً كانت السماء قد أمست صافية مرة أخرى وتلاأت النجوم ببريقها الأسر. وعلى أي حال هبت في الصباح الباكر من اليوم التالي ريح مفاجئة، ليست شديدة جداً، ولكنها كانت مستمرة، وغطى الرمل المتطاير الوادي مما جعل الرؤية محدودة. وكان من المقرر أن يتم سقيا الإبل في المايين على بعد أميال قليلة فقط، وقررت أن استغل هذه الفرصة لزيارة قمة ميهو وتبعاً لذلك انطلقت بقوة عبر وادي إمارة حتى دخلنا وادي الحشوة الذي يتدفق عند هذه النقطة من قناته بأعلى التل في وادي رملي واسع مليء بأشجار السنط وشجيرات الرأك والنباتات الأخرى. ولفترة من الوقت طاردنا بعض الغزلان بلا نجاح، ثم مضينا في خط مستقيم نحو قاعدة تل ميهو. وهناك أوقفنا السيارتين، وأسرعت أنا وجعل في التسلق بصعوبة

على الواجهة الجرانيتية للجبل . وبعد حوالي ألف قدم فوق سفح التل وصلنا قاعدة ذروة ضخمة من الحجر الرملي التي تشكل القمة الحقيقية . وبعد حوالي مئة قدم أخرى وصلنا إلى قاعدة عريضة ترتفع منها الأسوار العمودية «القلعة» أبو زيد حوالي أربعين قدماً حتى القمة المسطحة . وقد بدا هذا الجزء الأخير غير يسير المثل من الناحية العملية ولم أبذل إلا محاولة فاترة لتسلق الجرف عن طريق سلسلة الشقوق الضحلة والمتباعدة عن بعضها في الصخور والتي صنعها الإنسان بلا ريب ؛ ولذلك اكتفيت بأن أدور دورة كاملة حول «القلعة» على طول القاعدة العريضة التي تدعمها . وعلى الأسوار العمودية كانت هناك بعض النقوش القليلة مكتوبة بالخط العربي البدائي العادي علاوة على عدد من الرسوم البارزة ذات الأهمية الكبرى . ويبدو أن أحد هذه الرسوم كان صورة شخصية لأبي زيد نفسه مع إضافة قضيب ذي نسب مبالغ فيها . والرسوم الأخرى تمثل ماشية ، بينما كانت مجموعة أخرى بكاملها مخصصة لمعركة ضخمة بين كائنات بشرية وثعابين كبيرة . وحيث إنني قد قمت -حسب أقصى قدراتي- برسم الصور والنقوش ، فقد جلست مع جععمل للتمتع بهذا المشهد العريض نأخذ وجبة بسيطة من الخبز والماء كنا حملناها معنا . وأخرجت علبة ساردين أيضاً من الجراب ، ولكن جععمل رفض تناول أي شيء من هذا الطعام المريب ، وهكذا التهمت السمك كله بمفردي .





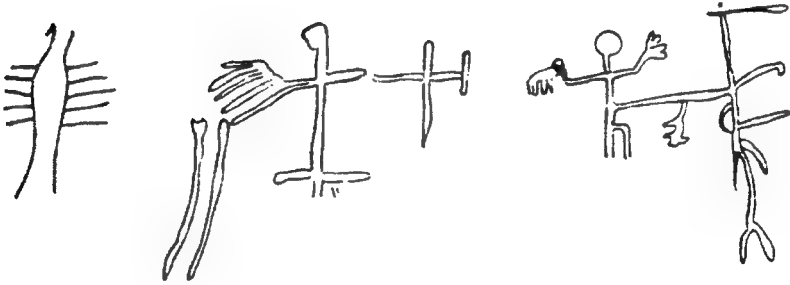
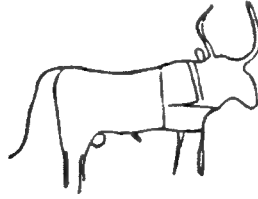
وتحتنا -على مسافة غير بعيدة- كان رجالنا ينعمون بنوم القيلولة عند منتصف النهار في واد ظليل، بينما فوقهم بقليل في نتوء من الوادي فوق مضيق صخري قصير كانت تقع عين الماء "المالين". وقد نزلنا في ذلك الاتجاه، وواصلت وحدي السير على الأقدام صوب معسكرنا، في حين انطلق جععمل ليرشد السيارات لتسلك الوادي. وكان عمق عين الماء يبلغ خمسة أقدام فقط في الرمال الكثيفة في قاع الوادي. وتقع تحت شجرة عُنَّاب ضخمة والتي كانت تلهو بين أغصانها مستعمرة كاملة من طيور الحباك الصغيرة (Weaver Birds). ويمتد أيضاً صف من أشجار السنط مسافة معينة في اتجاه الماء. وكان معسكرنا على بعد حوالي نصف ميل في الأسفل، في واد ضيق كثيف بأشجار السنط خلف الممر الصخري الضيق الذي يفصل بين جزأي القناة العلوي والسفلي، ويهيبط نحو الوادي عدد من الممرات الضيقة كثيرة الصخور المتحدرة من الجبال المحيطة؛ وكانت هذه البقعة جذابة ورائعة بصورة عامة، ولكن الوقت كان قصيراً ولا نستطيع أن نتوانى، وكان رفاقنا -في الحقيقة- قد انتهوا من تناول طعام الغداء، وكانوا على أهبة الاستعداد لاستئناف سيرهم. وهكذا عندما وصلت السيارات غادرت الإبل، وأخذنا قسطاً من الراحة لبرهة من الزمن بعد الوجبة المتأخرة وذلك قبل أن نتبعهم.



ولم يكن علينا إلا أن نسير حوالي خمسة عشر ميلاً فقط، ولكن الطريق عبر القنوات الرملية الكثيرة وأحزمة الشجيرات المتداخلة في وادي الحشوة لم يكن من السهولة في شيء. وفور أن انتهينا من الوادي -على أي حال- في أقصى الطرف الشرقي لسلسلة جبال شعير على طول الضفة اليمنى منه سرنا بسهولة لمسافة فوق سهل رملي ثابت حتى وادي طيبة الاسم. وهنا بالقرب من شجرة سرح كبيرة وواضحة في مسار وعر نسبياً بين التلال الرملية المنخفضة أوقفنا سيارتنا. وكان الوقت قد اقترب بالفعل من غروب الشمس، ووصلت الإبل بعد حوالي ساعة. بدأت الآن أكن تقديراً كبيراً لجعل، فهو نموذج للرجل الوسيم الرقيق عمشوق القوام من رجال قبيلة يام. وكانت معرفته بهذه المنطقة كلها مرضية جداً، ولم يكن هناك أي معلم من المعالم الأرضية التي لا يستطيع تسميتها. وهذا بالضبط ما كنت أحتاجه، وكنت أكثر من راض عن هذه البداية المبشرة بالنجاح لرحلتنا. ولم تكن الجماعة قد فرزت نفسها بعد في مجموعات متجانسة، وكان العنصر النجدي -ربما- يشعر قليلاً بالغيرة من الاهتمام الذي أوليه للبدو الذين كانوا أكثر إمتاعاً. وكانوا يودون لو أنني تناولت طعامي معهم وحدهم، ولكنني صممت على أن أولئك الذين يعملون حقيقة معي أثناء السير يجب أن يأكلوا معي بالمخيم. وكان فرج أيضاً، على الرغم من أنه ليس

منتصف
قصير
السير
مسلك
في قاع
تعمرة
أشجار
يل في
يفصل
كثيرة
عامة،
انتهوا
عندما
الوجبة

من البدو المحليين ولا من النجديين، قبلة الأنظار الغيورة. وخلال سيرنا هذا اليوم تمكن هو وسعد بن معيلم من افتعال مشاجرة مع بعضهما من لا شيء على وجه الخصوص. وطبقاً لأقصى حدود علمي كان يبدو أن فرجاً هو المخطئ، وقد لاحظت بالتأكيد لبعض الوقت، حتى قبل مغادرة نجران، أنه لم يكن في أفضل حالاته على الإطلاق. وأثناء إقامتنا المؤقتة كلها في نجران كان من الواضح أنه لم يعثر على شيء يشبع شبقه وشهوته، ولذلك ثارت أعصابه وجُنَّ جنونه.



وفي حوالي منتصف الليل كان هناك لفحة برد قارس في الهواء، وبزغ النهار وسط ضباب رملي كان قد بدأ يتناثر في السماء قبل أن نتحرك حوالي الساعة الثامنة والنصف. وكانت الإبل سوف تسير في طريقها العادي المباشر عبر التلال، في حين كان على السيارات أن تدور مرة أخرى في دورة واسعة لتلتف حول تلك التلال. وقد صعدنا في البداية أرضاً مسطحة رملية بين سلسلة طيبة الاسم على يسارنا وجبل المطابق الرئيس على يميننا إلى مضيق منخفض (بين قمتين في سلسلة الجبال)، ووراءه يمتد عمر واسع لأميال بين سلاسل تلال متوازية ذات ارتفاع عظيم. وقبل أن نصل المضيق المنخفض وعلى بعد حوالي ميل أو أقل من معسكرنا مررنا على نُصب من

الحجارة على الطريق، يعرف باسم «ردم الحد» وهو علامة الحدود بين قبيلتي يام ودهم. ومن المضيق المنخفض نزلنا على منحدر رملي وعر قليلاً و متموج، إلى رأس الممر حيث انطلقنا هناك بسياراتنا بخفة ورشاقة ومرح حوالي عشرة أميال حتى وصلنا إلى صخرة هريرة الجرانيتية البارزة قليلاً. وفي هذه النقطة توقف خط التلال عن يمننا، وتحولنا من اتجاه شمال - شرق إلى الجنوب الغربي على مسار في أمواج رملية عظيمة نحو سلسلة جبال الهضبة. وكان سيرنا طيباً بشكل عام، على الرغم من وجود بعض البقع الوعرة على مسافات متفاوتة، وكم كنت سعيداً عندما - بدون حادث مشؤوم - وصلنا تلاً صغيراً مدوراً ومنخفضاً قريباً من طرف "الهضبة" التي ترتفع كتلها الصخرية العارية الكبيرة إلى حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق الأرض المنبسطة. وفي ذلك التل الصغير عثرت على رسوم بدائية لرجل يحمل رمحاً وهو على ظهر حصان واثنين أو ثلاثة من النماذج الباهتة لتيس الجبل.

وقد اجتزنا الآن الجانبين الطويلين للمثلث متساوي الضلعين، وعدنا مرة أخرى إلى الطرف البعيد لقاعدته على الطريق الذي سلكته جماعة الإبل. وكان هذا الطريق يمتد عبر وادٍ مليء بالشجيرات بين سلسلة الهضبة العظيمة المنفصلة عن القسم الرئيس لمرتفعات اليمن، حيث يتدفق كلاً من وادي القعيف ووادي سلبا إلى أسفل حتى يتهيأ بصورة أو بأخرى في رمال الصحراء في نقطة بعيدة إلى الشرق بعد أن يتحدا ليكونا وادي اليتمة. وسرنا بمحاذاة حافة «الهضبة» نظراً لأن السير هنا كان يبدو أسهل من المشي بعيداً عنها في الوادي الذي يعج بالشجيرات، ووصلنا مخيمنا عند منتصف النهار في شعب وضاح بعد وصول الإبل إليه بدقائق قليلة فقط. وفي الحقيقة لم يكن آخر المتأخرين القليلين منهم قد أتى بعد، عند وصولنا المعسكر.

وكان سعدان قد احتفظ لي بكهف عميق في جانب التل بمستوى الوادي، وهنا هجعت في نوم سعيد عند القيلولة بعد غداء دسم من الجريش المطبوخ بالبصل وغارق بالسمن بصورة عظيمة. ولم يتناول جعمل، الحساس مثل معظم البدو الذين لم

تفسدهم روائح الأطعمة الأجنبية غير المألوفة، شيئاً من ذلك الطعام وأثر أن يظل طاوياً على الجوع. حتى ونحن بالسيارة وهو يجلس على المقعد الأمامي بجواري وأنا أقودها كان يلف غطاء الرأس (الشماغ) على فمه وأنفه ليتقي أدخنة البنزين التي كانت بالنسبة لي ضئيلة لا يمكن إدراكها. لقد كان فرداً غريباً تماماً، ولكنه كان دائماً لطيفاً ودمت الأخلاق كريماً ميالاً للمساعدة، خبيراً في حدود معرفته الخاصة بعلوم الصحراء، ومع ذلك كان بطيئاً في الفهم بصورة متناهية، وغيباً في حماقة. وبالرغم من ذلك كان يرشدنا إلى المناطق السهلة وهو يبدي إحساساً ممتازاً بمعرفة الطريق يكاد يكون خارقاً للعادة تقريباً.

وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة بعد الظهر تسلفت أنا وجعل قمة أحد الجُرف الجرانيتية العظيمة في الهضبة الذي يرتفع حوالي ٦٠٠ قدم فوق معسكرنا. ولكي نصل إليه سرنا عدة مئات من الأقدام على عمر طبيعي يبلغ عرضه حوالي عشرة أقدام والذي تشكل نتيجة الانفصال الجزئي لخنق البازلت بين جدران من الجرانيت الصلب والمتماسك الحبيبات ذي لون يميل للحمرة. وكان يمتد في خط مستقيم إلى حافة التل في منحدر شديد، ويبدو تقريباً كما لو صنعت يد الإنسان. وخلفنا إلى الشمال كانت توجد عدة ذرى للقمة الجرانيتية الناعمة التي كانت تصل في ارتفاعها حوالي ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم فوق الجرف الذي كنا به. وفي الثنية المعترضة يقع رأس وهد وضاح الذي ينغمس داخل الجبل في سلسلة من الدرجات العميقة مثل درج السلم، والتي يوجد في أحدها تجويف ضخم مليء بالرمل الذي يحتفظ بقدر وافر من الماء بصفة دائمة تقريباً. وعلى الصخور حول البركة عثرت على رسم تالف جداً لرجل يمسك رأس حصان، وكان هناك رسم بدائي آخر لرجل قد مد يديه يزيّن صخرة أخرى مجاورة، بينما يوجد بالقرب من كهفي تماماً مجموعة من حوالي عشرة قبور قديمة واضحة.

ومن هنا كان هناك مسقط منحدر آخر يؤدي إلى الكهف، حيث كان الوهد ينسبط في قناة دقيقة مليئة بالشجيرات والقيعان الجافة الصغيرة ومغطاة بأوراق الحشيش اليابسة.

ومن الجرف العالي نظرنا نحو الجنوب على بقعة جديدة من الأرض التي يخفيها عنا من هنا الجزء الرئيس من سلسلة جبال الهضبة. بينما كان المسار الشمالي الذي سافرنا عليه بالفعل قد اختفى عنا الآن بسلسلة الجبال الشاهقة خلفنا. وكنا نستطيع رؤية وادي اليتمة وهو يسير ملتوياً لمسافة بعيدة في الصحراء متجاوزاً ذرى أم الشداد البارزة التي تغيّر لونها بفعل العوامل الطبيعية، ويقع خلفها سلسلة من الجبال البازلتية القائمة حيث يكون جبل مرة في المقدمة ويليه جامع والطويلة من ورائه، وقمم سلسلة جبال المعو الشاهقة في الأفق البعيد وراء تلك الجبال نحو الجنوب الشرقي. وبالقرب منا، وإلى البعيد قليلاً نحو الجنوب ترتفع الرؤوس الناتئة لكل من صخيبر وسويقة وقراء مع سلسلة جبال الوعير وقمة شري من خلفها على جانبي وادي خب العظيم. وإلى البعيد ناحية الجنوب الغربي والغرب تمتد الجبال التي تحيط بعيون مياه السقيا الثلاثة وهي الصحفة والجب وصيح.

وفي مكان ما من هذا المسار بوادي اليتمة كان هالفي -الذي يعتري وصف رحلته قصور شديد في التفاصيل الجغرافية بشكل يثير السخط والغيط- قد هجره مرشده من البدو وتركوه يتجول في الصحارى وحيداً وقد أصابه الجوع والعطش إلى أن وقع على مخيم ضخم للبدو الرحّل حيث استطاع هناك أن يجلب معه مرافقاً جديداً -ولكنه كان مشاكساً- إلى نجران. وفي مكان ما بين هذه البقعة ومقصده في نجران يبدو أنه قد قابل قافلة آتية من حضرموت. وكان جعل يقول: إن المسار الذي سلكته جماعة الإبل التابعة لنا يتطابق تقريباً مع طريق حضرموت، والذي لا يزال مطروقاً على طوله على الرغم من تقطع حركته، وما زالت علاماته يمكن رؤيتها أينما كانت الأرض خالية من الرمل بدرجة كافية لينطبع عليها أثر السير بصورة دائمة.

وعلى هذا الخط لا يكاد يوجد شك في أننا الآن نمشي فوق واحد من الطرق العديدة التي سلكتها تجارة التوابل القديمة بالعربية السعيدة. وكان هالفلي يأمل أن يعثر على دليل لمرور إيلْيوس جاللوس وجيشه الروماني من خلال سيره في الدرب الذي يمتد من الجوف وعبر واحات خب حتى نجران. إن كلا الطريقين الخارجي والداخلي اللذين سلكتهما جنوب الهضبة يقعان إلى الشرق من طريقه، ولكني بكل تأكيد لم أجد ولو أثراً واحداً لهذه البعثة العظيمة والمدمرة في آن واحد. كما أن وصف سترابو لها، مع ما فيه من أسماء عديدة لا يمكن التعرف عليها الآن، يتعذر بصورة بالغة التوفيق بينه وبين الطبوغرافيا الحديثة لهذه المنطقة. فلقد تغيرت بلا ريب أسماء الأماكن مع تعاقب القرون الغابرة، ويبدو من المحتمل علينا الانتظار إلى أن يتم اكتشاف خريطة حميرية أو معجم جغرافي قبل أن نتمكن من بذل أية محاولة لحل ألغاز سترابو وبليني.

وقد بدأت جماعة الإبل في الارتحال عند الساعة الثالثة عصراً، ووقتها شرعت أنا وجعل في ارتقاء الجبل. وعندما عدت للمعسكر لم تكن الساعة دون الخامسة مساءً بكثير، ولم يكن لدينا وقت نهدره سدى قبل بدء المسير. وتقدمنا في البداية بسهولة كافية فوق سهل ثابت مؤلف من صخور رملية ذات حبيبات خشنة وتتناثر به أشجار السنط على طول الضفة اليسرى لوادي القعيف. وأصبح سطح الأرض فيما بعد متموجاً بموجات الرمل المنخفضة، وتنتشر فيه شجيرات الرأك التي تنمو على التلال المنخفضة. وكان هذا علامة بداية مجرى قناة اليتمة عند التقائها هنا بأودية سلبا والقعيف الموازية لها. وبعد ذلك بقليل عبرنا الوادي وتقدمنا في اتجاه الجنوب على طول خط التلال عن يميننا. وعبرنا قناة مدرك وهي في اتجاهها للالتقاء بوادي اليتمة، بالقرب من نقطة بروزها من هذه التلال. وكان الشفق قد أرخى سدوله علينا فور دخولنا وسيرنا في قناة وادي قراء الرملية باتجاه الغرب. وأمسى الآن من الصعوبة لنا بمكان أن نرى أمامنا بدرجة كافية لنسيطر على مسارنا، ولحظنا السعيد -أكثر من مهارتنا- يرجع الفضل في تفادينا الغوص في الرمال. وكنا ننوي الوصول إلى بئر قراء

وهي على مسافة ليست قصيرة من هنا في أعلى الوادي، حسبما اتفقنا مع جماعة الإبل، بيد أن القدر تدخل مرة أخرى وأنقذنا من ذلك المجهود العقيم. وفي نتوء كبير من الوادي لاحظنا واتجهنا فوراً نحو نار معسكر وحيد، لنكتشف وجود خيمة فريدة تسكنها عائلة من قبيلة الصيغر تتكون من رجل ذي هيئة رائعة ولحية كثة ضخمة سوداء وزوجته الكبيرة قليلاً في السن وهي تحمل رضيعاً بين ذراعيها، ناهيك عن قطع الماعز الصغير. ويبدو على الأرجح أنهم لم يشاهدوا أبداً سيارة من قبل، ولكنهم لم يرتاعوا كثيراً من ذلك الشبح المتوحش الذي هبط عليهم من الظلام. وعلى أي حال فقد استقبلونا بقلوب مرحة وكرم وفير، وأخبرونا في الوقت نفسه أنه لا طائل من الذهاب للبشر إذ كان جافاً. وكان ذلك بمثابة لطمة لنا، ولكننا شعرنا بالراحة قليلاً عندما سمعنا بوجود ماء في صخيبر على الرغم من أننا سوف نضطر للانتظار حتى الصباح كي نتمتع به. وحتى نحقق أقصى فائدة من هذا الموقف فقد خلصنا من كرم الوفاة الذي قدمه لنا علي، ذلك الرجل العملاق ذو اللحية السوداء - وقدنا سيارتنا إلى البعيد قليلاً في واد جانبي يتصل بوادي صخيبر خلف سلسلة الجبال. وهنا نصبنا معسكرنا بأفضل صورة استطعناها في الظلام انتظاراً لجماعة الإبل، التي لم تصل إلا بعد الثامنة مساءً. وفي الوقت نفسه تبعنا علي ومعه تيس لعشائنا، وقد كافأناه على ذلك بشكل مناسب، وقد ساعدنا في حينه على طبخه وأكله.

وكان هو وعائلته أول الكائنات البشرية التي صادفناها منذ خروجنا من الخضراء، على الرغم من أن جميع الروايات تذكر أن معظم الآبار في هذه المنطقة المجاورة لطريقنا يوجد بها مجموعة من البدو. وبينما كنا نجلس ننتظر العشاء ووصول رفاقنا فتحت جهاز المذياع لتسليتنا، وجلس علي مسحوراً بتلك الأصوات التي تتحدث باللغة العربية وتخاطبه من أقصى أطراف العالم. ولسوء الحظ، أفسدت هذه المتعة شيئاً ما نتيجة الظواهر الجوية الكهربائية ولم أكن قادراً على معرفة إشارة الوقت التي اعتدت عليها من القاهرة أو القدس. وعلى أي حال كنت هنا في المكان نفسه

عندما سمعت إعلان تعيين (هيئة ملكية) للنظر في مشكلة فلسطين، وكان اللورد بيل والسير هوراس رومبولد أكبر شخصيتين فيها. وفي الحقيقة كنت خلال رحلتي الطويلة قادراً على متابعة أخبار العالم، وأستمتع ببعض الاسترخاء من نوع غير ذي أهمية عندما أشعر أنني أميل لذلك. وكان معي أيضاً مجموعة هائلة قديمة من جريدة التايمز لأقرأها في أوقات الراحة. وفيها الكلمات المتقاطعة اليومية التي كنت أقوم بحلّها كي تطرد اللوغريمات والحسابات الفلكية من رأسي تمهيداً للنوم.

وخلال سيرنا بعد الظهر أدركت فجأة أن السيارة الثانية، وهي شاحنة نقل مفتوحة تحمل أمتعتي وأربعة أو خمسة رجال، لم تكن تتبعنا. وقد توقفت فوراً انتظاراً لها، وانقضى وقت طويل قبل أن نراها أخيراً قادمة في طريقنا. لقد نفذ منها الوقود بصورة مثيرة للدهشة، والأسوأ من ذلك أنه ليس معها احتياطي على متنها، ولذلك قام محمد بتفريغ صفيحة من الكيروسين في الخزان ومشى بها الاثني عشر أو الثلاثة عشر ميلاً الباقية حتى لحق بنا بلا صعوبة.

وفي الصباح الباكر كان المعسكر يضحج بالحركة والنشاط لقيادة الإبل إلى البئر لتنال ما تحتاجه بشدة من ماء تروي به ظمأها. وقد تبعتهم سيراً على الأقدام حتى الوهد الضيق الذي يمتد إلى ما يزيد على ميل إلى نقطة يوجد عندها مهبط سهل وقصير إلى بئر صخير في نتوء من الوادي المطوّق بالصخور. وهنا وقفنا مشدوهين نراقب منظرًا مزدحماً، فقد كان هناك جماعة من عرب دهم من قرية الحزم في الجوف تسقي الأغنام والماعز والإبل. وكان معظم الجماعة فيما يبدو من النساء إلا أنه يوجد معهن ثلاثة أو أربعة رجال. كانت بعض النساء شابات وفاتنات بدرجة كبيرة، ولذلك سرعان ما قام فرج -الذي كان يرافقني- بتجاذب أطراف الحديث معهن. وقد تم الترحيب بي وسط هذه الدائرة الفاتنة بسلطانية مليئة حتى حافتها بلبن الماعز، وقد كافات البنات عليها بقطع من الفضة. ولكن انتباهي سرعان ما انصرف عنهن باكتشاف نقوش على الصخور المحيطة بنا، وقد مضيت قدماً نحوها لكي أنسخها، بينما

ظللن يثرثن عن نقوش أخرى وأفضل من هذه موجودة بين الصخور والآثار في وطنهن بالجوف.

وانتهت مداعبتنا، وعدنا للمعسكر لنجد أن الطباخ قد انتهز فرصة تأخرنا وقام بإعداد الغداء. وفي الوقت نفسه كان محمد بن قنير من قبيلة الصيعر والذي كان أمير نجران قد أوصى به مقدماً ليرشدنا ويفسح لنا المرور بسهولة وحرية في منطقة قبيلته، قد وصل المعسكر لينضم للجماعة، وكان أبوه، علي بن قنير، شيخاً لقسم من القبيلة ذي مقام عظيم وكان في ذلك الوقت غائباً في زيارة للرياض لمقابلة الملك. وكان محمد رجلاً عذب الحديث، في حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمره، رقيق البنية، وتنقصه القوة، ويبدو أنه مصاب بالسل ويظهر أن فخذه من قبيلة آل جنير قد هاجر بشكل دائم تقريباً إلى المنطقة المجاورة لنجران، وهكذا اكتسب الجنسية العربية السعودية.

وكان الوقت قد بلغ الظهر بالفعل عندما انتهينا من الغداء، وبعدها ركبنا السيارات وبدأ السير لإعادة تتبع خطواتنا التي مشيناها الليلة الماضية على خط وادي قراء حتى النقطة التي دخلناه منها. وكان هناك عدد لا بأس به من أشجار الأثل والسنط على طول القناة، ولاحظت عدة أسراب من طائر الرقراق، وهي بلا شك أوائل الطيور المهاجرة في الحريف، على الرغم من أن الوقت (٣٠ يوليو) لا يزال مبكراً بصورة مثيرة للاستغراب. وربما تمكث بعض هذه الطيور لتتناسل في الأجزاء المناسبة من جبال اليمن أو تتخذها مأوى لها مثلما فعل الشقراق الحبشي في سهل تهامة. وكانت نباتات الوادي تضم شجيرات الحرمل والمرخ مع كثير من حشيش الثمام الخشن. وقد أطلقت رصاصة على طائر مغرد واكتشفت أن رجله كانتا مكسورتين وإنه بلا ريب قد تخلف عن رفاهه المهاجرين للشمال في أوائل الصيف نظراً لإعاقته.

إن وادي قراء عند خروجه من التلال - يسير بين ضفتي رمال يرتفعان حوالي خمسة عشر قدماً. وقد لزمنا الضفة اليسرى لتمكن من السير على سهل رملي واسع

وذي أرض ثابتة وجيدة عند التقائه بوادي اليتمة خلف رابية طويلة ومنخفضة ومغطاة بالرمال وتتكون من الصخور وتسمى (لغدم). وعلى البعد أماننا ظهر تل (الفهود) الصغير، الذي يختفي في رماله وادي اليتمة. وقد رأينا طيور الحبارى والغزلان هنا، وانطلق جعل على قدميه يطارد خلصة واحدة من النوع الأخير، ولكنه لم ينجح. وقد حاولنا أيضاً اصطياد أربعة من طيور الحبارى تكمن بين روابي "العبل" بالسهل، ولكن كلما اقتربت منها السيارة بصورة مزعجة أطلقت جناحيها العنان. وبعد ذلك تركنا الصيد والمطاردة واتجهنا نحو أكمة (أم الشداد) الصخرية الناتئة. وهكذا أتينا على الضفة اليسرى لقناة (الفرش) التي تغطيها بكثافة التلال الرملية المتحركة، وهي أحد الفروع التي يصب فيها وادي خب في الصحراء. هذا الفرع يمتد على طول الجانب الشمالي لأم الشداد ومرة، بينما يخرج الخط الرئيس للوادي إلى الرمال على طول الحافة الجنوبية لسلسلة جبال الطويلة. وكان هناك في هذه القناة الكثير من أشجار المرخ التي تنمو نمواً وثيراً علاوة على غابة كاملة من أشجار السنط الطويلة من النوع على شكل المظلة. وفي هذه الغابة رأينا مرة أخرى عدداً قليلاً من طائر الشقراق. وقد سرنا في سهل رملي به خطوط من الحصباء لنطارده غزلاً لمسافة معينة بدون نجاح حتى حافة القناة الرئيسة لوادي خب.

لقد كانت عبارة عن دلتا واسعة أكثر من مجرد قناة، ويتناثر فيها لمسافة بعيدة وعريضة حطام الأشجار والشجيرات التي جرفت السيول. وهنا كان السير وعراً، إلى أن أتينا على مسار واسع مليء بالشجيرات والأشجار، الراك والعبل والسنط، عند حافة التلال التي يخرج منها الوادي، وهو الآن مثل قاع نهر واضح المعالم، إلى السهل مع حزمة عريضة من التلال الرملية المرتفعة والجميلة على طول ضفته اليسرى. وكانت جماعة الإبل قد وصلت بالفعل إلى المعسكر هنا، نظراً لأنها سلكت طريقاً مباشراً بدرجة أكبر، وقد قضيت طول فترة العصر حتى الغروب أتجول بالغابة بحثاً عن الطيور. وقد اصطاد فرج بالبندقية اثنين من الأرناب البرية في الوادي، في حين

وجدت الأشجار قد غزتها أعداد كبيرة من الطيور المغردة مثل (Orphean Warbler) والتُمير النيلي الصغير (Nile Valley Sunbirds) والبلابل والثرثار. وقد رأيت أيضاً بعض طيور الكروان الجبلي (Stone Curlews) كامنة بين الشجيرات على مقربة شديدة من معسكرنا.

ونحن الآن في حدود مسافة قريبة من آخر مكان للسقيا قبل عبور الصحراء. ولذلك تقرر أن نحاول الوصول إليه قبل غروب شمس اليوم التالي، وبناءً عليه انطلقت جماعة الإبل في المسير عند الساعة التاسعة مساءً، وكان هذا أول مرة تسير فيها بالليل طوال الرحلة. وكانت قبل مغادرتها قد سبقها تغيير كبير في توزيع الأحمال؛ فقد كانت بعض الإبل النجرانية تبدو عليها -حقيقة- علامات الذبول وأعراض الهزال بالفعل، على الرغم من تقدمنا في السير بتمهل شديد، وسيكون من الضروري شراء قليل من الحيوانات الإضافية في الشصيف لمواصلة الرحلة الطويلة حتى العبر. وقد تم إحالة الشجار إليّ لإصدار حكم فيه ولكنني رفضت التدخل في الأمر على أساس أن ترتيبات الحمولة من مسؤولية سعد. ولا أدري كيف تمكن من حل المشكلة، ولكن كم كان الوضع ساراً جداً وهادئاً عندما رحلوا عنا، وتركوا جماعة السيارات الصغيرة لتتبعهم في الصباح.

وخلال الليل كانت السماء ملبدة بالغيوم، وفي الصباح استيقظت حقيقة بزخة من المطر، التي مرّت -على أي حال- قبل ربح شمالية معتدلة، غير متوقعة، ومحملة بالتراب. وكان الجزء الرئيس العظيم من جبل يرتفع حوالي ألفي قدم فوقنا، وليس ببعيد عنا، والوادي يمتد على طول حافته الجنوبية صاعداً للأعلى نحو قرى خب التي تبعد عنا بمسيرة نصف يوم في اتجاه الجنوب الغربي؛ ولذلك سيكون من الممكن، طبقاً لما ذكره ناصر بن شماخ وهو رجل كبير السن، وضئيل من فخذ المرادة من قبيلة نهـد ويدعي أنه مواطن من عياد، أن نصل الشصيف عن طريق قرى خب. وعلى أي حال فقد قررت ألا نضيع الوقت سدى في هذا الانحراف عن

الطريق، حيث إن الحكومة اليمنية كان يمثلها في هذه المنطقة القاضي، والذي قد يعد أن من واجبه أن يحجزنا بانتظار وصول تعليمات إليه من قيادته. ومثل هذه الحالة الطارئة لا أستطيع أن أتحمّل مخاطرها في هذه المرحلة من بعثتي، وبناءً عليه قررت أن أدع خباً لزيارة ممكنة أخرى في طريق رحلة عودتنا التي لم أحققها في الواقع. وقد واجهنا حاجز رملي هائل يسمى داعر الذي يبرز نحو الشرق من حافة مسار التل للجنوب منا وهذا أدى الى انحرافنا عن دربنا والدخول في المرتفعات التي وجدنا بها طريقاً سهلاً في سلسلة من الأودية بين سلاسل التلال المتناثرة. وعن يميننا تقع كتلة جرانيتية بارزة ورائعة ومرتفعة نسبياً وتسمى الحجلى. وكانت قممتها منشقة الى جزأين بينهما فجوة ضيقة بعمق مئة قدم. وخلفها أثينا على امتداد وادي سرحان المليء بالشجيرات حيث ينبسط مقابل رمال داعر المرتفعة، ويشق طريقه بينها وبين تلال حسرج الصغيرة حتى يلتقي بوادي خب. وقادنا مجاز رملي، عامر بشجيرات (العلقى) الخضراء رائعة المنظر (والعبل) وافرة النماء، إلى الكتف الداخلي لجبل داعر الرملي والذي يمتد من هنا في خط مستقيم ويصل ارتفاعه حوالي خمس مئة قدم وله حافة حادة مثل نصل السكين، ويستمر في سلسلة طويلة من التلال الرملية الجميلة مسافة بعيدة في الصحراء. وكان من الضروري أخذ قليل من الحيلة والحذر هنا في التعامل مع الحزام المنخفض من الرمال الناعمة الذي يمتد على طول مسارنا. وكان هناك أيضاً بعض منها في داخل الوادي الضيق. ولكننا نفذنا منها دون حوادث حتى أتينا إلى الأرض الأكثر ثباتاً تحت القمة الشاهقة لجبل محجوبة حيث كان درب حضرموت يحده وجود حزام من آثار السير المتلوية والمحفورة بعمق في الأرض. وصرنا نمشي الآن في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي، وكان سيرنا هذا رائعاً في ممر واسع من الرمال الثابتة مع الحافة العليا لوادي داعر عن يسارنا وحاجز رملي منخفض يطوقنا عن جهة اليمين. ونتيجة لسيرنا بسهولة ويسر فقد استطعنا مطاردة زوجين

منفصلين من الغزلان اللذين انطلقا يعدوان أماننا، واضطرا أن يجريا في خط مستقيم أماننا نظراً لوجود رمال عالية على كلا الجانبين. وكان الزوج الأول من نوع (إدمي) الشائع، وقد هرب منا مرتين جرياً جيئةً وذهاباً. أما الزوج الآخر فكان من نوع الريم أو العفري وكان جعل عمل قد اصطاد الأثني التي زدتنا بوجبة لحم شهية عند توقفنا وسط النهار تحت سلسلة جبل المعو. وبعد انطلاقنا حوالي عشرة أميال على طول هذا الممر انجرفنا قليلاً للجنوب عن الشرق لعبور السهل الذي يفصل (داعر) عن (المعو). وهنا أدى وجود غطاء نباتي للأرض، مثل (العبل) فوق كتل منخفضة من الرمل، و(النصي) بل وحتى بعض النباتات الزهرية الصغيرة الصفراء الجميلة، إلى صعوبة السير. ومقابلنا ظهرت فتحة في سلسلة المعو الطويلة والتي سوف تقودنا إلى وادي أمواه^(١) من خلفها. ولكن الغزال، الذي كان هذه المرة من نوع العفري والذي صنف بأنه نوع فرعي جديد^(٢) اعتماداً على لون جلودها ورؤوسها التي أرسلتها للمتحف البريطاني منذ سنوات مضت، قد عطل خططنا. فقد طاردناه لمسافة بعيدة على طول مقدمة سلسلة المعو نحو الغرب. وقد نجح جعل فقط في إصابته بجرح، ولكنه انطلق يعرج في الأرض الوعرة عن يميننا، وواصلنا مطاردته فيها، ولكن ذلك كان غير مجد من الناحية العملية. وعلى أي حال فقد جرى جعل على قدميه وراء الحيوان، بينما أخذ الآخرون للراحة عند منتصف النهار. وخلال ذلك تناولنا، حتى الشبع، لحم الطريدة المشوي على الجمر مع الخبز والشاي. وقد وفرت لنا السيارات ظلاً ظليلاً من الشمس التي كانت في هذا الوقت من السنة دانية تقريباً من الرؤوس عند الظهر في هذه المناطق الجنوبية. وبينما كنت أرقد بجوار سيارتي على بعد حوالي عشرين ياردة من الشاحنة التي تجتمع خلفها باقي الجماعة يطبخون ويغنون، فقد

(١) ورد اسم هذا الوادي بهذا الرسم لدى الهمداني في صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، (المراجعون).

(٢) غزالة سعودية. (المؤلف).

ظننت أنني سمعت أصواتاً آتية من حافة منحدرات المعو على بعد حوالي أربع مئة ياردة. وعندما أطرقت السمع، منصتاً باهتمام استطعت بسهولة أن أتين الكلمات التي تقال، وأدركت أنها كانت مجرد حدى واضح جداً ويميز للثرثرة المنبعثة من خلف الشاحنة. وكان الصوت يبدو آتياً من أسفل قاع المنحدرات الصخرية، التي كانت تشكل نوعاً من البهو لرجع الصدى الهامس. وفي وقت متأخر قليلاً بعد الظهر لاحظت أن هذه الظاهرة قد ضعفت من ذي قبل بدرجة كبيرة. ورجع جعل في الوقت المناسب، وقد بلغ منه التعب والعطش مبلغاً، ولكنه كان يحمل هيكل طريدته التي تم سلخ جلدها حتى أضمه لمجموعتي، قبل أن نستأنف رحلتنا فوراً بعد الساعة الثالثة عصراً.

وسرنا في وادٍ شديد الوعورة، يفوق دروب السير في حضرموت، حتى نفذنا خلال حاجز المعو. وعلى كلا الجانبين كانت الجُرف العظيمة والقائمة ترتفع عالياً فوقنا إلى أن أطللنا على سهلٍ واسع فيه تلال تستشر فيها شجيرات وادي أمواه وتمتد عبره نحو الصحراء. وإلى البعيد بين الرمال في جهة الشرق ترتفع سلسلة جبال الحيفض التي كانت أول علامة أرضية لنا خلال أول يوم في عبور الصحراء. وبعد مسافة للأمام قليلاً استطعنا أيضاً أن نرى شريطاً مظلماً من التلال الذي افترض جعل - بقليل من الشك - أنه جبل الريان وهو الملاذ المفضل للبقر الوحشي.

وعند حافة وادي أمواه توقفت لألقي نظرة شاملة لمشهد التلال السفحية التي تحد الصحراء، التي سوف ندخلها حالاً. وإلى البعيد خلفنا وقفت الشاحنة لعطل في المحرك، وكان علينا انتظار وصولها. إن الاتجاه العام للوادي، الذي كانت قناته واضحة بصورة جيدة ويمكن رؤيتها لمسافة بعيدة في اتجاه المجرى وعكسه، كان يسير من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكان قاعه مغطى بصورة كثيفة نسبياً بالعُبل والمرخ والراك، ولكن لم توجد آبار في طوله كله. وعلى بعد حوالي ميلين عكس اتجاه المجرى يلتقي بوادي ملحّة الذي يلتقي هو الآخر فيما بعد بقناة غمير. وتوجد بئر

واحدة في مجرى وادي ملح. وبعد فم وادي ملح يتشكل وادي أمواه من خلال التقاء ثلاثة أودية هي الشضيف والعريجا وشقبان ويوجد في كل واحد منها بئر للسقيا. ونظراً لهذا الالتقاء الثلاثي انطلقنا في هذا الوادي عند استئناف سيرنا. ولم نكن مضطرين أن نسير لمسافة بعيدة، فقد كانت المسافة كلها حوالي ثلاثة أميال فقط، ولكن كان هناك بعض الرقع الرملية الصعبة في القناة. ورأينا نخلة وحيدة من نوع الدوم، وكان ذلك بمثابة تغيير نرحب به في نباتات الوادي العادية. وبعد مسافة قليلة تمر القناة بين جُرُف شاهقة الارتفاع بها نقوش قليلة محفورة في الصخر الأسود. وسرعان ما وصلنا إلى نقطة الالتقاء. ويأتي وادي شقبان، وبه بئر يبلغ عمقها عشر قامات على مسافة ما عكس اتجاه المجرى، من جهة الجنوب ووادي العريجا من الغرب. وتحولنا للشمال في قاع وادي الشضيف وسرعان ما أقمنا معسكرنا بجوار عيون الماء الضحلة الواقعة في نتوء واسع من الوادي حيث تنتشر فيه مجموعات صغيرة من شجر الدوم هنا وهناك. وكانت مجموعة الجمالة قد وصلت المكان منذ زمن طويل، وهكذا اكتملت بنجاح أول مرحلة من رحلتنا. وقد كانت هذه المرحلة مملة شيئاً ما، إلا من وجهة النظر الجغرافية. فلم نر كائنات بشرية إلا قليلاً، ولم نَرَ منازل مأهولة بالبشر على الإطلاق، حتى الحيوانات لم نرها إلا نادراً، مثل قليل من الأرانب البرية والغزلان، والطيور نفسها لم تكن واضحة ومميزة، والحشرات كانت أيضاً شحيحة. وقد كانت الأرض بشكل عام أرضاً ميتة، مهجورة، بين الصحراء القاحلة وغطاء العشب.

وبعد الغروب فوراً نشطت ريح غربية غير سارة، وغمرت كل شيء بالرمل. وعند حلول وقت العشاء تقريباً هطلت رشة خفيفة من المطر لدقائق قليلة، وفي الساعة العاشرة ليلاً تلقينا مطراً آخر كان كافياً أن يجعل الأشياء غير مريحة لبرهة من الزمن، ولكنه لم يكن كافياً ليفيد تلك المنطقة الظمأى بأي صورة حقيقية. وإلى البعيد نحو الجنوب، كانت الغيوم الكثيفة تزمجر بالرعد وتومض بالبرق.

وجاء حسن بن هضبان وهو شيخ كبير من قبيلة دهم وذو مظهر مميز لمقابلتنا من معسكره بجوار عين الطرفاء بوادي العريجا وكنا قد علمنا به في نجران كأحد المجندين المرغوبين الذين يمكن ضمهم لجماعتنا إن استطعنا ضمان خدماته. ولم يكن هناك أي صعوبة في ذلك بالتأكيد، حيث إنه هو نفسه تطوع لمصاحبتنا وقدم لنا "الذلول" الخاص به. كما تحمل أيضاً ترتيبات شرائنا لبعض الحيوانات الإضافية لتحمل الأمتعة ولكي تساعد في تخفيف الحمل عن إبل نجران التي أصابها التعب بالفعل، وكان من ضمن الأمتعة زيادة كبيرة في إمدادات الماء المعبأ في براميل الوقود الفارغة والقرب المصنوعة من جلود الأنعام تكفي لأربعة أو خمسة أيام التي سوف نقضيها في عبور الصحراء. ولخلق توازن مع ارتقاء ابن هضبان إلى موقع رفيع في الجماعة، لم يظهر عبدالله بن مدعار وهو شيخ من الكرب وكان تم تنبيهه مسبقاً باللاحق بنا هنا. وعلى أي حال فقد جاء اليوم التالي، ليختفي مرة أخرى بعد أن أعطانا وعداً غامضاً بأنه سيعود في الوقت المناسب عند بدء رحلتنا في الغد. وجاء الظهر قبل أن يصل مع ستة رجال آخرين من قبيلته الذين كان من الواضح أنهم يشمون رائحة الحصول على وظيفة مريحة. واتفقت أنا وسعد على أننا لسنا بحاجة لعنصر من الكرب بهذا العدد الكبير لكنه يجوز لهؤلاء الرجال الإضافيين أن يرافقونا إذا استطاعوا توفير مطايا لأنفسهم وإحضار قربهم الخاصة بهم للتزود بالماء. ولم يكن هناك صعوبة في ذلك، ولكن الرجال طلبوا دفع جزء من خدماتهم مقدماً كشرط للحضور. وقد اعترضت على هذا بصورة قاطعة، وذاب الرجال في غياهب المجهول بلا تطفل، وقد أثلج صدري ذلك كثيراً. وكان ابن مدعار رجلاً في حوالي الستين من العمر، ذا لحية بيضاء تماماً وكثة وملامح قوية تنبض بالحياة والنشاط. وكان لا يعيب مظهره سوى عينيهِ المغمضتين بدقة، حتى ليبدو من الناحية العملية أنه أعمى وذلك لإصابته ببعض أمراض العيون. وكان يأمل بحماقة أنه قد يكون عندي دواء لها بين أمتعتي. كان حديثه فظاً ومتحدياً، ولكنه كان لديه روح طفل أفسدها فقط حب

المال واكتنازه ويخل الصحراء الذي يتعذر تفاديه . وقد أحضر معه - كما فعل ابن هضبان - أولاده الصغار وهم صبية في العام الثاني عشر أو الثالث عشر من أعمارهم - ليتعلموا التكسب في الصحراء ، وليعملوا مثل خدم شخصيين . ولكم تأثرت كثيراً لرؤية عناية الآباء المفرطة ، التي تصل إلى حد الهم بإطعام ذرياتهم ، لا سيما عندما يكون الصبية غائبون مع الإبل التي ترعى ويخفقون في الرجوع وقت الطعام . وفي مثل تلك المناسبات كانت هناك صينية مليئة بالرز مع قطعة كبيرة من اللحم جاهزة لهم فور عودتهم مباشرة .

وتصرف قناة الشضيف منطقة تجمع مياه واسعة في منطقة سفح التل . ومن الواضح أنها تتعرض على فترات متقطعة للسيول ، نظراً لأن كثيراً من شجر الدوم في منطقة البثر كان متكسراً من جذوره . وفي الحقيقة كان الوادي أسفل البثر مغطى بحطام متناثر من الأشجار وغيرها . والبثر - أو بالأحرى النبع (من النوع المعروف باسم فضية وجمعها فضايا) عبارة عن حفرة غير مبطنة بجانب قاع المجرى وممتلئة بالماء على عمق عشرة أقدام من طبقة الحصى التي تغطي القاع الصخري بطبقة رقيقة حتى لا يكاد يرى إلا جزء منه . ويوجد الماء بصفة شبه دائمة تقريباً . والتواء الدائري للوادي في هذه النقطة يزيه اثنان أو ثلاثة من أشجار الدوم كاملة النمو ، ورقع عظيمة من أشجار البلميط وهي نوع من النخيل قصير ومروحي السعف ، مع انتشار شجر السنط . وحوله ترتفع التلال المنخفضة التي لا يزيد ارتفاعها عن متر فوق مستوى الوادي ، وتشكل جزءاً من الأرض الواسعة المرتفعة المحيطة به والتي تحتوي أيضاً على الكثير من قنوات السيول المشابهة مثل العريجا وشقبان وملحة وغيرها هذه البقعة المحدودة الارتفاع ، تمتد لمسافة ما إلى الغرب ، ولكنها تنفصل عن سلاسل جبال اليمن الرئيسية بقناة الجوف التي تجري جنوب شرق من منابعها في الجرف الرئيس بالمنطقة المجاورة لصعدة . إن الصخور على الضفة اليسرى لوادي الشضيف ، الذي ينحدر إلى أسفل في انحدار شديد حتى نقطة الالتقاء الثلاثي التي ذكرناها من قبل ،

كانت محفورة بالعديد من النقوش العربية البدائية. وفي الزاوية المكوّنة بالتقاء قناتي الشضيف ومأوة توجد قمة صخرية متوّجة آثار قلعة قديمة مبنية من الحجارة الجرانيتية غير المصقولة وتتكوم فوق بعضها بدون مونة، وكانت القلعة دائرية الشكل، ويبلغ قطرها حوالي ثلاثين قدماً. وقد كانت وظيفتها -بلا ريب- حراسة منطقة التقاء الأودية الثلاثة من تدخل العدو.



وعند سفح التل يوجد عدد هائل من الأكوام من الصخور المرصوفة بدون ترتيب وبشكل عشوائي، والتي قد تكون إما قبوراً أو نصباً تذكارية، وعلى مسافة حوالي ١٢ أو ١٣ خطوة منها يمتد قوس ضحل من البناء بطول ٢١٠ خطوة، ويسير مع المحيط المتعرج للتل على طول حافة الوادي، ولكنه يبدأ وينتهي بدون أي غرض واضح. ولم أستطع أن أقاوم التسيجة المبدئية التي توصلت إليها وهي أن هذه الآثار تمثل آخر دليل باق على وجود سد قديم هنا على عرض رأس وادي الأمواه وأسفل الملتقى الثلاثي، مع قناة تابعة له تجري على طول جانب التل بمستوى مرتفع قليلاً. وكان الخوض عند الملتقى يقوم بوظيفة حجز قدر عظيم من مياه السيول، ولكن ما هو الغرض من مثل هذا التخزين؟ هذا ما لم أستطع فهمه أو تصوّره. ولأقصى مسافة أستطيع رؤيتها أمامي لا توجد رقعة صالحة للري على كلا جانبي الوادي لأميال كثيرة، ويبدو أن الغرض من الخزان كان لمجرد ضمان التزود الدائم بالمياه لسقيا الإبل والأغنام وما شابه.

والحقيقة المثيرة للفضول والتساؤل عن هذه الآثار أنه يوجد بين الشظايا غير المستوية للصخور المحلية عدد ضخم من طوب الحجر الجيري المشذب بطريقة جميلة

ويبلغ طوله حوالي قدمين وسمكه قدم واحدة. ومن المؤكد عدم وجود أي حجر جيري في أي مكان بهذه المنطقة المجاورة، وتزعم الأسطورة المحلية أن هذا البناء الرائع قد انبثق عن سد مأرب المشهور. وطبقاً لما قاله ابن هضبان أنه كان في بعض هذا الطوب نقوش، ولكننا فشلنا في العثور عليها وربما تكون هذه (الحجارة المكتوبة) قد نزعها البدو لبيعها للتجار في صنعاء، وإلى هناك أيضاً، كما قال ابن هضبان، ذهب تمثال صغير لجمال عُثر عليه بين هذه الآثار نفسها. وهذا التمثال جلب لمكتشفه المحظوظ مبلغاً هائلاً قدره عشرة ريالات.

وبعد الفحص الشامل لهذا الموقع المثير، انطلقت أنا وابن هضبان وابن قنير في قناة وادي العريجا لرؤية الصور والنقوش المحفورة على صخورها. وعلى مسافة ميل ونصف من الالتقاء الثلاثي أصبحت القناة غير صالحة بشكل واضح تماماً لمرور السيارات نتيجة لوجود حاجز طبيعي من الصخور يمتد من جانب إلى آخر لمسافة ما.



وقد سرنا نصف ميل آخر إلى حفرة الماء المسماة عصبة وفيها عمق الماء لا يبلغ إلا قدماً واحدة فقط في القاع الرملي. وفوقها مباشرة يوجد خط من الجُرُف الجرانيتية السوداء الشاهقة، الذي يعرف باسم سيق المري على طول الضفة اليسرى للقناة، وعليه علامات الماء الحميرية مثل O أو O محفورة به، مع اثنتي عشرة نقطة تشير إلى عدد الخطوات المزدوجة بينها وموقع ينبوع الماء. وكانت هذه أول تجربة لي أعرف فيها ذلك النظام الذي يشير إلى وجود الماء ومكانه الدقيق. وطبقاً لأقصى حدود علمي لم يلاحظ أي رحالة سابق في الجزيرة العربية أو في أي مكان آخر مثل ذلك النظام، ولكنه يبدو شيئاً عادياً في عصور سبأ البكرة. وعلى مسافة قليلة فقط، وفي

الجانِب نفسه من القناة توجد واجهة كبيرة لحائط صخري به عدد من الكهوف على مستوى الأرض. وعلى الجانب الآخر لمسافة ما تمتد هضبة العريجا نفسها مع وجود مجرى مياه منتظم تحت السطح الرملي بيوصات قليلة فقط وذلك على امتداد سفحها. وكان هناك أيضاً عدد من النقوش القديمة والعديد من علامات الماء، بينما توجد عدة أشجار من الدوم ومجموعات من شجر البلميط في منطقة متسعة من القناة فوق الصخور قليلاً وأسفل مدخل شعيب تغلل من الضفة اليمنى.

وقد سرنا حوالي نصف ميل آخر أو أكثر قليلاً إلى أن وصلنا إلى أول ينبوع من ينبوعي الطرفة الاثنين المملوءين بالماء. وهنا، مرة أخرى، كانت علامة الماء محفورة على الضفة اليمنى (وكانت الحلقة منقوشة بلا مبالاة تجاه الأعلى أو الأسفل وتمثل دلواً مربوطاً بحبل طويل) وكان مع العلامة اثنتا عشرة نقطة على جانبيها وبعض الرسوم غير الدقيقة للإبل. وقد ثبت بالفعل أن مسافة حفرة الماء في القناة الرملية تبلغ بالضبط اثنتي عشرة خطوة مزدوجة، وكان الماء على بعد ثلاثة أقدام في القاع وبعمق حوالي ثماني عشرة بوصة. لقد كان الماء نظيفاً، عذباً، صافياً إلا مما يغطي سطحه من ريش الطيور، والنحل الميت والفراشات وخلافها، بل كان بارداً ومنعشاً بشكل عجيب. وكنت عطشاً بعد مشينا ذاك وتمتعت بالشرب من ذلك الماء فعلاً.

إن ينبوع الماء هذا يقع فوراً خلف ثنية الوادي لليسار حيث تجري القناة هناك في امتداد طويل واسع إلى أن تصل إلى بعض التلال المنخفضة في البعيد. والبئر الثانية، المشابهة للأولى المذكورة أعلاه، تقع على مسافة ربع ميل منها وبها ثلاثة أو أربعة من أشجار النخيل ذات الثمر الناضجة، ولكنها من نوع رديء جداً، وهي تقف كعلامة على موقع معسكر ابن هضبان المكون من خيمتين صغيرتين من الشعر. وكان هناك مجموعة من الجمال والأغنام تسقى عند البئر حين وصلنا إليها. وبيع بعض الصعوبة انضغط ثلاثتنا في المساحة الضئيلة المتوفرة في مقر إقامة مضيفنا والذي كان مليئاً بالمتاع المعتاد للبدو الرحل. وكان سرج جملة الخاص وسجاده المصنوعة من جلد الغنم قد تم

ترتيبها لي بجوار مرتبة جلدية جلست عليها. وكانت أواني القهوة مرصوفة بجوار نار صغيرة عند الحافة الخارجية للخيمة، في حين تقبع مواعين الطبخ، والأواني، في كومة مقابل الطية الخلفية، وراء مضيفتنا، زوجة ابن هضبان الكبرى. وبجوارها جلست ابنتها البالغة رحمة وعدد كبير جداً من الأطفال الصغار - وكان بعضهم من ذرية زوجين غائبين وهما يحتلان الخيمة الأخرى، ويبدو أنهما من ذوي القرابة القريبة لابن هضبان. وكانت رحمة شابة في حوالي العشرين من عمرها، وترتدي ثياباً فضفاضة من النوع النجدي والتي تخفي هيئتها بالكامل، بينما كان وجهها من قصبة أنفها فما دون مغطى برقعة من القماش الأسود مزينة بزوائد وأطراف من الفضة وأشرطة معدنية لامعة. وكان شعرها مغطى بالغطاء العادي من قماش المسلمين الأسود، ولكن جبينها الجميل نوعاً ما وعيونها البنية الفاتنة كانتا مكشوفتين تماماً. ولم تكن بهية الطلعة جميلة المحيا على وجه التحديد، ولكنها مع ذلك لم تكن محرومة من سحر وفتنة معينة، على الرغم من أنها ظلت صامتة تقريباً خلال جلوسها الطويل، ولاحظت أنه لم يعرض عليها أبداً القهوة والقشر اللذين يدوران على باقي الجماعة بما فيهم أمها الثرثرة الودودة. وكانت ملابس الأخيرة تشبه ملابس ابنتها، باستثناء رقعة الوجه التي كانت سادة تماماً، وكانت ترفعها بدرجة كافية لتدخل فنجان القهوة إلى فيها.

وكان أحد الأطفال الموجودين يرتدي عقداً من حبات العنبر المقلد. وكانوا كلهم ذوي عيون مريضة، وبعضهم شديد المرض بصورة فظيعة. وبينما كنا نجلس هناك كانت رؤوسهم ذات الشعر الأشعث تتلقى - واحداً تلو الآخر - اهتمام رحمة التي كانت تبحث عن القمل وتقتله بكفاءة وقدرة هادئة. وجاء رجل، يحتمل أنه صاحب الخيمة الأخرى، وانضم إلى دائرة العائلة في مرحلة متأخرة من زيارتنا. ويبدو أنه قد أتى لتوه من مسافة بعيدة ولديه أخبار عن الولد الكبير الأحسن في صنعاء حيث كان مثل الكثير من الشباب الآخرين ذوي المكانة القبلية الطيبة، يتمتع بكرم الحكومة كرهينة لضمان سلوك والده الحسن. ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر نظام الإمام يحيى ولا حتى

بخله الشديد، أشد بغضاً ومقتاً في هذه المنطقة من خطف واحتجاز الرهائن هذا. ولكن الأخبار في هذه الحالة كانت طيبة، فقد كان الشاب في حالة جيدة وإذا أراد الله سيعود لبيته مرة أخرى في يوم ما. وتفوهت النساء ببعض الأدعية والثناء على الله والشكر له والأمل في عودة الولد. وكان هذا الرجل الذي أتى علينا يدعى مبروك بن محمد بن ناصر من فخذ المرازيق من قبيلة دهم واكتشفنا، بالصدفة العجيبة، أن والده كان هو المكتشف المحفوظ للجمل البرونزي الذي ذكرناه خلال حديثنا في الصباح.

وعندما قلت إن الوقت قد حان للتحرك احتج ابن هضبان قائلاً إن الوقت مازال مبكراً وشديد الحر للمشي. وعلى أي حال فقد بقيت مصراً على رأيي، ونهض متردداً كي يلحقني، وهو ينهمك في إصدار توجيهاته الأخيرة لعائلته المجتمعة أمامه والتي لن يراها مرة أخرى إلا بعد عودته من بعثتنا. ووضعت ريالين اثنين في يد المرأة العجوز وشكرتها على كرم ضيافتها وأسرعت الخطى نازلاً في الوادي. وسرعان ما جاء ابن هضبان في أثرنا، ودهشت عندما رأيته قادماً بمفرده. وكان ابن قنيسر الذي يمقت بذل أي جهد أو مجهود ويمقت الشمس فوق كل شيء، قد تخلف عنا بحجة إحضار جملة الذي كان يرعى مع حيوانات قبيلة دهم وفي الحقيقة لم يعد للمعسكر إلا في الصباح، وسرعان ما اتضح تفسير ذلك. وقد سألت ابن هضبان عندما كنا نمشي: «هل ابنتك متزوجة؟» فرد قائلاً: «لا ولكنها كانت متزوجة». وكان ابن قنيسر هو الذي أخذها زوجة عذراء، ولكنه لم يستطع أن يدفع المهر المتفق عليه وقدره أربعون ريالاً، وبعد شهر أو شهرين أعادها إلى بيتها. ولم تتزوج مرة أخرى حتى الآن. ولذلك ربما يعود سبب تخلفه عنا إلى رغبته في تدفئة قلبه بجمر الحب القديم، بل ربما كان حبه القديم حنوناً شفوفاً. إن شؤون الزواج بينهم عبارة عن صفقات تجارية بسيطة بين العريس ووالد العروس، حيث يقوم الأول، إن لم يقدر على دفع الثمن كاملاً، بدفع شيء ما تحت الحساب. وكان ابن قنيسر قد دفع عشرة ريالات

وأخذ الفتاة. وفي تاريخ استحقاق دفع المبلغ الباقي إما أن يرسل النقود لأسرتها أو يطلق زوجته ويعيدها إلى والديها. وهذا النظام معرض بوضوح لمفاسد كثيرة وإساءة استخدام الحق ولكن اقتصراره على دائرة العائلة المحدودة - كما هو الحال - يقلل على الأرجح من عيوبه.

عدنا للمعسكر بطريق أكثر مباشرة من الوادي. وانطلقنا داخل التلال عند الثنية التي تخفي خيام ابن هضبان عن أنظارنا، ولزمنا سلسلة من الوهاد الصغيرة المؤدية إلى وادي العريجا حتى منطقة تقسيم مياه، ومن ثم نزلنا شعباً مجهولاً لا نعرف له اسماً، والذي ينتهي بعد حوالي ميلين في وادي الشضيف وأعلى البئر بنصف ميل فقط. وتوجد القرب والبراميل الخاصة بنا قابعة حول الحفرة معبأة وجاهزة لرحلتنا الطويلة. وكانت الإبل، منذ وصولها في عصر اليوم السابق، ما تزال ترعى على الأرجح مع قطع ابن هضبان، ولم تعد من المرعى إلا الساعة الثامنة والنصف في صباح اليوم التالي، وهو الوقت الذي كنا وعدنا بوصول الإبل الإضافية عنده. وكان سعد قد انتهى بشكل أو آخر من ترتيب تفاصيل الأحمال مقدماً، بالإضافة إلى أخذ مخزون من المؤونة والطعام. وكان كل شيء قد بدا في الحقيقة جاهزاً للتحرك مبكراً عند الصباح. وبدا كل فرد مسروراً واثقاً من الخطوة التالية من رحلتنا.

الفصل الثالث

البرية

في صباح الثاني من أغسطس كنت مستيقظاً مع الفجر كالعادة وانشغلت بالترتيبات النهائية للرحلة ولم يكن هناك أي حركة أو نشاط مماثل لنشاطي بين رفاقي الذين كانوا إما يغطون في نوم عميق أو يحتسون القهوة حول نار المعسكر. وكانت الجمال لم تعد بعد من المرعى. وما زال ابن مدعار غائباً. ونظراً لأن عيود -الطباخ- كان يشم رائحة التأخير الذي يتعذر اجتنابه، فقد أشعل النيران تحت قدوره ليعد الغداء. وبخلاف ذلك كان كل شيء جاهزاً.

ولقد كانت الأيام القليلة الماضية فاسدة الهواء قابضة للصدر وثقيلة الوطأة إلى حد ما دون أن تكون حارة على وجه التحديد. وفي الضيف كنا على ارتفاع حوالي ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن درجة الحرارة في السابعة صباحاً لم تكن تقل عن ثمانين إلا بقليل. وعند منتصف النهار كانت ترتفع إلى ثمانية وتسعين تحت ظل الخيام (وهذه ليست درجة حرارة مناسبة في الظل)، كما نزل المطر قليلاً. وكانت الظروف الجوية في الحقيقة مختلفة جداً عما كنت أتوقعه في هذه المناطق الجنوبية، وكان من المدهش تكرار تأخير أو تعطيل الغيوم لملاحظتي للنجوم. وكان من الواضح أننا على حافة منطقة الرياح الموسمية، على الرغم من أن الحاجز العالي لجبال اليمن قد استولى على جميع الأمطار الفعلية، ولم تكن الظروف غير مواتية للسفر بالصحراء.

وقد أنفقت وقت الانتظار في قراءة الأعداد القليلة الأخيرة من مجموعة ضخمة من جريدة التايمز التي تلقيتها قبل مغادرتي لنجران. وكان العدد الأخير بتاريخ ٢٦ مايو، يحتوي على مراجعة لكتاب فريا ستارك المنشور حديثاً عن رحلتها بحضرموت. وكانت وجهتها أيضاً شبوة، وتساءلت ما إذا كنت سوف أنجح أكثر منها في كشف

السر الذي ظل حتى الآن يتحدى جميع المحاولات لسبر أغواره. وبينما كنت أمكث لقراءة الجرائد إذ جاءني رجل ودخل خيمتي وسلمني خطاباً من ماكسويل دارلنج^(١) الذي كان قد زار جدة وسهل الحجاز الساحلي في أوائل هذا العام بحثاً عن الجراد. وكان الآن لا يزال يبحث في هذا الموضوع في بيجان التي غادرها المبعوث منذ ثلاثة أيام فقط. إن الأخبار تسير بسرعة في الصحراء بكل تأكيد، وكان ماكسويل دارلنج قد سمع بوجودي في نجران من شخص يدعى (سعيد بن حسين) الذي قابلته في بئر الحصينية^(٢) في وادي حبونا واستفسرت منه عن إمكانية الوصول بالسيارة إلى شبوة وبيجان، ووعدني أن يعمل كدليل لي إذا انتظرت حتى يعود من خب، حيث إنه كان في ذلك الوقت ذاهباً إلى هناك في بعثة لتحصيل ديون. وكان مبعوث ماكسويل دارلنج قد جاء إلى الضيف في مسار رحلته الطبيعي لنجران، ولم يظهر عليه أدنى دهشة من مقابلتي في منتصف الطريق.

وأخيراً وبعد وقت طويل وصل ابن مدعار قرب الظهر، أي في الميعاد المناسب لتناول الغداء. تم تقسيم القافلة إلى جماعتين، واحدة للسيارات وأخرى للإبل، وذلك بعد نقاش كثير. وكان ابن قنير قد ضغط على وجه الخصوص ليمضمه إلى الجماعة الأولى، وقد قبلت حجته على أساس أننا على الأرجح سوف نسير بين بدو الصيعة في الصحراء أكثر من أي شخص آخر. وعلى أي حال كان عليه أن يركب في الشاحنة، بينما كان ابن مدعار سوف يركب معي بناءً على ما يدعيه من معرفة المنطقة المحلية، والتي كان عمه يقلل منها إلى حد كبير. وكان جعل، الخبير في صيد البقر الوحشي، سوف يظل في جماعة السيارات، ولكنه انتقل إلى الشاحنة، التي تحمل

(١) من الإدارة الزراعية بالسودان. (المؤلف).

(٢) الحصينية: قرية مهمة من قرى حبونا، يمر بها الطريق الحضري، البلادي، بين مكة وحضرموت ص ٢٠٦. (المراجعون).

أيضاً محمد السائق، وابن حضيل ليطبخ لنا، وسعد بن عثمان للمحافظة على لحوم الحيوانات. واكتملت الجماعة بابن شماخ، كما تمّ توزيع كل من تبقى على الإبل، وقد أعرب ابن هضبان عن تفضيله ركوب (ذلوله) الخاص.

وفي حوالي الساعة الثانية إلا ربعاً بعد الظهر بدأت الرحلة بانطلاق جماعة الإبل أولاً. وأعطيناهم ساعة بعد التحرك ثم بدأنا في اقتفاء أثرهم عبر الوادي بالطريق نفسه الذي كنا أتينا منه منذ أيام قليلة مضت. ولم نكن قد تجاوزنا الملتقى الثلاثي بكثير عندما طلب مني ابن مدعار -الذي لم يركب سيارة أبداً من قبل- أن أتوقف. وفتحت له الباب، وجلس على الأرض يتقيأ ما تناوله في الغداء. وعندما شعر بتحسن استعاد مكانه بجواري. وبعد مسافة قليلة اضطررنا إلى الاتجاه لليمين نحو قاع شعيب محيجر، ولكن ابن مدعار، في ثورة مرضه، نسي أنه كان من المفروض عليه أن يرشدني. وعلى أي حال كنا قد تجاوزنا الثنية تقريباً عندما أدرك وظيفته. وعند الالتفاف بصورة مفاجئة في الرمل أوقفت السيارة، وأضعضنا بعض الوقت في إخراجها وبعد ذلك سرنا قدماً في رافد الوادي بالاتجاه الصحيح، ولكننا لم نكد نقطع مسافة كبيرة إلا وأعلن ابن مدعار عن قرب إصابته بالمرض مرة أخرى. وتوقفت إلى أن انتهى تماماً من التقيؤ وشعر بأنه مستعد وسليم جسمياً لمواصلة المغامرة. وفي هذا الوقت كنا قد وصلنا رأس شعيب محيجر قرب سلسلة تلال منخفضة، وبعدها عبرنا رافداً صغيراً آخر لوادي الأمواه يدعى شعيب رقيب. وبعد ذلك بفترة وجيزة وحيث إننا لم نكن قد سافرنا إلا حوالي ستة أميال من الشظيف فقد دخلنا وادي غمير (ملحة) الواسع وهناك كانت جماعة الإبل قد أقامت المخيم بالفعل وكانت الإبل ترعى النباتات المتناثرة الخفيفة. وفي هذه النقطة وسط قدر ضئيل من شجيرات السنط والحرم كان الوادي يلتف في ثنية حادة جداً حول كتف أحد سلاسل التلال المعترضة ليستمر في مجراه عبر التلال المنخفضة حتى يتصل بوادي

الأمواه. ويمكن رؤية مجراه عكس التيار إلى مسافة تمتد حوالي ثلاثة أميال في الاتجاه الجنوب الغربي.

ولكي نقطع الوقت قبل الغروب تسلقت أنا وابن هضبان وابن مدعار وابن قنير قمة تل منخفض فوق معسكرنا حتى نلقي نظرة على المنطقة المحيطة. وإلى الشمال الغربي كانت سلسلة المعو الطويلة تسد الأفق بتل جامع الذي يرتفع فوق مستوى منخفض في السلسلة ليكون علامة واضحة على موقع وادي خب. وإلى الجنوب والجنوب الغربي ظهرت أمامنا سلسلة كاملة من القمم الشاهقة الجديدة وسلاسل التلال، الهضبة العليا وتمتد لمسافة بعيدة نحو الصحراء جنوب موقعنا تقريباً، وتطل رابية (اللوز) الجرانيتية العالية وقمتها (رويرة) الشاهقة المطلة على قرى الجوف تحتها وما وراءها، وهناك قمة (محر) خلف بئر بوع، مع سلسلة (صبرين) على جانبه القريب، وسلسلة صعيقان الطويلة، نصيف والخرشة.

وكانت الصحراء نفسها تختفي عن أنظارنا بسلاسل التلال المتداخلة المنخفضة. ووقع نقاش أخير بعد العشاء عما إذا كان يجب علينا أن نتجه إلى العبر أم شبة. إن الطريق الذي سوف نسلكه في الغد يتحدد بناءً على قرارنا، وكان إجماع الرأي يميل بصورة عامة إلى الطريق الأول لأنه أسهل الاثنين. كما أن هذا المسار يناسبني لأنه يبدو عبوراً مباشراً للصحراء أكثر من غيره، وطبقاً لذلك تم وضع خططنا بحيث نصل تلال الريان عند الغروب في اليوم التالي. وكان على الإبل أن تبدأ المسير في الصباح الباكر قدر الإمكان، ونحن نتبعهم على مهل. وقيل لنا: إن أفضل فرصة لنا في العثور على البقر الوحشي ستكون خلال هذه المرحلة الأولى، لأن جفاف الصيف سيكون الآن قد طردها إلى التخوم الغربية للصحراء. وحسب اعتقادي كانت آبار العبر تقع على بعد حوالي مئة وخمسين ميلاً من موقعنا الحالي في خط مباشر لحد الجنوب - الشرقي. وكان قطع من الأغنام - الذي عاد مؤخراً من الشرب في الشضيف، يرعى العشب في وادينا عندما انطلقنا في الساعة السابعة صباحاً على طول

أرض فضاء تمتد عبر السلاسل الأخيرة من المرتفعات. واختار ابن مدعار -دون أن يقول كلمة واحدة- أن يركب مع جماعة الإبل، وحسب أقصى حدود ما أذكره لم يتجرأ أبداً مرة أخرى على الركوب في أي من السيارتين. إن الساعة الوحيدة من تجربته المثيرة تلك كانت كافية لتبقى معه طول حياته. وجاء مكانه ابن هضبان، وكان هذا التغيير مفيداً من وجهة نظري. فعلاوة على كونه شخصية بارزة من بين طاقمنا كله، فقد كان يعرف المنطقة تمام المعرفة مثل أصابع يده.

وفي هذا الشأن كان هو وجعل صنفين فريدين لوحدهما، وقد انضم إليهما في هذه المنزلة فيما بعد شخصان آخران من الأشخاص الذين سوف نعترف بفضل خدماتهما عند ظهورهما على مسرح قصتي. ولهذا الرباعي أدين بدين لا يمكن حسابه لامتلاء خريطتي بهذه المنطقة بالكامل والتي لم يرسم لها خريطة حتى الآن. وكانت مكافأتهم على العمل، سخية بما فيه الكفاية حسب معاييرهم، من ميزان موارد المالية الضئيلة. ومع ذلك فإنهم يستحقون أكثر من ذلك لمساهمتهم القيمة في مجموع المعارف البشرية، وأحياناً أثناء خلو ذهني لفترة طويلة من المشاغل والأفكار المألوفة التي تتاب الإنسان كنت أستغرق في تأمل غرابة عادات الإنسان وتقاليده. إن مكتشف منجم الذهب ومخترع جهاز ميكانيكي أو دواء من الأدوية المسجلة ببراءة الاختراع أو مؤلف كتاب رائع أو قطعة موسيقية مشهورة، كلهم حقوقهم محفوظة بموجب حماية قانونية. أما مكتشف نجم جديد أو قارة جديدة قد يموت من الجوع، وقد مات بالفعل أحد أعظم المحسنين للعالم -وهو مكتشف بعوض الملاريا- فقيراً معدماً. إن علوم أمثال هؤلاء، التي اكتسبوها بعرق جيئهم، تعد ملكاً مشاعاً. إن العالم لا يشعر بالشكر والفوائد والامتنان للفوائد التي قد يجنيها بدون الاعتراف بها. هكذا الأمر مع العمل الطبوغرافي. إنني أكد وأكده مجاناً في خدمة العلوم البحتة، ولا أستطيع أن أكافئ بصورة كافية أولئك الذين ساعدوني في هذا الهدف النبيل.

وواصلنا السير حتى شفة الأرض الفضاء (أو الفرجة) التي تتجه للارتفاع شيئاً فشيئاً، وذابت المرتفعات أمامنا لتتكشف لنا الصحراء. وقد اقتبس ابن هضبان مثلاً من بعض أشعار البدو يقول «إن الذي يتجسس على قناو يهرب الطريق المخيف». وعلى بعد حوالي عشرة أميال للجنوب الشرقي ترتفع تلال "قناو" الثلاثة السوداء. وإلى مسافة بعيدة وواسعة امتد أمامنا سهل «جو المليس» الرملي الهائل، والذي تتناثر فيه تلال صغيرة معزولة، مثل تل الرجاء والقلعة على خط سيرنا نفسه، وبني جعاس و«مطاو»^(١) نحو الشرق، وحيض الذي يبرز من بين أمواجه الرملية للشمال - الشرقي، وبلق والشهلا عند مسافة بعيدة للجنوب - الشرقي. وقد سدت سلسلتا الهضبتين مع اللوذ مدى النظر في اتجاه الجنوب.

وطار زوج من الدجاج البري من أمام السيارة ثم حط مرة أخرى على الرمل جانباً. وعبرنا خط «غار النويري» الضحل الذي يقوم بتصريف الأمطار والمحدد بشريط من أعشاب الحزم الذابل وقليل من الشجيرات الصغيرة الجافة. وتوقفنا لنفحص دروب قافلة تتجه نحو الشرق والشمال الشرقي نحو تلال الريان. وكانت بلا ريب قاصدة حضرموت، ولم تمر في هذا الطريق إلا الليلة الماضية فقط، ولكننا لم نرها هي أو أثر سيرها مرة أخرى. ومما لا شك فيه أنها سارت على طريق مختلف إلى الجنوب من طريقنا. وقد رأينا هنا أيضاً أثر سير الثعالب، وكنا قد لاحظنا أول الغزلان على بعد حوالي خمسة أميال بعد ذلك عندما عبرنا مسطحات التصريف الضحلة لكل من حزم وقسين. وكان سطح الصحراء طيباً بصورة عامة وذا رمال ثابتة و متموجة قليلاً وبه بقاع متباعدة من الحصباء الخفيفة. وكان طائر وحيد من طيور القنبر الصحراوي يستظل من الشمس تحت شجيرة هزيلة هي الوحيدة الموجودة بالمنطقة لمسافة أميال حولها.

(١) في خريطة نجران مقياس (١ : ١٠٠٠٠٠)، موضع في خط سير هذه الرحلة باسم «مطان» لعله يكون هو الموضع الذي سماه فيليبي مطاو "Matau". (المراجعون).

وانتهجنا الآن لخط بعيد من الشجيرات التي تقف علامة على قناة التصريف «شفة الخليل» ولزمنها نحو الجنوب الشرقي. وهنا رأينا أول أثر لسير البقر الوحشي، جديد تماماً، بين الكلا الضئيل. وواصلنا التزام هذا المنخفض أملاً في رؤية الحيوانات، ولكن بعد فترة من الوقت تحولنا نحو الشمال تجاه مطاو.

وانطلقنا بالسيارة في سرعة جيدة فوق سهل من الرمل الجرانيتي ذي الحبيبات الخشنة، وكنا نقرب من تل مطاو عندما افتقدنا الشاحنة. وقد مسحنا الصحراء في جميع الاتجاهات، وبعد مدة طويلة رأيناها تطير بسرعة كما لو كانت "مجنونة". وكان مما لا شك فيه أنها تطارد غزالاً على الرغم من تعليماتي المحددة بأن تترك جميع أعمال الصيد لسيارتي. إن تموين الوقود معنا لم يكن زائداً بدرجة تكفي أي ترتيبات أخرى. ومن الغريب -على أي حال- أننا لم نشاهد الغزلان على الرغم من أننا عبرنا بعض آثار سيرها. ومهما يكن من أمر فقد قررنا أن نواصل السير حتى مطاو لتوقف هناك عند منتصف النهار، والآن لاحظنا أنه مأهول بالفعل. فحواله كانت الإبل ترعى ومعها بعض الرعاة. واعتقدنا أنهم ربما يكونون من القافلة التي رأينا أثر سيرها، وتقدمنا بحذر قبل أن نورط أنفسنا. واكتشفنا، على أية حال، أنهم من جماعة الإبل التابعين لنا وقد توقفوا للراحة والطعام على الرغم من أن الوقت كان لا يزال في العاشرة والنصف صباحاً. وكان هذا تقريباً سيراً طيباً بدرجة كافية لرحلة بلا ماء تمتد لقراءة مئتي ميل، ولكن الإبل كانت هي قدرنا التيسر، فالسيارات تستطيع، على كل حال، أن تصل الريان بسهولة قبل الغروب، أما الإبل فسوف تضطر أن تسير خلال جزء من الليل حتى تخيم معنا.

ولقد ثبت أن مطاو بقعة ملائمة لنوم القيلولة. فصخوره الجرانيتية المتراكمة بلا نظام وفرت كهوفاً وملاجئ كافية لنا جميعاً، وقمته - التي يمكن الوصول إليها ببعض الصعوبة - أعطتني نظرة طيبة على جميع ما حولها. وقمة جبل زنقر التي تطل على بئر مشينقة تقع تقريباً إلى الشرق تماماً من موقعنا، بينما باقي تلال الريان، وهي مساحة واسعة من الروابي والسلاسل الجبلية، تمتد من الشمال الشرقي حتى الجنوب الشرقي،

وتسد النظر لما وراءها. ومن أقصى طرفها للشمال الغربي من موقعنا هنا كان هناك منظر رائع للرمال العالية والتي كانت أقرب نقطة منها لنا تبعد حوالي ميل. هذه الرمال، طبقاً لما قاله ابن هضبان وجعل، تمتد من حدودها الجنوبية، على طول خط العرض السابع عشر تقريباً، في مجموعات صلبة لا يمكن اجتيازها من سلسلة تلال إلى سلسلة تلال حتى أقصى حدود وادي الدواسر في الشمال. وتتشظى نحو الغرب تجاهنا نحن والتلال السفحية اليمنية في سلسلة من المنحنيات الخفيفة مثل الأطراف الناعمة لمروحة مفتوحة من ريش النعام. ويبدو أن أطرافها تتموج تقريباً مع النسيم الذي يهب عليها. وتختلف محاور الأقواس الرملية التي يمكن رؤيتها من الغرب للشرق عن يسارنا حيث يتصل اثنان منها اتصالاً وثيقاً بتل بني جعاس، (غرب، جنوب، غرب) - (شرق، شمال، شرق) في المركز المقابل مطاوع، وإلى (جنوب غرب، شمال شرق) عن جهة اليمين حيث تصل الحدود الخارجية للريان. وعلى أي حال يبدو أنها تتهياً في تشكيلات أكثر تكتلاً عند القاعدة، التي تمتد منها التلال الرملية الضخمة نحو الشرق إلى حدود البصر. أصابع الرمل المنحنية الخارجية فقط تمتد تجاه الجنوب من دربنا الذي ننوي أن نسلكه، وتستمر من سلسلة قوع في الريان عبر واجهة هذه التلال حتى تل الخليفة الصغير والمنعزل في الصحراء. هذا الامتداد، كما نكتشف في الوقت المناسب، كان ذا موجات منخفضة وثابتة نسبياً ولم تمثل عقبة خطيرة لمروور السيارات عليها.

وقد أضافت صخور مطاوع إضافة ضئيلة إلى مجموعة «التاريخ الطبيعي» التي أمتلكها حيث أهدتني زوجاً من الجرابيع التي يبدو أنها وفيرة هنا، والطائر المغرد الرمادي الذي لاحظت علاوة عليه «هدهداً» وحيداً عند وصولنا. وعلى أي حال فقد جاءنا بند أكثر أهمية مع جماعة الشاحنة الذين كانوا يقودونها وهم يغنون بصورة مفعمة بالقوة والحياة احتفالاً بشجاعتهم وبراعتهم. وقاموا بسحب ثور رائع من البقر الوحشي

من السيارة وأحضروه إلى كهفي. وسواء كنت عاقلاً أو لا فقد انتابني الغضب أكثر من السرور، وصببت جام غضبي على هؤلاء الصيادين الذين أصابهم الذهول والاستغراب، فلقد تحدثنا كثيراً لأيام طوال عن احتمال رؤية البقر الوحشي في بيئته الطبيعية بالصحارى. وفي نجران كنت أستطيع أن أضمن عينات كثيرة قدر ما أرغب من خلال تكليف صيادي البدو باصطيادها لي. وقد أهداني الأمير عجلاً صغيراً منها، ولكنه لسوء الحظ مات بعد شهور قليلة وهو في طريقه إلى جدة. إن رغبتى الوحيدة كانت رؤية الحيوان حياً في وضعه الصحيح والاحتفاظ -إن أمكن- برأس واحدة منها لنفسى. وقد وعدني بعمل بكل ثقة أن يحقق أمنيته. وهو -من بين كل الناس- قد وفر عليّ المشاق عندما رمى الغنيمة عند قدمي. وبكل بساطة لم يستطع فهم استيائي. وكان من المستحيل أن أحاول تفسيره له. وهكذا تناولنا الغداء من العصيدة في صمت كئيب، ولم يجرؤ رجل واحد على السؤال عن اللحم. وبعد ذلك قمت بقياس هذا الحيوان الرائع وطلبت من سعد أن يسلخه. لقد كان الوحيد الذي استطعنا رؤيته أو الحصول عليه مطلقاً. إن انتهاك جعلل للمحرمات كان أكبر من أن تغفره الصحراء.

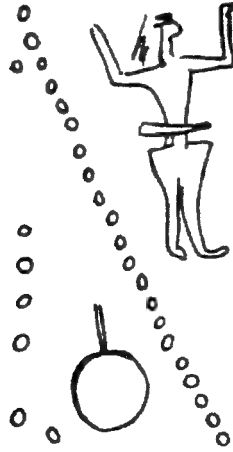
وكانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن تنطلق الإبل، ولم تصل المعسكر إلا عند الساعة التاسعة. وكان الحاجز الرملي المنخفض، الذي وصلناه بعد أن مشينا خمسة أميال، يمتد في ثلاثة أشرطة منفصلة عبر مسارنا بعمق إجمالي يزيد قليلاً عن ميل واحد. وبعد ذلك بستة أميال دخلنا سلاسل التلال المنخفضة التي ينتشر الرمل عليها والتي تشكل الدائرة الخارجية لأرض الريان. وعصفت رياح شرقية مروعة بالرمل من تلك المنحدرات في وجوهنا. وعلى أي حال لم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى منخفضات الوادي الوسطى التي تتدفق من منحدرات التلال الشاهقة. وكان أكبرها «شعيب مشينقة» الذي قاسينا قدراً عظيماً من الصعوبة في عبوره نتيجة وجود كتل ضخمة من الحشائش على كلا جانبي القناة الحقيقية. وإلى مسافة قريبة على ضفة

الشعيب اليمنى اخترنا موقعاً لمعسكرنا في بقعة ذات أشجار قصيرة وشجيرات متفرقة . ومشيت أنا وابن هضبان في الوادي نرتاده ، وبعد نصف ميل تقريباً فوق معسكرنا ، حول ثنية من القنات صادفنا موقع بئر قديم محاط بأثر محاولات حديثة لحفره والتي فشلت -على كل حال- في العثور على الماء . وبالقرب منه توجد مقبرة ضخمة نسبياً تحتوي على قبور جماعات من البدو أو ضحايا معارك قبلية . ومن بينها كانت هناك رقعة دائرية محاطة بطبقة واحدة من الحجارة غير المستوية ومزينة على جانبها الجنوبي بقطع أكبر من الصخور بارتفاع يبلغ حوالي قدمين ، ومنصوبة إلى أعلى . وكان قطر الدائرة سبع خطوات ، والسطح الداخلي بها لا يبدو أن أحداً قد وطأه من قبل . ولم تكن قبراً بالتأكيد ، ولكن ماذا تكون إذن؟ هذا ما لم يستطع ابن هضبان قوله ولم أستطع أنا أن أحمنه .

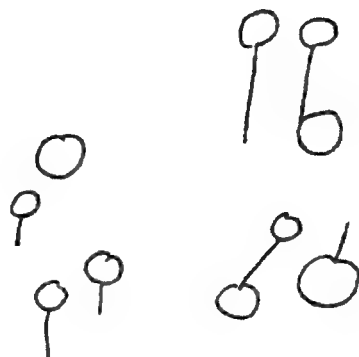
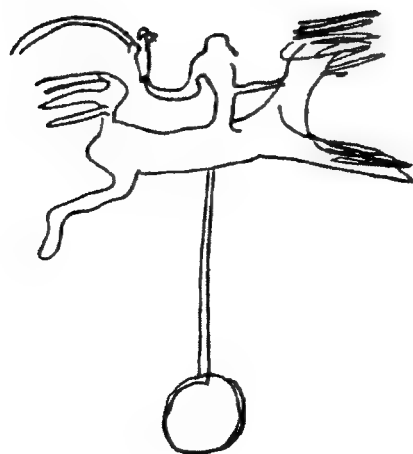
وهناك موقع بئر آخر إلى البعيد قليلاً في القنات مقابل صخرة في الضفة اليسرى مزينة بقليل من النقوش . وهنا أيضاً حاول البدو مؤخراً -ولكن بلا جدوى- الحفر في الرمل طلباً للماء ، في حين قد كوفئ بحثهم في بقعة ثالثة قريبة باكتشاف فوهة بئر تم حفرها في الصخور الجرانيتية الحمراء ، بقطر ثلاثة أقدام وعمق حوالي عشرة أقدام في الرمل الذي انهال إلى الداخل وسد باقي البئر . ومن الواضح أنهم فشلوا مرة أخرى في العثور على الماء . ويوجد اعتقاد محلي يقول : إن الموارد التي كانت ذات يوم تمد هذه المجموعة من الآبار بالمياه قد جفت لسبب من الأسباب لم يقدم له أحد تفسيراً . إن مشيئقة موقع رئيس بكل حق ، ليس فقط للبدو الذين يرتادون مراراً المراعي الوفيرة عادة في أراضي الريان ، ولكن أيضاً للقوافل المتجهة لحضرموت . وفي تريم بعد ذلك بعدة أسابيع ، عرض عليّ مقال يصف طريق قافلة الحج التي أكملت الرحلة في عام ١٨٦٤م من حضرموت إلى مكة والعودة ثانية بدون حادث مشؤوم . وربما كانت هذه آخر قافلة حج على هذا الطريق يوجد لدينا سجل وثائقي عنها . لقد وجدت بالتأكيد ماءً في مشيئقة في ذلك الوقت ، ولكن هذا كان في أيام بحبوحة

العيش والغنى في عهد فيصل بن سعود^(١) الذي شمل حكمه منطقة حضرموت والذي -كما سنرى فيما بعد- يبدو أنه قد وجه اهتماماً خاصاً لإنشاء هذا الطريق. ولم أستطع أن أكتشف متى بدأت الآبار تجف، ولكنها كانت كذلك لأطول فترة يمكن أن يذكرها ابن هضبان.

وتوجد علامة ماء كبرى وبها ثمانية وعشرون نقطة على الصخور بجانب الوادي، مع تصوير جميل على غير العادة لرجل مسلح يشير بإصبعه في اتجاه البشر. وعلاوة على ذلك كان هناك رسم واضح بصورة قوية - على الرغم من تشويه الوجه جزئياً - لرجل على حصان جامح وهو يلوح بسيفه الأحدث -على ما يبدو لي- فوق رأسه. وكان هذا واحد من أفضل الرسوم على الصخر التي رأيته خلال بعثتي كلها، وله أهمية خاصة على ضوء ما قاله بليني من أنه لم تكن توجد أي خيول في سبأ. ولسوء الحظ لم يكن عليه تاريخ، على الرغم من أنه يفترض أن يكون من عصر عتيق بدرجة كبيرة، ويقدم دعماً تصويرياً لنقش من القرن الثاني قبل الميلاد يحتوي على أقدم صورة معروفة للخيل (أو بالأحرى أنثى الخيل أو الفرس) في الجزيرة العربية.



(١) هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله، حكم لفترتين تبدأ الأولى عام ١٢٥٠هـ وامتدت إلى عام ١٢٥٤هـ، والثانية عام ١٢٥٩هـ إلى وفاته -رحمه الله- عام ١٢٨٢هـ. (المراجعون).



ولسوء حظي في مراقبة النجوم، كعادتي، أظلمت السماء بالغيوم الكثيفة قبل غروب الشمس وظلّت كذلك طول الليل كله. وكان عليّ أن أكتفي تبعاً لذلك بالارتفاعات الضوئية للشمس في الصباح التالي لمعرفة خط الطول فقط. وكانت الغيوم مصحوبة بريح شمالية عاصفة وقليل من قطرات المطر. ونتيجة لتأخر وصول الإبل لم نتناول العشاء إلا عند منتصف الليل، وكان مكوناً من العصيدة ولحم الثور الوحشي، ولقد كان أكلاً ممتازاً بالفعل.

وقد حدث حادث عرضاً، إذ بينما كنت أنا وابن هضبان نتجول في الوادي، انطلق جعمل في الاتجاه المعاكس ووجد راعياً من الصيغر، والذي زارنا في المعسكر وشاركنا العشاء. وكان من الواضح أنه هو وعائلته، بما فيها فتى صغير جاء معه عندنا، قد مكثوا في هذه المنطقة القاحلة لأسابيع كثيرة. وكان قطيعه من الأغنام من نوع «مجزي» كما يقولون - أي ترعى بدون ماء. ما دامت الأغنام يتم حجزها عن الماء، حسب ما شرح لنا، فإنها تستطيع أن تصبر على العطش لفترات طويلة، أي لشهور من غير انقطاع، أو حتى لعام كامل. ولكن بمجرد أن تأخذها للماء فيجب عليك بعد ذلك أن تسقيها بانتظام - على الأقل مرة كل يومين. إضافة إلى ذلك فإن الأغنام البيضاء فقط هي التي تتمتع بطاقة التحمل هذه، أي أنك لا تستطيع أن تأخذ الغنم السوداء للمراعي التي ليس بها ماء. وبالنسبة للكائنات البشرية فإن طعامهم وشرابهم في آن واحد هو لبن أغنامهم، ويعرفون بعض المواضع التي يوجد بها طين مبلل إلى حد ما في الوهاد، ومنه قد يعصرون قطرات قليلة من الماء. وزيارتنا مكتبهم من ملء بطونهم، وقد أخذوا معهم أيضاً بعضاً من لحم الثور الوحشي لنسائهم.

ويبدو أن الوادي كان مليئاً بالشعابين بصورة مزعجة، وقد قمت فعلاً بوضع زوج منها في زجاجة. وكان أحدهما يتزلق خلسة فوق البطانية التي تغطي أرجلي عندما كنت أجلس في فراشي للعمل. وفي الصباح اصطدت أرنباً برياً في منحدرات زنقر وكان يوجد هناك أيضاً عدة طيور من القنبر الصحراوي. وفي المساء السابق عند

الشفق رأيت عليه طائر السُّبْد (Nightjar) الذي يطير على ارتفاع منخفض قرب المقابر.

كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة خلال الليل سبعة وسبعين درجة، يیزغ الفجر متجههم الوجه، فاسد الهواء، ملبّداً بالغيوم. وكنا هنا على ارتفاع حوالي أربعة آلاف قدم فوق البحر، بالإضافة إلى قمة زنقر التي ترتفع ٥٠٠ قدم أخرى فوقنا. وعند سفح التل عثرت على قبر وحيد، يبدو من الواضح أنه لشخص هام. وكان على شكل مستطيل، طوله ست خطوات وعرضه أربعة، وشاهد القبر يرتفع ثلاثة أقدام ويقف منتصباً وسط الناحية الشمالية، بينما العمود الجرانيتي، الذي تم تزيينه بعناية ولكن بصورة غير مستوية، والذي يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف، كان يمتد بصورة مائلة عبر القبر. وربما كان ذلك لتزيين الناحية الجنوبية من المستطيل.

ومن قمة زنقر كنت قد استطعت أن أجمع فكرة ضخمة عن منطقة الريان وما جاورها. إن وادي مشينيقة الذي يبدأ في منحدرات التلال على بعد نصف ميل جنوب هذه النقطة يلتف حول قاعدة زنقر، وكذا يتجاوز معسكرنا ليفرغ نفسه في سهل طيني واسع والذي يبدو أنه يشطر تلال الريان من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. والتلال بصورة عامة ليست ذات ارتفاع كبير، ولكن يبدو أن بعض النقاط القليلة منها مثل أكباد وبويقي والقراين وغيرها كانت على ارتفاع "زنقر" نفسه. ومن الرمال الهائلة لم نستطع رؤية أي شيء أكثر مما رأيناه بالفعل من "مطاو" إلا قليلاً نظراً لأن القسم الشرقي من الريان وراء السهل الطيني كان يحد من رؤيتنا. وعلى كل حال يبدو أن شريطاً يبلغ عرضه ميلاً من السهل المنبسط الحبيبي يفصل الريان عن الحافة الجنوبية للرمال.

وكانت الساعة التاسعة والنصف قبل أن نستأنف سيرنا، تابعنا محيط منحدرات زنقر وبعد ذلك انحرفنا عبر السهل الطيني. وقد قاسينا من مشاكل قليلة من شعيب رملي غير مستو يجري على طول جانبها البعيد، ولكن بعده كان السير يسيراً بدرجة

كافية فوق عمر صخري يلتوي خلال بقعة غير منتظمة من التلال المنخفضة والمرتفعات الصغيرة من ركام الحجارة. وفي ذلك الوقت فقدنا أثر سير جماعة الإبل التي انطلقت من المعسكر عند الساعة الخامسة صباحاً. وقد تمّ بصورة غامضة تسمية تل صغير رائع، يدعى «أبو كعب» كمكان الالتقاء للراحة في منتصف النهار. ولكن الأودية الضيقة في المنطقة المجاورة له كانت تشبه بعضها إلى حدّ كبير، وبدا لبعض الوقت أننا نسير على غير هدى. وعلى كل حال فقد حالفنا الحظ حيث إننا عثرنا مصادفة على الوادي الذي كانت الجماعة تخيم فيه وهبطناه. وأوقفت سيارتي قريباً تحت أغصان شجرة كي أجنّي فائدة الظل المزدوج، على الرغم من أنه لم يكن هناك حاجة ملحّة على وجه الخصوص لعمل ذلك. وبقيت السماء ملبّدة بالغيوم طوال فترة بعد الظهر، وهبت علينا ريح الشمال بعواصف متقطعة، والتي ساهمت في خلق ظروف ملائمة جداً. وكنا هنا قريباً من حافة «الريان» الجنوبية، ولم يستغرق الأمر منا وقتاً طويلاً - فيما بعد الظهر - لمسح منطقة التلال.

وعندما تجاوزناها وجدنا أنفسنا في منطقة مفتوحة وعرة قليلاً، وبها سلاسل تلال «برقاء الأشقر» المنخفضة والمغطاة بالرمل أمامنا، ولكن إلى اليمين قليلاً عن مسارنا. وسلاسل تلال برقاء الأشقر هي الحدود المعترف بها بين إقليم قبيلة دهم وقبيلة الصيعر، والأخيرة تمتد الآن بلا انقطاع إلى التلال شرق وغرب العبر. وبعد عبور منخفض زنيفر الواسع الذي تمتاز صخور القاع فيه بتكوينات زرقاء ورمادية وبها كثير من عروق الكوارتز وحجارة مفككة متناثرة، مررنا فوق شريط طويل ضيق وغريب جداً من الصخور الحمراء إلى حدّ ما والذي يمتد من الجنوب الشرقي، إلى الشمال الغربي. وهنا التقطنا رأس ثور ميت. ووراء ذلك دخلنا بقعة صخرية نسبياً التي حددناها لنوقف في وسطها سيارتنا لإقامة المخيم لنقضي هذه الليلة بجوار نصب تذكاري بارز من ركام الحجارة يعرف باسم رضم الأمير. وقد سارت جماعة الجمالة

-سواء كان ذلك مصادفة أو عن عمد- بعيداً عن طريقنا، ولم نر أي أثر لهم على الطريق كما أنهم لا يمكن أن يكونوا قد تجاوزوا هذه النقطة بكل تأكيد. والحق أننا لم نرهم مرة أخرى إلا قرب الصبح، حيث إنهم قد فضلوا السير بصورة مستمرة من ناحية عملية طول الليل كله لكي يقللوا المسافة بينهم وبين آبار «العبر». ومما لا شك فيه أن إمدادهم من الماء قد بدا عليه علامات النضوب.

إن اكتشاف نصب «رضم الأمير» كان ذا أهمية كبرى. ووراءه في خط مستقيم باتجاه «العبر»، تقريباً نحو الجنوب الشرقي تماماً، توجد نصب مشابهة أخرى على مسافات غير منتظمة تبلغ مئات قليلة من الياردات. ولقد تمكنا من رؤية ستة أو سبعة منها، يقال إنها تمتد على طول الطريق حتى «العبر». والطريق هذا، الذي توجد عليه تلك العلامات لإرشاد الرحالة أو القوافل، لا يزال يعرف حتى هذا اليوم باسم «درب الأمير». وطبقاً لما قاله ابن هضبان فإن مبدع هذا الطريق، الذي لا يزال يذكره تماماً عندما كان شيخاً عجوزاً، هو «عبدالله بن مشاري بن قملة»^(١)، وكان من شيوخ قبيلة «دهم» واكتشف هذا الطريق ووضع علامات على طوله حتى العبر بموجب أوامر فيصل بن سعود. كما كان يقوم نيابة عن السلطان السعودي بجباية الزكاة عن قطعان أفراد «الصيغر» في آبار العبر حيث أقام الحصن الذي أصبح الآن مجرد انقراض. ويجب أن يكون قد انقضى ما لا يقل عن سبعين عاماً منذ أن عهد إليه بتلك المهمة لأن فيصل قد توفي عام ١٨٦٧م، ولكن يستعمل أن يكون ذلك قد استمر لأعوام قليلة بعد ذلك، ولا ريب في أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنظيم طريق الحج المذكور آنفاً.

(١) تعرف أسرة هذا الشخص بـ «آل بن قملة» من أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية التي أوصلتها هذه الأسرة إلى حضرموت. وأبرز ظهورهم هناك في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٢٤هـ، وتعريفاً بهذه الأسرة قلبت الألف إلى تاء مربوطة فأسموهم آل ابن قملة، انظر: الكاف: حضرموت عبر أربعة عشر قرناً، ص ٥٧، هامش (٣).

ويعد هذا النصب الركام ضمن منطقة بُرقة (برقاء الأشقر) والتي تقع أقرب تلالها على بعد ميلين تقريباً، وفي شكل قوس منخفض في مواجهة النُصْب. ولذلك يمكن اعتبار النصب نقطة بارزة على حدود دهم - الصيعر. والسهل من ورائه امتداد «لجو المليس» الذي يعد بصورة غامضة بأنه يمتد عبر الصحراء تماماً من تلال اليمن السفحية حتى حافة تلال العبر. ولم تعد صخور سطح الأرض الآن من الجرانيت والبازلت، مثلما هو الحال في منطقة الريان، ولكنها من الحجر الجيري البلوري الصلب ذي لون غريب يميل للزرقة.

قد جمعنا الغداء والعشاء معاً بعد الظهر في «أبو كعب» حتى يمكن أن تسير الإبل طول الليل، وتأوي جماعتنا الصغيرة إلى الفراش بلا عشاء. وعلى أي حال فقد أعدّ ابن حضيل لنا خبزاً في الصباح، على الرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة والنصف صباحاً عندما انطلقنا في المسير. وكم كنت أود لو سلكت طريق النصب حتى نهايته، ولكن كان من المطلوب أن نتأكد من اللحاق بجماعة الإبل، التي كانت بالتأكيد تسير في مسافة بعيدة عن يسارنا. وهكذا اتجهنا قليلاً للشمال من الشرق بحثاً عن أثر لسيورها. وفي ذلك السهل الفسيح المتموج بصورة رقيقة جداً والذي تكسوه حصيرة من حصى الكوارتز المنتشر استطعنا أن نذهب حيثما أردنا. وبعد حوالي عشرة أميال من "رضم الأمير" تغير سطح الأرض إلى طبقة من الحجر الرملي الصلب الذي أكسبته عوامل التعرية الطبيعية قوة وتكوينات التواءات المنخفضة مليئة بتشكيلات الأنابيب والأسطوانات جميلة الشكل. وبالقرب من حافته أتينا على شجرة سرح وحيدة، والتي قام ابن هضبان كإجراء احتياطي بنقش علامة قبيلته عليها (وسم) وكان عبارة عن نقطتين أفقيتين فوق دائرة. وحتى الآن لم نر أي أثر لجماعة الإبل، التي إن لم تصل إلى هذه النقطة تحت أي ظرف فسوف ندرك أننا قد تجاوزناها. وسوف يدلهم أثر سير السيارات على الأرجح قبل أن يروا العلامة. وفي هذه المنطقة رأينا أثر سير ثلاثة إبل كانت متجهة للغرب قبل أربعة أيام، وبعد ذلك بمسافة قليلة رأينا آثار سير قديمة لسبعة ظباء ذاهبة للشرق.

وقد قطعنا حوالي ثمانية أميال بعد شجرة السرح عندما رأينا -أخيراً ومما جعلنا نشعر بارتياح عظيم- آثار سير جماعة الإبل التابعة لنا وانحرفنا معها نحو الجنوب الشرقي. وإلى الآن لم نقابل شيئاً حياً، ولا حتى طائراً من الطيور، ولكن أول غزال ظهر في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وفي ذلك الوقت كنا قد انتهينا من خمسة وعشرين ميلاً من نقطة البداية. وكان سطح الأرض يتنوع من حين لآخر من حصباء الكوارتز هنا إلى حجر رملي هناك. وكل هذه البقعة من حصى الكوارتز والحجر الرملي تعرف باسم «رملة العَرَمَرَم». وبعد ميل أو ميلين كان هناك ارتفاع طفيف في سطح الأرض، وبصورة واضحة، على مسافة بعيدة، استطعنا فقط أن نتيين نقاطاً مرتفعة قليلة من الهضبة تحدد الأطراف الشمالية لمنطقة حضرموت مثل مرصص و«دوائر» على اليمين. وسرعان ما رأينا بعد ذلك إبلنا قادمة من بعيد، ولم تمض دقائق قليلة إلا وكانت السيارة تنطلق بسرعة قبلهم نحو منخفضات «سر اليماني» كثيرة الأشجار حيث اقترحنا إقامة المعسكر هناك. وانطلقت غزالة أنثى «عفري» تعدو من مخبأها تحت شجيرة، وانطلقنا وراءها نظاردها، حيث صرعاها ابن هضبان أرضاً من أول طلقة من بندقيته. ورأينا الآن الكثير من الغزلان، ولكن كان معنا من اللحم ما يكفي لوجبة منتصف النهار. ولم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة إلا بقليل عندما وجدنا بقعة جميلة من شجيرات السرح الظليلة المتناثرة لإقامة معسكرنا بها. وسوف تصل الإبل تقريباً بعد ساعة أخرى، وكنا جميعاً نشعر بالجوع بدرجة كافية لتناول الوجبة مبكراً.

وعلى الرغم من الريح الحارة الجافة، إلا أن الجو كان بارداً بصورة مناسبة في الظل الكثيف لشجرة سرح كبرى اخترتها لإقامتي الشخصية. ولم يبدُ على طائر الصُّرد الرمادي (Grey Shrike)، الذي كان مستقراً بالفعل فوق الشجرة، أي علامة انزعاج عند دخولي تحت الظل وتطفلي عليه، ودفع ثمن طيشه حياته. وباستثناء طائر واحد من طيور القنبر والغزلان لم يظهر هناك أي أثر للحياة في الوادي. وبعد

جولة قصيرة على الأقدام حول المكان فقد رجعت إلى مخبئي حيث كان ابن حزيل قد أحضر لي بعضاً من لحم الطريدة المشوي في السمن، مع الخبز وكأس الشاي المعتاد. وعندما وصلت الإبل تناولت سلطانية من اللبن، على الرغم من أن تموين الماء كان يبدو لا يشكل أي مشكلة مزعجة الآن لأن مقصدنا كان قريباً في مرمى البصر. وكانت الإبل قد نال منها التعب مبلغاً، وليس هناك سبب يدعو للعجلة.

إن موقع آبار العبر العالية، كان مبنياً لنا بقمة بامخاري العالية. وعن يمينها يبدو أن جُرْف وقمم مصاير هي كل ما تبقى من هضبة الحجر الرملي ذات الغطاء من الحجر الجيري التي نحتتها عوامل التعرية، بينما سلاسل تلال مرصص ودوائر ومشطة التي تقع خلف الأولى يفترض أن تكون من الحجر الجيري وفيها عروق من حجر الصوان الذي يأخذه البدو - طبقاً لما ذكره ابن هضبان - من هنا ويستخدمونه في إشعال النار ويبيعونه كل ستة حجارة بقرش واحد. ويقوم وادي سر اليماني بتصريف المياه من المناطق الغربية لسهل رمارم جنوباً بعد الطرف الغربي حتى مصاير في منطقة رملة السبعين الصحراوية.

ولم تستأنف الإبل سيرها إلا الساعة الثالثة والنصف عصراً، وبدأنا بعدهم بحوالي نصف ساعة. ولم يكن لدينا نية بالطبع في محاولة الوصول إلى العبر نظراً لأن الساعة كانت تقترب من الحادية عشر ليلاً عندما وصلت الإبل المعسكر «شعيب ملزق»، أي إنها أخذت تقريباً سبع ساعات ونصف لقطع مسافة ستة عشر ميلاً. وفي البداية سرنا بدرجة كافية من السهولة فوق الحصباء الخفيفة بسهل «أم السمر». وعلى أي حال، وبعد أميال قليلة يتحول السهل إلى سلسلة من الطيات الضحلة كلما اقتربنا من التلال. وفي المنخفضات كان سطح الأرض متقطعاً إلى حد ما بخطوط تصريف المياه، وأشرطة الرمل، وقدر متزايد من النباتات. وفي أحد تلك المنخفضات - قريباً عن يسارنا - رأينا مخيماً صغيراً للعرب في رقعة طيبة من الشجيرات والحشائش والأعشاب الخضراء الجديدة. وبعد مسافة من ذلك أصبحت تموجات هذه المنطقة أكثر

وضوحاً، حيث تتباعد أشرطة من الحصباء الجيرية عن بعضها بأودية واضحة وضيقة، مثل «أبا السرح والبريمية والسقيلية» وكلها تنحدر من المرتفعات حول سلسلة تلال دوائر لتندفق في اتجاه جنوب غرب على طول واجهة مصاير. وتتحد كلها بصورة تامة مع شعيب ملزق - وهو أكبر قنوات التصريف العرضية هذه جميعاً - لتشكّل وادي حوا الذي يصرف نفسه بعد قليل في رمال السبعين.

وقد وصلنا شعيب ملزق عند الغروب، وسرعان ما استرحنا في مخيمنا بالوادي الرملي الواسع والمغطى بكثافة بالشجيرات والأعشاب. وكانت ضفته اليسرى قرب مخيمنا هي أول سلسلة من سلاسل تلال منخفضة مكسوة بقطع صغيرة من الحجر الرملي، والتي تملأ الفجوة بين هذا المكان والسلاسل المسطحة الأعلى قليلاً والتي تلتف حول آبار العبر في نصف دائرة لمسافة ستة أميال فقط. وقد أدى إطالة توقفنا وسط النهار إلى العبث بما لدينا من تموين الماء وكنا في هذه المساء، وبدون حساب الماء المخصص لسيارتنا فلم يبق لنا إلا برميل واحد، كان مليئاً بماء مشوب بالزيت، وتم فتحه للبدو. وفي الخامسة صباحاً كان كل فرد منا قد استيقظ وتمّ وضع السروج على الإبل وتجهيز كل شيء، وهكذا تركتهم جميعاً يسبقونا ثم نلحقهم على مهل بعد ساعتين أو أكثر.

وعلى بُعد حوالي نصف ميل وراء معسكرنا وقعنا على طريق درب الأمير الذي توجد عليه علامات، ويمتد لمسافة ما على تموجات صخرية وعرة بها الكثير من قنوات التصريف الرملية المعترضة. وبعد ذلك يسقط في عمر بين جدران طينية بارتفاع عشرين قدماً وهي ربما تكون لواد طيني مسدود منذ زمن قديم كما يبدو بوضوح يجري بين سلاسل التلال الوعرة. وبعد ذلك قدنا سيارتنا جزئياً على طول قاع شعيب المدري وجزئياً على أرض صخرية على كلا جانبيه إلى أن دخلنا مرة أخرى في النهاية إلى واديه الواسع لنمضي بسهولة ويسر حتى العبر. وفي الطريق تجاوزنا مجموعات كثيرة

من الإبل المجتمعة من كل حذب وصوب على عين الماء للسقيا، في حين قابلنا ابن قنير وبعض من أصدقائه من الصيعة على بعد حوالي نصف ميل قبل الآبار للترحيب بنا في منطقتهم.

لقد كان كل شيء ساراً وودوداً. وقد تمّ نصب معسكرنا وسط بعض أشجار السنط ذات الانتشار الحسن، وهنا كان جمع غفير من الصيعة من كل جنس ولون، صغاراً وكباراً، أغنياء وفقراء على السواء، قد تجمعوا حول نار القهوة في دائرة مرنة كانت تتسع دوماً. وكان مكاني محجوراً إلى البعيد قليلاً كالعادة، ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك هدوء إلا بعد أن أبادل التحايا مع كل فرد حاضر. إن قبيلة «الصيعة» لا تسلم باليد ولا حتى تقبض اليد باليد عند السلام، وإنما تضع راحة على راحة وتنحني للأمام إلى أن يتلامس طرفا الأنفين. وتكتمل العملية باستنشاق قليل من هواء النفس مثلما يحدث في التقبيل مع الهمس بكلمة خفيفة، ويتكرر ذلك بدقة متناهية مع كل قادم جديد. ولم يكن لدى ضيوفنا أي أخبار محددة ليتناقلوها بينهم إلا خبر انتظارهم الطويل لنا وشكهم إلى حد ما في توقع وصولنا. ولم أستطع أن ألحظ أي علامة ولو واحدة من علامات الفتور، ناهيك عن أي مظهر للاستياء أو المعارضة. بل على العكس تماماً كان هناك الكثير من المديح والثناء على ابن سعود. وكانت السيارات بالطبع موضوع كثير من الاستغراب والفضول، على الرغم من أن بعض أولئك الحاضرين قد رأوها بالتاكيد من قبل، وربما يكونون قد ركبوا فيها أثناء زيارتهم لحضرموت. كما كان المديح مركز الاهتمام الأكبر لأولئك الذين مكثوا الليل معنا بالمعسكر. وسرعان ما انتشرت أسطورة تقول: إنني في كل ليلة على اتصال لاسلكي مع ابن سعود والذي يعلم -تبعاً لذلك- جميع تحركاتي يوماً بيوم. وكان هذا الاعتقاد فيه مزايا شديدة الوضوح لنا حتى إننا لم نبذل أي محاولة لتصحيحه، وهم يستطيعون أن يسمعون بأنفسهم لغتهم تأتي إليهم عبر الأثير من القاهرة والقدس،

ولكن كان أشد ما أثار فضولهم ضربات المورس لمحطات اللاسلكي في مكة والرياض.

إن وادي العبر يتشكل، على ارتفاع حوالي مئتي ياردة فوق الآبار، من اندماج شعبي أرغد والمدري. والأول يأتي نازلاً على طول حافة تل بامخاري من منطقة مرتفعة تقع إلى الشمال الشرقي، بينما يجري المدري، الذي لزمناه حتى الستة السفلى وهو يجري إلى الجنوب تقريباً من النقطة التي يندمج معه فيها شعب العريجا. ويرتفع كل من المدري والعريجا في المنطقة المرتفعة حول «دوائر»، ويوجد بالاول بئر تسمى «دحل» في بطنه وعلى بعد حوالي ثلاثة أميال قبل «العبر». ويسير وادي العبر، بعد تشكيله هكذا بجوار الآبار في منحني واسع من حوض التل على جانبه الجنوبي الشرقي، ويجري بالعرض في سهل رملي بعد ذلك في طريقه إلى كئبان السبعين.

إن قبيلة الصيعة تفخر فخراً شديداً بماء العبر، ولكن يبدو أنها لا تعرف إلا القليل عن تاريخه الحقيقي. وفي وقت من الأوقات، كما قالوا دون أن يكون ذلك في حدود ذاكرة أحد من الأحياء، امتد حزام ضخيم عظيم النماء من أشجار النخيل في الوادي على طول المنحنى بصفته اليمنى. وفي تلك الأيام كان يوجد ما لا يقل عن ستين بئراً في الواحة. وذكر آخرون أرقاماً مختلفة حيث قال بعضهم إن عدد الآبار يصل إلى ١٥٠ أو ١٦٠ أو ٢٠٠. وانخفض عدد هذه الآبار الآن إلى ثلاثة، على أنه في الحوض الرئيس باتجاه المجرى يوجد عدة ينابيع في القناة الرملية. وتقع الآبار الثلاثة الباقية على «قيد الحياة» على مسافات فاصلة تتراوح بين ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة قريباً من الضفة اليمنى، مقابل الحصن الصغير المهدم الذي كان يقوم ذات يوم على حمايتها. هذا الحصن، الذي يوجد به فوهة بئر مبطنة بالأسمنت ولكنها الآن

جافة داخل أسواره ويحتمل أن يكون قد بناها كما ذكرنا، بالفعل ابن قملة^(١)، في زمن فيصل^(٢). وتنسبه روايات أخرى إلى عهد سعود الكبير^(٣) في بداية القرن التاسع عشر، أو إلى أحد شيوخ «الصيعر» المنسبين من الماضي السحيق. ومنذ زيارتي تم إصلاح أو استبدال المباني القديمة المهتمة بمبنى جديد تحت رعاية الحكومة البريطانية لسكن حامية صغيرة ومحطة لاسلكي^(٤).

ومن وقت وصولنا وحتى ساعة متأخرة بعد الظهر كانت الآبار مشغولة بتقديم الماء لآلاف مؤلفة من الحيوانات. إن عطاها لا يمكن أن ينفذ فيما يبدو، وكان أفضلها البئر الأوسط - وهي بعمق أربع قامات ومعها بركة صغيرة من المياه، وتشاركها القاع كومة من الرمل المبلل بالماء. وفوهة البئر أوسع إلى حد ما من القصية وتميل نحوها من جميع الجوانب. والمنحدر الدائري مبطن بالحجارة (لحجز الرمل الذي يوجد فيه البئر) لعمق يبلغ حوالي ثلاثة أقدام. والبئر السفلى من الثلاثة تعد أقلها قيمة وأهمية، بينما البئر التي توجد في مقابل الحصن بالضبط تشبه بصورة عامة البئر الوسطى. وفي الوقت الذي رأيتها فيه كان الماء يخز في القاع من تحت الصخر ويقرقر بصوت مسموع مثل صوت خرير الجدول. ويقف الحصن على رف من الحجر الرملي بارتفاع حوالي ثلاثين قدماً على طول الضفة اليمنى للقناة.

(١) أبرز من ظهر من أسرة بن قملة مناصراً للدعوة والدولة السعودية الأولى هما الأخوان ناصي وعلي وللمزيد من التفاصيل عن جهودهما انظر: باحان، جواهر تاريخ الأحقاف، ج٢، ص ٢٢١-٢٢٢؛ البكري، من جنوب الجزيرة العربية، ص ١٤٠-١٤١؛ الشاطري، أدوار التاريخ الحضري: ص ٢٥٧، البار، سقطري الجزيرة الساحلية، ص ٩٨-٩٩؛ السقاف: عبدالرحمن بن عبدالله، حضرموت بلادها وسكانها، مجلة العرب، ج١١، ١٢، السنة ٢٨، الجُمادى، ١٤١٤هـ، ص ٨٢٥-٨٢٦ أيضاً، ج١، ٢، سنة ٣٠ رجب وشعبان ١٤١٥هـ، ص ١٠٠-١٠١؛ ج٩، ١٠، سنة ٣٠ الربيع، ١٤١٦هـ، ص ٦٤١-٦٤٢. (المراجعون).

(٢) المقصود: الإمام فيصل بن تركي الذي سبقت الإشارة إلى امتداد حكمه إلى هذه المناطق. (المراجعون).

(٣) المقصود: الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود من أبرز حكام الدولة السعودية الأولى، كان حكمه خلال الفترة من (١٢١٨-١٢٢٩هـ). (المراجعون).

(٤) ذكر أنها انسحبت في أغسطس ١٩٣٨م. (المؤلف).

وكان أغلب البدو الحاضرين بالطبع من «الصيعر» ولكن كان هناك عنصر من الكرب معهم بالإضافة إلى مجموعة صغيرة من الفقرا من شبة نفسها. وكان هناك أيضاً فافلة صغيرة توقفت هنا في طريقها من حضرموت إلى مأرب، أو ربما إلى مناجم الملح في «وادي أبراد» ومن وجهة نظري كان عنصر الفقرا ذا أهمية عظيمة وفورية بالنسبة لنا؛ ولذلك سرعان ما امتدت وشائج الود مع اثنين من أولاد أخ المشايخ أو شيوخ البريكي في شبة، هما سالم وعلي ابنا عفيشة.

وكان أصغر الرجلين، مبارك، جميل المحيا بصورة معقولة، غير مميزة، وكان من الواضح شغفه بالعون والمساعدة. أما أخوه الأكبر، سعيد، والذي يميزه حول طفيف في عينيه، وبروز في أحد أسنانه، ثبت في النهاية أنه يتمتع ببعض الصفات الحميدة من الحكمة وصواب الرأي التي كنت أشك فيها. وقد أدرجنا كليهما في الرحلة إلى شبة، ولكنني اصطفت سعيداً ليكون ضمن جماعة السيارة.

وتزعم «الصيعر» أنها تنحدر بصورة مؤكدة من قبيلة قحطان عن طريق أحد الأسلاف يسمى المقداد بن الأسود الذي يقال إنه صحابي من صحابة الرسول ﷺ. بالقدر نفسه تدعي الكرب بأنها أيضاً من أصل نبوي عن طريق سودان وهي عشيرة أشراف استقرت لزمان طويل بين السبي في رنية حيث جاء -كما يقولون- الجد الذي كان أول من استقر في ضواحي حضرموت. وفي الحقيقة يجوز لكلا القبيلتين أن تدعي بشكل معقول بأن لديها تاريخاً طويلاً كمقيمين محليين أكثر مما تعلم، لأنهم بالتأكيد من قبائل «الكرباني» و «أصراطي» الذين ذكرهم بليني من بين قبائل جنوبية أخرى^(١).

ويبدو أن ماعز قبيلة «الصيعر» يبيضاء اللون في معظمها وأكثر عدداً من الأغنام. كما أن ثمنهما غالٍ جداً أيضاً حيث يصل سعر الواحدة منها إلى خمسة دولارت

(١) عن أصول هاتين القبيلتين وتفرعاتها المختلفة، انظر: الهمداني، كتاب الإكليل، ج١، ص ١٩١، ج٢، ص ٥٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، ط٣، بيروت. صفة جزيرة العرب، ص ١٦٨-١٦٩، تحقيق: محمد ابن علي الأكوخ، ١٣٩٤هـ، دار الإمامة الرياض، البلادي، بين مكة وحضرموت، رحلات ومشاهدات، ص. ص ١٣٩-١٤٩، ط١، دار مكة. (المراجعون).

(ماريا تريزا)، مقابل اثنين فقط في المنطقة الفقيرة المجاورة لنجران وحدود اليمن. وبما لا شك فيه أن قرب سوق حضرموت يفسر سبب الأسعار الأفضل التي يمكن الحصول عليها. أما أسعار السلع الأخرى، مثل: الحبوب والتمور والقهوة وغيرها، فقد كانت عالية كذلك. ووحدة الوزن المحلية -مثلاً الحال في حضرموت- هي الرطل الذي يساوي اثني عشر دولاراً (ماريا تريزا).

وفي المظهر العام واللباس كان أهل الصيعة يبدون لي قريين جداً من بدو نجد، ربما أصغر منهم في المتوسط وأنحف منهم في الجسم. وكان الكثير منهم جميل الملامح، بهي الطلعة، مع بعض الفتنة والرقّة والعيون الناعمة، بينما كان لبعضهم أنوف الساميين الكبيرة والواضحة. وحديثهم كان رائعاً بصورة بارزة لنطقهم الطويل جداً لحرف العلة «ا» والإدغام «أو» و «أي» والتشديد الجذاب في الكلام. والشيخان الكبيران في القبيلة «يسلم بن جربوع» و«عبدالله بن عون ابن (ملهي)، ويمثلان العنصر شبه المستقر الذي يتركز في ريدة آل حاتم وهي مجموعة متناثرة من المنازل قرب رأس «وادي مخية» في المرتفعات شرق «العبر». ويوجد شيخ آخر، هو طناف ابن محمد بن رميدان، وله مقر شبه دائم في «ريدة آل بلّيث» على بعد حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً شرق «ريدة آل حاتم» ويسيطر على عناصر البدو الرحل الذين تعد هذه الآبار مقرهم المعترف به.

إن مجموعتي هاتين القريتين تعرفان بصورة مشتركة باسم «ريدة الصيعة». وعشيرة «قنبر» تحت زعامة «علي» قد انفصلت الآن بشكل دائم تقريباً عن الجزء الرئيس من القبيلة، وأصبحت قسماً من مجموعة رئيسة ثالثة، هي «آل معروف»، وشيخها البارز هو «عبدالله بن سالم بن معقل». هذا القسم قد انضم إلى المملكة العربية السعودية ويتجول في الصحراء شرق نجران. وقد رفضوا بصورة قاطعة دعوة حديثة لهم من شريف بيحان، وهو حليف بريطاني، للعودة إلى حظيرة الجماعة. ووراء «الصيعة» نحو الشرق، على طول المرتفعات وامتداداً نحو الرمال تقع

«العوامر». إن وادي مخية ينحرف شمالاً في نهاية الأمر إلى الريع الخالي ويشكل الخط الفاصل بين الاثنين، بينما وراء «العوامر» تأتي «المناهل» التي تمتد سلسلتها صوب الشمال من النبي هود في الامتدادات السفلى لوادي حضرموت حتى الرمال الشمالية. وأثناء فترة ما بعد الظهيرة انتهزت فرصة الهدوء في أنشطتنا الاجتماعية - فقد أدت وجبة طيبة من اللحم إلى إبعاد الزاور عنّا وجعلتهم يغطون في نوم عميق عند القيلولة. وتسلفت قمة «بامخاري» مع دليل من الصيغر يدعى «مبخوت». لقد مشينا أطول مما كان يبدو لنا على المنحدر الصخري الرقيق من حافة الوادي إلى سفح التل. وكان جانب التل نفسه وعراً وغير ملائم بصورة زائدة عن الحد بألواحه وشرائحه وكتله الصلبة الخشنة الناتئة بشكل حاد والمكونة من الحجر الرملي الرمادي. وفي المستويات الأعلى كان سطح الأرض مغطى «بورد الرمل» والأشكال المتنوعة الأخرى من الشظايا التي تعريها الريح. والجهة الجنوبية للتل كانت جرفاً بارزاً حاداً من صخور صلبة عارية، وكانت أجزاءه السفلى مثقلة بكتلة من ركام الحجارة المفككة وصخور جلمودية ضخمة. وقد بدأنا التسلق في وقت متأخر جداً ولم يتسع لنا المجال للوصول إلى القمة الرئيسة، واكتفينا بواحدة قريبة في الطرف الأدنى من سلسلة حادة تجري بينها وبين القمة العليا، بارتفاع حوالي مئة قدم أو أكثر. وعلى أي حال، عندما ارتقينا هذه القمة السفلى كنا على ارتفاع ألف قدم تماماً فوق معسكرنا وتمكّنا من إلقاء نظرة ممتازة على الرغم من وجود الضباب القليل نتيجة العاصفة الرملية القوية، التي هبت خلال بداية فترة مابعد الظهر لمدة قصيرة.

والمعلم الأرضي الرئيس الذي رأيناه من هنا كان الصف المنسق الرائع من الجُرُف والأراضي الرأسية التي تمتد من سلسلة تلال «بعرورة» المنبسطة القريبة جداً منا إلى الشرق حتى نتوء طرف العين الذي يقع في جهة شرق - جنوب شرق وعلى مسافة نائية، وهناك يواصل خط الجُرُف سيره على طول الجانب الشمالي لرمال السبعيتين بلا توقف ليشكل الضفة الشمالية لوادي حضرموت بالمعنى الدقيق. إن سلسلة تلال

«بعرورة» والأرض الرأسية تخفي وادي شعيب ميفعة الذي توجد فيه بساتين نخيل «جاهم» و «أم الضيعة» و «الفضية» ولكن لا يوجد سكان. إن «الغيل» أو الجدول الجاري الذي يروي هذه البساتين في تلك الأودية مشهور بأنه ينتج حمى قاتلة، ولا يقوم أصحاب البساتين من الصياعر بزيارة تلك الأودية إلا لجني محصول التمر فقط. وهناك وادٍ مشابه خلف سلسلة تلال «المخاضة» والأرض الرأسية، بعد «بعرورة» مباشرة على اليمين، يخفي حدائق النخيل لكل من «باقم» و «الجابية» و «الجويبية»، بينما يخفي سور «طرف العين» أو الواحة بذلك الاسم نفسه، وهي آخر حد إقليم قبيلة «الصياعر» في هذا الاتجاه. ومن الأرض الرأسية تسير حدود الصياعر - الكرب بمحاذاة الحافة الشمالية لرملة السبعيتين.

وباتجاه الغرب من خط الجرف المذكور أعلاه، وامتداداً من التلال في حوض «العبر» حتى خط الرمال مع وادي «العبر» كحدود غربية له، يقع سهل «جو طلع» الواسع الوعر الذي يسير خلاله درب العبر - حضرموت، متجاوزاً جبيل «قرن الذياب» الصغير. ويقف تل مشابه، هو «قرن الخرص» كعلامة فاصلة بين «جو طلع» و «جو الخط» وهذا الأخير يقع إلى الغرب من «وادي العبر». ويعترضه درب العبر - شبة في خط جنوبي تماماً إلى أن يصطدم بالحاجز الرملي.

وقد أدى هطول مطر غزير لوقت قصير إلى ترطيب العاصفة الرملية الأولى التي كانت تهب في أوائل فترة ما بعد الظهر، ولكن الريح الشمالية التي كانت تتراوح من قوية إلى معتدلة، استمرت في الهبوب بهبات حادة. وظلت السماء مليدة بالغيوم طول المساء والليل، واضطرت أن أتخلى عن مراقبة النجوم ياساً من تحسن الطقس. وكانت الأمطار المتقطعة تطردني للسيارة في فترات متفاوتة، بينما أدى انغماسي بإفراط في شرب حليب النياق الوفير الذي قدمه ضيوفنا بكرم غامر إلى اضطراب الهضم عندي شيئاً ما. لقد كانت ليلة شنيعة بشكل عام، على الرغم من أنني نمت نوماً هينياً بدرجة كافية - مع بعض فترات التقطع - من الثامنة مساءً حتى السادسة

صباحاً. وكنت أتمنى لو بدأت جماعة الإبل الرحلة مبكراً، ولكنني استيقظت لأجد المعسكر سليماً تاماً كما هو. إن سوء الطقس في الصحراء قادر على أن يولد الكسل ويطء الحركة، ولكن سرعان ما جعلت رفاقي جاهزين لبدء التحرك فوراً. وفي الحقيقة انطلقت حيوانات الحمل مبكراً عند الساعة السابعة، وركب باقي جماعة الإبل بعد ذلك بنصف ساعة. وفي الوقت نفسه جاء زوار مبكرون متفرون إلى دائرة قهوتنا ليتجاذبوا أطراف الحديث معي عندما كنت أرشف قدحي من الشاي. ولذلك كانت الساعة تقترب من التاسعة قبل أن تنطلق السيارات نازلة في الوادي. وكان «مبارك» قد رافق جماعة الإبل، ومعني الآن «سعيد» إلى جوارني كدليل. وسرعان ما انقشعت الغيوم، وصفا الجو، ولكنه كان صباحاً رطباً فاسد الهواء بدرجة حرارة تصل في الساعة السابعة إلى أربع وثمانين درجة. وكان ارتفاعنا هنا يصل تقريباً إلى ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، أي أقل بحوالي ١٠٠٠ قدم فقط من الشضيف. والمسافة الحقيقية التي قطعناها من هناك حتى «العبر» كانت ١٥٢ ميلاً حسب عداد السرعة بالسيارة، والوقت الذي استغرقناه بالضبط كان تسعين ساعة من البداية إلى النهاية، وهذا أداء حسن للإبل التي لن تقطع في الظروف العادية أكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً على الأكثر في اليوم.

والأميال التسعة الأولى من رحلتنا تجاه شبة كانت تقع في وادي «العبر». وقد بدأنا الرحلة بشكل منحوس شيئاً ما، حيث غرزت السيارة على بعد ميل من الآبار، ولكن كل شيء مضى على ما يرام بعد ذلك. وكانت ضفتا القناة من حجر رملي جيرري وعمر ذي لون بني، وكان الوادي في أجزاء منه مكسواً تماماً بأشجار السنط الظليلة من السمر والمرخ والراك. وقريباً من تحت الضفة اليسرى على بعد حوالي ميلين أسفل «العبر» تقع مجموعة من ينابيع أو صفر الماء في الرمل. هذه هي «تنضل». وطار سرب صغير من حوالي اثني عشر إلى خمسة عشر طائراً من طيور السبسي من قرب المياه ليلوذ بالصخور والشجيرات المجاورة. وقد اصطدت واحداً

منها ووضعته في كيس بالإضافة إلى الطائر المغرد أيضاً. وبرز رجل من خيمة وحيدة قريبة منا ليتبادل التحيات والأخبار معنا. وتصادف أنه كان «صيعري» وهو الذي كان في الحصينة بوادي حبونا عند وقت مروري، وكان من الواضح أنه مسؤول عن التبليغ عن زيارتنا المرتقبة.

وبعد ذلك بمسافة قليلة توصل إلينا سكان مخيم صيعري صغير أن نتأخر لتناول الطعام معهم، ولكننا تذرنا بحاجتنا للوقت وواصلنا السير. وقد اتسع الوادي الآن بصورة كبيرة، وتجاوزناه إلى سهل «جو الخط» الرملي المنبسط جوار تل «قرن برقة» (برقاء)، وهو تل صغير خارج سلاسل «برقة المغل»، ويقف بعيداً بمسافة قليلة عن الضفة اليمنى للوادي. ويلفنا الآن من جميع الجوانب سهل هائل من الرمل ذي الحبيبات الثابتة. وإلى البعيد ظهر الخط القرنفلي «رملية الخط» وهو الاسم المحلي لهذا الجزء من رمل السبعيتين. وتنتشر هنا وهناك إبل الصيعر في مجموعات تتجول للرعي، وتبدو في أشكال رائعة بفعل السراب. ووراء الحاجز الرملي ظهرت رقع من الأرض الرأسية من الجرف الجنوبي حول وادي دُهر. وتوقفنا للحظات قليلة لشرب الحليب المكسو بالزبد، الذي حلبه سعيد من ضرع بعض النوق الضخمة التي كانت جالسة وهي مكررة القلب من الغم أو الملل في تيه الصحراء غير الظليلة قريباً من دربنا. وكانت مراعي هذه المنطقة تتكون بصورة أساسية من «النصي» و «الضرمة» وكانت تبدو وفيرة التماء بما فيه الكفاية.

وقد سرنا عبر السهل لعشرة أميال إلى أن اقتربنا من حافة الرمال، حيث كنا نخطط للراحة هناك من حرّ النهار في بقعة صغيرة من الشجيرات الهزيلة تعرف باسم مرخة. ووصلنا هناك عند الظهر، ولم تصل جماعة الإبل إلا بعد ذلك بكثير. وكانت المسافة من «العبر» تبلغ حوالي عشرين ميلاً فقط وانخفض الارتفاع حوالي

٣٠٠ قدم. ولقد قنعت بظل السيارة، وتركت أجسامت «المرخ» الضئيلة الأربعة لباقي الجماعة الذين حصلوا أيضاً على الخيام عندما وصلت الأمتعة.

والغريب أن هذا الظل غير الكافي لتلك الشجيرات الضعيفة قد جمع عدداً مثيراً للدهشة من الطيور، والتي بقيت في مكانها على الرغم من تطفلنا عليها - وكان منها طيور القنبر، واثنين من الصرد الرمادي، والذي بعث على السرور أكثر من أي شيء آخر، كان وجود طائر وحيد من العصافير المغردة، كان بلا شك في طريقه من بعض البلدان الشمالية القاصية. ولم يكن هناك على الأرجح أي طيور أخرى في حدود نصف قطر قدره عشرة أميال من هذه البقعة، وعلى كل حال لم نر أي طائر آخر على الإطلاق.

في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، يبدو أن عاصفة رعدية قوية قد تجمعت في الشمال والشمال الشرقي، وكانت جميع المناظر الطبيعية خلفنا على قوس واسع من الشمال الغربي حتى الجنوب الشرقي قد اختفت وراء جدار من الرمل يتقدم بثبات نحونا. وكان غداؤنا من العصيدة جاهزاً لتوّه، وتم استدعاؤنا للطعام قبل أن تصل العاصفة. وعلى أي حال فقد كان الطعام ساخناً جداً ولا يمكن بلعه بسرعة، وفي غضون دقائق قليلة أصبح غير صالح للأكل. إذ كانت العاصفة قد انفجرت علينا بكل عنفوانها وهددت باقتلاع الخيمة، التي أمسكنا بها ضد الريح بينما استقر الرمل بصورة كثيفة فوق عصيدتنا التي أكلنا نصفها. ولعشر دقائق اكتسحنا الجزء الرئيس من السحابة الرملية. ثم هبط هدوء مفاجئ قصير، تبعه كتل رملية صغيرة تتسابق فوقنا في ترتيب واضح. وبعد كل ذلك قصفتنا عاصفة من ريح مع قطرات قليلة ثقيلة من المطر. ثم جاء الهدوء، الذي نزل علينا بشكل مفاجئ مثلما جاءت العاصفة تماماً. وكان الرمل قد انتشر في كل مكان، ودفن أمتعتنا وملا أفواهنا وأنوفنا وعيوننا وآذاننا وشعرنا. ولقد كانت هذه بحق أول عاصفة رملية حقيقية في الرحلة، ولكنها كانت نذيراً للكثير الكثير الذي سيأتي في الأيام القادمة لنا.

وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً عندما مشينا عقب العاصفة باتجاه الجنوب الغربي على طول حافة الحاجز الرملي. وكان على الإبل أن تسير في طريق شبة العادي، الذي كان الحزام الرملي فوقه خفيفاً نسبياً، ولكنه غير صالح من الناحية العملية لسير السيارات. وكنا سوف نتقابل على الجانب البعيد من الرمال، حيث يكون السير سهلاً للإبل من هناك إلى شبة في الصباح.

وهكذا خططنا، ولكن القدر كان له تدابير أخرى في جعبته لنا. ولحوالي تسعة أميال انطلقنا بالسيارة في خفة ورشاقة وكنا نسير بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة فوق سهل متدرج كالموج من الرمل الثابت تماماً والوعر قليلاً بغطاء من كتل الحشائش الرقيقة. وهبت رياح شديدة من الشرق أدت إلى تطاير الرمل في ألواح وشرائح علينا عندما توجهنا للجنوب أو الجنوب الغربي. ثم وقفنا على الحاجز الرملي نفسه في قسم يسمى «رملة نصيبة» وعلى الفور تقريباً توقفنا بصورة مفاجئة قرب قمة تل حاد كنصل السكين، واضطررنا إلى التسهقر للخلف لندور حوله، وكان ذلك يسيراً بما يكفي. ولقد كان المنحدر النازل حاداً بما فيه الكفاية على وجه التأكيد، ولكن وراءه كان هناك منحدر صاعد طويل وسهل ذو سطح صلب نسبياً. وهكذا واصلنا السير عبر أمواج ذات شكل مخيف في بحر من الرمل.

نذهب الآن غرباً، ثم نتجه للجنوب الغربي، ونحرف الآن أكثر للجنوب، ونحن ندور حول العوائق في طريقنا. وكان النور يتضاءل بسرعة، والرياح قد غيرت اتجاهها واستدارت نحو الجنوب الغربي وتقصف بالرمل على زجاج السيارة الأمامي. ثم جاء الغسق، ولكن سعيداً -الذي يعاني من قصر النظر في وضوح النهار ويعتمد الآن على حواسه في التوجيه والإرشاد أكثر مما يعتمد على عينيه- كان يحرضني على مواصلة السير. وقال: إن النهاية قريبة. وفي الحقيقة كانت أقرب مما يتخيل. ففي ظلام الشفق غطست في مستنقع من الرمل الناعم القريب من قمة حادة مع جرف

منحدر خلفها. وهناك انطمرنا. وكان الظلام الدامس قد لفنا بأستاره السوداء بدرجة يصعب معها محاولة الخروج. ولذلك مكثنا هناك طول الليل.

وكانت ليلة ليلاء !! إن تجربة حياتي كلها لا يمكن أن تشبه الليلة في التعب البدني المحض. فالعاصفة الثلجية العنيفة وحدها ربما تكون هي الأسوأ من تلك العاصفة الرملية التي قبضت علينا بقبضتها لساعة تلو ساعة. لقد كانت بحق عاصفة من الرمل - الجاف، الساخن، النظيف. ولم نتمكن من إشعال النار بأي حال من الأحوال في مثل تلك الظروف حتى نعد لنا شايًا أو قهوة، كما لم يكن هناك ولو قطعة صغيرة من أغصان الشجيرات المقطوعة لأميال حولنا كي نستعملها كوقود، ولا يوجد إلا قليل من نباتات «العلقي» الخضراء. ولم نستطع إشعال لمبة، ولم يكن معنا من طعام إلا التمر الذي أصبح تقريباً غير صالح للأكل فور تعرضه لذلك الرمل المتطاير. واكتشفت أن معي بقية علبة بسكويت وإحدى علبتي السردين اللتين كنت أحملهما للطوارئ، إذ إن الأخرى تم استهلاكها منذ زمن بعيد على قمة «ميهر». ولكي أفتحها كان عليّ أن أنتظر حتى تهدأ العاصفة، وخبأت نفسي وراء ظهر السيارة. ولكن الرمل، على أي حال، قد اكتسح الزوايا من حولها ومن فوق سقف السيارة. واضطرت أن ابتلع السردين بسرعة البرق بمجرد فتح العلبة. ولم أبال بمشاركة رفاقي، فماذا عساهم أن يجدوا في مثل تلك الأسماك الصغيرة القليلة وهم عدد كثير من البشر. وكانت راحتي الوحيدة في خضم هذه الاضطرابات جميعاً تدخين سيجار «بورما»، الذي لم أتمكن من إشعاله إلا بإنصاف الكبريت بإسراف، وكنت أدخن خلف حاجز من الأمتعة تم ترتيبه على طول الدواسات الجانبية بالسيارة لمنع الرمل من أن يتسرب لي من أسفل. ثم تمددت على الأرض لأنام، كما أنا، في الرمل. وكانت الليلة معتدلة الحرارة حتى إنه لم يكن من الضروري إعداد فراش على الإطلاق. وكانت الرياح تعصف حولنا بلا توقف، وترشنا بيت فينة وأخرى بقطرات مطر ضئيلة من السماء ذات اللون الرصاصي. وكان الرمل يطير من خلالنا مثل ألواح

من الرغبة. ولا أستطيع أن أحدد متى توقفت الريح، فلقد سقطت صريعاً للنوم، ونمت نوماً عميقاً حتى الفجر.

ومن المرجح أن رفاقي لم يناموا بعمق مثلي، فلم تكد الساعة تصل الخامسة صباحاً إلا والمعسكر يعج بالحركة وانشق الصبح علينا ببراءة مثل براءة الأطفال، وكان بارداً، مضيئاً على عكس ظلام تلك الليلة الجهنمي. وكان أحد الفئران قد تمّ الإمساك به وإحضاره لي من الرمال، كما زارنا أيضاً غراب أسود. إن مصيبتنا، عندما رأينا حالنا في نور الصباح، كانت مثيرة للضحك والسخرية تقريباً. فالسيارات كانت شبه مدفونة في الرمل، وكانت سيارتي أسوأ بقدر كبير من الأخريات، نظراً لأنها قد اندفعت في جرف ناعم بسرعة عالية. وكانت شجيرات «العلقي» وحشائش «النصي» الشحيحة غير مفيدة لاستخدامها كوقود، وكانت المظمورة غير مفيدة لدعم العجلات في الرمل. وكان علينا أن نستخدم ألواحنا الخشبية والحبل لأول مرة في الرحلة بالكامل. ولو انحرفنا فقط مئة ياردة لليمين لكنا قد تفادينا الوقوع في كل هذه المتاعب. والآن لا ينفع الندم وعلينا أن نعمل على إخراج السيارة، في تبديل بطيء بين الرمال، من مكان انغراسها في الرمل إلى حافة المنحدر الرملي الحاد، والذي سوف تنزلق منه بحكم ثقلها إن لم تنقلب رأساً على عقب. وليس من الوارد إمكانية إعادتها مرة أخرى للمنحدرات الرقيقة على الجانب الآخر. وقد لاحظت بصورة عرضية أن آثار سيرنا في الليلة الماضية قد انطمست تماماً بفعل العاصفة.

وفي الساعة السابعة والرابع من ذلك الصباح، وبعد الكثير من المحاولات الفاشلة، تمكنا من إخراج السيارة إلى حافة الجرف. ووقفت قريباً منها لالتقاط صور فوتوغرافية لنزولها على المنحدر عندما كان محمد يقودها ببطء على الجانب تقريباً. وقد وصل القاع بلا مشقة وانطلق بها بوحشية صاعداً المنحدر الرقيق المقابل حتى وصل إلى سلسلة التلال التالية، وهناك استأنفت الجلوس وراء المقود بينما رجع هو لإحضار الشاحنة. وكنا لا نزال في قسم «نصيبة» من الرمال، وكانت سلسلة التلال

الرملية العالية «الأخضر» ليست بعيدة منا عن يسارنا. وكان السير يسيراً بدرجة كافية على روابٍ رملية ثابتة ومستديرة تشكل طريقاً متعرجاً. وفي المنخفضات كانت هناك أحياناً مواضع صلبة من التربة خالية من الرمل. وفي مثلها، بل حتى على المنحدرات الرملية المنخفضة وجدت كتلاً من المحارات الصغيرة الحلزونية، التي توجد عادة في المياه العذبة، متشرة في منطقة واسعة. وكانت معظم هذه البقع مغطاة بصورة خفيفة بالحصى الصغير وشظايا الحجارة، وفي كثير من الأماكن كانت تنتشر على الأرض شظايا مكسرة من بيض النعام، وقد وجدت بيضة واحدة متهشمة، ولكنها كاملة تقريباً، وهي في مكانها. كما رأينا أيضاً هنا وهناك رقائق من أدوات حجر الصوان والزجاج البركاني وكسراً صغيرة من العظام. وكانت السحالي القليلة الموجودة هي علامة الحياة الوحيدة في هذا القفر. وبدا لي في ذلك الوقت - وهذا الاستنتاج يبدو أن له ما يبرره بالنظر في جميع الدلائل التي جمعتها في هذه المنطقة - أن السطح الطيني المكشوف في الأودية بين سلاسل التلال يجب أن يكون جزءاً من قاع نهر قديم ويحتمل أن يكون واسعاً جداً، والذي قد سحب لاحقاً وبالتدرج على مر القرون الرمال المتطايرة من الصحراء لتستقر في المخبأ النسبي في تجويفته. وهكذا، شيئاً فشيئاً تشكلت التلال الضخمة على طول خط القناة القديمة وعلى كلا جانبيها إلى أن أصبح مجرى النهر - بعد مرور الوقت المناسب - شريطاً عريضاً من الرمل. هذه الرمال تمتد من التلال على حدود اليمن فيما جاور خط بيجان - مأرب - الجوف بدون انقطاع حتى مدخل وادي حضرموت كما هو اليوم. وسوف أناقش هذه النقطة بمزيد من التفاصيل في الفصول التالية، ولكنني أود أن أستبق هذه المناقشة بالقول إنه ذات يوم من الأيام كان وادي سبأ - أو وادي أبراد ووادي حضرموت - يشكلان نهراً واحداً أو قناة سيل وحيدة.

ومن نقطة دخول الحاجز الرملي في عصر اليوم السابق إلى الموضع الذي اضطررنا للتوقف الإجباري فيه ليلاً كنا قد قطعنا اثني عشر ميلاً. وبعد حوالي خمسة

عشر ميلاً أخرى قطعناها في الصباح وصلنا إلى قاع واد عادي مكوّن من الحبشيات الثابتة الجيدة، والذي لزمنا مساره مسافة ما في اتجاه جنوب - شرق، تقريباً نحو حضرموت. ولكن - على أي حال - كان طريقنا المحدد يميل أكثر إلى الجنوب والجنوب الغربي، ومن ضفة منخفض هذا الوادي تمكنا من إلقاء أول نظرة لنا على معالم شبة - مثل قمة «النسر الغربي» البازلتية التي تبرز فوق كتف الرمال نحو الجنوب الشرقي مع بعض التلال المجاورة لها. وفي الوقت نفسه على الجانب الآخر من طريقنا، وإلى الغرب والشمال الغربي نظرنا لأول مرة إلى سلاسل تلال عارين وطرباق والتي رأينا منها - بعد عدة أسابيع لاحقة - الكثير عن كشب أثناء رحلة عودتنا. وبعد ذلك تظهر كتل الرمال الشاهقة لكل من «خل دمنان» بصورة واضحة عن يسارنا على بعد ميلين تقريباً. والآن ولينا وجهنا شطر الأخير، فهو المعلم المعترف به كمدخل للرمال في هذا الجانب، ومررنا قريباً منه في درب توجد به خطوط من بقع محدودة من التربة البيضاء ذات الطفل الرملي في سلسلة من المنخفضات ملاصقة لحافة الحاجز الرملي. ولم يستغرق الأمر منا وقتاً طويلاً للخروج مما بقي من الرمال، وسقطنا في سهل الشقيقات المتموج والمكسو بالشجيرات الخفيفة، والذي يجري تقريباً جنوب شرق على طول الحافة الجنوبية لرملة السبعين، بعد أن قطعنا مسافة إجمالية قدرها ثلاثة وثلاثون ميلاً على امتداد الأخيرة.

ولأغراض عملية انتهينا عند هذا الحد من الحاجز الرملي، ولكنها لم تكن على الإطلاق نهاية الرمال التي امتدت مسافة هائلة جنوباً حتى حافة السهل الضخم الذي تصب فيه أودية مختلفة من الجنوب - مثل: «جردان» و «همام» و «ومرخة» وخلافها بمياه سيولها. ولكن «الشقيقات» على أي حال يشكل ممراً طبيعياً واسعاً عبر الحاجز من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي (على الطريق إلى مأرب والجوف). ويتكون من سلسلة من الأحواض الضحلة المتصلة بسلاسل تلال منخفضة تقع بين خطوط تلال «عرق

الأحمر» على اليسار و «عرق الساقية» على اليمين، ويندمج بالتدريج في سهل واسع من الحصباء الخفيفة يحده عن اليمين امتداد تلال «الساقية» المعروف باسم «عرق الضاحية».

وقد قطعنا عشرة أميال على طول درب الشقيقات حتى وصلنا إلى ذيل لقناة فيضان كثيف الشجيرات تسمى القصعة وتتلاقى مع ثنية في الحاجز الرملي يوجد بها عدد من التلال والسلاسل الجبلية في ارتفاع قمتي النسر نفسها. وألقينا عصا الترحال لتتوقف عند منتصف النهار ونال قسطاً من النوم في القيلولة بين بعض أشجار السرح الطيبة على بعد أميال قليلة في أعلى القناة ، في حدود مرمى البصر من تلال شبة المنخفضة، على مسافة عشرة أميال بالضبط.

ومن «العبر» إلى شبة كانت المسافة التي قطعناها تبلغ ثمانية وعشرين ميلاً، وبهذا يصل إجمالي المسافة ٢٣٤ ميلاً من الضيف. وقد انتهينا الآن من «الربع الخالي». وعبرنا بالسيارة دون أي صعوبة خطيرة. ولكن هل كان ذلك هو الربع الخالي؟ إن المنطقة التي قطعناها بالعرض مشمولة بالتأكيد في الدرب الهائل المذكور في خرائطنا بهذا الاسم الغامض نسبياً. وكان (ويمان بيرى) في صدر القرن الحالي قد عدّ رحلته (التي انطوت على مصاعب ومشاق) عبر الرمال بين أنصاب و بيهان غطت الركن الجنوب الغربي من الربع الخالي. وكتب هانز هلفريتز^(١)، عندما سافر من حضرموت إلى بيهان في عام ١٩٣٣م، عن طريقه قائلاً إنه يقع ضمن الحافة الجنوبية للربع الخالي. إن سحر هذا الاسم -مقروناً بالجهل المطبق بخصائص المنطقة إلى الشمال من طريقهما- قد جعلاً هذين الرحالتين يدعيان مزاعم لا أساس لها، والتي يجب الآن نفيها بقوة الدليل القاطع والمفحم. إن درب رملة السبعين ذا التلال العظيمة، والصعب في أجزاء منه، مثل أي جزء من الربع الخالي تجتازه طرق قوافل معترف بها لا تعد ولا

(١) هلفريتز رحلة ألماني زار حضرموت، ويعد أول أوروبي يصل إلى شبة وقد طرد منها بسرعة، حقق شهرة في مجال التصوير أكثر من شهرته بصفته رحالة، له «الجزيرة العربية» و«فتح جنوب (غرب) الجزيرة العربية». بدول الرحالة الغربيون، ص ١١٧. (المراجعون).

تخصى مما يصعب معه وصفها بأنها خالية. وفي وسط الجزء الأوسع منها تجاه الغرب يقع منجم صافر للملح، والذي يقوم بتشغيله بنشاط أفراد من قبيلة «عبيدة» من مأرب الحديثة. وفي منتصف الطريق تقع سلسلة تلال «عارين» حيث -كما سنرى لاحقاً- نجد الصخور محفورة بنقوش قديمة بالقرب من موقع ما زال يستخدمه الرحالة والرعاة من البدو. كما أن لسانه الشرقي الهزيل الذي يتصل في النهاية ببوابة وادي حضرموت المأهول بالسكان، يمتد لأمال خلال مسار واد تنتشر فيه الآبار والمساكن البشرية؛ ولذلك ليس من الضروري بالتأكيد معالجة الأمر بمزيد من الإفراط -إن طريق رملة السبعين الرملية- ومن المهم إدراك حقيقة أن له اسماً مميزاً ولا ينظر إليه محلياً على أنه مرتبط بأي شيء مع الربع الخالي -لا يمكن جعله ضمن الحدود الجغرافية للربع الخالي- والشيء نفسه يمكن أن يقال عن درب الصحراء والتلال الواقعة بينه وبين «العبر» ويمتد للغرب والشرق عبر الأخيرة حتى وادي «الجوف» وعلى طول الحد الشمالي للهضبة الجيرية المحاذية للضفة اليسرى لوادي حضرموت.

ولذلك لا يبقى هناك إلا السهل الصحراوي، جو المليس والعمرم والريان وغيرها، الواقعة بين خط عرض «العبر» والحافة الجنوبية للرمال العظيمة، والتي تمتد تقريباً على طول خط عرض سبعة عشر. هذا السهل يمكن -في رأيي- أن يُعد بمثابة عتبة الربع الخالي، ولكنه يكاد يكون جزءاً لا يتجزأ منها. إن درب القوافل من حضرموت إلى نجران عن طريق العبر وآبار مشينقة ينم عن وجود كثير من حركة عليه في الماضي، وحتى في الحاضر، تنفي تهمة الخلو أو الفراغ. هذا الطريق في التيه الصحراوي أضيق من طريق «حمد السوري» الذي يشبهه في شمال الجزيرة العربية بين بغداد ودمشق ولا يواجه المسافر بأي عقبة أو صعوبة خطيرة. ولذلك بعد النظر في جميع الأمور كما ينبغي، أشعر أنني مقتنع بأن اسم الربع الخالي يجب أن يقتصر على الصحراء الرملية التي تمتد حدودها الجنوبية تقريباً على طول خط عرض سبعة عشر من حافة تلال اليمن السفحية حتى تجاه حدود عُمان. ولذلك، بعد كل شيء، يجب عليّ أن أتخلى عن أي ادعاء بأنني قد عبرت الربع الخالي بالسيارة. لقد عزمنا بكل تأكيد

على إتمام ذلك، ولكن الربع الخالي تقلص أمامنا، وحرمتنا من الشرف الذي كنا نسعى إليه بين رماله. ولقد اكتشفنا حدوده الجنوبية (والغربية)، وكان هذا كل ما في الأمر.

ولقد تمكنت - على أي حال - في هذا التطويق للربع الخالي من أن أدرس مشكلة ذات أهمية كبرى فيما يتصل بتشكيلاته الرملية. وكان بيرترام توماس قد اقترح نظرية بعد رحلته الرائدة عبر الرمال في ١٩٣١م تقول: إن أعلى كتل التلال توجد تجاه الركن الجنوبي الغربي في الربع الخالي. وخلال رحلتي في العام التالي رأيت منطقة القَعَامِيَّات الرملية قريباً إلى الجنوب من طريقي، وأجبرني رفاقي أنها أعلى كتل الرمال في الصحراء كلها. وموقعها كان في حوالي النقطة الوسط من الحافة الجنوبية للربع الخالي، وقد أوحى لي هذا الموقع وهو أعلى التشكيلات الرملية الموجودة ربما جنوب ذبول الأودية المدفونة التي كانت تجري ذات يوم عبر شبه الجزيرة حتى الخليج الذي تمثله الآن رمال منطقة «خيران». والآن بعد أن طُفْتُ حول الحافتين الغربية والجنوبية للربع الخالي فقد أثبت بالتأكيد حقيقة مؤداها أن الركن الجنوبي الغربي لم يكن مميزاً بالتلال الشامخة. لقد رأيت بالتأكيد تلالاً شاهقة معزولة مثل تلال «داعر» في بقع محمية تصلح لتراكم الرمال في شكل إهرامات، ولكن الطرف الغربي كله من الصحراء يمكن أن يوصف بكل معنى الكلمة بأنه منطقة واسعة من الرمل بها القليل من التلال البارزة ولا ترتفع أكثر من مئة قدم من أرضية الصحراء إلا نادراً. ولم يكن بها شيء يمكن أن يقارن بمنطقة القَعَامِيَّات أو التلال حول «شنة» ونايفة وليس لديّ بالطبع أي وسائل لتحديد ما إذا كانت الصحراء، ككتلة، تتحرك نحو الجنوب أو تتراجع نحو الشمال. ولم يكن هناك تلال منعزلة في «جو المليس» أو «العَرَمَرَم» ويوجد بها حبيبات وحصباء توحى بأن الجزء الرئيس قد تركها وهو يتراجع للشمال. وفي الوقت نفسه لا يوجد ما يدل على غزو الرمال المتقدمة من الشمال لمنطقة تلال «الريان» وربما يكون المعلم الأكثر إثارة للدهشة في الحافة الجنوبية للربع الخالي هو خط الحدود شديد الوضوح والدقة بين منطقة الرمل والسهل المنبسط الميت، مثل خط الشاطئ لبحر خال من الأمواج.

شبو

إن وادي القصعة الضيق ما هو في الواقع إلا دلتا لوادي «المعشار» الذي يجري متجاوزاً «شبو» ليصب مياه سيوله مقابل رمال السبعين. ويكتسي الحزام الرملي في هذه النقطة بمتراس أو (سور) من الصخور تشكل سلسلة تلال «القويد» المنخفضة التي تقف تلال «النسر» الصغيرة في شرقها وغربها على كلا جانبيها مثل القلاع والحصون. وتمتد الدلتا على يسار «القويد» والرمال المجاورة لها، بينما على اليمين تسير بين حافة «القويد» التي تعود ثانية إلى الداخل وتل «النسر الشرقي» لتشكل القناة الواسعة التي تقع فيها حقول «جربة النسر» الزراعية. وإلى الجنوب في اتجاه شبو تضيق دلتا قصعة نحو قمته، ومن ورائها تجري قناة «معشار» في مجرى واضح المعالم ذي ضفتين عاليتين من الطمي والحصى والكثير من الأشجار الكثيفة.

وحينما كنا نرقد في المعسكر للراحة وقت القيلولة لاحظنا رجلاً وحيداً يقترب منا ممتطياً جملة. واتضح عند وصوله أنه كان «مبارك بن صالح» -ابن عم مرشدنا سعيد-، والذي كان قد اختير في «العبر» ليرافق جماعة الإبل التابعة لنا. وأثناء العاصفة في الليل كانوا قد تاهوا عن آثار سيرنا في الحزام الرملي، وبقوا في مخيم لهم حتى ارتفع القمر بدرجة كافية ليضيء لهم الطريق. وبرزوا بصورة أو بأخرى من «الرملة» مقابل «الرُميد» حيث ساروا على طول الوادي ليقبضوا مخيمهم في درب جربة النسر.

ومن هناك رأنا رقيبهم ونحن نصل إلى الدلتا، وأرسل مبارك إلينا لمعرفة الأوامر. وقد أعدناه مرة أخرى محملاً بتعليمات تقضي بأنه يجب على رفاقنا أن يتجاوزونا بأسرع فرصة ممكنة للوصول إلى شبو، حيث إننا نريدهم أن يصلوا قبلنا. وهكذا واصلوا السير حتى جاؤونا في الوقت المناسب. وبعد وقفة قصيرة للقهوة،

استمروا في رحلتهم تجاه مقصدنا. وسوف تستغرق الرحلة منهم حوالي ساعتين أو ثلاث ساعات حتى يصلوا شبوة، بينما نستطيع نحن أن نقطعها في أقل من ساعة. ولذلك مكثنا في المخيم حتى الساعة الرابعة والنصف تقريباً قبل أن نستأنف رحلتنا. وعند وصولنا إلى هنا لاحظنا عدة قطعان من الأغنام ترعى في المنطقة المجاورة لنا، ولكننا لم نعثر على أي أثر لكائنات بشرية. وبعد أن استقر بنا الحال ظهرت أمامنا امرأة عجوز شبه عمياء. وكانت أخت «ابن عفيشة» الشيخ الرئيس للعنصر البريكي في شبوة. وقالت: إن مرافقيها الصغار قد هربوا من الخوف عند اقتراب سياراتنا. وإنها نفسها قد انبطحت أرضاً تحت شجرة لترى ما قد يحدث، وإن أغنامها قد تبعثرت وإنها لا تستطيع جمعها مرة أخرى لشدة عماها. وقد قام سعيد بمساعدتها في هذه المهمة، وسمع منها -كما سمع جماعة الإبل أيضاً من الرعاة الذين قابلوهم أثناء التوقف- أنه في الصباح الباكر كان هناك إطلاق نار مكثف حول شبوة. وعلمنا فيما بعد أنه كان هناك قتال بين فصيلي «آل زيد» و «العويرة» من قبيلة «الكرب» وأن توسط جماعة «البريكي» في القرية قد أدى إلى التوصل إلى هدنة وضمان انسحاب المهاجرين من آل زيد. ولقد كانت تلك أنباء تبشر إلى حد ما بالخير لنا، ولكن سعيداً كان يعتقد أن مثل هذا الحادث عادي جداً بدرجة لا يمكن أن تثير أي قلق. وقد طلب من المرأة العجوز -عمته- أن تحضر لنا الحليب، وأصبحنا في الوقت المناسب مستعدين لنأخذ الطريق. في الوقت الذي بدأت تصلنا عاصفة رملية كثيفة كانت تتجمع ببطء تجاهنا من ناحية جنوب شبوة أثناء فترة ما بعد الظهر، في البداية لم تكن شديدة العنف، بيد أننا لم نكد نقطع ميلين من مسيرتنا إلا ووجدنا أنفسنا في وسط خضمها. وكانت المنطقة كلها قد اختفت في ظلام العاصفة واضطربنا إلى تغيير اتجاهنا إلى السهل المفتوح بعيداً عن الوادي لتفادي الجداول والقنوات في المنطقة المجاورة له. وبعد وقت قصير كانت العاصفة قد خمدت وبدأنا مرة أخرى نرى معالم

الأرض. وألقت فتاة وحيدة، -كانت ترعى غنمها- التحية على سعيد، وتوقفنا لتجاذب أطراف الحديث معها. فقد كانت إحدى أخواته، وكانت لا تزال فتاة يافعة، بها مسحة من جمال، تفيض بروح الدعابة والمرح. وكانت طبعاً لم تر سيارة أبداً من قبل، وقد تراجعت خطوات قليلة للخلف عندما بدأت تشغيل محرك السيارة مرة أخرى لمواصلة الرحلة.

وكنا الآن على مقربة من هدفا. فالقبة البيضاء لضريح «محمد بن بريك» قد برزت بوضوح أمامنا. ولم يمض وقت وجيز إلا وصادفنا أول آثار لعمران قديم، وهي بقايا بناء لقناة مائية. وخلفها تقع أرض «مراحة» للزراعة الموسمية بها قنوات ري رملية ضحلة أعاققت تقدمنا شيئاً ما. واقتربنا ببطء من القرية، ونراها الآن تنتشر في غير نظام على طول قمة وحافة سلسلة جبال صخرية منخفضة يطوقها جزئياً في الطرف البعيد جرف شاهق من الطمي المتراكم. وقد انطلق مبارك يسبق جماعة الإبل ليزف بشرى وصولنا، بينما كان سعيد معي في السيارة. وبدا الفضاء المنبسط -الذي اعتقدت أنه سيكون موقع مخيمنا- عند قاعدة السلسلة يعج بالبشر. فقد خرج السكان عن بكرة أبيهم ليكونوا في شرف استقبالنا، وهم يلوحون ببنادقهم. وربما كان عددهم يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فرد. وتجمعت النسوة في ملابس معتمة كحلية تزين أسطح المنازل ليشهدن الاستقبال. والتف الأطفال زرافات ووحداً حول المنحدر. وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا صوت أزيز محرك السيارة، ولا تبدو على الجموع الحاشدة أي دلالة على السرور أو الغضب. وساعتها ندمت على عدم إعطاء جماعة الإبل وقتاً كافياً للوصول هناك قبلنا، ولكن الشمس كانت قد مالت للغروب، ووصلنا في الظلام لن ينفع شيئاً. وأعترف أنني شعرت بالغضب بشكل واضح، ولكن سعيداً شد من أزرعي وشجعني. وقال لي: «استمر في قيادة السيارة إلى حيث يقفون». واضطررنا إلى التعامل مع حفرة ضحلة ببطء يئس ويسرة. وكان يبدو أن السكان يقفون في ما يشبه الصف. وقد أوقفت السيارة على بعد عشرين ياردة منهم،

وفتحت الباب وترجلت منها. وفعل سعيد الشيء نفسه. ووقفت السيارة الأخرى بجوارنا وقذفت ركابها من بطنها. وكنا سبعة في مجموعتنا. وأمام صف القرويين لاحظت أن اثنين منهم عليهما ملامح الأهمية والمكانة، وتقدمت قُدماً لتحتينهم. وكان أحدهم ذا قسمات قاسية ولحية مثل أسنان الشوكة، وقبضت يده، ولكنه دفعني بقوة للخلف في رفق تجاه رفاقي. وأدركت بطريقة أو بأخرى أنه كان يجب علينا أن نشكل صفاً واحداً أمام سياراتنا مقابل القرويين. وبينما نحن واقفون هناك في فوضى واضطراب لاحظت حركة بين مضيفينا، والتف الصف الطويل إلى اليمين، ثم استدار للييسار، واتجه للييسار مرة أخرى ليمروا من أمامنا وخلال ذلك كان كل رجل منهم يسلم على واحد منا باليد، حيث يضع راحة على راحة والأصابع منحنية باستدارة في مصافحة رخوة لينة بدلاً من قبضة التسليم، ويُقبلون الهواء الواقع بين الشخصين باستنشاق مسموع الزفير وقد حدثت هذه المراسم كلها في صمت مهيب، ولم نفك من هذا الطابور إلى مجموعات غير رسمية لتبادل الحديث إلا بعد أن انتهت تماماً. لقد كان ذلك بحق نسخة مثيرة مغايرة لفكرة حرس الشرف. فبدلاً من أن نتقدم نحن لتتفقد حرس الشرف جاء الحراس لاستقبالنا، فكأنما كان الحرس هو الذي يتفقدنا. وكان الحرس نفسه لا يضم فقط مندوبين عن القرية، بل يشمل جميع السكان شاهرين سلاحهم. وهذا الترحيب الحار الذي قبولنا به قد أدخلنا بطريقتهم الديمقراطية في كرم القرية، فقد أقر كل رجل منهم الآن بمسؤوليته عن سلامة ضيوفه ورفادتهم. وكنت قد تنبهت مسبقاً إلى أن استقبالنا سيكون مصحوباً بإطلاق النار من الأسلحة الصغيرة، ولكنني طلبت -عن طريق مبارك الذي كان قد سبقنا- أن يتم إلغاء ذلك في جميع الأحوال، نظراً لطبيعة زيارتي الخاصة غير الرسمية، وقد قُبِلت رغبتني هذه كما ينبغي. ولا يوجد شيء أمقته أكثر من إطلاق النار بلا هدف في الفرح، ولا يمكن للمرء أبداً أن يتنبأ باتجاه طلقة من طلقات الرصاص، ولربما طاشت إحداها، وكثيراً ما تقع حوادث مفعجة كهذه بالتأكيد. ففي أبها، على سبيل المثال، عام ١٩٣٤م كان

الأمير سعود^(١) قد انتهى من تفقد قوات احتشدت هناك لحرب اليمن وكان عائداً إلى مقره في الحصن الكبير بمصاحبة «نيران فرح» وكان قد اقترب تقريبا من الباب عندما سقط العبد حارسه الشخصي، الذي كان يسير خلفه مباشرة، ميتاً. ولم يعلم أحد حتى الآن من الذي أطلق الرصاصة، وما إذا كانت أطلقت بسوء نية أو بإهمال. وفي المملكة العربية السعودية - ما عدا المناسبات الخاصة جداً- يثنون الناس بقوة عن إضاعة الذخيرة سدى، ولكن في كافة هذه المناطق الجنوبية فإن الثمن الباهظ نسبياً لا يبدو أنه يعوق هذا الشكل الخاص من التبديد أو الإسراف.

وفور انتهاء استقبالنا، اختلطنا مع الجموع المحتشدة التي كانت -بالطبع- مأسورة بالسيارات إلى حد كبير. واكتشف الأطفال الذين لم يعتادوا قط على رؤية المرايا، لدهشتهم أن هذا المعدن المصقول يعكس صورهم. ولاحظت أن محمداً وسعداً فيما يبدو يلقيان محاضرة عن كيفية تشغيل السيارات لجمهور من الكبار. وتركوني مع مجموعة من شيوخ القرية نتحدث في السياسة والآثار. وكان كبير المتحدثين في جماعتي ذلك الشيخ ذا اللحية المتشعبة مثل الشوكة الذي قد ذكرته قبل، صالح بن حزيق، من جماعة آل عويرة من الكرب. وبالإضافة إلى حياته البدوية العادية فقد كان فخوراً جداً بمكانته الحضرية التي يتبوؤها كصاحب منزل في شبة، حيث كان يشارك -بفضل وضعه القبلي- في قيادة سياسة القرية مع إخوان عفيشة، سالم وعلي، من عشيرة آل بريك. ولم يكن صالح -على الرغم من أنه كان الرئيس الفعلي لآل عويرة- الرئيس الأسمى نظراً لأن ابن عمه الذي كان في الثمانين من عمره الذي وهن عقله -وكان أيضاً والد زوجته-، ناصر بن قطيان، كان لا يزال حياً ومعتزلاً به كأكبر عضو في العشيرة. وكان لهذا الشخص الأخير ولد أيضاً، يدعى محمداً، والذي كان يبدو لي أنه لا يميل تماماً إلى إقرار أحقية صالح -على الرغم من أنه

(١) المقصود هو جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز -ولي العهد آنذاك-. (المراجعون).

لم يكن فقط أصغر منه في العمر- بل كان بالتأكيد أدنى منه قدراً. وكنت سأراهما كثيراً خلال الأسابيع القادمة في مواقف مختلفة، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أي شك في أن صالحاً كان مقبولاً بصورة عامة كحاكم فعلي للقبيلة والمنطقة. ولقد كان من الواضح في جميع الأحوال -في هذه اللحظة وفيما بعدها- أن صالحاً قد تولى أمور القيادة في تحديد موقف شبة تجاه زيارتنا.

وفي شبة، مثلما حدث في العبر، كانت أخبار قدومنا قد سبقتنا بزمان طويل، وكان أمام الناس الكثير من الوقت ليحددوا ما إذا كانوا يرغبون في إقامة علاقة أشد قُرباً مع ابن سعود أم لا. وقد أخبرهم مبارك بأننا قادمون بعده مباشرة واستقبلونا بشرف عظيم. ولذلك لم أندش كثيراً -على أي حال- عندما سمعت صالحاً في هذه الدقائق القليلة الأولى من تعارفنا يعرب عن أمله في ألا نتعجل الرحيل. وتحدثوا عن ابن سعود بإعجاب ومودة غير زائفة، وفي اللحظة نفسها تقريباً أشاروا بصورة واضحة إلى الحالة المستديمة للنزاعات الداخلية الضروس التي يعيشون فيها. إنها القصة المعتادة للعداوات الدموية والثأر الذي لم يتنه، وفي هذا الصباح كان لديهم ما يذكرهم فوراً باضطراب الأمن بصورة حادة عند هجوم «آل زيد» الذي ذكرناه سابقاً.

إنهم يريدون الهدوء والسلام حتى يزرعوا أرضهم بقليل من الأمل في أنهم سوف يتمتعون بالحصاد بدون إزعاج. ولقد قال صالح إنهم ليسوا فقط الوحيدين الذين يتدمرون من ذلك، بل جميع القبائل في المنطقة المجاورة. وأردف قائلاً: «إنهم جميعاً يريدون مقابلتك ورؤيتك، ويريدون خطابات من ابن سعود تضمن أمنهم من أي هجوم». ولم أشك لحظة من هذا اللقاء الأول في أن مثل هذه الأمور قد نوقشت بالفعل قبيل قدومنا. وعلى أي حال اندهشت قليلاً من التحدث معي بصراحة فور أن وطأت أقدامنا هذه الأرض. وليس عندي بالطبع أي سلطان لكي ألزم الملك بأي سياسة أو إجراء. ولكنني اقترحت بالفعل أنهم بوسعهم أن يختاروا مندوبين عنهم لإرسالهم لمناقشة الأمور مع الملك، ويستطيع هؤلاء الممثلون أن يسافروا معي أثناء

رحلة العودة. ومن هذا الاقتراح نشأ قرار صالح نفسه بأن يرافقني عند العودة إلى نجران ثم إلى مكة. وقد انطلق سعيد فوراً بعد وصولنا ليرعى شؤون متطلبات التموين. وبعد ذلك بدقائق قليلة كان قد أحضر أربع خراف إلينا كهدية من أهل القرية، بينما وصل الحطب والماء فور وصول جماعة الإبل. وتركنا نصب الخيام حتى الصباح، ولكن عبود بدأ عمله فوراً في اثنين من الخراف ليجهز لنا العشاء، وفي الوقت نفسه كانت نيران القهوة، واحدة عند كل مجموعة من جماعتنا، تزودنا نحن وضيوفنا بالمشروب المنشط الترحيبي. واجتمع خلق كثير حولي عندما فتحت المذبايح، وهم ينصتون مشدوهين للنشرة العربية من الأخبار. وتداخلت العوامل الجوية، الناتجة عن العاصفة الطويلة، في البث الإذاعي شيئاً ما. ومع ذلك سمع سكان شبوة، لأول مرة في حياتهم، بعض الأخبار عن أنشطة العالم البعيد مثل القلاقل في أسبانيا، وعن المشاكل في فلسطين حيث تنهك القوات البريطانية في أعمال عدائية ضد إخوانهم العرب. وبالنسبة لهم، مع نزاعاتهم الضئيلة، ولكنها مزمنة، كانت الحروب تبدو على الأرجح شيئاً جوهرياً ومن طبيعة الأمور.

وانتظرنا حتى الحادية عشرة والنصف إلى أن نودي بالعشاء الذي كان وجبة ترحيبية شديدة الروعة من لحم الضأن والعصيدة وجلست مجموعة كبيرة حول أطباقنا، وبدا أن ضيوفنا من أهل القرية كانوا من النوع النهم الأكل. فليس من المعتاد عندهم أكل اللحم كثيراً، فالحليب وعجينة الدخن هما طعامهم الرئيس. وبعد الطعام انصرفوا آفلين، وكنت سعيداً أن أقبع بمفردي في مكاني، ولكن جاءت كلاب القرية لتتفحص العظام الباقية من وليمتنا. ولاحظت -عندما كنت أهيئ نفسي للنوم- أنها قد رفضت باردراء أن تأكل العصيدة التي انسكبت من الصحون. وعند منتصف الليل سجل مقياس الحرارة معي ثمانياً وثمانين درجة وكانت السماء ملبدة بالغيوم الكثيرة. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل يرتفع إلى ما يصل ٨٤، وقد بلغ

الحد الأقصى خلال إقامتنا المؤقتة لمدة أربعة أيام في شبوة مئة ودرجتين . ويصل الارتفاع هنا إلى حوالي ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر أو أكثر من ذلك بقليل .

وبتداء من حوالي الخامسة في الصباح التالي استمر الزوار من القرية في الوصول بأعداد متزايدة دائماً . وعند وصولنا في الليلة السابقة شعرت بشكل غريزي أن شبوة سوف تخيب آمالنا . والآن وفي وضوح النهار كنت قادراً على أن أحصي المناطق المحيطة مباشرة بمخيمنا ، وكانت كلها كثيفة بما فيه الكفاية . فنحو الشرق يمتد خط طويل في اتجاه شمال جنوب ، ولمسافة أميال قليلة يجري جرف «الحوق» مع ألسنته المنتظمة في صفوف . ويقع بينه وبيننا وادٍ ثمر فئاته الرئيسة قريباً من معسكرنا ، اسمه «المحاض» وهو فرع من وادي شبوة الرئيس وهو يعرف باسم «العطف» (أي القناة) فوق النقطة التي يتشعب عندها إلى شعبتين ليمر على كلا جانبي سلسلة جبال شبوة . والفرع الغربي هو «المعشار» الذي ذكرناه سابقاً . ويصرف الجرف مياهه في محاض خلال عدد من القنوات القصيرة ، ويكتسي الوادي كله بمظهر الوعورة نسبياً لوجود سلاسل التلال الرملية المتراكمة والقنوات التي تتناثر فيها شجيرات السنط وقليل من نخيل الدوم اليابس . وعلى الجانب الآخر من معسكرنا تمتد الحافة الشرقية لسلسلة شبوة حوالي ميل إلى الجنوب من الشمال . وفي مضيق منخفض بين قمتين في السلسلة يقع قبر (محمد بن بريك) البارز ذو القبة البيضاء ، وكان شيخاً كبيراً في تلك المنطقة المحلية . وعن يساره نحو الجنوب تمتد قرية «هَجْر» الصغيرة البائسة ، والتي تتكوّن من حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين منزلاً مبنياً من الطين والحجر ، وفوق رابية من السلسلة . وعلى اليمين -عن قرب- كانت هناك هضبة صغيرة مستديرة يعلوها متراس منخفض من الحجارة ، وتجاه الشمال منه والجنوب من «هَجْر» تمتد السلسلة لمسافة ما وهي مغطاة جزئياً بأنقاض مبانٍ حجرية . وتحت هذا المتراس عند قاعدة السلسلة تقع مقبرتان صغيرتان تفصلهما عن بعضهما مسافة قصيرة . وفي

المقبرة البعيدة عنا يرتفع ضريح «عبدالقادر» ذو القبة، وكان ابن شيخ ورع^(١)، وسط قبور أعضاء الأسرة الآخرين. وكانت المقبرة الأخرى لدفن جثث البدو أو الحجاج الذين لا يتمتعون لعائلة الشيوخ.

وكان ذلك كل ما أمكن رؤيته من معسكرنا، وبدا لي أن المتراس المذكور أعلاه سيكون على الأرجح النقطة المثالية لعمل مسح عام للآثار التي قيل لي إنها تقع على الجانب البعيد من السلسلة. وقد صدق ظني، ولكن انتظرت حتى حوالي الساعة الثامنة صباحاً لأتقدم في ذلك الاتجاه. وكان من الواضح أنه من المفيد لي أن أتفادى إظهار أي شوق لرؤية الآثار، ومكثت مشغولاً دائماً بتيار الزائرين الذي يستمر في التدفق. وكان الكثير منهم غلماناً صغاراً يأتون معهم أشياء غير مهمة من الآثار، مثل كسرات من الرخام وغيرها، ولكن واحداً منهم فقط، وهو الابن الصغير لعلّي ابن عفيشة نفسه، قدم لنا شيئاً يستحق النظر فيه، وهو بلاطة رخامية شديدة الروعة بها نقش محفور يعلوه صورة لراكب جمل مجسّم تحسيماً خفياً. وقد اشترت ذلك بريال واحد (حوالي ١ و ٦ دولار) ووضعتها جانباً بجوار صناديقي، بعد أن نسخت النقش. ولم تمض دقائق إلا وعاد الصبي قائلاً إن النقود ليست كافية. ولم يكن من الحكمة في شيء أن أقدم له المزيد، واعتقدت أن الآثار ربما تكون مليئة بمثل هذا النوع من الأشياء. ولذلك أعدت البلاطة للصبي واسترجعت ريالاً. إن امتلاك النقش، الذي كنت قد نسخته فوراً، قد توازن إلى حد ما مع شعوري بفقدان شيء هام، ولكنني سرعان ما بدأت أندم على ذلك الأثر. وقبل أن أغادر شوبة بأيام قليلة فيما بعد رأيت الصبي وعرضت عليه ريالين، ولكن إحساسه بالقيمة قد زاد، وهكذا اضطرت في النهاية أن أمضي بدونه. وعلى كل حال لم أستطع نسيانه، وخلال رحلة عودتي من حضرموت بعد ذلك بحوالي شهر أشبعت شوقي إليه بإضافته إلى مجموعتي «كهديّة» من والد الصبي.

(١) هو عبدالقادر بن محمد بن بريك، جد آل بريك في شوبة، وسيأتي ذكرهم لاحقاً. (المراجعون).

وبعد أن قضيت وقتاً معقولاً في التأخير واستضفت زواري بالشاي والقهوة عندما كنا نتحدث عن شبة وما جاورها قلت: «إن الوقت قد حان لنبدأ زيارتنا للآثار». ورافقني الشيخ صالح وابن عمه محمد بن ناصر وسعيد ومبارك وعدد هائل من الآخرين، منهم أربعة رجال لنجديين من حرسى الشخصى مدججين تماماً بالسلاح ضد جميع الحوادث الطارئة، إلى المتراس حيث قضيت حوالي الساعة أو أكثر أدون الملاحظات والاتجاهات والتقط الصور. وهاهو حقل الآثار كله ينسبط أمامنا، ضيلاً وهزياً بصورة مخيبة للآمال. وهناك ضريح ثالث، عبارة عن قبر ذي قبة بيضاء لابن يوسف، وهو حفيد (محمد بن بُريك) وخليفته، ويقع على بعد نصف ميل إلى الجنوب الغربي مع قرية «المعوان» تمتد نحو الشمال منه على طول الضفة اليسرى لوادي المعشار. وبين المعوان وهجر توجد أنقاض آثار تغطي مرتفعاً قصيراً ومنحدره النازل للأسفل نحو منجمين للملح باتجاه الشمال. وعلى هذه السلسلة توجد مجموعة من الأكواخ، مبنية من الصخور بصورة جزئية من مواد عتيقة، وتمثل حي المثناه وهو ثلث العناصر المكونة لشبة الحديثة. ولا يوجد مبنى واحد قديم سليماً، ولا حتى عمود واحد من المعابد الستين قائماً. إن عاصمة الحميريين القديمة كانت مجرد أخلاط من الانقاض المتهاوية. وكل ما أستطيع أن أرجوه أن يكشف فحص الآثار بصورة أكثر تفصيلاً عن شيء جدير بالاهتمام، وبينما كان هذا الأمل يحدوني تقدمت خطوات لأهبط المنحدر تجاه حافة حقل الآثار. وفي هذا الوقت كان جمع غفير من الناس قد ألحقوا أنفسهم بنا، وساروا وراءنا، ولاحظت أنه في قرية «هَجْر» وحولها تجمعت أعداد كبيرة من الناس، بمن فيهم الكثير من النساء على أسطح المنازل، في مجموعات ليشاهدوا هذا اللهو.

واللهو الذي كانوا يأملون أن يشاهدوه لم يكن معروفاً لي في تلك اللحظة، ولكن لم نكد نصل المنخفض الضحل الذي يفصل السلسلة عن أقرب جزء (السور الشمالي الشرقي) من الآثار إلا وتعالص صيحات التحدي والتحذير من أحد تلك

المجموعات في القرية فوقنا وعن يسارنا. وكان كل من صالح بن حزيق وسعيد البريكي معنا، بيد أنه كان من الواضح وجود جماعة من السكان ينظرون لسبب ما بارتياب واستنكار لما سيحدث من انتهاك آثارهم البكر. ولم أستطع أن أسمع بالضبط ما كان يقوله المعارضون، ولكني لم أكن أريد أبداً أن أكون سبباً لقتال بين العشائر أو لنشوب شجار في القرية. وأكد لي صالح وسعيد أنه لا يوجد شيء يثير القلق، وكان من الواضح تفوقنا في العدد بكثرة ترهب أي معارضة، ناهيك عن الحجم العظيم لجماعتي المقيمة في الخيام خلف القرية. وعلى أي حال فقد كنت حريصاً أشد الحرص على تفادي أي أحداث مؤسفة، ولم أكن في عجلة من أمري.

إن الأرض المنخفضة هنا كان ينتشر فيها أعداد صغيرة من القبور الحديثة، وقد جلست على واحد منها، وأعلنت أنني لن أتقدم خطوة واحدة إلا بعد استعادة التألف والانسجام. وبعد ذلك تقدم صالح إلى جماعة المعارضة ليحاورهم وعاد فوراً مع قليل من زعمائها ليواصل المناقشة والحوار بحضوري. وكان رئيسهم، والأمر المهم أنه كان ابن عمه محمد بن قطيان. وكانت مظلمته أننا لم نطلب إذناً منه لزيور الآثار، حيث إن جزءاً عظيماً منها، مثل منجمي الملح الاثنين اللذين يقعان إلى الشمال من المدينة القديمة، يبدو من الواضح أنها تخضع في حقوق الملكية، لفرع «القطيان» من قبيلة «آل عويرة». ولم أكن قد تعرفت عليه إلا في هذا الصباح فقط عندما زارني في المخيم، ولم أدرك في ذلك الوقت وضعه في القبيلة. وربما أكون قد تعاملت مع صالح بطريقة مكشوفة جداً على أنه هو الرئيس أو الشيخ، وانطلق محمد فيما يبدو مقطب الجبين ليدبر أي وسيلة يحبط بها خططنا. ووافقت الآن بشكل طوعي بمافيه الكفاية على أنه إذا كان هناك أي جزء من الآثار يخصه فلن أرور ذلك الجزء بدون إذنه. واقترح -على كل حال- أن مثل هذه الصعوبات يمكن التغلب عليها بمرافقته لنا. وكان يبدو أنه يميل إلى الموافقة على ذلك، وتلخص الجدل إلى نزاع بالأصوات العالية بين عشائر القرية عن كيفية تحقيق زيارتي لحقل الآثار كله بدون أن يتعدى أو

يتدخل أعضاء أي عشيرة منهم معي على ملكية عشيرة أخرى. وقلت لهم إن لم يستطيعوا الموافقة على برنامج محدد فسوف أعود للمخيّم وأخذ فوراً ترتيبات مغادرتي من وسطهم.

وبعد ذلك سرعان ما كوفئت على صبري بإعلانهم أن جميع الأطراف قد تنازلت عن حقوقها العشائرية ووافقت على مرافقتي بصورة جماعية في المنطقة كلها. وكان هذا أسوأ قرار غير مناسب من وجهة نظري ، على الرغم من أنه ليس من الخير إضاعة مزيد من الوقت في الجدل حول الأمر. وانتفضت قائماً من على شاهد القبر وتحركت نحو الآثار بصحبة ما يبدو أنهم جميع السكان الذكور في القرية، كباراً وصغاراً. ودخلنا الآثار من خلال بقايا متساقطة من بوابة في السور الشرقي، الذي يمكن التعرف عليها فقط بخط محدد من الانقراض مغطى بالتراب. ولا أعلم إذا كانوا يتوقعون أن يروني وأنا أخطف الذخائر المخفية من الذهب والأحجار الكريمة من أقبية المدينة، ولكن الحشود اندفعت تطوقني إلى درجة أنني لم أعد أستطيع الحركة إلا بشق الأنفس. وإذا التقطت من الأرض قوقعة أو خرزة أو خلخالاً مكسوراً أو شظية من آنية خزفية أقاموا سوراً بشرياً حولي وهم يلتفون في دائرة يلهثون، وربما يعتقدون أن هذا الشيء التافه سوف يتحول باهتمامي به إلى جنبيات ذهبية. وإذا توقفت للنظر في مدماك من الحجر من المباني القديمة ويشكل جزءاً من منازلهم الحديثة من الحجارة المكومة فوق بعضها ساورهم الشك في أنني أتكهن بوجود كنز تحته. وهكذا سار الأمر، في حين ألقى بعضهم بنفسه في اللعبة بحماس يستحق الثناء عليه وبدؤوا جمع ما يشبه المواد التي شاهدوني ألقط مثلها وأضعه في جيبي. وتقدم الحشد الغفير معي بهذه الطريقة، يكنسون سطح الأرض كلما ساروا، وكل دقيقة أو نحوها يحضر أحدهم لي حفنة من الأشياء لأفحصها. وكان بعضها مجرد نقايات يجب رميها، والبعض الآخر كان عبارة عن المخلفات العادية من كسور وأساور أو خلاخيل وخلافها التي كنت أحتفظ بها في جيوبي، بينما كان المتبرعون يتخيلون في أذهانهم

أنني سأقدم لهم هدايا عوضاً عن ذلك في الوقت المناسب. وكان من المدهش حقاً كيف تذكر كل رجل أو صبي بدقة الصنف الذي أعطاني إياه.

وطول الوقت الذي مكثته في المعسكر هذه الأيام كان هناك غدو ورواح دائم من تجار الآثار، وعندما رحلت كانت الأرض حول خيمتي قد اكتست بالمعشورات المرفوضة المبعثرة هنا وهناك، مثل شواهد قبور حديثة مخلوعة من المقابر وكسر من الرخام غير منقوشة وبعض الأشياء غير المهمة الأخرى. ولم يبق أي متعهد باسترداد القطع التي كان أحضرها مرة أخرى. فإذا رفضتها فإنه سوف يقذفها باستياء.

ولكي أعود للآثار، فقد تسلقت المنحدر من البوابة الشرقية، متجاوزاً مسجداً حديثاً - على الرغم من أنه مهجور الآن - مبنياً على قواعد قديمة من كتل صخور جيرية مشدبة تشدباً جيداً، حتى وصلت إلى سلسلة الجبال الرئيسة التي سميتها مؤقتاً بمنطقة القلعة. وهنا - كما في أماكن أخرى - لم يوجد مبنى واحد سليم قائم منتصب من المباني القديمة إلا وهو كتلة عظيمة من المنازل المهدمة ومداميك قليلة من البناء الحجري غير مهدمة تغطي الجزء الشرقي من القمة والذي يمتد على طول جانبته الشمالي، ونحو الغرب من المسجد، طريق طويل مستقيم يصل إلى أقصى طرف التلال عند حصن حديث نسبياً يشرف على الآبار في أسفل وادي المعشار بالأسفل ويؤدي إلى شبة من الغرب والجنوب. وعندما سلكت هذا الطريق المرتفع، والذي وفر لي إلقاء نظرة شاملة على حقل الآثار الممتد أسفل المنحدر من سلسلة الجبال ومن قاعدتها تجاه الشمال أصبحنا في منتصف الطريق إلى أعظم أثر في شبة - الذي سميته مؤقتاً - رغبة في تسمية أفضل، «معبد عشتارت».

وما زال القليل من آثاره قائماً بما فيه الكفاية، ولكنه ربما يكفي فقط لإعطاء المرء فكرة عما كان عليه حال المعبد في العهود الماضية عندما كانت شبة عاصمة الحميريين. ومن المفترض أن الطريق كان يمر خلال رواق مدخل المعبد الذي تمتد جدرانه الرئيسة محاذية للجانب الجنوبي للطريق، فيما يقابله على طول الجانب

الشمالي تقع أربع قواعد أعمدة مربعة من الحجر الجيري تفصلها عن بعضها مسافة قدرها قدمان ونصف القدم. وكل قاعدة من هذه القواعد تبلغ اثنين ونصف قدم مربع وبها منخفض دائري بالوسط قطره حوالي قدمين، وهذا يبدو أنه يبرهن بالتأكيد على أن الأعمدة كانت مستديرة. وإلى الجنوب من كل قاعدة، وعلى مسافة ست بوصات تقع كتلة مستطيلة من الحجر الجيري طولها قدمان ونصف القدم - من الشرق إلى الغرب - وعرضها قدم واحد ملاصقة للطريق مباشرة، وهي غامضة الهدف، على الرغم أنها كانت جزءاً من دعامة لجدار مقوس خلف الأعمدة مباشرة. والمسافة بين أول قاعدتين للأعمدة - في الطرف الشرقي - مملوءة بدرجات سُلَّم، بينما توجد علامات غامضة على وجود درجات سُلَّم مشابهة بين زوج القواعد الوسطى. وربما تكون هذه الحالة تنطبق تماماً على الزوج الغربي، ولكن لم تبق أي علامة على وجود درج في هذه الحالة. وأخيراً يوجد كتلة ضخمة من الحجر الجيري متصلة مع الحافة الشمالية لقواعد الأعمدة على بعد ستة أقدام إلى اتجاه الشرق منها، عرضها ستة أقدام - من الشرق إلى الغرب - وطولها عشرة أقدام، وتشكل على ما يبدو مزلقاً، ويفترض أن تكون هناك كتلة مائلة على الجانب الآخر، عند رأس سُلَّم عريض يؤدي إلى المنحدر النازل إلى الطرف الجنوبي من الشارع الرئيس في المدينة، هذا الدرج، الذي لم يبق منه شيء الآن، يفترض أن يكون عرضه حوالي أربعة وثلاثين قدماً والمسافة من أعلى إلى أسفل تبلغ خمسين قدماً تقريباً حتى رأس الشارع. ووجود علامتين كبيرتين مستطيلتين على السطح العلوي للمزلقان يوحي بقوة شديدة إلى احتمال وجود تمثال ضخم أو أي زينة هائلة أخرى على كل من المزلقانيين، على حافة صف الأعمدة، لتشكل ممراً مهيباً إلى المعبد.

وعلى الجانب الآخر من الطريق، الذي يبلغ عرضه سبعة أقدام ونصف القدم بين الحافة الداخلية لقواعد الأعمدة والصور، ما تزال توجد ثلاثة مداميك من كتل بناء مشدبة تشدبياً جيداً ولكنها ليست كبيرة، في سور المعبد الشمالي قائمة بطول يبلغ

حوالي خمسة وخمسين قدماً، وتتداخل مع الأعمدة والمزلقانات على كلا الجانبين. وفي مكان يقع تقريباً مقابل وسط صف الأعمدة يوجد المدخل الحقيقي للمعبد بجوار سلم يشرق السور. ويبلغ عرض المدخل حوالي ثلاثة أقدام، والدرجة الأولى من السلم -بالعرض نفسه- تبرز من خط السور في حرم الطريق، والدرجة الثانية مستوية بمحاذاة السور مباشرة، ولا تزال توجد درجتان أو ثلاثة إضافية مع بقايا السور الذي كان يصطف معهم على كلا الجانبين. وإلى الشرق من هذا القسم الذي يبلغ طوله خمسة وخمسين قدماً من سور المعبد، ويصل طوله لحوالي اثني عشر قدماً، والذي كان في وقت من الأوقات يتصل فيما يبدو بالسور الرئيس من خلال قسم معاودة الدخول والذي لم يبق منه شيء الآن، على كل حال. والطرف الغربي من سور المعبد -كما هو باق الآن- يستمر بقنطرة ضحلة في السور تنحدر باتجاه غرب - جنوب غرب وتتكون من طبقتين من كتل الحجر الجيري الضخمة نسيماً، والمشدبة تشديباً خشناً، هي أطول من خط السور بحوالي عشرين قدماً وبالتالي تغطي واجهة المعبد - إذا كانت جميع الأقسام التي ورد وصفها هنا جزءاً منها- طولاً إجمالياً قدره سبعة وثمانون قدماً تقريباً.

والجداران الشرقي والغربي من المعبد يمتدان فيما يبدو من أطراف الجدار الشمالي إلى أعلى المنحدر حتى قمته، والذي يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين قدماً فوق مستوى الطريق. وعلى أي حال لم يبق أي أثر من كلا الجدارين قائماً اليوم ولا حتى شيء من البناء الداخلي للمعبد الذي يمكن رؤية أرضيته حتى القاع الصخري ذي الغطاء الرقيق من التراب والحجارة فقط. وما تبقى، في الحقيقة، عبارة عن جزأين كبيرين من إناء ضخيم من الحجر الجيري، يمثل إلى حد ما مزهية ضخمة، ولكن يحتمل أن يكون مستخدماً لحفظ الماء أو الزيت. ولم يبق شيء من الجدار الخلفي للمعبد -الذي كان يحد فيما يبدو قمة السلسلة الجبلية المتجهة صوب الجنوب- إلا

بعض الكتل الكبيرة من البناء الحشن المتناثر حول قمة المنحدر الجنوبي . ومن الواضح أن باقي الجدار قد انطمر منذ زمن بعيد في أسفل الوادي .

وعلى كل حال يوجد جزء من السور ذي طبقات خشنة متشابهة من الحجر الجيري والحجر الرملي، يبلغ طوله سبعة عشر قدماً وارتفاع أربعة مداميك إضافة إلى مدماك واحد مشابه بطول سبع أو ثماني خطوات تقريباً صوب الشرق على طول القمة، وكلاهما ربما كانا يشكلان جزءاً من أسوار المعبد . والجزء الأكبر، ومعه سور جانبي ملاصق له، يدعم السقف المسطح المزخرف برصيف دائري من الحصى الكبير . ويبلغ قطر الدائرة حوالي سبعة أقدام، ولكنني لم أستطع تخيل أي وظيفة كانت تؤديها تلك الدائرة .

هذا هو معبد عشتارت العظيم كما يوجد اليوم، وقد وصفته بأكبر قدر من التفاصيل حسبما استطعت أن أحصل عليها . ولا أستطيع أن أرتاب في أنه كان أكثر المباني أهمية في شبوة، ويشرف على المدينة بكاملها، ويؤثر تأثيراً عظيماً في الزائرين الذين -عندما يدخلون من البوابة الرئيسة في السور الشمالي الغربي -سوف ينظرون مباشرة من الشارع الرئيس إلى السلم الكبير المؤدي إلى المدخل ذي الأعمدة والذي تحفه على كلا الجانبين تماثيل مهيبة أو بوابات عظيمة . وخلفها يرتفع مبنى المعبد الرئيس شامخاً حتى أفق سلسلة الجبال، وبه قدس الأقداس والغرف الفرعية على السطح المستوي للقمة .

ومن هذه القمة توفر للمرء إلقاء نظرة بأفضل طريقة ممكنة على المدينة القديمة وما جاورها، والتي سوف أمضي الآن قدماً في وصفها بالكامل . ولقد استخدمت حتى الآن في وصف المعبد الجهات الأصلية للبوصلة بغرض التسهيل، بيد أنه من الأهمية أن ندرك أن المعبد حقيقة يتجه بالضبط نحو الشمال الغربي أسفل الشارع الرئيس إلى البوابة الرئيسة التي تقع تقريباً في وسط السور الشمالي الغربي . ويبلغ حافة طول مرتفع المعبد (أو القلعة)، التي تشكل الطرف الجنوب الشرقي غير المسور

من المدينة وتهبط بانحدار شديد على الجانب الجنوبي الشرقي إلى وادي المعشار مقدار ١٠٠ قدم إلى أسفل، ٤٧٥ ياردة. وفيما عدا بعض الالتواءات الصغيرة، فإن طول السور الشمالي الغربي يبلغ تقريباً القدر نفسه، بينما يبلغ عرض المدينة عبر خط الوسط من البوابة الرئيسية حتى المعبد ٢٧٥ ياردة، وهي أيضاً تقريباً مساوية لمسافة طول الأسوار الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية. وهكذا تكون مساحة المدينة تقريباً عبارة عن مستطيل تام والمساحة المسطحة تصل عملياً إلى سبعة وعشرين فدناً. ويمتد محورها الطويل جنوب غرب - شمال شرق، وهي محاطة على الجانبين الشرقي والجنوب الغربي برادي المعشار. أما الجانبان الآخران فيتجهان في شبه دائرة من التلال الصخرية المنخفضة التي تشكل سلسلة تلال دائرية، يحدها وادي المعشار على طول الطرف الغربي. هذه السلسلة تبرز لمسافة ما في اتجاه جنوب، جنوب شرق وراء الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة بين قناتي المشعار والمحاض التوأمن، وتنتهي عند نقطة تفرع وادي العطف الرئيس. ويلتف فرع المحاض تدريجياً مع ثنية السلسلة ليتصل مرة أخرى بمعشار وراء طرفها الشمالي الغربي. وبالتالي تشكل شبة والسلسلة «جزيرة» بين القناتين. وإلى الشمال من المدينة القديمة في الزاوية الداخلية من السلسلة يقع منجمان اثنان للملح اللذان يشكلان المصدر الرئيس أو الاقتصادي الوحيد للمنطقة المحلية، بينما يوجد منجم ثالث، توقف العمل فيه، في طية من طيات سلسلة «القلعة» إلى الغرب على مسافة قليلة من المعبد. ويجري عبره وهْدُ -والوهد هو الوادي الصغير الضيق شديد الانحدار- منحدر من السلسلة، وهذا ما ساعد على دفن آثار المدينة تحت قشرة من الطين المالح.

وفي الركن الجنوبي الشرقي من المدينة القديمة يختل تماثل شكلها المستطيل نتيجة وجود ممر ضيق عرضه حوالي عشرين ياردة وطوله ١٢٠ ياردة، ويبرز نحو الشمال الشرقي إلى أسفل السلسلة الرئيسة. هذا الممر يحيط نتوء مناظر له في سور المدينة، ويبدو أنه كان يربط المدينة بضاحية ضخمة والتي تمتد من نقطة تبعد قليلاً إلى الشمال

من المتراس الذي أشرنا إليه سابقاً، على طول قمة ومنحدرات السلسلة الرئيسة حتى تصل لمسافة قريبة من ملتقى المعشار والمحباض. هذه الضاحية ليست مسوّرة، على الرغم من أنها محمية على طول قناة المعشار بجرف حاد الانحدار يبلغ طوله ثلاثين قدماً والذي يشكّل ضفتها اليمنى. أما على جانب المحباض فإنها تنحدر إلى أسفل بصورة رقيقة حتى حافة الوادي. هذه المنطقة كلها تتناثر فيها الآثار القديمة، والجزء شديد الأهمية منها يتوجّ أعلى نقطة في الضاحية بالضبط مقابل أو شمال شرق الممر القادم من المدينة الرئيسة.

وتوحي الآثار الموجودة فوق هذه الربوة بأن القصر الملكي ربما كان قائماً هنا، وأن الممر المسور ربما كان مصمماً لتوفير مدخل مباشر للملك وصحبته إلى المدينة المسوّرة. وإلى الجنوب قليلاً توحي بعض الآثار المسعنة بوجود معبد صغير، ربما كان مصلى ملكياً صغيراً، ولكن باقي منطقة الضاحية يبدو أنه كان يضم المساكن الخاصة للمسؤولين الرسميين والمواطنين الأوفر ثروة، وربما فيها حدائق في تكوينات طينية تمتد من بيوتهم إلى حافة قناة المحباض. وبأقصى ما يمكن أن يحكم المرء من خلال تناثر الانقراض، فإن هذه الضاحية يبدو أن طولها كان يتراوح ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ ياردة، ومتوسط عرضها حوالي ١٠٠ ياردة، أي إن إجمالي المساحة المسطحة يبلغ حوالي ثمانية عشر فدناً. ومن الواضح أن الضاحية قد نمت وتوسعت لاحقاً أكثر من المدينة الرئيسة، وحقيقة أنها غير مسوّرة، على الرغم من وجود القصر الملكي وبيوت الأغنياء، مما يشير إلى فترة من استقرار الحكم والأمن العام.

إن قرية هَجَر الحديثة، وهي عبارة عن قرية صغيرة مكونة من حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين منزلاً، تحتل موقع القصر القديم، الذي ما زال قدرٌ كبيرٌ من أحجاره المقطوعة باقياً في مكانه ليشكّل جزءاً من الأكواخ التي شيّدها أحفاد محمد بن بريك. وفي الواقع توجد بقايا كثيرة من المباني القديمة اللافتة للنظر في هذا الموقع أكثر من أي جزء آخر في المدينة الرئيسة، وتم البناء بالأسلوب نفسه المتبع في معبد عشتارت،

طوب من الحجر الجيري صغير ومشذب بشكل جيد ومبني بطريقة حسنة. وبالنسبة للبيوت الحديثة، حيث لم تدخل الأسوار الأثرية القائمة على أنها جزء منها، فإنها مبنية إلى ارتفاع يبلغ حوالي الثلث من أرضية مكونة من كتل صخرية صغيرة ومقطوعة بصورة خشنة، في حين تتكون الأجزاء العليا من الطين بعوارض خشبية لدعم الأسقف المسطحة. وفي المنخفض أسفل «هَجْر» وامتداداً منه إلى أعلى المنحدر حتى قرب كثف سلسلة القلعة تقع قرية صغيرة أخرى مكونة من منازل حديثة، تسمى المثناء وهذا الاسم يضم أيضاً كامل سلسلة المعبد والآثار الموجودة عند قاعدتها.

والبيوت هنا تبدو أنها مبنية من المواد التي تم تكسيها ونقلها من المباني الأثرية التي ما تزال بعض أسوارها وقواعدها باقية كنواة للأكواخ. وقد ذكرنا من قبل أن المسجد هنا لم يعد مستخدماً، إلا أنه يوجد به -علاوة على بقايا المبنى القديم المحفوظ بنسيجه المهجور- فوهة بئر بجوار المدخل، وهي الآن مسدودة بالحصى والتراب ولكنها كانت بلا ريب في يوم ما مصدراً لإمداد المياه. وفي الجهة الأخرى المقابلة، عند الحافة السفلى لقرية هجر يوجد مسجد آخر، الذي يخدم سكان كلاً من «المثناء» و«هَجْر» في مناسبات الأعياد والاحتفالات، على الرغم من أنه -كما يتضح- لا تؤدي الصلوات اليومية العادية فيه، والتي تؤدي -أو تهمل- في البيوت الخاصة. إن الصلاة الجماعية -باستثناء المناسبات الخاصة- ليست نغماً شائعاً بوضوح في جنوب الجزيرة العربية خارج المدن الكبرى. إن مسجد هَجْر ذو بناء حديث نسبياً، بدون أي علامة على وجود قواعد قديمة أو أي مواد أخرى ما عدا كتلتين اثنتين من الحجر الجيري تحمل نقوشاً حميرية طويلة، ومن الواضح أنه تم نقلهما إلى هذا الموقع من أحد المعابد أو المباني الأخرى.

وعلى الجدار الجنوبي الغربي يوجد نقش عربي يبين تاريخ البناء بأنه: "يوم الإثنين -على ما يبدو اليوم الأول من- شهر الفطر -شوال-، ١٦ بعد ٣٠٠ بعد ١٠٠٠" (أي ١٣١٦ بعد الهجرة). والمحراب على زاوية ٣٠٦، عبارة عن كوة

ضحلة في الجدار ، بارتفاع قدمين وعرض خمس عشرة بوصة ، وبه رسم كاريكاتوري غريب لبشر يشبه الدمية محفور بطريقة خفيفة في الوسط . وعلى كلا جانبي المحراب توجد رسومات للزينة توحى أنها مثل أعواد الشموع . وتوجد قرية ثالثة ، هي المعوان تكمّل ثلاثية شبوة الحديثة . وتقع خارج الركن الشمالي - الغربي من المدينة القديمة على طول الضفة اليمنى لمعشار ، ويعود وجودها لتاريخ قبر شيخها الولي ، ابن يوسف ، حفيد محمد بن بريك . وهي أصغر نسبياً من هَجْر ، ولها المظهر الحقير والمتواضع نفسه ، حتى بدون هيبة بقايا الأحجار من البناء القديم .

ومن الواضح أن المثناء ليست أكثر من امتداد لهَجْر لتسع فائض سكانها ، ولكن بين الأخيرة والمعوان لا يوجد إلا تاريخ طويل من الحقد والعداء ، وربما يكون هذا شيئاً طبيعياً بدرجة كافية بين المتنافسين على رعاية الحجاج والزائرين . وفي الوقت الحالي أخذ نجم هَجْر في اللمعان ، ويضطر سكان «المعوان» أن يتحسسوا أسلحتهم كل ليلة قبل أن يخلدوا إلى النوم . وتحفظ كلا القريتين بمراقبة دائمة لتفادي الهجمات المفاجئة ، وعندما عدت من حضرموت في زيارتي الثانية وجدت أن معظم سكان شبوة قد انتقلوا إلى المراعي ليستفيدوا من الأمطار الأخيرة . ولكن قد يتخلف أربعة رجال في «المعوان» لحماية القرى من الأعداء . أما الهجرة الجماعية من «هَجْر» فكانت أقل وضوحاً نتيجة لوجود نصف جماعتي بالمخيّم الذين يجب ضيافتهم وتزويدهم بالحاجات والإمدادات الضرورية أثناء غيابي . وفي البداية ابتعد سكان المعوان عني ، وعزلوا أنفسهم مني ، على أساس أنني ضيف مناوئ ، ولكني قمت بزيارتهم ، بعد أن أرسلت رسولاً قبلي ليخبرهم بمقدمي ، وذلك بعد تجولي بين الآثار في اليوم الثاني . ولقد استقبلوني باحترام ملائم ، ولكني لاحظت أن الشيوخ قد تجمعوا لاستضافتي في بيت كبير يقع حقيقة خارج قريتهم وجثموا على زاوية سور المدينة القديمة الذي مازال جزء عظيم منه يقف سليماً في هذه النقطة . وكان -على الأرجح- يساورهم القلق من احتمال دخول أتباعي من «هَجْر» في وسطهم . وعلى أي حال ، في زيارتي الثانية جاء

مثلوهم إلى مخيمنا وأحضرنا معهم هدية من الغنم واقترحوا، عند مقابلتهم معي، أنه يجب إحالة نزاعات شبة الداخلية إلى ابن سعود ليصدر حكماً فيها. وفي المقابل قمت بزيارة ثانية لهم، ولم ينقص كرم ضيافتهم لنا شيئاً، على الرغم من أنهم كانوا يبدون لي أشد فقراً من أهل «هجر».

إن أيام الخميس والجمعة هي الايام المحددة لزيارة الحجاج لأضرحة البريكي^(١). وعند وصول الزوار يسرع حرس الأضرحة إلى تزويدهم بالطعام لإعاشتهم أثناء مدة بقائهم. هذا الطعام وغيره من الاحتياجات الأخرى يتم منحها هبة، ولا تباع. وقد وفرت الخبرة الطويلة بلا شك تقديراً لطيفاً لوضع الحجاج المالي. فكل شخص يتلقى شيئاً ما أقل مما يتوقع أن يعطى مقابله، والفائض يعد بالطبع نظير الفضل المكتسب بزيارة الأضرحة. وأي محاولة لتقليل قيمة الهدايا المقدمة يتم تثييطها بحزم، حسبما اكتشفت بكلفة باهظة، على الرغم من أن مخالفتي لم تكن متعمدة. فكما ذكرت سابقاً قُدمت لنا أربعة خراف عند وصولنا، وفي اليوم التالي سألت سعداً عما يعتقد أن تكون قيمتها. وبعد تفكير قال لي: إن القيمة هي ١٢ ريالاً، وعلى الفور أرسلت لهم ١٥ ريالاً كهدية مني مقابل هديتهم. وعادت النقود لي مع تلميح مهذب بأن الأغنام كانت هدية من القرية، وليس من الممكن قبول ثمنها من ضيف كريم، وأنهم قد اشتروا حقيقة هذه الأغنام على وجه الخصوص من البدو بسعر ٤٥ ريال لكل خروف!! وهذا يجعل السعر الإجمالي ١٨ ريالاً، وقد تضايقت قليلاً من سوء حسابات سعد، ولكني أرسلته في الحال معه ٢٠ ريالاً، وجاء على الفور العمدة وأتباعه لزيارتي زيارة رسمية ويتمنوا لي طول العمر والرخاء. وعند عودتي من حضرموت تكررت الهدية، ولكنهم اقترحوا أنني ربما أفضل ثوراً سميناً طيباً، والذي كانوا يعتقدون أنه ربما يكون أكثر ملاءمة لمثل جماعتي -المتطفلين عليها-. وقد أعربت لهم عن تفضيلي لحم الضأن.

(١) إن البناء على القبور، وشيد الرجال إليها، وتعظيم الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم نفعا ولا ضراً ليس من الدين الإسلامي في شيء، وإنما هي من البدع المستحدثة. (المراجعون).

إن تاريخ بيت الأولياء في شبوة يكتنفه قليل من الغموض . فقد كان بريك، وهو السلف الذي أخذت عشيرة آل بريك اسمها منه، والد محمد، الشيخ الولي، والذي ربما يكون في الواقع أول من استقر على أنقاض شبوة. ومن المؤكد أن العشيرة قد تمتعت ذات يوم بفترة من السلطان والنفوذ الزمني، وكانت الشحر الميناء البحري المهم تخضع لحكم أحد أفرادها قبل الاحتلال الكثيري لها والذي دام فترة قصيرة. وقد تهاوى هذا الاحتلال تحت أول ضربات القيسي. ويقال: إن أسلاف آل بريك من أصل الأشراف، وهناك اعتقاد عام بأنهم ينحدرون من «آل حامد» أشراف بلدة «السيح» في الأفلاج الذين ينحدر منهم أيضاً ابن إسماعيل وأشراف رنية. ولذلك ربما يكون ما حدث في الواقع أن «أشراف آل حامد» هؤلاء، عندما انطلقوا راحلين من اليمن منذ حوالي ٢٠٠ عام مضت بحثاً عن المغامرة في صحراء الجزيرة العربية، قد خلفوا وراءهم بعثات في مختلف الاتجاهات، جاءت إحداها واستقرت في حضرموت بينما استقر الآخرون في «رنية» و «الأفلاج».

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن قبيلة الكرب تدعي ارتباطها المنتقل من جيل إلى جيل مع قوم «رنية» من غير الأشراف، على الرغم أنه من الصعوبة أن تشك في أن اسمهم مشابه تماماً لقبيلة «كرباني، قبان Carbani» الذين قال عنهم بليني إنهم استقروا في حضرموت في عهده. وإذا كان الوضع كذلك فإن الحركة الأصلية ربما كانت في الاتجاه المعاكس من حضرموت إلى رنية، أي حركة «الكرب» مع حلفائها الأشراف تجاه المناطق الأكثر غنى ورخاء في الشمال أو بعيداً عن الضغط في الجنوب. ومهما يكن من أمر فإن الارتباط الزمني والروحي بين شبوة ورنية والأفلاج علامة واضحة في التقاليد المحلية، بينما يعد ارتباط عشيرة آل بريك بالكرب حقيقة محلية واقعة. ولذلك من المحتمل أن يكون الأشراف عند وصولهم منطقة شبوة قد أصبحوا أتباعاً - كما أنهم ما زالوا حتى الآن - لقبيلة «الكرب» حسبما يوحي بذلك تسميتهم البديلة «بالفقراء»

و«المشايع»، وهكذا أضحى أشرف آل حامد مستقرين في حضرموت بصفتهم «فقراء» (أو مشايخ) من قبيلة الكرب، بينما في أيام عزهم العظيم استطاعت مجموعة منهم - وهي آل بريك - أن تقيم حكماً قليلاً باسمها، والذي أضاف له المستقبل مهمة روحية أكثر منها مهمة زمنية.

ومهما يكن من أمر فإنه بدءاً من بريك فقط أصبحت شجرة نسب العائلة واضحة بقدر معقول. وقد رُزق بريك، بمحمد الذي أسس نظام حكم ما زال موجوداً في شبوة وتوفي وهو يتمتع بسمعة طيبة من التقوى والورع، وترك وراءه ثلاثة أولاد أسماؤهم على التوالي هي: «شيخ» -الذي ما زال اسماً شائعاً في حضرموت- و«عمر» و«عبدالقادر». ويبدو أن الأخير قد مات بدون ذرية، لأنه اختفى من الرواية ولم يعد له ذكر إلا ضريحه الذي ما زال قائماً يذكرنا بمروره في هذه الحياة الدنيا. وفي الحقيقة يحتمل أن يكون قد خَلَف والده في المهام الروحية دون أن يترك أثراً ذي بال في هذا المجال، ومن المحتمل أيضاً أنه قد مُنح شرف بناء ضريح له -أصغر من ضريح والده- لمجرد أنه كان ابن الشيخ الأول وخليفته. أما عن «عمر» فلم تحتفظ التقاليد المحلية بأي شيء عنه إلا حقيقة أنه مدفون بجوار والده في الضريح بقرية «هَجْر». وكذلك الثالث «شيخ» لا يظهر في التاريخ إلا بصفته والد ابنه، ابن يوسف الشهير، الذي لم يجلس فقط على العرش الروحي الذي تركه جده، بل إنه أيضاً خَلَف سمعة حسنة تضارع سمعة جده، وكان المصدر الدائم للخلاف في العائلة. فلماذا كان يُدعى ابن يوسف بينما كان اسم والده «شيخ»؟ لا يوجد من يستطيع أن يجد تفسيراً لذلك، على الرغم أنه يبدو من الممكن، إن لم يكن من المحتمل في الحقيقة، أن «شيخ» كان لقب والده وأن «يوسف» كان اسمه الحقيقي، أي «الشيخ يوسف».

وسواء كان الأمر عن عمد أو لا، فقد أصبح ابن يوسف ليس فقط منسوباً لجده، كما ظل حتى يومنا هذا، بل أيضاً مؤسساً لعشيرة تتمتع بتسمية عجيبة تُدعى

«عبدالقوي». هذا الاسم نفسه يوحى^(١) بثورة الجند الجدد ضد الأسلاف القدماء في عشيرة آل بريك لصالح الابن الأصغر. وهذا الموقف قد أصبح أكثر إثارة بعد الاقتراح الذي قدمه لي بعض الذين كانوا يزودوني بالمعلومات مفاده أن ابن يوسف -الذي لم يحفظ التاريخ اسمه الشخصي الحقيقي- وأخاه، سالماً، كانا من الدتين مختلفتين. وسواء كانت أمه قد طلبت ذلك أو لا ، فيبدو أن العبيد في بيته -أو ربما واحداً منهم كان يحمل اسم العشيرة- قد زادوا من مستوى الثورة -بطريقة إيجابية أو سلبية- ضد الخليفة الشرعي لعباءة الشيوخ ونادوا بابن يوسف كوريث حقيقي لها. وبعد وفاته تم الاعتراف بتقواه وورعه من خلال إقامة ضريح له يضم رفاته، ومن ذلك اليوم حتى وقتنا هذا حافظ عبيد عبدالقوي على مكانة سيدهم ليظل منافساً للشيوخ الأولياء. ولا يبدو أنه قد ترك أي ذرية، ولكن عباءته انحدرت -جياً بعد جيل- على ذرية العبد الذي جعله على ما هو عليه اليوم. إن رئيس العشيرة في يومنا هذا هو «علي بن سالم بن كرب».

وعوداً لخط الأسلاف الكبار نجد أن الخلافة الشرعية قد انتقلت من «شيخ» إلى ولده الأكبر «سالم» الذي أنجب «صالحاً» الذي أنجب «حسيناً» الذي أنجب عمر الذي ظل اسمه من ذلك الحين لقباً بديلاً للعشيرة، أي «آل بريك» أو «آل عمر» وقد كان هو الجد الأعلى لجميع الفروع الثلاثة الموجودة من العائلة من خلال أولاده الثلاثة: «عفيشة» و«صالح» و«عجيم». والرئيسان المشتركان الحاليان للعشيرة، سالم وعلي، هما ابنا الأول، أما مبارك وسعيد، اللذان كانا يعملان مرشدين لنا من «العبر» فهما ابنا الثاني والثالث على التوالي. وقد رأيت بعض الصغار من الجيل القادم أثناء إقامتي المؤقتة في شبوة.

(١) ربما على أي حال أن الاسم يعني العبد لله القوي. (المؤلف).

وأعتقد جازماً أن منازل هَجْر تحتل موقعاً ما، كان يوماً ما قصرأ ملكياً. ومن المفترض أن يكون محيطه على الجانب الغربي مرتكزاً على عمر يؤدي إلى المدينة القديمة، والذي يجب عليّ أن أعود لوضعه الآن بعد هذا الاستطراد الطويل عن شبوة الحديثة. هذا الممر من المفروض أن يكون له بوابة في الطرف الشرقي، على الرغم من عدم وجود أي دليل عليها في السور المتهدم في ذلك الطرف. ومن خلال البوابة كان الشارع يمتد، والبسوت على كلا جانبيه، والتي يحتمل أنها كانت تتفرع يمينا ويساراً عند الطرف الغربي لتتصل على التوالي بالشارع المتجه غرباً من البوابة الشرقية حتى أسفل الدرج العظيم الذي يمتد على طول مرتفع المعبد بالكامل. هذا الدرج كان يبدأ من البوابة الجنوبية الشرقية، التي تقف عند الجانب الجنوبي من الممر فوق أعلى منحدر بسيط يؤدي للصعود من الثنية الغربية الحادة للوادي، ويوجد بستان صغير من النخيل يزيّن أسفل ذلك المنحدر.

وقد ذكرت سابقاً البوابة الكبرى في وسط السور الشمالي الغربي، التي تؤدي إلى دخول الشارع الرئيس عند أسفل الدرج. ويوجد داخل هذه البوابة على كلا جانبي الشارع مبنيان اثنان يبدو أنهما كانا مهمين. والمبنى الموجود على الجانب الغربي أقل تماسكاً من الآخر بكثير، ولكن يبدو من تناثر شظايا المرمر (الرخام) وسط ركامه أنه كان بناءً ذا قدر عظيم، ربما كان معبداً أو مجلساً للمدينة. وقد كان المبنى الآخر أفضل مبنى مُصان في حقل الآثار بالكامل، ولكنه كان ذا بناء من كتل الحجر الجيري الخشن. وربما كان هذا المبنى للحراسة أو مكتباً للجمارك. وجدرانه في الجوانب الأربعة كلها سليمة، بيد أنني لم أستطع العثور على أي مدخل لهذا المبنى إلا فتحة في جدار يحتمل أن يكون للصوص المعاصرون قد صنعوها. وكان السقف أسطوانياً قليلاً جداً، ولكنه مسطح من فوق وعليه طبقة منبسطة من التراب والحصى، ولا تزال المنشآت بها علامات القواطع التي توحى بشدة وجود نوع من الإنشاءات العليا التي

اختفت حالياً، ويحتمل أن تكون تلك المنشآت من الخشب أو أي مواد أخرى قابلة للعطب والفناء. ولذلك فمن المعقول -خاصة وأن عدم وجود أي باب يؤيد هذه الفكرة- القول بأن هذا المبنى ربما كان ضريحاً ضخماً، بيد أنني لم أتوغل بداخله.

وفي الزاوية الشمالية من المدينة توجد بوابة أخرى تمتد منها شارع عريض في خط مستقيم حتى الشارع الرئيس في نقطة تقع إلى الجنوب قليلاً من ذيك المبنيين. وهكذا كان يوجد شارعان متوازيان يسيران من الشرق والغرب، وبينهما تتناثر أنقاض كثيرة تبرز منها بقايا جدران مبان هامة عديدة. وكان أحدها ذا بناء ضخيم، لم يبق منه إلا ثلاثة أو أربعة مداميك، بينما يوجد مبنى آخر يعتلي رابية منخفضة وربما كان معبدًا أو مبنى للإدارة. وبجانب هذه توجد منشآت متهدمة أخرى يمكن تتبعها بشكل غامض حتى المنطقة الواقعة إلى الشرق من الشارع الرئيس. وعلى الجانب الآخر حيث يتحدد خلال الوحد الطبقات الأرضية المألحة إلى أن يصل للمستوى الأسفل، فإن حالة التهدم في المدينة تعوق أي تحليل لها. وعلى مسافة بعيدة للغرب -على أي حال- وبجوار حائط بناء ضخيم يقع على حافة قاع السيل، توجد بعض بقايا قواعد وجدران مثيرة للاهتمام. ولم يبق إلا ثلاثة مداميك من جدار النهر بينما -باستثناء الجزء الموجود في الزاوية الشمالية الغربية الذي ذكرناه من قبل بالفعل- الجدار الشمالي الغربي لا يمكن تتبعه إلا بركامه الطويل المغطى بالطيني.

والحقيقة نفسها تنطبق على الجدار الشرقي، الذي تمتد أجزاء قليلة منه دون غطاء.

هذه هي مدينة شبوة القديمة. وإلى أن تكشف معاول الحفر عن الكنوز المدفونة تحت الأنقاض المغطاة بالطيني فسوف تظل تفاصيل تاريخها وتخطيطها مجرد مسألة حدس وتخمين. وقد أصبح الآن شيء ما على الأقل معلوماً عن المواد التي استخدمها المعماريون القدماء في بنائها، وكذلك علمنا شيئاً ما عن شخصيتها العامة وترتيب مبانيها الرئيسة. وعلمنا شيئاً ما عن تصميم معبدها الرئيس. ولكن كان من المحبط لنا

أن لا نعثروا ولو على مبنى واحد غير متهدم، ولا نقش واحد في مكانه. وكل ما استطعت أن أحصل عليه أو أنسخه كان فقط حوالي سبعة عشر نقشاً، وكان العديد منها مكسراً بصورة شديدة. ولكن كان ذلك بالتأكيد كل ما يمكن رؤيته من دون حفر، وبالرغم من ذلك فإن هذه النقوش قادرة على إثارة قدر عظيم من الاهتمام. وأصبح هناك الآن شيء واحد مؤكد عندي لا يمكن الطعن فيه بأي حال. هذا الشيء هو وصف بليني لشبوة - إذا كان بالإمكان إطلاق ما أسماه «سابوتا Sabota» على تلك الأطلال-. هذا الوصف غير دقيق بكل ما في الكلمة من معنى، حيث يقول مشيراً بوضوح إلى السبثيين الذين ذكرناهم من قبل: إن «جزءاً من هذه الأمة من الحضرمي - الحضارمة»، وفي بيان بالقبائل سابق على هذه الملاحظة كان قد ذكر الحضارمة، الذين كانوا من الواضح الحضارمة من القبيلة نفسها، وقال: إن «عاصمتهم - شبوة - فيها ستين معبدًا داخل أسوارها. وفي أحد النصوص الأخرى الذي يتعلق بتجارة البخور يقول: «في وسط تلك المنطقة نفسها تقريباً يوجد الحضارمة، وهم مجتمع من السبثيين، وعاصمة مملكتهم هي سبأ، وقد كان سترابو الذي كتب مذكراته في أوائل القرن الأول الميلادي، أشد حرصاً: وحيطة. فبعد أن وضع قائمة بثلاث من أصل أربع أمم توجد في جنوب غرب الجزيرة العربية، وهم المعينيون والسبثيون والقبتانيون - ذكر الرابعة وقال: «الحضرميون Chatramotitae» هم الأمة الرابعة من هذه الأمم تجاه الشرق. ومدينتهم هي سبأ. وجميع هذه المدن يحكمها ملك واحد، وهي مزدهرة. وتزينها معابد جميلة وقصور. وبيوتها، بطريقة ثني الأخشاب معاً، تشبه تلك الموجودة في مصر». في هذه القائمة ارتبطت سبأ بماريبا "Mariaba" (وهي مأرب الحديثة) وقرناء Carna وتمنع Tamna (ولم يتم التعرف على أي منهما^(١)).

(١) لقد تم الكشف عن كثير من هذه الآثار في البعثات الأثرية في السنوات التي أعقبت زيارة فيلبي. فعن هذه المواقع التي ذكر انظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص ٢٨-٣٥، ٩٥. (المراجعون).

علاوة على ذلك، كتب المؤلف المجهول لكتاب البحر الأرتيري الأحمر The Periplus of the Erythraean Sea في القرن الأول الميلادي يقول: «إلى الداخل من هذا المكان (أي كانا Cana) التي يحتمل أن تكون «بئر علي الحالية على ساحل المحيط الهندي» تقع العاصمة سبأ التي يعيش فيها الملك. وجميع البخور المنتج في الدولة يتم إحضاره بالإبل إلى هذا المكان لتخزينه. ومن الغريب إلى حد ما أن بليني الذي بلا شك قد حصل على أعمال هذين الكاتبين الآخرين، قد تجاوز وصفهم الواعي لشبوة واركتب خطأين جسيمين. فشبوة أبعد ما تكون عن وقوعها على جبل شاهق، بل إنها تمتد في صحراء منبسطة بين تلال جد منخفضة، وبالنسبة لعدد معابدها لا يمكن أن يكون هناك ستون منها على الإطلاق، ولا حتى ستة، داخل المساحة المحدودة المطوقة بأسوار المدينة. ولم يكن بها بالتأكيد إلا معبد بارز واحد ذو فخامة عظيمة، واثان آخران عبارة عن أكوام للأنقاض داخل الأسوار ربما ثبت ذات يوم أنهما كانا معبدين. ولكن ثلاثة معابد تعد مسألة مختلفة جداً عن ستين، وحتى إذا استعرضنا الضاحية الموجودة على الجانب الشرقي للمدينة فليس من المحتمل على الإطلاق أن يوجد بها أكثر من اثنين أو ثلاثة كحد أقصى من أماكن العبادة. ومن المرجح أن يكون بليني أو سكرتيره قد ارتكب زلة قلم نادرة في كتابته ستين بدلاً من ستة، لأنه قبل ملاحظاته عن شبوة «سابوتا» بسطور قليلة كان قد ذكر مدينة تمنع "Tamna"، التي تعود للقتبانيين "Gebanitae" وقال: إن بها «خمسة وستين معبداً، وهو رقم ينم بالكامل عن حجمه. ومن الواضح أن هذه الأرقام قد ذكرت عن عمد، وعلينا أن نفترض إما أن يكون بليني ساذجاً جداً وسريع التصديق لحكايات الرحالة، أو أنه كان ميالاً للمبالغة قليلاً.

وهناك، على أي حال، تفسير بديل محتمل آخر. فربما كنا نحن المخطئين في تسمية «سوبوتا» بشبوة وأنا فعلاً أميل إلى الاعتقاد بأننا كذلك. فكلمة شبوة يبدو أنها مشتقة من الكلمة العربية «شب Shabb» التي تعني الشب أو الملح، وتشير بوضوح

إلى مناجم الملح التي تعد المعلم الاقتصادي الرئيس في تلك المنطقة المحلية. وشبوة بهذه الصيغة لم تكن معروفة لنا حتى اليوم في أي من المراجع القديمة كاسم للمدينة، التي توجد أمامنا بالفعل ثلاث صور مختلفة لاسمها : سابوتا "Sabota" وساباتا "Sabata" وساباثا "Sabbatha"، في حين نجد في سفر التكوين الجزء ١٠-٧ ذكراً لسبأ Seba وشبأ "Sheba" بين سلالة كوش بن حام وعلاوة على (سابوتا) الخاصة بالحضارمة، يذكر بليني أيضاً مدينة «ساباثا» على البحر الأحمر كمدينة للسبثيين. و سبأ هي الصيغة العربية «لشبا Sheba» بينما نجد أن الحزام الرملي العظيم الممتد من الحافة الداخلية لمرتفعات اليمن حتى بوابة حضرموت لا يزال يعرف حتى اليوم باسم «رملة السبعين Ramla Sabataina» (أي السبأين Two Shebas)، وهو اسم قد يظهر في اللغة العربية الفصحى برسم «السبعين» أو مجرد سبعة. ومن الصعوبة بمكان أن نعتقد أن هذه الرمال التي تغطي اليوم مجاري الأودية السبئية العظيمة - كما سوف أوضح في فصل لاحق - لاتخفي أي آثار من مملكة سبأ أو حمير. ولذلك أميل إلى الاعتقاد بأن بليني لم يكن يشير إلى مدينة شبوة بمفردها، ولكن كان يشير إلى كامل منطقة السبثيين التي ربما كانت حقاً تتفاخر بوجود ستين معبدًا بها في أيام أوج ازدهارها القديم. وإذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أن يكون لدينا من الأسباب ما يبرر لنا توزيع معابد تمنع الخمسة والستين أيضاً على أمة «الحضرميين» كلها والتي كانت تشغل عدداً ضخماً من المدن. وبهذه الطريقة فقط يمكننا أن نحسن سمعة بليني كمؤرخ، وبشكل عام من المعقول أن نعطيه الفائدة من الشك عند إمكانية تفسير الحقائق القائمة لصالحه بدون أي إجهاد غير لازم.

إن كثرة الأسماء القديمة التي تشبه شبوة بصورة عجيبة يبدو أنها تمنع إمكانية ربط أي واحدة منها بالقرية الحديثة التي ظهر اسمها المعاصر - في حدود علمي - لأول مرة في أعمال وكتب الجغرافيين العرب بعد الإسلام. ويوجد - على أي حال - في النقوش التي نسختها أثناء هذه الرحلة فقرة ينطبق فيها اسم «شبوة» على المدينة

القديمة. وفي فقرة أخرى يبدو أنه يشير إلى الرسم «Alim» (ربما كان إيلام Elam). وأول فقرة من هاتين الفقرتين يبدو أن تاريخها يعود إلى الجزء الأكبر من عهدنا نحن، وربما يكون بليني حقاً، بعد كل شيء، قد علم اسم شبوة على أنه اسم معاصر للعاصمة الحميرية وأطلقه بصورة غامضة على المملكة الحميرية بكاملها في ذلك الوقت.

وعندما كنت أجلس بين بقايا المعابد في ذلك اليوم الأول وسط هذا الحشد العظيم من الناس الذي ظل يرافقني كظلي أثناء رحلة البحث والتفتيش، كانت الشمس الحارة قاسية علينا خاصة وأن السماء كانت خالية من الغيوم. وقد لاحظت -ببطء ولكن بالتأكيد- الحركة الوئيدة في البداية، فقد أدى الحر الشديد إلى تخلي كثير من الناس عن فضولهم العجيب، وبدأ الزحام يذوب شيئاً فشيئاً. وحتى أزيد من غمهم لم أجد أي قدر من الشغف المحموم المتوقع من عرّاف الكنوز. وقد كنت راضياً تماماً بالجلوس هناك في مكان بعيد أأمل ذلك المشهد العجيب لمجدٍ قد رحل. وهكذا عندما نهضت من مكاني لمواصلة سيري على طول المعابد كانت الشمس قد رحمتني وخفضت المرافقين لي إلى أعداد بسيطة يمكن التعامل معها. وقد ظل الشيخ صالح، وهو يتصبب عرقاً تحت عباءته الثقيلة نسيماً، متشبهاً بي وعلى مقربة مني كما لو كان ذلك واجباً عليه. أما منافسه فقد أثر الهرب إلى الظل في بيته. كما ظل سعيد ملازماً لي انطلاقاً من شعور خاص بالأهمية والمسؤولية عني كمن يقدمني للناس والمجتمع. وفي الوقت نفسه كان حراسي الشخصيون النجديون - وكل رجل منهم مدجج بسلاح كامل ويحمل الجراب الذي يحوي أجهزتي المختلفة، ناهيك عن الحمل الذي كان يزيد باستمرار من بقايا الآثار - مضطرين إلى مرافقتي أينما اتجهت وحيثما حللت. وكانت بقية الجماعة تتكون من أطفال القرية الفقراء الذين لم يصبهم التعب، على عادة الأطفال، من التفتيش بين الأنقاض بجوار التل وإحضار ما يجدونه لي يحدوهم أمل لا يهزم في الحصول على مكافآت خرافية.

وانتجها نحو الغرب على طول الطريق المرتفع، ونحن نرى بقايا المباني أثناء مرورنا، إلى أن توقفنا مرة أخرى في الختام عند قلعة الماء «حصن الماء» على قمة ناتئة مرتفعة قرب نهاية السلسلة. وكان المبنى - من الطين وكسر الحجارة - حديثاً نسبياً، ولكنه يطل على المنطقة حوله من ثلاثة جوانب، كما يشرف أيضاً على البثرين الموجودتين بالوادي في أسفله مباشرة، وقد كنا نتجه إليه الآن، ونحن ننزل بصعوبة على المنحدر الذي تتناثر عليه أكوام الحجارة المفككة وأنقاض الآثار، إلى أن وصلنا إلى قاع وادي «معشار» حيث ينثني بحدة إلى الشمال حول جرف عال أخير في سلسلة المعبد. وقد لاحظت الآن أنه توجد سلسلة مشابهة تمتد شرقاً وغرباً على الضفة اليسرى للقناة وتسمى «كوير»، وكانت في الحقيقة استمراراً للسلسلة الأولى، وكان عبور الوادي يتم خلال ثغرة واسعة في وسطها. وقد أظهرت الجُرف العالية على كلا الجانبين حواف مسننة من طبقات الحجر الجيري العارية، ومطوية بحدة شديدة، ومهشمة كما لو كان قد تم بفعل بعض الاضطرابات العنيفة تحت الأرض ويحتمل أن يكون ذلك ناتجاً عن ارتفاع قباب الملح عن قشرة الأرض، في شبوة خلال أحد العصور الجيولوجية البعيدة.

وعلى كل حال فإن الحقيقة المثيرة للاهتمام هي وجود سلسلة كاملة من مناجم الفحم، تمتد تقريباً من الغرب إلى الشرق، ولسافة تبدأ من قرب بيحان ومأرب إلى ما وراء شبوة. وقد فحصت أربعة من أصل ستة منها بالتفصيل. ورأيت واحداً من الأخيريات من على البعد. وكل واحد منها يقع في «جزيرة» معزولة من التلال المنخفضة، تشبه تلك الموجودة بشبوة، على مسافة قصيرة تجاه الشمال من جرف الهضبة، التي تتكون طبقاتها من الحجر الجيري من عصر الإيوسين وتغطي قاعدة من الحجر الرملي، ويبدو أن التلال لم تتأثر أبداً بأي حركة أرضية ربما تكون قد وقعت على طول واجهتها. وتوجد سلسلة موحية من الأقماع البركانية على مسافة ما إلى الجنوب من شبوة - كما سترى في الوقت المناسب - والاستنتاج المحتمل هو أن

الصحراء المنبسطة والممتدة من سفح الجرف نحو الشمال قد شهدت اضطرابات أرضية عنيفة في فترة ما قبل ارتفاع صفينة الإيوسين التي تشكل الجزء الرئيس من سلسلة الجبال المرتفعة، وبمناخ السور الجنوبي الوافي لشبه الجزيرة العربية. وفي جميع «جزر» الملح التي فحستها هناك كان يوجد نفس التواء الطبقات الأرضية المميز الذي رأيته الآن لأول مرة في سلاسل جبال شبوة. والمظهر الذي لا يقل وضوحاً عن ذلك في هذه التشكيلات هو أن قباب الملح مكسوة بصخور مشبعة بمادة من القصار (البيتومين) التي أدى ارتفاع قباب الملح إلى دفعها إلى السطح من الأعماق الحاملة للبترول في باطن الأرض. وكان هذا اكتشافاً ذا شأن عظيم، وقد تم حديثاً إرسال بعثة من شركة بترول شهيرة لتتقصى الإمكانات الاقتصادية للمنطقة بكاملها، على الرغم من أنها لم تتمكن من اختراق منطقة شبوة - مرخة نتيجة لاعتراض السكان المحليين.

إن هاتين البئرين - اللتين تمثلان المصدر الوحيد للمياه في القرية - تقعان في مجرى «معشار» تحت مرتفع المعبد. والبئر الكبرى منهما، وتسمى ديبان توجد في وسط القناة (المجرى) على بعد حوالي ١٠٠ ياردة من سفح سلسلة الجبل. وكانت هناك مجموعات كثيرة من الأغنام والإبل، تنتظر دورها بفارغ الصبر عند الآنية أو القنوات، وهي تقف أو ترقد حول البئر عندما وصلنا إليه. وقد كانت فوهة البئر محاطة بشريط عريض من الطين الأسود الرقيق ذي الرائحة النتنة، وكانت مرتفعة قليلاً عن سطح الوادي، الذي ينحدر إليه مزلقان مائل في جميع الاتجاهات. وكان قطر البئر خمسة عشر قدماً، وعمق البئر حوالي خمس قامات حتى الماء، وكان الماء وفيراً إلا أنه مالح قليلاً، ويستخدم فقط لسقيا الحيوانات. والجدار الداخلي للبئر مبطن بكتل صغيرة غير مشذبة من الحجارة. وكان عدد من الرجال والنساء منهمكين في استخراج الماء لقطعانهم في دلاء جلدية مستديرة مربوطة بحبال، ولم يكن هناك أي منشآت عليا أو بكرات لتساعدهم على سحب الماء، وكانت النساء كاشفات وجوههن، ومن بينهن بعض الفتيات والشابات الجميلات، واللاتي جذبت مفاتنهن الكاملة ناصراً،

أحد حراسي الشخصيين النجديين. وهكذا تلكأنا هناك بينما جلس هو يرمق بعينه ملكة الجمال المحلي، التي كانت فتاة جـدّ جميلة ذات قوام رشيق، والتي نالت إعجاب جميع من بصحبتنا بطريقة غير واضحة. وقد تطوع أحد الرجال وأخبرنا أنه عرض عليها بالفعل ما لا يقل عن ٤٠٠ ريال لطلب يدها، ولكنها رفضت!! وقد احمرّت وجنتا الفتاة خجلاً منا وانهاالت رفيقاتها في الضحك بسرور وصوت مسموع. وقلت للجماعة، إننا لو لم نكن رحالة مسافرين، لربما جنحنا إلى زيادة المبلغ المعروض لطلب يدها، وهكذا واصلنا السير إلى البئر التالية. ولكن في الغد تطوع ناصر للعناية بملء القرب بالماء.

وتقع البئر الأخرى، وتسمى الحسوة مباشرة تحت الجرف أسفل الحصن. وماؤها عذب ومخصص للاستهلاك الآدمي، ولكنه شحيح نسبياً. وتتناثر حول فوهة البئر حوالي عشرين أو أكثر من قِرب الماء، بعضها مملوء بالفعل والبعض الآخر ينتظر دوره. وكان إمداد الماء لا يكاد يفي بالطلب، وفي قاع البئر بعمق أربع قامات وجدنا رجلاً وأربع نسوة منهمكين في غرف الماء في أوانٍ فخارية لمجرد ظهوره من طبقات الرمل الضحلة في الأسفل، بينما وقف آخرون على حافة البئر جاهزون لسحب الآنية إلى أعلى وتفريغها في القِرب الجلدية. وكانت هذه البئر مبطنة بكتل من الحجارة الخشنة الكبيرة نسبياً عما هو موجود في البئر الأخرى. ويتم حمل القرب المليئة بالمياه إلى القرية على ظهور الحمير، وكان عدد من تلك الحمير يستمتع بتناول شربة من الماء من جرة رخامية كبيرة مكسورة، وهي بالتأكيد من بقايا العصر الحميري. وتقع هاتين البئرين في حوض الوادي على طول الجرف من بقعة النخيل الصغيرة في الزاوية بين المدينة القديمة وضاحية «هَجْر» تعود إلى عشيرة آل قطيان وهم أيضاً ملاك مناجم الملح. وقد عدنا لمقر إقامتنا على طول السور الغربي للمدينة القديمة، والذي لا يزال بالإمكان رؤية أجزاء كثيرة من بنائه الهائل.

وكان أفضل جزء باق من أسوار المدينة وجدناه في الركن الشمالي الغربي قريباً

من ضريح ابن يوسف، قد كان عبارة عن مبنى بسيط من الطين، مربع، مطلي باللون الأبيض، وبه نقاط في أعلاه في كل زاوية، وبعضها مزخرف بقرون السيوس الجبلية، جرياً على العادات المحلية، ومن وسط السقف ترتفع قبة طويلة، تشبه إلى حد ما طفاية الشموع، مع قرن تيس في أعلاها. وترتفع حوالي اثنتي عشرة طبقة من البناء الأصلي إلى علو مقداره عشرة أقدام في هذه الزاوية، التي يحتمل أنها كانت المنطقة المحصنة. وقد اختفى الجزء العلوي، ولكنه استبدل ببناء طيني من طابقين، وفي فناء هذا البناء قدم لنا القهوة بعض رجال المعوان. وقد وجهت لي أسئلة عن عمد تقريباً للاستفسار عن نوايا ابن سعود، ولكنني استطعت أن أؤكد لهم أنه لم يخطر على بال صاحب الجلالة أن يشتهي ضم شبة، ولا حتى بسبب ما بها من ملح، الذي يوجد منه ما يكفي ويفيض في نجد وأجزاء أخرى من مملكته. وأخبرتهم كيف أن ابن سعود قد أخضع جزءاً عظيماً من اليمن في حرب عام ١٩٣٤م، ولكنه كان أكثر سعادة عندما تخلى عن الأراضي التي استولى عليها عن طريق القوة. وأردفت قائلاً: إنه ليس لديه أي طموح في توسيع نطاق مسؤولياته الكبيرة أصلاً، ولكنه كان من الطبيعي أن يرغب في رؤية السلام والهدوء يسودان الأراضي الممتدة على طول حدوده مثلما يعم الهدوء والأمن فعلاً داخل أقاليمه. وإذا عدنا للوراء لسنوات قليلة كنا نجد نجران مسرحاً للفوضى والاضطراب بينما تعد اليوم نموذجاً مثالياً للسلام والأمن، مما حاز بالكامل على رضا ساكنيها الذين كانوا ذات يوم يقاسون عدم الاستقرار.

والآن كنا نشق طريقنا خلال حقل الآثار، ونزور المباني المختلفة التي ما زالت تحتفظ بجزء ما من صورتها الأصلية، وندور في دائرة مع الأسوار الشمالية والشرقية. وكانت الساعة تقترب من الرابعة بعد العصر عندما وصلنا إلى المخيم، سعداء بما فيه الكفاية بالراحة بعد يوم طويل شاق تحت الشمس. وفي ذلك الوقت رأينا سحابة قائمة من الرمل كانت قد بدأت تتجمع من الجنوب. وفي غضون دقائق قليلة انفجر

الإعصار فوقنا مسبقاً بعاصفة ريح باردة. واختفى العالم فجأة في ظلام دامس وطوقتنا سحابة الرمل. وكانت الخيمة الكبرى لرفاقي قد اقتلعتها الريح وسقطت على الأرض. وكانت مظلتي المصنوعة من قماش القنب مربوطة بالسيارة في أحد الجوانب ومربوطة بالأوتاد على الجانب الآخر، وقد أخذت تصفق وترتعد وتحاول الانفكاك جاهدة، ولكن دون طائل. واكتسح الرمل فوق كل شيء وداخله. ولم يكن بوسعنا فعل أي شيء إلا أن نجلس مكتوفي الأيدي ونتنظر انفشاع الكرب. وظلت العواصف تهب علينا عاصفة بعد عاصفة على فترات زمنية فاصلة مدة ساعتين، وفجأة مرت العاصفة وهذا كل شيء مرة أخرى، ولكن ذلك كان مع غروب الشمس. ثم عادت العاصفة علينا من الشمال، وكانت الساعات الأولى من الليل كريهة بغیضة بسبب عواصف الرمل ودفعها العالي المتواصل، بل إنها هي أرض «الشیطان» ذاتها. وعلى كل حال كان هذا هو اليوم الثالث فقط من مثل هذا البلاء، وما زال في الجعبة أيام أخرى لنا.

وطوال ما بعد الظهر كنت معرضاً لهجوم متواصل من متعهدي الآثار، الذين كان معظمهم فتيان صغار من القرية. وقد أحضر أحدهم لوحاً جميلاً جداً من الحجر الجيري -الذي كان دون شك جزءاً أصلياً من إفريز المعبد- به تصوير مجسم تجسماً خفيفاً لشيخ في ملابس قديمة. وقد تركته لبرهة من الوقت بجواري، حيث رآه رجل عجوز جد معتوه وذو أفكار غريبة، أو ربما كان قد أتى ليلقي نظرة على شخصي. وكان اكتشاف اللوح قد أدى إلى إصابته بنوبة من شدة الغضب على نحو غير لائق، وبدأ يوبخني بطريقة مشوشة لسرقة الكنوز التي لا تقدر بثمن من المكان. وأمرته أن يغرب عن وجهي إن لم يستطع أن يكون مهذباً، وجاء سعيد، الذي تصادف ظهوره وسط هذا المشهد، ليقوده بعيداً إلى القرية، وهو يرغي ويزبد من هيجان الغضب. وقد قمت بلف هذا الحجر المثير للأذى في ورقة وأخفيته بعيداً في أحد صناديقي

لتفادي مزيد من المشاكل، لأنني شعرت، مقتنعاً أنه يجب أن يكون مسروقاً من أحد الأضرحة. وعاد الرجل العجوز مرة أخرى في اليوم التالي، ولكنني لصقت ريالاً في راحة يده، وانصرف بهدوء بأقصى ما يستطيع خشية أن أسترده منه ثانية.

وكان المكان يبدو مليئاً بالثعابين. وقد تم إحضار اثنين منها ذلك المساء لي، وفي الليل جاء «الثعبان الأقرن» من تحت السيارة، وهو يتلوى تحت سرير فراشي. وقد كنت على وشك شل حركته وجعله غير قادر على الحركة بضربة من عصاتي الخيزران وأضعه في زجاج الأرواح عندما حاول أن يلوذ بالاختفاء تحت أحد صناديقي. وكان اثنان آخران من هذه الوحوش السامة وثلاثة ثعابين أخرى قد أضيفت إلى مجموعتي خلال الأيام التالية، نظراً لأن الأفاعي السامة كانت تنجذب إلى لمبتي المضئنة. ولم تكن الطيور هنا كثيرة، كما لم تكن مثيرة لأي اهتمام خاص، باستثناء طائر الأبلق النادر (واسمه العلمي هو *Oenanthe Monacha*)، والذي لم يكن نادراً في هذه المنطقة الجنوبية.

وجاء صباح هادئ جميل بعد الليلة العاصفة، وقضيت اليوم كله، مرة أخرى، بين الآثار لا يزعجني أي من أولئك الاتباع غير المرغوبين. وقبل أن أبدأ تجوالي - على كل حال، زارني في المخيم «علي بن عفيشة» الذي جاء على جناح السرعة من «عرما» بعد أن سمع نبأ وصولنا. وعلى الرغم أنه كان طاعناً في السن وعاجزاً وهزيلاً إلا أنه مليء بالود ومحبة الآخرين، ولكن كلامه كان متقطعاً قليلاً، ويتكون في معظمه من الإشارات. وهذا العيب يشاركه فيه معظم رفاقه، إذ يبدو أنهم يستخدمون أيديهم كثيراً لتوفير حركة التنفس، ولذلك أحياناً يكون من الصعب فهم حديثهم، ولكنني سرعان ما اعتدت على ذلك، وأصبحت قادراً على تقليد إشاراتهم الغريبة بطريقة مضحكة مما أثار سخريتهم.

وفي الليلة التي وصلنا فيها كان أحد الرجال الذين تجمعوا حولي قد أشار إلى القرية وتفوه بكلمة واحدة قائلاً: "اللحم" !! بهذه الكلمة وبسحب يده عبر حنجرته استطعت أن أفهم أن الغنم سيتم جمعها في تلك القرية وذبحها لعشائنا وفعلًا جاءت الذبائح في الوقت المناسب. وقد سألت أثناء مجرى الحديث: «كم تبعد المسافة من هنا حتى حضرموت؟»، رفع شخص منهم يده وأربعة من أصابعه منتصبه إلى أعلى والأصبع الصغير مثن للداخل. وهذا يعني أربعة أيام ونصف - كما فهمت بالطبع -. ووضع شخص آخر كلتا يديه على بعض مع ضغط أصبع واحد ورثي آخر، وهذا يعني ١٠ محسوماً منها ١٥ أي ٨٥ أيام للذهاب والعودة وسألت عندما كنا نناقش احتياجاتنا: «كم من الآبار توجد لديكم هنا؟»، ويرز إصبعان لأعلى فوراً بدون كلمة واحدة، وهكذا إلى ما لا نهاية. ويبدو أن جنوب الجزيرة العربية كله مدمن لهذه الطريقة في الحديث، ولكنني وجدت أنها ملحوظة بقدر أكبر في شبوة، وفي بعض الأحيان تكون متفاقمة كثيراً ومثيرة للغضب. وكان هناك زائر آخر هذا الصباح هو «سالم بن حمد» رئيس فخذ آل مسفر من قبيلة الكرب ومنطقته هي خبت الخالي بين شبوة ووادي دهر. وسوف انتهز مناسبة فيما بعد لأقول مزيداً من التفاصيل عن ذلك الرجل.

وفي اليوم الثاني بدأت بحثي على طول مرتفع هَجْرَ وبين هذه الآثار العادية نسبياً تصورت مخيلتي منازل الأغنياء جائمة على حافة جرف معشار وحدائقها تنحدر في مصاطب على مستوى وادي المجاض. وكان البناء المتناثر على السطح مشذباً بطريقة جيّدة عموماً، وكان هناك بعض بقايا من أساسات البيوت ما زالت في مواقعها، بالإضافة إلى آثار ما كان يحتمل أنه معبد صغير فوق رابية. ونزولاً إلى وادي معشار فقد التزمت خط الجرف الطيني حتى الثنية، حيث يوجد هناك قليل من أشجار النخيل والعُنب تمثل البقعة الخضراء الوحيدة في «الجزيرة». وفي هذه النقطة تشكلت طبقة ضخمة من الطمي عبر العصور قُبالة الطبقات الأرضية المدمرة في سلسلة جبل القلعة، ويبدو أن سور المدينة القديمة كان يمتد من المضيق الذي يفصل بين

المثاء والهجر حتى برج القلعة. ولا يزال بالإمكان رؤية بعض آثار السور، والكثير من أساسات البيوت، ولا شيء خلاف ذلك. والطريق من مدن العوالق في «الأنصاب» ويشبم ينحدر إلى الوادي ويصعد إلى داخل منطقة المدينة متجاوزاً النخيل حتى يصل إلى المضيق.

وتقدمنا الآن في سيرنا باتجاه مجرى الوادي وتجاوزنا الآبار وعبرنا إلى الضفة اليسرى عند الشنية. وعندما تجاوزنا طرف سلسلة الكوير، التي ذكرناها من قبل، دخلنا وادي سهلة الواسع الضحل، وعبرناه على طول ظهر سد طويل منخفض من الحصى والتراب، الذي يسد مجراه بالكامل ويقوم بحجز مياه السيول الموسمية. والمنطقة فوقه مقسمة بحواجز منخفضة إلى أحواض تزرع فيها عشيرة آل عويرة الدخن والشعير. ولا يظهر على السد والحواجز الفرعية أي أثر من البناء القديم، على الرغم أنه ليس من غير المرجح أن تاريخه يعود إلى العصور القديمة. والحقول هنا تشتهر باسم «جربة الكوير»، التي في وسطها، أو الأخرى على أرض مرتفعة في الجانب البعيد من الوادي، أقام «صالح بن حزيق» مخيماً له من خيام سوداء في أيكة صغيرة من شجيرات السنط. وقد دعانا لتناول الغذاء معه، وقضينا أمسية جميلة رائعة في وسط قبيلته وعائلته. وكان صالح، بوجهه المليح ولحيته السوداء الخفيفة، يبدو ملائماً تماماً لمنصب شيخ قبيلة عظيم، وقد قام بأداء شرف الضيافة بسهولة جمّة، وكان «محمد بن قطيان» موجوداً أيضاً في الخيمة عندما وصلنا، وكان مخلوقاً وضعي الهيئة مملوءاً بالمركر والبخل. وبالإضافة لهذين الشخصين كان هناك حوالي ستة من الأعضاء الآخرين في العائلة، الذين ملؤوا - مع جماعتي المكوّنة من ثمانية أفراد - خيمة الضيوف ذات الحجم المتوسط تماماً. ومع السجاد المفروش والوسائد وسروج الإبل كنا ننعم بقدر كاف من الراحة ونحن جلوس هناك نحتمي القهوة بأشكالها المختلفة، فأولاً القهوة الحقيقية المصنوعة من الحبوب اليابسة بالطريقة النجدية، ثم «القشر»، المصنوع من قشور حبوب القهوة الخارجية فقط، مثلما تشربه المجتمعات الفقيرة في اليمن وعسير،

وأخيراً الشراب الحضرمي المعتاد الذي يسمى "قفل" أو جفل ويصنع من الحبوب اليابسة والقشور الخارجية المسحوقة معاً والمحمصة بالطريقة المعتادة. ومن الصعب في حضرموت أن تشتري الحبوب التي نُزعت قشورها، ولكن «القفل» كان شرباً رائعاً على الرغم من أنه خفيف.

ومن مكاني في الخيمة كنت أستطيع أن أرى تحضيرات وجبة الغداء في منتصف النهار وهي تُنفذ تحت مظلة مطبخ صغيرة. وكانت أم صالح العجوز، تساعدنا امرأة شابة جميلة الطلعة التي يحتمل أن تكون إحدى زوجتيه من القبيلة، وهي التي تقوم بجميع أعمال المطبخ بنفسها، ويبدو أنه كان لديها عدد ضخم من الأواني والقدر لتعتني به، ناهيك عن قيامها بتحضير فطائر الخبز المفرد -بُسْمُك بوصة واحدة وقطر ست بوصات- في رماد نار المطبخ وهذه الفطائر، بعد نضجها، يتم تكسيرها ويعاد عجنها بالسمن حتى تصبح كتلة ضخمة من الثريد، وتقدم للأكل في سلطانية خشبية كبيرة شبه مليئة بالمرق من مواعين اللحم. وجلسنا في دائرة حول السلطانيات في مجموعتين أو ثلاثة والتهمنا محتوياتها، ولكن خبرتي السابقة في نجران علمتني أن أكل ببطء في البداية إلى أن تنتهي الطبقة الأولى غير الشهية لكي أترك مكاناً لقدوم اللحم. هذا اللحم تم إحضاره إلينا على صينية كبيرة من أغصان الشجر المجذولة (مثل السلال) بعد تراجعنا للخلف من الثريد، ونحن نهال بالشكر على مضيفنا لهذه الوجبة الممتازة كما لو كنا لا نتوقع المزيد. ثم قال مضيفنا: إنه من المفترض أن يكون الجوع قد عضنا بنابه، ثم دعانا، ونحن نحتج بأننا لا نستطيع تناول أي أكل إضافي، بابتسامة ساحرة لتتقدم مرة أخرى إلى صينية اللحم التي وضعت أمامنا على الأرض. وفي العادة لا يجلسون في دائرة حول اللحم، ولكن نظراً لأن هذه كانت مناسبة خاصة وكنا جميعاً ضيوفاً عليه فقد طلب منا أن نلتف حول الصينية، ونُقدّر الطبخ الممتاز حق قدره. ولم يبق إلا أقل القليل من لحم الديسحتين الاثنتين اللذيذ عندما امتلأت بطوننا، ثم أخذ صالح الصينية على حجره واختار بعناية الأجزاء المناسبة من

اللحم ووزعها حسب ترتيب الأسبقية على أولئك الذين لم يشاركونا الوليمة . ولاحظت أنه انتقى أحد العظام التي تحمل كثيراً من اللحم عليها لولده الصغير القوي ، حمد ، الذي كان صائداً نشطاً للآثار خلال هذه الأيام . وظل المثلقون الآخرون لكرم صالح في أماكنهم وهم يلتهمون ما يأتي من نصيبهم من قطع اللحم . وبقي شيء قليل ، بل قليل جداً ، بعدما أخذ كل شخص نصيبه ، وكنت سعيداً أن أرى هذا القليل الباقي يُرسل إلى المطبخ ، حيث تجمع عدد من النساء الآن ليساعدن الأم والزوجة في التخلص من النفايات . ولم يكن ممكناً لكلا المخبيم أن تصبح سمينتين من مثل ما تبقى لها .

وبعد الطعام اقترحت أن نأخذ قسطاً من النوم إن استطاعوا أن يوفروا لي خيمة لي بمفردي . وقد تم توصيلي إلى خيمة صغيرة قريبة ، خرج منها ساكنوها ، وهم امرأة وأطفالها الاثنين الصغار وقليل من الماعز . وقد تركوني وشأني ونمت بعمق لما يزيد عن ساعة ، واستيقظت على أصوات قريبة ، ووجدت أن المرأة وأطفالها قد عادوا لبيتهم . ونهضت لأتوضأ وأؤدي صلاتي الظهر والعصر - جمعاً وقصراً حسبما هو مرخص به للمسافر - ، وصليت بمفردي ، وعدت للخيمة بعد ذلك . وكانت المرأة ترضع طفلها الأصغر ، واستمرت في إرضاعه دونما أي حرج عندما جلست أتحدث إليها . ونظراً لأن سعداً يعلم عاداتي التي اعتدت عليها فقد أحضر لي كأساً من الشاي ، وأرسلته في طلب كأس آخر وبعض السكر لكي نجعل هذه المناسبة حفلة شاي . وجاءت والدته المرأة من خيمة أخرى وانضمت إلينا ، وتناوبن شرب الشاي من كأس واحدة بالدور ، ولم تكن هاتان المرأتان ، ولا أي من النساء الأخريات اللاتي رأيتهن في المخيم ، تغطي وجهها ، وكن يتحدثن بحرية دونما أي خجل . ولكن محمداً طلب مني الآن أن أقدم هدية بصورة ضرورية لابنه . وقد كنت في السابق ، كما قد يُستشف مما ذكرته سابقاً ، لا أرتاح إليه بشدة ، ولذلك قلت له الآن إنني لست معتاداً

على أن أجبر على الصدقة. ونظر إليّ بغیظ شديد، ونهضت لأنضم إلى صالح، ونزور معاً خيمة الرئيس الشرفي. وكانت ابنته، وهي زوجة صالح الشابة رائعة الجمال، هناك في استقبالنا وإرشادنا إلى مكان وجود الرجل المسن. لقد كان «حمد ابن ناصر بن قطيان» حقيقة رجلاً طاعناً جداً في السن ربما يقترب من التسعين، وكان أعمى من الناحية العملية وعاجزاً جداً بسبب الشيخوخة، ولا يقوى على التحرك من فراشه الذي يجلس فيه إذ لا حول له ولا قوة، وتسند الوسائد من كل اتجاه. وعلى أي حال لم يكن الرجل قد نسي الجشع الذي كان قد ورثه لابنه محمداً وقبل مني ريالاً عبارة عن هدية حيث انفرجت أساريه بكل علامات الرضا. وكان حديثه غير متناسق قليلاً، ولكنه اعترف بأنه يتذكر الأيام التي كان فيها فيصل بن سعود^(١) حاكماً على الصحراء الجنوبية. وتحدثنا أيضاً عن الاتصالات القديمة نسبياً التي أجراها أهل شبة مع سلطات عدن. وقد كانوا فخورين بابتعادهم عن كل ما يورطهم في ذلك الاتجاه، وحافظوا على شعار «فقراء بدون مهر» على الرغم من تملق ومداينة أحد الأشخاص الذي كانوا يسمونه «الكرنين»، وربما كان هو الكولونيل ليك في عدن. وتمت الإشارة أيضاً إلى نجم أقل سطوعاً في سماء عدن يعرف لديهم باسم «الكابتن» وكان يزور بيحان أحياناً. وقد ذكروا «كرنين» آخر يقصد به بالتأكيد الكولونيل بوسكاون وكان محبوباً بقدر كبير في دوائر حضرموت، على الرغم من أنه كان - للأسف - شديد الخجل للدرجة تمنعه من التحدث أو الكتابة عن تجاربه في جنوب الجزيرة العربية.

وكننت قد استطعت أن أتعرف عليه من خلال تقرير يفيد أنه في أحد المناسبات ذهب في رحلة صيد للبقر الوحشي مع جماعة من قبيلة الصيغر إلى الحافة الجنوبية

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله الذي سبقت الإشارة إلى أن نفوذ الدولة السعودية الثانية امتد إلى تلك المناطق في عهده. (المراجعون).

للربع الخالي. وقالوا لي أيضاً: إنه حاول الوصول إلى شبوة، ولكن صدر إليه تحذير بالابتعاد عنها مع تهديد بالحاصرة المسلحة. وأخيراً تحدثوا بفخر يمكن غفرانه عن تجربتهم مع طائرة بريطانية كانت، وهي تمر فوق منطقتهم في طريقها إلى حضرموت، قد أسقطت رسالة ولفة تحتوي على شريطين طويلين من القماش الأبيض. وكانت الرسالة تقول لهم: إن من بهذه الطائرة سوف يعودون في يوم معين لزيارة شبوة. وإذا كانت هذه الزيارة مقبولة فقد كان المطلوب من سكان القرية أن ينشروا الشريطين الأبيضين في شكل صليب على أرض مهبط ملائم. وكان القماش هدية، حيث تم في الحال تقطيعه إلى أجزاء مناسبة لتكون ملابس جديدة لمن تلقاها. وما حدث بالفعل لم يزد على أن قام سكان شبوة بتسليح الرجال والوقوف على قمم التلال للترحيب بالطائرة ترحيباً حاراً إن هي تجرأت على الهبوط. ولسبب ما لم تعد الطائرة أبداً. وتحدثوا أيضاً عن محاولة أخرى لزيارة شبوة، ولكن قصتهم كانت شديدة الغموض واستعصى عليّ فهمها. وعلى كل حال أعتقد أنني قد توصلت فيما بعد إلى الحل الصحيح للغز، والذي سوف أشير إليه في الوقت المناسب.

وعندما استأذنت من الشيخ الجليل لم أنس أن أضع ريالاً في يد ابنته الجميلة. ثم سرت إلى المطبخ لمكافحة الطباخين، بالطريقة نفسها، على ما قدموه لنا بصورة طيبة. وكان صالح ومحمد وقلّة من الآخرين، منهم الصبي حمد - الذي كان من الواضح أنه التفاحة في عين أبيه - قد رافقوني في المشي للترهة على درب واسع كان ذات يوم مسرحاً للرّي الكثير أيام مجد شبوة. ويفصل شريط ضيق من الأرض المرتفعة، القناة ذات السدود في وادي سهلة عن قناة الخانق المليئة بالشجيرات والأكثر وعورة نسبياً، ويرتفع الشريط ويسير على طول المنحدر، الذي ينتهي في مرتفعات خشم غالب التي يصل ارتفاعها إلى حوالي ١٠٠٠ قدم فوق مستوى السهل. وبينما ينبسط السهل إلى ما وراء الأراضي الرأسية تجاه الصحراء فإن الوادين يتوزعان في قنوات يصعب تمييزها.

هذا الشريط من الأرض يُعرف باسم العقم أو جفر العقم، ومن الواضح أنه كان في العصور القديمة يشكل الجزء الأكثر أهمية من منطقة الري الواسعة الممتدة بين الجرف الشرقي والغربي. وصادفنا في البداية مجموعة من أربع منشآت كانت تشكل بوضوح رأس القناة، ويوجد عندها القناة الرئيسية وثلاثة فروع تتجه في اتجاهات مختلفة عنها. وكانت جوانب هذه القنوات الفرعية فيها فتحات لتمسك بوابات التحكم بالمياه التي كانت تُرفع أو تُنزل -بطريقة يدوية على ما يبدو بوضوح- حسب الحاجة للمياه في إحدى القنوات. ولم تمتد آثار تلك القنوات لمسافة بعيدة، ولكن القناة المركزية يمكن تتبعها لمسافة طويلة حيث تمتد تقريباً من الشمال للغرب. وعلى طول مجراها توجد بقايا من قطع بناء فيها فتحات لبوابات التحكم بالمياه مثل القنوات الأخرى، وأتينا فترة من الزمن على آثار كثيرة من البيوت الطينية ومبان أخرى متفرقة. وكنا هنا في سهل واسع يمتد من قناة معشار على أحد الجوانب إلى منخفض «الخانق» مرتفع لسان «غالب». على الرغم من أن هذه الأرض الآن مهجورة وغير مستعملة، وتنتشر بها أجزاء من قنوات الري المبنية هنا وهناك، والعديد من تلال الطمي التي يتراوح ارتفاعها من عشرين إلى خمسة وعشرين قدماً، والتي يبدو أنها تحدد أضلاع مستطيل كبير. وكان من الصعب تحديد رأي فيما إذا كانت هذه التلال الطينية تمثل مباني طينية متهدمة أو بقايا سور دائري. ويوجد في بعضها أثر من بناء حجري يوحي بأنها كانت بيوتاً، ويحتمل أن السور المستطيل. كان يطوق مخيماً أو حصناً لحماية الزراعة. وعلى أي حال لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أن هذه البقعة كانت في العصور الماضية مزروعة على نطاق واسع، وكانت تُروى بطريقة تامة ومتقنة. ولا يزال جزء صغير منها يُزرع الآن في مواسم السيول الكبيرة، ولكن لا توجد أي محاولة لتخزين أو توزيع المياه لاستخدامها في الري الدائم، على الرغم من أنهم ما زالوا يتأملون بحسد في الزراعة الواسعة التي كان يشغل بها القدماء،

الذين يسمون أعمالهم بالكفرية -أي غير مؤمنين أو بني غسان-. وكان اثنان من حجر الرحي المكسورين هما كل ما رأيته من آثار الأواني المنزلية في تلك الأيام الغابرة.

وعدنا إلى مخيمنا في شبوة بعد حلول الظلام بكثير، حيث إننا كنا قد ابتعدنا عن قرية «المعوان» تفادياً لها خشية أن يخطئوا ويحسبونا أعداء، وسرنا بجوار الآبار. وفي منتصف الطريق أثناء العودة اقترحت أن ينصرف صالح ومحمد إلى خيامهم، نظراً لأن حرسى الشخصي سوف يرافقني في العودة. وقد انصرف صالح فعلاً مع حمد الصغير وهو يسير خلفه، ولكن محمداً مكث معي، وشعرت أن شيئاً ما يدور في رأسه. وقال بعد دقائق قليلة: «أنا أعرف صخرة... صخرة كبيرة مثل هذا» وسحب عصاه على طول الأرض وصنع مربعاً تبلغ مساحته حوالي اثنتي عشرة ياردة أو أكثر، وأردف: «وعليها كتابة قديمة في جميع وجوها». وسألته: «أين هي؟. إذا لم تكن بعيدة أود رؤيتها». فأجاب: «إنها ليست بعيدة، ولكن أعتقد أنني أعرفها، فقد عثرت عليها ذات يوم عندما كانت إبلى ترعى قريباً منها». وقال: «ولكن ماذا سوف تعطيني إذا أخذتك إليها لكي تراها؟» فقلت له: «لا شيء ولا يهمني إن كنت أراها أم لا؛ ولن أحدد ثمناً لها. إنني لا أشتري مثل هذه الأشياء. وأنت تعلم أنني كريم مع أولئك الذين يخدمونني، ولكن لا أحب هؤلاء الذين يسامون». وواصل حديثه بلا خجل قائلاً: «إنك إن لم تعطيني حقوقي، فلن أريك الصخرة المكتوبة ما لم تدفع لي». فأجبت: «احتفظ بصخرتك لنفسك، وبالنسبة لحقوقك لا أعلم شيئاً عنها، وأنا لا أعطي أي رجل إلا على سبيل السخاء». وبهذه العبارة ذهب بعيداً عني، غاضباً محبطاً، ليلحق بصالح في طريقه إلى مخيمهم. وفي اليوم التالي زارني مرة أخرى ليطالب بحقوقه. فقلت له: «أخبرتني أمس عن صخرة مكتوبة. ولن تنال شيئاً مني إلا إذا رأيته، وبعد ذلك فأنا الذي سوف أحدد ما أعطيك إياه».

وكان اليوم خالياً من العواصف الرملية، ولكننا لم نكد نعود إلى المخيم حوالي الساعة السابعة مساءً إلا وانفجرت علينا سحابة تراب فجأة بعنف شديد، واستمر ذلك لنصف ساعة. وبعد ذلك تفرق إلى سلسلة من العواصف الرملية مصحوبة بقطرات قليلة من المطر، الذي أدى إلى خمود الغبار، على الرغم من أن الريح العاصفة هبت علينا في أوقات متقطعة أثناء الليل. وفي الصباح التالي استأنفت رحلتي، بدءاً بطريق الطرف الشمالي لسلسلة جبل هجر ونزولاً منها إلى ملح المغيرة عند سفح سلسلة جبل غارة الملح. وكان الجزء العلوي من السلسلة يتكوّن من مزيج الحصى والطمي، وتحتة يقع الملح الحجري في مستوى الأرض وتحتها. والمنجم نفسه عبارة عن تجويف يمتد لعمق ثلاثين قدماً، ومساحة مسطحة تبلغ حوالي خمسين قدماً في كل اتجاه. والطبقات الصخرية الممتدة فوق الملح وتحت الغطاء الطيني ذات لون أسود تشبه البترول أو القار (البيتومين)، ومتقشرة نسيباً وناعمة. وقد هبطت داخل المنجم بمنحدر حاد من فتحة. وتظهر خطوط على جدار الملح من أثر الضرب بالآلات مستدقة الرأس.

والعمل في الملح يعد امتيازاً مقصوراً على عتقاء المشايخ وقطيان الذين يتلقون نصف ريال عن كل حمولة إبل من الملح مأخوذة من المنجم. وتحفر ثقب في الملح لتوضع عليها أصابع الديناميت، التي يؤدي تفجيرها إلى تفكيك كتل ضخمة من الصخور. وبعد ذلك يقوم العمال (العتقاء) باستخراج الملح بالفؤوس ويجمعونه في أكوام جاهزة للتعبئة في القرب الجلدية لنقله إلى حضرموت ونجران أيضاً. هذا الملح جيّد النوعية، يشبه البلّور الأبيض. والمنجم الثاني، «ملح الرشيد» هو أكبر الاثنين ويقع تحت السهل بحوالي ١٠٠ أو ١٥٠ قدماً، وعرضه أربعون قدماً، وعمقه خمسون قدماً، ويتكوّن من حفرتين متصلتين بفتحة صغيرة تربط قاع واحدة بأخرى. والسطح يتكوّن من الطمي وكسر الحجارة بعمق حوالي عشرة أقدام فوق الملح. وجدران الملح في كلتا الحفرتين عليها خطوط من أثر المعاول مثلما هو الحال في منجم (المغيرة). هذه المعاول عبارة عن عصيّ غليظة يبلغ طول الواحدة حوالي ثلاثة أقدام ومركّب

عليها مطارق حديدية ذات أطراف مستدقة لتكسير الملح إلى أحجام ملائمة للتداول، ويدر الملح ربحاً وفيراً يصل إلى حوالي أربعة ريالات لكل حمل بعير في أسواق حضر موت. وكانت فوهة هذه الحفرة محاطة بعشرين أو أكثر من القرب الجلدية مملوءة بالفعل وجاهزة للنقل، وكانت هناك قافلة صغيرة قد بدأت تتجمع لهذا الغرض.

وبعد أن تركنا مناجم الملح اتجهنا ناحية المدينة القديمة وسرنا مع سورها الشرقي إلى أن وصلنا قرية هَجْر حيث قمت -بعد فحص وتصوير الأجزاء الباقية من البناء القديم- بزيارة للشيخ علي بن عفيشة في بيته على قمة سلسلة الجبل. وكانت مجموعة متواصلة من درجات سلم تؤدي إلى غرفة الاستقبال، التي كانت مفروشة بصورة هزيلة جداً من حصير النخيل فقط. ولم يقدم لنا القهوة ولا حتى الماء، الشيء الذي كنا سنرحب به بعد جولتنا، فقد كان الجو حاراً جداً في الشمس، وانصب الحوار بين مضيفنا وأتباعه الأوفياء بصورة رئيسة على التوبيخ العنيف ضد سكان المعوان الذين، كما قال علي: «كانوا سابقاً خدماً في بيت والدنا ولكنهم الآن يبدو أنهم أصبحوا منافسين لنا». إن ضمان السيطرة على ضريح ابن يوسف هو الطموح الوحيد لشيوخ «هَجْر». فبالنسبة لهم لا يهم أي شيء آخر، وكان جهلهم بالعالم وأحواله مثيراً للدهشة والاستغراب مثل افتقارهم إلى كرم الضيافة.

وكنت الآن قد بدأت أشعر أنني فحست شبهة تماماً قدر الإمكان بدون فأس للحفر، ولكن بعد زيارتي للمسجد ونسخ مابه من نقوش حميرية، قمت بزيارة وداع للمعبد الكبير. ثم عدت للمخيم بعد أن حفرت قليلاً بين أكوام الأنقاض التي تقع فوق منجم الملح الثالث الذي يُدعى «ملح ربيعة»، والذي توقف العمل فيه. وقد وصلت المخيم بعد الساعة الواحدة ظهراً بقليل، واستقبلت الزوار بالتتابع المعتاد أثناء العصر. كما قمت بالتنزه مشياً على الأقدام في منطقة قناة المحباض التي تحتفظ ببقايا ضئيلة من نظام الري القديم، على الرغم من أنها كانت أقل وضوحاً مما هي في منطقة العقم. وعلى كل حال كان من الواضح أن هذا الجانب من «الجزيرة» كان مزروعاً في

العصور القديمة، في حين أنه في الوقت الحالي لا توجد إلا زراعة بسيطة فقط في المناطق المعرضة للسيول تحت الجرف قرب حصن صغير يسمى «حصن باشعنون» وإلى الجنوب بعيداً يسمى «حصن المشايعة» في النقطة التي يبدأ عندها مجرى قناة «العطف» التي تنثني نحو الشمال من وادي عرما بين الجُرف العالية من الحجر الجيري.

وانتهى اليوم بالعاصفة الرملية الحتمية التي -بعد أن تجمعت وتشكلت طويلاً في الشمال من ساعة غروب الشمس تقريباً- انهالت علينا عندما كنا نجلس لتناول العشاء في الثامنة مساءً. وبعد نصف ساعة نزلت رخة من المطر وتحسن بعدها الأمر، على الرغم من مواصلة هبات من الريح في الهبوب علينا حتى الساعة العاشرة ليلاً، توقفت العاصفة فجأة مثلما بدأت. لقد استمرت طويلاً بما يكفي، على أي حال، لإفساد الألحان والغناء في الهواء الطلق بالمخيم والتي كان يعزفها مغنون زنوج محليون، الذين جاؤوا بالطبول والآلات الوترية بعد أن انتهينا من العشاء، وظلوا يعزفون إيقاعاً ضعيفاً نسبياً إلى أن أجبرتهم الهبات القاسية للريح على الدخول في الخيام. إن جزءاً مقدراً من سكان شبوة يتكون من هؤلاء «العبيد» ومعظمهم من الأبناء الأحرار المنحدرين من العتقاء الذين كانوا عبيداً عند زعماء قبيلة «آل بريك» أيام مجدهم. وما زالوا هم العمال في مناجم الملح، ولكنهم يحصلون على مكافآت نظير عملهم الشاق في حفر الملح بالمعاول وتعبته في الأكياس للنقل. وكان بعضهم رجالاً ذوي بنية بدنية رائعة جداً، ويميلون إلى المشاكسة وحب الخصام مثل باقي السكان. وقد جاء أحدهم إلى مخيمنا يطلب أجراً على التمتع بميزة زيارتنا مناجم الملح، وبدأ عليه الإحساس بالظلم عندما طعنت في دعواه. ولكنني في النهاية أعطيته ريالاً واحداً مع معلومات مجانية حيث قلت له: «إن مناجم الملح في شبوة لا يمكن أن تعد بسهولة من ضمن العجائب السبع في العالم». وقد بدت عليه الدهشة تماماً، ولكن كان قد نال الريال، وهذا ما يريده. وعلاوة على نصف الريال المستحق دفعه لعمال

المناجم العبيد فإن عائلة «آل قطيان» تتقاضى حقوق ملكية قدرها ريال ونصف أو ريالان عن كل حمل بغير يغادر المناجم.

ولم أزر ضريح محمد بن بريك إلا بعد عودتي من حضرموت لأقيم مرة أخرى إقامة مؤقتة في شبوة، ولكن ربما يكون من الملائم أن أضْمَنَ وصفاً له في هذا الفصل. والضريح من الخارج عبارة عن مبنى طيني ذي أبعاد صغيرة وبه أبراج في كل زاوية، وقبة بيضاء ذات طفاية شموع في وسط السقف. هذه القبة وواحد (أو اثنين) من الأبراج مزينة بقرون التيس الجبلي (الوعل). وعلى الجانب الغربي من الضريح الفعلي توجد ساحة صغيرة محاطة بأسوار منخفضة مع مدخل منخفض جداً على الجانب الشمالي. ومما لاشك فيه أنه مصمم على حسب مبدأ الأبواب الدوارة -التي تسمح بدخول شخص واحد أو خروجه- لكي يمنع أي ازدحام للزوار، الذي يتوقع من كل واحد منهم أن يدفع مبلغاً قليلاً من المال قبل أن يرى المشهد. وبمجرد أن تدخل الساحة يواجهك باب الضريح نفسه، حيث إنه موضوع قرب الطرف الشمالي للسور الغربي. وداخل الضريح كان الظلام حالكاً، نظراً لعدم وجود النوافذ والسرج، المكوّنة من نصف قشور بيض النعام المتدلي الذي يحتوي على فتيل عائم في الزيت، لم تكن مضاءة. وفور أن اعتدت على الظلام فقد بدأت أحدد محتويات هذه الغرفة المرفدة والتي لم يوجد بها، لدهشتي، أي أثر من الآثار القديمة. ولم يكن فيها إلا عمر ضيق يسير حول ثلاثة جوانب وممران آخران متقاطعان يسمحان بالطواف الكامل حول الشيخ الولي وولده، نظراً لأن المكان برمته كان مشغولاً بأربعة قبور، ومحاورها الطويلة تمتد شمالاً وجنوباً. وأول قبرين، على يمين الداخل، كانا لامرأتين، هما بالتحديد: فاطمة، التي لم يستطع علي بن عفيشة وآخرون من الحاضرين أن يذكروا أي تفاصيل عنها مهما كانت، على الرغم من أنه يبدو، من المحتمل أنها كانت إحدى زوجات الشيخ وشبلة وهي امرأة من قبيلة بالحارث -ويحتمل أن تكون من قرية بيحان- ويقال: إنها كانت زوجة الشيخ. ولا يُغطي هذين القبرين أي نوع من المظلات. وهما ممسوحان

مسحاً تاماً بالطين، وأحداً قليلاً مثل النعوش التي ما زالت مستخدمة في الجزيرة العربية لحمل النسوة إلى الدفن، هذا التحذب المكسو بقماش متدل ومتجعد مصمم ليخفي معالم جثة الأنثى المتوفاة، والقبران أيضاً قريبان من بعضهما بدون عمر بينهما أو بينهما وبين الجدار.

وبين شبله وعمر -ربما يكون ابن الشيخ الولي فيها- يوجد عمر ضيق، في حين تفصل مسافة مشابهة الولد عن أبيه. وكلاهما يرقدان في قبر طيني مماثل لقبري المرائين، ولكن فوق قبري الذكريين الاثنين تقف مظلة مستطيلة من صندوق خشبي يعلوها سقف، يرتفع صرغه حوالي سبعة أو ثمانية أقدام فوق الأرض. إن السطح الخارجي لمظلة محمد بن بريك ممسوح تماماً وبصورة كثيفة بنوع ما من الشحم اللزج، ولقد لاحظت أن الناس المحليين الذين دخلوا معنا قد قاموا بالدوران دورة حول القبر -ولكن ليس حول قبر عمر- وهم يتحسسون بأصابعهم ويقبلون كل بوصة تقريباً من البناء على طول اتصال جدرانه بالسقف وعند الطرف الشمالي للمظلة، وداخلها بالقرب من الأرض عند رأس القبر، يوجد شيء ما، يشبه الإناء مليء بالرمال الناعم، الذي يأخذ منه الزوار ويقوم بشره فوق رؤوسهم وأكتافهم. وكان الجو داخل الضريح حاراً ومقرزاً، وكنت سعيداً بالخروج مرة أخرى في الهواء الطلق. وقد انتهينا من زيارتنا الرسمية، ورأيت ما يكفي في أحد أضرحة شبله مما جعلني قادراً على تصور محتويات الأضرحة الأخرى دون تجشم عناء زيارتها.

وهكذا انتهينا من شبله - ومن دون بنات سبأ فهي الأكثر بؤساً، مثل بغي في شيخوختها، فقيرة وشريرة وحقيرة، قد أتلّف مرور السنين سحر شبابها، وذهب جمالها الغض تماماً كأن لم يكن. ولا نستطيع أن نكتشف في ندوب وتجاويف اليوم إلا بالكاد ما يدل على فتنها وروعها، التي طارت الإشاعات بها إلى روما البعيدة مع التوابل والطور العربية. ومع ذلك فقد ظل اسمها باقياً عبر العصور، ليمثل إغراء دائماً لمحبي الاستطلاع. ومن الغريب حقاً أن تبقى خصوصيتها سليمة لم تُمس

لصروح طويلة من الزمن. ولقد ذكرت سابقاً بعض المحاولات غير الناجحة في التسلل إليها، ولحد علمي في هذا الوقت فقد كنت أول أجنبي يرى مفاتها الذابلة.

وفي الحقيقة لم تكن كذلك !! فقبل مغادرة نجران كنت قد تلقيت مجموعة ضخمة من جريدة «التايمز» التي قضيت وقت فراغي الضئيل في قراءتها أثناء سفري نحو الجنوب. وفي الشيف وبالمصادفة العجيبة، وقبل أن أنطلق بقليل عبر الصحراء في طلب شبوة، قرأت أحدث عدد من تلك الصحف، وهي التايمز بتاريخ يوم ٢٦ مايو، التي تصادف أنها تحتوي على مراجعة لكتاب «فريا ستارك» الذي نشر حديثاً بعنوان: «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» وقرأت فيما يلي: «كان هدف ستارك الوصول إلى مدينة شبوة القديمة، التي لم تر عين كافر قط معابدها الستين حتى الآن». وهكذا خلال الأيام الأولى في شبوة كنت أنقب في آثارها متصوراً أنني كنت أول أوروبي -مع أنني لست كافراً- يراها. وعند عودتي من حضرموت كنت قد حصلت على معلومات بصورة أفضل.

ولم أقرأ كتاب «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» إلا بعد ذلك بشهور كثيرة، عندما كنت أنا بنفسي أرقد مريضاً بالحمى في مكة بعد الحج، وبدا لعقلي الملهب بحرارة الحمى أن يد امرأة قد قادتني بنعومة ورقة عبر المشاهد المألوفة في «وادي الموت» مثلما يتحدث صوت امرأة بطريقة فاتنة عن أناس عرفتهم هناك وأماكن رأيتهما. ومع هذا بدا لي الأمر غريباً لأن المرأة التي سمعت كثيراً من القيل والقال المحلي لم تسمع بحكاية «هانز هلفريتز» وزيارته الناجحة لشبوة خلال الأيام التي هي نفسها ترقد مريضة بمرض خطير في شبام. وربما حجب مضيفوها الكرام الأنباء عنها نظراً لمصبتها المؤسفة. ولكنها كانت تعلم بالطبع أن هلفريتز كان في حضرموت في ذلك الوقت، يخطط لزيارة الهدف نفسه الذي كانت تقصده. لقد كانت في الحقيقة، كما اعترفت هي صراحة، يتم إخبارها أولاً بأول بتحركاته يومياً. وكان لديها أصدقاء في الوادي وعدوها بأن يجبطوا خططه،

حتى تكون هي أول من يصل شبوة. ثم تدعنا لنرى كيف كانت متعاملة بقوة ضد الرجل، الذي رفضت حتى ذكر اسمه فيما يرتبط بهذا المشروع، على الرغم من أنه قد ذكر بالاسم في أعمال أخرى. بل إنها تقرر قائلة: «إن شعوري لم يزد على أن أبتسم من هذه الفكرة»، عندما أخبرها مضيفوها صراحة "بأملهم الودود في أن شيئاً ما مثل حادث أو موت مفاجئ قد يقع له في طريقه" إلى شبوة !.

«ثم جاءت الأخبار بأن . . . الشاب الألماني قد انطلق. فقد عثر على أحد البدو في سوق سيئون، واتخذ الترتيبات اللازمة للذهاب إلى هناك مباشرة . . . وشعرت بالخزي». وتعتزف قائلة: «يجب عليّ أن أشعر بالقلق إذا وصل الآخرون إلى مدينتي قبلي، لأن مسألة أن تكون الأول ليست في الواقع عاطفة صادقة». وتواصل القول: «وصل الألماني إلى القطن واستمر في الرحلة. وجاءني وعد من السلطان . . . بأن البدوي الذي معه - على الرغم من أنهما قد وصلا القرية الحديثة، لن يكون قادراً على أخذه إلى موقع المدينة القديمة، وهي على بعد مسيرة يوم على الدواب، وفهمت أن ذلك مجرد لطف من جانب السلطان، ولكنه قد تحقق فعلاً». فبعد شهر تلت أنباء من شبام مفادها أن «الألماني . . . عاد من شبوة . . . وقال: إن هناك منجماً يحوي بترولاً وذهباً يمكن اكتشافه . . . وإنه لم يكن مسروراً هناك، ولم يمكث إلا نصف يوم، لأن القبائل هجمت عليه . . . ورحل إلى ضواحي شبوة ولكن لم يدعوه يدخلها كلها». واختتمت الفصل قائلة: «ولقد كان السلطان محقاً في ظنه، وما زالت المدينة القديمة ومعابدها الستين تنتظر الرحالة».

هذه الأشياء كانت تقع خلال الشهور الأولى من عام ١٩٣٥م. وكان كتاب فريا ستارك قد نشر في إنجلترا عام ١٩٣٦م، بيد أن هانز هلفريتز - بسبقه إياها إلى شبوة - كان أيضاً الأول في الميدان بوصفه لمغامراته في كتاب نشر بألمانيا عام ١٩٣٥م تحت عنوان «غموض حول شبوة - Geheimnis un Schobua». ويبدو من الغريب أن كلا من

المؤلفة والصحفي الذي راجع كتابها «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» في جريدة التايمز لم يسمعا بالكتاب المنافس السابق، الذي كان سيُعدل من وجهات نظرهما وآرائهما بصورة كبيرة. فقد وصل هو وجماعته في جوف الليل إليهم طبقاً للخطة، وقبعوا في الكوخ الذي كان بمثابة فندق لراكبي القوافل القادمين. وعند الفجر جاء الزوار ليفحصوا القادمين الجدد. ولما اكتشفوا «أفرنجياً» بينهم أدى ذلك إلى حدوث هياج وضجيج حتمي. وبينما كان مواطنو شبوة الغاضبون يتناقشون - وهم يأكلون طعام إفطاره ويشربون قهوته - ليس في مسألة قتله أو لا، وإنما في كيفية قتله، فقد هرب هلفريتز باثنين من كاميرات التصوير الخاصة به «لتصوير» الآثار. وأثناء هذه العملية ألقى جمهور الغوغاء القبض عليه، وهرب مع مرافقه تحت وابل من النار الوحشية، وكان يأخذ لقطات سريعة خلال خروجه من موقع الخطر. ومن المحتمل أنه لم يمكث أكثر من ساعة من نهار في تلك المدينة. ومع ذلك فقد استفاد منها استفادة طيبة، وكانت شجاعته ورباطة جأشه في مواجهة خطر حقيقي فعلاً تستحق بالتأكيد الثناء الحار.

وأرى أن يوضع إكليل الانتصار على جبين هانز هلفريتز لأنه أول أجنبي يدخل مدينة شبوة القديمة. ولفترة وجيزة كنت قد ارتديته أنا شخصياً بكل فخر، ولكن لم يكن أمراً حكيماً إلى أن قابلت في إحدى الليالي، في سيئون رجلاً أخبرني بالحقيقة. وفي ذلك الوقت لم أكن أعلم إلا كتاب هلفريتز المعنون (أرض بلا ظلال) الذي يصف فيه مروره على مسافة من شبوة، دون أن يدرك فيما يبدو بوضوح أنها تستحق الزيارة، وهو في طريقه إلى بيحان واليمن. ولم أعلم مغامرته اللاحقة، وتحديث من أخبرني بها أن يقدم لي دليلاً يؤيد كلامه ذاك. وفعلاً قدم لي نسخة هدية من كتابه بالألمانية (غموض حول شبوة) ولم يكن أمامي مفر إلا الاعتراف بخطئي. وبعد ذلك أخبرني كثيراً عن مقدار فرح مجتمع حضرموت بالتنافس بين المرأة الإنجليزية والشاب الألماني، وكيف أن الأخير قد كسب الرهان بفضل الله عليه وبقليل من العون لا من ذكائه. ويبدو أنه لم يكن حزيناً على النتيجة، وربما كان لديه غرض ما يستفيد بها

فيه . إن هانز هلفريتز ليس بالتأكيد بدون أصدقاء في حضرموت . إن الحقيقة المؤكدة نفسها من إرساله نسخاً من كتبه إلى أصدقائه بالوادي تبرئه من تهمة الحقد والضغينة . وربما وجدوه أقل خطورة من الإنجليزي الذي يتبخر بكبرياء مصطنع ، ويشيعون فيها جواً من اللطف والكياسة مع أنهم مولعون بحب التملك .

كان هذا كلام كثير عن مكتشف شبوة ، والمتحدي الوحيد المحتمل لأسبقيته قد توفي منذ زمن طويل ، ولكن يجب الإشارة إليه بإيجاز ، نظراً لأن دعواه قد أحيها حديثاً السيد آر . إتش . كيرنان في كتابه الجديد : « اكتشاف الجزيرة العربية - Unveil-ing of Arabia » وهو عبارة عن تاريخ لاستكشاف شبه الجزيرة منذ أقدم العصور حتى اليوم الحاضر . ويقول : إن أدولف فون ريد ، وهو عسكري ورحالة من بافاريا ، قد وصل شبوة خلال رحلة قام بها عام ١٨٤٣م . ويكرر أيضاً قصة زيارته للحافة الجنوبية من الربع الخالي ، حيث قام هناك برمي قلة من النحاس وزنها نصف كيلو لأبعد مسافة يستطيعها في الرمال وشاهد كيف أن الرصاص يغرق في الرمال حتى بعد حوالي خمس دقائق إلى « أن اختفى طرف الحبل في قبر ييلع كل شيء » . وكما رأينا بالفعل من قبل ، فإن سيارتين اثنتين محملتين بأحمال ثقيلة قد عبرتا الآن بأمان فوق سطح ذلك « القبر الذي ييلع كل شيء » . وفي العصور الغابرة ، عندما كانت الجزيرة العربية غير معروفة إلا قليلاً لدرجة أنه قد يكون من الحماسة أن لا تصدق الروايات الخرافية التي يحكيها الرحالة العائدون من ذلك البلد ، ربما كان يوجد أناس ذوو مكانة مرموقة مستعدون لتأييد أو غير مستعدين لدحض قصة فون ريد . ولكن وجهة النظر المقبولة بصورة عامة اليوم ، التي تعود إلى تاريخ كتابة الدكتور هوجارث في إيجاز رائع في بداية القرن الحالي ، تقول : إن قصة أدولف فون ريد غير جدية بالتصديق بقدر ما يزعم أنه قد اخترق الطرف الغربي من وادي « دوعن » ؛ ولذلك يجب رفض هذا الادعاء ، وما يشير الدهشة والاستغراب إلى حد ما أن يتم إحيائه وتجديده دونما تقديم أي دليل جديد عليه .

ولا يبقى لي إلا أن أختتم مسح أراضى شبوة بإشارة موجزة لما كان لا يزال في عداد المستقبل عندما ركبت سيارتي وغادرت آثارها في ١٢ أغسطس. وعند وصولي إلى شبام أفادوني أن شاباً إنجليزياً، يعتزم زيارة شبوة، كان مقيماً في استراحة «العجم» بضاحية السجيل. وفي الوقت المناسب قابلت السيد نورمان بيرن الذي كنت أعرفه سابقاً من اجتماع وحيد عقد في لندن العام السابق ومن وصفه، الذي نشر في جريدة التايمز، لرحلة بالإبل في الصحراء قبل بضع سنوات مضت. وكانت سلطات عدن قد زودته بجميع اللوازم الضرورية والتزكيات إلى سلطان شبام والناس المهمين الآخرين. وكانت التجهيزات لرحلته تجري في تقدم نشط في تلك الأيام، على الرغم أنني كنت قد اندهشت قليلاً عندما أخبرني أنه من الناحية العملية لا يعرف أي كلمة باللغة العربية، ولم يتم تزويده بما يكفي من الأموال، وهذه مسألة خطيرة نسبياً في بلد مثل الجزيرة العربية. وقام سلطان شبام بتجهيز عدد قليل من الإبل مع رعاتها البدو -كلهم قالوا: إنهم كانوا جماعة من ستة أو سبعة رجال، بما فيهم بيرن نفسه وخادمه العدني- لتوصيله إلى شبوة والعودة منها نظير ثلاثين ريالاً لكل جمل، نصفها مدفوع مقدماً والباقي يتم دفعه عند الرجوع بسلام بعد عدد محدد من الأيام في شبوة. وكان السلطان واثقاً من أن كل شيء سيسير على خير وجه. ولكن آخرين اعترفوا سرّاً لي أنه لن يصل شبوة أبداً أو أنه لن يسمح له بدخولها إن وصل هناك، وانطلق بيرن وجماعته في الرحلة من شبام. ولقد رأيتهم بالليل في «هينز» عندما عدت إلى شبام لأجل رحلتي إلى المكلا.

وفي الصباح التالي انطلق مسافراً في الصحراء، حيث أخذه مرشده على طول درب «العبر»، وليس لطريق شبوة العادي، لسبب ما بلا تفسير. وقد وصل إلى نقطة وراء قرية «خويران» الصغيرة بقليل. وهناك، وبينما كان يتجول في أرجاء المكان لالتقاط الصور وتحديد الاتجاهات، تركه مرشده، الذين أخذوا معهم أيضاً خادمه

حيث هددوه بالقتل في ذلك الوقت والمكان، إن هو رفض الذهاب معهم. وسرعان ما أدرك بيرن، وهو مهجور بالصحراء ولا يعلم أي موقع لبئر قد يكون موجوداً هناك، وبلا طعام أو ماء ولا يعرف الناس ولا لغتهم، إنه في موقف خطير، وقرر بحكمة أن يمشي عائداً تجاه وادي حضرموت، ولحسن حظه صادفته جماعة من الخطّابين العائدين من الصحراء ورافقوه حتى «هين»^(١) حيث عاد في الوقت المناسب إلى الساحل في «الشحر»، وهناك استمعت لقصة محتته من لسانه نفسه على متن باخرة صغيرة كانت ستقله للعودة إلى عدن. ومنذ ذلك الحين نشر وصفاً لتجاربه هذه في مجلد بعنوان «البحث عن سبأ Quest for Sheba».

هكذا ظلت شبوة تستعصي على اختراقها تحت رعاية عدن، ولكن ذلك لم يدم طويلاً. ففي مايو ١٩٣٧م انطلقت من عدن رحلة جوية مكوّنة من أربع طائرات، يرافقها الكابتن جي. سي. هاملتون ابن اللورد بيلهانف وستتون، والذي كان معي في الرياض تحت اسم الكولونيل آر. إي. آيه. هاملتون^(٢) منذ عشرين سنة مضت، متجهة إلى «بيحان» حيث قضوا الليل هناك. وفي الصباح التالي طاروا إلى شبوة ومكثوا ساعتين بها، وعادوا عن طريق بيحان إلى عدن. وفي وقت كتابتي لهذه السطور لم تكن أي تفاصيل عن تجارب هذه البعثة قد نشرت بعد. ولكن طبقاً لتقارير صحفية مختصرة عن تلك الزيارة فقد وجد الزائرون العناكب الذئبية وهي نوع من

(١) هين: من قرى حضرموت، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٤، ص ٧٦٠. (المراجعون).

(٢) هو الوكيل السياسي البريطاني في الكويت وكان الكولونيل هاملتون من مرافقي فيلي في أول رحلة رسمية قام بها داخل شبه الجزيرة العربية حينما تم بعثه على رأس بعثة ليقوم بالتقرير عن الأحوال السياسية والعسكرية داخلها ولتقرب وجهات النظر بما يضمن المصالح البريطانية بين أبرز القوى السياسية وتحديدًا الملك عبدالعزيز وابن رشيد والأشراف وقد نشر تقرير بعثة فيلي وترجمه الدكتور عبدالله العثيمين. ونشره في كتاب بعنوان بعثة إلى نجد كما ترجمت رحلة هاملتون إلى اللغة العربية، تحت عنوان، يوميات هاملتون عن رحلته إلى نجد ١٩٣٥-١٩٩٧م، قام بهذه الترجمة عصام ضياء الدين السيد علي. ضمن بحوث الكتاب السنوي الأول، للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، ص ص ٧٥-١٥٢، دار الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠١هـ. (المراجعون).

العناكب الكبيرة وفيرة بصورة مزعجة في بيحان وعثروا على مبان من الحجر الجرانيت في شبوة. هذه المباني الجرانيتية لم أرها بالتأكيد، أما بالنسبة للعناكب فلدينا شهادة بلييني. وعلى كل حال أعتقد أن العناكب الذئبية هذه كانت (Jerrymanders). وأنساءل بعجب كيف تمتع أصدقائي في شبوة بتلك الزيارة التي تمت، كما قالت لنا الصحف، «بناءً على طلب صريح منهم». إنني أتعجب فقط!. ففي الآونة الأخيرة (وبالتحديد في فبراير ١٩٤٨م) كان شيخ شبوة -عندما كان بمكة للحج- قد أعطاني رواية مختلفة نسبياً لهذه القصة، حيث قال: إن رسولا قد وصل على متن بعير من بيحان ومعه خطاب من الشريف المحلي يعلن فيه الزيارة الجوية المحتملة ويضمن براءة الغرض منها. وبعد وصول الرسول بيوم جاءت الطائرات لشبوة، وهبطت في السهل الواقع إلى الغرب من ضريح ابن يوسف. وكان معظم الناس غائبين عن القرية في المراعي، ولكن بعض أولئك الحاضرين أتوا لرؤية الزوار. وكان شريف بيحان يعمل كمتحدث رسمي لهم، وقام الزوار البريطانيون بزيارة حافة حقل الآثار، على الرغم من أنهم لم يروا المعبد الذي رأيته أنا. ومن الواضح أنه لم تقدم لهم أي ضيافة، ولا حتى قهوة. وبعد وقت وجيز طاروا عائدين من حيث أتوا، بينما بدأ أهل شبوة -لتفادي مثل هذه التطفللات في المستقبل- العمل في وضع أكوام من الحجارة في السهل المنبسط حتى يكون هبوط الطائرات أكثر إثارة. والتعليق على ذلك ليس ضرورياً بكل تأكيد، «فأنا أروي القصة التي سمعتها تروى». ومع ذلك ما زال يحدونا أمل في أن تنشر يوماً ما صور شبوة التي أخذت من الجو.

وادي الموت

ثلاثة أيام كاملة من العمل الدؤوب كانت كافية لإنجاز ما نبتغيه في شبوة تماماً بأفضل طريقة ممكنة. وقد رأيت هذا المكان ثانية في طريق عودتي من حضرموت حينما كنا في مجموعة نقص أعداد أفرادها وتغيّر تكوينها. فضل أصحاب الجمال من عشيرة يام استخدام حقهم المنصوص في العقد بعدم التقدم إلى ما بعد شبوة وذلك للإجهد الظاهر على جمالهم؛ ولذلك فإنهم استبدلوا بمجندين محليين وجمال محلية من الكرب وتركنا مجموعتين من نجد خلفنا للاعتناء بأغراضنا ومخازننا والتي وضعت في مبنى منحنا إياه ابن عفيشة - وكانت الأغراض تضم مجموعاتي المتكاملة - وتركنا غذاء أكثر من كافٍ لتغذية تلك المجموعة التي تركناها خلفنا لكل المدة التي سنقضيها والتي قدرت بأسبوعين. وقد استنزف وقودنا بواسطة سيارتي النقل التي أصبحت فجأة كثيرة الاستهلاك. ولم يكن هنالك وقود في شبوة لمقابلة حاجتنا. كما أنه لا توجد صفيحة كيروسين فائضة واحدة، وقد أخطرنا أنه يمكن الحصول على القليل من الكيروسين في واحدة من قرى عرما التي تقع على بعد نصف يوم فوق الوادي، وعليه فقد أرسل رجل من أهل المنطقة ليشتري لنا صفيحتين أو ثلاثاً وقد عملنا على أن تزود سيارتي بالوقود الصافي بينما تبدأ الناقلات بمستودع معاً ثم يخفف تدريجياً بالكيروسين وبالطبع سنجد كل ما نحتاجه من الوقود في مدن حضرموت.

احتفظت شبوة بسمعتها المعروفة بالأحوال الجوية السيئة حتى النهاية وكانت الليلة قاسية مع رياح عاصفة رملية تحصب على معسكرنا ولكن مع ذلك لم تعكر صفاء منامي. ولقد قررنا أن نبدأ رحلتنا في الصباح الباكر ولكن عند الساعة السادسة صباحاً هبت ريح جنوبية متوسطة منذرة بعاصفة قادمة، بعد ذلك بساعة هبت العاصفة علينا مغرقة كل شيء في رمالها. وكان الوضع غير مريح حيث كنا نحشد

خلف السيارات والأمتعة. وكان عبود هو الوحيد الذي استمر في عمله كالمعتاد فلا يمكن أن تعيق العاصفة طبخ الطعام. وثمة لحم لاثنين من الأغنام وكمية ضخمة من الشريد كانت تنقلب في الرجل محدثة صوتاً خفيفاً. وعند وقت الأكل القليل من الرجال لا يقلق كثيراً. وكان علينا أن نتظر حتى تسكن العاصفة والذي لم يحدث حتى اقتراب منتصف النهار. ولم يخف رجالي كراهيتهم لشبوة وكانوا يطلقون عليها بلاد الشياطين، وبالتأكيد فقد وجدنا فيها ظروفاً جوية سيئة ولكن سكانها كانوا عطوفين أو مضيافين. فقد تقبلوا دون اعتراض الإقامة المستمرة المؤقتة لنصف مجموعتنا في داخل منازلهم في مقابل عودة النصف الآخر. ووجودنا معهم كانت له ثماره بالنسبة لهم، فقد خلق سوقاً جاهزة لأشياء مثل اللحم والحليب. وكذلك أوجد بعض فرص العمل. وكنا ندفع لهم بسخاء.

حوالي الساعة التاسعة صباحاً غطت سحب الرمال كل المنطقة. لم أكن أرغب في التحرك حتى أرى العلامات الأرضية، وحتى اللحظة الأخيرة كنت مشغولاً بالعديد من الزوار معظمهم من الشباب والأولاد الذين كانوا يجلسون بعض القطع الأثرية التافهة مقابل قليل من النقود. ولكي أتجنب حمل أكوام من المخلفات القديمة غير المهمة إلى المعسكر كان لابد لي من اختيار الأفضل، في الوقت نفسه لم يكن لشبوة عملة نقدية، فأصغر عملة نقدية معدنية كان هو دولار ماريا تريزا والذي يعرف محلياً -كما في حضرموت- بالقرش وعليه فقد اضطررت لاستعمال العملة المعدنية الصغيرة لسوق نجران الزلط اليمني -مقارنة بالزلوطي البولندي-. وكان الدولار يعادل ثمانين أو مئة وستين نصف زلط. وهذه العملة لم تكن ذات استعمال عملي بالنسبة للمتقبلين لها ولجعلها متوافرة كعرض وغطاء قانوني فقد أنشأت مصرفاً لتبديلها إلى دولار بمعدل ٩٠ للدولار الواحد وقد حقق المصرف ربحاً معقولاً في هذه العملية واسترجعت كل الزلط لي ولرفاقي الذين أنشؤوا مؤسسة منافسة لبيع البن والشاي والسكر للقرويين. وعليه فقد كان الجميع سعداء وقانعين.

في منتصف الصباح جلبت لي امرأة طاسة مليئة إلى النصف بالحليب وبالمقابل منحتها قبضة ممتلئة بالنقود المعدنية مع إبداء بعض اللوم لما أظهرته هي من بخلٍ. فأجابت: «لقد أصابنا الجفاف ولا يوجد حليب في أئداء أغنامي في هذه الأيام». بعدها أعلن وقت تناول الغداء وأسرعنا جميعاً لتناوله قبل أن تهب علينا الرمال مرة أخرى، ويعد الأمر مستغرباً أن يكون في مقدور أي شخص الطبخ في مثل هذه الظروف وعلى الرغم منها فقد كان اللحم والوجة ممتازة. وقد جلب اللحم سالم بن حمد رئيس قبيلة آل مسفر من الكرب. وفي اليوم السابق أخبرني أن هذا الرجل يحملُ عليّ وقد يسبب لنا متاعب لأن الطريق إلى حضرموت يمر عبر منطقته. وفيما يبدو أنه قد مر على خيمتي في الصباح مزجياً التحية المعتادة وبما أنني لم أتعرف عليه فقد رددت له التحية كالمعتاد دون أن أقدم له الدعوة ليمكث معي. وقد تم تصحيح الخطأ بسهولة فقد أرسلت له سعد بن معيلم للقاء خاص وأتى في الحال. وقلت له: «لقد أخبروني أنك غاضب ولكن بالتأكيد دون سبب، خلال كل اليوم يمر الناس عليّ يرددون الدعوة لخلاصي وأنت فعلت ذلك مع الآخرين وأنا لست بنبي لأعلم أن سالم بن حمد هو الذي يحييني. والآن علمت ذلك فمرحباً بك. إذا سرت معنا إلى حضرموت فسيكون هذا شرفاً لنا وسوف تكون راكباً بجاني. وليس فقط إلى حضرموت الآن ولكن إلى نجران ومكة عند عودتنا، ولكن لو حدثتني أنك سالم بن حمد عند مرورك لكان أفضل. لقد بقيت كل هذه الساعات دون أن أحظى بشرف معرفتك، وعليه فقد عقد الصلح بيننا والأغنام التي أكلناها الآن كانت هي هبة السلام». وركب سالم بن حمد معنا حتى حدود منطقته وهو رجل ذو جاذبية، رقيق نتيجة لحياة الصحراء القاسية ومتوسط العمر وناضج، ذو شعر رمادي اللون خفيف وعيون براقّة وقوية، وخفيف اللحية ورزين الملامح.

كانت الساعة الثانية ظهراً عندما تلاشت العاصفة وعادت علامات المنطقة الأرضية للظهور فبدأنا رحلتنا. وطريق حضرموت عبر كل طوله يجري ويضيق

بالترديد إلى ممر رملي أو سهل من الحصى يفصل البحر الرملي، رملة السبعين في جانب وصف الأراضي الرئيسة لمنحدر حوق الصخري في الجانب الآخر: وفي البداية كان علينا أن نتعامل مع قناة المحباض القاسية حيث تميل حول النهاية الشرقية لجزيرة شبوة لتتلاقى المعشار. والفرعان الصغيران لوادي المعشار هما شعيب البدعة وسليل معني يجريان إلى أسفل من المنحدر الصخري لتقاطع طريقنا على بعد قليل، وبعدها انحرفنا عن طريقنا الداخلي في سهل شاسع من الرمال القوية أو الحصى الخفيف.

بعد عشرة أميال خارج شبوة وصلنا إلى مناجم ملح مقاة وهي مقاة في البقعة الرملية المنخفضة والتي تشكلت من الشق المرتفع والشق المنخفض لمجموعة صغيرة من التلال في زاوية التقاء «شعيب البيرة» و«وادي مقاة» وكلاهما ينحدر من الصخور التي على يميننا - مع ذيل وادي المعشار وعندها يخرج الأخير من خلف النسر الشرقي، وعلى طول جانب مرتفع القويذ-ذي الفجا- والتي في النهاية تُمتص في حوض رملي ضحل يسمى الخشعة.

وقفنا لفترة عند حُفر الملح في الحوض المحيط بالتل. وقد غادرت مجموعة راكبي الجمال شبوة في الوقت نفسه معنا حيث اتفقنا على أن نعسكر عند الأرض الرئيسة في خشم رميد لقضاء الليل بها وعليه سوف يتوفر لنا بعض الوقت الكافي لفحص المناجم، كما هو الحال في تلال شبوة. وتتكون المرتفعات والمنخفضات من طبقات مشوهة للغاية ومطوية بحددة وكأنها قد قذفت إلى أعلى وإلى الخارج بواسطة قوة عظيمة من أسفل. وتجدر الإشارة إلى أن المرتفع الرئيس والذي يبلغ طوله ٥٠٠ ياردة يجري عبر الحافة الجنوبية لحوض الملح في أربعة خطوط متوازية تقف طبقاتها بشكل عمودي تقريباً. وهنا على النقيض من شبوة، أعمال الملح لا تكون في داخل أو تحت الصخور الواقفة إلى أعلى ولكن تحت سطح الحوض أو المنخفض المحيط بها. وهي عبارة عن عدد كبير من الحفر ومعظمها تقريباً مدفونة في الرمال، أكبرها حفرة كبيرة في الأرض حوالي ثلاثين قدماً في العمق وألف خطوة في مساحتها السطحية

والتي تعطي ناتجاً يعادل ١٩٠.٠٠٠ قدم مكعب من صخور ملحية والتي حفرت في خلال ألفين أو ثلاثة آلاف عام. وهذا التقدير يجب أن يضاعف للوصول إلى الإنتاج الكلي للمنجم في مجمله، وذلك لأن معظم الحفر مغطاة بالرمال لأعماق كبيرة مما يجعل قياسها صعباً للغاية. ونتيجة للغياب الكلي للماء في هذا الجوار فإن ملح منطقة «ملح مقاة» فقط يعمل فيه البدويون (آل مسفر) الذين يملكونه عندما يكون المرعى المحلي جيداً مما يسمح بالمعسكر في وادي مقاة والمناطق القريبة منه. وعليه فزمن العمل محدود ولكن في معظم السنوات تغذى هذه الأودية بواسطة السيول وتوفر غذاء للجمال والأغنام لفترات مختلفة.

كان الجو حاراً في الأحواض وكان العرق يتصبب منا عندما كنا جالسين أو متجولين حول الحفر تحت لسعات شمس النهار التي لا ترحم. والسير فوق سهول كبيرة من الرمال الناعمة المتموجة قليلاً، كان جيداً عندما استأنفنا سيرنا للوصول إلى أسفل الأرض الرأسية (غير المحروثة) حتى رميد بعد مسيرة خمسة أميال. وفي هذه النقطة تغير اتجاهه فجأة إلى الشرق. ملأت أمواج متلاطمة من الرمال الدائرية ومعها كمية من الأعشاب (المرخ - أكاسيا والسرح) وحشيش خشن الممر بين الأرض الرأسية والخط الطويل ذي الاتجاه الشرقي من رمال السبعين، والذي تبرز منه في فترات السنة عريضة من كثبان الرمال الثقيلة متجهة جنوباً نحو الخلجان على امتداد الخط الصخري المنحدر العظيم. وأول هذه الخلجان الذي يقع بين رميد والأرض الرأسية التالية من التهيفات - كتلة رائعة من الصخور الجيرية الخلابة، واثنان من خطوط التصريف (قناة الحسوة إلى الشرق وداجل إلى الغرب) اتحدت لتكوّن القناة الرملية العريضة، قناة واديان والتي تجري في أمواج الرمال التي ذكرت من قبل. وعلى ضفتيها تصطف أعداد من أشجار السنط الرائعة والتي اخترناها كموقع مناسب لمعسكرنا.

وبعد قليل من إقامة المعسكر هبت عاصفة رملية شديدة من الجنوب. ثم بعد قليل أصبحت تهب من الشمال بحدة غير متناقصة ومرة أخرى عادت تهب علينا من

الجنوب. وفي هذا الوقت أرخى الظلام سدوله وأشعلت مصباحي ولكن الهجمة الأخيرة للعاصفة أطفأته ولجأت أنا إلى النوم حتى تصبح الأحوال مناسبة لنشاطي الليلي المعتاد. أيقظني من النوم عند الساعة الحادية عشر ليلاً الإعلان لتناول طعام العشاء وفي هذه الأثناء تناثرت قطرات قليلة من الأمطار وكانت السحب الثقيلة تغطي السماء؛ لذا نمت مرة أخرى تاركاً تعليمات لإيقاظي عندما تظهر النجوم. وعليه فقد قمت بإجراء ملاحظاتي قبل أن يخفى الفجر النجوم. وقد كانت ليلة مدهشة ولم يكن هناك شيء رائع أو مثير في هذه العواصف الرملية التي تحدث باستمرار في شبوة. وهي فقط عبارة عن سحب من الرمال تتجول من هنا إلى هناك كأنها لا تدري ما تود أن تفعله. وهي في اعتقادي تشابه العرب المحليين لا مرسى لهم ولا فطنة، يتجولون ويتساءلون متى يرضى عنهم الله ليحوّل فقرهم إلى غنى. ولقد لفت نظري سالم بن حمد؛ وذلك لأن له هدفاً في حياته أكثر من رفاقه. وحتى في تلك اللحظة كان مشغولاً بمشروع لاستخراج الماء من واد ليس به آبار. وكان يتحدث بتعقل عن مستقبله ومستقبل قومه ويتحدث بغيرة عن حياة جيرانه من الجهة الشمالية الآمنة. وملامحه من النوع النجدي وملابسه كذلك.

في الصباح ذهبنا سوياً لتسلق قمة الأرض الرأسية في رُميد وكان مقدمتها وجانباها شديدي الانحدار مما يجعل المهمة صعبة. وكان علينا أن نسير إلى مسافة على طول قاعدتها قبل أن نجد منحدرًا به سهولة معقولة من الأحجار الجيرية الخشنة القاسية جداً، حيث زحفنا بحذر إلى قمة الأرض الرأسية العريضة المسطحة، وهناك تمكنت من رؤية منظر كامل للمنطقة المحيطة. قريباً من شبوة نفسها في الجنوب وحتى الساحل الضبابي في خشم عساكر من ناحية الشرق، بينما في اتجاه الشمال يقع حاجز رملة السبعين وخلفه كما قال يمكن أن تظهر تلال العُبر في ظروف جوية أفضل. وهبت رياح عاصفة عندما كنا جالسين هناك حوالي ٤٠٠ قدم فوق معسكرنا. وكانت السماء

ملبدة بالسحب الكثيفة والجو مفعم ببرودة محببة ولكن كان كل ما حولنا ضبابياً قائماً وقد وجدت عدداً من أحافير عصر الأيوسين في القمة وفي المنحدرات والمرتفعات معاً عندما كنا ننزل إلى أسفل مرة ثانية. وغادرت مجموعة راكبي الجمال منذ مدة طويلة قبل وصولنا إلى رفاقنا في المعسكر. جلسنا لنحتسي أكواباً من الشاي وبدأت تهب نصف رياح عاصفة ومرة أخرى انفجرت عاصفة الرمال علينا ولكن لبرهة قليلة.

واجهتنا مشاكل بسيطة من سيارات النقل عند البدء مع وقودها المخلوط ولكن عند الساعة التاسعة صباحاً تمكنا من المغادرة وكنا نشاهد المنظر الريب للمنحدرات الصخرية والأراضي الرأسية ممتدة بلا نهاية على طول الجانب الأيمن من خط سيرنا. وبعد اثني عشر ميلاً من السير السهل وصلنا إلى وادي شعيب النقعة وهو قناة واسعة تنحدر من خليج عميق بالقرب من أرض رأسية ضخمة تسمى قفص وتغطيها كمية وفيرة من الأشجار الخفيفة. وكان الممر في هذا الوادي خشناً للغاية ووعراً وذلك لوجود الأكوام والهضاب الصغيرة من الطمي التي تعتمد عليها أعشاب الحرمل والصفار. وقد أغرى المرعى النضير مجموعة راكبي الجمال لقطع رحلتهم على الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً. وبعد أن أوضحت لهم رأيي في تقدمهم البطيء واصلت السير في طريقي تاركاً لهم أن يتبعونا. وكان مجرى القناة في المنطقة التي عبرنا فيه يبلغ عرضه أكثر من ميل، وخلفه يقع سهل شاسع من الحبيبات الخشنة القوية والرمل الخفيف والتي فوقها قدنا سيارتنا عدة أميال في اتجاه الشرق. وأشار سالم إلى واد صغير (مُصيرم) ناحية الجنوب من رقعة الأعشاب والتي حضرت تبعاً لنصح سيد من حضرموت له سمعة محلية في القدرة على معرفة أماكن الآبار، وقد عمل في حفريات البئر آفة الذكر. وقد ذكر أن اسمها "بئر القرظي" وذلك توقعاً للنجاح الذي لم تقطف ثماره بعد. ولم أستطع أن أزور الموقع في طريق عودتي كما كنت أتمنى ولكن بالتأكيد إنها لا تبدو لي موقعاً مناسباً للبحث عن الماء.

وبعد قليل وصلنا خلف السهل إلى بئر عساكر في واد واسع مليء بالأعشاب يسمى سليل شيريم أو سليل البئر، يجري على طول منحدر صخري لخشم عساكر لينتهي عند حافة الرمال. وعند البئر وجدنا القليل من الرجال والنساء يقومون بسقي أغنامهم وجمالهم وجميعهم من قسم الماردة من قبيلة نهد، وعليه فهم من أقارب ناصر بن شماخ الذي استطاع الآن أن يحصل على أخبار مؤكدة عن موقع عائلته. والرجال ذوو وسامة وسداجة وكانوا عراة حتى الخصر ويلبسون ما يستر العورة حتى الركبة وهذا اللباس مزين بخنجر مثبت على الخصر بواسطة لفة من القماش^(١) غير محكمة. واحدة من النساء ذات مقام رفيع عمرها بين عشرين إلى خمس وعشرين سنة غلكت جمالاً ملحوظاً كتمثال فينوس مزينة بقميص أزرق مثبت بالخصر بواسطة حزام من مادة مطرزة أو مزخرفة رخيصة ومفتوح من الجانبين، كاشفة عن خطوط بارزة لجذع جميل عندما تعمل هي على الجبال. وكل النساء يلبسن الملابس نفسها، بينما الفتيات الصغار كن عاريات حتى الخصر ويلبسن فقط مريلة من السيور الجلدية مزينة بأصداف الودع المعلقة فيها وذلك لتغطينهن من الأمام والخلف، وحول العنق يوجد عقد من الخرز. والأولاد الصغار بالمقابل عراة كلياً من الخصر إلى أسفل، ولكنهم يلبسون خرقة ورقعاً فوق أجسامهم. واكتمل المشهد الإنساني بحضور اثنين من الأطفال مغطينين بظلة من الأغصان المقطوعة ويجلسان فوق مسهد من الجلد. والمرأة الجميلة الصغيرة وبنت أخرى صغيرة الحجم تلبس مريلة من السيور. ولقد تحققت أنهما أكبر وأصغر شخصين من عائلة تتكون من سبعة أفراد تتبع لرئيس المجموعة واستقبلنا أفرادها بضيافة وقدموا لنا الحليب ودعونا إلى مخيمهم في أعلى الوادي لتناول وجبة مكتملة عندما ينتهي عملهم اليومي في السقي.

سميت بئر عساكر بهذا الاسم كما قال سالم، لأنها حفرت في موقع عمود يرجع تاريخه إلى العصور القديمة، بواسطة جنود تابعين للإمام فيصل بن سعود^(٢) في

(١) يسمى الإزار وهو لباس يشتهر في جميع سواحل جزيرة العرب على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي. (المراجعون).

(٢) أي الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

الوقت نفسه الذي خطط فيه طريق العبر للحجاج. وعمق البئر ليس أقل من خمس وثلاثين قامة. وقد وجدت عند قياسي للحبل أن طوله أربع وثلاثون مرة مثل طول امتداد يدي الاثنين ولنقل 34×75 ، ٥ أو ١٩٨ قدماً. ويبدو لي أنه من المستغرب أن يستعمل هؤلاء الناس آباراً بهذا العمق الهائل ومع ذلك لم يستخدموا نظام السحب بواسطة الجمال التي تستعمل عادة في نجد وفي الآبار العميقة في الربع الخالي. والحقيقة أن كل العمل تقوم به النساء وهن ينشدن «ياهب وهب وهب وهي هي أوب» ويتواصل الإنشاد حتى يرتفع الدلو إلى أعلى البئر من العمق في الأسفل حتى يمسك به ويصب الماء في الأحواض المصنوعة من الجلد الموضوعة بين الحيوانات. هذا عمل عظيم بالتأكيد ولكنهم لا يعيرونه اهتماماً. وكل ذلك جزء من الواجب اليومي الذي يفرضه الله الذي يراقب رعيته وعباده. ويبلغ قطر البئر في الأعلى ١٢٠ قدماً تقريباً، أما فوهة البئر فقد رصفت بحجارة غير مشدبة متوسطة الحجم من أعلى حتى القاع خلال رمال الوادي.

هناك طريق الجمال العادي من حضرموت إلى قرى عرما الذي يجري إلى أعلى هذه القناة ومن ثم إلى داخل خليج مسطن بمنحدر صخري شديد، ومنه يرتفع إلى شريط رفيع من السهل الواسع ثم ينزل إلى وادي عرما في الخلف. وخشم عساكر نفسه عبارة عن كتف جبل يرتفع ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق البئر في حافة صخرية طويلة مفلطحة القمة وخلفه صفوف غير واضحة من الأراضي الرأسية المتشابهة تذوب في البعد في أراضي «الرملة». وكان الجو حاراً والهدوء مخيماً عندما توقفنا وقد مددنا فترة التوقف هذه حتى الساعة الرابعة والنصف ظهراً وذلك لأن مجموعة راكبي الجمال ما زالت خلفنا بمسافة طويلة. وقد ظهر خط من الظلام في السهول الصفراء ويبدو أن هنالك عاصفة تخبئ في مكان ما على البعد في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي، جاهزة لتهب علينا أثناء تقدمنا.

مررنا من الوادي إلى طريق من الحصى الخشنة انطرح من منحدرات البقايا التي تكسو الجزء الأسفل لحواف جبل عساكر كالمريلة. وهنا طريق الجمال الملتوي مسجل بعلامات عميقة على سطح السهل. وعلى جانب الطريق يقف ركام ضخمة من الحجارة يمثل المساهمة الدينية للمسافرين عبر هذا الطريق لأضرحة بعض الأسياد المتوفين الذين لا تعرف الأجيال الجديدة أسماءهم الآن. والطريق في هذه المنطقة يجري في مسافة غير بعيدة جداً من خط المنحدر الصخري حيث يتقاطع في فواصل بواسطة أربعة خطوط عشية للتصريف تجري إلى أسفل في اتجاه ذيل وادي عساكر. وعلى اليسار توجد كتل متلاطمة من الرمال تصل إلى حافة سهل الحصى، تحد عرض طريق المرور الذي كانت له سمعة سيئة في بعض الأوقات كملجأ للصوفى قاطعي الطريق. وما لا يدع مجالاً للشك أنه للحفاظ عليه كطريق مفتوح لاستعمال المسافرين الشرعيين، شيدت القلعة الصغيرة أو نقطة مراقبة قرن البنا في العصور القديمة، كما أعيد بناؤها ثانية في فترات مختلفة لحكومات قادرة على فرض احترام سلطاتها.

في هذا المكان، بعد الاستمرار في قيادة السيارة لعشرة أميال من بئر عساكر، نصبنا مخيمنا لقضاء الليل ولنتنظر بصبر حتى تصل جمالنا وكذلك طعام العشاء. وبما أن الوقت كان على مقربة من وقت مغيب الشمس عند وصولنا، تركت الهضبة الصغيرة وآثار الخراب التي أخذت اسمها منها وذلك لإجراء الفحص عند الصباح. وعند قاعدتها تقع بئر مهجورة مشيدة بمهارة عالية بواسطة كتل حجرية مشدبة وقطرها عند فوهة الأسطوانة حوالي عشرة أقدام. ولم يستطع سالم أن يخبرني عن الوقت الذي كانت تحتوي فيه البئر على ماء ولكنه افترض أن العمود والبئر معه قد أجري لهما صيانة واحتلت بواسطة جنود فيصل. وكذلك لم يستطع أن يخبرني عن عمق الأسطوانة حتى سطح الماء. وفي الوقت الحالي فهي مغطاة بالرمال من حوالي خمس وعشرين قدماً أسفل القمة. أما الهضبة نفسها فلم يكن ارتفاعها أكثر من ثلاثين قدماً وتتكون من حجارة رملية ضخمة في القاعدة مغطاة بواسطة ألواح ضخمة وصخور كبيرة الأحجام

من الحجر الجيري وهي جسم خارجي معزول من المنحدر الصخري الرئيس والذي خفض إلى خطه الحالي على بعد ميل بواسطة التغيرات الجوية منذ آلاف السنين. وعلى القمة توجد بقايا الخراب المتداعية لمبنى صغير غير مثير للاهتمام ما عدا وجود جدران مغطاة بالأسمنت والتي قد تكون عبارة عن صهريج على جانبه. وهو خالٍ كلياً من النقوش وقد لا يكون أي شيء أكثر من عمود للطريق. وحول قاعدة الهضبة بين مداميك الحجارة الرملية الناعمة الوجه والمتهاوية على المنحدر وجدت عدداً من النقوش الحميرية للعرب الأوائل، فضلاً عن رسومات ومخريشات عديدة تشمل تمثيلاً جيداً لراية الاتحاد البريطانية.

ونقطة الحراسة هذه استعملت من أجل حماية الطريق، إذ تتحكم في الدلتا الشاسعة لوادي دُهر والتي ترتفع إلى الخلف بعيداً في عمق السهل الواسع بالقرب من رأس وادي عربة في اتجاه جنوبي غربي من هنا، منحدره إلى السهل، لتجري بين الخطوط المتباعدة لسلسلة ثنائية من منحدرات صخرية رائعة وأراض راسية عند قدم الكتف (دعامة) المهيب يدعى خشم عندل والذي يمتد في الدلتا عن طريق ثلاثة خطوط تصريف سهلة التمييز مغطاة بكثافة عشبية وشجيرية أكثرها نحو الغرب، ويأتي شعيب فريحة نحو قرن البنا ويحيط به عند مروره إلى نهايته الرملية. وفي القناة الوسطى مستوطنة صغيرة تسمى محميد - تتكون من حصن منفرد من طابقين واثنين أو ثلاثة أكواخ طينية منخفضة - في قاعها، وتتلأشى إلى سهل رملي في اتجاه الشرق. والفرع الثالث سيله الذي يجري بالقرب من المنحدرات الصخرية على طول ضفته اليمنى والذي يمكن اعتباره المجرى المؤثر لوادي دُهر. إنه يمر على الأرض الرأسية لخشم مجوعة، وعند أسفله في القناة توجد بئر تحمل الاسم نفسه، ليلقي الوادي الهام، وادي رحية في بئر حمد، ثم تستمر القناة المشتركة حتى وادي حضرموت. وعليه فإن دُهر في الوقت الحالي هو الفرع المؤثر لوادي حضرموت في جهة الجنوب

من الرملة. وكل القنوات التي تقع على جهة الغرب منه تختفي في الرمال قبل أن تصل إلى هدفها المنشود. أما مستوطنة محميد فهي تتبع لسالم بن علي بن مقصف رئيس عشيرة القمازين من قبيلة نهد. وقرن البنا تعد عموماً الحد الفاصل بين قبائل الكرب ونهد، والأخيرة (نهد) تحتل فقط الدلتا في دهر ورخية، بينما سهل الحوق يتبع لمجموعة آل بلعبيد التي لها صلة قريى مع الكرب في اتجاه الشرق حتى المراكز الرئيسة العليا لرخية وهي مع المنطقة المحيطة بها تتبع لوحدة قبلية غير مرتبطة ومستقلة تدعى سهابيل. وتزعم نهد أنها من أصل قحطان وتكون مع الماردة والقمازين أقسام تدعى آل يزيد (السويدة وبني زوع)، آل ثابت والحكماء (السكران وآل عجاج) إضافة إلى ذلك فإن القائمة الكاملة للأقسام والفروع الصغيرة لنهد تشمل: بذياب، آل يمانى، حديجان، آل بدر، حثيرش، مقيزع، آل منيف، السرمان، آل حويل، عطير، عرفان، آل شبيب، آل عبري، المقاريم آل خرشان^(١).

حتى الآن ونسبة للضباب المحيط بنا فلننا لم نر أي شيء من البلاد الواقعة شمال الرمال، والتي تكون عند الظروف الجوية الممتازة واضحة بسهولة حتى جبال العبر. وهنا من قمة قرن البنا استطعنا أن نرى المشهد الأول من هذا الجانب للأرض الرأسية لطرف العين والتي لوحظت من قبل من قمة أبو مخاري. هذه هي البقعة الأولى التي يبدأ فيها الحزام الضيق لرملة السبعين والأودية التي على جانبيه لتصبح محاطة من الجانبين بالمنحدر الصخري حيث تكون ما يشبه القمع الذي يربط القناة الميئة الثلاثية لسبأ القديمة، مع الوادي الحي «حضور الموت». ومن خلف «طريق العين» في اتجاه الشرق، كان يمكننا أن نشاهد بغير وضوح دعامات وادي سر البعيدة، وهي دهر على الجانب الجنوبي، تمثل الرافد الأول العامل لوادي حضرموت من

(١) هناك فروع أخرى من هذه القبيلة لم يوردها المؤلف، وللمزيد عن هذه القبيلة انظر: الشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي، ص ١٧١، ١٨٠، ٣٦٣-٣٦٤.

الجانِب الشمالي للرملة، والذي تقع حافته الجنوبية إلى الخلف على بعد ثلاثة أميال من موقعنا الحالي.

تركنا سالم بن حمد عند قرن البنا قبل أن نستمر في رحلتنا، وبدأت الجمال من قبل عند الساعة ٥:٣٠ صباحاً حتى تستطيع استعادة الزمن الذي فقدته أمس. وبقي سالم في ذاكرتي في هذه الرحلة الطويلة كواحد من أكثر الأفراد الذين التقيت بهم منطقاً وجاذبية ولم يبد في أي وقت أي علامة لحب المال والريح الذي دائماً ما يحجب الصفاء الداخلي لرجل الصحراء. وقد تقبّل هديتي البسيطة دون أي كلام. وودعني بدعواته بعد أن تحدّثنا كثيراً عندما كنا نجلس على قمة التل الصغير وجدياً عن سياستهم في الصحراء وآمالهم ومخاوفهم. ثم غادرنا إلى القصر الذي أتينا منه تحت قيادته وأخذ معه من مخزوننا قليلاً من البن وقليلاً من الخبز كزاد للطريق. وسوف يلتقي ببعض أهل منطقته عند طيات منحدر عساكر أو في الوادي ومن بينهم زوجته.

كانت الليلة كثيفة وهبت فيها رياح نصف عاصفة في معظم الوقت. وكلما تهب الريح تحمل أيضاً سحباً من الرمال، عندما كنا مجتمعين، سالم وكاتب هذه السطور والقليل من الآخرين، أمام المذيع حتى يتوفر لي الزمن لتسجيل ملاحظاتي ولكي نستمع إلى الصوت الذهبي للقدس يعلن الأخبار اليومية وكنت دائماً أتعجب كيف يكون شكل تلك المذيعة التي يصلنا صوتها كل ليلة هناك في تلك المنطقة الموحشة، بهدوء ووضوح. بالنسبة للعرب الذين لا يفهمون معنى كلماتها هو مجرد صوت امرأة تتحدث في تلك العاصفة، ولكن قد يثير انتباههم بغير حماس في الحالة الخاصة عندما يعلن المذيع العربي توقيع الاتفاقية بين مصر وبريطانيا. وذلك أمر يمكن أن يفهموه في خضم الأشياء الأخرى غير المفهومة على الرغم من أنها ذكرت باللغة العربية. وعند منتصف الليل زاد عنف العاصفة ولكن الفجر كان هادئاً وساكناً وبريثاً.

بينما اختفى سالم بعيداً، اتجهنا بسيارتنا إلى جهة الشرق وشرنا في طريقنا عبر الشواطئ العديدة لوادي دهر والأشرطة المتداخلة من الحصى بين قناتي مدينب والسيلة. وكانت القيادة سهلة جداً عبر سهل رملي عريض بينما الأشرطة العديدة من المناطق المغطاة بالشجيرات والخطوط المنخفضة من الرمال المكونة لوادي السيلة لم تشكل أي عائق. وبعد ذلك بميلين أو ثلاثة أميال وصلنا إلى بئر مجموعة وهي بئر عميقة عند أو بالقرب من قاعدة أرض رأسية شامخة تحمل الاسم نفسه. وهذه البئر يبلغ عمقها خمس وثلاثون قامة، مبطنة بحجارة إلى ست قامات من رمال الوادي، وبهذا تقطع عبر صخرة الحجر الرملي التحتية، وهناك عدد من الرجال والنساء متبلدي الإحساس وغير مضيافين كانوا يسقون جمالهم وأغنامهم، أخبرونا أن بئرهم على وشك أن تجف، وهذا ما يبدو فعلاً. ولم يشهد وادي دهر أي سيول هذا الموسم على الرغم من أننا وجدنا أن مجرى وادي رحية الذي يبعد خمسة أميال مبتل من هطول أمطار غزيرة في الأسبوع الماضي.

تقف الأعمدة الثنائية المربعة الرؤوس في قوايم السر أو الثكمين كحارس لدخل وادي سر خلف حزام الرمل، الذي ظهر لنا للمرة الأخيرة من على البعد من ناحية الشمال الشرقي. وفي الحال وصلنا إلى حافة الدلتا الواسعة بوادي رحية والتي عندها يمتد إلى الخارج على شكل مروحي من واديه العريض المحاط بالمنحدر الصخري ليلتحم مع دهر عند حافة الرمال. وفي وسط هذه الدلتا على بعد ميلين وصلنا إلى الحصن الصغير وبئر عامر حيث قررنا أن نعسكر حول البئر التي يوجد بالقرب منها مجموعة من الأكواخ الصغيرة مصنوعة من قضبان مضفرة بالقصب والقش. وعلى بعد أميال قليلة في أعلى الوادي وأسفل أرض رأسية على ضفتها اليمنى تقع مجموعة أخرى من الحصون الصغيرة حول بئر تسمى الحسوة تتبع آل خرشان وهي من الأقسام الصغيرة لنهد، وقد أخبرت أيضاً بمستوطنات أخرى أعلى النهر. ونحن الآن بالتأكيد على أعتاب منطقة بها مياه جيدة وبها مجموعة سكانية معتبرة من نهد والذين يعد

ميلهم نحو عدم احترام القانون العائق الوحيد لتطوير منطقتهم الخصبة على الرغم من أنها رملية. وبالقرب من معسكرنا يوجد حوض كبير محاط بفواصل رملية لتحتجز مياه السيول. وفي إحدى زواياه كوَّنت الأمطار التي هطلت حديثاً بركة كبيرة بينما تغطي مجموعات من أشجار "العلوب" المخضرة مساحة كبيرة. ومياه بئر عامر عمقها ست وعشرون قامة عن صخرة الأحجار الرملية والجزء الأعلى من الأسطوانة مضمفور بالحجارة كما هو الحال في مجوعة.

كانت مجموعة الجمال قد استقرت للراحة منتصف النهار بين أشجار العناب (العلوب) ولكنهم انضموا إلينا في البئر والتي أردت أن أقيم المعسكر فيها لإجراء ملاحظاتي. وهناك بعض الزوار من نهد أتوا مباشرة بعد استقرارنا، وسمعتهم يحيون رفاقي عند وصولهم ويقولون: «أيها الربع، هل هذا نصراني» وفي هذه المناطق تستعمل هذه الكلمة لتعني عادة شيئاً أكثر من أجنبي بقليل، وإنهم سمعوا كما أوضحوا الآن أن هنالك نصرانياً يسافر في المنطقة؛ لذا فقد أسرع رفقاائي لتصحيح الخطأ لهم وقد ترددوا في قبول التوضيح. وعلى كلٍ فقد جلسوا معنا ليستمتعوا بضيافتنا عند تناول وجبة العشاء. وقد لاحظت أنهم حصروا اهتمامهم على اللحم، متجاهلين عجينة الخبز والتي أصبحت منذ زمن بديلنا للأرز.

هنا، مرة أخرى هبت علينا عاصفة رملية بعد وصولنا وأتت علينا من الشمال ومؤقتاً أخفت كل العلامات الأرضية في هذا الاتجاه، وبعد توقف العاصفة في منتصف النهار تجولت بين أشجار العناب والتي أوت مستعمرة كبيرة من العصفير الصغيرة، لا توجد طيور أخرى عملياً لكنني رأيت طائر الذعرة وطائراً صغيراً ذا ذيل طويل يهتز بالقرب من الماء. وقد كان الجو حاراً وثقيلاً أثناء النهار وساكناً جداً مع سحب العاصفة المتجمعة حولنا في تلك الليلة وللمرة الأولى جذب الفانوس مجموعات من الحشرات ومعظمها كان من الجنادب. وجدت في رمل القناة كتلاً من أصداف صغيرة ملتوية وفي صباح اليوم التالي (١٥ أغسطس) لم يكن هناك ما يشير

إلى هبوب عاصفة ولكن ظهر على الأرض ضباب خفيف أخفى العلامات الأرضية البعيدة. وكالعادة تقدمت مجموعة الجمال وسبقتنا في الرحيل وبدأنا نحن الرحيل حوالي الساعة ٨ صباحاً وبعد التحرك مسافة ثلاثة أميال وصلنا إلى بئر عمقها ثمانى عشرة قامة وهي بئر حديجان التي يوجد بها الحصن، كالمعتاد بجانبها، و تتبع الحكمان من نهد. وكانت هناك مبان شبيهة تحمي البئر تحت الأرض الرأسية عاصم وحزيم التي ليست بعيدة. وإلى يمينها توجد الحواف الصخرية "بودو Budu" التي تُكوّن الضفة اليمنى للدلتا رخية عندما تظهر في السهل. أما بئر عاصم التي وصلنا إليها بعد ذلك تقع في وسط واد رملي شاسع مع وجود بعض أشجار السدر وشجيرات خفيضة الارتفاع أخرى وهذه البئر غير عميقة وذلك نسبة لامتلاء الأسطوانة العميقة بالرمل، ولكن عموماً تماثل بئر عامر في بطانة الحجارة. وخلف هذه النقطة تعرّج طريقنا والتف كثيراً ليتجنب الألسنة الطويلة للرمال والتي كأنها قذفت إلى الخارج بواسطة أحزمة الرمل في اتجاه المنحدر الصخري. وتظهر الآن مستوطنات نهد على مسافات متكررة وتلك التي تتبع لحزيم المذكورة من قبل، وهي عبارة عن قرية صغيرة مكونة من نصف دسنة من المساكن الشبيهة بالحصن، ثم الحصن المنفرد دويد ثم قرية مالك الصغيرة تحت أرضها الرأسية المهيبة يتبعها حصون شريح في موقع مشابه. ويوجد عند مالك بستان نخيل صغير دون علامات لوجود تمر وخلفها يصبح الطريق وعراً على هيئة شريط من الأرض الحجرية يفصل قاعدة المنحدر الصخري من قنوات السيل الرملية التي تنحني دائرياً من تجويفها إلى الوادي الرئيس. والآن بدأنا نرى الأرض الرأسية قمران وكثر التي تكون بوابات حضرموت وتقدمنا عبر غطاء كثيف من أشجار السدر المنتشرة في الوادي بعيداً عن قاعدة المنحدرات الصخرية.

وبينما كنا نمر على مستوطنة شريح أتى بعض سكانها (من آل ثابت) إلى الطريق ليعبروا عن احتجاج خفيف، ولقد أوضحت لهم مجموعتنا من الجمال الوضع من قبل، والاحتجاج كان بسبب مروونا عبر منطقهم لزيارة معسكر أعدائهم

(الحكمان). وحقاً، كان يجب أن نتقبل ضيافتهم، وإن رئيسهم كان موجوداً في مكان ليس بعيد في أحد الأودية الصغيرة في طيات الجرف. واعتذرنا لهم ووعدناهم بزيارتهم في طريق عودتنا ومن ثم تركونا نمر دون إصرار ولكن هذه الحادثة أكدت لنا الحالة غير المستقرة في هذه المنطقة التي نمر بها. بعد ثلاثة أميال من شريج ولمسافة بسيطة في اتجاه اليسار من طريقنا يقع نخيل وقرية حصن مبارك، مع الحوض الرملي الشاسع الخشعة، الذي يمتد شرقاً في جبهة واسعة لمسافة ثمانية أميال. وهذه المنطقة بها العديد من الحصون والقرى الصغيرة، وقد ذكر أنها تحوي ما لا يقل عن ثلاثين بئراً. ولكن هذه المنطقة ذات الإمكانات الهائلة لإنتاج الجيوب تظل مهمة وغير مستقلة وبقيت كذلك لسنوات عديدة وذلك يرجع إلى الفوضى التي تتمتع بها قبيلة نهد التي لا تدين بولاء إلا إلى السلطان القعيطي، فكل قسم يتبع لرئيسه أو زعيمه. وزعماء الحكمان وأهل ثابت في حروب مستمرة مع بعضهم. ومستوطنات الخشعة الأخيرة التي تقع على الطريق هي حصن دويد وقرية رهطان المكوّنة من رقعة من النخيل وثلاثة حصون في وادٍ عريض يخرج من الجرف المجاور.

ابتداء من هذه النقطة فنحن في منطقة آل عجاج ومن ثم تحت حماية زعيم الحكمان وطريقنا يقع على سهل من حبيبات رملية خشنة، والخط الواضح المؤدي لرملة يقع على بعد ميل على يسارنا، والمنحدرات الصخرية للجرف تقع على طول جانبنا الأيمن. ومن الأخيرة أصبح طريقنا قناة ذات خواص ملحية، ما زالت مبتلة من الأمطار الأخيرة، حتى وصلنا إلى أول الآبار في جانب الطريق (الساقية) والتي تميز وادي حضرموت، وقد أنشئت من أجل فائدة المسافرين العطشى نتيجة لفضل تقويم الحضارم. وفم البئر محاط بواسطة جدار حجري منخفض وهي مسقوفة بقبة بيضاء، وهذه البئر تقع عند قاعدة الأرض الرأسية في آل كثير وفي جانبها البعيد وعند التفافنا حول الزاوية رأينا هدفنا المباشر وهو قرية قعوضة وبساتين النخيل وحقول الذرة في وادي «آل كثير» أمامها.

سافرنا حوالي ثلاثين ميلاً بعيداً عن بئر عامر ولم يكن الظهر قد حل بعد عندما ارتفعنا من أعلى الوادي إلى المنحدر المكون من الحصى الخشنة، ومررنا عبر سكان القرية المتجمهرين وفي طرقاتها المتلوية ومن ثم مررنا إلى منزل الشيخ.

بعد تجوال طويل في الصحراء بدا لنا أننا بدأنا نعود إلى الحضارة ثانية. ومضت ثلاثة أسابيع فقط منذ أن تركنا الراحة والأمان في نجران، ولكنها تبدو وكأنها أطول من ذلك. فالتعب الجسماني نتيجة للسفر في الصحراء لا يعني شيئاً مقارنة بالضغط العصبي والنفسي خاصة في الأراضي الحدودية للصحراء حيث لا يمكن الاستخفاف بالولاءات القبلية. وفي حقيقة الأمر لم نقابل بغير الود والصداقة تقديراً واضحاً لخوف الصحراء من ملك الصحراء^(١)، ولكن نجاح كل يوم كان ثمناً للقلق في الليلة السابقة، وإنه لشيء جميل أن نشعر أن مشاكلنا وقلقنا قد انتهى لمدة من الزمن.

ويمكن أن نستلقي ونرتاح لفترة في أحضان الترف والحضارة. ومن المؤكد أن استقبالنا في قعوضة أنتج أو أكد ذلك الوهم.

مبارك بن محمد بن منيف زعيم قسم الحكمان من نهد رجل جذاب، عمره بين خمس وخمسين وستين سنة وطقم أسنانه المصنّع بغير إعداد جيد جعل من الصعب فهم حديثه. فالرجل لا حدود لضيافته وكرمه ووجه غير زائف. ولقد زار مكة للحج في عام ١٩٣٤م وكانت له أحاديث كثيرة وعديدة ودية مع ابن سعود. وكان لا يخفى حقيقة أنه تابع لملك العرب^(٢). وعلى الأقل فإنه يرفض ارتباطه بولاءات أخرى ولكنه يحتاج للسلاح للحفاظ على موقعة في عالم القبائل المكتظ بالأعداء. وكان هذا همه الشاغل الآن. وعن الأمور الأخرى كانت معرفته ضئيلة على الرغم من سنوات عمره

(١) يقصد بملك الصحراء الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -طيب الله ثراه- وهذا اللقب واحد من الألقاب العديدة التي أطلقت عليه من قبل الكتاب والمؤرخين. (المراجعون).

(٢) ملك العرب: لقب من الألقاب العديدة التي أطلقت على الملك عبدالعزيز -رحمه الله-. (المراجعون).

المديدة، وفي المواضيع الأخرى ليس لديه ما يثير الاهتمام إلا القليل. ومنزله عبارة عن قلعة من الطراز الحضرمي. فالبناء كالح وكتيب من الخارج وجميل من الداخل، وحجراته واسعة ولطيفة بسيطة الأثاث. ويلاحظ أن الدرج والممرات والحجرات لها أرضية من الأسمنت وكذلك الحمامات والمراحيض نظيفة جداً. ولقد تم توجيهنا إلى أعلى إلى الغرفة الرئيسة للضيوف في الطابق الثالث وهي غرفة كبيرة مربعة ومدعمة بأربعة أعمدة رفيعة من الخشب ومنحوتة ببساطة في الوسط. والجدران مطلية بحرص خالص وبها نوافذ في ثلاث جهات متجهة إلى الخارج. ويلزم التنويه إلى أن عدداً كبيراً من الطبقة الحاكمة قد تجمعوا لاستقبالنا. وبينما كنا نجلس في شكل دائرة متكئين على وسائد على الأرض، كان أحد العبيد يصب لنا القهوة في أكواب صغيرة، كوب واحد لكل شخص من الحاضرين. وتوضع الأكواب عادة على الأرض بالقرب من الضيوف لكن بالنسبة لي فقد وضعت أمامي ثلاثة أكواب على الأقل. وكانت هذه أول تجربة لي مع هذه الطريقة المميزة الحضرمية للترفيه عن الضيوف. وثمة إشارة وهي أن الملابس التي يلبسها الناس المجتمعون كانت متنوعة.

العديد منهم كان عارياً حتى الخصر ويلبسون قماشاً يحيط بالخاصرة ومربوطاً بعدد من قطع قماش أخرى يخرج من طياتها خنجر في غمده المحلى بالجواهر. أما الآخرون فقد كانوا يلبسون قمصاناً تغطي الصدر (صديرية) بسيط بالإضافة إلى ما وصف، بينما يضيف البعض لهذا بدلة من قماش ملون ذات زرار واحد عند العنق ولكن يظل الجزء الأكبر مفتوحاً.

بعد ذلك قدمت لنا وجبة منتصف النهار في ثلاث صوان دائرية مصنوعة من أغصان الدانة مجدولة وضعت على الأرض كل واحد في ركن من أركان الغرفة وفي وسط كل منها وضعت طاسة كبيرة من المرق حولها الأرز ولحم الضأن. ولم يكن هناك خضار أو أي إضافات أخرى للوجبة والتي كانت غير مثيرة ولكن مطهية جيداً. وجلس مضيفنا بعد تردد معنا في منضدة الزعيم عند إصرارنا على الدعوة، وبعد

الوجهة سألت إذا كان من الممكن أن تخصص لي غرفة للراحة، وقد دُعيت إلى غرفة صغيرة نظيفة مجاورة لحجرة الضيافة الكبيرة. وأيقظني من النوم صوت عالٍ لطلقات رصاص عند الساعة الرابعة بعد الظهر ويبدو أن هنالك شخصاً كان في وضع مكشوف للعدو المتربص في المنطقة المحيطة بالقرية. كانت هذه هي الطلقات الأولى التي سمعتها منذ أن بدأت رحلتي في شهر نوفمبر السابق. وبينما كنت أنظر من خلال النافذة إلى الجمهور المتجمع حول السيارات في الشارع رأيت مجموعة صغيرة من الفتيات في البلكونة السفلى ينظرن مثلي. ومن المفترض أنهن بنات مضيفنا مع صديقاتهن وخدمهن وأعمارهن تمتد من سنوات قليلة حتى اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة. وكان منظرهن جميلاً للغاية، كن يلبسن ثياباً مُزَهَّرة (بها رسومات أزهار) من الأزياء المحلية، قصيرة من الأمام ولكنها طويلة مجرّجة من الخلف. ويبدو أن اللون الأحمر هو السائد مع أنماط من الأخضر والأسود والأصفر، والعنق مربع يميل على الكتف على جانب أو آخر. رؤوسهن غير مغطاة وشعرهن مصفف باهتمام مع فاصل في الوسط وشفائهن بها أشربة، وبعضهن ذوات جمال خلاب مع وجود الكثير من الآثار السيئة الصغيرة من عهد الطفولة.

كانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما غادرنا منزل الشيخ مبارك واعدن إياه بزيارته ثانية في طريق عودتنا. وبدأنا الرحلة من قعوضة إلى هينن والتي يمكن رؤيتها بغير وضوح في الجانب الآخر للوادي تحت المنحدر الصخري قمران والخليج العظيم المحاط بالمنحدر الصخري الذي يعرف بوادي الكثير هو حقيقة عبارة عن اتحاد لثلاثة أودية هامة، هي: وادي دوعن، ليسر، وعمد والتي تجري قناتها المشتركة الآن شمالاً عبر وادي حضرموت لتروي حقول هينن، والتي يروى جزء من منطقتها من وادي هينن الذي يجري إلى الوادي الرئيس من جهة الشمال. ولا شك أنه في مواسم السيول الاستثنائية فإن مياه دهر و رحية تصل إلى هذه المنطقة، على الرغم من أنها قد لا تمتد خلف أرض الخشعة. وعبر الخليج عندما بدأنا رأينا صورة وديار البقري وقد زارتهما

فريا ستارك حديثاً، والتي تُطلق على قعوضة دائماً المدينة المنافسة أسفل المنحدر الصخري.

كان الزمن كافياً للوصول إلى هينن عند مغيب الشمس ولكن تضافر بعض الظروف المعاكسة آخر وصولنا حتى بعد الظلام. وكانت المسافة حوالي ثمانية أميال، وزامن عند مرورنا في حافة وادي حضرموت هبوب عاصفة رملية غطت المنطقة أمامنا، وسرعان ما أحاط بنا الضباب الكثيف مما أرغمنا على التوقف. لم يكن بإمكاننا أن نرى إلى أبعد من ياردة أمامنا، إضافة إلى ذلك أن الوادي كان قد قطع بواسطة قنوات سيول حديثة، وعليه فإنه من الخطأ أن نتقدم دون التمكن من الرؤية. ونتيجة لهطول أمطار خفيفة توقفت العاصفة، ولكن كان تقدمنا بعد ذلك في اتجاه أسفل قناة السيل يعوقه بين الفينة والأخرى وجود بقع مشبعة بالماء والتي تتسبب في وحل السيارات، وعليه فقد وصلنا إلى قرية آدم بصعوبة وهي قرية كثيفة السكان على الضفة اليمنى للقناة لنجد أنفسنا في وسط منطقة العدو.

وتتبع القرية إلى آل ثابت المنافسين لمضيفنا الحالي. ولم يكن هناك ما يخفي إننا قضينا وقتاً في قعوضة. وقائدنا بالتأكيد واحد من رجال مبارك الموثوق بهم. وعليه فقد أوقفنا في وسط القرية بواسطة جمهور كبير من أهلها الذين لم يكونوا عدوانيين ولكن من الواضح أنهم لا يعترفون بحقنا في المرور وقد عبروا عن اعتراضهم لقائدنا وادعوا الحق في أن يرشحوا قائداً منهم. وكان من غير الممكن لي أن أعترض، ولحسن حظنا فإن شيخ القرية قد قرر أن يرافقنا وهو رجل صغير العمر يدعى شيبان، يمكن أن يتخذ كنموذج لتمثال أبولو، عارٍ ما عدا وجود قطعة قماش تحيط بالخاصرة وخنجر وحزام عريض وبندقية، نموذج للإنسانية كما يمكن تخيله، ونُقل القائد الذي أتى من قعوضة إلى سيارة النقل بينما ركب معي شيبان كمرشد وعليه فقد خرجنا بسرعة من الجمهور المهتاج إلى الظلام المتجمع الذي عمّ الوادي، متجنين قناة السيل ومتقلبين على متاهات كشبان الرمال التي في طريقنا. ولحسن حظنا فإن الأمطار

والسيول التي حالت دون استخدام القناة كطريق للسفر جعلت الكثبان الرملية صلبة، أما شيبان الذي لم يركب سيارة أبداً من قبل فقد أرشدنا بكفاءة مذهلة، وكان لابد لنا من التوقف بين فترة وأخرى لنبحث عن ممر بين كثبان الرمال. وعند اقترابنا من هين شكلت الحقول التي جُرُفت حديثاً وغمرت بالمياه للزراعة، عائقاً آخر لتقدمنا، ولكن الحظ كان حليفنا، فعند الساعة السابعة في المساء تمّ الترحيب بنا في أول نقطة حدودية للسلطنة القعيطية، وهي جزيرة من الحضارة في البحر المضطرب بفوضى نهد.

الوصول إلى حضرموت من شبوة كان من خلال منطقة قبلية مستقلة تتبع الكرب (آل مسفر) حتى قرن البنا وإلى أقسام مختلفة من نهد بين تلك البقعة وبين مداخل حضرموت. وتمتد منطقة نهد حقيقة في الوادي حتى فرت -مع عدم تبعية هين لسلطانها- حيث تبدأ سلطة القعيطي. وشبوة نفسها كما رأينا تقع في منطقة آل عويرة (الكرب) بينما الجروف والسهل الشاسع في حوق التي تقع إلى الجنوب من خط سيرنا تتبع لعناصر مختلفة من مجموعة قبائل بلعيد -والتي يعرف الكرب فيها أكبر وأهم وحدة- حتى المواقع العليا من دهر ورخية، حيث وجدنا عناصر نهد "الشحابلة Sahabil" المستقلة.

ومن ناحية جغرافية فإن محافظة حضرموت محاطة من الغرب بخط وادي عمد ووادي هين مرتبطة عبر الوادي الرئيس بوادي الكثير من قعوضة إلى هين. ومن الوجهة السياسية فإنما تكون سلطنتا القعيطي والكثيري مع عدد من الوحدات القبلية المستقلة أو شبه المستقلة وتعد الحدود الطبيعية الجنوبية هي الحد أو الخط الفاصل الذي يقسم وادي حضرموت من الممرات الضيقة والسهل الساحلي للشعر والمكلا، وهي إمارة تتبع للقعيطي والتي يتبع لها سياسياً القسم القعيطي من حضرموت. وإلى الشمال من هذا الحد الفاصل وإلى الغرب من خط عمد هين توجد منطقة قبائل مستقلة تمتد حتى وصولنا إلى حدود سلطنة العوالق (العليا

والسفلى) التي تقع تحت الحماية البريطانية. وإلى الشمال من خط سيرنا وخلف الحزام الرملي لرملة السبعين تقع منطقة الصيعة التي تمتد حتى الأرض الرأسية لطرف العين في جهة الشرق، بينما الأراضي بين تلك البقعة وهين تنبع آل زيد من الكرب. وكلا الوحدتين القبليتين مستقلتان تماماً على الرغم من أن القسم البدوي للصيعة والممتد عبر الصحراء حتى حدود نجران ينظر أهله لابن سعود كسيدهم المعروف دون حدود.

وحسب علمي حتى الآن فإن الأوربي الوحيد الذي حاول من قبل القيام باستكشافات جغرافية جادة في هذه البلاد التي وصفت في هذا الفصل هو قائد سرية أ.ر.م ريكاردس الذي سافر من حضرموت في عام ١٩٣٣م عبر طريق أحياناً يتطابق مع طريقي هذا ويختلف في أحيان أخرى، والتفّ حول جنوب شبوة -والتي لم يرها أو يزورها- ومتقدماً ناحية الغرب إلى أنصاب ويحان بطريق سوف تسنح لي الظروف أن أصف جزءاً منه في فصل قادم من الكتاب. ولا يبدو أنه عرف أن الأودية المهمة دهر ورخية هي روافد من وادي حضرموت وفي خريطته غير المنشورة جعلها تجري في اتجاه العبر. ووفاته في حادث طائرة أثناء رحلة طيران استكشافية فوق الساحل العربي للخليج العربي في خريف ١٩٣٧م ترك فراغاً يؤسف له في سلسلة استكشافات الجزيرة العربية. والذي يستخدم الطائرة له فرصة ضئيلة لعمل فعال في بلاد العرب، ولكن بالتأكيد أن هذا الرجل تمكن من استغلال الفرص التي تأتي في طريقه استغلالاً تاماً وبالتالي حصل على مكان مع أولئك الذين ساهموا في زيادة معرفتنا ببلاد ما زال ماعرف عنها نزرًا يسيراً.

إضافة لقائد السرية أ.ر.م. ريكاردس فإن الكولونيل يوسكوين الذي لا يصرح أبداً عن رحلاته المكثفة في جنوب البلاد يجب أن يكون قد رأى شيئاً من هذه البلاد في رحلته غير المكتملة لزيارة شبوة. وأخيراً هانز هلفريتز الذي سافر عام ١٩٣٤م و ١٩٣٥م عبر هذا الطريق أثناء رحلته إلى بيحان وشبوة على التوالي. وفي المرة الأولى

قد عدّ خطأ أن عياد هي عرما بينما في الرحلة الثانية -بعد طيرانه من شبوة- زار عرما، من الواضح دون أن يدرك خطأه الأصلي. ووصفه لهذه الرحلات ذو قيمة علمية ضئيلة ما عدا الصور الفوتغرافية الرائعة التي التقطها.

فاصل

بوصولنا إلى هين في الظلام وجدت نفسي في بلاد تعيش إلى حدٍ ما حياة غير سهلة وحزينة تحت ظل الأطراف القصوى لأجنحة الإمبراطورية البريطانية العظمى. وبعد الظهر في ذلك اليوم وللمرة الأولى طوال رحلتنا من مكة سمعنا فرقة البنادق البغيضة وقد أطلقتها رجلٌ على آخر مثله بسوء النية. وكان علينا أن نرى ونسمع كثيراً من هذه الأحداث في الفترة القادمة. وصلنا أول نقطة حدودية لسلطنة القعيطي والتي تقف على فوهة واديهها تحت المنحدرات الصخرية لأرضها الرأسية العظيمة -جزيرة في سلام وحياد في جدول ضيق من فوضى نهد، مفصولة عن الأرض الرئيسة للسلطنة بامتداد عريض، لواد أجرد؛ لأن العداء العائلي جعل من الصعب على أي عائلة أن تزرع تربته أو أن تروي الرقع الصغيرة للنخيل الموجودة، وهي بقايا لبعض الفترات السعيدة في الماضي والتي تموت ببطء من الإهمال في الحاضر. وهين نفسها مدينة صغيرة جذابة، بها منازل عالية مبنية جيداً وبها بعض النخيل على طول قاعدة المنحدر الصخري وإلى مسافة أبعد في أعلى الوادي.

وكان وصولنا عبارة عن مهرجان شعبي غير رسمي، وعلى الرغم من الظلام فقد أتى كل الرجال لرؤية السيارات التي قامت بعمل لم تقم به سيارات قبلها، وكذلك ليروا المرافقين على الجمال من نجد، أول زوار لهم من تلك البلاد البعيدة منذ أيام فيصل بن سعود^(١) البعيدة، وهي أبعد من أن يدركها المواطنون الأكبر سناً في هين. وحكومة القعيطي التي يطلق عليها دائماً دولة -والتي أيضاً تعني السلطان والذي هو حقيقة الحكومة- تمثل بضابط شرطة يقود عدداً من الجنود، ولكن الجهة المؤثرة على الشؤون المحلية هي شريحة التجار من عائلة آل مرتع، الشيخ محمد بن سيد آل مرتع. توجهنا إلى منزله عندما أقمنا لنعسكر في مكان مبتل بمياه الأمطار

(١) الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

أمام المدينة. وهناك على سقفه المكشوف تحت السماء المرصعة بالنجوم، وجدنا البناء مؤثثاً بسخاء بالسجاد والأرائك. وأخذنا راحتنا مع القهوة والشاي حيث دعاني الشيخ محمد بعد فترة بسيطة إلى غرفة متصلة ومؤثثة بمنضدة وكراسي جلبت من جاعة. وهناك مع سعد بن ناصر ورئيس المرافقين لي وقائد الشرطة ناقشنا خطط المستقبل، وبعد ذلك قمت ومعي المضيف بكتابة رسائل إلى السلطان والتي سلمت في الحال بواسطة أحد أفراد الشرطة العراة حتى النصف ومعه واحد من رفقائي وكان يلبس زياً مكتملاً.

ويلاحظ أن النجدي عموماً يستمتع بتساقط العرق الذي يتصبب إلى أسفل جلده بين طيات ملابسه الثقيلة ولا يمكن لأي شيء في مثل هذه المناسبة أن يجعله يخلع غطاء رأسه أو أي جزء من ملابسه عدا العباءة، ودعاهم مضيفنا أن يعدوا أنفسهم في ديارهم وأن يبردوا على أنفسهم في هذا الجو القابض الرطب والثقيل فوق العادة ومع هطول الأمطار حديثاً. وتخلصت من كل ما استطعت من الملابس دون أن أخرج رفاقي، وعموماً وجدت أن الوضع مريح عندما تخلصت من أول جزء من العرق. والزي الذي يرتديه أفراد الشرطة المحلية ويحسدون عليه بعض الشيء يتكوّن من عمامة من قماش خفيف تلف حول الرأس، وجذع عارٍ تماماً حتى الخصر الذي يبدو أنه مثقل بطريقة غير مريحة بحزام مليء بطلقات البندقية وزوائد أخرى تعمل على تثبيت الخنجر الكبير المعقوف وتحتوي على نفايان مثل: تلك التي يضرب بها المثل في جيوب أطفال المدارس الإنجليزية. ويلبس أفراد الشرطة إزاراً عادياً أو إزاراً أسكتلندي الطابع خفيفاً يصل من مفصل الورك حتى الركبة، إضافة لبندقية ضخمة تحمل على اليد أو تعلق على الكتف والفوهة إلى أعلى. والشرطي المحلي يبدو عملياً وتظهر عليه صرامة العسكرية، ولكن عموماً له جاذبية لاسيما وأنه عنصر ذو أخلاق حميدة في مجتمعه.

قدّم لنا التمر ونحن جلوس فوق سطح البناء وذلك لتزجية الوقت بين وصولنا وتقديم وجبة العشاء التي قدمت لاحقاً في تمام الساعة ١١ مساءً، وكانت عبارة عن

أرز ولحم ممتاز أكلناه جيداً ثم جلسنا داعين الله سبحانه وتعالى أن ينعم على مضيفينا لحسن ضيافتهم لنا. ولم يمض وقت كبير حتى عدنا إلى معسكرنا وأسعرت لترتيب ملاحظاتي الهائلة جداً حتى أتمكن من الحصول على راحة جيدة في الليل. وكنت قد قررت أن أجعل كل أيامي في حضرموت رحلة للمتعة في أيام العطلة بلا شعور بالتزام وارتباط بالعلوم أو الإنسانية، وهي المهمة التي قام بها كما يفترض مسافرون كثيرون من الذين زاروا المكان في الماضي القريب أو البعيد. ودون صعوبة يمكن لأي شخص له إلمام بتاريخ الاكتشافات العربية أن يذكر عدداً من الأسماء لزوار أجناب لوادي حضرموت، بعضهم أكثر جدية وآخرون أقل جدية كمساهمين بالإضافة للمعرفة الإنسانية عن الوادي الذي يبدو أنه الأكبر وبه إمكانيات رخاء أكثر إذا ما قورن بأودية الواحات العربية الأخرى.

وثمة نظرة إلى الخرائط الموجودة الآن للمنطقة تبين أنه ما زال هناك مجال كبير لعمل مسح مفصل، ولكني على أي حال لا أستطيع أن أجِد الزمن الكافي لعمل ذلك؛ وهذا لارتباطي العميق بالعمل في اتجاهات أخرى من قبل. ولكن أفترض أن المواقع الحقيقية للنقاط الأكثر أهمية في الوادي قد ثبتت بواسطة باحثين سابقين عن هين؛ لذلك كنت مهتماً بمراجعة الدقة العامة لأجهزتي وكان سعبي في إنجاز ذلك ناجحاً ولكن كلفني ساعة أو ساعتين وهو الزمن الذي كان مخصصاً للنوم. وكان المساء عند وصولنا وضاءً وواضحاً، فالنجوم تظهر بكل رونقها وعظمتها، ولكن الظروف الجوية الناجمة عن حدوث عاصفة بعيدة في الشمال منعتني من التقاط توقيت غريتش من القدس، ونظراً للانتظام المثير للإعجاب لواحدة من ساعاتي فقد كان أثر ذلك بسيطاً، عندما أصبح كل شيء جاهزاً لممارسة هوايتي الخاصة بالنجوم، تعطل المصباح الكهربائي مما أضاع وقتاً طويلاً حتى استطاع سعد إصلاح العطل. ولكن بعد إصلاح المصباح بقليل بدأت النجوم في الاختفاء خلف السحب، ثم اكتشفت أن النجم القطبي كان يختفي خلف مقدمة المنحدر الصخري الضخم الذي

يقف شاهقاً فوق المدينة. هذه الحقيقة حتمت عليّ تحريك جهاز مقياس الزوايا إلى موقع مختلف وتكبدت كل المشاق لإعادة تعديل مستواه. وبعد فترة تغلبت على كل العوائق بعناد وصبر. وبقي لي فقط انتظار إيجاد النجوم المعروفة في الفضاء المحاط بالسحب ورؤيتها حين تتحرك بسرعة من حماية سحابة إلى أخرى. وكان الوقت متأخراً قبل أن يصبح ضميري صافياً وذلك بعد أن خططت بالقلم موقع هين على الخريطة وكذلك فإن ضجة العمليات اللوغاريتمية في عقلي لم تزجج أحلامي الأساسية بقضاء إجازة في أرض حضرموت ولن يُفسد شعور قوي سخيف في أن أقوم بواجبي تجاه الإنسانية والعلم، هو شعور سرق مني ساعات من النوم تحت السماء الملبدة بالسحب في الأسابيع الماضية.

نمت نوم قريـر العين، وكانت الشمس عالية في السماء عندما استيقظت لأجد جمهرة من المعجبين بعمق نومي. ناديت على إبراهيم ليجهز لي الشاي وأخذت إناء الماء وذلك للاغتسال مستغلاً الخصوصية التي تمنحني لها السيارة ثم صليت صلاة الصبح أمام الكثير من المشاهدين من سكان المدينة والذين بلا شك معتادين بما يكفي على أداء العبادة في مثل هذه الساعات المتأخرة. وكنت نادراً ما أجلس لتناول الشاي دون أن يأتي زوار ويجلسون حولي، بعضهم أذكىء ولكن هنالك البسطاء من أقارب آل مرتع الكبير والذي كان شقيقه عوض -الآن في بتافيا- يعمل كمرشد وفيلسوف وصديق وسائق لفان دير مولين وفون فيسمان بمناسبة زيارتهم لهذا الجزء من حضرموت في سنوات مضت. وفيما يبدو، فإنهم وجدوا هين في حالة متقدمة من الدمار والضعف التي عزوها كثيراً إلى الزحف الثابت للصحراء في الوادي. ولكن السبب الحقيقي لمثل هذه الفترات من تدهور الحضارة في نظري يعود إلى الشر الذي يفعله الناس والذي يبقى بعدهم. وبعيداً في أعلى الوادي باتجاه الغرب من هنا في الخشعة ومناطق أخرى هنالك مساحات شاسعة من الأراضي القابلة للزراعة الآن والتي تظل مهمة، وسبب ذلك فوضى نهـد الداخلية المهلكة والتي هي بالتأكيد الأقل

جاذبية في المجموعات القبلية التي لي صلة بها. وعلى كل حال فإن هين التي أصبحت الآن تنسج للقيطي منذ عشر سنوات يبدو أنها قد استعادت بعض رخائها الذي كان موجوداً في الزمن الماضي، والفضل يرجع إلى الحماية التي وفرتها الدولة ومشاريع آل مرتع التجارية التي جلبت ثرواتها من جزر الهند الشرقية. ومع أن القرية تبدو واحدة في مظهرها الخارجي ولكنها حقيقة تتكون من جزأين، الحزم إلى الغرب وهين إلى الشرق. فالجزء الأعلى من الحزم يتكون معظمه من خرائب مهجورة قديمة ولكن هذه قد استبدلت بواسطة سلسلة جميلة من مباني جديدة نسبياً بعضها مميز، تقع على طول قاعدة المنحدر الصخري. والمظهر العام للقريتين المتحدتين يعكس رخاء يرضي النفس. الشيخ محمد بن مرتع واحد من هؤلاء الرجال الذين تميزوا بحسن المعاملة فأصبحوا مثلاً للتهذيب والتحضر، وهو عموماً رجل جذاب ومضيف وذو خبرة واسعة وذكاء وقاد. وكان لي أن ألتقي بالعديد من نوعه في الأيام العشر القادمة وكان هو الأول وقد ترك انطباعاً مرضياً عندنا جميعاً.

بعد أن فرغت مباشرة من استقبال الزائرين، تركت تعليمات للتجهيز للرحيل باكراً وذهبت إلى منزل ابن مرتع لتناول الإفطار المكوّن من شاي وقمر. وبما أن الشيخ محمد سيرافقنا إلى القطن لم يكن هناك سبب خاص للتأخير أو الاستعجال وكانت الساعة تشير إلى العاشرة قبل أن نبدأ الرحلة. في هذه الأثناء كافأت المرشدين الذين أرشدونا من قعوضة. أما آدم الشيخ الصغير من قعوضة فقد كان أنموذجاً للإنسان الطيب الذي لم يعله شيء سوى قطعة جوخ متدلية حول الخصر.

في طريقنا إلى خارج القرية عبرنا قناة تصريف مكشوفة تنقل مياه مجاري القرية إلى بالوعة مجاورة. ومررنا على بقايا سفككة لما كان موقعا لمولد كهرباء عندما كان ابن مرتع يضيء منزله بواسطة الكهرباء. دخلنا في الوادي عبر كشبان الرمال المتلاطمة المنقطة بالقبور البيضاء النظيفة بمنطقة الدفن (المقبرة) المحلية. وكان الشيخ محمد يركب معي بينما كانت السيارة الأخرى ممتلئة إلى سعتها القصوى بما يعادل

سبعة أو ثمانية أشخاص وكتل من الأمتعة. والمساحة الكبيرة من الأرض الطفلية (رمل وطين) القابلة للزراعة والمعتمدة على هينن تتميز باستقبال السيول من جانبي الوادي. أما المصدر الأكثر أهمية فهو قناة سيل وادي الكثير التي تجمع تصريف أودية دوعن وعمد ويسر في المصب العظيم حورة -قعوضة لتصب إلى أعلى في الوادي ويصرف وادي هينن السهل الشاسع، وفمه يتموج بأمواج منخفضة من الرمال ويبلغ عرضه حوالي ثلاثة أميال على طول طريق السيارة حيث يتحد في الوادي الرئيس تدريجياً. وبعد وصولنا إلى الأرض الرأسية مباشرة في الاتجاه المعاكس والتفافنا على طول حافتها لبعض الوقت سرنا بعيداً من الضفة الشمالية للوادي عبر المنطقة الرملية الواسعة التي تملأ وسطه. وهنا، تحت الأرض الرأسية -الأرض غير المحروثة- تقع القرية الصغيرة جوعة آل مهنا وهي مستوطنة نهديّة مبنية من قسمن يبعدان عن بعض بحوالي ٣٠٠ ياردة كأنها نصب تذكاري من النزاع والفوضى. ولا يوجد أي إنسان ظاهر في أي من القسمين، ومررنا دون تحية أو تحذّر تحت عيون كل الذين لا يمكن رؤيتهم ولكن يرونا زمرة من القناصين الذين يتمركزون على أسقف المنازل خلف الطرف الغليظ من البنادق وهم جاهزون دائماً للإطلاق أعيرتهم النارية عند ظهور أي شيء يشبه هدفاً بشرياً في القسم المنافس.

والشخص الغريب عندما يمر بمنطقة النزاع يُقدس وسابقاً كان النساء والأطفال من القسم المنافس يتمتعون بالحصانة نفسها ولكن السنوات الحالية تميزت بتكثيف وتصيد للكراهية المحلية وقبل يومين فقط أو ثلاث قبل عودتنا إلى هينن عند نهاية إجازتنا في حضرموت كان هناك اثنتان من النساء تقدمتا لجمع الحطب لإشعال النار فقتلتهم طلقات من أبناء عمهن. ويمكن لهؤلاء الناس أن يتجرؤوا ويخرجوا فقط تحت غطاء الظلام، بينما بساين نخيلهم الصغيرة تموت لانعدام الري وحقولهم من غير فلاحه، قرى منافسيهم المهجورة منظرها شديد الكآبة وغير محبب للرؤية وهذا كله يعد دلالة بليغة على أخلاقيات وآثار الحماية البريطانية، وهو موضوع سنتطرق له

لاحقاً. وكنت أتعجب قليلاً لماذا لا يطلق علينا هؤلاء الناس الأنانيون النار من أسقفهم الساكنة، ولكن الإجابة سهلة، ليس لديهم الرغبة مهما يكن لإيذاء أي شخص غير أقاربهم وأنسابهم وجيرانهم. ومن ناحية سيكولوجية فهي حالة من السادية^(١) المتقدمة جداً أو المازوخية^(٢) في بقايا مرضى من جنس شديد الانحطاط. وهذا المرض يمكن معالجته بسهولة ولكن المعالج المحلي ينظر دون أن يمد يد المساعدة أو غير مبالي فهو فقط مهتم بمنع الأطباء الآخرين من التعدي على عمله.

استمر الطريق في خط مستقيم تقريباً ولكن انحناءة للوادي جعلت قطره يقطع الأرض الرأسية فورت على صفته اليمنى على بعد خمسة أميال. وطريق السيارات يقع معظمه فوق أرض من كثبان رملية خفيفة مغطاة بعض الشيء بواسطة شجيرات صحراوية، ولم تكن هناك صعوبة شديدة للقيادة ما عدا أنه كان من الضروري أن نبطئ في بعض الحالات مستعملين ترس السرعة الثاني. وبهدوء وصلنا إلى بستان نخيل ضبعان تحت الأرض غير المحروثة، وهناك عبرنا الخط الحدودي الذي يسم أرض نهد من المنطقة التي تقع تحت السلطة والحكم المؤثر لسلطان القعيطي تمتد من هنا دون انقطاع؟ لقناة السيول بوادي ابن علي وراء شبام. وبالتأكيد هنالك رخاء وأمن أكثر في هذا الجزء من الوادي والذي يمتد فيه الحزام الأول لبساتين النخيل عملياً دون انقطاع إلى مسافة طويلة خلف مدينة -القطن- إلى خمسة أميال أو أكثر. ولكن القريتين اللتين تتبعان إلى مستوطنة فورت يمتلكهما جنود السلطان، غالباً وكانتا حتى وقت قريب في حرب مع بعضهما، وفي هدنة تحت ضغط السلطان لمدة ١٠ سنوات متفق عليها. حتى الآن كما أذكر فهذه هي النقطة السوداء الوحيدة في اللوحة التنظيمية للسلام القعيطي التي لاحظناها في وادي حضرموت.

(١) السادية: اشتقاق اللذة عن طريق القيام بتعذيب الآخرين، وهي تنسب للمركز دي ساد (١٧٤٠-١٨٨٤).

فرج عبدالقادر طه وآخرون، معجم علم النفس ص ٢٢٣. (المراجعون).

(٢) المازوخية: اشتقاق الفرد للذة من قيام الآخرين بتعذيبه وتوجيه العدوان إليه، تنسب إلى الكاتب النمساوي ساخرمازوخ (١٨٣٦-١٨٩٥م) والمازوخية تقيض السادية وعكسها. المرجع السابق، ص ٣٨٩. (المراجعون).

خلال مسافة ميلين مررنا من فورت إلى المستوطنة المبعثرة بدار البكري، ثم على طول القرية الكبيرة قرية الخيبة من أضرحتها المقدسة الشبيهة بالقباب، وفي النهاية مررنا خلال البوابة الشمالية الغربية للمدينة المحاطة بالجدران، مدينة القطن، والتي أيضاً تسمى حوطة القعيطي والريضة حسب المزاج. وكنا نقود سيارتنا بحذر عبر جمهرة من الأطفال الذين أتوا في اندفاع إلى الطريق الرئيس الضيق على مقربة من البوابة الجنوبية والحائط. وكان السلطان علي بن صلاح، ابن العم الثاني للسلطان صالح بن غالب سلطان المكلا وتحت سلطته العليا أيضاً، سلطان القسم القعيطي من وادي حضرموت شبه المستقل، على باب القصر فتقدم لتحيتنا وقيادتنا إلى غرفة عليا كبيرة الأبعاد، ذات أثاث جذاب من كراس ومناضد وسجاد من جأوة. أجلسنا على الأرض نتكئ على وسائد سميكه وقُدّم لنا الشاي بينما كنا نتحدث ثم نشر الغداء على قماش أبيض على الأرض لنا جميعاً. وشرفنا السلطان بمرافقته في وجبة الاستقبال الأولى. أما في الوجبات التالية فقد كنا نشارك السلطان سعد بن ناصر ضيفاً آخر قد يكون هناك - ابن مرتع مثلاً. ووصل السيد في اليوم التالي من عينات إحدى مستوطنات القعيطي في أسفل الوادي خلف تريم بينما باقي مجموعتي يبدون كلياً في غير مكانهم في هذا المحيط السلطاني الفخم، وقد قدم لهم الطعام منفصلين في الأسفل.

كانت معجزة وصولنا من مكة حتماً المادة الرئيسة للمحادثات الأولى وقد صمم السلطان على القيام برحلة الحج بالسيارة في المستقبل القريب كبداية لرحلة كبيرة إلى الخارج. وعند انتهائي من موضوع حضرموت أصبحت مستعباً من تكرار هذه المادة، لأن الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين تعرفت عليهم حديثاً تجعلني أقوم بالإجابة عن مجموعة كبيرة من الأسئلة عن تفاصيل الطريق التي في معظم الحالات قد سردت له من قبل بواسطة شخص آخر كان قد استمع إلى سردي. وعلى كل، فإن الموضوع ما زال حديثاً وحيماً والاهتمام الشديد الذي وجده عند الجميع هذا الكشف لطريق الحج بواسطة السيارات شجعني على القيام بتسجيل كل المعلومات في كراستي لكي تكون جاهزة في تناول يدي حتى أتمكن من الإجابة عن كل الاستفسارات.

والهيكل المقترح الذي وضعته للرحلة أمام الجمهور ليتأملوه هو مدة الرحلة عشرة أيام ومسافتها ١٥٠٠ كيلومتر، كل سيارة تحتاج إلى ٦٠ جالوناً من الوقود. وبالنسبة للأمن وهو الشيء الذي يشغل بال كل مسافر في بلاد حضرموت ذكرت لهم أنه لا داعي للقلق على الناحية الأمنية في الطريق من العبر إلى مكة. وللوصول إلى العبر في أمان - ما يعادل ١٠٠ كيلو متر أو أكثر بقليل - يجب أن ينظموا صلحاً للقضاء على مشاكلهم المحلية. وكنت أدرك تماماً أننا قد فتحنا طريقاً عملياً للحج في البر من حضرموت ولكن الفضل الكبير يعزى للاهتمام النشط للسلطان علي، -والآخرين الذين قابلتهم فيما بعد- في أن هذه التفاصيل ظهرت بهذه العجالة من غموض مذكراتي.

كان علي بن صلاح رجلاً يبلغ عمره أقل من خمس وثلاثين سنة ويبدو أصغر من ذلك بكثير، متوسط الطول، ليس له لحية، وشبه صغير وجسمه رفيع، رأسه طويل ونحيف ينتهي إلى انتفاخ كبير في الجمجمة. ومن ناحية فكرية فإنه عالم أكثر من ملك، ولكن نشاطه كإداري لاسيما حبه باستمرار في الحركة من مكان إلى آخر في منطقته -قد يصحح ذلك الانطباع. وهو مهتم بعمق بواجباته كحاكم وكذلك كثير الاهتمام بالسلام وتطوير البلاد التي تتبع لسلطته. ولكن عندما يكون في فترة الاسترخاء والامتناع الشخصي تجد في الحال أن مزاجه الشخصي يميل إلى قراءة الكتب ومساجلة الأفكار والمعرفة. وبالنسبة لشخص لم يغادر بلاده أبداً فإن نظراته العقلية ومعرفته الواسعة بالعالم تعد مدهشة. وهو يتحدث سهل وطبيعي ويمتلك الكثير ليحكى عنه، ومن الواضح أنه يقرأ كثيراً. وقد وجدته أكثر شخص مرن يمكن مناقشته من بين كل الذين قابلتهم في هذه البلاد. أما السلطان علي بن منصور الحاكم الكثيري لسيئون فيمكن أن يعد قريباً منه. فكلاهما له القدرة على التحدث طبعياً دون أن يتساءل أحدهما هل يتحدث أم لا. ومن جهة أخرى، فإن الآخرين الذين قابلتهم خلال هذه الأيام قليلو الكلام دون أن تكون هنالك دوافع بعيدة لصمتهم، وآخرون يتحدثون كثيراً دون تمييز أحياناً ويسببون قليلاً من الضجر عندما يسمح لهم تهذيب

وصبر مستمعهم بفرصة أكبر، فأشخاص كهؤلاء يعدون أقلية. ومع ذلك فهناك آخرون يملؤهم التفكير العميق والأفكار العظيمة والآراء المتطورة والحذر والحكمة في نقاشهم خشية أن تكون للحيطان آذان فتنتقل كلماتهم إلى أقصى نهايات أرضهم. والمجموعة الأخيرة ومعهم العليان (علي بن صلاح وعلي بن منصور) يبدو لي أنهم يمثلون خلاصة الموهبة المحلية.

يبدو القصر مبنياً حديثاً من ثلاثة طوابق كان هو مدخلي لآخر أسلوب معماري لحضرموت والذي وصل ذروته في القصرين العظيمين في سيئون التابعين للكثيري. وفي المظهر العام قد يلفت الناظر إليه على أنه ذو تصميم أوروبي ولكنه حقيقة ينسجم -بصورة مثيرة للعجب- مع المعمار المحلي والذي يقف في وسطه كما يجب أن يكون القصر. وحقيقة أن التصميم البلدي المحلي له ميزة عظيمة، فحيطان الطين في المنازل صقلت جيداً للغاية خلافاً للتجصيص الطيني غير الناعم الذي يرى في نجران مثلاً والذي يكون فيه المعمار المحلي قريباً في التصميم العام من ذلك الموجود في حضرموت أكثر من أي مكان آخر أعرفه. وإذا أردنا الإشارة إلى دلالة أفضل فسوف أذكر هنا الأسلوب العام للبناء في شرق اليمن والذي يهدف بشكل أساسي للدفاع ضد الأعداء. وحقيقة، فكل منزل في شرق اليمن يمثل قلعة في تصميمه بينما نجد الشيء نفسه في حضرموت جنباً إلى جنب مع مبان ذات خواص عسكرية أقل وميزات فنية أكثر عظمة في داخل الحيطان بالمدينة ومهمتها الدفاع عن الجميع. وعليه فإن الأوجه الملساء لحيطان الطين وكأنها مطلية، بها نوافذ خشبية ذات تصميم جميل، أقواس مغربية (مراكشية)، شبكية، وأقواس على شكل قباب. ويلاحظ أن الطين المحلي شديد التماسك وشديد التحمل. والقصر ليس كعمامة المنازل فهو مغطى تماماً بزخرف أبيض من الجبس المحلي وهو ليس فقط للزينة ولكن لتقوية سطح الطين ضد الأمطار. وقد يفترض الشخص من مظهرها أنها مبنية من الحجر والأسمت، ولكن في كل حضرموت فإن الحجارة والأسمت استعملت فقط في الأساس أو كحاجز

ضد السيول. وداخلياً تطلّى بالجبس، وبالجزء الأعلى من الحيطان لون بظلال رقيقة من الأخضر والأزرق والوان أخرى للتناقض مع اللون الأبيض الباهر في الأسفل. وبالطبع هنالك اختلافات لا نهاية لها في تأثيرات التزيين من منزل إلى آخر ولكني لا أستطيع أن أتذكر أنني قد رأيت مبنى قديماً أو حديثاً خارجياً أو داخلياً يُظهر ذوقاً سيئاً. ولم يكن هناك أي شيء مزخرف أو سوقي (مبتذل) في معمار حضرموت الآن ما عدا النافورة في الحديقة الجديدة في مجمع السيد أبي بكر بن الشيخ الكاف في سيئون. وهذا هو الاستثناء الوحيد الذي أتذكره للقاعدة العامة للذوق الرفيع الهادئ. ونظراً لصعوبة الحصول على الأخشاب فإن الأسقف في الحجرات بكل أحجامها كان لابد أن تدعم بأعمدة طينية - في بعض الأحيان الأعمدة الخشبية تغلف بالطين والجبس - عمود واحد أو أكثر. أما غرف الاستقبال التي تخص ابن مرتع في هين فبها أربعة أعمدة كهذه تكون مربعاً في الوسط. وقاعة الاستقبال في القطن بها (٢×٦) من الصفوف تكون مستطيلة في وسط الغرفة. وفي كل الحالات تقريباً تفضل الأعمدة الرفيعة التي لا تقلل من مساحة الغرفة بصورة كبيرة. ولفت نظري هذا القصر كمسكن له سحر عظيم؛ ولذا فإنه ليس من المستغرب أن يستخدمه السلطان علي في أوقات كثيرة من العام، مفضلاً إياه على القصر الكبير في شبام والذي مع كبره فإنه عتيق بعض الشيء وغير مريح. ويلاحظ أن الحمامات ومكاتب الأسرة كما رأينا من قبل في هين وقعوضة ساهمت في إظهار القواعد الصحية الحديثة أكثر من الشعارات والأقوال.

وعلى مقربة من القصر يوجد المسجد المحلي الذي يطغى عليه القصر، وهو مبنى جذاب من الطين المزخرف بالجبس الأبيض وبه باحة في الوسط مفتوحة ومحاطة بصف أعمدة غير عميقة. وإحدى زوايا المسجد تعلوها مثانة ارتفاعها يماثل ارتفاع المبنى نفسه. والبناء ذو تصميم يشبه السلال. وخلفه ينظر الشخص إلى خلفية من أشجار النخيل خارج حائط المدينة إلى الشمال والغرب. وكذلك في جانب آخر توجد

طرق متعرجة ومباني منطقة مدنية صغيرة تكون أفضل منازلها قوساً غير منتظم حول فضاء واسع بينها وبين القصر. والبوابات والجدران ليست مميزة ما عدا الجزء من الأسوار الذي يتبع خطوط الانحدار عند قاعدة الجرف الصخري العظيم، ٨٠٠-٥٠٠ قدماً من الحائط الصخري. وفي كل طرف في هذا القسم من المدينة تقف المباني المستخدمة للدفاع جذابة، ولكن جزئياً، كقلعة مربعة متهدمة وهي ليست مأهولة بالسكان. وبعيداً في الخارج باتجاه الشرق تمتد بسايتين النخيل الكثيفة حيث تتناثر حولها المساكن التي تشبه الحصون وبعض القرى الصغيرة باتجاه حافة السهل العريض ذي الرمل الخفيف الذي تنمو فيه محاصيل القمح والدخن عندما تروى بالأمطار. وخلف ذلك تبدأ بسايتين نخيل آخر نخيل شبام والقرى التي تعتمد عليه.

وقد تركنا نجران في بداية موسم التمر منذ حوالي ثلاثة أسابيع ولكن وجدنا وادي حضرموت في نهاية الموسم الذي امتد لشهرين. فهم الآن يقطعون عذوق التمر لتخزين الثمار، ولكن كنا محظوظين لنحصل (بصعوبة) على ثمار طازجة. والقدر القليل من زراعة الفاكهة الثانوية أدهشنا دون أن يسعدنا ولم يكن ممكناً الحصول على عنب أو تين أو رمان. وهناك نشاط بدأ من قبل لتصبح هذه الفجوة التي يسهل تصحيحها. وسوف أذكر النتائج لهذا النشاط في وقت آخر عندما نصل المنطقة الأكثر تقدماً من الوادي. وحتى هذه اللحظة فإن التمر الحجيري الأسود، أفضل في المرحلة الأخيرة مع اللون الغامق، وتمر الحزير يمنحان تنوعاً لطيفاً في وجبة من اللحم والأرز، والخضار قليل كالفاكهة. ويبلغ عمق الآبار في القطن سبع أو ثماني قامات خلافاً لآبار هين وقعوضة والتي قد يبلغ عمقها ثماني عشرة قامة. وكبداية استخدمت هنا مضخة تدار بماكينة للضخ وقد استخدمت أيضاً للإنارة الكهربائية المؤقتة وعصر الماكينة أحدث تحولاً في حياة أهل المنطقة لاسيما في أسفل الوادي وسوف ينتشر استعمالها في المناطق المذكورة في المستقبل لتعم الفائدة الكبرى للجميع.

اليومان اللذان قضيتهما في القطن كانا لطيفين دون عمل وكانا هما أول أيام الراحة منذ أيام نجران. ولم تحرك خارج القصر الذي يطل على منظر كافٍ لكل ما أود أن أرى. وكان المساء لطيفاً جداً، وكنا نتحدث على سحبتنا عندما نمجس قبل وبعد وجبة العشاء (وثانية في الصباح الباكر) على المصطبة (الدكة) الممتدة من مستوى الطابق الأول. وفي أعلى تسكن أسرة السلطان، والأعضاء الوحيدون الذين رأيناهم هم الأبناء الثلاثة للسلطان صالح وسالم وفضل. فالأول هو الأكبر ويبلغ عمره ١٢ سنة ويتلقى تعليمه باللغة الإنجليزية بواسطة معلم كان في سنغافورة. ويفكر السلطان قليلاً في إرسال أبنائه إلى بغداد لتكملة تعليمهم وذلك لأنه يخاف من تأثير مصر وجيرانها بالغرب المتقدم. ومن المؤكد أنه قد يكون منزعجاً الآن لسماعه أن العراق تبدو حديثة في مظهرها العام كاخواتها. وبالنسبة لعربي من المدرسة القديمة (جيل الكُتَّاب) هنالك تضارب محدد بين الحداثة من جهة والأخلاق والقيم من جهة أخرى. وهذا التضارب واقع ولكنه فقط عرضي. والمجهود لخلق انسجام بين الجيد والمهم في حضارة الغرب المادية مع المبادئ الأساسية للفضيلة والبطاهرة العربية يحتاج لنضال شرس وعنيف إذ لا يمكن لأمة أن تعيش في المستقبل دون الحاجة للأدوات المادية للعلوم الحديثة. والمشكلة الأساسية هي استعمال هذه الأدوات دون أن ندعها تقلل من أهمية أسس وقواعد الإنسانية. وما زال الناس في أوروبا وأمريكا بعيدين عن حل المشكلة. فالمنطقة العربية ما زالت منكشمة من مواجهة معانيها الكاملة. ويبدو أن من التعقل اتباع أسلوب عدم الاستعجال والتقدم بحذر. ولكن مستقبل هذه المنطقة غير متوازن كما هو الحال في كل العالم حولها.

المشكلة العاجلة في حضرموت تتصف بالمحدودية وتتلخص في الفوضى وعدم الاستقرار. وقد كشفت المشكلة بقدر ما بسبب الانهيار الاقتصادي في كل أنحاء العالم الذي أثر على رخاء وثناء المواطنين الحضارة من سنغافورة، وجزر الهند الشرقية الهولندية^(١). وهؤلاء الناس الذين حتماً تقلصت تحويلاتهم الكبيرة الآن، كانوا في

(١) اندونيسيا الآن. (المراجعون).

السابق دماء ترفد الحياة للرفاء المحلي . والضريبة الكبيرة في المستعمرات الهولندية إذا قورنت مع الضرائب القليلة في الملايو البريطانية تعرضت لبعض النقد، والمعاملة الصعبة من الإدارة الهولندية كانت موضوعاً لبعض الاحتجاج ولكن التصرف السلبي لسلطات حكومة الوصاية في عدن- أو بمعنى آخر الحكومة البريطانية- كانت هي الموضوع الرئيس للاهتمام المباشر لحكام وقيادات المواطنين في حضرموت . وفي هذا الوقت، في قعوضة والقطن أخذ الاحتجاج شكل شكوى وتذمر بأن القوى الحامية سوف لا تمد السلطات المحلية بالأسلحة والذخيرة لتجعلهم قادرين على بسط وتأسيس السلام والأمن في المناطق التي يديرونها . وبعد قليل يجب أن نناقش هذه المشكلة بمفهومها العريض .

كان هدفي أن أخصص أقل زمن ممكن من إجازتي في حضرموت لزيارة مدن رئيسة بينما يقوم رفقائي لشراء احتياجاتنا في شبام وكاحتمال ضعيف لنقوم باندفاع سريع إلى الساحل -لتكملة عبوري من الشمال إلى الجنوب في الجزيرة العربية-. بينما تحمل جمال شبة البطيئة مخزوننا من الغذاء والوقود... إلخ إلى ذلك المكان الذي تركنا فيه جمالنا القادمة من نجران لترعى في سلام حتى عودتنا . وبعد الظهر في يومنا الثاني في القطن بدأنا تحركنا إلى شبام تاركين السلطان مع أسرته في منتجعهم الصيفي . وفي هذه الأثناء وصل رجل صغير السن يدعى حسيناً إلى القطن في سيارته وبكرم أصبح مرشدنا للمرحلة القادمة وهو واحد من الإخوان الأربعة لآل عجاج من العاصمة وكان بمعيته شخص معروف مسؤول في خدمة السلطان وقد ركب معي ليخبرني بأسماء الأماكن المختلفة التي نمر بها أثناء المسافة الخمسة عشر ميلاً إلى شبام . وحتى نهاية إقامتي في حضرموت وضع الاثنان أنفسهما تحت خدمتي بدون تحفظ ودون إلحاق ضرر بعملهما الخاص . وأنا أدين لهما بعمق بالمتعة والفائدة التي جنيتهما من زيارتي . فهما يعرفان البلاد، سياستها، وكرها وطموحها عن كثب . وكان شعوري بالأسف الوحيد أنني لم أستطع أن أجد طريقة لكافأتهما لكل ما تكبداه عند مغادرتي وأنا أتشوق وأتمنى أن أجد الفرصة لإمتاعهما كما أمتعاني إذ حدث وأن زارا

الحجاز. وقد أثار اهتمامي حسين العجاج لأنه يقظ وحذر ونشط وذكي مع عدم وجود المجال الكافي لممارسة مواهبه في الظروف الضيقة في بلاده. وتتكون ثروة أسرته من ممتلكات في سنغافورة. ومن الطبيعي أن لهم ممتلكات في حضرموت ولكن الثروة دون فرص للعمل نعمة مشكوك فيها.

ليس هناك شيء مميز جداً في المنطقة بين القطن وشبام. وسوف نصل إلى نهاية النخيل في الأولى (القطن) قريباً. وانطلقنا عبر سهل مكشوف وخالٍ ولكنه قابل للزراعة معتمداً على هطول الأمطار والسيول من الخليج العميق بالجرف الجنوبي الذي يقع على يمين مسارنا. وبعد أيام قليلة هطلت أمطار محلية وكان هذا السهل ممتلئاً بالمياه مما يجعل مرور السيارات خطراً، ويمكن زراعة الدخن هنا كما في نجران وينتج ثلاث مرات في مدة الاثني عشر شهراً. وأرض النخيل في شبام تبدأ بمزرعة بعيدة ومبانيها صغيرة تسمى دار الراك في وسط الوادي، حيث لا تزال الحبوب والبطيخ (الدلاع) تحتل الجزء الأكبر من الأرض والبساتين الكثيفة في خشامر تحت الحافة البارزة للمنحدر الصخري الجنوبي وقريته الغنية. وبالقرب من هذه البقعة يقع خزان من الحجر مبني بالأسمنت يسمى الموزع أو القاسم (الفاصل) يوقف مرور مياه السيول في قناته المعتادة ويحوّله إلى بستان نخيل شبام. ولكن بحق الأسبقية لأهل شبام فإن بستان خشامر محروم من هذا الماء، إلا عندما يكون حجم السيول كافياً لتغطية الخزان ويعلو عليه. والخزان ارتفاعه محدود بالقانون أو العرف - وارتفاعه حوالي سبعة أو ثمانية أقدام على جانب أعلى الوادي. ورغم أنهم يتلقون بعض المياه من الجبال إلا أن عليهم أن يعتمدوا على الآبار أيضاً للاكتفاء من المياه. وقد قمنا بزيارة الخزان في الوقت نفسه بعد الظهر، بعد أن نادينا على الشيخ يحيى بن عبد الحميد بن علي جابر المواطن الأول للقرية التي تبعد فقط أربعة أميال من شبام. وتجدد الملاحظة أن هناك جماهير كثيرة تجمعت في منزله لمساعدته في الترويح عنا أثناء زيارتنا التي كانت قصيرة للغاية.

أصبح المبنى الفخم الغريب لشبام واضحاً بصعوبة قبل فترة كبيرة من الحافة الغربية لحزام نخيلها، ولم يكن مثيراً للاهتمام مع أنه يقف عالياً كعملاق على رجلين خشبيتين مرتفعتين على بعد عالٍ من أعالي بساتين النخيل المحيطة. وقارن فان دير مولين هذه البساتين بقطعة كيك مع غطاء سكر زينة أو كيكة شوكولاته عتيقة المظهر في أعلاها غطاء سكر للزينة الأبيض غير منتظم، قد يكون أفضل وصف لها. ومن المؤكد أنها خيبت توقعاتي كثيراً والتي اعتمدت قليلاً على تقارير المسافرين الآخرين الذين من المحتمل أن تكون مباني القصرين العظيمين في الجانب الشرقي (غير واضحة من الغرب) قد سيطرت على انطباعهم. وعند مرورنا فوق حاجز منخفض لكثبان رملية سهلة، التففنا حول حافة مقبرة شاسعة بها حجارة شاهد لضريح، بنية الوجه، منقوشة ومختلفة مع قباب بيضاء وقبور مزخرفة بالجص. وفي الحال أصبحنا في تجاويف مطوّقة عميقاً بسدود تحتوي على بساتين النخيل. وهذه السدود جعلت الطريق خطراً لحركة السيارات، ولم يكن من السهل عبور الأجزاء الضيقة المتتوية منه. ويكوّن حائط المدينة نوعاً من المنحدر الخفيف حول التل والصخر الذي بنيت عليه المدينة، ويبدو أنه مستمر على امتداد الحيطان الخارجية للمنازل التي كانت تقف شاهقة فوقنا. وبين الحائط وموقعنا تقع بعض بساتين النخيل، مع المسجد الصغير الأبيض المسمى «معروف» في وسطها بجانب الطريق. والطريق نفسه يلتف حول الركن الجنوبي الغربي للمدينة منحدرًا في مجرى النهر العريض الرملي الذي تتناثر فيه الآبار التي يحصل منها الناس على الماء المشهور بملوحته. ويحصل المواطنون الأغنياء على الماء من بئر ذات ماء عذب تبعد مسافة بعيدة في وسط الوادي في اتجاه قرية قُرّة في فم وادي سر. ويمتد من القناة التي نزلنا فيها طريق مرصوف عريض ولكنه شديد الانحدار يقود إلى البوابة الرئيسة والتي تبرز عتبتها من الأرض بقدر يحتم قيادة حذرة جداً. وتوجد بوابة ماثلة مباشرة خلفها، تقود إلى فضاء واسع مكشوف، ملامحه الرئيسة هي البالوعة الكبيرة الرئيسة للمدينة التي توجد في الوسط. ويوجد مسجد

جميل خلفها مباشرة وكذلك القصران العظيمان البني والأبيض اللذان يتبعان للسلطان شبيداً على صخرة في الركن الجنوبي الغربي للمدينة. وأطول القصرين والذي يقع قليلاً إلى الخلف من الآخر هو مسكن العائلة. والآخر يحتله السلطان بنفسه ويحتوي على غرفة الاستقبال وغرف السكن... إلخ وعند باب هذا القصر توقفنا وكان خالياً وعملياً بلا أثاث في غياب السلطان، وقد وضع بواسطة السلطان لخدمتي مع مجموعتي. وهو مبنى كبير ومتعرج به أربعة طوابق من الطراز القديم، وليس نظيفاً جداً ويبدو مهملاً وبه تجهيزات صحية عتيقة. وفي الحال جعلنا أنفسنا كما في منازلنا بين طابقيه الأعلىين وكان سطحهاا يتيحان منظرأ عريضاً مبهجاً لأسفل الوادي.

وصلنا الآن الحد الأقصى من رحلتنا. وعليه ولعدم رغبتني في إنفاذ صبر رفقائي أكثر من ذلك قضيت جزءاً من الصباح التالي في توزيع المكافآت المعتادة عليهم، كل منهم حسب رتبته وخدمته. فأولئك الذين حصلوا على مكافأة أقل كانوا غير راضين عن ذلك؛ لأنهم لم يحصلوا كالآخرين، ولكن الرضى الواضح على أوجه أولئك الأعلى درجة أثبت أنني قد كنت كريماً. وكان كل ذلك للفائدة ووضعت بعد ذلك خططي للمستقبل. وفي الأيام القليلة القادمة سيشف سعد بن ناصر على شراء إمداداتنا الضرورية بينما ساندفع لوحدي لقضاء ليلتين على الأكثر بسيئون وتريم وكل ذلك كان حسناً. وعند عودتي فإن الجمال التي تحمل الأمتعة سوف تسير إلى شبوة ومعظم مجموعتي يمكنها الذهاب معهم تاركين عدداً قليلاً من الآخرين وأنا لنأتي بالسيارات. وسوف أذهب بمفردي إلى أسفل إلى الساحل على ظهر حمار وأعود دون تأخير. أما مجموعة الأمتعة فقد لا تصل إلى شبوة قبل أن نلحق بهم بالسيارة وهذا الاقتراح كان مختلفاً؛ ولذا قد أعلنت حالة من التمرد في الحال. ربما قد أشرت إلى هذا الاحتمال في حديث عرضي ومن غير شك فقد فكروا في هذا الأمر ورفضوه وجاء ردهم على شفاه الممثلين لهم من البدو. والملاحظ أنه كلما كنت معهم فهم لا يهتمون كثيراً بما أعمل أو إلى أين ذهبت، ولكن إذا تركتهم في موقف

محرج فإنهم كذلك سيتركونني في موقف محال . وهم جميعاً لهم أسرهم ويودون أن يعودوا إليها . هذا حسم الأمر ، إضافة إلى أنني قد أئسيت عن رحلة الساحل بشروط أصحاب الحمير الباهظة وهي ٣٥ ريالاً لكل حمار إلى المكلا وعائداً منها ، و ٢٢ ريالاً للجمال الذي يحمل الأمتعة ، بينما جمالنا من نجران إلى شبوة وعودة إلى نجران تكلف ١٥ ريالاً فقط لكل جمل ، وعليه أعلنت التخلي عن الخطوة . وبعمل ذلك فقد تخلّيت عن فرصة لتسجيل إنجاز جديد وهو عبور الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب ، من ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي تركته في نوفمبر إلى المحيط الهندي .

بالتأكيد ليس لي سبب آخر للذهاب إلى الساحل ، والعمل البطولي سيصبح - لو قمت به - أهم بقليل من حب الاستطلاع للاستكشافات وهذا هو الدافع أنه في كل التاريخ لم يسجل أن هنالك إنساناً قد عبر الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس وقد يكون من المحتمل أنه لم يقم بذلك أي إنسان فعلاً . بالتأكيد لا يوجد أي سبب واضح يدفع أي شخص إلى محاولة القيام بهذه الرحلة باستثناء القيام بها عن طريق الجو في المستقبل . على كل قاومت الإغراء الطفيف للإصرار على هذا الأمر وحسم كل الأمر باقتناع عن طريق قرار متفق عليه أن نبدأ رحلتنا من شبام بأقل تأخير ممكن . وبعد عودتي من سيئون وتريم سوف يقومون بتجهيز كل شيء للرحلة وحينها أقضي وقتي مستمتعاً .

تجولت في هذا الأثناء في الخارج مع حسين لأرى المدينة . وحددت أبعادها الأفقية بواسطة مساحة قاعدة العمود الذي تقف عليه . ونلاحظ أنها قد نمت رأسياً في محاولة نبيلة من سكانها للتغلب على هذا العائق الطبيعي . ونتج عن هذا المجهود سلالة من البنائين الذين من المؤكد أنهم يعرفون شيئاً عن فن البناء بالطين . وتجدر الإشارة إلى أن شبام هي الوحيدة من مستوطنات حضرموت التي تتكون كل مبانيها تقريباً من خمسة أو ستة طوابق ، لا أظن أن أيّاً منها به سبعة طوابق ولكني لا أستطيع

أن أجزم بذلك . ومستوى السقف في المدينة تقريباً منتظم كانتظام السطح الذي نهض وارتفع منه . ولإعطاء الطين قوة ضد التحلل عن طريق الأمطار فإن كل سطوح السقف المسطحة وحواجز السقف قد طليت بجبس صلب متماسك وأملس كالإسمنت الجيد .

وبشكل عام فالقصران مطليان جزئياً باللون الأبيض لتعطي تأثيراً لونياً أخذاً ولكن هنالك أسباب اقتصادية عاقت استخدام الجبس على الجدران العمودية . وعندما تصبح شبام مدينة ثرية حقيقة لابد من تصحيح هذا النقص ؛ وذلك لأن الخلفية التي تعطيها بساتين التخليل الخضراء الغامضة مع المنحدر الصخري ذي اللون البني المتجهم فإن المدينة ستقف كقصر في أرض خيالية ساحرة إذا ما ألبست لوناً أبيض . والمباني الوحيدة ذوات الطابق الواحد هي المساجد وبعضها له مميزات كبيرة مع بساطتها ، بينما المسجد الرئيس الذي يعرف بمسجد هارون والذي يزعم بأن بناء يرجع إلى أيام الخلافة العباسية^(١) أما المباني الحالية فهي بالتأكيد لا ترجع إلى ذلك العهد ولكن قد يكون المسجد ممثلاً لنفس الموقع منذ عهد سحيق . وهنالك تقدير محلي يعطي مباني الطين عمراً قدره ٢٠٠ سنة تقريباً ويبدو أن ذلك التاريخ تقريباً أقصى حد يمكن أن تبلغه الذاكرة محلياً . ومن ثم لسكن وحياة الإنسان منذ الأزمان الأولى وتسبح المدينة في كوكبة من الأسماء البديلة .

مع تحكم القعيطي في الميناءين البحريين المكلا والشحر فإن شبام هي العاصمة التجارية لحضرموت وعدد من مواطنيها تجار لهم مكانة معروفة . وهم ينجزون كل أعمالهم في منازلهم الخاصة ، حيث تستخدم غرف أرضية واسعة ولكن متسخة كمخازن ، بينما المكاتب تحتل مستوى أعلى . وترك السوق كلياً لأصحاب المحلات

(١) تذكر المصادر الحضرمية أن عمارة هذا المسجد سنة ٢١٥هـ وربما قبل ذلك ، وقد حقق المؤرخ عبدالرحمن بن عبدالله السقاف عمارة هذا المسجد ، انظر مجلة العرب ، ج ٧ ، ٨ سنة ٢٩ ، محرم وصفر ، سنة ١٤١٥هـ ، ص ٥٢٢ . (المراجعون) .

التجارية الصغيرة، ويتكون من طريق رئيس مع عدد من الطرقات الفرعية الصغيرة الوضعية، وفضاء صغير مكشوف يستعمل قنوات التصريف المفتوحة الأشد اتساعاً مما يزيد الانطباع العام بعدم العناية التي تمتد إلى كل شوارع المدينة. والاهتمام بالصحة والنظافة يبدو أنه لا يثير اهتمام مواطني المدينة. والمخاطر التي يتعرض لها الشخص عند مروره في شوارع المدينة بين المنازل المرتفعة تحتاج إلى قلم «جوفينال» لكي يصفها وصفاً كاملاً. وقد يكفي أن نقول: إن كل شارع به مجرى (قناة) تصريف مفتوح. يجري هذا المجرى إلى وسط الشارع إلى بالوعة مغطاة جزئياً أو كلياً والتي لا أعلم إلى أين تقود. ويحدث التصريف من المنازل إلى الخارج ومن ثم إلى داخل هذه القنوات عن طريق الهبوط من أعلى منتهياً في منخفض والذي يخرج الأوساخ إلى أسفل كتف أسمنتي في مستوى الأرض. والغرض من ذلك هو حماية الأساس الحقيقي للمنازل من التلوث ثانية بواسطة التصريف العائد، وينثر الأخير في اتجاه تصريف الشارع. فإذا حدث أن مرت على نقطة كهذه عند لحظة ترسيب التصريف المنزلي، فمن الأفضل أن تمر أبعد ما يمكن في الجانب الأقصى. ومما ذكر حتى الآن يوضح أن التجهيزات الصحية في شبام تحتاج لجهد كبير لتطويرها. ولحسن الحظ فهي تعد المدينة الوحيدة في حضرموت التي يخالف نظامها الصحي كل مبادئ الصحة العامة والنظافة.

من الطبيعي أن يفضل الأغنياء من المواطنين تشييد قصورهم في أطراف المدينة دائماً حيث يسير تصريف المنازل في اتجاه بساتين النخيل في الأسفل. فمنازل عائلة عجاج والمنظر الذي يطل عليه المنزل في اتجاه الشمال عبر بساتين النخيل في الأسفل والوادي المفتوح في الخلف يستحق أن يشار إليه. والمدخل الرئيس لهذا المنزل يتجه إلى الداخل إلى المدينة حيث يقابل فضاء ضيقاً ولكنه مكشوف ونظيف بينما أثنائه الداخلي ونظامه لا يضاهيه شيء آخر. إنه من المستغرب أن تتحمل أسر متندرة مثل هذه القذارة والأوساخ بمدنيتهم ولكن في اعتقادهم أن المصلحة العامة للمدينة من اختصاص الحكومة. وظاهرة عدم المبالاة في الجزء القيعطي من الوادي واضحة خلافاً

للسلوك الأكثر تطوراً الموجود خلف حدوده. ويجب أن نعترف إنصافاً لأهل شبام أن مساهمتهم في التطور في هذا الوقت تتركز على ضواحي الحديقة وفي الساحل عند الجانب الآخر من الوادي تحت ظل الجرف. وفي هذه الأرض نما عدد كبير من المساكن ذات الطابق الواحد الجذابة والمطلية بالجبس الأبيض، كل منها في داخل بستان نخيل أو أشجار فاكهة حيث تقضي عوائل العاصمة الثرية جزءاً كبيراً من فصل الصيف بها. وبعض هذه المساكن تتميز بالترف والبذخ بوجود حوض سباحة وهناك واحد منها تملكه عائلة آل عجاج محجوز كلياً لسكن الزوار الأوربيين تقريباً.

سكنت في ذلك المنزل فريا ستارك في عام ١٩٣٥م خلال مرضها الخطير والذي تطور بصورة مزعجة، وفقاً لما ذكره السلطان علي، وعزى ذلك كثيراً لرفض المريضة اتباع قوانين التغذية أو الوجبة المحلية وإصرارها على الاستحمام المتكرر. وسكن الكولونيل بوسكويين في هذا المسكن مراراً كما كان أيضاً في متناول يد كل زوار الوادي من قوات الطيران الملكية وحتى عند زيارتي كان يسكن فيه شاب إنجليزي جذبه إلى هذا المكان إغراء سبأ وشبوة، وقد وصل قبل أربعة أو خمسة أيام عن طريق وادي دوعن من الساحل واسمه نورمان بيرن وقد ذكر من قبل في باب متقدم. وخلال فترة بقائي في شبام رأيته في مناسبات عدة وأشركته معي في وجبة من الأكل المقلب دون أن أغير إيماني الراسخ أنه في هذه الحالات يجب أن تعيش حياة ريفية، أي تأكل ما يأكله أهل المنطقة. وفيما يبدو أنه قد مر بتجربة غير حسنة عند تناول الطعام العربي في الطريق وقد تحدث عنه دون حماس وحتى ملابسه الأوربية لم يتخلص منها حتى الآن مع أنه قام بذلك متبعاً لنصيحة محلية قبل رحيله إلى شبوة، والشيء الأشد غرابة أنه اعترف بجهله التام عملياً باللغة العربية والذي عوضه بعض الشيء عن طريق استخدام مترجم من الخدم في عدن.

كان عليّ أن أبتسلم إلى نوع من التسلية على غير المتوقع في مساء اليوم الذي وصلنا فيه وذلك عندما كنت أجهز لتسلية أصدقائي بموسيقى من الراديو من مصر

والقدس. وأرسل لي شاعر محلي يدعى علي بن عوض بن حمد بانعيمان رسالة طالباً الإذن لزيارتي وقد أذنت له في الحال فتقدم وألقى علينا قصيدة مدح وترحيب مجداً فضائل ابن سعود. ومن المحتمل أن يكون قد أشعر سلطات عدن بالصدمة وذلك لأنه يشير بوضوح إلى اتجاه خفي في الأفكار المحلية، الذي لم يكن غائباً أبداً صراحة عن النقاش العرضي في هذه الأيام. وهناك بلا شك حركة تملل وضجر تحت الخفاء في حضرموت والتي يبحثون عن علاج لها، وعليه فإنه من الطبيعي أن يفكروا في ابن سعود كمنقذ لهم من مشاكلهم. وبعض الشجعان يطالبون بتدخله وآخرون أكثر جبناً يتعجبون بصوت عالٍ كيف يستطيع هو مساعدتهم. أجبت أنا عليهم بثبات أن ابن سعود لا رغبة له تحت أي ظرف في ضم المنطقة تحت مسؤوليته أو أن يتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية المجاورة له. واستشهدت بالتسوية مع اليمن على صدق ذلك واقترحت عليهم أن بمقدورهم تبني النموذج السعودي في السلام والأمن ويجعلونه ملائماً لاحتياج ظرفهم الخاص.

قضيت ثلاث ليالٍ في شبام في هذه المناسبة الأولى. وفي ظهر اليوم الثالث نُظمت لي رحلة إلى قرية بابكر الكثيرة وذلك استجابة للدعوة الملحة من مواطنها الأول نسيب بن علي بن عبدات. وقد كان في رفقتي حسين ومعروف. وقدنا سيارتنا على طول حافة ضواحي حديقة الساحل عابرين مجرى الوادي الرئيس، ثم مررنا بمنطقة واسعة من النخيل الصغير تسمى السبخة. وتقع قرية الحزم قليلاً إلى جهة اليمين في مقابلة ميلان المنحدر الصخري وهي متناثرة في غير نظام (زرتها في مناسبة لاحقة). وهذه القرية تبدو كجزيرة مستقلة تتبع لعدة أسر من السادة بالقرب من الحدود الشرقية لمنطقة القعيطي، والتي تحاط هنا بواسطة قناة السيول الرملية العريضة التابعة لوادي ابن علي حيث تخرج من مدخلها العظيم إلى الجنوب قليلاً من خلال

بساتين كثيفة وغنية يتخللها عدد من القصور الجميلة والقرى الصغيرة. ويمتد الخط الحدودي لمنطقة القعيطي عبر الوادي الرئيس إلى فم وادي جعيمة - قادم من الهضبة الشمالية-، ولكن تستثنى من ذلك القرارة وواحدة أو اثنتين من قرى الكثيري. وبعبرونا قناة وادي ابن علي مررنا عبر بساتين نخيل الحوطة التي تتبعثر منازلها من غير نظام في خط طويل حول منحدر لجرف عالٍ، محددة مدخل الرافد إلى داخل وادي حضرموت الرئيس. ونحن الآن في منطقة الكثيري.

وتحتل سلسلة متعاقبة من قرى صغيرة مع حقولها وبساتينها مساحة كبيرة على يسارنا من الوادي، ياب، وقرى وباليث، أوصلتنا إلى مستوطنة بابكر وهي المكان الذي نقصده وهي ذات حجم معقول وتبعد حوالي ستة أميال من شبام. وجمع مضيفنا هنا مجموعة كبيرة من زملائه من القرية للملاقاة، ومرة ثانية ظهر الاهتمام الكبير بالتفاصيل التي تخص طريق السيارة الذي أصبح الآن مشهوراً، وقد عبروا عن أملهم في أن هذا الاتصال الذي أعيد وضع الأسس له سوف يجعل ابن سعود قادراً على مساعدة أهل حضرموت عديمي الحظ، ليحققوا السلام والأمن الذي يرغبونه جميعاً. ولكن إذا تركوا وحدهم فإنه ليس لهم أمل في تسوية مشاكلهم وذلك لطغيانهم وغيرتهم وتقديرهم الضيق. والمظالم المحدودة لعشيرة الكثيري ستناقش قريباً. ولكن فيما يبدو لي أن عائلة ابن عبدات اهتمامها بالتعصب وكبرياء العشيرة أقل من الاهتمام بالسلام الذي يشدونه بأي تكلفة عن طريق أي شخص. فالسلام هو الهدية التي يطلبونها من حكوماتهم، بينما تعدد الحكومات هو العائق الواضح للسلام، ولقد أكرمونا بالشاي مع التمر وشرائح الأناناس المعبلة وكُمثرى كليفورنيا . . . إلخ ثم عدنا من الطريق نفسه إلى شبام قبيل غروب الشمس.

عند وصولنا وجدنا أن السلطان علياً قد عاد إلى عاصمته واستقر في منزل نائب الحاكم المقابل للقصر. وكنت مسافراً الصباح التالي لزيارة سيئون وتريم. رُتب الأمر

بحيث إنه يجب أن تنتقل مجموعتي إلى جناح آخر من القصر بينما الشقق والغرف التي كنا بها يجب أن تحجز لاستخدام السلطان. وفي هذه الأثناء شاركنا السلطان بعد العشاء الاستماع للراديو والذي كان مثمراً جداً وقضينا أمسية جميلة في المناقشة في كل المواضيع. ولقد جاء السلطان إلى شبام للبقاء لعدة أيام لإنجاز بعض الأعمال المحلية وغيرها من الأعمال ومن المتوقع أن أجده هنا عند عودتي. ولكنه لم يوافق على اقتراحي بأن نرحل نحن إلى معسكر خارجي ليتمكن هو من استخدام القصر. تظهر سيئون بصعوبة في يوم صاف وتبعد حوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر ميلاً من شبام، وطريقنا حتى بابر كان مشابهاً للذي وصفته من قبل. وبعد مرورنا على تلك القرية مباشرة دخلنا منطقة أخرى من المناطق الخطرة في الوادي وهي القرية ذات الجدران الكبيرة، قرية الغرفة -تبعد أقل من ميل من بابر- التي كانت في حرب مع القرية التالية، قرية «أهل فاس»، حوالي نصف ميل إلى الخلف، حتى وقت قريب عندما تم تدبير عقد هدنة. وكانت الأمور تبدو هادئة وآمنة ولكن آثار إطلاق الأعيرة النارية تلاحظ حتى في المساجد والأضرحة والأبراج المحطمة جزئياً مما يعكس محنة القرية. ولا نحتاج أن نذكر أن القريتين تتبعان إلى عشائر بني عمومة وهم آل عامر وأهل عمرو من قبيلة آل كثيري. وعداوتهم مزمنة مع أنه تتخللها فترات هدنة ترتب بواسطة السلطان أو صناع السلام الآخرين. وهذا وضع مثالي لحل مشكلة روميو وجولييت باستثناء أن جوليتات المحلية (الفتيات) نادراً ما يمكن أن تراهن في الخارج بعد عمر تسع أو عشر سنوات عند ذهابهن إلى زيارة بساتين النخيل المحفوفة بالمخاطر فداثماً ما يصطحبهن عبد أو قريب حاملاً معه بندقية مع حزام مليء بالطلقات حول وسطه.

خلف قرية آل فاس، يدخل الرافد العريض لوادي سر إلى الوادي من جهة الجنوب مع وجود قرى عديدة عند مدخله، أيضاً المهري الصغيرة ثم المستوطنة الكبيرة تريس التي نظر إليها حسين بشوق وهو يعترف بخجل أنه تزوج مرة ثانية حديثاً من

فتاة من هذه القرية من المشايخ المحليين. وبعد الزواج ترك عروسته لتعيش مع والديها لفترة ولكن يرغب في أن يأتي بها إلى شبام في المستقبل القريب لتشارك زوجته الأولى في السكن في بيته البلاطي الفخم. وتؤدي المرأة دوراً ثانوياً في الأحاديث العادية في حضرموت وعزلها في منزلها يظهر أنه عزلٌ تاماً، وأكثر تشدداً من نجد والحجاز. وقد أثار اهتمامي غرابة تطور هذا الجنس الذي يكون رجاله معتادين ومطلعين على الحياة الأوروبية في جاوة وسنغافورة، والنساء اعتدن على طرق الراحة الميكانيكية لحضارة الغرب وإن لم يكن ذلك فإنهن معتادات على تقاليد الغرب الاجتماعية. وحسب علمي فأنا لم أر أي امرأة من الطبقة العليا خلال فترة بقائي في حضرموت. وقد لفت نظري أن النساء البسيطات والفلاحات ونساء الطبقة العاملة عامة من الصعب تمييزهن من ناحية الزي عن نساء الطبقة العليا في وسط الجزيرة العربية. فإنهن يلبسن الثوب الفضفاض نفسه الذي يجبر على الأرض ومحجبات بالخمار كلياً، ومن المحتمل أن الفرق الوحيد الذي يمكن ملاحظته هو أن ثيابهن مشرقة ومفعمة بالحياة وبلونها الأزرق الغامق وتكرار الأزياء ذات اللون الأخضر القاتم أو المغربي الأصفر.

وأزياء الرجال، خلافاً لذلك، تبدو كما لو أنها ليست عربية كلياً، ومع ذلك يمكن أن تعد أنها وسط بين الملابس الفخمة لسكان الأراضي العالية في حضرموت التي تتكون من إزار ولا شيء آخر ما عدا أحزمة حول الخصر. والزي الجاوي الذي قد يكون تطويراً لزي حضرموت يتكوّن في الأساس من إزار وصديرة خفيفة وبدلة بزار خفيف للجزء الأعلى من الجسم. وأكثر العناصر سحراً عند سكان حضرموت هو جمال البنات في سن الطفولة. حتى في عمر التاسعة والعاشرة فإنهن يظهرن متجولات بلا قيود، وقد رأيت أكثرهن شجاعة تجري خلف السيارة وهو اللهو المفضل لاختواتهن الأقل جاذبية منهن واللاتي فيما يبدو أنهن لا يجذبن أي صعوبة في أن يجعلن من أنفسهن مصدر إزعاج بغض خاصة للغرباء في داخل أسوارهم. والنظر

إلى البنات يدخل السرور إلى النفس وهن عامة يظهرن بعض الجبن والهدوء ولكن يملأهن حب الاستطلاع. وهن جميلات كحديقة أزهار ويلبسن ثياباً بها رسومات لأزهار ومجموعة من الحرير اليباني، الإزار طويل يجز في الغبار والأوساخ ولكنه مفتوح من الأمام إلى أسفل قليلاً من الركبة حتى لا يعيق الحركة وبه عنق مربع عريض يرسل انزلاقاً مع كل انثناء في الجسم على الاكتاف الساحرة الرقيقة البناء. وأياديهن وأقدامهن جميلة وشعرهن الأسود طليق أو مضفور وعادي دائماً. وهن عادة ما يتجولن في مجموعات تتكوّن من ست أو أكثر وهذا التنوع الكبير في ألوان ملابسهن يعطي تأثيراً كاملاً أو ببساطة يعطي الانطباع الذي يعطيه حوض من الزهور الجميلة. إنهن حتى الآن يشكّلن المظهر الوحيد الأكثر إثارة وبهجة في الأرض التي يحببن حتى تجبرهن التقاليد على الانسحاب والتواري من نظرات العامة إلى عالم المرأة.

على الضفة اليمنى لمصب سر تقع القرية الصغيرة ثوم والتي تندمج بساتين نخيلها في حافة واحة سيئون العظيمة. ودخلنا المدينة نفسها عن طريق بوابة متواضعة في حائطها الغربي، حيث طرقاتها الضيقة الملتوية لم تصمم لحركة السيارات، كما توجد جمهرة من الأولاد الصغار تجعل التقدم فيها بطيئاً. خرجنا في الحال إلى فضاء واسع في الجانب الشرقي من المدينة حيث يوجد قصر السلطان العظيم -حسب تقديري فهو المظهر المعماري الرئيس لحضرموت- توجد أبراج فوق السوق لم يكتمل تشييدها بعد وقد صممت وشيدت بواسطة شركة سيد أبوبكر بن حسين بن الشيخ آل كاف، الثاني من خمسة إخوان من العشيرة القيادية لعائلة آل الكاف العظيمة. ويقف قصر سلطان تريم بالقرب من قصر السلطان نفسه وينافسه تقريباً، بينما بعيداً في اتجاه الشرق تمتد الواحات الشاسعة التي تنتشر في بساتين نخيلها المنازل الصيفية البيضاء للأثرياء من المواطنين والذين عادة ما يقضون الخريف أو موسم التمر كما يقولون في الصحراء والتي يقصدون بها بساتين النخيل. ويجري حائط المدينة بعيداً في شكل دائري ليحيط بمساحة كبيرة لهذه البساتين والمدينة نفسها، بينما نمت خلفه حديقة كبيرة

في الضاحية تسمى القرن بها العديد من المساكن ذات الطابق الواحد والمنازل الصيفية والفنادق.

عند توقفنا في باب القصر كان السلطان في مسكنه الصيفي على بعد نصف ميل ومن ثم ذهبنا إلى هناك فقط لنكتشف أنه كان يقضي اليوم في فيلا تتبع لأخيه جعفر، ووجدناه هناك بمعيته مجموعة معتادة من أفراد العائلة تتكون من اثنين من أبنائه -حسين وآخر نسيت اسمه- وأخويه الاثنين حسين وأحمد. وتعرفت مؤخراً في اليوم نفسه على محمد من فرع العائلة بتريم والذي يحتل القصر الثاني الذي ذكر من قبل ويحكم أخوه عبدالله منطقة تريم. وجلسنا نتحدث بحرية أثناء شربنا للشاي وتدخيننا للتبغ في غرفة استقبال حسين وهي قاعة ذات حجم معقول وحيطانها مطلية بزخارف الجبس الرقيقة. وقام حسين بأداء فريضة الحج قبل سنوات قلائل -أعتقد في عام ١٩٣١م- مع أبيه منصور الذي توفي في عرفات. والإخوان الثلاثة جميعهم الآن متحمسون لاحتمال ذهابهم إلى الحج عن طريق السيارة كما أن لهم مطالبهم الخاصة التي يعتزمون أن يشغلوا بها مكاتب ملك العرب^(١).

قدم طعام الغداء وكان لذيذاً جداً، تبعاً لموضة "جستافيل الجاوية"، كل نوع من الطعام طهي إلى حد الكمال، وقدم صحن أو اثنان من الباباي الحلو المذاق، والأكثر عجباً هو تقديم المياه المثلجة والتي من شدة برودتها كان من الصعب أن تشربها إلا على رشقات. ودون أن ندرك، فلإننا عبرنا حقلاً ثقافياً وسياسياً جديداً. ودون أدنى شك فإن شباب هي المركز التجاري لحضرموت مع أن سوقها أقل جاذبية بكثير من سوق سيئون. وهو كذلك أكثر تخلفاً كما هو جلي من إهماله للراحة والنظافة والزينة. وفي سيئون دخلنا منطقة نبلاء إقطاعيين يعيشون حياة سهلة مريحة -ولكن لبعض الأسباب السياسية لم يكونوا سعداء- يمتلكون متع الحياة ويستمتعون بترفها

(١) أي الملك عبدالعزيز -رحمه الله- (المراجعون).

البسيط. وفي الظاهر أنهم أغنى من منافسيهم القعيطيين وبكل المقاييس أكثر إسرافاً في صرفهم. والمضخات التي تدار بواسطة الماكينة هنا عددها أكثر من الغرب البعيد، فمعظم المساكن بها أحواض سباحة يستعمل الفائض من مائها في ري الحدائق الصغيرة المزروعة بتنوعٍ عظيم من أشجار الفاكهة، السيارات أكثر عدداً، والإضاءة بالكهرباء بدأت تدريجياً، وأسلوب الطهي متقن ولكن قمة الترف هي الماء المثلج ووجود أقل من ستة من التلفونات التي تهئ الاتصال بين المنازل الأكثر أهمية. ولكن فوق الجميع فإن سيئون - مع كل الشعر الذي قيل عن تريم - هي البقعة الأكثر جمالاً في حضرموت.

فُضِّلَ المشهد الذي يمكن رؤيته من قصر السلطان على كل المشاهد الأخرى باستحقاق بواسطة فان دير مولين. وبالتأكيد فإن رؤيته تبهج النفس. تريم هي مركز حضرموت الروحي والثقافي. والعنصر المسيطر هو العدد الكبير من سكان المدن في الوادي وهم عائلة علوي سعيد من آل كاف استوطنت هنا معظم ألف سنة الماضية، منذ حركة القرامطة في القرن العاشر والحادي عشر والتي جلبت إلى هذه المدينة من البصرة جد العشيرة سيد أحمد بن عيسى المهاجر العلوي والذي تظهر قبته حتى الآن في هضبة على بعد خمسة أميال من سيئون. وعلى ما هم فيه فإنهم يتمتعون بقدر كبير من التقديس في وسط العداء الدنيوي من قبل جيرانهم. والبدو لا يتحرشون بهم ولكن من الخطأ أن نظن أنهم يعيشون في جنة مزروعة السلاح. فينهم - كما في كل مكان - آخر علامات العشيرة المعروفة.

ولكل عشيرة - بالطبع - أتباعها، والحرب الأهلية بين الأسياد عندما تنشب تشمل - بالطبع - أتباعهم. وبعيداً عن هذا فإن الفضل الكبير الذي تقوم به عائلة آل الكاف هو الدور المميز الذي تؤديه الآن في طليعة التقدم، وكقواد لحركة الحضارة والتطور. وتفقد الطبقات الدينية؟ عادة الكثير من سلطانها بتعليم وتثقيف الشعب ولكن عائلة الكاف لا تبحث أو ترغب في أي نوع من السلطة المؤقتة وقد استفادوا

عن طريق اتصالهم بجاوة وسنغافورة وجلبوا إلى أوطانهم الكثير من التقدم. وسارت جهودهم في ذلك ببطء ولكن بتأكيد لنشر ذلك التطور. وكل التكاليف التي صرفت على العملية تحملتها المخصصات الخاصة بأسياذ الكاف. وإنهم بالتأكيد وضعوا نموذجاً نبيلاً في وسط ظروف غير مشجعة، ولكن التاريخ لن ينسى أنه في زمن ما رمت عائلة مميزة الصدع الذي فشل حكام الأرض أن يقفوا في وجهه وهو انقضااض البأس والفوضى.

يجب أن أختصر تجربتي الأولى في سيئون، وبما أن برنامجنا المحدد يشمل وصولنا إلى تريم عند غروب الشمس. وبعد وجبة الغداء انتقلنا إلى الفيلا الخاصة بالسلطان علي. وعند وصولنا كنت مستغرباً أن أرى منظر حطام. فالحائط الجنوبي لمجموعة المنازل المنتشرة وجزء كبير من قاعدة العمود المربعة النظيفة البيضاء للمسكن الأرضي وبعض الغرف الأمامية قد دمرت قبل أسبوعين بواسطة سيل رهيب من وادي فغمة الرافد من الهضبة الجنوبية والذي يشارك وادي سر - الذي ذكر من قبل - في المحافظة على واحات سيئون حية ويانعة. وقد يبدو أن السلطان قد بنى قصره الصيفي في قناة السيل في الوادي وكأنه يبحث عن المشاكل. ولكن الحقيقة هي أن السيول الكبيرة في أودية حضرموت ليس لها حدود أو قيود وقد تكون قاسية مع أي شيء في طريقها. فحيطان الخندق العظيم التي لا تخترق تبعد عن بعضها بما يكفي مما يجعلها تتحمل أهوال السيل الجارف. وباستثناء المنطقة المحطمة فإن المسكن ذا الطابق الواحد ساحر في عموميته، وبه حوض سباحة كبير وهو الآن خالٍ، وفي الوسط ردهة واسعة مفتوحة صالحة لجلسة المساء. ويوجد عدد من الغرف المريحة المفروشة جيداً بالبساطة في الجزء الشمالي للاستعمال أثناء اليوم وتوجد حمامات كاملة التجهيز ونظيفة للغاية. وهناك فناء حديقة صغير مليء بترف بأشجار الباباي والموز. وبينما تعانق أشجار النخيل المحيطة خارج سور الردهة والذي تتعلق في أعلاه شجرة أكاسيا ذات أزهار بيضاء ساحرة في وقت إزهارها الكلي. والمطلوب الآن هو قسط قليل من

الراحة مع وجبة خفيفة من التمر والفاكهة المعلبة والبسكويت قبل أن نغادر لمواصلة رحلتنا مع الوعد بقضاء الليلة التالية هنا كضيوف للسلطان.

مررنا بعد نصف ميل من هذه البقعة عبر البوابة الشرقية لحائط المدينة إلى نخيل القرن ومنطقة الفيلا والتي بدا خلفها بعد ميل واحد حزام واسع لأشجار نخيل مزروعة حديثاً معتمداً كلياً على الري بالسيول. وتعرف هذه باسم حمى سيئون -أو محمية الرعي- التي تحدد حدودها البعيدة بعد المرور على القرية المدمرة، قرية حصن الحوارث، في حافتها على اليمين، نهاية واحة سيئون. وتمتد واحة سيئون شرقاً وغرباً حوالي خمسة أميال طولاً بينما عرضها على طول خط وادي فغمة إلى داخل الوادي الرئيس قد يبلغ ثلاثة أميال. وتقع على حدودها الشرقية مع طريق العربات المتعرج خلال مقبرة غير نظيفة في طرفها القرية المتسخة مريمّة التي تغطي عليها هضبة منخفضة من الحجر الجيري والتي تحتفظ جوانبها وقمتها ببقايا جدران قديمة ومبان. وقد ذكر أن هذه الأطلال قديمة جداً ولكن مع ذلك ودون فحص دقيق، أعتقد أن موقعاً مثل هذا لا بد من أن الإنسان استوطنه لفترة طويلة وبالتالي مبانيه القديمة لا بد أن تكون قد استهلكت وذلك نتيجة لاستخدامها كموايد بناء في تشييد المباني اللاحقة. ويبدو أن هناك العديد من الروابي المتشابهة التي تقع بعد فواصل جبلية قصيرة من مريمّة، عبارة عن شظايا كبيرة من الجحروف الصخرية تساقطت حرة في الوادي وتشكلت مع الزمن، كانت قد احتلت بواسطة محاربين. وتعد حالة الخراب الكاملة للقسم الشرقي مريمّة نفسها خلف الهضبة دليل على إقطاع قديم استوطن بصعوبة في هذه المنطقة. وأصبحت البلاد غير قابلة للسكن من هنا حتى قرية آل باعلوي (علوي) -حوالي أربعة أميال-، كما يبدو، لسبب ما. وقرتاها الصغيرتان حوطة سلطنة - التي يملكها مشايخ عشيرة الزيدة- وقارة العرفضاء على هضبة منخفضة- معظمها محطم والأرض التي حولها غير مزروعة، على الرغم من وجود منطقة من النخيل على شمال الوادي تسمى مئاوير البوع.

دخلنا بعد حوالي ميلين ونصف من مريمة إلى مستوطنة تارية الكبيرة والتي يبدو عليها الرخاء . وتتكون من مساحة كبيرة من النخيل على الضفة اليمنى من الوادي الجنوبي بتاربة حتى اتحاده مع الوادي الرئيس ، وثلاث أو أربع قرى كبيرة على جانبي القناة نفسها كما أن هنالك العديد من المنازل المعزولة كبيرة الحجم . وذكر هانز هلفريتز عند قضاء ليلة في قرية تارية المحصنة أنه باستثناء الحقيقة هنا أو في أي مكان آخر في حضرموت خارج المدن المحاطة بالجدران والمنازل التي تشكل كحصن فإنه من الصعب أن تجد في كل الوادي مستوطنة أقل في المظهر العسكري من هذه . وهي ليست محصنة بالمعنى المعروف لهذا المصطلح . وهي تقع في الحد الغربي لمنطقة خطر أخرى بل المنطقة الأكثر خطورة حتى الآن . وهنالك هدنة مستمرة منذ مدة طويلة بين تارية وتريم والوادي مفتوح للحركة لمسافة ثمانية أميال من طريق السيارات . والمنطقة التي تتخلل ذلك يحتلها العدو والذي يمتد جسمه الرئيس - قسم آل جابر من آل كثير - ليشمل كل الطرق إلى أعلى وادي عدم على طول التقائه مع الوادي الرئيس والذي ينحرف هنا انحرافاً حاداً باتجاه الشمال إلى تريم نفسها ومن ثم يأخذ مجراه الشرقي . وعلى طول طريق السيارات أو بالقرب منه توجد قرى الأعداء الريضة وكذلك السوري والغرف . ولاستبعاد احتمال الحرب قامت عائلة آل الكاف ذات العقلية التجارية ببناء طريق سيارات محفوف بالمخاطر فوق وعبر المنحدر العظيم الذي يفصل بين تريم وتارية . ويسير هذا الطريق بالتأكيد بجانب المنطقة العدوانية ويختصر المسافة بين المستوطنتين كثيراً ، ولكنني جد مسرور لأن الهدنة الحالية تجنبت الإشارة إلى ضرورة اختبار هذا الطريق الجديد وذلك لخطورة صعوده وهبوطه . وقد يساعد الطريق في الهدنة ولكنه في هذا الوقت يحتاج إلى إصلاح وذلك نسبة للإهمال الطويل والأمطار الحديثة .

يعد وادي عدم الذي علينا الآن أن نتغلب على دلتاه القاسية أحد أهم الروافد الحقيقية لوادي حضرموت بالمقارنة مع وادي ابن علي والثلاثي الذي يكون الوادي الرئيس لحضرموت يبقى كمجرى نهر على طول الطريق من خلف هينز إلى البحر في

ننتقل إلى نخيل
شجار نخيل
سيئون - أو
قرية حصن
شرقاً وغرباً
نخل الوادي
المتعرج
بها هضبة
عرة ومبان .
أعتقد أن
تقديمه لا بد
اللاحقة .
صيرة من
ب الوادي
الكاملة
عوبة في
(علوي)
لطانة -
عظمها
ل على

فترات تحدد بوجود مناطق مستنقعات وأحواض محاطة بالقصب. ولكنه يصبح هنا عند اندماج وادي عدم رافداً شبه دائم تحت اسم المسيلة ويحمل الماء إلى أسفل نحو البحر. ويعبر الطريق هذا النهر ومنه يمتد إلى مسافة ميل تقريباً على امتداد سلسلة صخرية لتجنب تلال الرمال وأكوام الطمي التي تعترض الوادي. وفي النهاية البعيدة للطريق الذي قد اتسع، نزلنا إلى سطح متموج من الطمي والصخر مكوناً الفم الواسع لوادي بئي الذي يأتي إلى أسفل عبر السهل الشاسع باتجاه حوض تريم الذي يعد شريانه الرئيس. ويدعم إمداده المائي بواسطة الروافد الأقل أهمية وهي عيديد ودمون على جانبي المدينة والتي يقع بالقرب منها إلى ناحية الشرق في الضفة اليسرى لقناة المسيلة، نخيل وقرى النجير.

ومبلغ علمي أن الموقع الحديث لتريم لا يوجد ادعاء لاعتباره موجود منذ القدم. إن بعض أجزاء حوضه تبدو ظاهراً أنها كانت تحت احتلال نشط بواسطة الإنسان منذ زمن بعيد. وما تجدر الإشارة إليه -ولفائدة الباحثين في المستقبل- أنه بالرغم من أن تريم قد ذكرت بواسطة الجغرافيين العرب القدامى إلا أن بليني واسترابو لم يذكرنا أسماء تحمل أي شبه لها. وذكر بليني في قائمته أسماء ثلاث مدن حميرية وهي سبيي، وثمنة، ونجبة وهذه ذكرت بوضوح. وكذلك ذكر بغير وضوح أسماء مثلث شبي، ودمون، والنجير. ولا يمكن أن نحمل الأمر أكثر من ذلك خاصة وقد تكون طمي كثير في سطح وادي حضرموت. على أن الحفر والتنقيب الأثري وحده كفيل بكشف الأسرار المدفونة في أعماق التربة.

ما زالت بئي في فم الوادي باقية كقرية صغيرة بها مساحة كبيرة من النخيل. وتطورت عيديد بسرعة إلى مدينة ذات حدائق، مع القلل والمنازل ذات الطابق الواحد لعائلة الكاف، وتقبع بساتين نخيلها المنتشرة من جدران المدينة باتجاه الخارج فوق فم الوادي حيث يجري طريق على مدى حافتها على طول طريق جذاب من أشجار السدر حتى حائط المدينة والتي دخلناها عن طريق واحد من أبوابها المتسخة مباشرة بعد مغيب

الشمس . وتوجد المقبرة المحلية الضخمة في هذه النقطة في داخل الحائط مباشرة ، وهي مقسمة إلى عدة أقسام بواسطة الطريق الذي يمر خلالها في عدة اتجاهات . وتكون القبور النظيفة المعتنى بها جيداً مع الشواهد المنحوت عليها وبعض الأضرحة الشبيهة بالقبب والسراديب مدينة موتى حقيقية عند عتبة مدينة الأحياء . ومررنا خلال المقبرة بالطريق ذي الطابع القديم المتعرج في اتجاه مسكن السلطان عبد الله بن محسن حاكم الكثيري . وكان ذلك مساء الخميس والطرق مزدحمة بالنساء اللاتي يلبسن ثياباً صفراء أو خضراء خفيفة أو زرقاء وهن عائدات إلى منازلهن يحملن مؤناً لاحتياجاتهن الأسبوعية . ويوجد بمدينة السادة وقف منظم جداً هو مؤسسة لتوزيع الأغذية والنقود وضروريات الحياة على المحتاجين . وفي مساء كل يوم جمعة يذهب الفقراء إلى مصادر الإحسان . وهم في هذه اللحظة متجهون إلى منازلهم يحملون عطاء الله في جيوبهم الكبيرة . والأطفال في هذا الازدحام عددهم كبير كأمهاتهم ليس من السهل أن تمر من خلال هذه الجمهرة . ووصلنا إلى مسكن السلطان أصابه دهشة ، لأننا لم نتمكن من إبلاغه مسبقاً عن رغبتنا في زيارته . وكان يجلس مع قلة من الأصدقاء في الخارج تحت ظل المبنى الكبير الذي أجّره مؤقتاً من أحد أعضاء عائلة آل الكاف بينما أعيد بناء وتحديث القلعة القديمة في هضبة في وسط المدينة ليسكن فيها السلطان نهائياً . ووجهنا مباشرة إلى أعلى حيث غرفة استقبال كبيرة ثم انتقلنا بعد زمن قليل إلى السطح لنستمتع ببرودة المساء . وانتشرت أخبار وصولنا في المدينة في لحظات قليلة وعليه تجمع كل الناس في القصر لاستقبال الزوار والترحيب بهم . وكان معظم المتجمعين من الشخصيات الكبيرة من أفراد عائلة آل الكاف ، العديد منهم كانوا صغاراً في بداية طريق الرجولة ، مع وجود السيارات وسبل الرخاء الأخرى تحت تصرفهم ، وأمامهم الحياة كلها ليستمرروا في أداء العمل الجيد كالذي قام به كبارهم من الجيل الحالي ، ولم يهمل تعليمهم ذلك لأنه إضافة لوجود عدد من المدارس في المدينة التي أسستها عائلة الكاف ، فإن للعائلة مدرسة خاصة لأبناء العائلة فقط .

وتعد اللغة الملاوية عند هذه العوائل لغة ثانية ويتحدثونها بطلاقة فيما بينهم ومع خدمهم. وعندما تكون العائلة في جاوة وسنغافورة كأنها في بلدها حضرموت ولكن الحضرمي مهما يكن من أمر فإنه في الخارج لا ينسى بلاده الأصلية - وليست هي بالضرورة الأرض التي ولد فيها-، وبلا استثناء تقريباً يرجع لها يوماً. ويلاحظ أنهم يحبون بلادهم بشدة حتى عندما يكون انتقادهم لنواحي التقصير فيها عنيفاً جداً. ولقد كنت غير محظوظ في توقيت زيارتي وذلك لأن الإخوان الثلاثة المعترف بهم كقيادة لمجتمع تريم كانوا في زيارة لمصر والذين يوجدون معنا هنا هم أبناءهم. أما الزعيم المعترف به عامة لرواد التطور في حضرموت هو سيد أبوبكر بن الشيخ الكاف، الثاني من الإخوة الثلاثة الكبار، أما الاثنان الآخران فهما عبدالرحمن (الأكبر) وعمر. العضو الأكبر مقاماً في العائلة والذي يعتقد أنه الأكبر عمراً مع أنه أكبر مني بقليل هو أبوبكر بن حسين بن الشيخ الكاف رجل جذاب وسيم، راجح العقل وقد قام بواجبه كالعضو الأكبر في العائلة لتسليتنا والاهتمام بنا جميعاً في وقت الغداء في اليوم التالي. وبالنسبة لبقية أعضاء العائلة كان من الصعب عليّ أن أعرفهم جميعاً لأنني كرجل غريب في أول زيارة لي لا يمكنني أن أجِدَ طريقي خلال هذه الأسماء المتطابقة لعائلة قادت التطور ونمت إلى حجم قبيلة. ولم أنجح في اكتشاف من هو الكاف الأصلي الذي أصبح اسمه هو اسم العائلة لفرعه من السادة آل علوي وكذلك لم أعرف متى عاش، ولكن بعد زمن قليل أدركت أن المصطلح المألوف «الشيخ» يستعمل في هذه العائلة كاسم حقيقي.

قضيت الصباح التالي في جولة من الزيارات إلى عدد كبير من منازل عائلة آل الكاف في المدينة نفسها وضواحي عيديد. والمنازل الأخيرة (في الضواحي) ذات بناء حديث على شكل فيلا بينما منازل المدينة قد يرجع تاريخ بنائها إلى نصف قرن أو أكثر، وهي عامة أكثر فخامة مع ميل بسيط للزخارف النباتية. وفي الحاليتين فإن الإلهام أتى من سنغافورة أو جاوة. ورأيت ماكينات دويتز في واحدة أو اثنين من حدائق

عبيد والتى يستخدم معظمها لأغراض الضخ. وبعض المنازل بها إضاءة كهربية وحمامات ممتازة إضافة إلى حوض السباحة (يايى). وفي معظم المنازل يوفر الثلج، وفي اعتقادي أن كل منازل آل الكاف ومنازل السلطان الاثنين موصلة كلها بأجهزة تلفونات يحتوي كل منها على عشرين إلى ثلاثين رقماً. وحققت التجارب في حدائق الفاكهة تقدماً جيداً في بعض المجمعات، حيث رأيت أشجار الكرم والرمان والموز والتين والجوافة والخوخ والمشمش والباباي والذي يعد أكثر الأشجار الدخيلة نجاحاً كما هو الحال في مكة المكرمة. أما أشجار الليمون فيبدو أنها متقدمة في النمو والتأسيس وإنه لشيء مفرح عندما ترى حرص كل أفراد العائلة الصغار والناضجين على هذه التجارب تحت التطوير وهم بالتأكيد يجعلوننا نعجب بهم للمثال الجيد الذي يضعونه للعامل. ودون ريب فإنه في السنوات القادمة سوف لن يكون لهم سبب لينكمشوا من المقارنة بالآخرين. ولا غرو فإن الله أعطاهم منطقة خصبة وساحرة كأي مكان آخر.

على الرغم من أن ماكينات الضخ تتقدم بسرعة لكن مازال هناك العديد من الآبار تعتمد كما في الماضي على السحب بواسطة الإنسان، فريق مختلط من الرجال والنساء، أربعة أو ستة يسيرون إلى أعلى أو أسفل، في منحدرات قصيرة مطابقة في طولها إلى عمق الآبار غير العميقة لحسن الحظ. وفي كل مرة يصل الفريق إلى أعلى المنحدر، يتوقف ويندفع إلى الأمام مردداً أغنية ساحرة قبل سحب الحبال إلى أسفل لسحب دلو الجلد المليء بالماء إلى أعلى. وهؤلاء الفلاحون الذين يعرفون بالفقراء يبدو أنهم أحفاد المشايخ^(١) وهم يكونون نسبة كبيرة من السكان، وفي الأيام السابقة كانوا يمثلون طبقات الموظفين في السلك الكتابي، يعيشون على هبات السادة وزوارهم ولكن مصطلح المشايخ قد فقد منذ زمن طويل أي دلالة على التعليم وأصبح الآن

(١) الفقراء: من قبائل شهبوة، يعرفون بالفقراء عند أهل الجوف، وبالمشايخ عند أهل حضرموت، الحجري،

مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج ٢، ص ٤٤٥. (المراجعون).

مجرد إشارة إلى الطبقة أو العشيرة، وبالتأكيد فهو مؤشر إلى الدونية. ولم تعد حضرموت أرض القديسين تربي وتغذي جمهوراً من المتطفلين ليشاركوا البدوين في سلب حجاجها. وعليه فإن الفقراء عليهم لكي يعيشوا أن يكدحوا في خدمة الأسياد الأعلى الذين صنعوا هذه الثروة في الخارج بالعمل في الأرض والأعمال التجارية ويستعملونها الآن في تطوير بلادهم.

وتريم في مجملها مدينة مخيبة للآمال، ومن المحتمل أن يعزى ذلك إلى أن وحدة المشهد تعترضها دعامة منخفضة من الهضبة تخترق المدينة لتوطيد القلعة القديمة. وفيما عدا ذلك ووجود القصور الجميلة للسكان الأغنياء، فإن المدينة تفتقر إلى مبان عامة عظيمة، وبها منطقة سوق ضعيفة وسيئة للغاية. فالمدارس عبارة عن منازل حوكت لأغراض تعليمية وحتى بين المساجد لا يوجد هناك مبنى يثير الإعجاب، وهناك مثذنة مسجد المحضار الطويلة المربعة والجميلة التي تمثل مظهراً معمارياً حقيقياً يمكن أن تفخر به المدينة، ويبدو أنها ليس في مكانها كلياً على الرغم من أني لم أتسلقها ولكن أستطيع أن أقول إنها مطلّة على منظر جميل للمدينة. وعليه فإن قمة باعشمين الأكثر علواً وبعداً يمكن رؤية مشهد جميل للمدينة منها كذلك. إذن لا يمكن مقارنة المنظر هنا بسيئون. والمسجد الجامع، هو مبنى جميل للغاية ستة أو سبعة صفوف من الأعمدة في اتجاه القبلة وتوجد ساحة مفتوحة تفصلها عن صفوف أعمدة مشابهة ولكن أقل عمقاً في الجانب الآخر. والمبنى ضخم ولكنه بسيط للغاية في الأسلوب. وبما أنه المسجد الجامع الوحيد في المدينة فقد صمم ليعكس كل السكان من الرجال البالغين في وقت واحد. ومع أن عدد السكان الكلي في المدينة ٣٠.٠٠٠ نسمة مما يعني سعة ٨.٠٠٠ إلى ١٠.٠٠٠ مصل. وكان المسجد ممتلئاً بالناس في صلاة الجمعة إلى أقصى سعة عندما حضرت الصلاة مع السلطان. وكان موقعنا في الصف الثاني بالقرب من المحراب. أما الصف الأول فيبدو أنه محجوز للعلماء والذين دخل وخرج معظمهم عن طريق باب الإمام الخاص بالقرب من المحراب في

الحائط الخلفي . وأثارت الصلاة هنا انتباهي وذلك لوجود لمسة (مستكلفة) أكثر من الصلاة في نجد والحجاز، فمثلاً يكون الإمام محجباً كلياً عند دخوله بواسطة غطاء رأسه ذي اللون الأبيض الذي يشبه القلنسوة . وبعد الصلاة عند مغادرتي للمسجد مع السلطان سائرين في اتجاه السيارة شعرت بأني بطل المناسبة . إذ تجمع جمهور كبير حول السيارة، وعندما ظهرت على عتبات المسجد ونزلت نحو السيارة عرفت أنني الشخص المحتفى به من الجمهور بهدوء ونظام واضح . وسمعتهم يقولون: «ذلك هو» ثم «السعودي» . وكان مروري بالأرجل أو السيارة مناسبة في كل مدن حضرموت مماثلة لهذه ولكن بطريقة أصغر من هذه المظاهر . ودائماً كنت أسمع همسات رهبة تقول أحياناً «نصراني» وهو مصطلح أقوى بقليل من مصطلح رجل إنجليزي أو أجنبي . وأعتقد أنه سوف يتحدث الناس في حضرموت لزمن طويل عن زيارتنا لهذه الأجزاء وخاصة وصولنا بالسيارة كمنااسبة ذات أهمية أو معنى غير عادي . وخلف هذه الهمسات تسلل رؤى موحية بالسلام .

ولا عجب أن تشكل الدائرة الطولية لحائط المدينة، المبتدئة من نقطة على خندق شديد الانحدار والمنتھية في آخره، الحماية الوحيدة للسكان ضد الحرب . والعدو على أبوابهم أو على بعد ميل منهم تحت الخندق المقابل . ويأمل الجانبان في استمرار الهدنة، ولكن أي حادث مؤسف بسيط قد يضع حداً لها . وتوجد في الحائط أبواب ليست فيها ميزة معمارية، تعمل كمدخل للمدينة من عيديد ومن سيئون ومن الشحر وطريق العربات من عينات ومن دمون على التوالي وبهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق في اتجاه عقارب الساعة . وثمة منازل للحراسة توجد على أبعاد متفرقة ومكررة بين الأبواب، قوية البناء، بينما وقف حصن صغير كحارس في كل طرف من الحائط . ولا يوجد حائط على طول وجه الخندق وليس هناك حاجة للمراقبة .

لا حاجة لي إلى الحديث كثيراً عن الضيافة الجميلة لأهل تريم أثناء فترة بقائي معهم التي كانت قصيرة جداً، وفي كل ذلك الوقت قاموا بخدمتنا والترفيه عنا دون

كلل أو ضجر. واستخدام الشاي هنا بدلاً عن القهوة في الضيافة. وتجهيز الشاي هنا عملية معقدة وطويلة كما هو الحال في تجهيز القهوة في نجد. ويجهز الشاي في غرفة الاستقبال بواسطة خدم يشرفون على تقديم الشاي بكل معداته الضرورية من شاي وسكر وبراد (إبريق) وأكواب وملاعق. وعندما يغلى الماء يملأ إبريق صغير إلى نصفه بأوراق الشاي ومن ثم يملأ بالماء ويترك في الموقد. وتملأ الأكواب إلى ثلاثة أرباعها بالماء الساخن ثم يضاف السكر. -في كميات كبيرة ولكن كان دائماً يجهز لي إبريق شاي بلا سكر منفصلاً ومعه كوبان حسب حاجتي- ويصب الشاي من الإبريق الصغير في الأكواب وهو قوي جداً ومر. وتوضع الأكواب عادة على الأرض أمام الضيوف بواسطة الخدم. ويقدم للضيوف أو الزوار المميزين كوبان، وهذا أيضاً يحدث عند تقديم القهوة وهو مظهر غريب على قواعد التشريفات. وعندما يأتي الزوار في وقت غير وقت الوجبات فإن المضيف لا يعد ضيافته مكتملة دون أن يقدم وجبات خفيفة منعشة، مثل البسكويت والحلوى والمعجنات المتنوعة محلياً والفاكهة المعلبة. وعليه فإن ضيافة يوم يمكن اعتبارها اختباراً جاداً لسعة تحمل الضيف وذلك نسبة لكمية الأكل الكبيرة التي تقدم.

يختلف السلطان عبدالله بن محسن عن أخيه محمد الذي يعد بعض الشيء نحيلاً وضعيفاً. والسلطان عبدالله ثقيل في بنائه الجسماني وأكثر مرحاً ولكن دون طموح فكري كبير أو مقدرات نقاش. ومظهره الذي يشبه مظهر حفيده السلطان علي ابن منصور من سيئون، يعطي انطباعاً بأنه مزارع صغير ميسور الحال أكثر منه حاكم الأرض والذي نجد أن مسؤولياته قد تكون السبب في تجعد جبينه الذي لفت النظر. وفي محيطه الخاص فهو يحتل موقع ملك مستقل ولكن إلى حد ما تطغى عليه عناصر عائلة آل الكاف، وفي نواح أخرى فرضت الظروف عليه بعض القيود التي بالتأكيد يستاء منها. وقد حدثت مشكلة بينه وبين السيد أبي بكر بن الشيخ الكاف قبل حوالي أربع سنوات لم أحاول أن أتأكد منها. ونتج عن المشاجرة هجرة السيد إلى

سيئون تحت طلب السلطان علي، وهناك ما زال يعيش في منزل جميل جداً من طابق واحد والذي بناه لنفسه في حي الحديقة في المدينة، وعلى الرغم من أن حديقة المدينة لم تكتمل بعد إلا أن المنزل نفسه مع غرفه الواسعة وحوض سباحته الكبير من المحتمل أن يكون أفضل فيلا بنيت حتى الآن في حضرموت. وكان لا بد لي من أن أقضي هذه الأمسية في منزله هذا وذلك لأنني وجدت عند وصولي إلى سيئون أن السيد سقاف بن السيد أبي بكر الذي كان بعيداً في مصر قد استجدى السلطان ليسمح له باستضافتي.

يقع بعيداً إلى الشرق من تريم واحات عينات وقسم، وفي الورا تقع بني هود وبثر برهوت وكانت جميعها مغرية لي، ولكن بما أنني وصلت ورأيت تريم فلا بد أن يكون هناك حد لتجوالي. وعليه وبعد يوم لطيف من الضيافة المكثفة، مررت مرة أخرى عبر حائط تريم وعدنا بالطريق نفسه الذي أتينا به فوصلنا إلى قصر السلطان. وكان القصر خالياً وبدون أثاث لأنه في مثل هذا الفصل يسكن السلطان كأي شخص آخر في حديقة المدينة. والغرف التي بها أثاث هي الصالون الرئيس وفي تقديري أن مضيفي قد نقل نفسه هنا مؤقتاً ليمنحني المتعة المقدرة جداً لرؤية القصر من الداخل ورؤية منظره المشهور. وتحركنا جميعاً إلى منزل الكاف الأرضي بعد راحة قصيرة هنا لشرب الشاي. أخذني السلطان برفق، بسيارته في طريق متعرج غير مباشر عبر المدينة لكي أرى شيئاً من داخلها. ولاحظت أن المدينة أكثر وسعاً في جانب الحديقة منه في الجزء القديم في اتجاه البوابة الغربية، والمنازل بالمدينة جيدة البناء، والطرق واسعة نسبياً ولطيفة. وفيما عدا المسجدين الصغيرين اللذين يمكن أن يجذب لهما الناظر فهناك القليل الذي يمكن ملاحظته.

أرسل السيد السقاف دعوات إلى عدد كبير من الناس لمقابلاتي بينهم مواطن حضرمي من مكة والذي وصل حديثاً هنا بعد أن بقي كثيراً في موطنه في وادي دوعن. وكانت غرفة الاستقبال الرئيسة في المنزل محاطة من الجانبين بواسطة شرفة حيث جلسنا نتحدث أثناء شرب الشاي حتى وقت وجبة العشاء. وكان غالب النقاش

عن طريق السيارات إلى مكة الذي كان يثير اهتمامهم للغاية. وفي أثناء النقاش برز موضوع شبوة وفي هذا الوقت علمت أن هنالك زيارة قام بها هانز هلفريتز قبل ثمانية عشر شهراً إلى عاصمة حمير قد سبقت زيارتي لها. وعندما لجأت إلى السرير في تلك الأمسية جلست أقرأ في قصته التي هي مغامرة مثيرة يعزى نجاحها بقدر كبير لشجاعته وبراعته. وشعرت بسرور معين وذلك لحقيقة أنني إذا لم أكتشف شبوة فقد اكتشفت على الأقل من هو مكتشفها. وبطريقة ما شعرت أن خيبة أملي على قتلها بهذا الاكتشاف هي مماثلة لخيبة أملي عندما وجدت شبوة نفسها لا تستحق كل هذا اللغظ الذي أثير حولها.

لقد اكتشفت في تريم عرضياً اكتشافاً آخر أقل إدهاشاً ولكنه ليس مهماً، فمن كل المجموعة التي تجمعت في منزل الكاف في أمسية وصولي كان الرجل الوحيد الذي له طموح وجاد ورغبة في التعلم أو القراءة الواسعة هو سيد محمد بن هاشم^(١). وبعد بعض الحديث عن طريق سيرنا عبر الصحراء إلى العبر تذكر أنه رأى تقريراً عن طريق الحجاج القديم هذا في مجلة عربية نشرت قبل بضعة سنوات في بتافيا. ولحسن الحظ فإنه كان قادراً على أن يمدني بالموضوعين منشورين في مجلة تسمى الرابطة بتاريخ يونيو ويوليو ١٩٣١م. والحج الذي ذكر قد قامت به مجموعة من تريم مع آخرين من أجزاء أخرى من الوادي والتي تجمعت في قعوضة في شهر شوال من العام ١٢٨١ هجرية (١٨٦٤م). وتقدمت في المراحل السهلة إلى العبر ومن هناك إلى خلف مشييقة. وكان الطريق الذي اتبع مطابقاً لطريقنا وقد كان على طول

(١) هو محمد بن هاشم بن عبدالرحمن العلوي ولد سنة ١٣٠٠هـ بحضرموت وتلقى علومه على جماعة من شيوخ تريم حتى برع في عدة علوم وفي سنة ١٣٤٥هـ رحل إلى جازة وساهم في تحرير صحفها وتزعم البعثة المرسلة إلى مصر سنة ١٣٢٤هـ، وأحيا الندوات الثقافية في بلده إلى وفاته سنة ١٣٨٠هـ، له عدد من المؤلفات منها: تاريخ الدولة الكثيرة، طبع في مصر سنة ١٩٤٨م، السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين ج٥، ص ٢٨٩-٣٠٠، دار المعارف الطائف، ط ٣، ١٤١٨هـ، الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص ٥٢٤، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٨هـ. (المراجعون).

خط درب الأمير، والنقطة الأكثر تمييزاً وروعة فيه أن القافلة كما ذكر من قبل استطاعت التزود بالماء عند البئر التي تعد الآن ميتة وهي بئر مشينقة وعليه استطاعت تجنب الضيف. قاطعين في خط مستقيم عبر الصحراء عن طريق مرتفع الحيفض إلى وادي الحب المنخفض ثم تقدم أهل تريم إلى القرى الواقعة في أعلى الوادي ومنها وصلوا نجران عن طريق صعدة. ثم اندفعوا من نجران عبر الجبال إلى محاليل ووصلوا إلى ساحل البحر عند القنفذة ومنها تقدموا إلى مكة المكرمة. وكل الرحلة من قعوضة عرفت بثلاثين مرحلة ولم تصادف المجموعة أي صعاب خطيرة^(١). وكاتب الموضوعين مواطن من تريم يدعى السيد محمد بن إبراهيم بلفقيه آل علوي والذي يبدو أنه اشترك في الرحلة. وجهز قريب له هو عبدالله بن حسن الفقيه كتاباً ولكن لم ينشره عن السيد أحمد بن عيسى أول السادة العلويين الذي سعى أن يقيم في حضرموت. وفي هذه الأيام كانت تريم في أيادي عشيرة محلية تسمى الصبريات والتي لأكثر من قرن رفضت أن تسمح للسادة العلويين بالبقاء في المدينة. ومحمد بن هاشم نفسه نشر كتاباً عن تجواله في منطقة حضرموت الذي قدم لي نسخة منه.

سكنت لفترة الليل في سطح سقف مظل على حوض السباحة ووجدت، بذهابي إلى هناك أن ثمة استعدادات متقنة للغاية قد جهزت لراحتي، ناموسية جديدة ولكن غير ضرورية ومرتبة مريحة ومترفة للغاية وأغطية غنية بالزخرفة والتطريز ووسائد عديدة. وفي الصباح التالي كان عليّ أن أتخلص من مضيفي والعديد من الآخرين الذين كانوا يميلون أن يجعلوا من استقبالي مناسبة بينما أنا كنت أميل أكثر لتناول شاي الصباح في عزلة. وعلى كلّ انضمت إلى المجموعة العامة من الطابق الأسفل لتناول الإفطار وبعدها قمت برحلة للحدائق الكبيرة التي لم تكتمل بعد. وتوجد نافورة في الوسط مزينة بزينة هندية مليئة بالأزهار تبدو أنها لا تناسب الجو

(١) عن طريق الحاج الحضرمي انظر: الحداد، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، ص ١٣٣؛ البلادي، بين

مكة وحضرموت، ص ١٨٦-١٨٧. (المراجعون).

البسيط الساحر المحيط بها، وفي الركن الأقصى من الحديقة توجد البئر ومعها ماكينة دوتز التي جهزت للضخ وستصبح الحديقة أنموذجاً لكل حضرموت في سنوات قليلة آتية كما هو المنزل الآن.

وعدنا السلطان محمداً أن نذهب إليه في القصر وهذا ما سنفعله الآن بعد أن غادرنا السيد سقاف والسلطان علي عند أبواب منزل الكاف، وقصر محمد تقريباً رائع كقصر ابن عمه. وكلاهما مزين بالطلاء الأبيض تتخلله أشربة ررقاء باهتة ذات تأثير مثير جداً. وأكبر القصرين هو قصر علي الذي يقف في العراء فوق المباني المنخفضة للسوق. وبعد دورات الشاي المعتادة كان لنا الحرية أن نغادر وعليه قدنا السيارات عبر البوابة الغربية للمدينة متجهين إلى شبام. وكان برنامجنا يشمل زيارات إلى الأفرع القيادية لعشيرة آل كثيري والتي تقع مساكنها على الطريق، وكذلك فإن البرنامج يشمل انعطافين خفيفين عن الطريق. فالأول كان إلى الشيخ عمر بن عبيد الجبيري الذي يعيش في منطقة الغرفة. وقبل أن نصل إلى النقطة التي كان علينا أن ندور من عندها، قاطعنا رسول من سلطان علي بن صلاح معه رسالة إلى حسين.

بالنسبة لمقتل فلاح قعيطي حديثاً بواسطة واحد من عشيرة العبيد فقد أصدر السلطان أمراً بأن لا يسمح لعضو من تلك العشيرة بدخول منطقته. ونتيجة لهذا فقد تكون هنالك رغبة للانتقام عند مضيفنا المزعوم؛ ولذا فقد رأى حسين أنه من الحكمة أن نترك هذا الجزء من البرنامج. وواصلنا سيرنا خلال الغرفة إلى الحوطة مباشرة، تاركين الطريق الرئيس إلى شبام، حيث تقدمنا على امتداد قرية التبيقول المبعثرة ومروراً بقرية سالم بن مانع الصغيرة وهو تاجر كثيري ثري من سنغافورة يعيش الآن في بومباي. وكان هدفنا الوصول إلى العقدة، وهي مجموعة من المنازل الجميلة وبساتين النخيل فوق الوادي (وادي ابن علي) ولكن بعد فترة وجدنا صعوبة في إيجاد الطريق الصحيح إليها. وبعد محاولات عديدة اهتدينا إليها وحالاً وصلنا إلى البوابة الضيقة لمبنى فخم للغاية. ويشكل هذا المنزل ومنازل أخرى مشابهة ذات

طراز حديث مساكن عشيرة تتكون من أخوة وأحفادهم وزعيمهم هو مضيفنا سالم بن جعفر بن سالم بن مرعي بن طالب الكثيري. وبعد العائلتين الحاكميتين لسيئون وتريم تأخذ هذه العشيرة الأسبقية بين الكثيري مع عمر بن عبيد من الغرفة في المرتبة الثالثة من التسلسل. والرجل العجوز كما يدعى دائماً بواسطة أقاربه وأتباعه وخدمه استقبلنا في باب قلعته وقادنا إلى الطابق الأعلى إلى غرفة الاستقبال حيث ساعده في ضيافتنا أخواه وابن أخيه المتوفى. وفي الأصل هناك ستة إخوان يعيش منهم ثلاثة فقط وهم مضيفنا نفسه وعبدالله وصالح.

كان الرجل المسن سالم هو الأكثر حيوية في كل المجموعة وقد أصرّ على سيرني معه إلى أعلى إلى سطح المنزل لإجراء مسح للبلاد عن طريق تلسكوبه حتى المواضيع الداخلية البعيدة من روافد وادي ابن علي. وكان الوادي كله كثيف الأشجار وتوجد فيه بساتين نخيل وعدد من القرى الكبيرة والصغيرة ومنازل متفردة مبعثرة بينهما. وقال لي سالم: هناك ترى بلادي وأصدقائي وأعدائي. ولا يوجد من يهتم بقضية السلام أكثر منه من بين كل الرجال الذين التقيتهم. فالرجل عاش حياة مليئة بالمشاكل وذلك يرجع تقريباً إلى بداية الخلط الذي أدى إلى توزيع القوى والامتيازات الحالي. إنه يريد السلام لأحفاده الذين قد يستمتعون بالإرث الذي استطاع هو أن يحافظ عليه متمسكاً بل طوره. السلام بأي ثمن. ويقول: «على ابن سعود أن يتدخل بين الحكومات المحلية المنافسة من أجل السلام والأمن في البلاد» وأوضحت له أن ملك العرب ليس له نية للامتلاك والكسب في أي اتجاه. وهو فخور باستقلاله الخاص والأمن الموجود في بلاده. وهو دائماً مستعد لمساعدة جيرانه من العرب ليتمتعوا بالسلام والاستقلال. أما ميثاق العرب والذي استهل باتفاقية العراق فهو مفتوح للجميع لتبنيه. ولم ننو أن نكث حتى وقت الغداء ولكن مضيفنا لم يضيعوا وقتهم في المشاهدة بينما نحن نتجاذب أطراف حديث شيق لم أستمع بحديث مثله

خلال هذه الأيام. وقُدِّمت لنا وجبة ممتازة مع بساطة ذكرتنا أن زمن المغادرة قد حان. وكان الرجل المسن سالم واقفاً في البوابة بينما نحن نتحرك بعيداً ويبدو كأنه شبح من الماضي يستحضر في ذهنه مستقبلاً باهراً لأحفاده.

بمرورنا على طول جوانب قرية السيد من الحزم المبعثرة وعبر مدينة سحيل، عبرنا الوادي وأصبحنا للمرة الثانية ضيوفاً للسلطان علي بن صلاح في شبام. وما زال السلطان هنا يحتل جزءاً من القصر ولكن عند المساء انتقل إلى المنزل المقابل لترك لنا مساحة أكبر. وتناولت طعام العشاء معه ووجدته متلهفاً لمعرفة التفاصيل عن خروجي، من قابلت؟ ماذا قالوا لي؟ وماذا فعلنا... إلخ. ويعرف كل الناس بعضهم بعضاً في بلد صغير مثل هذا بالطبع، فإن الحادثة البسيطة التي لها دلالة عند الخبير قد لا تعني شيئاً للزائر. وفي هذه الأثناء لم يتوقف سعد بن ناصر عن العمل، فقد قام لتجهيز كل شيء. والجمال التي تحمل الأمتعة قد غادرت من قبل إلى شبة تحمل أربعة وعشرين برميلاً من البنزين ومؤناً أخرى لرحلة عودتنا. وفي اليوم التالي بدأت الجمال المرافقة تتحرك مع تعليمات مني للقاء في هين.

وتبدأ رحلة السيارة بعد يوم من ذلك وهو يوم ٢٤ أغسطس. وفي هذا الوقت كان عليّ أن أكتب بعض الخطابات للوطن وأن أعد نسخة ثانية من نقوش شبة لكي أرسلها إلى المتحف البريطاني. وهناك الكثير من أعمال ترتيب الأمتعة يجب عليّ أن أقوم بها. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ذهبت إلى المنزل في سحيل لتناول الغداء مع «بيرن» والذي كان سيبدأ رحلته إلى شبة بعد الظهر، وقد قدم لي غداءً ممتازاً من المخبلات ثم تركته ينتظر جماله ومرافقيه الاثنين من عرب شبة. جاء ليودع السلطان حوالي الساعة الخامسة مساءً والذي كان يقيم حفل استقبال في شقته في ذلك الوقت لمشاهدة رقصة حضرموت والذي قدم في الميدان في الأسفل وكان الاستمتاع واضحاً على الجمهور الغفير الذي كان يضم مجموعة كبيرة من الفتيات الصغار يلبسن ثياباً مزهرة جميلة. وكان «بيرن» يلبس ملابس عبارة عن خليط فني من البني والأزرق

وبزة فوق ملابسه وكان مظهره جميلاً. ذهب «بيرن» وسوف نلتقي ثانية عند هينز. كان الرقص في الأسفل رتيباً بعض الشيء وغير جذاب. فقد نظمت المجموعة نفسها حول أربعة جوانب من الميدان غير الواسع جداً، يدفع المرشدون المتطوعون الجمهور من وقت إلى آخر إلى الورا لمنعهم من الدخول إلى حلبة الرقص محافظة على الشكل العام. وفي منتصف هذا الفضاء وقف خمسة من قارعي الطبل، فالرجل الذي في الوسط معه الطبل الأكبر بينما الآخرون يحملون طبولاً صغيرة كل زوج منهم يحمل شكلاً مختلفاً من الطبول. وعلى كل جانب من خط قارعي الطبول وقفت مجموعة من الراقصين. تفرق الطبول مرة في صف وثانية إلى الصف الآخر. وعند مرحلة التسخين يتقدم صف إلى الآخر لأداء دوره حتى تصبح فرقة الطبول متجمعة في الوسط. وعندما يرقصون إلى الورا عائدتين إلى وضعهم الأصلي يتبعهم الصف الآخر إلى الطريق المسدود نفسه.

وهكذا استمر الرقص بلا نهاية حتى بعد غروب الشمس مباشرة، عندما أخذ الراقصون يتخلصون من هراواتهم القوية ويتبعون فرقة الطبول، خارج المسرح إلى الشوارع. ويبدو الرقص مملاً عندما يكون صف الراقصين ثابتاً وهو عبارة عن أربع خطوات يتبعها بعض التمايل والحركة إلى الجانبين ثم إلى الأمام والخلف. وأثناء التقدم والتقهقر للراقصين هنالك تنوع كبير في الأشكال مما يجعلهم يتعلمون بمختلف الطرق عند الوثب من نقطة إلى أخرى أو القفز إلى أعلى في اتجاه الأمام والخلف مع تماسك الأيدي أو الأذرع، وهكذا يستمر الرقص أربع خطوات أخرى يبدو أنهم يأخذون الأمر بجدية فائقة وبعض الأشخاص مولعون بتقديم رقص جديد من اختراعهم.

كان ذلك آخر تجربة لنا في شبام رغم أن السلطان حضر معنا لاحقاً جلسة استماع للراديو فوق سطح القصر. وقمت في الصباح التالي بجولة أخيرة حول طرقات المدينة. وكان كل شيء جاهزاً حوالي الساعة ١٠ صباحاً. وبدأنا رحلتنا الطويلة إلى نجران بالسيارة المحملة. وقد ذهب السلطان نفسه إلى هينز في عمل سياسي له ارتباط

باتفاق أسقطته فوضى نهد، وسوف أراه هناك لأودعه نهائياً. وعند وصولنا إلى المقبرة لاحظنا أن السيارة الأخرى لا تتبعنا؛ لذا فقد انتظرت قليلاً حتى جاء خادم ليخبرني أن هناك عطلاً في السيارة الأخرى وأن الصيانة لن تستغرق وقتاً طويلاً. وعليه يمكننا أن نستمر نحن ونتركهم يتبعونا لاحقاً وبعد تفكير بسيط قررت أن أستمّر في الرحلة. وهطلت الأمطار الغزيرة بين شبام والقطن بعد ظهر اليوم السابق وقد لاحظت من السقف سحباً رعدية في جهة الجنوب الغربي. وبدت التربة الطينية المألحة في الوادي غير مفرحة ولكننا سرنا إلى القطن دون مغامرة. وهناك وجدت المرافقين لي على الجمال قد استقروا بكل ارتياح في القصر يتظرون وجبة منتصف النهار. لقد فكروا في أن أي تلكؤ مثل هذا سيكون مبهجاً أكثر من الاستمرار في السير إلى موعدنا المحدد. وقد عبرت عن رأيي في ذلك بإيجاز ثم تناولت غذائي وواصلت رحلتي. وخلق وجود بعض الرمل في خزان وقود السيارة مشكلة كبيرة مما عطلنا قليلاً. وعندما انضمت إلى السلطان وابن مرتع في صالون الأخير الرائع كان الوقت ما زال باكراً.

كنت أستمع باستراحة ترحيب في الساحة المتصلة بالبهو في ظل الحائط عندما أيقظني صوت وابل من الطلقات النارية. وكان هذا الصوت مجرد تحية معتادة لوفد من خمسة رجال من قرية من منطقة نهد، وكان هذا أول وفد من الوفود الخمسة القادمة من الأقسام المتنافسة المختلفة لحضور مؤتمر دعا له السلطان. وبينما كنت أنظر إلى السهل من على السقف رأيت الوفود الأخرى قادمة إلى هين، كل رجل كان سائراً على رجليه ومدججاً بالسلاح. وتكرر الترحيب نفسه والاستقبال لكل الوفود. وعندما يصل الوفد أمام المنزل يطلق وابل من الطلقات مع استمتاع أطفال القرية الواضح، بعد ذلك يقترب الوفد من الباب حيث يرحب بهم فردياً وذلك عن طريق السلام بالأيدي وهزها بواسطة أعضاء عائلة آل مرتع ومن ثم يسلمون أسلحتهم إلى الخدم عند الباب ويقدمون إلى السلطان من غرفة الاستقبال في الأسفل بعد الانتهاء يخرج أعضاء الوفود المختلفة ويستعيدون أسلحتهم راحلين إلى بلادهم تاركين مع

السلطان وثيقة موقعة تحمل الشروط التي اتفقوا عليها جميعهم تحت رعايته. ومن الواضح أن المفاوضات كانت سريعة ومع أنني لم أر الوثيقة ولكن فهمت أنها تحوي اتفاقية مقنعة جداً. وذهب السلطان في صباح اليوم التالي بالسيارة مرسلاً حرسه الخاص أمامه للوفاء بوعده أو اثنين في قرى مجاورة ليحسم أمر نتائج مفاوضات بعد الظهر والتي نتجت عن الاتفاقية المذكورة أعلاه. وعند عودته تناولنا الإفطار وبينما نحن منهمكين أعلنت أصوات الطلقات عودة القوات من الجنود وعليه اندفع كل الأطفال لمرافقتهم إلى الداخل. ويتكون الحرس الشخصي للسلطان كلياً من العبيد وعددهم حوالي ٢٥٠ أو ٣٠٠ رجل وهذه الكتيبة المعينة عددها حوالي عشرين رجلاً لهم منظر رائع وقد قدموا عرضاً لافتاً عند قدومهم في سرعة راقصة، وهي خليط بين الجري والخطوات المتنوعة ينشدون أغاني الحرب ويطلقون ذخيرة بنادقهم. وتكلفة الذخيرة على حساب السلطان بالطبع، إذ تكلف كل اثنين أو ثلاث طلقات من الذخيرة ريالاً واحداً وبذا تكلف الاحتفالات السلطان وزواره أثناء المفاوضات جنيهاً أو جنيهين وهذا -بالطبع- مبلغ كبير في حضرموت.

أصبحت قلقاً في هذه الأثناء على السيارة الأخرى عندما لم تصل عند غروب اليوم السابق. وقد اعتقدت أن الخدم قد كتب لهم أن يقضوا ليلة أخرى في الراحة المتحضرة. وعليه فقد توقعت وصولها في الصباح الباكر. وعند وقت الغداء تعجبت لما حدث. وقد كنا جميعاً مستعدين للمغادرة عند وصول السيارة الأخرى. جاء واحد من شيوخ نهد للمفاوضات، شخص بدين اسمه حمد بن عبري وقد كان معنا في الغداء وأعلن عن رغبته أن يرافقنا في طريق العودة إلى مكة ومقابلة ابن سعود. أجبته مرحباً ولكن نوهت له بأن يحصل على سيارة لوحده لأن ما يحمله من أمتعة سيتسبب في كسر سيارتنا. وفي تلك اللحظة وصل شخص من الذين يقومون بتسليم الرسائل جرياً من شبام تم تغييره بشخص آخر من القطن، حاملاً خطاباً من حسين آل عجاج معلناً أن سيارة الأمتعة قد كسر فيها محور العمود الخلفي.

القضاء والقدر

لقد جاءت بي العناية الإلهية من شواطئ البحر المتوسط إلى حضرموت، كما أعدت لي استقبالا حاراً على شواطئ المحيط الهندي، وأعرضتُ مُتعمداً، على الرغم من أن ذلك لم يكن نابعاً بالكامل من إرادتي الحرة عن استحسان العالم لعمل بطولي فذ في سجلات الأسفار. فلا إليوس جالوس قد كحل عينيه بمحيط الهند، ولا ملكة سبأ قد مشت بخطى وثيدة على كورنيش بحر «المنطقة الوسطى» فلا ينبغي ذلك، ولا يمكن أن يكون. فالقدر لم يكتب النجاح للطامحين الذين يخطبون ود قمة إيفرست العذراء. ومع ذلك يجب على الجزيرة العربية أن تدفع الغرامة عوضاً عن برودة جبال الهملايا. وفي تلك اللحظة كان هناك شيء واحد فقط يحتمل أن يكون سبباً في إيقافني عما عزمت عليه، وفي تلك اللحظة وقع هذا الشيء. فسيارة الأمتعة - نظراً لزيادة حمولتها بشدة على الرغم من تحذيراتي المتكررة - قد كُسِرَ عمود محورها الخلفي. وكان خبراؤنا في جدة قد أفادونا قبل بدء الرحلة أن مثل هذا الشيء لا يمكن أن يقع، ولم يكن هناك عمود احتياطي ضمن معدّاتنا التي كانت تضم قطع غيار بوفرة لجميع حالات الطوارئ الأخرى تقريباً والتي يمكن تخيلها؛ ولذلك تركنا الشاحنة في وضع بائس في شبام. وكان التصرف المحتمل هو أن نهجر كلا السيارتين ونواصل الرحلة بالإبل، فسيارة واحدة قد تكون مصدر إزعاج على أفضل تقدير وخطراً على أسوأ تقدير. وهذا - على كل حال - ما لم أكن مستعداً لتنفيذه دون أن نبذل كل جهد معقول أولاً لإصلاح العطل. وكنا قد علمنا من قبل أن شبام قد تم البحث فيها عن قطع غيار دون جدوى. وربما يمكن أن تمدنا سيئون أو تريم بما عجزنا عن العثور عليه. وإذا لم يتحقق ذلك فليست الشحر إلا على بُعد أربع وعشرين ساعة من تريم بطريق السيارات، وإذا عدنا بخفي حنين من الشحر، فالمكلا لا تبعد

عنها سوى ساعات قليلة. ومن هناك يستطيع المرء في الواقع أن يتصل بعدن بريقاً. وإذا لم تستطع عدن أن توفر احتياجاتنا فيمكننا أن نتخلى عن تلك السيارة أيضاً. وفي أسوأ تقديراتي قد يستغرق الأمر منا أسبوعين للحصول على غيار للعمود من شبام. وفي الحقيقة استغرق ثلاثة أسابيع، نظراً لطول الفترات الزمنية الفاصلة بين القوارب القادمة إلى المكلا من عدن. وفي تلك اللحظة كان الشيء الأكثر أهمية هو أن نقرر ما سنفعله الآن، وكان قراري الفوري أنه يجب على جماعة الإبل مواصلة السير إلى شبوة وتتنظر وصولنا هناك، في حين عدت أدراجي إلى شبام، وأنا أفكر ملياً في خططي أثناء السير.

ولم أكد أنتهي من التفكير إلا ونفذت ما اهدتيت إليه. ففي الساعة الثانية والنصف ظهراً كنت قد وصلت فعلاً إلى شبام وبدأت أتفحص موقع المصيبة، يحيطني تسعة من رجالي الأشداء أقوىاء البنية والذين قصموا ظهر السيارة. وفي غضون دقائق قليلة كنت قد شرحت خططي، التي ربما تنطوي على زيارة للمكلا. وتهددوا جميعاً بتأوهات عالية من احتمال بقائهم أسبوعين في تلك الورطة، ولكني أخبرتهم بصراحة وقسوة أنهم هم أنفسهم المسؤولون عنها. وأجابوا في حلم ولين إنها كانت قضاءً وقدرًا. وربما كانت فعلاً من محن القضاء والقدر. وبعد الانتهاء من تخزين أمتعتنا في كوخ مكشوف بجوار الطريق انطلقت إلى بيت آل عجاج لتناول كوب من الشاي قبل استئناف رحلتنا في الرابعة والنصف عصراً إلى سيئون مع دليل، والذي سرعان ما ضل الطريق وورطنا بين بساتين النخيل وقنوات الري في القرى الواقعة بين الحوطة والغرفة. وعند تلك القرية الأخيرة سلكنا الطريق الرئيس مرة أخرى، وفي الخامسة والنصف عصراً كانت سيارتنا تصلصل وهي تسير داخل قرية سيئون وتشق طريقها حتى وصلنا إلى فيلا السلطان. وقد تسبب وصولنا في حدوث قدر معتدل من الالتهياج والضجة، ولكن لم تكن هناك أي شائبة في حرارة ومودة استقبال السلطان لنا. وكان محمد -السائق- قد جال في جميع المخابئ بحثاً عن عمود محور احتياطي

دون جدوى، بينما مكثت أجناب أطراف الحديث مع السلطان علي وقلة من الآخرين حتى العشاء، والذي كان عشاء جاورياً من الطبقة الأولى. ولقد كان السلطان -علي ابن منصور- شخصاً شديد الجدارة بالحب. مليئاً بالفطرة السليمة والحكمة، ومحدثاً لبقاً غير متكلف، وقد منّ الله عليه بنعم الحياة الطيبة، مثل: الحياة المنزلية السعيدة مع أولاده الستة وكرميته الاثنتين، والثروة العظيمة، والممتلكات الواسعة، وقدر من الاستقلال السياسي مع جيش دائم قوامه حوالي ٥٠٠ من الممالك ليدفع عنه كيد الأعداء، علاوة على قوات القبائل التي يمكنه أن يستدعيها عند الحاجة. ولم أستطع أن أتمالك نفسي من القول له، عندما كنا نتكئ في ساحة القصر المكشوفة بعد عشاءنا الرائع للتمتع ببرد الليل الجميل ونحن نحتمي أكواب الشاي وندخن الغليون: كم تبدو ساحرة لي هذه الحياة العامرة باليسر والراحة عند مقارنتها بعملتي ولهائي الذي لا يتوقف. فأجاب قائلاً: «الغريب... قد يبدو الأمر كذلك، ولكن الأشياء ليست دائماً كما تبدو...» وقد جمع في هذه الملاحظة كل شكواه في إيجاز شديد كي أمعن النظر فيها. هذه الشكوى لم تصدمني لكونها كبيرة جداً أو مزعجة، ولكن لأنه إلى درجة ما لا يمكن علاجها في ظل الظروف القائمة. وتنصهر هذه الشكوى في نقطتين اثنتين يمكن إيجازهما بالتحديد كما يلي:

(١) إن منطقة نفوذه ليس لها منفذ على الساحل، وهذا يعني أنه هو وشعبه لا يستطيعون السفر إلا بالمعانة وشتى الأنفس، كما أنهم عرضة لأن يشعروا بعدم الراحة والإزعاج بالكامل من تلك الجمارك والإجراءات التي تفرضها عشائر أخرى وقد تكون سارية في أي وقت، وهي اسمياً تنطبق على الجميع بدون تمييز، ولكنها في واقع الأمر لا تُطبق على العناصر التي لها محابة أو تفضيل.

(٢) إن أي مسألة يريد أن يتشاور فيها مع الحكومة البريطانية يجب عليه تقديمها عن طريق السلطان القعيطي في المكلا، على الرغم من أنه حر في إرسال نسخة من مثل تلك المستندات المقدمة إلى سلطات عدن مباشرة. وهذا تنازل إن دلّ على شيء

فإنما يدل على مواصلة الإذلال بهذا الترتيب. وفي الحقيقة قد لا يكون لهذه الشكاوى إلا أهمية قليلة، ولكن شرارة واحدة تكفي لتفجير مخزن بارود. ولم أستطع أن أخفي شعوري بأن شرارة -وقد تكون خطيرة- تكمن في مكان ما في أعماق السخط والاستياء لدى آل كثيري.

إن إطالة إقامتي المؤقتة في حضرموت والبلاد الواقعة على شاطئها على نحو غير متوقع قد وفرت لي فرصة كي أسمع وأرى أشياء، في غضون تلك الفترة القصيرة التي خططت لقضائها في المنطقة، لم أكن أستطيع أن أتمنى دراستها بصورة كافية لتغطي ولو مسحاً موجزاً للموقف. وحيث إنه كان أمامي ثلاثة أسابيع إضافية وليس لدي شيء مخصوص لإنجازه، نظراً لأنني قد تركت كل متاعي ورائي، بما فيه من كتب ربما كان لدي متسع من الوقت الآن لقراءتها، فقد أصبح الموقف مختلفاً نوعاً ما. لقد سمعت كثيراً ورأيت كثيراً. وتكونت لدي آراء وآراء، بعضها مؤقت، والآخر عن اقتناع. فإنني أزعم أنني مؤهل للحكم على الأمور بلا تحيز. والآخرين - من زوايا مختلفة نظروا منها على المشكلة عن قرب - بلا شك - مؤهلون بصورة أفضل مني للكتابة عن حضرموت نفسها. ولن أتجاوز حدودي بقدر كبير للتدخل في مجال عملهم، باستثناء ما قد يكون ضرورياً للتركيز على المشكلة المحلية في نطاق الوضع العربي الأوسع، الذي تنتمي إليه. وسوف أعالج النقاط المختلفة التي برزت لي عندما لاحظتها أو نضجت لدي أحكام قاطعة عنها أثناء جولاتي، ولكنني سوف أضع بين أيدي القراء فوراً سيرة جد مختصرة عن تاريخ حضرموت الحديث، مع ترجمة كاملة للوثائق والمستندات التي يبدو أنها تحدد الوضع السياسي القائم حالياً لهذا البلد وشعبه. فيما مضى من الزمان، كان هناك البرتغاليون الذين تحكموا في مصائر منطقة حضرموت، من خلال الميناءين الرئيسيين في الشحر والمكلا. ويبدو أنهم قد احتلوا أيضاً مواقع قليلة في الأقاليم الداخلية. وكان نصف أهدافهم استعمارياً والنصف الآخر أو ربما النصف الرئيس كان تجارياً. ويوماً بعد يوم زالت قوتهم البحرية،

وانتهت مصلحتهم في حضرموت. والتفاصيل الدقيقة لذلك التاريخ القديم لا تعينني في قليل أو كثير. ولذلك أتحوّل فجأة وبصورة عاجلة إلى الموقف منذ حوالي مئة عام مضت، والذي نشأ منه بصورة مباشرة أو غير مباشرة الوضع الحالي للأمور. في ذلك الأوان كان هناك في السلطة أسرة محلية حاكمة من أصل يافعي تُعرف باسم آل كسادى، وكانت تحكم المناطق الساحلية فقط في الشحر والمكلا على الرغم من أنها بلا شك كانت تمارس سلطاتها الواسعة على المناطق الداخلية من الساحل. أما الشحر والمكلا فكان يحكمهما على التوالي فرعان مختلفان متنافسان من تلك الأسرة الحاكمة، في حين كان هناك وجهاء إقطاعيون شبه مستقلين مثل العوقلي في السدة، والبطاطي في القرة والحداي في الغيل وآخرون غيرهم بلا ريب في خدمة واحد أو آخر من هؤلاء الحكام -وأحياناً، ربما- لا يخدمون أياً منهم. وفي كل الأحوال كان حاكم الشحر علي ناجي بن بريك، هو الذي يبدو أنه الشخصية المسيطرة في السياسة المحلية. وفي الوقت نفسه شكلت عشائر الكشيرى في وادي حضرموت اتحاداً كوندريالياً مفككاً من الدول الصغيرة المستقلة، والتي كانت قد بدأت في ذلك الوقت تشعر بنفوذ غالب بن محسن من العشيرة المعروفة باسم أهل عبدالله. ولم تكن أسرة القعيطي الحاكمة الآن قد بدأت تأخذ شكلها الحالي بقدر ما يتعلق الأمر بالجزيرة العربية. على الرغم من أن عمر، وهو الجد الأكبر لكلا السلطانين الحاليين صالح وعلي، كان قد وضع أساس أقدار عائلته في الثروة والسلطة النابعة من مناصبه الموروثة في تلك الولاية الهندية العظيمة التي تدعى حيدرآباد. وكان لعمر أربعة من الأبناء، أرسل منهم ثلاثة الآن مجهزين تجهيزاً كاملاً بالمال الكافي ليشقوا طريقهم بأنفسهم ويتعلموا مهنة لهم في أرض أجدادهم. أما الرابع، ومن الواضح أنه كان أصغرهم، واسمه صالح، فقد احتفظ به معه ليقتني أثره ويسير على نهجه. وذهب محمد، وهو الابن الأكبر، إلى وادي حضرموت وحاز بالشراء على نواة الأملاك العظيمة في القطن والتي ظلت تحت يد فرعه من الأسرة منذ ذلك الحين يتوارثونها مثل الإقطاعيين.

ويبدو أن صفقته الرابعة قد نالت رضاه، وترك أخاه الثالث، عوضاً، الأكثر نشاطاً، والذي آثره على عبدالله أخيه الكبير الثاني بعده مباشرة، واختاره ليضيف إلى نصيبه أكبر قدر قد يكون ضرورياً، حتى يحقق الطموحات التي أثارت والدهم لإرسالهم إلى العالم الخارجي. وبالسيف في أيديهم والجنود المرتزقة في خدمة مواردهم الوفيرة انطلق عبدالله وعوض سعيّاً وراء المغامرة في حقل عامر بالثمار. وكان الضعف المتزايد لأسرة آل كسادى قد وفر لهما أول فرصة في إحراز إنجاز عسكري. وكان آل كثيرى لم ينزلوا إلا مؤخراً من الجبال ويكتسحوا الشجر، التي استولوا عليها فعلاً من علي بن ناجي. وفي غضون شهور قليلة تمكن الأخوان القعيطيين من طرد الغاصبين. قام عوض باحتلال الشجر لنفسه، بينما استولى عبدالله على الغيل. وقبل ذلك بزمان طويل كانت أسرة آل كسادى في المكلا تواجه مشاكل أيضاً من أعدائها. وهبَّ عوض لنجدتهم بالمال والرجال. وهكذا تم إنقاذ الدولة، ولكنها لم تستطع أن تسدد الفاتورة التي قدمها منقذها. وتم تقسيم المكلا نفسها إلى قسمين حيث عُرض نصفها على المنقذ عوض، وقبله ليصبح تحت حكمه. ولكن تقسيم المملكة قد أدى إلى حدوث احتكاك بين الملكين الشريكين. وأصبح أول احتكاك فضيحة مدوية، وأفضى وصول سفينة حربية بريطانية إلى تسوية النزاع لصالح الطرف الأقوى. وهكذا أصبح عوض حاكماً على المكلا والشجر، في حين تم نقل آخر ملوك أسرة آل كسادى إلى أفريقيا ليعيش في المنفى هناك. وبمرور الزمن مات عبدالله، وترك الإمارة مقسمة بين حسين ومنصر، وهما أكبر أولاده. ودب خلاف بينهما ومع عمهما. وبالتالي جاءت سفينة حربية بريطانية ونقلتتهما إلى وطن والدهما مرة أخرى في حيدرآباد بالهند. وظل عوض هو الحاكم المهيمن على الساحل بدعم من البريطانيين الذين أيدوه، بينما كان وادي حضرموت قد ترك لبقية ميداناً للصراع بين المتنافسين من آل القعيطي وآل الكثيري. وقد ظل هذا الوادي كذلك حتى بعد الحرب العظمى.

وقبل هذا بزمان طويل حدث حدث -على كل حال- ذو أهمية قصوى لما تلاه من تاريخ حضرموت. فقد زاد الاهتمام البريطاني بشؤون جنوب الجزيرة العربية بصورة مطردة منذ احتلال عدن في عام ١٨٣٩م. وكانت محمية عدن قد بدأت تستحوذ على الرعاية البريطانية بصورة متزايدة مثل الذرات التي تلتصق بالنواة الكبرى. وكانت منطقة حضرموت تعاني من القلاقل والاضطرابات، وتنتظر دورها في السقوط. ولقد رأينا كيف تدخل البريطانيون لصالح عوض ولتخليصه من إزعاج أسرة الكسادي. ولم تأت الفرصة بعد لهم حتى يخلصوه من أولاد أخيه عبدالله. وفي الحقيقة كان عبدالله لا يزال على قيد الحياة، ويعمل بنشاط مع أخيه عوض في وضع أسس دولة المستقبل. ولقد كان عبدالله هو الذي تفاوض ووقع على شهادة التأمين التي أصدرتها بريطانيا العظمى. كان ذلك في عام ١٨٨٨م وفي أول يوم من شهر المحرم. ولا تزال الوثيقة سارية المفعول، ونصها كما يلي:

«انطلاقاً من رغبة الحكومة البريطانية وعبدالله بن عمر بن عوض القعيطي مثلاً عنه نفسه وعن أخيه عوض بن عمر القعيطي في إقامة وتقوية روابط الأمن والصدقة القائمة بينهما».

«وأن الحكومة الإنجليزية قد عينت الكولونيل آدم جورج فوربس هوق بوظيفة المندوب السامي السياسي في عدن للتوقيع على معاهدة بهذا المعنى».

«وأن المذكور أعلاه الكولونيل آدم جورج فوربس هوق وعبدالله بن عمر بن عوض القعيطي مثلاً لنفسه وأخيه عوض القعيطي قد اتفقا على توقيع المواد التالية:

- ١- استجابة لطلب الموقع أدناه عبدالله بن عمر القعيطي مثلاً لنفسه وأخيه عوض بن عمر القعيطي تعهد الحكومة البريطانية بإنشاء حماية من حكومة صاحبة الجلالة الملكة الإمبراطورة على المكلا والشحر وملحقاتها التي تقع تحت حكمهما وداخل نطاق حدودهما.

٢- يوافق المذكور، عبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ويعد بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن أخيه عوض بن عمر القعيطي وعن خلفائهم وورثتهم أنهم سوف يتمتعون عن الدخول في أي مراسلات أو اتفاقيات أو معاهدات مع أي شعب أو حكومة أجنبية، ما لم يكن ذلك بعلم وموافقة الحكومة البريطانية، كما أنهم يعدون بإفادة المندوب السامي في عدن أو أي موظف بريطاني آخر ينوب عنه فوراً بأي محاولة من أية حكومة أخرى للتدخل في المكلا والشحر وملحقاتهما.

٣- المعاهدة المذكورة أعلاه ستصبح سارية من هذا التاريخ^(١).

هذه هي معاهدة الشحر لعام ١٨٨٨م، والتي تم بها تحديد الوضع السياسي للأقليم المعني بها في جميع الأوقات ومنذ ذلك الحين فيما يتصل بالعالم الخارجي^(٢).

والأدهى أن المنطقة الحقيقية والحدود التي نحن بصدد الحديث عنها لم تكن محددة^(٣). فقد كانت المصلحة المشتركة لبريطانيا العظمى وأسرة القعيطي الحاكمة تميل -على كل حال- خلال نصف القرن التالي أي تفسير مصطلح «ملحقاتها» على أوسع نطاق ممكن حتى يشمل أكبر قدر من اختراق الأقاليم. وبصرف النظر عن مشكلة أسرة الكثيري، التي ظلت منذ ذلك الحين شوكة في حلق الطرفين الموقعين على هذه

(١) يلاحظ أن هناك معاهدة أو اتفاقية صداقة بين الطرفين من سنة ١٨٨٢م، ثم عززت بمعاهدة الحماية سنة ١٨٨٨م، وللمزيد عن هذه المعاهدات وغيرها من الملاحق السرية، والعوامل التي أدت إلى عقدها، انظر: بامطرف، في سبيل الحكم (خمسون عاماً من التناحر الذي أدى إلى فرض الحماية البريطانية على حضرموت) دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤م، ص ١١٢ وما بعدها. وملحق الوثائق ص ١٥٧ وما بعدها. (المراجعون).

(٢) كان توقيع هذه المعاهدة متزامناً مع السياسة البريطانية العامة في الخليج وجنوب الجزيرة العربية التي انتهجت فيها بريطانيا خطأً بوضع تلك المناطق تحت الحماية البريطانية وهي ما تعرف بالمعاهدات المانعة أو معاهدات الحماية التي حصرت التعامل الخارجي لدول الحماية مع بريطانيا فقط. (المراجعون).

(٣) يبدو أن مشكلات الحدود كانت عبارة عن قتال موقوتة أرادت بريطانيا زرعا في جسم الأمة الإسلامية لتقوم بإشغال أهلها حين تقتضي مصلحتها ذلك وخاصة حين تسعى إلى تطبيق سياسة (فرق تسد) التي نجحت فيها كثيراً في سبيل ضمان مصالحها في المنطقة. (المراجعون).

المعاهدة، فلم يكن لمسألة الحدود أي شأن أكثر من الأهمية الأكاديمية إلى أن برزت حديثاً القوة السعودية في الجزيرة العربية وأثارت المشكلة لأول مرة بصورة واقعية ولملموسة. إن نطاق الصحراء الغامض الذي تقع في مكان ما منه الحدود المفهومة بالبدية بين المملكة العربية السعودية وملحقات المكلا والشحر الخاضعين للحماية البريطانية، والاستكشاف يبين بثبات أكيد هذه المواقع. كما أن النتائج الجغرافية ودراسة الأعراق المنبثقة من رحلتي هذه سوف تحتاج للنظر فيها بعناية فائقة من جميع الأطراف المعنية. ويرجع الأمر لرجال الدولة البريطانيين في البحث عن حل وتقديمه بحيث يكون معقولاً ومقبولاً بصورة أساسية من الناس المعنيين. وسوف نرى قبل نهاية هذا الفصل أن السلطات البريطانية في عدن قد ضربت مثلاً طيباً بحل دعوى تشبه -على الأقل- المطالب الأصلية لإيطاليا في الحبشة. فلا ينبغي لتلك السلطات أن تنسى أن مواطن الخطر (Walwals) هذه قد جلبت دموعاً ودماءً، ومهما يكن فإن بريطانيا هي التي قادت بصورة ضعيفة تيار المعارضة لمطامع إيطاليا وأساليها الاستعمارية. وعليهم أيضاً أن ينظروا ولو لبرهة من الزمن فيما إذا كانت «الحماية» بلا مسؤوليات تتوافق مع مبادئ ومثل العالم المعاصر. إن محمية عدن نفسها عبارة عن شكل غريب -وجدير بالرفض- من أشكال الاستعمار أيام الملكة فكتوريا، وما زال ماثلاً أمام عيوننا. وإنها تحتاج إلى إصلاح حتى تتماشى مع المفاهيم المعاصرة لمسؤوليات السيادة.

ولكن نعود من هذا الاستطراد إلى حضرموت، فقد استراحت الحكومة البريطانية، بعد أن أغلقت على نحو مرضٍ لها البوابات الجنوبية للجزيرة العربية في وجه الاختراق الأوروبي المنافس لها. وظل عوض، الذي يبدو أنه كان عاجلاً ذا قدرة وتميز فائقين، على قيد الحياة بعد معاهدة عام ١٨٨٨م بحوالي عشرين عاماً. كما لم يجد منافسه الكثيري العظيم غالب بن محسن أي صعوبة في المحافظة على راية عشيرته مرفوعة في المواقع المنعزلة والنائية من وادي حضرموت، ولكن لم يكن باستطاعته أن يؤثر على الأسس الصلبة لقوة عوض على الساحل. وهذا، بضمان ودعم من الحكومة

البريطانية، كان كافياً لتأكيد الوضع الأعلى مقاماً والأرفع منزلة لعرش آل القعيطي دون الاقتراب من الاستقلال المحلي الذي اكتسبه آل الكثيري في منطقتهم هم بمرور الزمن. وحتى هذا اليوم ظل ذلك الأمر -على الرغم من أن الانحرافات والأخطار الحادة في المنطقة الداخلية- هو الصفة الغالبة في سياسة حضرموت. وكانت إمارة آل القعيطي شبه المستقلة في شبام تعترف دائماً بهيمنة المكلا عليها، والتي كانت بالمقابل تحترم الوضع الخاص لسلالة محمد. وعند وفاة هذا المذكور أخيراً، آلت الإمارة إلى ولده صالح، وبعد وفاته في عام ١٩٠٤م خلفه ولده الأكبر محمد، وتلاه بالدور (في عام ١٩٣٦م) أخوه الأصغر علي، الذي كان مضيفي في شبام. والمشكلة الوحيدة في هذا البيت هي البرود الموجود بين ولد محمد الثاني صالح، وعمه الذي يقاربه في السن. وقد انضم صالح في الوقت الحاضر -بعد عودته من إقامته الطويلة في حيدرآباد بالهند إلى أن توفي والده هناك- إلى بلاط سلطان المكلا.

وقد أدت وفاة غالب الكثيري إلى تقسيم عرشه وأملكه بين ولديه منصور ومحسن، حيث أخذ الأول سيئون والثاني تريم على أنهما نصيبهما من الميراث. وقد أدى هذا التقسيم حتماً إلى إضعاف خطط آل الكثيري، في حين كان الآخر -غالب- الذي خلف والده عوض على العرش قادراً على الاعتماد على القوة الموحدة لعناصر آل القعيطي. وانتقلت المنافسة بين الآباء إلى الأبناء في وقت كانت الحرب العظمى على وشك أن تشجع وتساعد على تدمير المكائد والخداع وإثارة النزاعات. وكانت بريطانيا العظمى أشد انشغالاً في مواقع أخرى حتى إنه لم يكن لديها أدنى فرصة لترجع نفسها بالفوضى المحلية. وقد كانت -حقيقة- لا تسمح لتلك الفوضى أن تقض مضجعها كثيراً عندما تكون أقل انشغالاً، وإنه لمن الحقيقة الساطعة والجديرة بالملاحظة أن نذكر أنه خلال الأربعين^(١) عاماً التي تلت توقيع معاهدة الشحر

(١) كذا في الأصل (أربعين عاماً) ويبدو أن المقصود خلال الثلاثين عاماً كما حددها المؤلف بعد ذلك بالفترة ما بين

(١٨٨٨-١٩١٨م). (المراجعون).

(١٨٨٨-١٩١٨م) لم يتجشم أي مسؤول بريطاني واحد عناء زيارة وادي حضرموت. كما أنه في غضون الفترة نفسها لم يزر أي رحالة بريطاني تلك البلد سوى السيد والسيدة ثودور بنت، يرافقه مساح هندي، في عام ١٨٩٣م. وهي أيضاً السنة نفسها التي شهدت زيارة المستكشف النمساوي ليو هيرش. ولم يذهب هذا الأخير أبعد من قرية الحزم، أما أسرة بنت فلم تتجاوز شبام. وليس هناك حاجة ضرورية كبرى لإبداء الملاحظات والتعليق على مثل هذا الوضع للأمر. فقد كانت القوة «الحامية» لا تعلم ولا تريد أن تعلم ما يجري في المناطق الداخلية.

وعلى كل حال -وخلال الحرب- أصبحت عدن وما جاورها التفاحة الحقيقية التي تتنازع عليها الإدارات المختلفة في الحكومة البريطانية، حيث كان مكتب الهند ووزارة الخارجية ووزارة المستعمرات، ناهيك عن «الجيش» و«الأسطول» في أيام ما بعد الحرب. و«القوات الجوية» كلها تتشاحن فيما بينها وتناضل للحصول على السيطرة العليا. بل إن جزءاً من المحمية كان يتمتع بمنزلة فريدة على أنه الجزء الوحيد من الإمبراطورية البريطانية الواقع تحت احتلال العدو.

ومع ذلك -وفي خضم هذه الفوضى- بدأ ضوء خافت من الاهتمام بشؤون حضرموت يظهر شيئاً فشيئاً في الخطط البريطانية؛ لأن كل فرد كان يعلم على العكس أن المنطقة الداخلية ربما كانت تعج بمناجم الذهب والبترول والإمكانات الزراعية. وكانت تنمية موارد الإمبراطورية هي حديث الساعة. وهكذا في عامي ١٩١٨ و١٩١٩م، وأخيراً جاء إلى حضرموت اثنان من المسؤولين البريطانيين من ذوي الكفاءة المعترف بها في المهام الموكلة إليهما. فقد وصل السيد لي وارنر -الذي توفي مؤخراً- من هيئة «مستعمرات المضائق» لإجراء فحص عام للظروف السياسية والاقتصادية والزراعية في وادي حضرموت. وكان تقريره المثير بشدة للاهتمام قد طبع كما ينبغي كوثيقة إدارية سرية، ولم يصل أبداً إلى دائرة القراء الأكثر اتساعاً والتي يجدر بها أن تطلع عليه. وكان السيد ليتل، من «إدارة العلوم الطبيعية المصرية»، عالماً في

الجيولوجيا، ولا يزال تقريره المنشور يعد العمل القياسي عن جيولوجيا حضرموت. ولسوء الحظ لم يتغلغل في الوادي العظيم نفسه، والذي كانت حافته الجنوبية تقريباً آخر حدود دراساته. وفي هذه المرحلة، وفي ذلك الوقت، كانت معرفة العالم بحضرموت تعتمد على الوصف الذي نشره هؤلاء الأفراد الستة المذكورون أعلاه بالاسم، علاوة على وصف كان قد نشره رحالة قديم يدعى أدولف فون ريد وهكذا تمكن سبعة فقط من الأوربيين من زيارة بلد ظل خاضعاً «للحماية» البريطانية ما يربو على أربعين عاماً.

ولم تستطع الحكومة البريطانية أن تجد سبباً يرضيها أو يسرها في نتائج أربعة عقود من حمايتها للوادي. وعلى كل حال، فقد أثارت فعلاً همتها الآن لتساهم في رعاية شعب الوادي ورفاهيته، وفي أثناء تنفيذ ذلك فقد أعدت نظرية مثيرة للتساؤل بقدر ما، مؤداها أن المنطقة الداخلية كانت بالضرورة ملحقات طبيعية لموانئها. ولقد كانت هذه نظرية ملائمة، على الرغم من أنها تتعارض تماماً مع الحقائق الاقتصادية. ولا يمكن أن توجد الموانئ بصورة عامة إلا لتغذية المناطق الداخلية، فتلج جدة والحديدة وبورسودان وغيرها على سبيل المثال، وهكذا كان الحال-في الحقيقة- مع الشحر والمكلا. ومهما يكن من أمر فلم تكن هذه النظرية قد اقترحت فقط، بل تم تنفيذها فعلاً، وبُذلت محاولة لتسوية النزاع القديم بين آل القعيطي والكثيري كما ينبغي. ونتيجة لتلك المحاولة تم إعداد معاهدة أمن وصداقة دائمة والتوقيع عليها بين الطرفين في ٢٧ شعبان ١٣٣٦ هجرية (١٩١٨ ميلادية) بالشروط التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد، قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾^(١). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

«ونحن -والحمد لله- نؤمن بالله ونتبع سنة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ونؤمن بوحدة العمل الذي قد يجلب النفع للمسلمين والرخاء للشعب والوطن، ونرغب فيما قد يهب الناس الأمن والهدوء والتقدم داخل وخارج الوطن، ولذلك قامت الحكومتان الكريمتان للقيطي وأهل عبدالله بإعداد معاهدة فيما بينهما إلى الأبد حتى يصير الغراب الأسود أبيض وتهلك الأرض.

«فليعلم السلطان السيد غالب بن عوض بن عمر، وعمر بن عوض بن عمر القيعطي بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن ورثتهم وخلفائهم وكفلائهم كطرف أول، والسلطانين منصور بن غالب ومحسن بن غالب من آل عبدالله بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن ورثتهم وخلفائهم وكفلائهم كطرف آخر، والذين اتفقوا جميعاً على الشروط التالية:

١- يوافق السلطان القيعطي، حاكم الشحر والمكلا، وسلطانا آل عبدالله من آل كثير على أن منطقة حضرموت من الملحقات التابعة للحكومة البريطانية والخاضعة لسلطان الشحر والمكلا.

٢- يقر السلطان القيعطي، حاكم الشحر والمكلا، بأن سلطاني آل عبدالله هما سلطانا آل شنافر وأن آل عبدالله هم الحكام في حضرموت على مدن وقرى سيئون وتريم وتريس والغرف ومريمة والغيل. ومن المعترف به أن عشائر الشنافر المذكورة فيما أدناه من رعايا سلاطين آل عبدالله، وهم بالتحديد آل عمرو، وعشائر آل كثير وآل عوامر وآل باجري وكل ما تضمه حدودهم المعلومة والمشهورة.

٣- السلطان القيعطي، حاكم الشحر والمكلا، نيابة عن نفسه وخلفائه كطرف أول يقر بنفسه أنه يقبل ويعترف بحقوق وسيادة سلاطين آل عبدالله وورثتهم وخلفائهم في تلك المدن والقرى المذكورة، وعلى عشائر الشنافر

المذكورين في الشرط الثاني أعلاه، ويتعهد بعدم التدخل معهم مطلقاً في أي أمر مهما كان، ويعترف بأنهم سلاطين مستقلون في مناطقهم كما هو محدد في الشرط الثاني.

٤- يوافق سلاطين آل عبدالله نيابة عن أنفسهم وورثتهم وخلفائهم كطرف آخر على أنهم لن يتدخلوا بأي طريقة مهما كانت في حكم حضرموت علاوة على المدن والقرى الواردة في الشرط الثاني، وأيضاً العشائر المحددة في الشرط المذكور، ويوافقون ويقررون بأنهم ليس لهم أي حق في التدخل بالمراكز المحلية الأخرى.

٥- يقر سلاطين آل عبدالله بأنهم يقبلون المعاهدة المبرمة بين الحكومة البريطانية وحكومة آل القعيطي في عام ١٨٨٨م على أنها ملزمة لهم كما لو كانوا قد وقعوا عليها، ويقررون بأنهم سوف يلتزمون بإخلاص بشروطها، ويوافقون أيضاً على أن جميع تعاملاتهم ومراسلاتهم مع الحكومة البريطانية ستكون عن طريق السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا.

٦- يوافق الطرفان على أنهم سوف يضعون فوراً نهاية للقتال الحالية والمقبلة، ويوافقون على نسيان الماضي كله والعفو عنه، ولن يقوم أي منهما بالانتقام أو المطالبة بأي دعوى ترتبط به، ويوافقون على المحافظة على الأمن على الطرق في المستقبل داخل حدودهم المعروفة، وأن يقيموا العدل طبقاً للشرع، وأن يوقروا السادة العلويين ويساعدوا المظلومين ويرسو دعائم العدالة العامة داخل حدودهم المعروفة.

٧- توافق الأطراف المذكورة على مساعدة بعضها البعض إذا وقع بلاء أو حدثت مشكلة من أي من الجانبين لرعاياهم وأصدقائهم والتابعين لهم أو للأشراف أو المسافرين أو الضعفاء، ويوافقون على أنهم سوف يحمون

أرواح وممتلكات التابعين لهم ورعاياهم ومن تحت حمايتهم ما داموا يتعاملون معهم أيضاً بالعدل والإنسانية ومع باقي أصدقائهم.

٨- توافق الأطراف المذكورة أعلاه على أنه ستكون هناك حرية كاملة للتجارة، وأن الرسوم سيتم فرضها بالتعرفة والأسعار نفسها على جميع الأشخاص بالتساوي، سواء كانوا رعايا أي من السلطانين المذكورين أعلاه.

٩- إذا أراد أي سلطان من المذكورين أعلاه أن يزور الآخر فمن الضروري له أن يخطره بنيته تلك حتى يمكن اتخاذ الترتيبات اللازمة لاستقباله بما ينبغي من احترام، ولا يجوز في أي ظرف مهما كان أن يزيد عدد القوات (المرافقة له) عن خمسين، حتى يمكن تفادي وقوع اضطراب أو مشاكل بين القوات المختلفة.

١٠- يوافق سلاطين القعيطي وسلاطين آل كثير بصورة متبادلة على مساعدة بعضهم البعض حسب قدرتهم وطاقاتهم في أي خطة لتحسين الظروف في حضرموت ولتقدمها.

١١- نظير قبول الشروط السابقة من قبل سلطان الشحر والمكلا وسلاطين آل كثير من أهل عبدالله سوف تسعى الحكومة البريطانية إلى تسوية وإنهاء جميع النزاعات التي قد تنشأ في المستقبل بين المذكورين أعلاه بعد تاريخ هذه المعاهدة بالتحكيم من خلال المندوب السامي في عدن^(١).

وقد يستطيع أحد المحامين أو المشتغلين بالقانون أن يكشف بسهولة الثغرات الموجودة في نصوص هذه الاتفاقية، في حين سوف يكشف القارئ العادي الذي يقرأها عن غير قصد أن بها إمكانيات ظاهرة جلياً لسوء الفهم والخلاف. ولقد كان

(١) انظر نص هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات التي تلتها - وكان الهدف منها إصلاح الأوضاع المختلفة في حضرموت وتوحيد قوة الدولتين القعيطية والكثيرية - لدى: القعيطي: السلطان غالب بن عوض، تأملات عن تاريخ حضرموت، ص ١٣٦-١٤٤، مكتبة كنوز المعرفة، جدة ١٤١٨هـ. (المراجعون).

السيد لي وارنر شديد الصراحة في انتقاده لها حيث قال إنها ليس لها أي فائدة سياسية من الناحية العملية نظراً لأنها لم تقدم أي ضمانات قيّمة. وعلى العموم فالغرض والأثر العملي لهذه الوثيقة واضحان بما فيه الكفاية، ويمكننا أن نسلم عن طيب خاطر بأن منطقة حضرموت ككل قد استفادت فائدة عظيمة من سد الثغرة الرئيسة في دفاعاتها ضد الفوضى والاضطراب. فقد تبدل التنافس القديم بين غالب الكثيري وعوض، وبين أولاد الأول وغالب القعيطي، بالعلاقات الحالية المرضية نسبياً بين هاتين الأسرتين الحاكمتين، بناءً على بيان مواقفهم النسبية التي لا تنطوي على سوء فهم حقيقي، وتشترط التحكيم البريطاني في حالة نشوء أي نزاع.

وكان العنصر القعيطي بالطبع هو الذي ربح كثيراً من التسوية، وكان ذلك بمثابة مكافأة ملائمة لجيلين اثنين من الإدارة الحازمة وغير الظالمة تحت حكمهم. ومن ناحية أخرى كان آل الكثيري، على الرغم من شكواهم الضئيلة التي أشرنا إليها من قبل، قد نالوا أيضاً مميزات غير قليلة من الاتفاق النهائي مع خصومهم القدامى. أما الطرف الثالث... أي الحكومة البريطانية (التي سماها الكاتب tertius gudens) فلم تكن طرفاً حقيقياً في هذه الاتفاقية، ولم توقع عليها أيضاً فيما يبدو بوضوح، ولذلك يجوز لها في هذه الحالة أن تتمتع بحق وتسعد بدورها الخير الذي أدته كصانع للسلام بين عدوين قديمين وبالنجاح الذي صاحب وسيلة فجة وغير بارعة لمنح أوسع تفسير إقليمي ممكن للنص غير المرضي على الإطلاق لمعاهدة ١٨٨٨م. والآن لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك مهما كان في أن إقليم سلاطين آل كثير، المحدد بالتفصيل في هذه المعاهدة، ومنطقة آل القعيطي، يشكلان معاً محمية بريطانية والذابة الوحيدة في هذه المراهم (أي العيب الوحيد في هذه الاتفاقية) هي الحقيقة المثيرة للدهشة والاستغراب من أن المعاهدة لم تُوقّع، ولم يتم التفاوض في الحقيقة عليها بموافقة سلطاني آل كثير الاثنين، منصور ومحسن، اللذين لم يكونا في عدن، حيث ترأس

المندوب السامي البريطاني المفاوضات. ويزعم أولادهما أن أختامهما التي تم وضعها لاحقاً على الوثيقة لم تكن إلا إذعائاً للقضاء والقدر^(١).

إن هذا الوضع في الأمور، وربما يجدر بنا أن نسميه تسوية النزاع القعيطي، الكثيري، قد أثمر بالفعل نتيجة طيبة واحدة ذات أهمية كبرى على الأرجح. فإذا ذهب زائر لحضرموت، وكان على دراية بالمناطق الأخرى من الجزيرة العربية، لن يكون بوسعه بالتأكيد إلا أن يُصدم بحقيقة أنه في ذلك الوادي الخصب الواسع -الذي يمتد إلى مئة ميل أو أكثر من أقصاه إلى أقصاه- لا يوجد إلا ما يكاد يصل إلى عشرة بالمائة فقط، وربما لا يزيد عن خمسة بالمائة، من النخيل الذي قد يبلغ عمره عشرين عاماً. ويستطيع المرء بصورة تقريبية أن يقدر عمر غالبية بساتين النخيل بأنه يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر عاماً. فالجذوع الطويلة الموجودة في نجد والتي تشكل غابات حقيقية بكل ما في الكلمة من معنى يندر وجودها هنا حتى إنه يصعب ملاحظتها بدرجة كافية، وإن وجدت فإنها تكون بصورة عامة في مجموعات صغيرة، ولا تشكل بساتين حقيقية إلا أحياناً. هذه السمة السائدة في الوادي قد قُدم تفسيرها لي بطرق مختلفة، فلقد قال بعضهم إن النخيل لا تنمو إلى ارتفاع عظيم في حضرموت، ولكن تكذبهم النسبة المئوية الصغيرة لهذا النوع من النخيل الذي يراه المرء فعلاً، ويقول آخرون: إن النخيل لا تعمّر طويلاً في حضرموت مثلما تعمّر في أماكن أخرى، وآخرون -بقدر كبير من التعقل- ينسبون هذا الوضع إلى القلق المزمن الذي ينتج عنه انغماس مفرط في التدمير على فترات دورية، ومع ذلك يلقي آخرون باللوم على أوضاع الحرب أو الحصار المزمّنة والتي تمنع حفر الآبار وصيانتها. وفي رأيي يجب أن

(١) رغم أن المؤلف بريطاني وسبق له أن كان من رجال الإدارة البريطانية إلا أنه يلمح هنا إلى شيء من الممارسات الاستعمارية البريطانية وطريقتها في صياغة المعاهدات بينها وبين البلدان المستعمرة أو بين البلدان المستعمرة بعضها البعض. تلك الصياغات التي تضمن لبريطانيا حقوقها كاملة ولا تلزمها في الغالب بأية التزامات قانونية. (المراجعون).

نسعى للتفسير الحقيقي في السنين الأخيرين، والسبب الثالث أشد أهمية من كليهما. ففي الماضي عانت النخيل أشد المعاناة على أيدي الأعداء، وكانت تتحرق شوقاً للري، الذي كان يتم تبديله على فترات فاصلة لتعرضه لنفس التقلبات في حينه. ولا يستلزم الأمر قدحاً لزناد الفكر حتى نقبل في حالة أية منطقة معينة بنظرية وجود دورة من القلق والاضطراب فيها تمتد لمدة عشرين أو خمسة وعشرين سنة، ولكن جزءاً ضخماً جداً من إجمالي المساحة المخصصة للنخيل اليوم قد تمّ زراعتها في الآونة الأخيرة نسبياً حتى إن المرء يستطيع بناءً على هاتين النظريتين أن يفترض وجود فترة مليئة بحزن الحرب وكوارث السلب والنهب منذ حوالي عشرين عاماً مضت. ونجد في الحقيقة عكس ذلك، حيث وجدنا المفاوضات الودية لبث السلام الأبدي. وإلى هذا السلام يدين وادي حضرموت بفضل زراعة مساحات شاسعة كانت قد تركت مهجورة من قبل نتيجة الفوضى السائدة. ولنبتهل إلى المولى تبارك وتعالى أن تكبر الجذوع التي ما زالت صغيرة حتى تصل إلى هامة العمالقة!!! والقصة نفسها ترويه لنا زراعات الفِطْر (التي تسمى بالعامية الفقع أو الكماء) في مدن المزارع، مع بيوتها الريفية وفيلاتها وبساتينها، والقصة نفسها، مرة أخرى، تحكيها لنا المساحات الواسعة المتوافرة الآن لزراعة القمح والدُّخْن.

إن قيمة الأرض - لا سيما عند قربها الشديد من المدن - مرتفعة. وعلى سبيل المثال تصل قيمة أرض زراعية عادية ذات جودة متوسطة في منطقة شبام إلى مبلغ ٥ أو ٦ ريالات للمطيرة التي تبلغ مساحتها حوالي ستة وثلاثين ياردة مربعة، وفي وادي ابن علي يتراوح السعر من ٧ إلى ١٠ ريالات. ولكن - على أي حال - في المناطق المجاورة مباشرة لشبام يرتفع السعر إلى أن يصل مبلغاً يتراوح بين ٢٥ إلى ٤٠ ريالاً. وفي المكلا، لأسباب اقتصادية بحتة، البيت الذي قد يؤجر بسهولة بمبلغ ٢٠٠ جنيه إسترليني، في جدة لا يدر إيجاراً سنوياً إلا في حدود ٢٠ ريالاً فقط. وليس هناك من شك في أن تسوية الخلاف في حضرموت بين آل القعيطي والكثيري عام ١٩١٨م قد

بشرٌ بميلاد عهد جديد من الازدهار الاقتصادي المحتمل . وكانت سرعة التقدم فيما تلا ذلك بطيئة بصورة مخيبة للآمال .

ولم أتمالك نفسي من الشعور بالأسى قليلاً، إشفافاً على علي بن منصور، حيث قمت، بعد السادسة صباحاً مباشرة بقيادة السيارة متجهاً نحو تريم، وأنا أتأمل في عبء مصيبتة. وقد شعرت في ذلك الوقت، وما زلت أشعر بما يلي: أولاً: إن تسوية عام ١٩١٨م قد عكست بدقة تقريباً الموقف الحقيقي النسبي لأطرافها في ذلك الوقت، وثانياً: إن حضرموت مثل الجزيرة العربية ككل، لا تزال بحاجة إلى قدر أكبر من التوحيد إن كُتب لها البقاء والازدهار في ظل الظروف المعاصرة. وعلى كل حال فقد مضى مؤلفو هذه المعاهدة، غالب وعمر من ناحية ومنصور ومحسن من ناحية أخرى الآن كلهم إلى قبورهم، بعد أن رأوا بعض ثمار مسعاهم. وأولادهم الذين ترعرعوا في عقب هذا الجو الجديد من الود والارتياح، لا يمكنهم بصورة معقولة أن يطعنوا في حكمة أسلافهم. وباستطاعتهم أن يتعاونوا معاً ليلموا شتات شعوبهم التي سادها التفرق الشديد في بلدهم وينسجوه مرة أخرى في التصميم الأصلي الذي أراده صانعو المعاهدة. وإذا لم تبرز بعض الشخصيات المسيطرة على الساحة بعد هذا الوقت لتقلب التوازن القائم، فيبدو لي أن العنصر الكثيري سوف يصبح يوماً ما أكثر بقليل من خميرة في وسط الأكثرية القعيطية.

وعند الثامنة صباحاً كنت أمر عبر بوابة تريم. وبعد بعض التجول غير الضروري بين المدينة وعديد اتجها في نهاية الأمر نحو بيت الأخوين عبدالقادر (سعيد) ومحمد، أولاد حسين بن الشيخ آل الكاف. وكان البيت أحد المباني الأولى من العهد الجديد، فقد كان مسكناً فخماً كالقصر على طراز المباني في سنغافورة وجزر الهند الهولندية، ويقع بالقرب من الطرف الشرقي للمدينة. وكان عتيقاً بقدر قليل في التصميم العام، مع حمام السباحة في فناء البيت، ولكن تجهيزات دورة المياه

والاستحمام كانت نظيفة وصحية. وبصورة حتمية يتعذر اجتنبها اجتماع حشد هائل من آل الكاف وآخرين، بما فيهم السلطان عبدالله، واندفعوا بأعداد ضخمة إلى البيت تشدهم الجاذبية التي لا تُقاوم الناتجة عن وجود رائر جديد. إن مأساة هؤلاء القوم الأغنياء أنهم -في ظروف حياتهم- ليس لديهم عمل يفعلونه قد يبيقيهم مشغولين طول اليوم. وما يبعث السرور بدرجة كافية -ولكن ذلك ليس مريحاً جداً- أن حياتهم تضي في التلکؤ والثروة والترفيه. وربما يكون عندهم أحياناً عمل ولكنه يكون بصورة عرضية ولا ينال تركيزهم واهتمامهم.

وكان واحد من الجماعة التي احتشدت هنا اليوم لم أره من قبل، وقد كان رجلاً مسناً ذابلاً تبدو على وجهه علامات المكر والخداع، وقد قدرت من منظره أن سمّاً زعافاً يجري في عروقه. وكانوا في هينن قد أخبروني أن سيداً من قرية بور في وادي عدم قد جاء منذ زمن مضى إلى أرض نهد ليعقد صلحاً بين عشيرتي آل حكمان وآل ثابت اللتين كانتا ولا تزالان تتحاربان. وقد نجح بالعسل على طرف لسانه والسم في قلبه في أن يجعل الصلح مستحيلاً. وكان هذا هو الرجل الذي يجلس الآن بجواري، واسمه السيد عيدروس، يصب في أذني بلسان ذرب الحكاية الطويلة لكوارث ومصائب الحضارة والتي لا يمكن علاجها إلا بتدخل يد قوية.

وابن سعود فقط هو الذي يستطيع علاج علل حضرموت. ولقد حاول السادة، وهو نفسه منهم، راب الصدع ولكن دون جدوى لأنه لم تكن هناك حكومة تستحق هذه التسمية في حضرموت. يجب أن يتدخل ابن سعود حتماً، ويمكنه الاعتماد على النفوذ الكامل للسادة. ثم بصوت عال تحدث أحد الرجال الأصغر سناً من الأول بين الحاضرين بكلمات مجنحة أدهشتني كثيراً بقدر ما أسعدتني حيث قال: «من أنت حتى تتكلم؟ أليس معروفاً في جميع أنحاء المنطقة أنك -أنت وحدك- بجهودك في الصلح، الذي صنعت الخلاف الحالي بين النهد؟ ولولاك لكانوا في أمن منذ أمد بعيد» وقد بلغ

السييل الزبى وتوجهت أنظار جماعة الحاضرين لي ضارعة كما لو كانوا يطلبون العفو عن إزعاج السيد وإلحاحه. ولكن السيد، على كل حال، كان يسعى إلى أن يوقعني في مصيدة لآتفوه بكلمات طائشة. ولذلك واصل قائلاً: «انظر إلى تريم وانظر إلى قرية بدو هذه عبر الوادي، لا تبعد إلا عشر دقائق على الأقدام. لماذا!! لا يوجد أحد من السادة هنا، ولا فرد واحد من تريم يُظهر نفسه في العراء هناك. ليس لدينا أمن، ويعلم الله أننا بحاجة إليه».

ولم يكن بالإمكان التخلص من الرجل، وعلى أي حال فقد استطعت أن أرد عليه بصراحة وصدق وبطريقة نالت القبول بوضوح، حيث أجبت قائلاً: «أنت تطلب ابن سعود، ليمنحك الأمن. إن ابن سعود -وهذه حقيقة- قد نشر نعمة الأمن في كافة ربوع بلاده حتى أقصى حدودها. انظر لحالتي. لقد خرجت منها لتوي سالماً، من سوريا إلى حضرموت، وفي طول رحلتي لم أسمع طلقة رصاص واحدة حتى وصلت أول قرية في بلدكم. كما أن ابن سعود -وهذه حقيقة- يرغب أن يرى العرب في كل مكان ينعمون بالأمن، والرخاء، والاستقلال. ولكن بالنسبة للتدخل في شؤون الحكومات التي تجاوره، فذلك أبعد ما يكون جداً عن تفكيره. ولا يشتهي بوصة واحدة من أراضيها. فهو بالتأكيد لا يطمع في بلدكم حضرموت ولا في أي أراض أخرى. وبالنسبة للأمن فأنتم وحكوماتكم تملكونه بأيديكم أنفسكم حتى تسعون إليه وترسون دعائمه. وعليكم أولاً أن ترغبوا الأمن إذا كنتم تريدون تحقيقه، لأن (الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)».

وقد جاء غداء «جاوي» فآخراً ووضع نهاية للنقاش، وبعد نوم القيلولة المطلوب، ذهبت للتجول بالسيارة مع مضيفي، وقد مررنا أولاً بعيديد حتى وصلنا إلى المسجد الأبيض الصغير في أعلى الوادي، حيث يستطيع المتزهون في المساء أن يتوقفوا هناك لأداء صلاة المغرب، وبعد ذلك عدنا خلال المدينة وخرجنا إلى قرية

دمون، وكانت بالأحرى مستوطنة متسخة قليلاً. وفي طريق عودتنا عرجنا على السلطان عبدالله لزيارته في بيته الثاني قرب بوابة دمون، وبعد صلاة العشاء وشرب الشاي رجعنا للبيت لتناول العشاء. ثم تفرقت الجماعة، وتركوني وحدي على شرفة بالسطح لأنام عندما أريد. وهنا لاحظت لأول مرة في حضرموت وجود البعوض، الذي يعود بلاشك لوجود بركة استحمام في البيت.

ولا يبدو أن الملايا شائعة في هذا الوادي. كما كانت بالتأكيد شائعة في نجران وأودية الحجاز. والصحة العامة لهذا البلد أعلى بوضوح من المعدل العام الشائع في الجزيرة العربية كما أن الجلد الناعم المكتنز والأجسام الرشيقة النحيلة للناس، سواء الرجال أو النساء، يبدو أنها تدل على مناخ صحي. والطبيب الهندي الذي كانت توظيفه سابقاً أسرة آل الكاف في تريم لم يعد هنا، وربما شغل مكانه على الأرجح صيدلي من جاوة. وفي الشجر أيضاً صيدلي آخر مسؤول عن مستشفى صغير، وكان هو الذي اعتنى بصحة فريسا ستارك خلال مرضها الخطير في شبام. ولقد كان فخوراً للغاية بالشهادة التي منحتة إياها مريضته، ويأمل أن تحوز له يوماً ما على وظيفة في مكان آخر غير الشجر. وفي المناطق الداخلية ينظرون إلى التعليم على أنه أكثر أهمية من الطب، ولكن كليهما متروكان لمشاريع أسرة آل الكاف، التي تدرج بين أنشطتها أيضاً تسجيل وترقيم السيارات. ومعظم هذه السيارات تنتمي -في الحقيقة- لأفراد مختلفين من الأسرة، والتي أصدرت أيضاً عملة محلية من قطع النيكل المعدنية لسد الفجوة التي يشعرون بها كثيراً بين نصف البنس الجاوي والدولار النمساوي، الذي يعد المعيار للقيم المحلية في جميع أرجاء النصف الجنوبي من الجزيرة العربية. وعلى الساحل تتداول الروبية الهندية وكسورها أيضاً.

ومن الإسهامات النبيلة الأخرى لأسرة آل الكاف نحو رخاء وازدهار أرض وطنها شق طريق للسيارات من تريم إلى الشجر، الذي سوف أقود سيارتي عليه الآن. وكانت الساعة لم تكد تبلغ السابعة صباحاً (في يوم ٢٧ أغسطس) عندما

غادرت بيت عبدالقادر ومررت من خلال بوابة الشجر لعبور الوادي. وعند قناة المسيلة قرب أسفل الطريق المتعرج الصاعد إلى الجرف حتى مستوى الهضبة، توقفتا لنسحب ماءً لرحلتنا الطويلة. وكان لدينا سيارتان، واحدة سيارتي الخاصة والأخرى من طراز بيوك وضعتها أسرة الكاف تحت تصرفي، وبالإضافة إلى محمد، السائق، وأنا، كانت الجماعة تضم مرشدين اثنين من عشيرة آل جابر وكاتباً يعمل لدى آل الكاف كان عائداً إلى الساحل، وسائقاً. والطريق الصاعد من الوادي إلى حافة الهضبة مشهور باسم «عقبة باعشمين». وينسب إنشاؤها إلى مهندس محلي يتفاخر بلقبه الغريب المستعار الذي يكنى به وهو «الإنجليزي». ولم يستخدم الطريق أحد منذ أن سافر عليه إخوان آل الكاف منذ ثلاثة أشهر مضت في طريقهم إلى مصر. فمنذ ذلك الحين هطلت كمية طيبة من الأمطار، ويبدو أنه لا يعلم أحد ما إذا كنا نستطيع أن نقدر بثقة على الوصول إلى جهتنا المقصودة. إن كل شيء سيكون على ما يرام إذا لم تكن الأمطار قد جرفت الطريق ومحته من الوجود، وسوف تكون تجربتنا مفيدة لإخوان آل الكاف، الذين يُتوقع عودتهم بعد فترة قصيرة إلى الشجر.

وكان الطريق الصاعد للجرف حاداً بما فيه الكفاية على وجه التأكيد. ولذلك فقد أثرت أن أصعد سيراً على القدمين، ولقد واجهت كلتا السيارتين بعض الصعوبة عند المنعطفات المنحدرة الحادة. ولكن كليهما -على أي حال- وصلتا بسلام إلى القمة، ومن واجبي أن أقول إن الطريق كان تحفة رائعة في مجال إنشاءات الطرق، ويضيف قدراً عظيماً من الفخر والفضل للمهندس المسؤول عنه. فدرجات الميل والانحدار، على الرغم من أنها مازالت منحدرة بشدة، كانت معتدلة بأقصى ما تستطيع العبقرية البشرية إبداعه. وكان سطح الطريق ممتازاً. ولا يمكن تفادي المنعطفات الحادة إلا بشق الأنفس. ومع ذلك كان المشي ساراً ولطيفاً أكثر من ركوب السيارة. وفي القمة ألقينا نظرة رائعة على تريم والوادي في الأسفل من ارتفاع حوالي ٧٠٠ قدم.

والهضبة في هذه النقطة تشكل لساناً ضيقاً ولكنه يتسع أكثر فأكثر بين الوادي الرئيس عن يسارنا ودلتا وادي عدم عن يميننا. ويسير طريق السيارات في البداية نحو اتجاه جنوبي، شرقي على طول سفح رف بارتفاع ٢٠٠ قدم إلى الغرب، ويطل على وادي عدم. وعلى كلا جانبي الممر الضيق الذي يمتد فيه الطريق توجد شقوق عميقة مفتوحة على الأودية. وقد تركت قيادة السيارة لسائقي حتى أتفرغ لكتابة الملاحظات والمذكرات بدون تعطيل، وكنت سعيداً لأنني لم أكن أقود السيارة. وصعدنا وهبطنا في طريق متعرج لا ينتهي، حيث كنا نرتفع إلى حوالي ١٠٠ قدم ونهبط بالقدر نفسه، مرة بعد مرة، والآن نسير على طول منحدر من الصخور المفككة، والآن فوق سهل جيري منبسط، ويتناثر هنا وهناك ممر ضيق تماماً بين الشقوق المنفرجة على كلا الجانبين. بيد أننا كلما تقدمنا كانت الهضبة تتسع أمامنا وتصبح أماكن المرور الخطر أقل تكراراً. وهكذا انطلقنا بالسيارة بسرعة ثابتة على أرض غير ذات زرع، وسطحها مفكك، وفي سهل جيري لا أثر فيه لأي نباتات.

وبعد حوالي خمسة عشر ميلاً مررنا برأس شعيب غاتر، وهو صدع عميق ينحدر لأسفل، والذي قالوا عنه إنه يؤدي إلى ممر النبي هود. ودرب القوافل إلى عينات من وادي عدم يعبر طريقنا عند هذه النقطة، حيث كانت الهضبة أمامنا مكشوفة للرؤية بوضوح حتى مسافة هائلة في جميع الجوانب، مع انتشار واسع للتلال وسلاسل الجبال المنخفضة وشريط طريق السيارات يلتف معها أو بينها على الأرض المنبسطة. وهنا وهناك تقف شجيرات قليلة، ذابلة على وشك الموت، ذات جذوع سمكية، وقد توقفت عن النمو، وهي تتشبث بصورة بائسة بشفاة الصخور المشققة والمنحدرات الصخرية في الأودية الضيقة المكونة بين الشقوق على هذا الجانب أو ذاك. وقد كنا نصعد إلى أعلى دون أن ندري، وعلى بعد حوالي أربعين ميلاً من العقبة وأعلى منها بحوالي ٦٠٠ قدم، أتينا فجأة على رقعة طيبة من الخضرة النباتية حول حافة صدع عظيم يهبط نحو وادي عدم، وكانت تلك الخضرة تتكون من أشجار

وشجيرات صغيرة خضراء. ووراء هذه النقطة كانت الخضرة المماثلة تتناثر في الهضبة، حيث توجد أحد البقع الوفيرة النماء بالنباتات وشجيرات السط في ريعان توردها بالأزهار على رأس صدع آخر. وكنا نقرب بوضوح من منطقة هطل بها المطر مؤخراً، وسرعان ما وصلنا إلى واد عامر بالشجيرات، يدعى رؤوس الشاة أو قرون الغنم والذي يتدفق إلى أسفل حتى القرية الصحراوية المسماة غيل ابن يمين نحو الشرق. وكانت دروب القوافل، التي تسير في الاتجاه نفسه، قد تركت أثراً عميقاً من سيرها في قاع الوادي. وتوجد هنا وهناك حظيرة خراف مطوقة بحزام صخري لتروي قصتها عن الرعاة الذين كانوا يحرسون قطعانهم بالليل. وطفّر زوج من الغزلان مبتعدين عن مرعاهم بين الأعشاب الصغيرة الغضة على ضجيج اقترابنا منهم. وعن رأس الوادي نزلنا إلى وهد «حصن الخرب» الضيق الذي يهبط أمامنا بين سلاسل الجبال حتى وادي حرو وهو شريط واسع منخفض ذو لونين من الأبيض والأخضر يجري في الجانب الآخر منا تجاه الغيل.

وقد قطعنا الآن حوالي خمسين ميلاً من رحلتنا. وعن يسارنا في الحافة الصخرية المنحدرة من الوادي تقع كهوف مستوطنة، لأولئك البشر، من الرعاة البؤساء لقطعان المشايخ الذين يقسمون وقتهم بين رعي الغنم وفلاحة الحقول التابعة لبدو آل جابر من العرب في وادي حرو بعد تجمع مياه السيول. وفي البداية شاهدنا فقط الغنم مع حمير قليلة ونساء. ثم اندفع الرجال والصبيان خارجين من مخبئهم في منطقتهم المكتظة بالسكان ليتبادلوا الأخبار مع مرشدينا، عندما توقفنا لاستكمال ما نقص من إمداد مائتنا من بركتهم. ولقد كانوا قوماً ودودين، ومفرطين في الفضول وحب الاستطلاع، على الرغم أن مرور السيارات عبر واديهم لم يكن شيئاً جديداً. وعندما نزلنا، سرعان ما وصلنا إلى حافة وادي حرو وعبرناه إلى الضفة اليمنى، التي لزمناها حتى تجاوزنا مساحة هائلة من الأرض المراحة، وتتناثر فيها مبان متفرقة من الطين والحجارة حتى قرية كريف ضبوعة الصغيرة والمهجورة الآن. وفيها بركة صغيرة

محاطة بحزام من التراب وأشجار العُلب. وقد اقترحت أن نقف هنا لتناول الغداء، ولكن مرشدنا من آل جابر اعترضوا على أساس أنه -على الرغم من الفراغ الواضح في المكان وخلوه- ربما يكون هناك ناس حولنا. وفي هذه المنطقة كان من الأفضل - كما قالوا- أن نتفادى اجتماع الناس غير الضروري. وهكذا واصلنا السير، حيث كان الدرب محدداً بحجارة في الوادي، الذي كان اتساعه يبلغ ميلاً أو أكثر، وبه كثير من النباتات. وبطول الناحية التي عن يسارنا امتد جرف منخفض من الحجر الجيري، وعند ثنيته عبرنا قناة السيل لتتوقف على الجانب الآخر لتناول الغداء وسط واد ضيق تنتشر فيه شجيرات السنط والسرّح.

ولم يكن غداؤنا فاخراً، بل كان يتكوّن فقط من معجون التمر والسّمك الخام المجفف (اللحم)، الذي يشكل الوجبة الرئيسة للبدو وركاب القوافل في هذه المناطق. ويقولون إن السمك يأتي من كمران، وهو نوع جد عادي من السمك، والذي يذهب قليل منه لمسافة بعيدة، وهو مُغذٍّ بلا شك، ولكن طعمه يفوق الوصف، وبالتأكيد ليس بنفس سوء رائحته. والقناة التي عبرناها وأخرى على الجانب الغربي من الشجيرات كانتا روافد من وادي حرو الرئيس، والذي يقع رأسه في أرض مرتفعة قليلاً على مسافة بعيدة إلى الغرب. وحرو يعود إلى آل جابر من وادي عدم، وهم مع آل عَمْر وأهل عبدالله يشكلون اتحاد آل كثير. المشايخ، الذين يزرعون أرضهم، يحصلون على نصف المحصول، ولكن عليهم أن يوفروا البذور علاوة على العمال. وعلى كل حال، في وقت مرورنا كان الوادي خالياً ومهجوراً، ينتظر الأمطار الموسمية.

وتمتد الطريق الآن تقريباً نحو الجنوب-الجنوب الغربي في سهل مليء بالشجيرات والذي يصرف جزءاً من مياهه في منخفض حرو، والجزء الآخر في ممر رسب الضيق الذي ينحدر إلى أسفل من قناة عميقة وضيقة حتى وادي عدم. وعلى طول حافته على الجانب البعيد تقف نصف دستة من المباني تشبه الحصون يسكن فيها

عدد قليل من السكان المؤقتين (من آل جابر). وتبدو غير مأهولة الآن، حيث لم نر فرداً واحداً من البشر. وبعد أن سرنا حوالي ستة أميال بعد الغداء أتينا على الصدع الذي يشكل رأس ممر رسب الضيق، وهو يهبط إلى المستوى الأسفل في جرف شبه دائري وشديد الانحدار بحوالي ستين أو سبعين قدماً. وعلى كلا جانبيها امتدت سلسلة جبال منخفضة، وعند ملتقى الطرق بها كان درب السيارات يسير في خط مستقيم فوق سهل واسع ممتلئ بالشجيرات. وبعد عشرة أميال أخرى وصلنا إلى النقطة التي يرتفع عندها الطريق على سلسلة الجبال على طول رف صخري وعمر قليلاً. وفي القمة على ارتفاع مئة وخمسين قدماً فوق السهل، كنا أعلى بحوالي ١٠٠٠ قدم من قمة با عشرين».

وعلى الجانب البعيد من سلسلة الجبال تحتنا وادي زبون، العامر بالشجيرات، والذي تصرف فيه المرتفعات القاصية عن يسارنا في الأمام مباشرة في وادي عدم. ووراء مرة أخرى، وبعد أميال قليلة، اعترض شعب سلتوه مسارنا في طريقه إلى الشريان الرئيس نفسه. وكانت الهضبة التالية وعرة وصخرية وتنتشر فيها بقدر معقول أشجار قصيرة توقفت عن النمو، وذات جذوع سميكة، وهي على وجه التحديد أشجار البشام أو البلسم، والتي أهملها جيل قد نسي تجارة التوابل القديمة في وطنه. وقد انتهت هذه الهضبة عند حافة جرف منحدر يشرف على منطقة طبيعية كثيفة الأشجار تجري خلالها الجداول الكثيرة المتفرعة من وادي العشرة نحو الغرب حتى عدم. ومن حافته استطعنا أن نرى على البعد سلسلة جبال الفقرا الشاهقة التي تواجه نحو الجنوب المحيط الهندي. وقد أفضى بنا طريق وعر قليلاً إلى واجهة الجرف في أخدود عميق، الذي يتسع عند قاعدته في أول قناة من قنوات عشرة. وعلى يمين طريقنا تقع أربعة أو خمسة قرى صغيرة في مستوطنة ريـدة بعدد سكانها القليل من عرب المعارة الذين يزرعون الأراضي المنبسطة -التي تروى بمياه السيول من هذه

الأودية- بالدخن والمحاصيل الأخرى ضئيلة القيمة. والجرف خلفنا يشكل حداً طبيعياً بين قبائل آل جابر والمعار. ويتكوّن وادي العشرة من ثلاث قنوات مهمة وعدة قنوات أخرى رافدة وهي التي واجهنا قليل من الصعوبة عند عبور بعضها.

وخلفها تمتد مجموعة ثانية من مجاري التصريف الضحلة على كلا جانبي قناة رملية واسعة تنتشر عليها مجموعة مماثلة من القرى الصغيرة المأهولة أيضاً بقبائل المعارة. وهذه تشتهر باسم وادي ريدة، ويجب أن تعد القرى وهي ديرة آل با حسن والقرن، وآمون، والقزة، وبشي وقليل غيرها، جزءاً من منطقة مأهولة واحدة، تشمل أيضاً قرى عشرة. وأكبر قرية من هذه القرى، وهي ديرة آل با حسن، تقع فعلاً على الطريق، وقد توقفنا فيها لتوظيف مرشد يكون رفيقاً يسهل لنا المرور خلال منطقة قبائل المعارة. وقد وقفنا تحت شجرة «عَلَب» رائحة مترامية الأغصان، وكانت هناك أشجار كثيرة مثلها متناثرة في أرجاء الوادي، مع أشجار السنط وقليل من النخيل، وسرعان ما طوقنا سرب ضخّم من فتيات ونساء القرى. وكن جميعاً يغطين وجوههن بالكامل، ولا نستطيع أن نرى عيونهن إلا بصعوبة، ولكن يبدو أنهن كن على قدر قليل من الجرأة وعدم التحفظ وفي منتهى التودد، وكثرة الثروة، وكن يتزاحمن ويتدافعن على السيارة ليحدقن في داخلها. وقد مكثن يسليتنا بهذه الطريقة إلى أن جاء رجل. وبعد التبادل للتحيات معنا، أخذ مكانه في السيارة. وربما يعود لنا غداً أو بعد غد أو في الشهر القادم، ولكنه بقدر ما أستطيع أن أتذكر لم ينبس بكلمة وداع واحدة لأي شخص. وهنا بدأ محمد تشغيل المحرك، وقفزت النسوة المذعورات مبتعدات عن هذا الوحش الحديدي، وانطلقنا في طريقنا.

وتبعد القرن ١٤٠ ميلاً عن عقبة با عشرين بالطريق البري، وكنا لا نزال على ارتفاع حوالي ١٠٠٠ قدم فوق تلك النقطة، ولكننا نزلنا على الأقل ٤٠٠ قدم من قمة الجرف. وقد واصلنا لما يقرب من ميلين التزام الضفة اليمنى لقناة ريدة حتى أتينا على مقابر، تشرف عليها قبة بيضاء لقبر أحد الصالحين. وهنا عبرنا قاع مجرى

السيول وكان من رمل ناعم نسبياً، وبعده عبرنا أيضاً قناة رافدة تسمى شعيب ضنته وتقع قرية آمون الصغيرة على ضفتها اليسرى. وقد كان سطح الهضبة بعد ذلك وعراً وكثيراً ما تقطعه خطوط تصريف ضحلة، والتي تجاوزناها في حينه حتى وصلنا إلى الأرض المرتفعة الأسهل من ورائها. والآن دخلنا بالتدرج في عمر على كلا جانبيه سلاسل جبال منخفضة ومتقاربة بالإضافة إلى سلسلة من القنوات الضيقة، وكلها تنزل للأمام معنا لمسافة معينة إلى أن تلتوي مرة أخرى لتصب في ريدة. وعند رأس الممر، وعلى ارتفاع حوالي ٥٠٠ قدم أعلى من القرن، وجدنا أنفسنا على تجمع أمطار مهم. وقد اعترضت سلسلة جبال نحيلة تماماً هنا بين آخر رافد في شبكة روافد ريدة ووادي دسبة على الجانب الآخر، والذي تتدفق مياه سيوله لتصب في المحيط الهندي، من خلال ممرات ضيقة وعميقة ومنحدرة. ويسير درب السيارات عبر سلسلة الجبال وينزل بانحدار إلى وادي دسبة، حيث توقفنا فيه لنأخذ ماء من أحد البرك على بعد نصف ميل باتجاه تيار المجرى. ويأتي الوادي من الجنوب الغربي ويتجه إلى الجنوب الشرقي خلال ممر شديد الضيق بين كتلتين ضخمتين من مرتفعات الحجر الجيري -الفقرة.

وعند مكان تجمع الأمطار - على بعد ١٦٥ ميلاً من باعشمين - كنا على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن مرتفع الحجر الجيري هو الجزء الرئيس أو المركزي من جبل أو سلسلة جبال أمامنا خلف وادي دسبة، كان يرتفع إلى ارتفاع شاهق بقدر عظيم. وكان الوادي نفسه كثيف الأشجار، بأنواع من أشجار السنت تسمى القرضة، ذات أوراق شديدة الاخضرار وأغصان ممتدة مثل شجر الأرز. ويقوم البدو المحليون بصنع صبغة من أوراقها المسحوقة. والانحدار إلى الوادي من تجمع الأمطار كان حوالي ٣٠٠ قدم. وقد أفضى بنا طريق معبد بطريقة ممتازة به ثنية حادة واحدة وارتفاع منحدر إلى مستوى مرتفع حوالي ٥٠٠ قدم فوقه على الجانب الآخر. وكانت الشمس قد مالت للغروب، وكنا نسرع الخطى بأقصى ما نستطيع،

== الفصل السابع ==

وتارة ترتفع لأعلى وتارة أخرى نهبط إلى أسفل، وتارة نلتف حول محيط كتل الحجر الجيري الهائلة التي كانت ترتفع إلى عدة مئات من الأقدام فوقنا. وقد قطعنا آخر خمسة أميال في الظلام، ثم بعد أن يثسنا من الوصول إلى رأس الطريق في وقت معقول، قررنا أن نخيم حيث كنا. والبقعة التي اخترناها تقع قرب رأس صدع عميق ومباشرة وراء مضيق صغير بين كتلتين من كتل التلال، والتي تقف عليها بجوار الطريق آثار كوخ صخري وحيد، وهو إما كوخ أحد الرعاة أو ربما محطة تجارية على الطريق من العهود الماضية. ويشتهر هذا الأثر باسم «الشيخة»، والأخدود الصغير يسمى شعيب رصع. ومن الواضح أنه رافد من وادي غنم.

وفي العشاء تناولنا أرزاً مع السمك المجفف (مسلوق ومحمّر). وكنا قد قطعنا فقط ما يزيد على ١٨٠ ميلاً من الممر ونحن على ارتفاع حوالي ٤٦٠٠ قدم فوق سطح البحر. وإلى الجنوب والغرب لم يكن هناك شيء ذو أثر هام في المنطقة، وكانت قمم التلال ربما تصل إلى حوالي ٥٠٠٠ قدم فوق البحر. وعلى كل حال، كانت الأرض إلى الشمال الشرقي ترتفع بقدر أكبر، وضلوع الجبال العظيمة تمتد إلى أسفل من قمم تبلغ ٦٠٠٠ قدم أو أكثر نحو البحر، وهناك سلسلة لا تنتهي من مثل تلك الجبال، واحد تلو الآخر صوب الشرق حتى مد البصر. وكان السطح الجيري الوعر للمنحدرات حولنا مغطى بشكل كثيف نسبياً بشجيرات غريبة المنظر تسمى «ديني»، والتي كانت جذوعها الدرية الضخمة تتدفق باللبن بمجرد خدشها خدشاً بسيطاً. وكان هناك شجيرة مماثلة، تسمى «الدمعة»، ينزل منها سائل ذو لون داكن. وليس هناك استفادة من كليهما، بقدر ما أستطيع أن أتذكر، ولكن المادة الصمغية واللبن ذي الرائحة الخفيفة قد يكونان على الأرجح استخدمتا في العصور القديمة عندما كانت مثل هذه الأشياء مطلوبة. وكان مرشدنا من قبيلة «المعارة»، ويدعى طالب قد أحضر لي صفيحة مملوءة بالماء حتى تكون جاهزة بجوار فراشي للوضوء عندما نحين صلاة الفجر. وبعدما وضعها كسر غصناً صغيراً من نبات قريب ووضعه بعناية

بالعرض على أعلى الصفيحة. وقال رداً على استفساراتي: إنه سوف يبعد الأرواح الشريرة عن طريقنا^(١). وكان الجو معتدلاً يبعث على السرور في هذا الارتفاع الشاهق. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة أثناء الليل أعلى من ٧٠ بقليل. وفي الصباح التالي نهضنا في ساعة مبكرة، واستأنفنا رحلتنا عند الخامسة والنصف، وكنا نهبط بسرعة ثابتة. وكان الطريق وهو لا يزال يتبع محيط تضاريس كتل التلال قد التف واستدار عندما كان يطوق رؤوس الشقوق الضخمة التي تنزل إلى الأودية من على جانبي سلسلة شاهقة من جبال الحجر الجيري. وكان أمامنا خمسة أميال فقط لنقطعها، وسرعان ما وصلنا إلى نهاية الطريق على جرف عال يسمى رأس الحرة. وقد نزلنا ٧٠٠ قدم من أعلى نقطة وصلناها في اليوم السابق على الضفة اليمنى لوادي دسبة، وكنا الآن على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق البحر. ولم نتعرض لأي صعوبة خطيرة في أي نقطة على الطريق. ومع مرور الزمن بالرعاية والاهتمام سوف يتحسن هذا الطريق بلا شك، ولكن من الصعب الاعتقاد بأن طريقاً أفضل من الساحل حتى وادي حضرموت سوف يؤسس بعيداً إلى الغرب كما قد يود سكان المكلا. وقد جبا الله الشجر فرصة عظيمة الآن؛ لأن حركة مرور السيارات لكل من المسافرين والبضائع قد أصبحت سبباً جوهرياً من أسباب الراحة والمتعة في الحياة بجنوب الجزيرة العربية. وسوف تربح الشجر كثيراً من هذا الطريق، ولكن -في هذا الوقت- لا تزال فجوة شاسعة من المنطقة الوعرة فاخرة ما بين «أقصى الشمال» في رأس الحرة ورأس جزء الطريق الممتد من الشجر إلى المعدي. وعلى كل حال، في غضون الأشهر التسعة التي انقضت منذ مروري عليه، كانت هذه الفجوة قد تم

(١) في هذا التصرف إشارة إلى ما ورد في «صحيح مسلم» رقم (٢٠١٢) عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنه قال: «عَطُوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يَحُلُّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء. فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً، ويذكر اسم الله فليفعَل. فإن العُويقة تُضْرِمُ على أهل البيت بيتهم». (المراجعون).

التغلب عليها وردمها، وأضحى من الممكن الآن أن تسافر المسافة كلها من الشحر حتى تريم بالسيارة. وقد تم الاحتفال بإنجاز الطريق بافتتاحه رسمياً في يونيو (١٩٣٧م) من قبل السير برنارد بيلي، حاكم مستعمرة عدن. والآن من الممكن حقيقة أن تسافر بالسيارة من المكلا إلى مكة المكرمة أو إلى دمشق أو لندن.

وكان علينا أن نترك السيارات في رأس الحروة تحت حماية مندوبي قبيلة آل جابر الذين رافقونا، ونسير على الأقدام إلى المعدي بعيداً إلى أسفل في الوادي، حيث سيأتي في الوقت المناسب مندوبو باحسن (الحمومي) ليتولوا المهمة أثناء غيابنا على الساحل. ولم نتمكن من رؤية البحر نتيجة للضباب الذي يمتد فوق السهل الساحلي والتلال التي تحفه. والمنظر العام لتلال وسلاسل جبال الحجر الجيري التي تنتشر أمامنا كان مخيفاً نسبياً، ولم نهدر الوقت سدى أكثر مما هو ضروري لجمع أمتعتنا وتغطية السيارات ضد احتمال سوء الطقس. وكانت هناك دائرة واسعة، خالية من الصخور تقريباً، استخدمناها كموقف للسيارات وموقع للمخيم. وقد ودعنا مرشدنا من آل جابر وانطلقنا في المشي نازلين من التل، وكان الكاتب والسائقان الاثنان والمرشد المعري وأنا نحمل أمتعتنا.

وبدأنا السير في السابعة صباحاً نحو الشرق على طول الحافة اليمنى لممر وادي غنم الضيق العميق، والذي يقع قاعه على بعد حوالي ٥٠٠ قدم تحتنا. ومن الواضح أن وادي دسبة يتصل بهذا الوادي بعد مسافة طويلة، كما يتصل به أيضاً شعيب رصع الذي أقمنا مخيمنا بجواره لقضاء الليل. وكان الطريق مستوياً في المليون الأولين أو نحوهما، حيث كان سطحه الصخري قد اهترأ وأصبح ناعماً في أجزاء منه بما يشبه الرخام نتيجة مرور القوافل عليه. وبعد المشي حوالي ثلاثة أرباع الساعة أتينا إلى نقطة مقابلة لدرب الجمال والحمير المتعرج أعلى الممر المنحدر لعقبة عرشة. وهذا هو الطريق المعتاد للقوافل المتجهة من الشحر إلى تريم أو وادي عدم أو غيل ابن يمين. وعند سفح

الممر، في وادي غنم، توجد بقعة صغيرة من أشجار النخيل تسمى «غيسة العقبة». وعلى جانبنا من الوادي، وعلى ارتفاع شاهق بجوار الطريق، كان كتفاً غريباً مقوساً بصورة طبيعية يبرز إلى الخارج من صفحة الجرف.

تحولنا الآن إلى الجنوب الشرقي نازلين على المنحدر غير شديد الانحدار ولكنه صخري على جانب التل، وكنا متجهين إلى ممر المعدي الضيق بحق. وبعد ساعة من المشي وصلنا إلى رأس درب متعرج نازل إلى عقبة وعرة. وفي خلال نصف ساعة أخرى وصلنا واحة من أشجار النخيل (نخيل التمر وجوز الهند) في أرض الممر. ومن رأس الحرة حتى كتف الجبل كنا قد نزلنا حوالي ٢٠٠ قدم. وكانت قمة عقبة المعدي منخفضة عنا بحوالي ١٣٠٠ قدم، والواحة -التي دخلناها- كانت منخفضة بمقدار ٨٠٠ قدم أخرى أسفلها. وهكذا كنا قد نزلنا ما مجموعه حوالي ٢٣٠ قدماً منذ أن غادرنا السيارات، ومن هناك وحتى رأس الطريق في جانب الوادي للشحر يكون الأمر مختلفاً، ولكن حتى تلك الصعوبة قد تم الآن التغلب عليها.

وبأقصى ما أستطيع أن أتذكر، لم أكن قد رأيت نخيل جوز الهند وهو ينمو طبيعياً منذ أيام طفولتي في سيلان. وكان من دواعي سروري أن أراها الآن، وهي تشارك هذا الممر الاستوائي الضيق مع نخيل التمر المألوفة. وكان التمر قد تم -بالطبع- جنيه منذ زمن طويل، ولكن جوز الهند كان يانعاً، ولم أمكث وقتاً طويلاً إلا وكنت أعب من سائله الطازج وألتهم له الأبيض، في حين كانت وجبة الغداء وسط النهار يتم تحضيرها. وكانت أشجار التين البري^(١) واضحة أيضاً بكثرة، وكانت أسراب هائلة من طائر السوادية -وهو طائر ذو ريش أسود لامع- مشغولة بشمراته الضئيلة، وهي تحتج بنغمات عذبة على غزونا لمجالها وتطير لتلوذ بالجُرف الناتئة فوقنا، ولكنها تعود دائماً إلى أكل وجبتها. وقد ذكر هانز هلفريتز البيغاوات ضمن

(١) يطلق عليه في الحجاز "البرشوم". (المراجعون).

من يقيم في هذا الفردوس الصغير، ولكني لم أر أياً منها بالتأكيد. وكانت طيور القنبر والبلبل تبدو مبتهجة ومتمتعة بالماء والظل. وتتمو أشجار الكوئل -وهو نوع من فصائل النخيل- البنغالية هنا فقط من بين جميع مناطق الجزيرة العربية.

إن المعدي بقعة ساحرة بأقصى قدر يتمناه المرء، فأشجار النخيل والتين، إضافة للصخور الضخمة الهائلة التي سقطت من فوق، تمنح ظلاً ظليلاً من وهج الشمس الساطعة على هذا المر الضيق من سماء خالية من السحب. وكان الجو حاراً وشديد الرطوبة على نحو مزعج. كما كان هناك جدول صغير فيه ماء دائم طول السنة يجري برقة وضعف حتى الوادي، وقد سده تراب الردم والصخور حتى أصبح بمثابة بركة متوسطة الحجم وملئية بالنباتات المتعفنة، ويسكنها العديد من الضفادع وصغارها. ويوجد اثنان أو ثلاثة من الأكواخ الحجرية البائسة، ترتفع كثيراً فوق قمم الأشجار، على المنحدر الحاد بالضفة اليمنى، مكونة قرية صغيرة. وكان سكانها الذين قد لا يزيدون على أربعين أو خمسين شخصاً كما قالوا جميعاً، لا يحتاجون بوضوح إلى المأوى إلا نادراً لاتقاء العوامل الجوية. وسرعان ما اندفعوا حولنا مثل النحل، ولكن جاء الرجال فقط، أما النسوة فكل ما رأيته كان اثنتين أو ثلاثاً من العجائز اللاتي كنّ قد نزلن إلى البركة ليأخذن الماء. وكان الصبية يصطادون حول الماء بالمقلاع ويطاردون الطيور. وقد أصاب أحدهم طائراً من طيور السوادية، وآخر قتل اثنين من القنبر، وسقط بلبل أيضاً صريعاً بفعل مهارتهم. وقد كانوا ودودين أيضاً، دون أن يكونوا معاندين ومكابرين، وكان معظمهم جميل الحيا بصورة مذهلة، ذوي ملامح طيبة وأجسام في اتزان تام. وكان الرجال أيضاً -في معظمهم- ذوي طلعة وسيمة، أجسامهم صغيرة ولينة غضة، ولكنهم كانوا رجالاً أشداء باستثناء أخلاقهم وحديثهم، الذي كان جهورياً ويميل إلى المشاكسة والخصام. وبالنسبة لهم لم نكن ضيوفاً، بل مسافرين أو عابري سبيل، أي ضيف الله، يجب أن يخدمونا بإخلاص وأمانة حتى ينالوا أقصى قدر ممكن من الفائدة لأنفسهم. ومنذ عهد سحيق كانوا يحتجزون هذا

الممر لأخذ المكوس أو الأتاوة من أولئك الذين يجدونه ضرورياً أو ملائماً للمرور. وقد زودهم الله وحده بضروريات الحياة، -التمر وجوز الهند-. وكانت المكوس التي يجمعونها توفر لهم الكماليات والترفيه مثل: السمك المجفف من الساحل، والملابس لنسائهم، وبقدر أقل لهم هم أنفسهم والتبغ الذي يبللونه ويضعونه في أفواههم ليمضغوه^(١). وكانوا يحتفظون بالغنم والماعز حتى يحلبوها ويشربوا لبنها أو يبيعوها لحماً، ولديهم القليل من الإبل لتحمل محصولهم من جوز الهند إلى السوق ولتأجيرها في النقل لعبور الفجوة التي لا يوجد بها جسر في طريق السيارات. وبالنسبة لهم كان إنشاء الجسر المقترح على تلك الفجوة يبدو خطراً يهدد حياتهم وكسب رزقهم، ولذلك قاوموا جميع المطالبات والمناشدات التي وُجّهت إليهم للحصول على موافقتهم على تنفيذ هذا العمل. وهكذا قامت هذه الجماعة الضئيلة من السكان، والتي لا يكاد عدد أفرادها يبلغ أربعين فرداً، بإعاقه خطة ذات مزايا محتملة هائلة يستفيد منها عشرات الآلاف من جيرانهم، ولم تكن حكومات حضرموت قادرة على إقناعهم أو إجبارهم على أن يكونوا أكثر تعقلاً وحكمة.

ولم نكد نحط رحالنا لنقيم مخيماً في أماكن ظليلة حول البركة إلا وبدأت المساومة على ثمن عبورنا. وكان هؤلاء القرويون يدركون ما نحتاجه دون أن نخبرهم بذلك. وكنا نحن أيضاً نعلم ما يريدون، ولم يكن الأمر أكثر من مجرد تعديل احتياجاتنا حسب طلباتهم. إن هذه المهام دائماً أتركها في المرحلة الأولى لرفاقي. ولذلك بعد أن اطمئن قلبي إلى أن الأواني اللازمة لطهي وجبة غدائنا وسط النهار يمكن أن توفرها القرية لنا؛ لأننا قد نسينا فعلاً إحضار غلاية الشاي، ولم ندق طعم الشاي أو القهوة منذ أن غادرنا تريم، اخترت أشد الأماكن ظلاً في المنطقة المجاورة

(١) يبدو أن المقصود هو ما يعرف بالسويكة أو الشمة، وليس التبغ، لأن التبغ معروف أنه يستخدم بشكل آخر.

(المراجعون).

وهيأت نفسي لنوم القيلولة. وكان صياح القرويين الذين يساومون قد اندمج بصورة غير محسوسة في حلم، واستيقظت منه لأجد الطعام جاهزاً للأكل، وكان يتكون من الأرز والسّمك المجفف، وهذا الأخير كان محمراً، ثم جوز الهند والشاي والقهوة.

وبعد ذلك كان لزاماً عليّ أن أهتم بأمر الصفقة. وكان رفاقي قد جهزوا أرضية ملائمة للنقاش، وليس أكثر من ذلك. وقد اعترض مضيفونا بقوة في البداية على ذهاب مرشدنا المعري معنا إلى (الشحر)، التي كان يريد زيارتها. واستطاعوا أن يطالبوا بسيارة «أي رسوم مرافقة» لتوصيله بأمان إلى السيارات، حيث يستطيع أن ينتظر عودتنا هناك. ولم نكن بحاجة إلى خدماته بصورة حيوية؛ ولذلك لم يكن من الصعب أن نعقد اتفاقاً عاماً بأنه يجب -بعد كل ذلك- أن يذهب معنا. والنقطة التالية كانت رسوم المرافقة. فقد وافق رفاقي من حيث المبدأ على دفع رسوم يومية قدرها نصف ريال لكل رجل يخدمنا. وطلب القرويون مضاعفة المبلغ، ولم يكن من الصعب الوصول إلى حل وسط، حيث اتفقنا على أن الرجلين اللذين سيرافقاننا إلى الشحر سوف يتقاضيان نصف ريال لكل منهما، أما الاثنان اللذان وقفا حراسة على السيارات فسوف يحصلان على ضعف ذلك. وقد قوبل هذا الاتفاق بالاستحسان والتهاتف كتقدير حكيم. ولكن ماذا تفعل جماعة السيارات في مسألة إحضار الماء؟ وسوف يصبح من اللازم أن ندفع على الأقل نصف ريال كل يوم لشخص ما لإحضاره، وأيام إقامتنا المؤقتة على الساحل ليست معدودة؟ ولهذا اقترحت، حيث إن الرعاة يستطيعون الحصول على الماء من أماكن منعزلة في زوايا الجبال وشقوقها المعروفة لهم، أن يتم دفع رسم قدره ريالان بغض النظر عن طول مدة غيابنا. وقد تم الاتفاق على ذلك. وهكذا كان كل شيء قد تم تسويته بصورة سعيدة بيننا وبينهم. ويبقى أمامهم أن يتفقوا فيما بينهم على من سيذهب للسيارات ومن سيأتي معنا، ومن

سيضطر للبقاء في بيته. وقد نتج عن هذه المشكلة الكثير من الإثارة أكثر من التسوية معنا. فقد كان كل واحد منهم يريد أن يربح من هذا الاتفاق بأقل قدر ممكن من الإزعاج لراحته الشخصية. ومن الواضح أن رئيس هذا الجمع الصغير هو عوض، الشاب ذو الشعر المجعد والملامح الحادة الماكرة، على الرغم من أنه كان وسيماً. وكان هو مع فرد آخر سيذهبان معنا لأنه إذا كانت المكافأة المتفق عليها قليلة فالترف الموجود في الشحر سيكون أفضل من ليالي الجوع المؤلمة في تلك الفيافي والقفار. وكان رجل مسنٌ جداً قد بلغ من العمر عتياً - ومن الواضح أنه متمرس على الجوع بحكم خبرته الطويلة أكثر من الباقين - هو المرشح الواضح للإقامة المؤقتة لمدة طويلة بالصحراء. ولذلك كان الجدال يعلو وينزل، وفترات الصمت تتبعها فترات من الصياح والصراخ الحاد. وكلما تحدث رجل بدأ الجميع في الحديث، وواصل كل فرد الحديث عندما كان كل فرد آخر يتحدث. والصمت الذي يلي ثورات الشرثرة الكثيرة هذه كان صمتاً مطبقاً. واختراقه من أي فرد منهم كان إشارة لبابل حتى تبدأ الحرب مرة أخرى. وهكذا ظل الوضع على هذا الحال حتى العصر، عندما حان وقت استئناف رحلتنا.

واللغة التي تحدثوا بها كانت بالطبع اللغة العربية، ولكن نطقهم لها كان يعتره تغييرات غريبة ومثيرة، حيث كانوا ينطقون على سبيل المثال كلمة «مي» عوضاً عن «ما» (أي الماء) و «قيرش» عوضاً عن «قرش» (أي ريال) و «قيرة» بدلاً من «القربة»، وهلم جرا. ويبدو أن الاختلافات كانت تتركز بصورة رئيسة في حروف العلة، ولكن بالرغم من كل شيء، كان هؤلاء الناس المعزولون في ذلك الوادي البعيد أيسر في فهم كلامهم من البدو الحقيقيين، الذين يكون حديثهم عني بالتفاصيل وتعبيراتهم أشد تلميحاً وغير مباشرة. ولم يبق أي شك في ذهني عن صلات القرابة السامية لهؤلاء الناس من آل معدي، وبنيتهم الجسمية الصغيرة كانت ناتجة بالتأكيد عن سكنهم في بيئة جبلية. إن عشيرة آل باحسن فخذ من قبيلة الحموم، وهي مجموعة من اتحاد المشقاص الجنوبيين الذي يضم جميع العناصر من غير آل كشير جنوب

القسم الشرقي من وادي حضرموت. والمشقاص الشماليون يشملون كلاً من قبائل المناهيل و العوامر و تميم^(١).

وفي حوالي الثالثة والنصف انطلقنا من مخيمنا بجوار البركة. وبعد أن عبرنا إلى الضفة اليسرى من الوادي مقابل بيوت القرية، سرنا على درب مستو تقريباً يرتفع حوالي ٣٠٠ قدم فوق قاع الوادي. وكانت أشجار نخيل التمر وجوز الهند (كثب)، وتبدأ من حوالي ثلاثة أرباع الميل فوق البركة، قد امتدت باتجاه مجرى الوادي ما يزيد تقريباً على ميل. وفي أحد البساتين المنخفضة يوجد الضريح الواضح بجلاء، ذو القبة البيضاء، وهو لأحد الأولياء المحليين، «عبدالقادر الجيلاني» البغدادي. ويبدو أن أحداً لا يعرف كيف جاء هذا الولي المشهور إلى هنا. ولكن هاهو هنا، وقبره يحظى بالتبجيل والاحترام من السكان المحليين، ويقام له احتفال سنوي، اعتقد في شهر ربيع الأول، وهو عيد النيروز القديم بعد أن تم تحريكه من مكانه بالتقويم القمري للإسلام. وقد أخبرنا عوض وأحمد، وهما المرافقان لنا من آل معدي، بحادثة وقعت منذ عدة سنوات مضت عندما انتهز أعداؤهم فرصة الاحتفال وشنوا هجوماً عليهم. وعلى كل حال تم إيقاف المهاجمين بسهولة على مسافة بعيدة بنيران البنادق المنطلقة من سلسلة الجبال المقابلة^(٢).

وعلى مقربة من أسفل ضريح الولي، وخلف جرف عال تلفه قلعة مهدمة الآن يتصل أخدود السيق العميق بوادي المعدي. وفي مجراه عكس التيار توجد أشجار نخيل التمر وجوز الهند مملوكة لعشيرة الحيمة التي تندمج مع اليماني والمصلي في

(١) ذكر الحجري أن المشقاص من قبائل حضرموت، وهم رجال حراوزه وآل زعينات، وآل علي بن كثير، وآل كثير الغنمة والمناهيل. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص٧٠٨. وللتوسع انظر: البصراوي، مشرق اليمن السعيد، ص ص٥٣-٥٥. (المراجعون).

(٢) هنا تظهر للقارئ صورة أخرى من صور الانحرافات العقيدة التي كانت سائدة في المنطقة في تلك الفترة وهي ظاهرة التعلق والتقرب من قبور من يظنون أنهم من الأولياء والصالحين. (المراجعون).

التلال والسهل الممتد إلى الجنوب والشرق ليشكلوا معاً جماعة الشميلي. وكلهم يعرفون بسيادة حكومة القعيطي عليهم، على الرغم أنه من الواضح أنهم لا يدفعون أي ضرائب، ويمارسون الامتيازات الأخرى للاستقلال الحقيقي.

لقد كنت أتوقع مشواراً طويلاً، ولكن لم نكد نمشي ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، بعد الالتفاف حول جرف شاهق يشرف على التقاء السيق والمعدي، إلا وأطللنا فجأة على رأس طريق السيارات القادم من الشحر. وكان رسول قد ذهب قبل وصولنا إلى المعدي بخطابات إلى السلطان في الشحر، يطلب إرسال سيارة إلى رأس الطريق بأسرع فرصة ممكنة. وإلى البعيد نحو الشرق كنا نستطيع أن نرى خط الطريق المحدد بعلامات ظاهرة جلياً وهو يلتوي حتى سهل وادي عرف الذي يعد وادي غنم (عرشة) رافداً من روافده. بيد أن الشمس قد غربت وراءنا ولم يظهر أي أثر للسيارة المتوقعة، ولهذا خيمنا عند رأس الطريق، على أمل أن تأتي في الغد. وفي الحقيقة وصلت السيارة بعد الغروب بحوالي ساعة، وكان كل فرد متلهف على بدء الرحلة إلى الشحر في الحال. ولكنني أشحت بوجهي بقوة عن مثل هذه الفكرة، فقد كنت أريد أن أرى هذه المنطقة، وعلى كل حال سيكون من المفرح أكثر أن نصل الساحل في وضح النهار. ولذلك بعد بعض الجدل والنقاش، استقر رأينا على أن نبيت الليل هنا.

كانت مؤونتنا ضئيلة، ولكن عوضاً قدم لنا بعض التمور الرديئة وجوز الهند الممتازة والتي جعلتنا نقتصد في السمك المجفف. وقد جهزت فراشي بعيداً عن الآخرين قليلاً، وفي الظلام لم يكن هناك ما أصنعه إلا أن أحاول النوم، بيد أن صياح قوم المعدي، بعد أن انضم إليهم في المساء آخرون من نوعهم كانوا عائدين من الشحر واثنان من مزارعي «المشايع» العائدين بمخزون من الإمدادات إلى بيوتهم في ريدة، جعلوا النوم مستحيلاً حتى ساعة متأخرة. وكان الجو بالتأكيد غير بارد، على الرغم أنه لم يكن حاراً بكل المقاييس، ولكم كنت سعيداً بما معي من بطاطين. وقد قام

عوض ورفاقه ببساطة بفك حزام كتاني زائد من إزارهم وقاموا بلفه حول أكتافهم طلباً للدفء.

وعند الفجر فتحت عيناى فوجدت صفاً من الأشكال البشرية، وهم يجلسون على امتداد الأفق، صامتون وبائسون. ولما دقات الشمس أجسامهم المرتعشة من البرد بدؤوا في الثرثرة. ونظراً لعدم وجود شاي فقد كنت استهلك جوز الهند، بينما كنت أشاهد المنظر المتراحي الأطراف أمامي حتى البحر غير المرئي. وكانت السماء تسبح فيها غيوم قليلة، وانتشر الضباب بثبات فوق السهل، وشكل مدينة ضب ضب التي لا تظهر إلا قليلاً في ظلمة الضباب، مع حصنها البرتغالي، على مسافة بعيدة إلى اليسار من الشجر. وكانت المرتفعات تمتد خلفنا ونتوءات جرفها الهائل تبرز للخارج - واحدة تلو الأخرى - نحو الشرق. وكان زوج من طيور السوادية يلهو بنفسه على شجرة البشام قريباً منا. والأرض الصخرية كانت مفروشة بشجيرات الدمعة التي ينز منها سائل أسود.

وبعد السادسة فوراً تجمعنا نحن وأمتعتنا في الشاحنة وانطلقنا نازلين من التل. وأفضى بنا درب متعرج منحدر إلى النقطة التي يتقدم عنها وادي المعدي عبر سلسلة الجبال في ممر ضيق رائع. وقد تسلقنا مضيقاً منخفضاً في المرتفعات ونزلنا منه في وادي الصوير الموازي له ليشكل سهلاً واسعاً. وبعد حوالي أحد عشر ميلاً وصلنا إلى طريق الشجر - المكلا الرئيس حيث تمتد بساتين نخيل السلطان في الحبس وقرية الحوا إلى البعيد قليلاً عن يميننا. وكنا الآن نسير على طول سفح سلسلة طويلة من الجبال تتناثر فيها مسلات مثل أبراج الساعات، كنا نلتف حول ثنيتها الجنوبية حتى أصبحنا في مواجهة قرية تباله التي تقبع على سلسلة جبال وسط بساتين النخيل. وهذا المكان مشهور بعيونه الحارة التي يلجأ إليها كثير من السكان المحليين طلباً للعلاج. وكان هناك حصن رائع على جرف عال يطل على القرية والطريق، وقصر السلطان الصيفي

الأبيض الذي يبهر الأبصار هما من المعالم الواضحة في تلك المنطقة. وإلى البعيد نحو الشرق وقرب الساحل توجد مجموعتان مماثلتان من العيون الحارة في الديس والحامي.

ويستمر الطريق على طول الجانب الشرقي من سلسلة الجبال التي ذكرناها من قبل مع امتداد نتوءات من سلسلة تباله على يسارنا. وبعد أميال قليلة ألقينا أول نظرة لنا على البحر، وكان لونه رمادياً، كثيباً حزيناً، يتحرك ببطء. وفي الوقت نفسه -تقريباً- لمحنا منظر أسوار الشحر، وبوابتها البيضاء اللامعة تتجه للشمال. وعلى طول الطريق كان هناك خط أنابيب يحمل الماء العذب من عيون تباله الحارة إلى المدينة. وهكذا بعد مسيرة عشرين ميلاً بالضبط من رأس الطريق، دخلنا الشحر من أوسع أبوابها. ولأول مرة في سجلات التاريخ تم عبور شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

فالرحلة التي بدأت من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وفي الواقع كانت بدايتها الحقيقية من لندن، قد انتهت بلا حوادث على شواطئ المحيط الهندي. وباستثناء عقبة المعدي، كانت الرحلة كلها بالسيارة.

الفصل الثامن

حتى رتب تسكانيا

يستطيع أفراد عسكر تسكانيا^(١) التحلي بالصبر بصعوبة لإبهاج الآخرين، ولكن صفوف وطواير طبقة الموظفين البريطانية مليئة بالموظفين الأشد قسوة وعبوساً. إن الشهامة وهي التراث اللطيف القادم من «الجنوب الحار»، تُدرّس حقيقة في مدارسنا ومعسكرات الكشافة لدينا، ولكنها سرعان ما تُنسى وسط قلاقل المسؤوليات الإمبراطورية. كما أن روح الدعابة والنكتة سلاح رقيق وخطير يجدر بنا أن نتركه يصدأ في غمده. فالموظف المشغول ليس لديه وقت لهذه أو تلك (أي الشهامة أو التندر). فهؤلاء الذين ليسوا معهم أو منهم يُعدون ضدهم، مجرد كائنات يجب التعامل معها بلطف وكياسة مع إظهار التفوق إن كانوا مطيعين، أو التعامل معها بقسوة وخشونة إن كانوا شديدي الاستقلال والاعتماد على النفس. وكما يقول المثل اللاتيني: «أطلق سراح الرعايا واسحق المتغطرسين». ولكن هؤلاء الموظفين يصطدمون أحياناً بعقبات خفية.

إن عدن -طبعاً- مركز خارجي هام للإمبراطورية، وهي المرساة الكبرى للأسطول البريطاني، وحلقة الوصل الحيوية في سلسلة المواصلات الإمبراطورية. فلا عجب إذن أن يعد هؤلاء الموظفون أنفسهم ذوي خطر شديد، هؤلاء البشر الذين يجلسون هناك، بل ربما ينظر هؤلاء الموظفون لأنفسهم على أنهم ذوو مكانة وخطر كبير أكثر مما يلزم بقليل. وهناك يجلس -هؤلاء المسؤولون في مستعمرة عدن- كل مئات السنين هذه على صخرتهم الحارقة عند «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» ولا يرغبون أبداً -أو نادراً جداً ما يرغبون- في النظر ولو خلسة وراء تلك المداخل الغامضة لقصورهم. لقد ظلت عدن تحت الاحتلال البريطاني لثمانين سنة دون أن تقع

(١) تسكانيا: إقليم خصب وسط إيطاليا، يعد مركزاً حضارياً قديماً، اشتهر بالتجارة والصناعة والفنون.

عين موظف على وادي حضرموت. إن وإيمان بيرى، الذي يعلم كثيراً عن السلطنات المحمية أفضل من أي موظف في إدارة عدن قبل أو منذ هذا التاريخ، قد طارده الكلاب حتى خرج من المستعمرة، مع أنه قنع من الغنيمة بالإياب إليها في زمن الحرب تحت جناح الأسطول البريطاني. ولم يبدأ الموظفون إلا مؤخراً جداً، وتحت حماية أجنحة القوات الجوية الملكية في إدراك أنهم يستطيعون - بقدر معقول من الراحة والأمان - أن يروا أجزاء ضخمة من العالم أكثر مما يمكن رؤيته من الشرفات العادية في مقار سكنهم. ولم يبق إلا قليل منهم، بل قليل جداً، مثل ريكاردس وانغرام بتنفيذ أعمال استكشاف ذات قيمة حقيقية بالمعنى الصحيح. فقد أوضحا على الأقل - مع لي - وارنر ولتل، في أوائل فترة ما بعد الحرب، أنهما لم يتركا إلا القليل الذي يمكن استكشافه بعد ذلك في هذا الجزء من الجزيرة العربية، وكان ذلك لم يزد إدارة عدن إلا قدراً هائلاً من غير المبالاة بشكل مثير للدهشة والاستغراب ولا يمكن تبريره. وكثيراً من الذي يمكن أن يكونوا قد فعلوه في خدمة العلم قد تمّ تنفيذه بمشاريع أهلية، ولكنها كانت أجنبية بصورة رئيسة إلا ما قام به بتس. إن أفضل خريطة نشرت لمنطقة حضرموت هي تلك التي أعدها فون ويسمان وفان دير مولين. وندين بمعارفنا الجغرافية عن «المحميات» الغربية لوريمان بيرى. والشخص الوحيد الذي سبقني على طريق السيارات بين تريم والشحر كان بوسكوين، أما الوحيد الذي سبقني إلى شبة فكان الشاب الألماني هلفريتز.

إن لدى عدن في الحقيقة الكثير من أخطاء الإهمال والإغفال التي يمكن حسابها بميزان العلم. ولذلك فلا عجب أن يميل موظفوها إلى عدم تشجيع اختراق منطقتهم الداخلية من قبل أفراد من الأهالي يبحثون عن المغامرة أو المعلومات الدقيقة التي لا يمكن الحصول عليها في عدن نفسها. ولا عجب أيضاً في أنهم قد استأثروا من أعمال المغامرة الطائشة مثل تلك التي قام بها هلفريتز والمغامرات الأكثر هدوءاً التي نفذها بوسكوين. ولا عجب كذلك في أنهم قد عضوا أناملهم من الغيظ مني، ولكن في

حالتني كانوا أكثر حكمة وتعقلاً وحافظوا على هدوئهم وأخفوا غمهم وكدرهم. ولو لم يفعلوا ذلك لكان هذا الفصل لم يكتب أبداً. إنني لم أرتكب شيئاً مهماً كان يمكن أن يجلب الخزي. بل على العكس فلقد فعلت ما لم يفعله أي رجل قبلي في جميع العصور. ولقد فعلت ذلك ليس بطريقة بهلوانية مثيرة، ولكنني وضعت خططي بأقصى قدر من العناية حسبما يمكن في مثل هذه الظروف، ولقد جمعت معلومات ومواد لرسم خريطة لعدة عشرات الآلاف من الأميال المربعة، ربما تصل إلى ٢٠٠٠٠ ميل مربع. والتي تمثل إضافة حقيقية للمعرفة البشرية عن العالم الذي نعيش فيه. لقد صنعت شيئاً أفخر به، ولقد كنت فخوراً بما صنعت. ولكنني لم أستغل تسهيلات التلغراف في المكلا، عند وصولي هناك، لبث إنجازي إلى العالم. لقد كنت أستطيع أن أسترده جزءاً عظيماً من نفقات رحلتي إن أنا فعلت ذلك، ولكنني كنت أدرك أن هناك قدراً هائلاً من العمل الشاق والمضني الذي يجب تنفيذه قبل أن أتمكن من بث مادتي في قالب مناسب يمكن أن يحكم عليه الخبراء. ولذلك آثرت أن أقدم إنتاجي ليحكم عليه الخبراء في الوقت المناسب بدلاً من أن أسعى إلى تصفيق الغوغاء.

إن احتياجاتي الفعلية كانت ذات ثلاثة أجزاء هي: قطع غيار للسيارة المعطلة، والمزيد من أفلام التصوير، وأخيراً المال. وبالنسبة لهذا الأخير، نصحوني أنني أستطيع الحصول عليه محلياً مقابل حوالة على شركتي في جدة من الوكيل بالمكلا لشركة ألكسندر بيس الشهيرة في عدن. وكانت الطلبات الأخرى لا يمكن شراؤها في المكلا، ولقد ترددت للحظة ما بين بدائل الاتصال تلغرافياً بوكيل فورد في عدن أو إرسال برقية بالتلغراف أيضاً إلى «المنذوب السامي». وقد دفعني اعتبارات المجاملة إلى سلوك المسلك الأخير. وكنت أعلم أن السير بيرنارد ريلي، الذي لم يكن غريباً عني، كان غائباً في إجازة، ولكن لم يكن عندي أي سبب يجعلني أعتقد أن نائبه الكولنيل ليك لن يكون إلا ودوداً. ولذلك أبرقت إلى «دار المنذوب السامي» بالعبارات التالية: «تحية

طيبة. وصلت المكلا أمس. بحاجة ماسة أولاً: إلى محوّل خلفي وترس تعشيق رقم بي ٤٢٣٥، وثانياً: لبّاد رقم بي ٤٥١٦، وكلاهما لسيارة فورد فيتون موديل ١٩٣٤م. ثالثاً: اثني عشر فيلم كوداك لكاميرا نوع «لايكا Leica». أقدم لكم تقديري لكرم المساعدة في شراء ما ورد أعلاه وشحنه على أول باخرة».

ورداً على هذه البرقية^(١) طلب نائب المقيم (الكولونيل ليك) - في الوقت نفسه الذي وعد فيه بكرم شديد أن يشتري ويشحن احتياجاتي بأسرع فرصة ممكنة، معلومات تتعلق بالخطط المقبلة لي و «لجماعتي السعودية» في منطقة «المحمية». وذكرني بأن شبوة تشكل جزءاً من «محمية عدن» مع اعترافه بأنها ليست خاضعة لإدارة «الحكومة البريطانية» التي «تحكم» فقط (هكذا قال دون أي تعديل) مصالحها، أيّ كان معنى ذلك. واقترح أن يقوم الرحالة الذين يعتزمون السفر إلى أماكن تقع في المناطق الداخلية - حسب نصيحته الطيبة - بالحصول على تصريح مسبق من دار المندوب السامي لعدن. وأكد لي أن هذه النقطة تصبح أكثر إلزاماً وجوباً عندما ترافق الرحالة «جماعة من حكومة أجنبية». وقد تلقى تقارير تقول: إن منطقة مرخة كانت مدرجة في برنامج رحلة عودتي، ولهذا طلب معلومات توضح ما إذا كانت هذه التقارير صحيحة أو لا حتى يمكنه أن ينبه سلطان العوالق الذي تقع مرخة في نطاق قبيلته، وأضاف بصورة بارزة قائلاً: «إذا كانت زيارتك يمكن اعتبارها صالحة من الناحية السياسية».

إنني بالتأكيد لم أتوقع أن تنهال باقات الورد عليّ اعترافاً بالعمل البطولي الفذ غير المسبوق الذي حققته. ومع ذلك أصابني الإحباط وخيبة الأمل قليلاً من هذا التجاوب مع إنجازي. فبالإضافة إلى البيانات غير الدقيقة بوضوح والمتعلقة بحقائق الموقف، والتي سوف أتناولها في الوقت المناسب، كان هناك لهجة تهديد خفية وبغيضة في هذه البرقية جعلتني أستاذ منها. وعلى كل حال كنت أعلم حساسية

(١) قد أفادوني أن أسباب حقوق النشر تمنع نشر النص الحقيقي لبرقية الكولونيل ليك. وعلى كل حال فإنني واثق من أن كلماتي التي استخدمتها هنا للتعبير عن جوهرها لم تظلم الكولونيل ليك (المؤلف).

موقفني . لقد كنت -في واقع الحال- ضيفاً في إقليم معاد . وكان المضيفون الحقيقيون لي -وهم ممثلو «الحكومة العربية» في المكلا- في متهى الجمال والكرم بما يفوق قدرتي على الوصف . ولن أنسى أبداً كرم ضيافتهم ولطفهم مع غريب داخل بيوتهم ، ولن أقدر أبداً على مكافأتهم والوفاء بدينهم . ولكنهم لم يكونوا سادة بالكامل في بيوتهم هم أنفسهم ، وكان تاريخ هذه البوابات الجنوبية للجزيرة العربية مليء عن آخره بعلاقات المتسلطين ببقايا الحرب أو الأسطول البريطاني . إن البعع المحلي منهم يسمى «منور» ، أي رجل الحرب . والآن قد أصبح للبعع القديم ريش وجناحان ، وباتت المكلا على مرمى حجر في خط مستقيم من عدن . إنني بالتأكيد لم أكن أرغب في ترحيلي ، نظراً لأنه ما زال أمامي الكثير الذي يجب تنفيذه وذو أهمية ومصلحة جوهرية ، ولكن كان من الواضح أن الكولونيل ليك يرى مراعاة قواعد التشريفات الرسمية أشد أهمية من تقدم المعرفة . وكان الطريق الواضح الذي يجب أن أسلكه هو أن أساير تيار الرأي والظروف ، وأن أرد على هذا الغضب الشديد بإجابات رقيقة . وهكذا جلست لأكتب الرد التالي :

«أشعر بالامتنان العظيم لعرضكم الكريم لإرسال احتياجاتي . إن زيارتي لحضرموت نفسها تأتي نتيجة لأسباب قهرية لإعادة التزود بالمؤن وشراء الوقود وخلافه ، وزيارتي للساحل نتيجة تعطل عمود السيارة والذي لا يمكن إصلاحه محلياً . وهذه أول فرصة للاتصال معكم والتي استفدت منها تماماً هنا نظراً لتعطل الاتصالات فيما بقي من منطقة «المحمية» . وبصرف النظر عن حضرموت فإن الرحلة كلها تقع في إقليم غير مكتشف وبغير حدود ووضعه السياسي لا يمكن أن أناقشه فلست مؤهلاً لذلك . إنني أستنكر مثل هذه المناقشة بكل احترام . إن جماعتي ليس لها صفة رسمية أيأ كانت ، مع أنها كانت قد تم تنظيمها بصورة حتمية في نجران . كما أنها تنتظر عودتي إلى شبوة لاستئناف الرحلة التي توقفت على نحو مشؤوم . إنني أخطط بصورة غامضة للاتجاه نحو بيحان ثم أشق طريقي

شمالاً خلال الحزام الرملي حتى نجران. إنني لا أنوي زيارة إقليم العوالق ولكن أشكرك شكراً كثيراً على عرضك لمساعدتي في ذلك الاتجاه».

هذه البرقية كانت قد أرسلت في أول سبتمبر، وانقضى أسبوع كامل قبل أن أتلقى رداً عليها^(١). وفي الوقت نفسه كان من الواضح أن الأمر قد تمت إحالته بالبرق إلى الحكومة البريطانية، وأن حكومة صاحب الجلالة قد وجهت الكولونيل ليك بأن «يطلب» مني سحب «جماعتي المسلحة السعودية» من «المحمية» بأسرع وقت ممكن. وكان لديهم أيضاً رأي يرى أن السلطات البريطانية كان يجب «إخبارها» بما عازمت عليه قبل تنفيذ الزيارة. وقد اعترف الكولونيل ليك بأن زيارتي لحضرموت كانت نتيجة ظروف خارج نطاق سيطرتي، ولكن هذه الحجة لا يمكن تقديمها لتبرير زيارتي لشبوة مع «جماعتي المسلحة». إن شبوة، كما أكد لي الكولونيل ليك «تقع بالتأكيد ضمن محمية عدن» (هكذا). وأضاف أن قبيلة الكرب في إقليم شبوة وشيخها الرئيس المقيم في القرية كانا «بصورة رمزية تابعين «لسلطان العوالق» (هكذا). وزاد بأن طلب مني الرجوع إلى كتاب «دليل الجزيرة العربية»، وهو كتاب عتيق ميؤوس منه من إنتاج جهلنا زمن الحرب!!، لمعرفة الوصف الدقيق لحدود عدن الشمالية من الضالع باتجاه الشمال الشرقي. ولقد اعترف -على كل حال- أن هذا الخط الشمالي - الشرقي لم يكن مرسوماً في الحدود وأن «قدراً كبيراً منه» غير مكتشف كما زعمت أنا من قبل. ومع ذلك أصرّ على أن الوضع السياسي للمنطقة الواقعة تحت هذا الخط ليس مسألة معروضة للنقاش»، وأنها تخضع «بحكم الواقع» (هكذا) للحماية البريطانية. واستناداً لذلك وجد نفسه مضطراً لأن «يطلب» مني مع «جماعتي السعودية المسلحة» عدم الدخول في إقليم بيحان حيث إن شريف بيحان كان أحد الرؤساء الأطراف في معاهدة عدن ما لم يكن «السير عبر جزء من إقليم بالخارث ضرورياً لأسباب

(١) انظر الهامش السابق. (المؤلف).

طبوغرافية». وعلى أي حال فقد سلم بأنه إذا كنت أرغب في زيارة بيحان بمفردتي «ولا يرافقتني السعوديون المسلحون» فإنني أستطيع عمل ذلك إذ كنت كريماً بما فيه الكفاية لإفادته بمثل هذه الرغبة قبل مغادرة المكلا. وفي الختام أعطاني الأخبار السارة بأن قطع الغيار التي طلبتها سوف تغادر عدن في الغد.

وبقدر ما كان الأمر يهمني فقد كانت هذه الرسالة مرضية لي تماماً. ولقد أثبت حقي في السفر بالجزيرة العربية بدون موافقة المندوب السامي في عدن. وعلى الأقل فإن أي محاولة لتحدي هذا الحق قد تمحاشيتها بعد الرجوع إلى الحكومة البريطانية. وفي غضون أيام قليلة سأكون قادراً على مغادرة المكلا عند وصول قطع الغيار. وبرزت إحدى المصاعب الصغيرة فقط من التصرف غير الودود لسلطات عدن، حيث رفض الوكيل المحلي لشركة الاسكندر بيس صرف حواتي. ولم يكن معي إلا ٢٠ جنيهاً استرلينياً فقط تحت تصرفي، مع احتمال قضاء حوالي شهر في الرحلة المقبلة، وقبل أن أستطيع استكمال النقص في رصيدي في نجران. ومن حسن الحظ أنه كان هناك ما يكفي من الوقت لإرسال برقية تلغراف إلى جدة، حيث قام وكيلي هناك على الفور كما توقعت بإرسال الأموال التي طلبتها بالتلغراف إلى شركة «كوسجي» بعدن. وهكذا جاءت السفينة التي كانت تحمل قطع الغيار والأفلام بنقودي أيضاً. وخلال ساعة من وصولها كنت قد غادرت المكلا، لكي أفك عمود السيارة طراز «بارثيان» بعدن وكتبت تلغرافاً للمندوب السامي عند خروجي قلت فيه: - «شكراً جزيلاً على قطع الغيار التي تلقيتها كما ينبغي. سوف أغادر المكلا اليوم للتقدم في G.H.Q. وللإشراف على إخلاء المنطقة المحتلة^(١). ليس عندي رغبة في زيارة بيحان. شكراً».

(١) يُظهر فيلبي سخريته هنا من مقولة نائب المندوب السامي في عدن «السيد ليك» الذي وصف المرافقين لفيلبي «بجماعته المسلحة». حيث يذكر فيلبي بأنه ذاهب إلى G.H.Q (general head quarters). أي مركز القيادة العامة، يعني بذلك مرافقيه الذين تركهم في شبوة وهم بضعة أشخاص. وهذا من باب التندر على مقولة ليك غير الواقعية. (المراجعون).

كانت هذه نهاية مراسلاتي مع الكولونيل ليك، وهي المغامرة الوحيدة في رحلة طويلة على غير العادة. ولكن الكولونيل ليك كان يخشى خطة ليستخدمها عند الحاجة، وقد بدأ الآن يلعب بها. ففي العدد القادم (عدد أكتوبر) من جريدة «عدن جازيت» التي تتمتع بانتشار محدود بين السكان الأيمنين بالكامل تقريباً لتسجل المبادرة المنتظمة حسب الأوامر لنجوم عدن ونعاسهم والقلقل العرضية التي تسببها المذبذبات غير المتوقعة، ظهر التنبيه التالي والذي اكتسب شهرة وشيوعاً من خلال إعادة تكراره في جريدة صنعاء التي تسمى «الإيمان»:

تنويه

المسافرون في المحمية بلا تصريح

«الرقم ٧٧: لقد دخل أحد الرعايا البريطانيين ويدعى السيد هـ. سانت. جي. بي. فيليبي مؤخراً أقاليم حضرموت، وهو متخف في ثياب عربية ومصحوب بقوات سعودية. وعلى الرغم من أنه قيل بصورة عامة في المحمية إن رحلته لحضرموت كانت قد نُفِذَتْ بموجب تصريح من حكومة صاحب الجلالة، إلا أننا نعلن للعموم تبعاً لذلك أنه لم يصدر أي تصريح مهماً كان للسيد فيليبي لإجراء أسفاره في «المحمية» وأن حكومة صاحب الجلالة لم تعتمد بأي طريقة كانت أيّاً من التصريحات التي أدلى بها هناك طبقاً لما ورد في التقارير التي رفعها الزعماء».

إنه لمن المؤسف أن عدن ليست مجهزة بعد بمحطة إذاعة، لأنه سيكون من المضحك -على الأقل- والتوغل في الخيال أن يخبر جهاز المذياع الذي أحمله معي المستمعين الذين يجلسون معي بالليل بحقيقة أنهم كانوا يؤوون ويضيفون خارجاً على القانون. وكان هناك عضو آخر في جماعتي الصغيرة، هو حمد القردعي، مشهور بأنه هارب من غضب ملك اليمن عليه، وأن هناك جائزة لمن يأتي برأسه. لقد كان

آمناً تماماً في مثل تلك البيوت في هذه الأرض القصية التي لا تعترف بملك ولا بحكومة. ولذلك أنصتنا للسجل الرسمي لعمليات المقاومة التي ينفذها ثوار فلسطين، والذي كان يذاع من القدس، وتعاطف المستمعون الذين كانوا معي بلا ريب مع ثوار فلسطين. إن هلفريتز كان، كلما صادفنا فرداً رث الملابس بصفة خاصة وذا هيئة وحشية، أعطانا انطباعاً بأنه كان مجرمًا خارجاً على القانون. وفي تجربتي كلها كان طريد العدالة الوحيد حمد القردي، ومع ذلك فقد كان أكثر أعضاء جماعتي ثناً وذا مظهر بريء إلى حد كبير. ولم أدرك إلا بعد بضعة شهور تالية، عندما أصبحت آمناً بين حنايا قلب الأمن السعودي، أنني أنا، على الرغم من هندامي الجميل ومظهري المعتدل، كنت رقيقاً له منذ زمن طويل في الأسى والحزن.

لقد ذكرت المراسلات التي جرت بين الكولونيل ليك وبينني كما وقعت، وأترك للقراء حرية الحكم على وقائعها الموضوعية. وتوجد بها -على كل حال- بعض النقاط التي تحتاج إلى تمحيص واختبار، أولها أنه يجب ملاحظة أنها وقعت في وضوح النهار بالكامل وعلى الملأ الموجود بالمنطقة المحلية. إن تبادل رسائل التلغراف كان يتم -طبعاً- بلغة واضحة. وكان الموظفون وكثير من الناس في المكلا يعلمون فحوى رسائل عدن فور أن أتلقها أو حتى قبل أن تصلني. لقد كانوا بالتأكيد في حيرة وارتباك من هذا الموقف غير العادي إلى حد كبير، ولكنني أجد لزاماً عليّ أن أعترف بأن كرم ضيافتهم لم يهتز أبداً في الظروف التي قد تبرر نوعاً من البرود والجفاء.

لقد احتج الكولونيل ليك، واحتجاجة هذا أيده وزارة المستعمرات، بأنه كان من الواجب عليّ الحصول على تصريح من المندوب السامي في عدن قبل زيارة الأماكن التي زرتها ضمن رحلتي. وإجابتي على هذا الادعاء بسيطة ومختصرة تماماً. فأنا إذا كنت طلبت هذا التصريح لكان طلبي قد رُفُض بالتأكيد، وحتى إذا صدر التصريح لكان غير ذي أدنى منفعة لي. ولنأخذ هذه النقطة الثانية أولاً. إن الشخص الوحيد الذي نجح في زيارة شبوة قبلي، وهو هانز هلفريتز، قد فعل ذلك دون مثل هذا التصريح، وعلى

الرغم من وجود قدر معين -في الحقيقة- من المعارضة الفعلية. ومن ناحية أخرى فقد نال العديد من الأشخاص الآخرين هذا التصريح مع مباركة عدن لمحاولتهم اقتحام شبوة البكر، ولكنهم باؤوا جميعاً بالفشل، مثل ريكاردس وبوسكوين وفريا ستارك -على الرغم من أن المرض في حالتها هو الذي منعهما من بدء الرحلة- ونورمان بيرن وأول بعثة جوية من عدن. وإنه من المناسب أن أذكر على الأقل حقيقة أن أول محاولتين ناجحتين لاستكشاف شبوة قد نُفذتا بدون تصريح أو دعم من عدن. لقد كنت، أنا وهلفريتز، أول رائدين يقومان بهذه المغامرة، وعلى خطانا سارت البعثة الجوية الثانية من عدن التي نالت قدراً عظيماً من الشهرة والدعاية حيث زارت شبوة. على الرغم من لومنا لوصولنا هناك أولاً. كما أن تحقيق غايتنا المنشودة دون تصريح من عدن يكفي، في رأيي، لتبرر إغفالنا السعي للحصول على مثل تلك التصاريح.

وأكرر: إنه لو كنت قد سعت لها لكان طلبتي قد رُفض. كيف أستطيع أن أقول ذلك دون أن أجرب؟ لقد جربت مرة واحدة، ولكن ذاكرة الكولونيل ليك ربما ليست طويلة جداً مثل ذاكرتي. ففي إحدى المرات طلبت فعلاً تصريحاً لزيارة حضرموت، ولكنه رُفض. وفي تلك المناسبة سجلت لديهم قسماً بأنني، في يوم ما، سوف أزور هذا البلد المستع، ولكن بدون تصريح. كان هذا منذ أكثر من اثني عشر عاماً مضت. إن مذكرتي لشهر يناير ١٩٢٥م تحتوي على المقتطفات التالية والتي كتبها بمناسبة زيارتي لعدن:

السابع من يناير: في هذا الصباح زرت «باريت»، وهو المساعد الأول للمندوب المقيم، وتجادبنا أطراف الحديث بصورة عامة. وفي رده على استفساراتي المحددة عن تصرف الحكومة تجاه مواصلة مغامرتي من المكلا قال: إن الجنرال تي. إي. سكوت سوف يقابلني بنفسه غداً الساعة الحادية عشر صباحاً ويشرح لي كل ما يتعلق بذلك. وهذا الموقف لا يشجع بالضبط، ولكنني ما زلت أشعر بشدة أنني متوسعك الصحة - من الآثار الناجمة عن الإصابة الشديدة بالإسهال- لدرجة أنني كنت أمل تقريباً أن

تكون الإجابة بالرفض القاطع، حتى أستطيع العودة دون مزيد من التعب وبضمير مريح.

«الثامن من يناير: يوجد -بعد كل ما قيل وفُعل- شيء مرضٍ قرب النهاية. فلقد قابلت روزيتا فوربس المندوب السامي هذا الصباح، وسلمها خطاباً صريحاً يبين أنه لا يستطيع أن يسمح لها بدخول الجزيرة العربية عبر أي من الموانئ تحت اختصاصه. وبعد أن علمت ذلك، ذهبت لمقابلته عند الساعة الحادية عشر صباحاً، وتسلمت خطاباً مماثلاً في الصراحة يقول: إن الحكومة لا يمكنها أن تسمح لي بدخول جنوب الجزيرة العربية وتحذرنى من أن العقوبة العادية المترتبة على عدم طاعتي لهذا الأمر ستكون الفصل من الخدمة، وقد كان ذلك تكراراً كثيراً للكلام نفسه الذي سمعته قبل ذلك في جدة. وقد كان الجنرال سكوت رائعاً بصورة استثنائية وهو يوضح ذلك وقد أنصت لقصتي بالكامل حتى النهاية. وقد قلت له: إن السبب وراء قدومي لعدن كان استكشاف حضرموت وأي مكان يقع فيما وراءها. وأنا الآن عندي إجابتي -واضحة ومحددة- وهي أنني سأعود أدراجي في أسرع فرصة ممكنة. وقد شكرني على الطريقة الواضحة التي شرحت بها قصتي، فقد كان يعلم عني الشيء الكثير من قبل، وتأسف من أن خططي قد أخفقت، وكان يعتمد كثيراً على تفهمي للموقف. وقد أكدت له أنه ليس عندي أي نية في عمل أي شيء من وراء ظهره، وقال: إنه يدرك تماماً أن كلينا يتحدث اللغة نفسها ونفهم بعضنا بعضاً. وأكد لي أنه ليس لديه أي عدااء ضدي».

هذه السطور في مذكراتي منذ اثني عشر عاماً مضت تسجل أسوأ حالة فشل في حياتي وأشدّها مرارة. ولكن بالنسبة للجنرال سكوت سنكون أنا وروزيتا فوربس أول من عبر الربع الخالي. وفي السنوات التي تخللت هذه المدة كانت قد سعت إلى الشهرة والمجد وحققتهما في مجالات أخرى. أما أنا فبقيت مخلصاً للجزيرة العربية، ولا يسعني إلا أن أعتقد أن الجنرال سكوت والكونونيل باريت إلى جواره مثلما كان

يحدث بالماضي في ردهات «فالهاالا» كان سوف يترنج من الضحك عند رؤية النائر الذي يعرفه وهو يمشي بهدوء عائداً إلى داخل عرين الأسد ، ثم يخرج مرة أخرى بخصلة أو خصلتين من عُرْف شعر الأسد الغاضب .

وحيث إنني أعلم أن عدن لن تمنحني تصريحاً إذا طلبته وأن تصريحها لم يكن ضرورياً ولا مفيداً لي فلا يمكنني أن أقول إنني نادم على أنني ذهبت إلى هناك بدوني . إن مكتشفي الأراضي المجهولة كثيراً ما يجدون أنفسهم في موقف يضطرهم إلى الدوران حول العوائق الرسمية التي توضع في طريقهم . ولا يمكن تنفيذ أي استكشاف إذا عوملت مثل تلك العقبات باحترام لا تستحقه . إن الصيد عمل غير جدير بالاهتمام في بلد منبسط ليس به حفر أو أسوار نباتية كما أن توماس لم يكن ليحقق أبداً أول عبور للربع الحالي إذا كان قد طلب تصريحاً من الحكومة السعودية ، ولكن لم يعتقد أحد أنه سوف يفعل عملاً سيئاً ويمضي في إتمام عبوره بدون تلك الإجراءات الرسمية . والاحتجاجات الرسمية يمكن أن تنشأ بين الحكومات في أعقاب هذه الأعمال . وقد احتج الملك السعودي ضد مخالفة توماس للقواعد والأصول . كما احتجت الحكومتان البريطانية واليمنية ضدي أيضاً لنفس المخالفة . وفي مثل تلك الحالات جميعها تستطيع الحكومة التي تتلقى هذا الاحتجاج أن تنفي مسؤوليتها عن الأعمال التي ينفذها الأفراد . وهكذا في كلتا الحالتين السابقتين فعلاً الشيء نفسه تماماً .

إن سلطات عدن قد بذلت مجهوداً شجاعاً لتمثيل رحلتي على أنها مغامرة عسكرية تدعمها القوات السعودية . وربما كانوا ساذجين قليلاً حتى إنهم صدقوا بسرعة التقارير المبالغية التي وصلتهم عن معداتي المخيفة والعربات المدرعة والرشاشات والمدافع مع جيش جرار من القوات السعودية . ولا يبدو أنهم كانوا يدركون أنه من الأمور العادية بالجزيرة العربية أن تحمل أسلحة عادية أثناء السفر والترحال . وأنا شخصياً لا أحمل شيئاً مرعباً أكثر من بندقية صيد في خدمة العلم ، ولكن لن يعد أي عربي نفسه مرتدياً هنداماً لائقاً بدون نوع ما من الأسلحة الخطيرة . وهكذا كان جميع المرافقين لي مسلحين . إن كل عربي تقريباً يعد جندياً منذ بلوغه سن الحُلُم فما فوق ،

ولكن باستثناء حالة الطوارئ التي لا مفر منها عندما يمكن استدعاء الجنود للخدمة في تلك الحالة، لم يكن فرد واحد من أفراد جماعتي عضواً في القوات المسلحة بالملكة العربية السعودية. ولم يستلم أي رجل منهم راتباً عن خدمته لي من أي شخص سواي. إن الحديث عنهم بأنهم «جماعة مسلحة سعودية» كان محض هراء. بيد أننا قد ارتكبنا جريمة اكتشاف شبوة. ولم نكتف بذلك فقط، بل إننا كنا الرواد في تهديد طريق السيارات على طول الجزيرة العربية بالكامل من الشمال للجنوب.

إن أولئك الذين كانوا أو قاموا حديثاً بتنفيذ خدمة مماثلة لأوروبا قد اتشعوا بالميداليات والأوسمة بدرجة كثيفة حتى الاختناق. ولا يسعني أن أتمنى جائزة أفضل من غيظ عدن الضعيف وغضبها مني. وأستطيع أن أدعي أنني قد أثرت همم موظفيها حتى ثاروا في انفجار غير عادي للنشاط الاستكشافي بالأجزاء الداخلية من البلد التي يُفترض أن يقوموا بحمايتها. فقد زارت بعثة جوية شبوة منذ أن كنت هناك، على الرغم من أنها مكثت فترة وجيزة. وقام موظف مهندس فعلاً بالسفر على طريق الشحر - تريم للسيارات حتى يرسم خريطة مبدئية (كروكي) له، وكانت الخريطة التي أعدتها هي الأولى على الإطلاق. إن السيد إنقرامز قد قام بزيارة ثانية لحضرموت ليبتل الأثر السياسي الناجم عن زيارتي، وكلما زاد من تكرار زياراته كان ذلك أفضل لأنه لديه قابلية جادة للعمل العلمي. كما أن عدن لها سجل هزيل حقاً من الاستكشاف على مدى مئة عام التي قضيناها هناك، ولو كان مسؤولوها يعلمون قدرأ أكبر مما يعلمونه الآن عن مناطق وقبائل المحمية لكانت قد اختفت الحاجة إلى قصف سكانها بالقنابل.

وبالنسبة لحدود منطقة المحمية يمكن القول بكل اطمئنان: إنه لا يوجد موظف واحد من بين موظفي إدارة عدن يعلمها. وفي الفصول اللاحقة وفي خريطتي^(١) سأكون قادراً على بيان الخط الذي يفصل ولايات المحمية عن المنطقة الخلفية المستقلة. ومع

(١) لسبب ما لم يوضح لي قررت سلطات (الجمعية الجغرافية الملكية) رفض بيان هذا الخط، ولكن القارئ يستطيع بلا صعوبة أن يستنتج مما ورد في النص. وكما شرحت من قبل فالخريطة مرسومة بمقياس رسم صغير جداً لدرجة يصعب معها الاستفادة منها. (المؤلف).

ذلك كان من الواضح أن الكولونيل ليك لم يستطع أن يعثر على ذريعة أفضل من اقتباسه من كتاب (دليل الجزيرة العربية) القديم جداً وغير المطور؛ ليؤيد قوله بأن الحدود «ليست مسألة مطروحة للنقاش؛ لأن المنطقة الواقعة جنوبها تخضع (بحكم الواقع) لحماية الحكومة البريطانية»، ولا يخضع (بحكم الواقع) ولا (بحكم القانون) الإقليم الممتد وراء حدود ولايات المحمية الوطنية، كما أن القبائل الموجودة به لا تعلم ولا تقبل مثل هذا الإدعاء، كما سنرى عندما نأتي إليهم في الوقت المناسب. وبالنسبة لمسألة النقاش من عدمه، فإنها في الحقيقة مسألة مطروحة للنقاش إلى حد كبير، حيث إنها ظلت خاضعة للمناقشة الدائرة فعلاً بين الحكومتين البريطانية والسعودية لبضع سنوات، وما زالت المناقشة جارية حتى الآن. هل من المحتمل أن لا يكون الكولونيل ليك على علم بتلك الحقيقة؟ أو هل كان يعتقد -ربما- أنني لا أعلم لي بها؟ ومهما يكن من أمر فلقد سافرت على طول خط الحدود الفعلي دون اللجوء لعروضه الطيبة بمساعدتي لدى سلطان العلاقي أو سلطات بيحان.

ومن لحظة مغادرتي هين في رحلة عودتي لم تظأ قدمي إقليماً خاضعاً للحماية البريطانية، ولكنني عدت لزيارة شبة مرة أخرى وزرت عياد والحاضنة ومرخة ولا تعترف أي منها لا بحكم سلطان العوالق ولا بالحماية البريطانية. إن سلطان شبام لا يقبل بالتأكيد الرأي القائل إن شبة تحت سيادة سلطان العوالق. بل إنه هو نفسه قد عقد ترتيبات عمل مع سكان شبة من خلال سيطرته على سوقهم العادي -سوق شبام- ولكنه نادراً ما يمارس أي سلطة فعلية على قبيلة الكرب المستقلة. ومع ذلك كانت سلطات عدن دائماً توصي المتقدمين بطلبات زيارة شبة والذين توافق على منحهم شرف تلك الزيارة بأن يستفيدوا من المساعي الحميدة التي يبذلها سلطان شبام وليس سلطان العوالق. وهذا رد نهائي على الكولونيل ليك، ولكن الحقيقة المؤكدة هي أن قبيلة الكرب والقبائل الأخرى في شبة تتمتع بالاستقلال، وربما يكون من الملائم هنا فيما يرتبط بهذا الموضوع أن أذكر الكولونيل ليك وأولئك الذين يفكرون مثله بوعود مكماهون لعام ١٩١٥م المتصلة باستقلال العرب. لقد جاء ذكر عدن

بصراحة في المراسلات بين حسين ومكماهون، حيث تم الاتفاق على أن عدن يجب «أن تظل كما كانت»، وإذا أردنا أن نعرف كيف كانت في ذلك الوقت فلا يسعنا إلا الرجوع إلى الكتيبات التي أعدتها وزارة الخارجية لإرشاد المندوبين البريطانيين المشاركين في «مؤتمر السلام». ففي أحد تلك المجلدات يتضح أن المنطقة الخاضعة لسيطرة سلطات عدن كانت تتكون من ٩٠٠٠ ميل مربع. وجميع الولايات المحمية خارج هذه المنطقة كانت ولا تزال اليوم دولاً مستقلة ترتبط بعلاقات معاهدة مع بريطانيا العظمى، واستقلالها مضمون بوعود مكماهون. وحتى عندما كنت في المكلا كان هناك «قانون» في «المجلس» جاهزاً لتوقيع صاحب الجلالة البريطاني عليه، ينص على تشكيل «مستعمرة عدن» الجديدة تبعاً لنتيجة الإصلاحات الدستورية الهندية التي كان سريان مفعولها سيبدأ في ١ أبريل ١٩٣٧م. وكانت الدول المحمية غير مدرجة بالطبع في نطاق هذا القانون نظراً لوضعها المستقل. ولكن يبدو أن زيارتي لحضرموت قد أثارت الحماس حول المسؤوليات الإمبراطورية، فقد نص قانون ثان في المجلس بتاريخ مارس ١٩٣٧م على توسيع مزايا الحكم البريطاني ليشمل جميع الدول المحمية، والتي أصبح «حاكم مستعمرة عدن» الآن «حاكماً وقائداً عاماً لها.

والاستنتاج الواضح من ذلك هو أن السلاطين المستقلين لتلك الدول حتى اليوم قد انحطت مراتبهم بموجب قانون المجلس إلى وضع التابعين «لحاكم عدن». وسوف يكون رد فعلهم على هذا القانون الجديد مثيراً للدهشة وجديراً بالمراقبة. والكثير من ذلك يعتمد على ما إذا كان القانون الجديد قد صيغ بصورة محضة للمحافظة على المزايا السياسية الفريدة لبريطانيا العظمى أم أنه يعبر عن الروح النبيلة لفائدة الشعوب «المحمية». وإذا كان من الواجب أن يكون السلام والتقدم الطردان هما هدية بريطانيا للمنطقة التي أضيفت الآن إلى «إمبراطوريتها» فليس من المرجح أن يعترض أحد على ذلك. أما إذا كانت الفوضى والاضطراب اللذان تتفاضى عنهما «الحماية» البريطانية سوف يستمران فسوف تبدأ عوامل أخرى في التفاعل والتأثير. لقد عدت «اللجنة

الملكية لفلسطين» أن الدول الجنوبية بالجزيرة العربية دولاً مستقلة وسوف تظل مستقلة طبقاً لوعود مكماهون. وأعلن السيد إيدن إيمان الحكومة البريطانية الراسخ بأنه لا يجوز لأي «قوة عظمى» (بما فيها بريطانيا العظمى) أن تؤسس موقع سيطرة وهيمنة على الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر. ومع ذلك تمضي إيطاليا قدماً في تطوير قاعدتها البحرية في عصب وسيل، ولا تخلو من الأطماع في الجزيرة العربية التي يمكن أن تتوسع لمسافة بعيدة في الصحراء بتواطؤ مع حكومة الإمام في اليمن.

إن العرب الآن في المنطقة الخلفية لعدن قد أضحوا أشد ألفة ونفوذاً على البنادق الإيطالية أكثر من البنادق البريطانية، ويرجع الفضل في ذلك للوسيط اليمني. والاختراق البريطاني سوف يواجه نظيره الإيطالي. وسرعان ما يكون قد فات الأوان لتفادي الصراع بينهما. وقد ينقذنا قانون منكر للذات من كثير من متاعب المستقبل، ولكن يجب أن يكون هذا القانون من جانب طرفين أو متعدد الأطراف. إن الاستقلال العربي يعد أحد السمات المعترف بها في السياسة البريطانية. ولا يجوز أن تكون بريطانيا هي أول من ينتهك هذا الاستقلال في جنوب الجزيرة العربية، حيث تتعرض سياستها التقليدية في تقديم الإعانات دون مسؤولية لأقصى انتقاد.

كما أن سياستها في احتكار جميع المواد الخام المحتملة في الجزيرة العربية، مع الإشارة على وجه خاص للبترول، عرضة بقدر مماثل للاعتراض. ويتحدث لسان الحكومة البريطانية بطريقة عفوية غير متكلفة بدرجة كافية أمام الأبواب المفتوحة، ولكن وكلاءها في الموقع يحتفظون بالمفتاح مختبئاً بأمان في جيوبهم. إن المملكة العربية السعودية واليمن -وهذه حقيقة- قويتان بما يكفي لمقاومة أي نوع من الانتهاكات التي قد تقع على حرمة أراضيها التي تتمتع فيها الشركات البريطانية والشركات التجارية الأخرى بحرية التنافس على قدم المساواة. ومن المثير للدهشة أن نلاحظ أنه في كلا البلدين حصلت الشركات البريطانية على بعض الامتيازات، على الرغم من أنها ليست امتيازات حصرية. ومع ذلك وفي أماكن أخرى على طول

السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية. ففي البحرين -وهذه حقيقة فعلاً- تحتفظ شركة أمريكية بامتياز للتنقيب عن البترول، ولكنها لم تحصل عليه إلا بعد أن تخلّت عنه شركة بريطانية على أساس أنه عرض غير مبشر بالنجاح. وكان هذا خطأ في التقدير والحكم على الأمور، ولكن تم اتخاذ الإجراءات الملائمة لتفادي تكرار مثل هذا الخطأ في أماكن أخرى. ففي الكويت وفي شبه جزيرة قطر، وفي جميع «الدول المتصالحة» على ساحل الخليج العربي، وفي عُمان وفي جميع الأقاليم المواجهة على المحيط الهندي إلى أقصى مسافة حتى عدن نفسها تم اتخاذ إجراءات لتشدّد السيطرة البريطانية على التطور الاقتصادي بها. ويمكن أن تطرق الشركات غير البريطانية الباب، ولكن لا يُسمح لها بالدخول. ويتم تشجيع الشركات البريطانية بنشاط ومساعدتها رسمياً لضمان وتشغيل أي امتيازات قد تكون جارية. والمنافسة معدومة، ولذلك يمكن الحصول على الامتيازات بأسعار رخيصة جداً.

إن هذه السياسة يمكن تبريرها من وجهة النظر الضيقة للمصالح الإمبراطورية البريطانية، ولكنها ليست صحيحة ولا عادلة للمستفيدين من حمايتنا. وهي مناقضة بالكامل لنص وروح وعود مكماهون. إنها سياسة الاستبداد والتحكم التي سوف تجر العقاب في قطارها وسوف يتلوها تعريض علاقتنا مع السعودية للخطر، التي يمثل استقلالها الضمان الوحيد للأمن في شبه الجزيرة، والتي تستحق الصداقة معها اهتمام بريطانيا العظمى لتنميتها استعداداً لحل مشاكل المستقبل. إن ابن سعود لا يرغب في شيء أكثر من رغبته في أن يكون على صداقة ودية مع بريطانيا العظمى، ولكن كانت المبادئ الموجهة للسياسة البريطانية في جميع الجوانب خلال العشرين عاماً الماضية هي تطبيق الحدود الإقليمية للسلام والأمن السعودي في أضيق دائرة قدر الإمكان.

وفي باقي الجزيرة العربية لا تزال فوضى واضطراب العصور السابقة سائدة. وهذا لا يتضح في مكان آخر أكثر مما يتضح عياناً في الأقاليم التي تتمتع بالحماية البريطانية على أيدي إدارة عدن. ولا عجب كذلك إذا كانت الصيغة التي يُستشهد بها

تمثل الموقف الموقر للحكومة البريطانية وهي أن: المحمية غير خاضعة للإدارة، مصالحها تحكمها الحكومة البريطانية. وخلال مدة إقامتي المؤقتة بها لم أر بالتأكيد أي دليل على أي اهتمام بمصالح هذا البلد. وباستثناء ما في المكلا - حيث لم تقم حكومة السلطان إلا مؤخراً بالاستيلاء على ما كان سابقاً شركة خاصة لعائلة آل الكاف - لا توجد في البلد محطة لاسلكي^(١) واحدة، ناهيك عن مكتب تلغراف. والطريق الوحيد الصالح لممر السيارات - وهو أيضاً مشروع وطني لعائلة آل الكاف - إلى المناطق الداخلية ما زال ينتظر انتهاؤه نتيجة للعناد والتصلب القبلي، وقد اكتمل بعد ذلك، وهذا ما يسرني قوله، ولكنه كان تحت رحمة الابتزاز القبلي. ولا توجد في طول البلاد وعرضها هيئة بريد، ولذلك يجب إرسال الخطابات - حتى الواردة من الساحل - إلى عدن حتى توضع عليها قيمة طوابع البريد ليتسنى إرسالها إلى جهاتها المقصودة. وفي المناطق الداخلية فإن التعليم متروك بالكامل للمؤسسات الأهلية، وقد قامت المؤسسات الأهلية بما تستطيعه. ولا توجد محاولة لتأسيس مؤسسة نقد لفائدة التجارة والاقتصاد باستثناء ما بذلته عائلة آل الكاف من محاولات كبرى من خلال إصدار عملات من النيكل مضمونة بضمان خاص، لمواجهة آثار الفوضى في العملات الأجنبية التي ينفذها أناس محليون نيابة عن أناس خارجيين. والشكوى عامة في الدوائر الرسمية من أن سلطات عدن تضع العراقيين في طريق الحصول على الأسلحة والذخيرة والتي بدونها لا تستطيع الحكومات المحلية المحافظة على النظام والأمن. ومن ناحية أخرى يمكن لأفراد من الأهالي الحصول على تصاريح خاصة من عدن لاستيراد أسلحة لاستعمالهم الشخصي، وهذه التصاريح يتم منحها بدون الرجوع للحكومات المحلية التي لا يسمح لها بالاحتفاظ بمثل هذه الإرساليات من المواد العسكرية في موانئها. وفي الحقيقة، بغض النظر عن تخطيط بعض مهام الطائرات

(١) منذ زيارتي قامت الحكومة البريطانية بإنشاء محطات لاسلكي في سيئون وفي العبر لأغراض عسكرية (المؤلف).

في مراكز محلية على الساحل وفي المناطق الداخلية لمصلحة «القوات الجوية الملكية» في عدن، لا أستطيع أن أتذكر مساهمة حقيقية واحدة صنعتها الحماية البريطانية لتقدم ورخاء حضرموت.

والناس متروكون للدفاع عن أنفسهم بأنفسهم. وهناك تيار خفي واضح من القلق في حضرموت نفسها، نابع من الثأر والعداوة القديمة بين الكشيري والقعيطي، وزاد فيه وجود عناصر لا تعترف بالحكم الفعال لكليهما. وبين نهد في الطرف الغربي من الوادي الرئيس توجد فوضى وحرب متقطعة. وفي جميع الأنحاء إلى الشمال والغرب يوجد نزاع قبلي وتكرار هجوم القبائل على بعضها، مما أدى إلى ترك مناطق واسعة صالحة للزراعة مهجورة خوفاً من أعمال السلب والنهب واللصوصية. إن أكبر وأجمل واد في جميع الأودية بالجزيرة العربية لا يزال منظره منظراً حزيناً بعد نصف قرن من الحماية البريطانية. «إن خمسين عاماً من أوروبا أفضل من دورة كاثاي» (Better fifty years of Europe than a cycle of Cathay) ومع ذلك فقد أعطت خمس سنوات من حكم ابن سعود نجران ما لم تنله أبداً من قبل وما تريده حضرموت أكثر من أي شيء آخر، إنها نعمة الأمن والسلام التي لا تقدر بثمن.

إن الحماية البريطانية اسم خطأ بقدر ما يتعلق الأمر بحماية عدن. كما أنه غير فعال وعقيم حتى لحماية المعينين في مناصبها ذاتها من الإهانة أو الإصابة إذا هم ضلوا الطريق وابتعدوا عن مساراتهم المألوفة. فقبل زيارتي بشهر أو شهرين كان ماكسويل دارلنج قد احتجزته قبائل المنفعة بغية السلب، وكان من الضروري اللجوء إلى عمل عسكري لإنقاذه والثأر له. وبعد زيارتي بشهر أو شهرين كان الكابتن بيتش قد تعرض لهجوم على طريق السيارات ووقعت خسائر في مفرزته، وسوف يتم الانتقام له في الوقت المناسب من رجال القبائل الذين اعترضوه. كما تم تحذير بوسكوين بالابتعاد عند محاولته زيارة شبوة، واضطر ريكاردس أن يسير بسيارته بعيداً عن المكان نفسه، وأطلق

الرصااص على هلفريتز لإخراجه منه، ونورمان بيرن تركه مرشده مهجوراً وسط الصحراء وهو في طريقه إليها، وتم إعاقة أول بعثة جوية من تنفيذ زيارتها المحتملة.

إن هناك شيئاً ما يجب تعلمه من تلك المظاهر الغريبة للخوف من الأجانب وكرههم. هذا الشيء هو الحقيقة البسيطة التي مؤداها أن هؤلاء العرب، وهم ينعمون بالاستقلال منذ أيام الإمبراطورية الحميرية القديمة، ليس لديهم رغبة في أن يتسلط عليهم ويحكمهم أجانب، غرباء عن جنسهم وغرباء عن دينهم. فبالنسبة لهم الاختراق الأجنبي مرادف للاستغلال. وبالنسبة لهم يعدون الملح ثروة والآثار القديمة المدفونة في ترابهم مصدراً من مصادر الغنى. والأجنبي يأتي للتجسس على أرضهم لصالح من بالخارج ولضمها إن كانت جديرة باهتمامه. ومع ذلك أتيت أنا ورأيت وفتحت، لماذا؟ إنهم لم ينظروا لي على أنني أجنبي يسعى لسرقة ثروتهم. وفي نظرهم لم أكن سوى رسول من ابن سعود، أتى في النهاية بعد انتظار طويل ليعرض عليهم الأمن والسلام بعد الفوضى الطويلة. لقد كان ذلك على الأقل شيئاً ينتظرونه، شيئاً لا يستطيع أحد غيره أن يدخله في حياتهم المضطربة. وكنت على الأقل قد فتحت الباب على مصراعيه للأمل. وإذا أصابهم الإحباط وخيبة الأمل بعد رحيلي عنهم فهذا لم يكن خطأي. ومن أجل الأصدقاء الذين وافيتهم في تلك الأراضي الجنوبية، لا أملك إلا أن آمل من الحكومة البريطانية - بعد أن سدت طريقهم إلى بعض الأمن والسلام تحت حكم ابن سعود - أن تمنحهم بدلاً منه شيئاً أفضل من الفوضى والبؤس اللذين صاحبا الحماية البريطانية طوال الأعوام المئة هذه. وإذا كانت لا تستطيع عمل ذلك فلتدع أرض سبأ القديمة تسترد استقلالها، كما تقترح الآن أن تفعل، بعد عشرين عاماً من الجهود العقيمة، حتى سواحل فلسطين.

ولا يمكنني أن أختم هذا الفصل بدون الإشارة إلى الأحداث اللاحقة. ولا يمكن إنكار أن سلطات عدن - بعد أن أدركت عدالة الانتقادات لطرائقها في الحماية

المعروضة في هذا الفصل والفصول الأخرى- قد عقدت العزم ووجهت الجهد بنشاط إلى مهمة إزالة الوصمة من شعار النبالة في الإمبراطورية البريطانية. ولكنهم على أي حال، ما إن يخلصوا أنفسهم من أحد العيوب حتى يسقطوا في آخر. لقد تم إدخال الطائرات القاذفة للقنابل في عدن لدعم العجز المدني بها. وتم إعفاء كل من السلطان «القعيطي» و «الكثيري» من سلطاتهما واستقلالهما. واعترفت الحكومة البريطانية بشن ثنائي حملات جوية ضد قبائل حضرموت، وانطلقت حملة أخرى في فبراير ١٩٣٨م. وقامت ست من هذه الحملات بصب وابل من القنابل على البيوت والقرى البائسة ويساتين النخيل في البلد. وليس من السهل في مثل تلك الحالات التحقق من العدد الدقيق للموتى والمصابين. وهناك على الأقل رجل وامرأتان وطفلان بريثون تمام البراءة بالتأكيد بين الموتى. وربما يكون هناك آخرون. لقد بدأت جريدة التايمز مؤخراً مقالاً افتتاحياً بالكلمات التالية: «باستعراض علني للقوة القاهرة تجبر الحكومة الألمانية وزارة السي فون شوسكوشنق على الاستسلام والاستقالة». استبدل ذلك ببريطانيا العظمى وحضرموت، وتظل الجملة صحيحة، مع فرق واحد. هذا الفرق هو أن الألمان لم يطلقوا قنبلة واحدة، وإذا كنا مضطرين لاستخدام القنابل لفرض إرادتنا بالقوة فلا يجوز لنا على الأقل أن نرمي الآخرين بالحجارة. دعونا نكون أمناء مخلصين إذا أردنا أن نكون جادين في عالم شديد الانتقاد. إننا جميعاً نعلم أن الطائرة القاذفة هي الوسيلة الأرخص والأكثر فعالية والأشد إنسانية لإخضاع الشعب الذي لا يستطيع أن يتنقم بالمثل. وهناك مثل لاتيني يقول: «عندما يحافظون على العهود، فإنهم يطلبون السلام».

البوابات الجنوبية

بعد أن قطعت سياق روايتي أحداث عدن، أعود الآن لمواصلة سرد أسفاري.. تخطينا بوابة (الشحر) الرئيسة (الشمالية) وعطفنا (من الطريق العام) إلى شوارع جانبية قادتنا في نهاية الأمر إلى منزل الضيافة الخاص بعشيرة آل الكاف. والمنزل عبارة عن مبنى أبيض اللون، نظيف ومكوّن من طابقين، مقام في فناء صغير يحيطه سور، وكان يقف أمام باب المنزل مجموعة من الأطفال ينظرون بانشداه واستغراب إلى السيارة ومحتوياتها، بينما قام الدكتور محمود خواس، الطبيب المحلي، باستقبالنا ببشاشة نيابة عن مضيفينا الغائبين، الإخوة الثلاثة من عشيرة آل الكاف والذين يتوقع وصولهم من مصر على ظهر المركب القادم. انتقلنا إلى الطابق العلوي حيث غرفة الضيافة الرئيسة وكان بصحبتنا حشد من الزوار، كأنما انشقت بهم الأرض حال سماعهم إشاعة وصول غربي إلى الديار، لقد كان هاجسي الوحيد وقتها هو الاستحمام وتغيير ملابس، ولهذا طلبت تخصيص غرفة لشخصي ثم صعدت إلى الدور العلوي حيث وضعت مجموعة من الغرف الصغيرة تحت تصرفي، ويبدو من النفايات المتراكمة أن هذه الغرف لم تستعمل منذ فترة، إلا أن مجموعة من عمال النظافة تمكنوا -في وقت وجيز- من تنظيف إحدى الغرف بحيث أصبحت ملائمة للسكن. وفي هذه الأثناء صعدت إلى سطح المنزل لإلقاء نظرة عابرة إلى معالم المدينة وجوارها المباشر. بعد ذلك نزلت إلى الغرفة التي تم تخصيصها لي ووجدتها مفروشة بالسجاد كما وجدت في انتظاري حشداً من الزوار ملؤوا الغرفة على سعتها وكان عليّ -والحال كذلك- تأجيل الحمام وتغيير الملابس لتسليّة هذا الحشد والتحدث إليه. كان ممثل عشيرة آل الكاف (في هذا الحشد) هو سعيد شيخ الشستيري، وقد ألح عليّ كثيراً بزيارته في منزله لتناول طعام الغداء أو وجبة أخرى وقد اعتذرت له بأنني لن

أحتاج إلى وجبة الغداء في ذلك اليوم، خاصة وأن الدكتور الحواس يقوم بتحضير وجبة الإفطار، إضافة إلى أنني لن أتمكن من قضاء الليلة بمدينة الشحر، حيث يتوجب علي أن أكون بمدينة المكلا في وقت مبكر. وكان -وسط الحشد المذكور- زائر آخر مهم هو الشيخ صالح صقر، قائمقام أو حاكم الشحر، وهو سيد كبير في السن يستعمل الحنّاء لإخفاء آثار السنين عليه. وعند زيارتي له، فيما بعد في قصره الكبير المتداعي للسقوط وجدت أنه من الدعاة المتحررين لاستعمال بذرة معدى، الغوفل (التامبول) وقد كان هو ومن معه -في ذلك الحين- يعضغون تلك العشبة بمتعة شديدة وبجانهم مبصقات معدنية يرمون فيها فتات ما يعضغون.

قام الدكتور حواس، بعد أن تعرف على عاداتي من الذين يرافقونني في أسفاري، بوضع ثُرُسٍ معبأً بالشاي بجاني، بينما قُدمت القهوة العربية إلى بقية الضيوف. وكان الحاضرون تواقين إلى سماع "أخبار ابن سعود" وأخبار الرحلة بالسيارة عبر الصحراء واحتمالات أداء فريضة الحج بالسيارات بدلاً عن الدواب... إلخ. وقد طالت جلستنا في حديث يبدو أنه بلا نهاية وكان ثُرُسُ الشاي العملاق يزودني بما يساعد على الصبر والإلهام. وقد يسعد المرء أحياناً أن يكون جالساً هكذا دون عمل أي شيء محدد، لقد ألمحت للدكتور حواس، الخبير المحلي بعادات الأوروبيين، بأنني لن أتناول إفطاري قبل الاستحمام وأنني لا أنوي الاستحمام أمام هذا الحشد الكبير من البشر. وبدأت حشود الأطفال والمتسكعين والضيوف في مغادرة المكان تدريجياً ومن ثم فتحت حقيبة السفر وأخرجت منها ملابس نظيفة.

لقد لاحظت أن بالغرفة أبواباً أكثر مما هو ضروري، وأن معظم هذه الأبواب مصنوع من الزجاج، إضافة إلى أنها غير قابلة للإغلاق تماماً، كما لاحظت أن بعض الأطفال وبعض الكبار والذين لم يسمح لهم بالدخول لاستقبالني نظراً لمنزلتهم الاجتماعية المتدنية، كانوا يتجولون أمام الأبواب الزجاجية الشفافة، أملين رؤيتي وأنا أغير ملابسي. وعندما استدعيت محموداً وأخبرته بأن من حقي أن تكون لي

خصوصيتي، وأن أمنح متسعاً من الوقت للاغتسال والوضوء بعيداً عن الأنظار، أجب محمود «إنني على استعداد تام لتقديم كافة الخدمات لكم». وقد كان وفيّاً بعهده، ذهبت إلى الحمام واغتسلت وغيرت ملابسني بدون أي تطفل من الآخرين، بعدها وصل الطبيب ليعلن أن وجبة الإفطار جاهزة وكانت تتكون من دجاج مقلي مع كاري خفيف إضافة إلى بيض وخبز، أجبني الطبيب بعد أن شكرته على الوجبة الممتازة وكرم الضيافة بقوله: «إنني أسعد كثيراً بمقابلتك». وأعتقد أن الرجل سعيد حقاً برؤيتي ومقابلتي، فقد أخبرني كيف أنقذ حياة فريا ستارك وعرض عليّ شهادة شكر وتقدير، موهورة باسمها، حيث عبرت له عن أمانيتها بأن يتبوا المكان اللائق به كطبيب ماهر بدلاً من الوظيفة المتواضعة في مدينة الشحر براتب شهري قدره ٦٠ ريالاً على نفقة حكومة السلطان. وحقيقة الأمر أن ليس للدكتور خواس أي اعتراض أو تحفظات تجاه مدينة الشحر غير أنه يدرك تمام الإدراك أن بإمكانه الاستمتاع بمزايا الحضارة والتقدم في أي مكان آخر، مثل مدينة عدن التي تلقى فيها دراسته وحيث إنه -فيما أظن- أحد مواطنيها، وعلى كل حال فللدكتور شخصية لطيفة وساحرة.

وكان عليّ تذكير الدكتور برغبتني في مشاهدة بعض معالم المدينة أولاً، ثم تلبية دعوة السلطان والتي سبق أن قدمها لي وقبلتها ثانياً. سألني الدكتور «هل نركب السيارة أم نسير مشياً على الأقدام؟»، ويبدو أنه ارتاح كثيراً عندما أجبته برغبتني في المشي سيراً على الأقدام. بدأت الجولة الاستكشافية بمشاهدة بعض معالم المدينة والتي تبدو عليها سيماء الفقر والتواضع، في الوقت الحاضر على الأقل، ومن الواضح أنها شهدت عصوراً ذهبية في الأيام الغابرة، ومع ذلك فسيكون لها مستقبل جيد ما كانت تحلم به، خاصة مع اكتمال طريق السيارات إلى تريم. لقد أنعمَ على الشحر بواحد من أسوأ الموانئ في العالم، وهو عبارة عن مرسى مفتوح في مواجهة ساحل رملي ممتد تنكسر عليه الأمواج العالية. كانت البواخر الصغيرة القادمة من عدن والمراكب الصغيرة الأخرى ترسو بعيداً عن الشاطئ بينما يتم تحميلها وتفريغها من البضائع

والركاب بواسطة صنادل كبيرة، وتتولى أطقم قوية ومدربة من الزوج مهمة تجديف هذه الصنادل ويبدو عليهم وهم يقومون بهذا العمل الشاق، سيماء المرح والابتهاج، بالرغم من المخاطر العالية، وكان يتتابني إحساس قوي بأن هذه الصنادل سوف تنقلب رأساً على عقب، ومن المدهش أنها لا تتعرض لهذا الأمر. لقد تعرضت لتجربة قاسية مع إحدى هذه المراكب، وأتمنى ألا يتكرر الأمر معي.

إن مرحلة بداية رحلة خارجية هي بالطبع أكثر المراحل إثارة وتشويقاً، يرتفع القارب الصغير في مواجهة الأمواج المتكسرة القادمة ويتحول إلى جانبه العريض ثم يرتفع مرة أخرى ثم يستعيد المركب توازنه فوق الماء ويشق طريقه بجهد بينما تكون مقدمته أو مؤخرته، لا فرق في اتجاه العدو. وكل ما أتذكره -في هذه التجربة- أن النهايتين متشابهتان تماماً وأنه يمكن التمييز بينهما، في أي لحظة كانت بواسطة الإحساس بالاتجاه. ولا يتحقق التوازن الكامل للمركب إلا عندما تكون وسط المياه العميقة حيث ينبغي على الطاقم التجديف بكل ما أوتي من قوة ومهارة، وحيث يستعيد الركاب الآخرون جلدَهم ويتردون مخاوفهم. والمرحلة الحرجة، عند العودة للشاطئ، هي لحظة اصطدام القارب بالرمل. وأشهد أن أطقم هذه القوارب تتمتع بمهارات مذهلة للغاية مع أن الأجر الرسمي لرحلة العودة زهيد للغاية ويكاد لا يساوي أي شيء، وكان يقيني أنني لن أدفع لهم أقل من أربعة أضعاف القيمة المقررة رسمياً، ولقد اكتشفوا "إبريقاً" وطالبوا بالزيد وفي النهاية نالوا مرادهم. وما لم يستوعبوه تماماً أن هذا الكرم من ناحيتي لا يساوي قطرة من محيط مهاراتهم الفائقة.

يوجد كوخ أو كوخان على خط البحر (الماء) وهي عبارة عن مكاتب سلطات الجمارك، غير أن البضائع التي يتم تفريغها من السفن تظل مبعثرة على طول الساحل حتى حضور أصحابها لاستلامها. لقد أوكلت مهمة تحصيل الرسوم الجمركية بمدينة الشحر، بما في ذلك رسوم الدخولية (البلدية) المقررة على البضائع الواردة إلى المدينة أو الخارجة منها إلى أحد تجار قوجراتي واسمه عبدالله جعفر، هو ينتمي إلى طائفة

الشيعة وذلك بمبلغ وقدره ١١٠٠٠ ريال في الشهر. وفرضت ضريبة مقدارها ريالان على كل حمولة داخلية إلى المدينة أو خارجة منها، بينما حددت تعريفة الجمارك البحرية بمقدار ٥٪، ٨٪ أو ١٠٪ حسب القيمة المنصوص عليها في فاتورة الشراء ووفقاً لنوعية البضائع، كما تم تخصيص ضريبة خاصة بالتبغ الذي يمثل الإنتاج الرئيس لسواحل حضرموت. قدرت ضريبة التبغ بين ٦٠-٧٠ ريالاً لكل عبوة مقدارها ٣٠٠ طن، وتتراوح قيمتها بين ٦٠-٧٠ ريالاً، وهذه تمثل على وجه التقريب ٢٠٪ لقد كانت السلطات المسؤولة تفكر -وقت زيارتي للمدينة- في إلغاء نظام تكليف أفراد بعينهم مهمة جباية الضرائب نظير مبلغ محدد مقابل أتعابهم ومسؤولياتهم وأدخل نظام جمع الضرائب المباشر، وبما لا شك فيه أن هذا النظام المقترح -إذ طبق بمصادقية وأمانة- سوف يزيد الربط السنوي الحالي للجمارك والرسوم التي تبلغ مئة واثنتين وثلاثين ألف ريال (١٣٢٠٠٠) سنوياً (حوالي ١٠٠٠٠) عشرة آلاف جنيه إسترليني من الشجر وحدها.

بعد انتهاء زيارتي للحاكم، سجلت زيارة خاصة إلى التاجر عبد الله جعفر وقد زودني بالإحصائيات والبيانات أعلاه. كما رحب بي كثيراً وغمرني بكرم الضيافة وقدم لي وجبة خفيفة من البسكويت والفواكه المعلبة. لقد لفت انتباهي أن السوق المحلي لا يخلو من بعض القذارة والفوضى والتصدع ومع ذلك يبدو أن السلطات مهتمة بأمرة ورعايته. لقد خصص الطابقان الأرضي والأول لمؤسسة عبد الله جعفر كمكاتب للأعداد الكبيرة من الكتبة والموظفين الذين يعملون في المؤسسة، أما حسابات وسجلات المؤسسة فهي محفوظة في قوارجاتي. أما الطابق العلوي والذي خصص لأسرة عبد الله جعفر فتبدو عليه آثار النعمة والبهجة. كان مضيفي حزناً بعض الشيء بسبب احتمال فقدان مهمة جباية الضرائب التي تديرها مؤسسته لسنوات طويلة. إن الجالية التي ينتمي إليها عبدالله جعفر، وتشمل قليلاً من التجار

الأقل ثراء منه هي الجالية أو العنصر الأجنبي الوحيد المقبول في مدينة الشحر. الأوروبيون لا يجدون أي تشجيع أو مباركة للإقامة هنا أو في المكلا، ومع ذلك ومنذ زيارتي فقد رأت الحكومة البريطانية أنه من الأنسب تعيين ممثل رسمي لها في المكلا تحت اسم (مقيم)، تماماً كمن يضع الطرف الحاد من الفأس فوق جذع شجرة ضاربة في العراقة والقدم يحرص أهلها على المحافظة على استقلالها وتفردها.

أما قصر الحاكم فهو عبارة عن مبنى رائع التصميم ويتكوّن من عدة طوابق، وإن بدت عليه آثار السنين والإهمال، ويطل القصر على حصن قديم بالقرب من النهر يُعرف بقصر ابن عياش، وينسب إلى الأمير عبد الله بن عمر القعيطي الذي جعل من الشحر عاصمة له. وتوجد بالقرب من هذا القصر بقايا مبنى يبدو أنه شيد في تاريخ سابق إلا أنني لم أتمكن من زيارة هذا الموقع الأثري. ولاحظت أن السور الذي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات (عدا جهة البحر) كان في حالة جيّدة مما يدل على الاهتمام بصيانه والعناية به، ولهذا السور بوابتان تتميزان بأشكال معمارية رائعة، البوابة الأولى تقع بالجهة الشمالية وقد سبق أن أشرنا إليها آنفاً، أما البوابة الأخرى فهي بالسور الغربي وقد قامت عائلة آل الكاف في السنوات القليلة الماضية بتشييد مجموعة من المباني رائعة التصميم والتنفيذ وذلك في أقصى الجزء الشرقي للمدينة.

هذه إذن بعض الملامح العامة لمدينة الشحر التي تمكنت من مشاهدتها والوقوف عليها على الرغم من الوقت القصير المتيسر لنا. وعند عودتي من هذه الجولة الاستكشافية الخاطفة وجدت سيارة تقف أمام الباب لنقل المجموعة المرافقة إلى مدينة المكلا. بدأت الرحلة عند الساعة الثانية ظهراً على الطريق الذي أتينا به وبعد حوالي تسعة أميال انحرفنا في اتجاه الغرب إلى المكلا، وهذا الطريق هو الأطول والأكثر وعورة الذي يربط بين المرفأين، ذلك أن الطريق الأقصر والأسهل لا يمكن استخدامه أثناء فترة هبوب الرياح الموسمية، حيث تغمر مياه البحر الطريق المحاذي لخط الماء تماماً.

وبما أن الشحر والمكلا لم تخضعا في كل الأوقات لحاكم واحد، إلا أنهما ظلتا في اتصال ثقافي متميز بالعادات والتقاليد والممارسات المتشابهة. لقد استمدت المراكز أسماءها من أسماء المرافئ التي لها السيطرة الإدارية واليد العليا، مع أنه ليس بالضرورة القاطعة أن تكون هذه المراكز امتداداً للمرافئ. ومن الجدير بالذكر أن أيّاً من هذين الموقعين المحليين لم يكن يحمل هذا الاسم في المصادر التاريخية القديمة. ويبدو أن السبب وراء ذلك هو أن كل الساحل الجنوبي للجزيرة العربية لم يكن ملائماً ولا مضافاً للبحارة الذين يجوبون تلك المناطق مما حتم أن يكون موقع اتصالها البحرية محكوماً بما يدور في الداخل، بعيداً عن الموانئ والمرافئ الساحلية، لهذا السبب نجد أن قنا (كأنها من قنا المصرية) تطابقت مع بئر علي وموشا الحديتين، ومن المحتمل أن تكون إحدى موانئ ظفار التي جذبت اهتمام القدماء.

تعد قنا أقرب الموانئ إلى مراكز الحميريين مثل شبوة وما جاورها، بينما ظلت ظفار تخدم مناطق إنتاج البخور التي تقع من خلفها. ولم يكن لحضرموت الحديثة -على الرغم من أنها كانت وما زالت مصدراً مهماً للإنتاج الزراعي الوفير- الأهمية الخاصة التي تمتعت بها مناطق اللبان والبخور وعاصمتها السياسية، ولكن بعد أن فقدت تجارة التوابل أهميتها وبريقها، وبعد أن أصبحت شبوة مهجورة؛ لذلك السبب أو لأي سبب آخر استعاد وادي حضرموت موقعه كمركز تجاري مهم. أضف إلى ذلك أن المرافئ القديمة، مع افتقارها لأي جاذبية تستدعي المحافظة عليها والاهتمام بها على الرغم من بعدها الشديد عن المركز الجديد، قد هُجرت هي الأخرى لصالح الطرق الجديدة الأقصر مسافة. لقد ظلت شبام تمثل مراكز جذب بالنسبة للاجئين من شبوة، أما المكلا فهي أقرب نقطة يمكن الوصول إليها عبر الساحل من شبام كما أن ميناءها يعد أحسن من أي ميناء آخر على الساحل، أما اسمها في حد ذاته فهو دليل قاطع على احتلالها المبكر.

إن اسم المكلا -في واقع الأمر- مأخوذ من الكلمة الإغريقية "مايكل" وهناك عنصر إغريقي، كما يذكر "الدليل" في جزيرة سقطرى، ولذا ربما لم يتعد الأمر

مجرد المصادفة في أن اسم المكلا لم يذكر في الأدبيات القديمة^(١)، ذلك أنها ربما لم تكن مركزاً للتجارة الدولية. وقد استبعدنا "الدليل" إلى حد ما، وعدّها جزءاً من طريق الساحل، أي جزءاً من التجارة الساحلية فقط دون أن يكون لها أي دور في التجارة العالمية. أما الشحر إذا كانت موجودة منذ القدم، فلديها هي الأخرى نصيبها من الازدهار والإهمال، ولا أظن أن هذا المرفأ على الرغم من إمكانياته المتواضعة إن لم نقل الرديئة، يمكن أن يكون قد أعقب نمو وازدهار شبام، وعلى كل حال يصعب وجود أي رابط لغوي قديم بين الشحر والساحل، ولا يوجد أي ربط بين الاسمين إلا فيما يوجد بين الطباشير والجبن، وإذا جاز لي التخمين فإنني أقول: إن أصل ومنشأ الشحر هو اشتقاقها من الشحر^(٢) الفارسية "المدينة". إن الفرق في اللفظ المتوسط لا يعني بحال اعتراضاً صحيحاً بالنظر إلى الأصل الأجنبي للاسم. وإذا أخذنا اسم بوشاير (بو شهر على وجه الدقة)، فإنه يمثل حالة مشابهة لما نقول.

وعليه يمكن أن نقول بعدم وجود أي ذكر -في الكتابات القديمة- لأي من المرفأين ومع ذلك فيبدو أن السيدة فريا ستارك تنكر أن يكون لهما نصيبهما من الاهتمام القديم الذي تستحقانه، كما أنها تعتقد أن ماركو بولو وياقوت أول من ذكر اسم الشحر كمدينة، وهي تقول على وجه التحديد: «إن أول إشارة معاصرة للمكلا كانت من قبل ابن الجاور في القرن الرابع عشر». وشخصياً لا أدعي بأنني بحثت

(١) تذكر المصادر الحضرية أن «المكلا» دال على مسماء، فاصل مادة كلاً في اللغة مرفأ السفن لأنه يكلوها من الريح أي يدفع الريح عن السفن ويسقطها، فهو ملجأ لسفن الشحر والواردين إليه من الأفاق عندما يهيج البحر في أيام الخريف لأنه مصون بالجبال بخلاف ميناء الشحر المكشوف. انظر السقاف، حضرموت: بلادها وسكانها، مجلة العرب جـ ٧، ٨، السنة ٢٦، محرم وصفر، ١٤١٢هـ، ص ٤٧٠، المنجد في اللغة والأعلام، ط ٢٧، ١٩٨٤م، ص ٦٩٢-٦٩٣. (المراجعون).

(٢) اللفظ الفارسي هو "شهر" ويعني المدينة أو الدولة. انظر، التوحي: المعجم الذهبي - فارسي عربي، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٩٢م، ص ٣٨٣. (المراجعون).

الموضوع بحثاً عميقاً، غير أن سعيد بن نشوان^(١) قد اقتبس بيتاً من شعر قس بن ساعدة، الذي عاش في أوائل القرن السابع:
وعلى الذي كانت بموكل داره

يهب القيان وكل أجرد شاحي

وأورد المؤرخ نفسه النص التالي من قول الشاعر العجاج الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع:

رحلت من أقصى بلاد الرحل

من قُلِّل الشَّحر فجني موكل

لقد كانت البوابات الجنوبية للجزيرة العربية خلال القرن السابع لعصرنا هذا مغطاة بسديم العصور القديمة، وأن الأسماء التي بقيت في الذاكرة المعاصرة لم تكن "قنا" أو "موشا" إنما التي بقيت هي أسماء الشحر والمكلا ويمكن على الأقل تتبع آثار الاسم الأخير إلى مكلا والتي ظهرت بوضوح تام، بالرغم من موقعها الداخلي البعيد في خريطة بطليموس الشهيرة، في القرن الثاني الميلادي. وقد لفتت فربا ستارك إلى حقيقة أن (اللبان الساحلي) ما زال يسمى (اللبان الشحري)، ونحن في أوروبا ما زلنا نتحدث عن بُن المخا، بينما توقف العرب عن ذلك منذ فترة طويلة. لكن لا يمكن تسمية اللبان أو البن بأنه ساحلي "والأسماء التجارية" على كل حال، قد تكون ملائمة لكنها لن تكون أبداً الدليل القاطع على المنشأ والأصل.

وعند وصولنا نقطة مفترق الطريق، أخذنا الطريق المؤدي إلى المكلا، وهنا ينحرف وادي حويرة في اتجاه الجنوب الغربي ويعبر بعض الحواجز الصخرية التي

(١) الاسم الصحيح هو نشوان بن سعيد الحميري، علم مبرز في اللغة والتفسير والنحو والصرف. شاعر فصيح وكاتب بليغ له العديد من المؤلفات في هذه الفنون، وفي التاريخ والأنساب وفاته سنة ٥٧٣هـ، وللمزيد من المعلومات عنه انظر: الأكوع: نشوان بن سعيد الحميري والصراع الفكري والمذهبي والسياسي في عصره، دار الفكر، دمشق، ١٤١٨هـ، وللأكوع أيضاً: هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر دمشق، ١٤١٦هـ، ج١، ص ٥٤١-٥٤٩. (المراجعون).

تشكل الرف الصخري الخارجي الأكثر انخفاضاً لهذه السلسلة الجبلية. وهناك سهل اسفيني الشكل منبسط ومنحدر في اتجاه تدفق الوادي ويوجد في هذا السهل المنبسط عدد من بساتين النخيل التي تتبعثر حولها منازل العاملين، بالإضافة إلى قرية متوسطة الحجم تقع غربي السهل. هذه البلدة اسمها المعيان وهي تقع على الطريق مباشرة، وبالقرب من مفترق الطريق توجد قرية الحبس وبها أيضاً حقل نخيل يملكه سلطان المكلا. وبين هذين الموقعين توجد بساتين الهواء ومعروف، ولا يبدو أي من هذه البساتين والمزارع ذا قيمة اقتصادية تذكر، إلا أن وجود كميات من الماء يمكن الوصول إليها، كانت سبباً كافياً لقيام أنشطة زراعية في هذا الجزء من العالم. ومع ذلك فإن أي إضافة -مهما كانت بسيطة- إلى الإنتاج المحلي تعد أمراً مقبولاً.

يمر الطريق بعد المعيان بمنطقة وعرة وجرداء لعدة أميال قليلة، ولا يوجد بهذه المنطقة سوى حوض وبناية صغيرة من اللبن الطيني عبارة عن استراحة لراحة المسافرين، ولكسر جمود ورتابة الرحلة، وفيما وراء الحوض يخترق مجرى وادي حما الطريق حتى يلتقي بوادي حويرة، بينما تنتشر أبراج المراقبة فوق سلسلة الجبال بالجهة الجنوبية. وعند النهاية القريبة لهذه السلسلة المنحدرة إلى الخلف وصل ركبنا إلى واد منبسط وواسع تنتشر فيه العديد من القرى وحقول القمح وبساتين النخيل المثمرة. يدخل الطريق إلى السهل الممتد بين بساتين النخيل في نقب بالجهة اليسرى وسده التي تمتد إلى حوالي ميل واحد على طول الجهة اليمنى من الطريق. وتوجد بالآخرية قرستان صغيرتان وبقياء حصن قديم يسمى حصن العوالق، وهو الأثر الوحيد الباقي لسلالة العوالق والتي كانت تقيم بهذه المنطقة قبل وصول العشيرة القعيطية.

أما المستوطنة الأخرى والأكبر فهي القارة والتي كانت تنتمي -في تلك الأيام- إلي بيت آل بطاطي المنافس، أما القرية الأصلية والحصن الذي يحرسها (حصن البطاطي) فقد أصبحت أثراً بعد عين وسط بساتين النخيل وحقول القمح؛ وتمتد القرية الجديدة، التي تنقسم إلى جزأين، على طول سلسلة منخفضة في محاذاة السهل

الصالح للزراعة. وفيما وراء القارة وعند النهاية الغربية للسهل، تقع الغيل والتي تعد أكثر ثراء وأهمية في الوقت الحاضر. وتليها قرى بلحماس وظهبان النائية. وتتبع معظم مزارع وبساتين الغيل إلى ملكية التاج الملكي. وقد كنت في عجلة شديدة من أمري، فلم أتمكن من البقاء لوقت أطول للتعرف عن كذب على هذه المنطقة ولكن نظراً لأنني قد أتمكن من عبور هذه المنطقة مرة أخرى في طريق عودتي فسوف أترك تفاصيل وصفها إلى نهايات هذا الفصل من الكتاب، وتكفي الإشارة إلى أن سهل هذا الوادي يعد -بلا منازع- منطقة إنتاج التبغ، موطن ورقة نبات الحمومي المشهورة جداً، ولهذا السبب كانت المنطقة مركز القيادة لساحل حضرموت. لقد اندثرت بيوت البطاطي والعلوقي وبقيت أنقاضها ومن ثم آل الحكم لسلطان الشحر والمكلا دون منازع. وهكذا ازدهرت الغيل كما سنرى لاحقاً، وهي تساهم بقدر كبير جداً في الدخل القومي للدولة. وقد صادف وقت زيارتي موسم جمع وحصاد التبغ، وفيما عدا مناطق زراعة الدخان وأشجار النخيل، فإن ما تبقى هو مناطق بائسة ومقفرة إضافة إلى صخور جبلية غير قابلة للاختراق أو الزراعة.

وبعد أن تخطينا الغيل دخل الطريق مجرى وادي الغصن وتبعه لمسافة قصيرة. يبلغ عرض وادي الغصن حوالي ثلاثين ياردة، ويشق الوادي طريقه بين ضفتين ارتفاعهما عشرين قدماً، وتتكون من حجر جيرى هش ومتآكل، وهذا الوادي يصرف مياه منطقة الغيل إلى البحر عند مدينة الشحير، هذا الطريق يستخدم في موسم الجفاف فقط، وهناك طريق آخر يتجه شرقاً عبر منطقة حجرية مرتفعة بعيداً عن مجرى الوادي، ويفترق الطريقان عند ظهبان ويلتقيان مرة أخرى بعد حوالي أربعة أميال، يجتازان سهلاً حجرياً وعراً يمتد حتى مشارف الشحير، وبعد ميل واحد من ملتقى الطرق أعلاه يعبر قناة شضب الضيقة ليلتقي مع وادي الغصن ومن ثم يستمر الوادي المتحد في جريانه حتى يلاقي قناة وادي الشحير على بعد مسافة غير بعيدة أعلى القرية.

أما الشحير نفسها فهي مستوطنة كبيرة ومتسعة تقع عبر سلسلة الضفة اليسرى للوادي على حوالي ميلين من مصبه. وهناك مجموعة من بساتين النخيل متفرقة حول الأرض المنبسطة أو على طول ساحل البحر، هي من أملاك القرويين أنفسهم. المبنى الوحيد اللافت للنظر في هذه المنطقة هو منزل الحاكم المحلي وهو عبارة عن بناية مرتفعة تشبه الحصون العسكرية، وخلف القرية يوجد الوادي الذي يبلغ عرضه حوالي نصف ميل ويرتفع لعدة أميال فوق سطح البحر وتنتشر فيه البرك والمستنقعات التي تكونت بعد السيول. وتتوفر المياه بصفة مستديمة في هذا الوادي ومع ذلك فإنها لا تعيق حركة سير المواصلات في الأوقات العادية. وفيما عدا ذلك وتحديدًا في مواسم الأمطار والسيول فإن حركة السير تتوقف تمامًا. وأثناء رحلة عودتنا علقت سيارتنا تمامًا في الأرض الطينية الموحلة. ويوجد بالناحية الغربية طريق آخر مرتفع تم تعبيده وإصلاحه لتسهيل حركة مرور السيارات حتى السهل الرملي الصحراوي الممتد وراء هذه المرتفعات. وبداية هذا السهل الصحراوي عبارة عن حزام واسع من هضاب رملية صغيرة الحجم تشبه فقايق صابون في حوض غسيل مملوء بالماء، وعلى بعد أربعة أميال من الشحير، مهبط أراض تم تنظيفه من الحجارة ووضعت حجارة بيضاء في أركانه الأربعة مع دائرة بيضاء في المركز. هذا السهل هو مطار المكلا السابق. أما المهبط الحالي فقد تحول إلى منطقة قوة الواقعة على الساحل غربي العاصمة. ويبدو أن السلطات المعنية قررت الاحتفاظ بمهبط الشحير للاستخدام في حالات الطوارئ.

يمتد هذا السهل الحجري لمسافة خمسة أميال أخرى على طول الضفة اليسرى لوادي فليك، ويوجد فوق الوادي الذي تجري مياهه طوال العام جسر متين للعبور. وبعد مسيرة ميلين آخرين يقابلنا وادي البويش والذي تصب مياهه في البحر. وتتجمع مياه الوادي أسفل الطريق وتكون بركة تظل محتفظة بمياهها طوال السنة، أما على خط الطريق المباشر فإن مياه البركة تجف، عدا أوقات السيول والأمطار. وتتنوع المشاكل التي تواجه السائقين في هذه المنطقة، وفقاً للأحوال الجوية السائدة، ففي

موسم الأمطار مثلاً تكون العقبة الكؤود هي الوحل والطين، أما في مواسم الجفاف فيتمثل الخطر الرئيس في الرمال الكثيفة المتحركة. وخلال أسبوعين من الزمان واجهنا كلتا العقبتين ولم يكن أمامنا خيار يذكر عدا أن الطريق الرملي أنظف من الطريق الطيني. وتغطي أسفل الوادي غابة كثيفة من شجر الطرفة، بينما توجد على جانبيه مستوطنات كبيرة وهي تحديداً: مستوطنة ناجل بالضفة الشرقية، وبها بساتين نخيل كثيفة، ومستوطنة البويش بالضفة الغربية، وتكسوها هي الأخرى حقول وبساتين من النخيل وأشجار القطن، وتعطي في مجموعها منظراً بديعاً في غاية الروعة والجمال.

وبعد هذا الوادي تمتد الجبال على هيئة غطاء واسع ووعر من التلال السطحية، وتتجه إلى أسفل حتى حافة البحر. ويأخذ الطريق خطأً متعرجاً على هذه التلال (العقبات الجبلية). ثم عبرنا وادي ركب الذي يشق طريقه نحو البحر، واتبعنا مسار بطن شعيب سدق الضيق والمتعرج حتى وصلنا ضواحي قرية المعوس، وهي قرية صغيرة وجميلة بها مجموعة من المنازل الريفية الضخمة، والتي يمتلكها بعض تجار المكلا. وهي وسط مجموعة من الصخور البركانية والتي تمثل المشارف الخلفية لمدينة المكلا، ثم مررنا بالعديد من ضواحي الميناء، مثل: بيرين، وبها قصر ريفي واحد وحدائق نخيل، وقرية البقرين، والتي تحتوي على مصادر المياه التي تغذي مدينة المكلا عبر خط أنابيب. ثم وصلنا القصر الصيفي للسلطان في النقعة، وتحيط به حدائق جميلة فوق ربوة عالية، ثم أخيراً وصلنا إلى قرية الديس ثم قرية مروارا.

تخطينا قرية الديس ووصلنا وادي المعوس الذي يصب في مجرى وادي السغم العريض، وهو عبارة عن وادٍ وخليج صغير، وتنتشر حوله برك واسعة من ماء مالح وشبه مالح. يميل الطريق في شبه دائرة عبر جسر صناعي بالناحية الشرقية للمدينة، وهذه المنطقة تعد المتنفس الطبيعي لسكان المدينة الذين يتقاطرون نحوها، راجلين أو بالسيارات عند الأصيل حيث يقضون بعض الوقت. وعندما مررنا بالمنطقة شاهدت

العديد منهم. دخلنا المدينة قبل غروب الشمس بقليل، وفجأة توقفت السيارة بسبب سيارة أخرى كانت تسد الطريق أمامنا. لم أكن أتوقع هذا، ومع ذلك ترجلت من السيارة وكنت في حالة من التعب والإرهاق لا أحسد عليها أبداً. لقد كان حاكم المكلا داخل السيارة التي سدت علينا الطريق. وقمت بواجب التحية وكان الحاكم أكثر دهشة مني، وما كان يتوقع وجودي في هذا المكان وفي هذا الوقت بالتحديد. أعطى الحاكم تعليماته لسائق السيارة وأشار إليه بمواصلة السير، بينما بقيت أنا مع أصدقائي الجدد.

قال الحاكم: حسناً لقد استلمت من الساعي، قبل ساعة من الزمان، بريد شبام والذي يشير إلى مغادرتكم البلدة في طريق رحلة العودة إلى نجران، والآن ها أنت معنا هنا، كيف وصلت إلى هنا؟ على كلٍ مرحباً بقدمكم، ولكن لماذا لم تخطرنا حتى نكون مستعدين لاستقبالكم بما تستحقون من حفاوة وتكريم؟. سلمت الحاكم خطابات التعريف التي أحضرتها معي من شبام وتريم. ويبدو أن الحاكم لا يعرف القراءة، بدليل أنه سلم الخطابات المعنية لمرافقه والذي قرأ محتوياتها. -وكما ترى- بدأت أشرح الأمر للحاكم: «لقد غادرت شبام قبل أربعة أيام، وإن ساعيك، الذي وصل اليوم، يكون قد استغرق ستة أيام في رحلته إذا كان قد بدأها يوم مغادرتي شبام للذهاب إلى هينن التي تقع في طريق عودتي». وحدثت الحاكم عن عمود السيارة ومغامراتي اللاحقة في الطريق. وعند غروب الشمس أدينا صلاة المغرب جماعة ثم جلسنا لفترة قصيرة نتجاذب أطراف الحديث، ولقد لاحظت أن الحاكم ومرافقه يرغبان في سماع أكثر ما يمكن من الأخبار قبل الآخرين. وقد سردت عليهما قصة الرحلة بالسيارة عبر الصحراء وكيف أنه من الممكن استخدام الطريق الجديد هذا لرحلة الحج. وعند حلول الظلام انحشر ثلاثتنا بالمقعد الخلفي للسيارة المفتوحة واتجهنا نحو المكلا وعبرنا البوابة الكبيرة وسرنا على طول ميدان الاستعراض المطل على الشاطئ البحري الطويل حتى وصلنا منزلاً كبيراً في وسط السوق.

حاكم المكلا الحالي هو أحمد بن ناصر البطاطي، وهو رجل رشيق ونشط وفي خريف عمره. وهو دائم المرح ومتحدث من الطراز الأول. وكما يوحي اسمه فهو سليل بيت حاكم منذ قديم الزمان. كان الحاكم يرتدي الزي التقليدي المكون من إزار وجاكيت مع عمامة خفيفة. وهذا الزي يعطيه مظهراً مبهجاً، تعززه ملامحه الدقيقة وعفويته. ولقد عرفت ولمست الكثير عن هذا الحاكم أثناء إقامتي بالمكلا وإنني مدين له بالكثير، أقله اهتمامه الشخصي وكرمه الفياض. وبما أنني وصلت البلدة بدون سابق إنذار كاف، فقد قضيت الليلة ضيفاً على الرجل الذي كان بجانب السلطان عند الجسر، والذي قرأ له خطابات تعريفني التي أحضرتها معي، كما سبق أن أشرت إلى ذلك قبل قليل. هذا الرجل اسمه السيد سالم بن أبي بكر بن حسين، من قبيلة مضر بوادي دوعن.

إن سالماً وأخاه الأصغر حسيناً هما أصغر أفراد الأسرة التي يتزعمها حالياً شقيقهم الأكبر حامد، الذي أصبح مرافقاً دائماً للسلطان في أسفاره، وسوف يتم تعيينه كما سمعنا وزيراً عما قريب. وهذه الوظيفة كان يشغلها من قبل جده ووالده على التوالي، وتعد هذه الوظيفة من الناحية العملية منحة وراثية للمضربين. أما الشيخ حامد الأخ الأكبر والذي قابلته بعد ذلك بفترة وجيزة، فهو رجل هادئ ورزين وسريع البديهة. ومن الواضح أنه صاحب كفاءة عالية، ولديه بالتأكيد طموحات كبيرة. أما شقيقاه فإنهما يختلفان عنه في كل شيء تقريباً، في الذكاء وفي بنية الجسم، وفي خفة الروح والمرح وسرعة البديهة. كما أنهما متجهما الوجه دائماً، إلا أن كرمهما الفياض يغطي كل هذه العيوب والمآخذ.

تقع غرفة الاستقبال الرئيسة لمنزل الأخوين المذكورين -والذي دخلته الآن- بالطابق الأول في مواجهة نافورة معطلة كانت تزين الميدان أو الدوار الذي تتقاطع فيه طرق السوق الرئيسة. تؤدي إحدى هذه الطرق إلى الميناء ومكاتب الجمارك وأخيراً إلى أقدم أحياء المدينة القائم على ربوة عالية. وتنتشر حول الدوار مقاهي المدينة بطاولاتها

الصغيرة المستديرة وكراسيها، ويبدو أن أصحاب هذه المقاهي لا يتقيدون بالأوامر المحلية التي تنظم الطرق، بدليل وضع الطاولات والكراسي داخل حدود الطريق، ضارين بحرمة هذه الأماكن عرض الحائط. أما سائقي محمد باخشيم وهو من مواطني وادي دوعن بالميلاد، فقد وجد أصدقاء وأقرباء وأبناء جلدته ولم أملك إلا أن أبتسم للتناقض الواضح بينه وبين رفاقه، فهو بلباس أهل مكة الكامل وهم بشعرهم المجعد وأجسامهم العارية التي تلمع كما النحاس المصقول، ولا يستر أجسامهم غير قطعة قماش حول الخصر والحزام الذي لا فكاك منه.

امتلات غرفة استقبال سالم حتى فاضت بالزائرين، ودارت أقذاح القهوة والشاي، بينما واصل المدخنون تدخينهم بمزاج شديد. كنت جالساً بين أحمد بن ناصر وسيد آخر عرفت فيما بعد أنه قاضي المكلا، وهو الشيخ محمد باجنيد من وادي دوعن. وبدعوة منه دخلنا -هو وأنا- في مناقشة ساخنة. ومن الواضح تماماً أن الرجل كان منزعجاً من احتمال ضم حضرموت إلى الأراضي التابعة لنفوذ ابن سعود. وحاولت طمأنته بعدم النية في الإقدام على هذا الأمر، غير أنني أوضحت له بجلاء تام عدم قبولي بأن حضرموت مخلاف (مقاطعة) تتبع لليمن. واقترحت أنه إذا حصرنا المناقشة في السياق التاريخي وحده يمكن أن تقودنا إلى القول بأن فلسطين يهودية^(١) وإسبانيا عربية. ومن المؤكد أن المستمعين كانوا يؤيدون وجهة نظري بأن حضرموت دولة مستقلة الآن. وهي لا تنتمي إلى اليمن أو السعودية. وهاجمني القاضي ووصفني بأنني «رجل هزيل وجائع» يبحث عن شكوى ومظلمة، لكنه تخلى عن عداوته قبل قليل من مغادرته المجلس. وقد تقابلنا -القاضي وأنا- مرات أخرى في مناسبات عديدة وكان ودوداً معي، غير أنه لم يزرنني في مكان إقامتي كما وعد.

(١) الأدلة التاريخية لا تؤيد ما ذهب إليه فيليبي بأن السياق التاريخي يقود إلى أن فلسطين يهودية. (المراجعون).

انحصر النقاش بعد ذلك حول الموضوع الذي ظل يفرض نفسه في كل جلسة وهو طريق السيارات الجديد، والذي يعني الكثير جداً لمدينة المكلا، التي لديها مصالح كثيرة فيما يتعلق بموضوع الحج عن طريق البحر. وربما تكون فكرة استخدام حجاج وادي حضرموت الطريق البري الجديد غير مقبولة للعديد من الذين استمعوا إلى ما قلت، وكان بين الحضور رجل في منتصف العمر، ومن الواضح أنه تعرض لتجربة مريرة أثناء رحلته إلى مكة، لهذا كان أكثر الحاضرين صراحة في التعبير عن قناعته الشخصية بأن لا أحد من الحجاج الحضارمة على استعداد لاستعمال طريق السيارات البري، حتى ولو كان أقل تكلفة مالية من الطريق البحري الحالي. إن التقديرات العامة لتكلفة الرحلة البحرية من حضرموت إلى مكة وبالعكس تبلغ حوالي ٣٠٠ ريال (٢٢ جنياً إسترلينياً تقريباً) لكل حاج. وتستغرق رحلة الذهاب والإياب حوالي أسبوعين أو أكثر، أما الرحلة بالسيارة، إن كانت جيّدة التنظيم والتحضير، فإنها بالقطع سوف تحسن التدابير الحالية فيما يتعلق بالزمن والإنفاق المالي.

بدأ الحضور في مغادرة المجلس تدريجياً وكانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن الساعة قد بلغت العاشرة، وأنه قد نودي لصلاة العشاء. وضع محمد سريري على المصطبة المكشوفة لغرفة الاستقبال، وقد سعدت كثيراً كوني أويت إلى فراشي مبكراً. ومراعاة للتقاليد العربية الأصيلة، جاء سالم لينام مع ضيفه في غرفة الاستقبال تاركاً وراءه زوجته. ودغدغني صوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ الصخري ورحت في سبات عميق. كانت ليلة باردة والسماء ملبّدة بالغيوم، ولم يكن الجو رطباً ولا يوجد بعوض.

تختلف المكلا كثيراً عن جدة، والتي تكون في مثل هذا الوقت (٢٩ أغسطس) في أسوأ حالاتها: شديدة الحر، عالية الرطوبة، إضافة إلى الناموس. أما هنا في مدينة المكلا فإننا في نهاية موسم الرياح الموسمية التي تبدأ عادة في شهر يونيو من كل عام. تبلغ أدنى درجات الحرارة في هذه الأيام (٨٢) درجة، ومع ذلك، ففي أحد الأيام، ومع هبوب السموم الحارقة سجل ميزان الحرارة الذي أحمله معي (٩١) درجة

لمدة ساعة أو ساعتين، وقد يكون من الصعب جداً تخيل ظروف مناخية أكثر لطافة من هذه! لقد جرت العادة على أن تتجنب السفن الكبيرة ميناء المكلا أثناء فترة الرياح الموسمية التي تستمر ثلاثة أشهر، لكن أثناء إقامتي هنا لاحظت سفيتين كبيرتين راسيتين في الميناء، واحدة متجهة نحو الشرق، والأخرى نحو الغرب، وهذا، في حد ذاته مؤشر بنهاية موسم الأحوال الجوية السيئة.

استيقظت من النوم عند الخامسة صباحاً، لأداء صلاة الفجر، ومع ذلك لم أستطع مقاومة رغبة العودة إلى السرير لإغفاءة أخرى امتدت حوالي الساعة، استعداداً لمقابلة الزوار. وقد كانت وجبة الإفطار ممتازة وتتكون من دجاج وأرز وخبز، إضافة إلى عسل دوغن المشهور. وأحسب أنني كنت بحاجة إلى هذه الوجبة الدسمة استعداداً ليوم طويل وحافل. كان أول الزائرين هو أحمد بن ناصر، وبعده توافد الزوار من كل صوب وحذب، مثل مياه النهر المتواصلة الجريان. وفي أغلب الأحوال كان يتواجد بالغرفة ما بين عشرين إلى ثلاثين شخصاً، ولا يقل العدد عن اثني عشر رجلاً على الإطلاق. وأحسب أنه لا يوجد أحسن من هذا الوضع، أي أن أكون جالساً بجانب النافذة أتماذب أطراف الحديث مع زواري المتعطشين لمعرفة أخباري وقراءة أفكاري، بينما أسترشق النظر من وقت لآخر إلى السوق المزدهم والمكتظ بالمتسوقين أسفل النافذة. اغتنم مضيبي فرصة مغادرة الزوار وأرسل إلى أحد الحلاقين للعناية بشعر رأسي ولحيتي. كان الحلاق أفغانياً وقد ظل يزاول هذه المهنة في البحرين منذ عدة سنوات لكنه هرب منها إلى المكلا أثناء فترة حكم الميجور دالي. وبينما كان الحلاق يقص شعري الكثيف بمقص كبير، ظل يسليني بقصص تلك الأيام الصعبة.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ذهبت إلى محطة اللاسلكي الموجودة في إحدى زوايا الفناء الواسع لقصر السلطان المطل على البحر. ولما كان اليوم يوم

أحد، فقد فشل عامل التلغراف لمدة ساعتين في إيقاظ زميله بمدينة عدن المستمتع بنوم عميق في إجازة نهاية الأسبوع، ولهذا ظلت رسالتي في مكانها ولم تغادره إلا في اليوم التالي. عدت إلى منزل سالم لتناول طعام الغداء، وبعدها نمت حتى مغيب الشمس وبعد ذلك اصططحني أحمد بن ناصر وسالم في رحلة قصيرة بالسيارة إلى القصر الصيفي للسلطان في النقة، وفي الطريق إلى القصر شقت السيارة طريقها أعلى جبل مرتفع ودارت حوله بسرعة بدت وكأنها محفوفة بالمخاطر، إلا أننا وصلنا سالمين إلى حديقة القصر. ويا لها من حديقة رائعة! حيث نباتات الزينة تنمو بكثافة وغزارة، إضافة إلى أشجار القطن المزهرة وأشجار السنط والباباي والموز والجوافة، إضافة إلى تعريشة رائعة من الكرم يحيط بها حوض مربع يغذيه جدول تتدفق فيه المياه العذبة لسقاية هذه الجنة الوافرة. أحضرت السجاجيد والأبسطه من داخل المنزل وفُرشت فوق منصة بجانب الحوض، وجلسنا هناك نتجاذب أطراف الحديث بينما كان الخدم يقدمون أكواب الشاي والقهوة والفواكه. وفي طريق عودتنا للمدينة عبرت السيارة حديقة وساحة كبيرة، تحيط بها -من جوانبها الثلاثة- مبان فخمة. أما القصر المركزي والذي كان يقسم فيه السلطان الراحل عمر، فقد وُضع تحت تصرفي الكامل طيلة بقية فترة إقامتي بالمكان.

لقد أتاحت لي الإقامة في هذا القصر المزيد من الحرية والخصوصية الشخصية، بالمقارنة مع ما كان متاحاً في وسط المدينة. لا يبعد القصر كثيراً عن المدينة، ولهذا فإن الزوار الذين يرغبون في زيارتي كانوا يحضرون بدون مشقة أو عناء، ومع ذلك فإنه يعد بعيداً عن مراكز النشاط الرئيسة الأخرى مما لم يُتَح للمشاركين في هذه الأنشطة زيارة القصر أثناء فترات الاستراحة التي لا تزيد عن نصف ساعة، على أحسن الفروض. وعلى كل حال فقد كان مجلسي عامراً أغلب فترات الصباح وما بعد الظهر، وكان أحمد بن سعيد يزورني يوماً للاطمئنان علي، وكان يصحبني في

بعض الأحيان في سيارته . وكان يقوم بخدمتي والسهر على راحتي أحد خدم السلطان الأوفياء ، وهو عجوز وقوي ونشط ومنضبط للغاية واسمه عبد القادر ، وكان قد خدم ما لا يقل عن أربعة سلاطين متتالين . لقد وُلد عبد القادر في خدمة السلطان عوض بحيدر آباد لوالدين تمتد جذورهما إلى شبام ، وهو حالياً الحارس المؤمن لجميع القصور القديمة التي ينزل بها ضيوف السلطان .

كانت وجبات طعامي تجلب من المطبخ الأميري (السلطاني) مرتين في اليوم ، والأسلوب المتبع في الطبخ هو النمط الهندي . وتتكون كل وجبة من الكاري والمخللات التي تطبخ بطرق وأشكال متعددة . كان مجلسي المفضل أثناء ساعات النهار بالطابق الأول ، وهو مكوّن من عدة غرف واسعة . وكنت أستقبل ضيوفي في هذه الغرف . أما بعد مغيب الشمس فإنني أصعد إلى الطابق العلوي المكوّن من عدة غرف صغيرة المساحة ، كنت آوي إليها عند هطول الأمطار . كما توجد أيضاً حمامات ، ويتوفر كميات من الأسرة والكراسي والمناضد عند الضرورة ، غير أنني كنت أفضل اقتراش الأرض للنوم وعند تناول الطعام .

يطل سطح المنزل الذي أقيم فيه على أحد المناظر الخلابة لمدينة المكلا ، ولقد تم بناء القصور القديمة الثلاثة بالقرب من بعضها على فناء رحب بالقرب من السور الغربي للمدينة ، وإذا اتجهت بنظري نحو البحر ، فإن القصر الذي يقع على يميني يلامس السور الغربي ، وكان السلطان غالب يقيم في هذا القصر ، وذلك قبل أن يأمر ببناء القصر الآخر الواقع على ساحل البحر . ويقع في الجهة المواجهة لقصر غالب ، القصر الذي كان يقيم فيه والده عوض ، وهذا القصر يبدو في حالة متردية ، مع أنني لاحظت حركة دائبة لترميمه وإصلاحه . وبين هذين القصرين ، وعلى الناحية الشمالية للميدان ، يوجد قصر عمر ، وهو القصر الذي أقيم فيه حالياً . أما جانب الميدان المواجه للبحر فتوجد فيه حديقة رائعة الجمال تتكون من أشجار جوز الهند وأشجار

أخرى باسقة. وقد أُلقيت نظرة من أعلى هذه الحديقة على قصر السلطان، والحديقة والميدان والتي تشغل كل الحيز الممتد بين الشارع الرئيس والبحر من الناحية الغربية للمدينة. ويكوّن القصر وملحقاته منظراً جذاباً من المباني بسيطة التصميم. وأجمل هذه القصور بدون منازع، هو القصر الحالي للسلطان، الذي تمّ تشييده منذ ثلاثين سنة، "في مواجهة زبد البحار المحفوفة بالمخاطر". أما أمواج البحر فلإنها تنكسر دائماً على حيطان القصر الصخرية وترسل رذاذاً عالياً ليرتطم على واجهات النوافذ، بينما تعصف الرياح عبر دهاليز وعمرات القصر. ويقع أقدم قصور مدينة المكلا -والذي كان يقيم به السلطان عوض أول سلطان قعيطي- في الجزء القديم من المدينة فوق قمة الجبل بجانب المرفأ. ومن الواضح أن فترة بنائه سبقت بكثير بناء القصور الأخرى. لقد شيّد هذا القصر ليكون سكناً للسلطان وقصراً للحكم وإدارة شؤون الرعية، وتبدو عليه سيماء الفخامة والأبهة، غير أنه بحاجة ماسة إلى الترميم والإصلاح. لقد سبق أن أشرت إلى قصر السلطان الصيفي في النقعة، وهناك قصر ريفي آخر على بعد ميل أو ميلين من الجهة الشرقية للمدينة تحت القمة التي تخللها سلسلة جبال القارة، ذات المناظر الطبيعية الخلابة، والتي تمتد حتى حافة البحر. وهناك قرية مهجورة اسمها خلف تقع على طريق الساحل في منتصف المسافة بين القصر والمدينة.

كان الليل عاصفاً بعض الشيء، وقد نزلت زخات متقطعة من المطر، لدرجة أنني فكرت أن أدخل إلى غرفتي، غير أنني بقيت بالسطح حتى بزوغ الفجر، ولم يكدر صفو البحر إلا مويجات صغيرات ترتطم باسترخاء شديد على الساحل. وما إن ارتديت ملابسني وتناولت طعام الإفطار، حتى أعلن عن حضور بعض الضيوف وكان بينهم صالح بن محمد بن صالح، وهو ابن أخ علي بن صالح من شبام، مع إن الاثنين في نفس السن تقريباً. وكان والده -الأكبر من علي بحوالي عشر سنوات- سلطاناً في شبام حتى وفاته بمكة أثناء موسم حج ١٩٣٢م. وقد خلف علي شقيقه في

الحكم. ويبدو أن هذا الأمر لم يعجب صالحاً، وحقيقة الأمر أن الأخير لا يخفي كراهيته وحقده على عمه، ولهذا السبب اختار السكنى في قصر السلطان عمر منذ وفاة والده. وقد قام صالح قبل حوالي ستة أو سبعة أشهر من زيارتي هذه، برحلة إلى حيدر آباد، حيث كان السلطان عمر راقداً على فراش الموت. وبعد وفاة السلطان عمر اصطحب صالح السلطان الجديد -واسمه هو الآخر صالح- إلى المكلا. كان صالح ممتلئ الجسم ويوحى مظهره بالحزن والغضب، وكان يفتقر إلى أي من مزايا عمه الجميلة. ولم أشجعه على الحديث المكرر والممل عن مرارته الشخصية تجاه عمه؛ أما رفيقه السيد محمد بن عبدالله الحبشي، فقد كان يشغل وظيفة صغيرة ضمن سكرتارية السلطان، وكان يعيش معظم عمره في مدينة أديس أبابا، إلا أنه غادر الحبشة خوفاً من الغزو الإيطالي. وقد علمت أنه كان يشتغل بالتجارة أثناء إقامته هناك.

وبعد مغادرة هؤلاء الزوار، وصل أحمد بن ناصر وكان في حالة هياج وعجلة شديدة من أمره، وخاطبني قائلاً: «ها استعد لقد وصل السلطان»، وكان المركب واسمه (الحق)، والذي يزور ميناء جدة من وقت لآخر، يقترب من المرفأ. لم أستغرق كثيراً من الوقت في الاستعداد لرحلة المرفأ، وانطلقت بنا السيارة في سرعة رهيبة وسط أكوام البشر المنتشرة بالسوق، وشكراً لبوق السيارة العالي الذي أراح هذه الكتل البشرية عن طريق السيارة المسرعة. ولا أبالغ إن قلت إنني أمقت هذا النوع من التهور في القيادة، وهو أمر شائع اشتهر أهله باللطف والاحترام! وإذا كان الإغريق يكرهون أبناءهم الرياضيين فلإن لسكان الجزيرة العربية من الأسباب ما يدفعهم للتعنت سرعة وتسابق سائقي السيارات.

على العموم وصلنا إلى بوابة الجمارك وواصلنا سيرنا نحو المرفأ ووجدنا أماناً حشداً من البشر حضروا لتحية واستقبال سلطانهم العائد من أسفاره الخارجية، وكان الجيش المحلي يقف في تشكيلة عسكرية تمثل ثلاثة أضلاع مربع أمام الباخرة. وكان عدد الجنود المشتركين في هذا الاستعراض العسكري حوالي ثلاث مئة وأربعين جندياً.

نصفهم من قبائل يافع وهم من عشيرة السلطان نفسها، وقد تم تدريبهم على يد العقيد ليك ومجموعة أخرى من الضباط الإنجليز بحماية عدن أو الفرقة اليمنية والتي تم تسريحها. كان الجنود يرتدون قمصاناً وأردية من الكاكي، ومن الواضح أنهم نالوا تدريباً مكثفاً على فهم واستيعاب معاني الأوامر التي يصدرها لهم ضباطهم الإنجليز باللغة الإنجليزية. أما النصف الآخر من القوة العسكرية الاستعراضية فهم خدم السلطان بملابسهم الحمراء والزرقاء وشعرهم المصفر والمتوهج، وهناك فرقة إسناد أخرى مكونة من الطلاب العسكريين تحت التدريب وكلهم من طبقة العبيد، غير أنهم كانوا يرتدون قمصاناً وأردية من الكاكي مثل لباس الجنود من قبيلة يافع. ويكتمل الاستعراض العسكري بفرقة الموسيقى التي أتيح لنا سماع ألحانها مراراً وتكراراً أثناء إجراء تمارينهم وتدريباتهم في ساحات القصور القديمة.

وبعد قليل من وصولنا، وصل القارب السلطاني وعليه عبيد أقوياء يرتدون زيّاً موحداً ويجدّفون بقوة ومهارة. وكانت أمواج البحر عالية إلا أنهم قهروها بقوتهم وخبرتهم الطويلة. نزل السلطان من المركب وكان أحمد بن ناصر أول المستقبلين، وبعد ذلك تقدمت أنا للسلام. كانت ملامح وجه السلطان محايدة تماماً، فلم تُظهر استغراباً أو فرحاً أو عدم رضا. أمرت الجماهير المحتشدة بإفساح الطريق للسلطان وابنه عوض الذي يبلغ عمره ستة عشر عاماً. سار الموكب السلطاني إلى ميدان الاستعراض الذي يطوقه الجنود وعزفت الفرقة الموسيقية لحن «ليحفظ الله الملك»، ووقف سموه الكريم لتلقي التحية العسكرية، ثم أطلقت المدفعية نيرانها تحية للسلطان بينما استقل السلطان وابنه، يصحبهم أحمد بن ناصر، السيارة الملكية التي انطلقت بهم نحو القصر. وقد عرض عليّ صالح بن حزيق، الذي زارني صباح اليوم بمقر إقامتي، أن يصطحبني معه في سيارته إلى القصر. نزلت من السيارة عند البوابة ومشيت راجلاً إلى غرفتي وقد أخبرت صالحاً بأنني لن أتمكن من زيارة السلطان إلا بأمره، ولهذا بقيت بالغرفة وحدي أستمع إلى الجنود العائدين إلى ثكناتهم بعد انتهاء الاستعراض العسكري، وهم يعزفون

ألحاناً عسكرية جميلة. والجدير بالذكر أن الاستعراض العسكري كان ناجحاً بكل المقاييس، ومع ذلك ما زلت أسأل نفسي عما إذا كان مفهوم مواطني المكلا للحضارة والتقدم هو المفهوم الصحيح والمناسب لدولة عربية.

وبينما كنت أتأمل وأفكر في مثل هذه القضايا والمشاكل دخل عليّ مبعوث السلطان يطلب مقابلي بالقصر، وقد استقبلني السلطان بحفاوة، وبالرغم من تمنعي واحتجاجي أصر عليّ أن أشاركه الجلوس على عرشه، وهو عبارة عن أريكة كبيرة ومريحة. وكان في مجلس السلطان بعض من مرافقيه في رحلة الباخرة (الحق)، وهم تحديداً: الإخوان الثلاثة من عائلة آل الكاف، وأربعة من أعضاء البعثة العلمية المصرية، والتي قضت بضعة أشهر في اليمن، وهي الآن في رحلة قصيرة إلى وادي حضرموت. وبعد أن سلمت على الجميع بدأنا نتجاذب أطراف الحديث وتطرقنا إلى شبة والطريق البري بالسيارات، وقد كان مجلساً عامراً. انفض سامرنا وتركنا سموه لمقابلة أفراد أسرته، وفي تمام الساعة الخامسة مساءً دُعيت لتناول الشاي بالقصر، وهي مناسبة لتبادل الأحاديث الخصوصية، وفي حقيقة الأمر فإن السلطان لا يتحدث كثيراً ولا يخلو من انعدام الشفافية والعاطفة والحميمية، ومع ذلك فقد كان انطباعي عنه أنه ودود وحريص على القيام بواجباته تجاه رعاياه، وكان شغوفاً لسماع أخبار ابن سعود وما يجري داخل الجزيرة العربية. أما من جانبه فليس للسلطان الكثير ليقوله عن أسفاره، كما أنه لم يتطرق أبداً خلال المناسبات التي جمعتنا سوياً إلى مناقشة أي موضوع حساس أو شائك، ذلك أنه مدرك تماماً لموقف سلطات عدن تجاهي، ولكنه لم يشر أبداً إلى أنه يعرف هذا الأمر، وفي حقيقة الأمر فإن الوضع غير مستقر وغير مريح مع اعتبار عدن المجاور. لقد اعتلى الرجل العرش بعد أن تقدمت به السن، وكان يحمل معه كل أوجه القصور التقليدية لتجارب السيادة الهندية ومع ذلك فقد أدهشني كإنسان يفضل عناء التفكير لنفسه بالرغم من حذره في التعبير شفاهة عن

أفكاره. ولقد واجه منذ البداية مشكلة لم تواجه السلاطين الذين سبقوه، ولا يملك المرء إلا أن يتمنى له كل خير فيما هو قادم عليه، وأن يتمكن من أن يؤدي دوره في المحافظة على استقلال بلاده في مواجهة الضغوط المتواصلة لعالم أصبح بحق وحقيقة عالماً مجنوناً.

لقد حدثني أحد موظفي السلطان بصراحة شديدة بأن عرب حضرموت ليسوا مؤهلين للاستقلال ولا يرغبون حتى فيه، وهم راضون وقانونون باعتمادهم على الحماية البريطانية، إضافة إلى أنهم سيكونون أكثر سعادة لتعاون ابن سعود إذا تمكن الأخير من تبرير الأمر بحصافة ولباقة مع البريطانيين. ثم واصل محدثي قوله بأن هناك انطباعاً عاماً بأن سادة آل الكاف يعادون ابن سعود إلا أن هذا الانطباع بعيد جداً عن الواقع، ذلك أن عرب حضرموت، من بين جميع الشعوب، سيكسبون كثيراً من تدخل ابن سعود لإحلال السلام والأمن بدلاً عن الفوضى وعدم الاستقرار، ومن هذا المنطلق فلا توجد عداوة بين الفريقين. والاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من هذه الملاحظات العامة واضح تماماً: أنهم -أي عرب حضرموت- يدركون تماماً أن ابن سعود قد فرض السلام والأمن على المملكة العربية السعودية وهم يرغبون في إحلال هذا السلام على ربوع بلادهم، وأن الحماية البريطانية لم تتمكن في الماضي ولن تستطيع مستقبلاً معالجة المشاكل الناتجة عن الفوضى وعدم استتباب الحكم. كما قد سألتني موظف يحتل وظيفة مرموقة بصراحة تامة ما إذا كان في مقدور ابن سعود إرسال كتيبة أو تجريدة صغيرة من الجنود السعوديين في حدود مئتي رجل لفرض الأمن والسلام في حضرموت، وواصل المسؤول الكبير قوله بأن حكومة السلطان سوف تتحمل جميع نفقات هذه الكتيبة. أجبت الرجل قائلاً: «نعم لكن ماذا سيكون موقف أصدقائكم في عدن جبال هذا الأمر؟». ضحك الرجل؛ وكلانا يدرك الصعوبات التي تحول دون تحقيق هذا الرجا. إن الحكومة البريطانية لا تستطيع بسط الأمن والسلام

في ربوع حضرموت، أما ابن سعود فهو الوحيد القادر على ذلك بدون أي شك. هل يقوم البريطانيون بدعوة ابن سعود ليؤدي هذا الدور؟ أبداً!.

وفي طريق عودتي إلى مقر إقامتي بعد حفل الشاي الذي دعاني له السلطان قمت بزيارة مفيدة إلى الإخوان آل الكاف والبعثة المصرية، وكانوا يقيمون في قصر غالب، ولما كانت فترة إقامتهم بالمكان قصيرة جداً فقد كان لي شرف مقابلتهم جميعاً مرة أخرى في تريم. لقد قام المصريون بزيارة عدد من المواقع الأثرية الهامة في اليمن مثل: ناعط، وعُمران، وحَجَّة، وخَرِيد، غير أن صاحب الجلالة الإمام قد وضع بعض العقبات أمام زيارتهم المقررة إلى مأرب والجوف، بحجة عدم الاستقرار والأمن السائدين في تلك المناطق. لقد أذن ابن سعود للبعثة المصرية بزيارة نجران وعندما كنت هناك خلال شهو يوليو كان الحاكم يتوقع وصولهم في أية لحظة، ويبدو -مع ذلك- أن الإمام لا يرغب في تقديم التسهيلات اللازمة والضرورية للرحلة عبر تخومهم الشمالية، ولهذا لم تتمكن البعثة المصرية من زيارة نجران مما أضاع فرصة نادرة لوضع خريطة للمنطقة الجنوبية والتي لم يسبق أن وضعت لها خريطة من قبل. وبعد إجراء ما هو ممكن ضمن الحدود والتخوم التي تمكنوا من زيارتها، واصل أعضاء البعثة رحلتهم إلى عدن وقابلوا السلطان وسادة آل الكاف الذين أقنعوهم بالقيام بزيارة ولو قصيرة إلى بلادهم. كانت البعثة العلمية المصرية تتكون من: رئيس البعثة، سليمان حزين (علم الأجناس، الآثار والجغرافيا)؛ م. توفيق (علم النبات وعلم الحشرات)؛ ن. شكري (الجيولوجيا)، إضافة إلى خليل نامي (دراسة النقوش)، وكانت هذه أكبر بعثة علمية تزور الجزيرة العربية منذ رحلة كارستين نيبور في القرن الثامن عشر، وسيكون الجميع في انتظار تقرير هذه البعثة، خاصة وأن السيد حزيناً قادر على القيام بعمل مقدر في مجال فرع الأنثروبولوجيا الذي يبحث في قياس الجسم البشري. وبهذه المناسبة فقد أخبرنا في اليمن كما أخبر من قبلنا الدكتور راثيانز عالم الآثار

الآلماني، بأن الخرتيت يعيش في بلاد أرحب، وقد أكدّ للدكتور راينايز أيضاً بأن الزراف يعيش في المنطقة نفسها. وكلتا الروايتين مشكوك في صحتها ولا يوجد في واقع الأمر مصدر إثبات موثوق يكون قد رأى بعينه أيّاً من هذه الحيوانات في أي موقع في الجزيرة العربية.

إن الحياة في المكلا ليست مثيرة وهي تختلف قليلاً (عدا في المناخ) عن الموانئ الأخرى الواقعة على البحر الأحمر والخليج العربي، فيما عدا أن سكان المنطقة ما زالوا متمسكين بتقاليد ونمط حياة أهل الشرق، فلا توجد بالمكلا مسارح أو دور سينما، ولم يهتم أحد من المسؤولين بإيجاد أماكن لهو وترفيه لجماهير المدينة، عدا الفرقة الموسيقية التابعة للسلطان. وفي حقيقة الأمر فإن السكون التام يخيم على المدينة وأهلها بعد مغيب الشمس.

ولقد اعتاد الجميع الخروج من منازلهم عند الأصيل، فرادى أو جماعات، راجلين أو بالسيارات للترفيه عن أنفسهم. يفصل مجرى سغم بين المكلا وضاحية شاري التي تتميز بمنازلها الكثيبة والموحشة والمصنوعة من القش أو أغصان الشجر. ومع ذلك يوجد القليل من البنايات الكبيرة، إضافة إلى المسجد، وهذه تعد مباني حديثة بالمقارنة مع المباني الأخرى. لقد أقيمت هذه الضاحية فوق منطقة مرتفعة بعض الشيء تبعد حوالي ميل عن البحر، ويقف من خلفها حزام كثيف من كثبان الرمال البيضاء كما الثلج، وتفصل هذه الكثبان الرملية الضاحية من الصخور السوداء للسلسلة الساحلية. أما السهل الرملي الذي يقع أمام الضاحية فقد تمّ تخصيصه كمحطة أو موقف للقوافل. ولهذا تجدها دائماً مكتظة بالجمال والحمير والبشر في حركتهم الدائبة بين المدينة ومناطقهم الريفية. وتفوح روائح السمك المجفف وروث الجمال من هذه المنطقة، بينما يلعب شباب المدينة كرة القدم في معظم فترات ما بعد الظهر على طول شاطئ وادي سغم حسب لوائح الاتحاد. ويوفر الشاطئ الممتد جهة

الغرب حيث تتلاطم أمواج البحر بهدوء وتؤدة على خط الماء البلوري، وتتسارع القشريات المائية في طريقها نحو جحورها عند سماع خطوات المارة والمتسكعين على الشاطئ، ويوفر هذا الشاطئ البلوري الجميل مجالاً رحباً للترفيه عن النفس وترجية الفراغ، ولا يعكر صفو المكان إلا أصوات السيارات المسرعة المتجهة نحو منطقة فوه، حيث يوجد المطار الجديد. وتوجد أيضاً صخور مسطحة تمتد على طول الشاطئ، نصفها مغمور في الماء ويتخللها العديد من البرك الضحلة. وفي هذا المكان -محددًا- تتجمع نساء ضاحية شاري، وبعض البدويات الأخريات لأجل الاستحمام والنظافة والغسيل، وذلك بعد نهاية عمل يوم طويل استعداداً لصلاة المغرب والتي يؤديها على ساحل البحر. وكن في أغلب الأحيان يستحممن بكامل ملابسهن وفي هذا فائدة مزدوجة: تنظيف الأجسام والملابس. وقد كنت أتمشى إلى مسافات بعيدة على طول هذا الساحل الهادئ الجميل ثم أخرج على كثبان الرمال البيضاء العالية، وأجلس هناك حتى المغيب متأملاً بعض الحيوانات المائية الصغيرة وهي تصعد المنحدرات المنزلة، وترفع هذه الحيوانات رأسها من وقت لآخر مما يتسبب في دحرجتها مرة أخرى نحو القاع، إلا أنها تعاود الصعود بجد لا يكل وعزيمة لا تلين. تُرى ماذا تعمل هذه الحيوانات المائية الصغيرة فوق هذه القمم الرملية، عدا الاستمتاع بالهواء العليل؟! هذا سؤال لم أتمكن من الإجابة عنه أبداً، ومع ذلك فإن الرحلات الاستكشافية لهذه الحيوانات الصغيرة تترك وراءها لوحات سريرية فوق الرمال. وكنت أسلي نفسي بخلع المحارة أو الماوى المتحرك لأي من هذه الحيوانات المائية ومراقبة محاولاتها المستميتة للعودة إلى دارها أو محارتها. وأية محارة بحجم ملائم يمكن أن تفي بالغرض على أكمل وجه، وتزداد المنافسة حدة وتشويقاً إذا تركت محارة واحدة لاثنتين من الحيوانات منزوعة المحارة!

أقام السلطان -مساء اليوم الثاني لعودته من الخارج- حفل عشاء بالقصر حضره جمع غفير من كبار موظفيه، إضافة إلى سادة آل الكاف وأعضاء البعثة العلمية

المصرية وكاتب هذه السطور. كان الحفل عبارة عن مناسبة اجتماعية غير رسمية، وكان الطعام رائعاً، وقد تم تقديمه بالطريقة الأوروبية، وكان الحديث فائراً بعض الشيء احتراماً ومراعاة لصمت السلطان وميله الطبيعي للسكوت وقوبلت محاولات المتكررة لجذب ابنه عوض للحديث والحوار بردود فعل لا تتجاوز الكلمة الواحدة، مما يعني -بطريقة أو بأخرى- عدم رغبة الابن -كوالده تماماً- في الحديث والثرثرة. وفي اليوم التالي غادرت البعثة المصرية المكلا في طريقها إلى تريم، وكان في صحبتهم سادة آل الكاف. وقد تركت وحيداً.

ذهبت ذات ليلة لجلسة استماع إلى الراديو في منزل يوسف شريف، الوكيل المحلي لشركة بيسي، كما قمت أيضاً بزيارة أو زيارتين لمنزل المحضر الذي كان دائم الحركة والنشاط بعودة السيد حامد، وأعترف أن الحياة الاجتماعية في المكلا لا تخلو من الفتور والركود، كما لو أن أي شخص يخاف أن يسمعه وهو يقول شيئاً مفيداً يستحق أن يُسمع. ولا شك في أن موقف عدن خلق قناعة لدى الجميع بأن الصمت أكثر أماناً من الحديث. وفي الحقيقة ليست لدي أية رغبة لإطالة إقامتي في المكلا، إلا أنني مضطر لانتظار المركب القادم من عدن لاستلام قطع الغيار المطلوبة، وليس في مقدوري بالطبع استعجال قدوم المركب.

وقد كان لوصول الباخرة ذات المدخنة الزرقاء، واسمها بوليفيمس، القادمة من جزر الهند الغربية، دور في كسر الرتابة والوحدة التي انتابني خلال الأيام القليلة الماضية، كما أنني كنت بحاجة ماسة إلى التبغ وبعض الضروريات الأخرى، لهذا انتهزت هذه الفرصة لقضاء الفترة الصباحية بالبحر فوق سطح المركب. كان القبطان الكابتن بروير، الذي امتدت سنوات خدمته في البحر إلى اثنتين وأربعين سنة، من المؤمنين بالروتين والتنظيم، وما لفت نظري حقيقة هو البرنامج الصارم الذي يطبقه الرجل على نفسه، والذي لا يتحمله إلا الأنبياء والمتدينون، فهو لا يدخن ولا يشرب الخمر، وقد حرم على نفسه كل أنواع السلوك غير السوي، إضافة إلى أنه يتناول

== الفصل التاسع ==

وجبات طعامه في مواعيد محددة بدقة شديدة، كما أن مواعيد قيامه ونومه محددة. إضافة إلى التفتيش اليومي للسفينة. وفوق هذا وذاك يقطع كابتن بروير ساعة كاملة من برنامجهِ اليومي لمزاولة هواية التجارة والتي أثمرت عن صنع اثاثات بديعة لمنزله في هولندا، كما أنه يقطع ساعة كاملة أخرى في كتابة جزء من خطابه لزوجته العزيزة، ولا أشك مطلقاً في أن الرجل قد وصل لقناعة تامة بأنه وجد الإجابة الشافية للغز حياته. وأحسب أنه يمكن تقرير هذا الأمر بالنسبة للكابتن -غير أنه- وأنا في طريقي داخل المركب نحو الساحل أشعر بسعادة بالغة بأنني لم أتوصل إلى هذه الإجابة الشافية بعد.

وبخلاف الوضع في الشحر، فإن إدارة الجمارك في المكلا تديرها وكالة حكومية، وقيمة الرسوم الجمركية هنا ثابتة وتبلغ ٨٪ مع رسوم إضافية على السكر وبعض المتعجات الأخرى. وتبلغ رسوم التبغ ١٧ ريالاً على حمولة ٣٠٠ طن من التبغ، وتتفاوت القيمة وفقاً لأسعار السوق، ما بين ٥٠-١٠٠ ريال، ولم أتحقق من مجموع متحصلات الضرائب السنوية، غير أنه بالتأكيد يفوق ثلاث أو أربع مرات مقدار الربط السنوي لمدينة الشحر. ولا يختلف اثنان أن المصروفات المترتبة على جيش يتراوح بين أربع مئة وخمس مئة جندي تستنزف نسبة كبيرة من دخل الدولة، كما أن هناك التزامات مالية أخرى تصرف على المدارس المحلية والمستشفى، وفيما عدا هذه البنود فيبدو أن القائمة المدنية والخدمة العامة يمثلان أوجه الصرف المهمة. وللسلطان -بالطبع- أملاكه الخاصة التي تدر عليه دخلاً سنوياً خاصة في غيل باوزير.

يبلغ عدد السكان المنحدرين من أصل هندي في المكلا حوالي ٢٠٠ نسمة، ومن أهمهم: يوسف شريف، وكيل شركة بيسي، وكان موظفاً سابقاً في خدمة الدولة؛ وحسين جعفر وكيل مؤسسة كواسجي دنشاو في عدن ومدير مؤسسة قوجراتي العريقة، والتي يمتلكها عبد الله بهوي لالجي.

وقد قضيت صباحاً جميلاً فوق السفينة «بوليفيمس»، وقمت بجمع مجموعة

كبيرة من المطبوعات الهامشية اليومية التي صدرت حديثاً، مثل: العدد الأسبوعي لجريدة ديلي ميرور مما مكنتني من الإحاطة -ولو جزئياً- بمجريات الأحداث العالمية. زارني -في عصر أحد الأيام- أحمد بن ناصر واصطحبني معه في سيارته إلى القصر الصيفي في النقة، حيث سبقنا إليه السلطان وابنه، وفي مساء اليوم التالي تناولت طعام العشاء -مرة أخرى- مع السلطان، كان عشاء عائلياً هادئاً. وكانت سعادتني لا توصف عندما لمحت في الساعات الأولى من صباح يوم ١٠ سبتمبر نقطة صغيرة في عرض البحر، وخيط رفيع من الدخان المتصاعد، وهذا يعني وصول السفينة. وعند منتصف النهار وصلت السفينة ومعها قطع الغيار والأفلام والمال.

وعند الساعة الثالثة من عصر اليوم نفسه، وبعد تناول الغداء في قصر عمر، ذهبت إلى السلطان لوداعه وقد أصرّ على قطع نومه ما بعد الظهر لاستقبالي، وبعد أن شكرت أحمد بن ناصر على كرمه وعطفه اتخذت موقعي في السيارة وخرجنا من المكلا. وما أسفت على شيء قدر أسفي على عدم تمكني من رد إحسان وعطف وكرم أهلها الفياض.

لقد هطلت أمطار غزيرة منذ رحلتي الأخيرة على هذا الطريق، كما أن أودية البویش والشحير أعاقت تقدمنا، ومع ذلك وعند الساعة الخامسة مساء كنا قد قطعنا مسافة ٣٣ ميلاً ووصلنا إلى مدينة الغيل حيث سنقضي الليلة فيها نزولاً على رغبة وإلحاح سيد أحمد الحدادي، الذي زارني بالمكلا وأصر على رد الزيارة. لقد سبق أن سمعت عن جمال وفخامة حدائق السلطان بمنطقة الغيل، غير أنني ما كنت أتصورها بهذا البهاء والجمال أبداً، وأستطيع أن أؤكد بأنني لم أر أجمل منها على الإطلاق في الجزيرة العربية كلها. سارت السيارة وسط شارع تحيط به أشجار جوز الهند، وغابة من أشجار الزينة الأخرى، ويتوسط هذه الغابة الخضراء حوض ماء مستطيل الشكل وبجانبه يقوم بيت السلطان الذي يتكوّن من طابقين مع شرفاته المواجهة لحمام السباحة.

لم تتمكن من إخطار مضيفنا بقدومنا مسبقاً، إلا أن حارس المنزل بعد أن فتح لنا الباب وأدخل أمتعتنا وأغراضنا، توجه فوراً إلى صاحب الدار لإخطاره بوصولنا، وفي هذه الأثناء كان أمامي حوالي نصف الساعة لكي ألقى نظرة عامة على الحديقة. لقد أثار انتباهي وعجبي تعدد أشجار الفواكه في حديقة عربية: النخيل، وأشجار جوز الهند، وأشجار التين، والموز، والباباي، والسفرجل الهندي، والجوافة، والليمون، والرمان والكرم وربما تكون هناك أنواع أخرى لم ألاحظها.

أما أشجار الزينة، بالرغم من أنه لا يوجد ما يضاهي شجرة جوز الهند جمالاً وبهاءً، فقد كانت تشكل جداراً عالياً يحيط بثلاثة جوانب من حوض السباحة، وتشمل نباتات الزينة هذه: أشجار القطن، والنيم، والتمر هندي. وقد لاحظت أن هناك بعض المحاصيل المزروعة مثل: الفلفل، والدخن، وأصابع السيدة (البامية)، وخضراوات أخرى عديدة. وفي واقع الأمر فإن هذه الحديقة رائعة بكل المقاييس، إضافة إلى أنها أصبحت جنة وملأذاً للعديد من أنواع الطيور الجميلة مثل: الحمام الأخضر، والبلابل، والطيور الحمراء المغردة، وطيور الماء، إضافة إلى الأعشاب المتدلية من سقف جوز الهند الذي يشبه المروحة.

وصل القائم مقام ولحقت به عند الشرفة حيث وضع الخدم كميات كبيرة من الفواكه: أولاً حليب ثمرتين من ثمار جوز الهند، ثم التين، والرمان والباباي. يمكن وصف سيد أحمد بأنه يميل إلى الوحدة، وهو يعيش في عزلة تامة بمنزله الحكومية المحلية المخصص له والذي يشبه البرج المحصن. لقد توفيت زوجته منذ خمس سنوات، ويتلقى ابنه الوحيد تعليمه في حيدر آباد. والرجل كريم بكل المقاييس وطيب المعشر والصحبة. وبعد قليل وصل بعض الأعيان وأغلبهم من أصل يافعي. جلسنا جميعاً نتجاذب أطراف الحديث حول الموضوع الذي يشغل الجميع، ألا وهو التبغ، حيث عبروا عن بالغ أسفهم لتدني أسعاره خلال السنوات القليلة الماضية، وعلمت أن

هذا الوقت هو ميعاد نثر البذور في الأرض وتجهيز النباتات لغرسها فيما بعد. أما موسم الحصاد فهو في شهر ديسمبر من كل عام. وكان المزارعون، في الزمان الفائت، يعملون بنظام الدوريتين في العام، أي يزرعون ثم يحصدون، ثم يزرعون مرة أخرى، غير أنهم اكتفوا بدورة واحدة نظراً لارتفاع التكلفة المالية.

وحدة وزن التبغ هي الفرسلة، وهي تساوي عشرين رطلاً إنجليزياً، وتبلغ حمولة الجمل الواحد عشر فرسلات، أي مئتي رطل. وتبلغ قيمة أجود الأنواع من هذه الحمولة في عدن، بعد خصم أجرة الترحيل بالجمال والباقرة، وكذلك الضرائب المحلية، إضافة إلى رسوم عدن حوالي ٢٣٠ ريالاً، بمعدل ثلاثة وثلاثين ريالاً لكل «مند»، (وحدة وزن هندية)، يزن ٢٨ رطلاً. أما في الوقت الحاضر فقد انخفضت أسعار التبغ إلى ١٣ ريالاً لكل مند، وتبلغ قيمة حمولة الجمل الواحد (عشر فرسلات) ٩٠ ريالاً فقط. وكما سبق فإن هذه الأسعار تمثل أسعار أجود أنواع التبغ المتوفرة في الأسواق والمعروض منها قليل جداً، أما الدرجات الأخرى (الدرجة الثالثة للتبناك أو الورق عالي الجودة، والثالثة الأخرى للورق الأردأ والساق) فإن أسعارها متدنية جداً بالمقارنة مع السعر المذكور أعلاه. تعتمد بساتين وحدائق الغيل على الري الانسيابي من مياه الينابيع، إضافة إلى أنها تتمتع بمناخ مداري رائع. والأمطار هنا ليست منتظمة الهطول وقد يمر عام كامل دون أمطار. إن أهل الغيل فقراء وتنقصهم المبادرة والاجتهاد، ولا شيء يهمهم غير التبغ. وما يؤسف له عدم إدراكهم واستيعابهم لمغزى وجود هذه البساتين السلطانية، وما يمكن أن تمثله لهم من سوابق وتجارب يمكن أن يطبقوها بأنفسهم ولمصلحتهم الذاتية.

تتكوّن حامية الغيل من ٢٥٠ فرداً من القوات القبلية، وليس بينهم جنود نظاميون، وجميعهم من عشيرة اليافعي، ولا يوجد بينهم أي عنصر من العبيد. ولقد لاحظت في المناطق الأكثر استقراراً وجود القليل من ممارسات تجارة الرق إن لم أقل انعدامها تماماً، وما أن هؤلاء العبيد من الممالك إلا أنهم يعدون في عداد المنقولات

بالنسبة لأسيادهم. أما في المناطق القبلية فهناك ممارسات واضحة لتجارة الرقيق، وقد أخبرني السيد أحمد أنه قضى عشر سنوات من حياته في جاوة حيث كان يعمل مقاولاً في مجال مواد البناء المتعلقة بتشييد حصن كانت الحكومة الهولندية تقوم بإنشائه، وبعد ذلك نُفي خمس سنوات أخرى في حيدر آباد وبعدها أي قبل ستة أشهر فقط، وصل إلى المكلا مع السلطان. وأضاف الرجل قائلاً أن تعيينه في الغيل يعد أول وظيفة حكومية يشغلها، لكنه نقل إلى وظيفة أخرى في سكرتارية المكلا تحت "النظام الجديد" وأن خلفه الأكثر حيوية ونشاطاً، عمر المخيرش، قد اغتاله بعض أفراد قبيلة الحموم في يناير ١٩٣٨ م.

وعند مغيب الشمس وكذلك صباح اليوم التالي استمتعت بحمام في حوض السباحة، وبعد تناول طعام الإفطار، قمنا -السيد أحمد وأنا- بنزهة في الحدائق المجاورة وزرنا بقايا قلعة قديمة إضافة إلى القصر المخصص لحريم السلطان والذي يفصله من الحديقة فاصل كثيف من أشجار الزينة.

يتميز المبنى المخصص للنساء بالطابع المحلي البحت بالمقارنة بالمنزل المخصص للرجال. وبعد أن شاهدنا كل ما نريد مشاهدته في منطقة الحديثة ذهبنا إلى المدينة ودخلناها بالسيارة، من البوابة الغربية وواصلنا سيرنا مروراً بالمدرسة والمسجد الكبير حتى وصلنا الفسحة المواجهة للبوابة الشرقية، وأبرز معالمها هو حصن منصور الذي يقيم فيه القائمقام. صعدت إلى سطح الحصن وتمكنت من مشاهدة المدينة والمنطقة الريفية التي تحيط بها، وبعد وجبة خفيفة وقهوة قدمها لنا مضيفنا، واصلنا السير مرة أخرى لزيارة مزارع التبغ الواقعة في طريق الشحر.

تتوسط منطقة التبغ بثران ارتوازيان كبيرتان هما: حومة الحرف وحومة غالب، وتقعان على بعد ميلين شمال المدينة. وتشبه هذه الآبار بمياهها العميقة والدائكة آبار مناطق الخرج والأفلاج والتي أعرفها جيداً. وقد شاهدنا عند وصولنا مجموعة من

الأطفال يستحمون في إحدى هذه البرك المائية. إن الأحواض التي تنمو عليها نبتة التبغ لا تسقى من هذه البرك وإنما تسقى من آبار محفورة ويتم رفع المياه بواسطة قوايس (دلو) مربوطة بحبال، ويتم سحب الحبال فوق بكرات مثبتة على منصة فوق فوهة البئر. وهذا المنظر يشبه مناطق الفحم في إنجلترا.

يُزرع التبغ في أحواض مربعة وصغيرة جداً، وكان وقت زيارتنا قد بدأ ينمو ويظهر فوق سطح الأرض. وبعد أن تنمو النبتة وتصل إلى حجم معين يتم خلعها من جذورها لإعادة غرسها في مربعات كبيرة في داخل وحول القرى والبساتين المجاورة.

تسمى منطقة زراعة نبتة التبغ والآبار التي تروىها بـ "القاف"، ويوجد بستان نخيل صغير اسمه النقيعة يقع في طيه وسط الجبال على بعد نصف ميل في اتجاه الشمال الشرقي. يبلغ إنتاج التبغ السنوي لمزارع الغيل حوالي ٤٠٠٠ بهارة من التبأك درجة أولى - به ثلاثة درجات مختلفة-، إضافة إلى ١٥٠٠ بهارة من الأوراق ذات الجودة المتدنية، ويمكن تقدير قيمة الإنتاج السنوي للمحصول في حدود ٢٥٠٠٠ ريال (حوالي ١٩٠٠٠ جنيه إسترليني)، بينما يمكن أن ترتفع القيمة في عدن، بعد خصم جميع المصروفات، إلى ٤٥٠٠٠ ريال حوالي (٣٤٠٠٠ جنيه إسترليني)، ويبلغ نصيب الحكومة في حدود ٩٠٠٠ ريال (٧٠٠٠ جنيه إسترليني)، وما تبقى يمثل أجور النقل والضرائب الأخرى وأرباح الوسطاء. وإذا تم تطبيق الأصول الصحيحة لتسويق إنتاج الغيل من التبغ يمكن أن تزيد أرباح المزارعين أضعافاً مضاعفة، بالمقارنة بأرباحهم الحالية. ويمكن أن نقول: إن شركات إنتاج التبغ الكبرى تستطيع أن تطرد صناعة الغيل وتبعدها عن المنافسة إذا تمكنت (الشركات الكبرى) من جذب جمهور المدخنين إلى إنتاجها. وفي فترة من الفترات كان الجميع على ساحل البحر الأحمر مثلاً يدخنون التبغ "الحمومي" المشهور. أما أبناءهم اليوم فإنهم يفضلون أصناف "باسنغ شوز" و "لكي إسترايكنز".

وصلنا الشحر بسلام حوالي منتصف النهار، وعند وصولي إلى استراحة آل الكاف أخبرني الدكتور خواس أن «نورمان بيرن» قد عاد من محاولته غير الموفقة في شبة، وأنه قد ركب لتوه الباخرة «أفريقيا» والتي من المفترض إبحارها في أي لحظة. واقتربت عليه أن نأخذ مركباً صغيراً لوداع الرجل. ولم تمر دقائق معدودة حتى كنا على ظهر مركب يجده طاقم من الزوج الأشداء، وشق المركب طريقه وسط الأمواج العاتية، وكان بيرن وربان السفينة فوق السطح العلوي للسفينة يقرؤون الصحف، وبعد قليل أخبرني نورمان بتفاصيل الاضطرابات التي حدثت في الصحراء. وهذه كانت نهاية مؤسسة لجهد بدأ بالكثير من حُسن النية مع انعدام التجربة والمعدات اللازمة (مالية وعلمية)، والتي لا يمكن إغفالها أثناء السفر والترحال في الجزيرة العربية. وقد أعرب ربان السفينة عن دهشته لأي شخص لديه الرغبة في التجوال في هذه الصحاري. وهو نفسه الذي يصطحب المسافرين على باخرته للنزول في هذا الساحل القاني وغير المضياف، ثم يعود بهم إلى ديارهم وهم أكثر خبرة وحكمة وتجربة، وإن كانوا أقل وزناً. لقد أخبرت القبطان بأنني أفضل العودة إلى جدة عن طريق البر، كما أنوي أن أفعل، وليس على ظهر قاربه الذي أصبح داراً له. ينظر البحارة دائماً لوظيفة مريحة فوق اليابسة ويعيداً عن أهوال البحر، وذلك لقضاء خريف وشتاء ما تبقى من حياته في البحر. إن الاستقرار وطيب العيش هو هدف إنساني يسعى الجميع لتحقيقه، والبحارة ليسوا استثناء من هذه القاعدة.

لقد كانت الباخرة أفريقيا جاهزة وعلى أهبة الاستعداد للعودة إلى المكلا وعدن، وتمنيت للرجلين رحلة سعيدة ثم غادرتنا السفينة وعدنا إلى اليابسة وبعد ذلك قمت بجولة طويلة حول المدينة وصورت معالمها الرئيسة ثم ذهبت إلى منزل السيد الشيخ الشثيري لتناول وجبة الغداء، وعند منتصف الأصيل كانت سيارتنا تطوي الأرض طياً عبر البوابة الشمالية في اتجاه بداية طريق الخروج، وتعرض أحد إطارات السيارة لثقب عطل مسيرنا قليلاً، ومع ذلك وصلنا إلى المكان المقصود قبل غروب الشمس وأقمنا

معسكرنا استعداداً لقضاء الليلة هناك، كما فعلنا في المرة السابقة لم يكن معنا طعام للعشاء وقد كانت معي قطعة كيك أحضرتها معي من الشحر، إضافة إلى تفاحة وجوزة هند وهي تكفي لتخفيف حدة الجوع، ومع انعدام أي مصدر للإنارة في هذا المكان الخلوي كان عليّ أن أوي إلى فراشي مبكراً وكان البعوض يلسعني من وقت لآخر، وكأنه يبحث عن ضحايا في أسفل الوادي. بذل زعيم قبيلة المعدي جهداً مقدراً لإحضار بعض الطعام، على حسابي الخاص، وعرض علينا إرسال شخص إلى قريته لإحضاره، وأخبرته بأنه من واجبه أن يبذل قصارى جهده لراحة ورفاهية ضيوفه، بدلاً من مساومة أحدهم حول ثمن كرم الضيافة! وعلى كل حال كان الوقت متأخراً ومن المؤكد أنني سأنام قبل إحضار الطعام وتجهيزه وطبخه. ثم ماذا إذا قضينا ليلة واحدة بدون طعام بعد كل الترف والرفاهية التي عشناها خلال الأسبوعين الأخيرين في المكلا.

قضينا الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني لحسم مسألة الجمال التي ستحمل أغراضنا إلى المعدي، وكذلك استمرار سيرنا عبر سلسلة الجبال التي أمامنا. صعدت قمة أحد الجبال الصغيرة وتركت للرجال قرار تحديد أجر الجمال أو أن يتركوا المسألة لتقديري الشخصي فيما بعد. وبعد كثير من الجدل اختاروا الخيار الثاني وبدأنا سيرنا على طريق المعدي وكان الجو هادئاً مع ضباب ورطوبة، وبعد مسيرة قصيرة بزغت الشمس وبدأت ترسل أشعتها الحارقة على أجسادنا، مما أفسد علينا متعة الرحلة الصباحية، مع ذلك وصلنا المعدي حوالي الساعة والنصف صباحاً وخلصنا إلى راحة طويلة حتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حيث بدأنا سيرنا على الجبل. لقد سبق أن اشتريت عندما كنت في الشحر، ترمسين يابانيي الصنع وكان ثمنهما بخساً نسبياً، أي حوالي الشلنين للواحد، وكان هذان الترمسان من أسلحتي المهمة جداً للسفر عبر الصحراء، ذلك أنهما كانا يوفران لي الشاي الذي أحبه في أي وقت أطلبه ليلاً أو

نهاراً، مما أراح مرافقي كثيراً وأعاني شخصياً على تحمل الرحلة حتى نهايتها. ولقد هنأت نفسي كثيراً على هذا القرار الصائب وهذا الإنجاز الرائع.

وبينما انشغل الرجال بتحضير وجبة الغداء المكوّنة من الأرز وتوابعه من جوز الهند والقهوة، آثرت أن استحم في البركة شبه الراكدة حيث ابتعدت الضفادع والحشرات المائية وتركت كل شيء تحت تصرفي، وقد ورعت وقتي بين الصخور الواقية وأشجار التين البري بحثاً عن ظل يحميني من أشعة الشمس. يستخدم السكان المحليون سائل شجرة التين البري كمرهم لعلاج الجروح، ويقال: إن له خواصاً تساعد على سرعة الشفاء الجروح، ولاحظت في زيارتي الحالية هذه أن حضور وتوافد النساء أصبح مكثفاً وملحوظاً بالمقارنة بزيارتي السابقة. وقد شاهدت بعضهن يسقن الأغنام والقنن للسقاية، أما الأمهات -من بينهن- فقد كن يحملن صغارهن فوق منطقة الورك أو داخل وعاء جلدي صغير يشبه دلو الماء، وذلك وفقاً لعمر الطفل المحمول. ترتدي النساء ملابس ثقيلة مع أن التنورة لا تغطي الكاحل أو تتدلى إلى الأرض كما عند نساء نجد. وتجدر الإشارة إلى أن استعمال التنورات الطويلة في المناطق الجبلية غير مناسب، إن لم يكن خطراً. ترتدي نساء اليمن ثوباً خارجياً فضفاضاً أزرق اللون مع أكمام واسعة تكشف عن الخاصرتين، بينما يغطي الرأس بحجاب كثيف مع منديل طويل يكاد يغطي حتى العينين، وتبدو عليهن سيماء التعب والكآبة كما أنهن يفتقرن إلى غنج ودلال أخواتهن البدويات.

قررت أن أتمشى قليلاً لاستكشاف المنطقة، وصعدت أحد الجبال المجاورة ولم تكن تجربة سيئة على كل حال، خاصة وأن هبوب عاصفة رعدية قد لطف الجو كثيراً مما ساعدني على الوصول إلى قمة الجبل. وبعد هنيهة، هطلت أمطار قليلة فقفلت راجعاً إلى موقف السيارات في رأس الحروة. قام الرجال بجمع بعض الحطب الجاف وأوقدوا نار المعسكر وامتأل الجو برائحة الحريق والدخان. أمضينا حوالي الساعتين والنصف منذ أن تحركنا من المعدي حتى وصولنا قمة الجبل، وقد سعد الذين كانوا

يتولون حراسة السيارات في غيابنا أيما سعادة بعودتنا، ولاحظت قطيعاً من الضأن حول المعسكر وكان أصحابها قد جلبوها إلى هنا على أمل أن نشترى منهم، غير أن أسعارها كانت مرتفعة.

لقد زاد عدد المجموعة التي تصاحبني من الرجال ووصلوا حوالي العشرين شخصاً، ولا يوجد -قطعاً- طعام يكفي هذا العدد، لهذا رأيت شراء خروف وعرضت على صاحبه مبلغ خمسة ريالات، وهو السعر الساري في أسواق المدن إلا أن أصحابه أصروا على سبعة ريالات رفضت وأخبرت مرافقي برغبتي في النوم بدون عشاء. قال زعيم مجموعة المعدي: "لكن ليس لدينا معاش (طعام)" وهم في الظروف العادية لا يأكلون اللحم إلا مرة واحدة في الأسبوع، إذا تيسر لهم ذلك. وأجبتته محاكياً نفس نبرته ولهجته: «ولا حتى أنا». واستطردت: «لكنني سأعيش بدون». هنا انخفض السعر المعروض إلى ستة ريالات، لكنني رفضته على أساس أنه سعر غالٍ: «خمس ريالات ونصف؟» حاول أصحاب القطيع لكنني بقيت عند موقفتي وعنادي، ولم يكونوا هم أقل عناداً على كل حال. وفي نهاية الأمر، ولكي أضع حداً للجلبة والضوضاء ناديت عوضاً وأخبرته بأنني سأدفع خمسة ريالات ونصف للخروف وإنني لن أكل منه شيئاً. وكل هذا لم يحرك ساكناً في أصحاب الخروف. وتحول غضب وسخط البدو إلى ضحكات ترقب وأمل وهم جالسون حول قدر الطعام. وعلى أي حال لا أستطيع أن أجزم متى تناول القوم عشاءهم بعد أن ذهبوا للخروف. ذلك أنني كنت قد شبت نوماً وقتها ولم يحاول أي منهم أن يعكر صفو نومتي تلك. ويبدو لي أن هؤلاء القوم غير طيبين المنبت والأصل، وربما يكون من الخطأ الشنيع الحكم عليهم بأي من المعايير الإنسانية. ولقد انطبوعوا في ذاكرتي وحوشاً كاسرة، غير أنهم مسلمون. ومع هذا فإنني لا أملك إلا أن أشعر بوخز الضمير، ذلك أن طريق السيارات الذي يعبر منطقتهم الجبلية المنحدرة وغير المضيافة سوف يؤدي - وإن كان ببطء وثبات - إلى تشذيب سلوكهم وطبعهم إلى مستوى عالم يختلف

اختلافاً شديداً عن العالم الذي يعيشون فيه منذ الخليقة. إن الحياة القاسية والمعاناة الشديدة، وشظف العيش قد وجهت ذكاءهم الإنساني لخدمة أهداف وغايات لا تختلف كثيراً عن أهداف وغايات غير عقلانية. إن الصفة المميزة لهؤلاء هي الأنانية، وقياساً على هذا المعيار فإن مواطني المعدي -وأقرانهم الآخرين الذين يعيشون في مضائق حضرموت- ليس لهم منافس خطير^(١).

في صبيحة اليوم الثاني، وبعد انقضاء ليلة هادئة ونوم مريح، كنت في حالة نشوة واسترخاء دفعني لمراقبة سلوك هؤلاء القوم الذين لن أراهم مرة أخرى. أجريت عملية حسابية ذهنية سريعة للتموينات والخدمات المصاحبة التي قدمها القرويون وقررت أن مبلغ عشرة ريالات كان كافياً كتعويض لهم، بما في ذلك ثمن الخروف، ولم أكتف بذلك بل قررت مضاعفة المبلغ ووضعت مبلغ عشرين ريالاً في جيبني لأسلمها لعوض عند مغادرتنا المعسكر. هذا الترتيب لم ينفذ بحذافيره، ذلك أنه بعد أن استيقظت من النوم وبدأت في شرب شاي الصباح مع ما تبقى من جوزة الهند، جاء عوض يحمل فاتورة حسابه كأنني سأهرب من المكان قبل تسديدها. وقد قاومت رغبة ملحة في أن أقذف مبلغ العشرين ريالاً في وجهه وأخبره بأن يذهب إلى الجحيم، وبدلاً من ذلك بدأت مراجعة الفاتورة وكانت كما يلي: ٥,٥ قروش (ريال) ثمن الخروف، ١ قرش ثمن قربة ماء، ١ قرش ثمن جوز الهند، ٢ قرشان لجمل الترحيل، ١ قرش للأرز الذي قُدم لنا في القرية بالأمس، إضافة إلى أصناف أخرى، حتى بلغ المجموع أربعة عشر ريالاً ونصف الريال. وقمت بتسديدها مباشرة مع ملاحظة أن قيمة كل الأصناف المذكورة كان مبالغاً فيها ومع ذلك لم أسأل أو أعترض، وكان عوض سعيداً أنه تمكن من أن يتنزح مني كل هذا المبلغ، وذهب

(١) يلحظ هنا قسوة من المؤلف في أوصافه لأهل هذه المنطقة ويبدو أنه كتب عباراته تحت تأثير تلك المواقف التي مرَّ بها وهي تجارب شخصية في ظروف معينة لا يمكن أن تعطي معلومات وافية لبناء هذا التصور المبالغ فيه من فيليبي. (المراجعون).

ليقتسم الغنيمة مع بقية الخلق الآخرين. كان ضجيج نقاشهم لا يوصف، ولم يدر أي منهم أنه كان بمقدورهم اكتساب خمسة ريات ونصف أخرى لو كانوا أكثر حصافة ودبلوماسية.

وبينما انشغل عوض وزملاؤه في تقسيم الغنيمة. بدأنا نحن في تجهيز السيارات استعداداً للسفر. لقد تبخر كل الوقود الذي كان في صهرج السيارة، وأذكر أنه عندما تركنا السيارات في هذا الموقع قبل أسبوعين، كان الصهرج ممتلئاً حتى النصف وكان لدينا وقوداً إضافياً في صفائح محكمة الإغلاق. شغل السائقون محركات السيارات وانطلقنا وتركنا البدوين وراءنا منشغلين في حل المعضلة الحسابية المتعلقة بتوزيع مبلغ الأربعة عشر ريالاً ونصف الريال !. وبهذه المناسبة أجد لزاماً عليّ أن أذكر أن سيد أبوبكر، أحد الأخوة من آل الكاف، وبعد أن سمع بالنفقات المالية التي دفعتها للأعراب نظير حراسة السيارات في غيابنا، أصر على دفع كامل قيمة الفاتورة التي تبلغ ستين ريالاً، ذلك أنهم -إثباتاً لأصول الكرم العربي- يعتقدون أن كل مسافر داخل حدودهم هو ضيف عزيز يجب إكرامه. إن فضائل هؤلاء القوم لا يمكن تقييمها بالمال أبداً.

ومع شروق الشمس، وبسبب العاصفة الرعدية العابرة، هطلت زخات من المطر استمرت مدة عشر إلى خمسة عشر دقيقة، بينما تجمعت سحب كثيفة فوق البحر ومع ذلك يمكن -بالعين المجردة- رؤية مدينة الشحر وبعض المعالم الأخرى. أعطينا ظهرنا للمحيط الهندي واندفعنا داخل متاهة الجبال الصحراوية. كان معظم الأودية ممتلئة بمياه الأمطار التي هطلت هنا قبل فترة وجيزة، وعادت الحياة والخضرة إلى الهضبة الواسعة والجافة، والتي كانت ميتة عندما عبرناها قبل أسبوعين، وخرج البدو من الأودية وانتشروا في الهضبة وكل يختار المكان الأكثر خضرة وعشياً لرعي قطعان ماشيته، وقد بدأ سكان منطقة وادي ريدة ووادي العشرة استعداداتهم للزراعة الموسمية.

احتشد جمع من سكان قرى القرن (ديرة آل حسن) عندما سمعوا أصوات السيارات، وذلك لاستقبال طالب بعد غيابه الطويل، ولاحظت وسط هذا الحشد البشري فتاة صغيرة عليها علامات وشم كثيرة. لم تكتمل فرحة طالب بالبقاء مع أهله، ذلك أنه يجب عليه مرافقتنا حتى نخوم منطقة المعارة، وقد حاول مرة أو مرتين الرجوع إلى دياره قبل أن نصل تلك التخوم إلا أنني رفضت وطلبت منه مرافقتنا حتى سفوح (الجل) الذي يقع خلف أودية العشرة. وفي هذا الوادي بالتحديد غرزت إحدى سيارات آل الكاف، ماركة بويك، في بركة بجانب الطريق، وقد ساعدنا طالب كثيراً في تخليصها من هذا الوحل الشديد. والرجل يتمتع بذكاء وفطنة، غير أنه عندما حانت لحظة الفراق أظهر كل عيوب عشيرته البدائية. لقد كان الاتفاق المبرم بيننا هو أن يتقاضى طالب ريالاً واحداً يومياً -تماماً مثل الرجال الآخرين من قبيلة المعدي- وبهذا يكون مجموع استحقاقاته عشرين ريالاً، إلا أنه طلب عشرة ريالات أخرى نظير مرافقته لنا. رفضت طلبه جملة وتفصيلاً وأخيراً قام الرجلان من قبيلة الجبيري بإقناعه بقبول مبلغ العشرين ريالاً وأطبنا في وصف شهامته وشجاعته. ارتسمت علامات الرضى والسعادة على وجهه وغادرنا عائداً إلى دياره مردداً قولة البدو المحليين: سماح.

بعد أن تخطينا جرف العشرة، غرزت السيارة ماركة بويك، مرة أخرى مدة ساعة كاملة، في أحد مجاري وادي زبون، وعند طرف أخدود رسب قابلتنا امرأة من قبيلة الجبيري ترعى غنيمات لها. قبلت المرأة أيدي مرشديننا الاثنين وزودتهم بآخر أخبار الطقس والقبيلة. ونحن نواصل سيرنا في الوادي كثيف الأشجار لاحظنا غزالة منطلقة بسرعة البرق بعد أن سمعت أزيز السيارات، ولاحظت أيضاً وعلى مسافة بعيدة عبر سهل أجرد، ثلاثة رجال يسرون على طريق بعيد عن خط سيرنا، وبعد أن شاهدونا اندفعوا مسرعين نحو الطريق في محاولة للوصول قبلنا وقطع الطريق علينا.

بدا لي الأمر غريباً وسألت المرشدين هل نتوقف لهؤلاء الرجال أم نواصل سيرنا، وقد نصحوا بعدم التوقف، وأضافوا أن الرجال الثلاثة من جماعة الجبيري ولا أحد يعرف ماذا وراءهم. زاد سائقنا محمد من سرعة السيارة، وتوقف أحد الرجال عن محاولة قطع الطريق علينا. أما الرجل الآخر، وبعد أن أيقن أننا سنعبّر منحني الطريق قبل وصوله إليه بزمان طويل، فقد جلس مستنداً على ركبته ورفع بندقيته فوق كتفه استعداداً لإطلاق النار، وفي هذه الأثناء كنا في محاذاته تماماً، إلا أن محمداً سائقنا الماهر، انحرف بالسيارة عن الطريق الرئيس عبر السهل الحجري، ودفعت غريزة البقاء -كلينا- إلى الانحناء إلى أسفل حتى لا يصيبنا الطلق الناري، وبالرغم من سرعة الحدث والارتباك فقد كان لدي شعور بأن المرشدين الاثنين اللذين يجلسان في المقعد الخلفي سيكونان هدفاً سهلاً للقناص، وكانت لحظات عصيبة إلا أن الرجل لم يضغط على الزناد أبداً.

شرح لنا محمد أن أحد أصدقائه من المكلا أخبره بالخدعة البسيطة التي تعلمها قطاع الطرق هؤلاء، وهي إصابة إطار السيارة مما يجبر السائق على التوقف ويصبح السائق ومرافقوه عرضة للابتزاز والتهديد. وعليه فإن انحراف محمد بالسيارة على بعد ٥٠٠ ياردة أصبح أمراً عسيراً، إن لم يكن مستحيلاً على القناص. أما السيارة الثانية فقد كانت تسير أمامنا بمسافة طويلة ولم تتعرض لهذا الموقف الحرج. عاد قاطع الطريق أدراجه وانضم إلى زملائه. ومن عجائب الصدف أن كابتن بيش الأوروبي الذي سافر بعد ذلك على هذا الطريق نفسه قد تعرض لإطلاق النار، وأن سائقه وراكباً آخر قد أصيبا، وربما كان السائق لا يعرف خدعة إطار السيارة المطاطي. وقد وضع الكابتن بيش في الخريطة التي رسمها للطريق علامة سيفين متقاطعين، إشارة إلى حادث عسكري، ويبدو أنه المكان نفسه الذي تعرضنا فيه للحادث المذكور. قامت سلطات عدن بغارة جوية وإسقاط قنابل على مساكن راسب، انتقاماً لما حدث للكابتن

بيش، نتج عنها موت ثلاثة أشخاص (امرأة وطفلان) كانوا يحاولون إبعاد غنمهم خارج جحيم القصف^(١).

عند مرورنا بقرية ضبوع في طريقنا باتجاه الجنوب، وجدناها خالية من سكانها الذين هاجروا إلى وادي صرو القريب. قابلنا على مشارف القرية خمسة رجال من بدو قرية ضبوع وأجبرونا على التوقف وقد أصبحنا بالفعل تحت رحمتهم.

ذلك أن السيارة الأولى كانت قد تعرضت لمشكلة تتعلق بأنبوب توصيل البترول مما اضطرنا للانتظار مدة نصف ساعة لإصلاحه. كانت مطالب الرجال الخمسة -على الرغم من أننا نصطحب اثنين من قبيلتهم- هي دفع رسوم الطريق، وهذا إجراء غير قانوني وعندما أخبرتهم بأنني ممثل لابن سعود تراجع الرجال عن مطالبهم فوراً. تناولت بندقية الصيد، وذهبت في جولة لمشاهدة الطيور التي يوجد الكثير منها بمختلف أنواعها خاصة بعد توفر المياه والعشب بالمنطقة مثل: القطا، والوروار، والشادي الأحمر وأنواع أخرى عديدة. كان مشايخ المستوطنة المعزولة مشغولين في حرث أراضي حكامهم من قبيلة الضييري وقد امتد حرثهم حتى شمل جزءاً من الطريق بهدف زيادة المساحات المزروعة مما تسبب في إعاقة سير السيارات.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر وأصبح الأمل ضعيفاً في قطع مسافة الستين ميلاً للوصول إلى مدينة تريم قبل مغيب الشمس ولم تقابلنا أية عوائق أخرى في الطريق، وعند المغيب كان أماننا حوالي عشرة أميال إلى خمسة عشر ميلاً للوصول لمحطتنا التالية. وبما أنه ليس هناك داع للسفر ليلاً فقد فضلنا إقامة معسكرنا في منطقة مسطحة في هذه الهضبة الجبلية، وحسب علمي فإن احتياطنا من الطعام قد انتهى إلا أن أحد المرافقين كان لديه كمية من الأرز تكفي لوجبة العشاء. أرخى الليل سدوله وغطت السماء الصافية بنجومها اللامعة الصخور الكلسية الجرداء، ومع ذلك

(١) المقصود بسلطات عدن: السلطات البريطانية في عدن. (المراجعون).

أصرت جحافل البعوض على مصاحبتنا وإزعاجنا إلا أن برودة الطقس كانت كافية لوضع حد لهذا الغزو .

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي رأينا ثلاثة رجال من البدو على ظهر جمال ولكنهم كانوا مسلمين ولا ينوون أي شر، بل واصلوا سيرهم -فيما أظن- إلى غيل ابن عيمن . وسرعان ما بدأت ملامح الوادي الرئيس في الظهور وراء أخاديد الهضبة الجبلية، وفي تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً وصلنا رأس العقبة التي تؤدي -نزولاً- إلى تريم وفضلت السير على الأقدام بالطريق المنحدر والمتعرج وبعد ذلك ركبنا السيارة التي قطعت المسافة القصيرة عبر الوادي حتى وصلنا منزل مضيفنا سيد عبد الرحمن ابن الشيخ الكاف، المبنى جميل ومن الطراز الحديث ويتكوّن من طابق أرضي مع حوض سباحة كبير ويوجد بجواره مبنى قديم في ضاحية حديقة عديد.

السيد عبد الرحمن هو زعيم أسرة آل الكاف وكان منزله مكتظاً بالضيوف بما فيهم أعضاء البعثة المصرية والذين تنحصر نشاطاتهم واهتماماتهم العلمية في علم الإنتروبومري بينما انحصرت اهتمامات المهندس توفيق في القبض على الجنادب وأي حشرات أخرى تدخل المنزل ليلاً.

لقد علمنا عند وصولنا منزل مضيفنا، أن ابنه الثاني والأكثر تحضراً وتمدناً واسمه السيد أبو بكر قد غادر إلى منزله في سيئون وبصحبه مهندس تركي كان قد حضر معه من عدن لفتح وإنشاء ورشة لصيانة وخدمة السيارات وبعض الآليات الأخرى التي أصبحت من معالم هذا الوادي . وكان من بين الحضور أيضاً أهل الشيخ أبوبكر، عميد أسرة السيد الذي قدم من منطقة عينات وهو شيخ وقور في الخامسة والسبعين من عمره ويبدو فخوراً بحفידاته الكثر على الرغم من أن أيّاً من أحفاده الثلاثة عشر لم ينجب ذكراً ليحمل اسم وزعامة القبيلة ويحفظ الإرث الذي لم ينقطع خلال خمسة وثلاثين جيلاً . لم ينقطع أمل السيد محمد في أن يُولد ذكر في العشيرة

لحمل الاسم والرسالة وليس لديه ما يؤرقه خاصة أن أبناء الثلاثة وأحفاده الثلاثة عشر ما زالوا في ريعان الشباب وقمة الخصوبة.

تمتد جذور أسرة السيد محمد إلى جدهم الأكبر الشيخ أبوبكر والذي تفصل بينهما عشرة أجيال كاملة وقد أخبرني الرجل -عندما كنا نتقاسم إحدى غرف المنزل في ظهيرة أحد الأيام- بتفاصيل شجرة نسب العائلة التي تستحق الذكر: هو السيد محمد بن علي بن عمر بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر بن حسن بن حسين بن الشيخ أبي بكر، -الجد الذي اشتقت منه القبيلة اسمها- بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. أول الأسماء التي تحتها خط في القائمة أعلاه (أحمد) يعود إلى مؤسس نفوذ أسرة آل الكاف في حضرموت. أما بقية الأسماء التي تحتها خط فهي لأئمة طائفة الشيعة.

إذا افترضنا ثلاثة وسبعين عاماً متوسط عمر كل جيل من هذه الأجيال الخمسة والثلاثين، نكون أدركنا سر قوة واستمرارية حكام حضرموت والتي ظلت موطناً للعشيرة قرابة الألف عام. ويتطلع السيد محمد -مثل بقية زعماء شخصيات حضرموت- أن يسود السلام والأمن في الحاضر والمستقبل ولم يخف الرجل رغبته الشخصية في أن يرى ابن سعود حاكماً مطلقاً أو سيداً باسطاً سلطته على حضرموت وليس لديه تحفظات تجاه وجهة نظره هذه. أما في الوقت الحاضر فقد رمى الرجل بثقله في موازنة سلالة القعيطي الحاكمة وقد وقع معها اتفاقية أو معاهدة وتنفيذاً لأحكامها فقد تم وضع كتيبة من خمسة وعشرين جندياً من قبيلة القعيطي لحماية عينات من غدر بعض القبائل الأخرى، ولقد ألح عليّ الرجل كثيراً لزيارته بمنزله وقام

بوضع الترتيبات اللازمة لزيارة قبر هود والكهف الغريب، ويثر برهوت^(١) وكان الانطباع السائد لفترة طويلة من الزمن أن هذا الكهف يحتوي على فجوة بركانية نشطة حتى أثبت كل من فان ديرمولين وفون فيسمان أنها مجرد فجوة في الصخور الجيرية. وكان من بين الزوار أيضاً، السيد عيدروس بن عمر بن أبي بكر بن عبدالله وأظنه من عينات أو منطقة قريبة منها ومن المحتمل أن يكون صنواً للسيد محمد في المكانة الاجتماعية. وجاء من الجانب الآخر للوادي، من مشهد بوادي دوعن تحديداً، ضيف من السادة العطاس هو السيد أحمد بن حسين بن عمر بن هارون العطاس ومعه شقيق السيد حامد الوزير الجديد الذي تم تعيينه بالملكة عمر بن أبي بكر بن حسين المحضار وهو أيضاً من وادي دوعن. أما والده أبوبكر فقد كان وزيراً سابقاً -مثل والده من قبله- وهو الآن على قيد الحياة مع أنه استقال من الوظيفة المهمة بسبب كبر السن والضعف والوهن ويكفيه على كل حال أن يرى ابنه حاملاً الراية نيابة عنه.

يشعر المقيم في مدينة تريم بعقب القداسة والتدين إلا أن أحاديث المائدة التي تتم بين عليّة القوم العصريين لا تتطرق للدين أبداً إنما تنحصر حول التطور الاقتصادي تليه في الأهمية أمور السياسة والحكم والزعامة. وكان المحور الأخير يدور حول اتفاقية ١٩١٨م وإن اتسم الحديث حولها ببعض الحذر والسرية. الجدير بالذكر أن الاتفاقية المذكورة لم تكن في مصلحة سلاطين آل كثير مما ملأ صدور جيل كامل منهم بالضغينة والبغضاء مع العلم أنه -أي هذا الجيل الحديث- لم يستوعب تماماً الظروف والملابسات التي أدت إلى إبرام الاتفاقية. ولم يكن هناك أدنى شك من أن سلاطين آل كثير سوف يضعون حداً من جانبيهم لهذه الاتفاقية والمسألة كلها مسألة وقت

(١) برهوت: بثر في حضرموت ونقل الحجري عن القاموس أنه: «واد أو بثر عميقة بحضرموت اليمن لا يستطيع النزول إلى قعرها، وهو مقر أدراج الكفار كما حققه ابن ظهيرة في تاريخ مكة، وأخرج الهروي عن علي - رضي الله عنه - والطبراني في المعجم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - شر بثر في الأرض برهوت». الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ١، ص ١١٧. (المراجعون).

وأسلوب. ولقد تطرق بعض المتحدثين بصراحة إلى إمكانية تدخل ابن سعود لتسوية هذا النزاع، غير أنه كان واضحاً للجميع أنه لا بد أولاً من تصفية الضغائن والحساسيات التي تسبب فيها البريطانيون قبل وضع حد نهائي للخلافات القعيطية/الكثيرة، وأثناء إقامتي في تريم كان الجميع يأملون في تدخل ابن سعود لوضع خطة تُرضي الجميع وتؤدي في نهاية المطاف إلى السلام والأمن والاستقرار.

ونظراً لضيق الوقت فقد أرسلت محمداً إلى شبام ومعه قطع الغيار التي أرسلت من المكلا لإصلاح الشاحنة الخفيفة بينما أمضيت وقتي متنقلاً بين تريم وسيئون، وقد كان ظن محمد إنجاز مهمته في غضون يومين واتفقنا على أن ألتقيه في شبام في منتصف يوم السابع عشر من شهر سبتمبر، وفي هذه الأثناء كان لديّ متسع من الوقت والفراغ للتجول والتحدث مع الآخرين وقد قابلت أحد مواطني مكة واسمه حسين شيبة ويعمل في وظيفة سكرتير للسيد عبدالرحمن، وهو شقيق لمصطفى الذي يعمل في مصلحة التلغراف بالسعودية، وقد توطدت العلاقة بيننا وأصبح حسين المرشد والفيلسوف والصديق الحميم، وقمنا برحلة إلى تريم وضواحيها كما زرنا العديد من أعيان ووجهاء المدينة وعلى رأسهم السلاطين. وفي يوم وصولي أقيم حفل غداء كبير بمنزل السيد عبدالرحمن، أما العشاء فقد كان بمنزل السيد محبر بن حسين. أما وجبة غداء اليوم التالي فكانت بمنزل علوي بن أبي بكر الكافي وتخللها نقاش سياسي مستفيض وكانت وجبة العشاء بمنزل أحد أفراد عائلة الكاف واسمه السيد محمد بن حسين بن شيخ والذي آتسني كثيراً أثناء زيارتي السابقة واصطحبني في زيارة إلى حديقته الوارفة الجميلة في عبيد والتي تروى بواسطة مأكينة ضخم نوع دويتز. وبهذا يمكن القول: إن الحياة في مدينة تريم أصبحت سلسلة لا تنقطع من المناسبات واللقاءات الاجتماعية والولائم وكان وقتي (بالطبع) قصيراً جداً.

تتكون مدينة تريم من عدة أحياء وقرى قديمة متفرقة التقت مع بعضها نتيجة حركة العمران والنمو والتوسع حول المركز. والمعلم البارز للمدينة هو منطقة السوق

والتي تتكون من أزقة ضيقة ومنازل لا تلفت الأنظار كثيراً عدا مجموعة من قصور زعماء قبيلة آل الكاف بالناحية الشرقية. يقع حي النويدرة على جانبي السوق ويمتد في اتجاه الشمال الشرقي حتى بوابة دمون، أما الجانب الآخر من السوق فيقع فيه حي الخليف الذي يمتد في اتجاه الجنوب الغربي نحو عبيد، ويتضمن المقبرة وقصوراً جميلة، ويوجد الساحل بالناحية الشمالية للسوق. ويقع حي الحاوي جنوب حي النويدرة، وفي منتصف المسافة بين هذا الحي وحي المجاف وهو عبارة عن جمهورية مستقلة لإحدى عشائر السيد وتسمى الحداد، بينما ينحصر حي الحالف بين الساحل وحي النويدرة بالناحية الشمالية. أما بالنسبة للحصن القديم في تريم فقد شُيد فوق جرف منخفض ويحيط به السوق وحي الخليف والساحل، ويعرف هذا الحصن بقصر الرنات وقد أعيد بناؤه في عهد السلطان عبد الله وتبدو عليه آثار التجديد من الخراب الذي لحق به منذ فترة ما قبل الإسلام، ويلاحظ المشاهد العديد من البوابات -والتي تسمى السدة- على السور المحيط بالمدينة وتخدم كل بوابة من هذه البوابات أحد طرق المواصلات المحلية من وإلى المدينة. وأطلقت الأسماء الآتية على هذه البوابات بدءاً بالناحية الغربية ومروراً بالنواحي الجنوبية والشمالية والشرقية: بوابة أنبار وتخدم طريق عبيد، بوابة جادين وتغطي جهة سيئون، بوابة لوميع على طريق الشحر، وسرور بن سعيد لطريق عينات وقبر هود. وأخيراً بوابة محبوب على الطريق المتجه شمالاً إلى دمون.

لقد ودعت أسفاً كل الذين استضافوني بمدينة تريم واصطحبت معي شكري، خبير الجيولوجيا بالبعثة المصرية وعبرنا بوابة جادين في طريقنا إلى سيئون. وبعد مغادرتنا تريم بقليل توقفت السيارة بسبب ثقب في أحد إطاراتها وبينما نحن في انتظار إصلاح العطب توقف معنا اثنان من بدو قبيلة العوامر وكانوا يسرون في اتجاهنا نفسه، توقف الرجلان وتبادلا معنا أطراف الحديث، علمت منهما أنهما أتيا من آبار ثمود وثميد بوادي ينحدر في اتجاه الربع الخالي، ويصب في نواحي جبال

حضر موت، وأكد لي الرجلان -رداً على بعض تساؤلاتي- بأنه لا يوجد في بلادهم تلال أعلى من منحدرات نيد (نجد) الشاهقة، وهذا الاسم الذي يطلقونه على الهضبة التي تقع شمال وادي حضر موت، وبهذا يميزونها عن (هيد) حيد، حوق الواقعة بالجهة الجنوبية للهضبة. وواصل الرجلان إفادتهما بأن عوامر الرمال يعدون أنفسهم من رعايا ابن سعود وأن اسم زعيمهم ابن ركاض. وقد لاحظت بوضوح مظاهر انبهار هؤلاء البدو بمظاهر الرقي والتمدن والحضارة المنتشرة في الوادي.

لقد سبق أن أخطر السيد أبوبكر بأننا في طريقنا إليهم وعند وصولنا إلى منزله -والذي سبق أن نزلت فيه في زيارتي السابقة ضيفاً على ابنه السقاف- وجدت حشداً كبيراً من الضيوف الذين تمت دعوتهم على الغداء. وكان بين هؤلاء الضيوف السلطان علي وشقيقه حسين. وقبل تناول طعام الغداء أخذت حماماً في حوض السباحة الكبير وكان الغداء دسماً وهو يتكون من أطباق غريبة، مثل: حلوى المانقو، اليوسفي والكمثرى وكلها معلبة ومستوردة إما من جاوه أو اليابان. كانت غرف المنزل مزدانة بصور فوتوغرافية مكبرة لمساكن عائلة الكاف بتريم وسنغافورة، إضافة إلى لوحات زيتية تمثل مناظر طبيعية خلابة من اليابان تعكس مناظر القمر والنهر والأشجار المثمرة والمزدهرة والقلاع والجبال والمراكب الشراعية.

كان السيد أبوبكر مشغولاً بمشروعه الخاص بإقامة وإنشاء ورشة في سيئون، إضافة إلى تطوير حديقة زهور وفواكه أنموذجية بواسطة الري الصناعي من الآبار المتوافرة. وأثناء ساعات النهار كنت أشاهد المهندس التركي واسمه قادر وكانت وسيلة التخاطب بيننا هي اللغة الألمانية والتي كان -يجيدها أكثر مني-، وكان إحساسي الشخصي أن السيد أبوبكر قد جلب لنفسه مشاكل لا حصر لها، بتعيين هذا المهندس براتب قدره مئة وخمسون ريالاً شهرياً. وقد كان الاتفاق الأساسي بين الرجلين هو خمسون ريالاً شهرياً، إلا أنه وبعد أن لاحظ المهندس التركي بذخ وكرم مخدمه طالب بزيادة الراتب إلى ثلاثة أضعاف مع التهديد بعدم الذهاب إلى حضر موت. وقد

تمت الموافقة على جميع مطالب المهندس التركي والذي أصبح يتصرف وكأنه أمير. ولاحظت أنه لا يقوم بأي عمل يدوي فيما يتعلق بالإنشاء وإقامة الورشة المعنية، وطلب مني المهندس معاناة تصميم الورشة، والتي يطلبها المهندس شخصياً بأسعار لا أشك مطلقاً أنها تضمنت عمولة لا بأس بها. وعلى كل حال، وحتى وصول وتركيب الماكينات فليس في نية المهندس التركي القيام بأي عمل مفيد، ويبدو أنه قرر أن يظل خميرة عكنة لمخدومه وللآخرين لدرجة أنه رفض تناول الطعام مع السيد أبوبكر بحجة أن أي شخص في مكانه ومنزلته لا يمكن أن يأكل من طبق انغمست فيه أياد أخرى حسب العادات والتقاليد العربية في الأكل. ويبدو أنه كان يشغل وظيفة متميزة في بلاده وليس كمهندس قطعاً. لقد خدم الرجل في شرطة إسطنبول حيث كان مديراً للقسم السادس. وكانت مسؤولية هذا القسم تنحصر في مراقبة وتنظيم حركة مرور القطارات والسيارات بالعاصمة. وقد أخبرني أن دخله الشهري الأدنى كان يعادل أربعة آلاف ريال شهرياً، هذا المبلغ الكبير لا يشمل الراتب الشهري كما اعترف لي صراحة، بل هو عبارة عن نصيبه الشخصي في الرشاوي والغنائم! وقد شرح لي الأمر بكل وضوح، قائلاً في حالة الحوادث المرورية كنت أتولى أمر القضية وإجراءاتها. وكان السائق الذي يتسبب في الحادث المروري على استعداد تام لدفع أي مبلغ أطلبه بدلاً من الخضوع إلى إجراءات قانونية معقدة ومطولة تنتهي بالسجن لفترة زمنية محددة. ولهذا -وكما ترى- فإنه من السهل جداً كسب مثل هذا الدخل. ولم أتمالك نفسي من سؤاله لماذا ترك الوظيفة التي تدر عليه الذهب والفضة وتؤمن له المستقبل الزاهر وحضر إلى هنا لمضاعفة مشاكل العطالة المتفشية بعدن؟ أجابني الرجل: آه، وواصل حديثه: «لكن تلك قصة محزنة. كانت بطلتها امرأة وكان عليّ مغادرة إسطنبول بأسرع ما يمكن». وتخيلت أنه قام بابتزاز امرأة من عليّة القوم وكانت نتائج فعلته وخيمة بكل المقاييس، وإنني على ثقة بأن أي رجل في مثل عمره -التاسعة والثلاثين-، كما يدعي، ينتظره

الكثير من الإثارة والزخم في مقبل أيامه. غير أن مرحلة حضرموت بالنسبة للمهندس ستكون قصيرة جداً. وستكون (للأسف) خالية من أي إثارة وتشويق، ولقد شعرت بشيء من الأسف والأسى والشفقة على هذا الرجل!

عند مغيب شمس يوم ١٦ سبتمبر سمعت صوت ثلاث طلقات نارية من مدفع قديم معلنة رؤية هلال شهر رجب وقد حجب الرؤية عنا نتوء الجرف الشاهق بالناحية الغربية للمدينة وبعد اليوم الأول من شهر رجب إجازة محلية (رجبية) وتقام طوال هذا الشهر العديد من الاحتفالات والزيجات المحلية. تم تشييد منزل السيد أبي بكر قبل سنتين، أي في عام ١٣٥٤هـ وتم حفر نقش تذكاري على باب المنزل هكذا:

ب ي ت ك ل م ن د خ ل
٢ ، ١٠ ، ٩٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٤ ، ٦٠٠ ، ٣٠ ،
ف ي هـ ك أ ن أ م ن أ
٣٠٠ ، ١٠ ، ٥ ، ٢٠ ، ١ ، ٥٠ ، ١ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ١ = ١٣٥٤^(١).

وفي مساء اليوم نفسه اصطحبني السيد أبو بكر في سيارته لزيارة السلطان علي في منزله الفخم بالرغم من أن السيول كانت قد أحدثت به بعض الأضرار وقد سيطرت السياسة المحلية وأمور الحكم على النقاش الذي دار بين ثلاثتنا وفي صباح اليوم التالي غادرت سيئون وأنا أكثر قناعة لفشل اتفاقية ١٩١٨م التي لا تستحق أكثر من هذه النهاية بالرغم من أن لها حسنة واحدة هي أنها وضعت نهاية للعداء المتحكم بين قبيلتي القعيطي والكثيري مما أتاح لحضرموت هدنة واستقراراً استمررا مدة عشرين سنة كاملة، ومع ذلك لم تكن أحد طرفي السلام، أي الطرف الذي لم يوقع على الاتفاق ولم يفرض غيره بالتوقيع على الشروط التي فرضت عليه من قوة عظمى، لم يكيف هذا الطرف نفسه أبداً لسلام يفتقر إلى العزة والكرامة. ويبدو هذا الأمر وكأنه

(١) هذا بحساب الجمل والذي يقوم على وضع قيمة عديدة لكل حرف وصياغة بجمع هذه القيم لتعطي الكلمات والتاريخ المطلوب لتحديد تاريخ معين ومعناه وهنا (بيت كل من دخل فيه كان آمناً). (المراجعون).

رجع الصدى لاتفاقية فرساي ومنذ ذلك الوقت بدأت عدن تبدي اهتماماً كبيراً وغير عادي للوضع السياسي في حضرموت. لقد ضُربت قبائل الجبيري والصيغر والحموم بالقنابل وأجرى المستر انغرامز، المستشار أو الممثل المقيم الذي عين حديثاً أجرى محادثات مع سلاطين الكثيري والقعيطي وتولى مزاولة واجباتهم وسلطتهم الإدارية وتم ضم حضرموت إلى الإمبراطورية البريطانية حسب القرار الصادر في مارس ١٩٣٧م. وقام سلاح الجو الملكي البريطاني بزيارة إلى شبوة، وكنت آمل أن لو تمكنت سلالة الكثيري الحاكمة من التوصل مع النظام الحاكم الجديد، إلى شروط أحسن من تلك التي توصلت إليها مع العهد البائد كما المستجير من الرمضاء بالنار. توفي السلطان علي نهاية سنة ١٩٣٨م واستلم مقاليد الحكم والإدارة من بعده شقيقه حسين.

بدأت نشاطات اليوم التالي بحمام منعش وجميل بحوض السباحة، وأخبرني مضيفي أثناء تناول وجبة الإفطار بأنني أحتاج إلى بعض المؤن والتموينات لرحلة الاثني عشر ميلاً إلى شبام والتي ينبغي الوصول إليها عند ساعة الغداء وأخبرته بأننا لا نحتاج إلى أي شيء إلا أنه أفادني لاحقاً بأنه قد وضع صفيحة بسكويت في سيارتي، ذلك أنه ربما نحتاجها، وشكرته على عطفه وكرمه، بدون الخوض في المزيد من المناقشة. ولم أكتشف إلا بعد الظهر، أن صفيحة البسكويت كانت عبارة عن طرد ضخمة معبأ بأشهى وأطيب أنواع المخبزات، والتي بقيت معي لأكثر من أسبوعين، مثل: البسكويت وحلوى المانجو والكمثرى واليوسفي والأناناس وعلب الحليب المكثف وإنني لَجِدُّ شاكراً وممتن لكل هذا وخاصة علب الحليب. ومرة أخرى أجد نفسي مضطراً لتكرار شكري وتقديري للسادة آل الكاف ومواطني حضرموت عامة وقد كان كرمهم هذا الذي طوقوني به، تجربة شخصية ثرية ما كنت أستبدلها بأي شيء آخر.

وهذا أمر مثير للاستغراب والدهشة حتى على نطاق الجزيرة العربية نفسها.

عندما وصلت مدينة شبام علمت أن السلطان علي بن صالح خارج المدينة في رحلة إلى القطن. وقد تم إصلاح السيارة المعطوبة أما بقية مجموعتنا التي تركناها

وراءنا هنا قبل خمسة عشر يوماً فقد فرحوا غاية الفرح بعودتنا بعد أن ذهب بهم الظنون بأنني قد أكون غادرت المكلا عن طريق البحر. ولا يوجد الآن أي عائق يحول دون انطلاقنا، ومع ذلك فقد انتظرنا حتى تناولنا طعام الغداء بمنزل أسرة آل العجاج وجددت نشاطي باللقاء نظرة على مناظر شبام الرائعة. تحرك ركبتنا بعد الظهر وصحبني حسين حتى القطن وعاد أدراجه في الليلة نفسها. وواجهتنا بعض المشاكل عبر السهل المنبسط بين المدينتين بسبب الأمطار التي هطلت حديثاً، أما قرية خشامر التي تقع تحت الجرف من الناحية اليسرى فكانت تبدو كجزيرة مستقلة وسط الأراضي الخاضعة لقبيلة القعيطي وتتبع لإحدى عشائر اليافعي واسمها آل علي بن جابر.

استقبلني السلطان علي بحفاوة بالغة وأنزلنا في قصره الذي سنقضي فيه الليلة. كان السلطان مشغولاً -أثناء غيابي- بسبب بعض حوادث النهب والسلب التي قام بها -قبل فترة وجيزة- مجموعة من قطاع الطرق وأرسل السلطان فرقة من الجنود الرقيق لمحاصرة المجرمين، وقد وصلت الأخبار بنجاح الحملة وتمكنها من السيطرة على الوضع. وبينما نحن جالسون نتجاذب أطراف الحديث سمعنا صوت إطلاق نار بكثافة شديدة كما لو أن ثورة قد اندلعت. انتابني بعض الخوف والفرع إلا أن السلطان علياً أكد لي أن الذين يطلقون النار هم مجموعة من جنوده العائدين بمناسبة عودتهم وانتصاراتهم. ولا بد أن هؤلاء الجنود قد استخدموا في الإعلان عن انتصاراتهم هذه ذخائر أكثر من التي كسروا بها شوكة الخارجين على القانون. وعلى أية حال فقد كان السلطان علي سعيداً بنجاح مساعيه ومجهوداته لوقف غارات القبائل على رعاياه، وكانت هذه الانتصارات حديث المجتمع وقد وجدت مواطني ربيعة يتحدثون عنها في مساء اليوم الثاني، إضافة لذلك فقد طلب السلطان علي من مواطني شبوة تسليم الرجال الذين تخلوا وهجروا المستر بيرن في الصحراء وتم حبسهم بسجن القطن وادعوا أن المستر بيرن هو الذي تخلى عنهم وتركهم في الصحراء. وقد تم إطلاق سراحهم في نهاية الأمر. كان طموح علي المباشر هو إخضاع الصيعر ونهد لسيطرتة

المباشرة إلا أنه اشتكى من عدم توافر الأسلحة والذخائر اللازمة والضرورية لتحقيق هذا الحلم، وقد سألته عن رأيه حول شبوة مشيراً إلى ادعاء سلطات عدن بتبعية الإقليم لسلطان العولقي واعترض الرجل بشدة وأكد أن شبوة تقع تحت نفوذه المباشر مع العلم أن سكانها مستقلون.

وصلنا هينن في صباح اليوم التالي وقد استقبلنا سكرتير محمد بن آل مرتع، نيابة عن مضيفنا الذي غادر البلدة، لتقديم العزاء والمواساة لبعض الأقارب والأصدقاء في ديار آل بقري وكنت أخشى أن تضطر لقضاء الليلة في هذه البلدة إلا أن غياب محمد بن آل مرتع بدد هذه المخاوف وبعد أن تناولت طعام الغداء خلدت لقليلة قصيرة وبعدها ودعنا وادي حضرموت نهائياً بعد إقامة مستمرة امتدت لمدة تزيد على الشهر تقريباً، وسط أهله الطيبين. ومع أن برنامج الرحلة كان مشوشاً ومضطرباً إلا أنني لست نادماً على شيء أبداً.

طريق الحج

أثار إعجابي أثناء إقامتي بحضرموت الاهتمام الشديد الذي أبداه الجميع بمختلف طبقاتهم الاجتماعية برحلتنا بالسيارة عبر الصحراء من نجران السعودية إلى اليمن. ذلك أن هذه الرحلة أثبتت إمكانية السفر إلى مكة بالسيارة كبديل مفضل على الرحلة الشاقة بالجمال إلى ساحل البحر، ومن ثم بالباخرة إلى جدة. ولعل الحجاج من النساء هن الأكثر تضرراً من السفر بالباخرة بسبب إجراءات الحجر الصحي. وعلى وجه الخصوص بالنسبة للنساء. ولقد تأكد لي - بما لا يدع مجالاً للشك - بأنه لو تم فتح طريق بري يكون ملائماً لحركة السيارات، فإن الآلاف من المسلمين سيؤدون الفريضة سنوياً بدلاً من المئات الحاليين. ولقد تمت مناقشة الموضوع بإسهاب في تريم، ولقد عرضت علي نسخ من مجلة عربية تصدر في باتافيا اسمها (الرابعة)، صدرت في يناير ويونيو عام ١٩٣١م، وتحتوي على مقال من جزأين يصف طريق قافلة حج من تريم إلى مكة في عام ١٨٦٤-١٨٦٥م، وكان طريق القافلة متعرجاً إلى حد ما، واستغرقت الرحلة سبعة أسابيع بما فيها التوقف والراحة، غير أن كاتب المقال أشار إلى أنه إذا سلك المسافرون طريقاً آخر يسير عبر نجران فسوف تكون الرحلة على ثلاثين مرحلة، بدلاً من الخمس والثلاثين مرحلة الحالية: أي ما بين خمسة إلى ستة أسابيع، بما في ذلك فترات التوقف والراحة. ولقد أثبت بالفعل استخدام هذا الطريق بواسطة السيارات بين مشينقة العبر وطريق آخر من مشينقة إلى نجران ومن ثم مكة. وحقيقة الأمر أننا لم نجرب الطريق من آبار العبر وبوابات حضرموت، وعليه فقد خططت للسفر على هذا الطريق إلى أبعد نقطة يمكن الوصول إليها في اتجاه آبار العبر ثم محاولة اكتشاف طريق عبر الرمال للعودة إلى شبة على طريق يختلف عن طريقنا القديم الذي سافرنا عليه.

وفي يوم ١٨ سبتمبر وصلنا إلى هينن على أساس تنفيذ الخطوة المذكورة، ومع أننا لم نعلن مسبقاً عن قدومنا، ومع غياب ابن مرتع فقد أعلننا رغبتنا في مواصلة

الرحلة غرباً، مع إمكانية الانتظار قليلاً. ولن نلوم غير أنفسنا على وجبة نصف النهار الهزيلة والمكوّنة من خليط من البلح والأرز وسمك مجفف مطبوخ، وهو الغذاء الرئيس لسكان هذه المناطق ما لم يكن هناك ضيفٌ، وكانت هذه الوجبة كافية لإقامة أودنا، خاصة بعد أسفارنا وإقامتنا المترفة في حضرموت. قام سكرتير ابن مرتع بتقديم واجبات الضيافة والاستقبال، وكانت غرفة الضيوف تعج بالخدم والقرويين، وقد لاحظت أن العديد منهم كان يعضغ التبغ المزوج بالرماد^(١).

وقد كان بين الحضور رجل كان قد وصل قبل فترة وجيزة من مستوطنة ريده الصيغر، وكان يحمل -على أمل التكبس والريح- علبة مسطحة أو قدر صغير مثبت بسلك معدني وجد على طائر لونه أبيض -ربما يكون طائر اللقلق- والذي أصيب بطلق ناري. ولأن الطائر كان مجروحاً فقد ظل حياً، إلا أنه مات بعد فترة متأثراً بجراحه، ولهذا لم يتمكن الرجل من إحضاره معه بسبب تحلل الجثة. وقد وجدت رسالة داخل العلبة فيها تفاصيل عن المنطقة التي أتى منها الطائر في رومانيا، حيث تم تطويقه وربط العلبة حول عنقه بهذه الطريقة البدائية. قدمت للرجل ريالاً مقابل احتفاظي بالرسالة المكتوبة، إلا أنه قد استنتج أن قيمة الرسالة أكثر من ذلك بكثير فتمنّع من المقايضة واسترددت ريالتي وأعدت إليه العلبة بمحتوياتها بعد أن حفظت عن ظهر قلب محتويات الرسالة.

وبعد قيلولة قصيرة وعند الساعة الثالثة والنصف مساء كنت جاهزاً لمواصلة الرحلة. وكان أن أوصيت بتخفيف حمولة السيارتين وذلك باستئجار جمال ترحيل لحمل بعض مرافقينا إلى شبة بمن فيهم بلال مساعد الميكانيكي؛ وعندها أعلن محمد -سائق الشاحنة الخفيفة- عن نيته إنهاء خدماته معي، خاصة وأنا بالقرب من ديار أهله في هجرين مما يمكنه من تنفيذ تهديده المبطن هذا بدون عقاب يذكر إذا ما حرم

(١) وهي ما تعرف عند أهل المنطقة بـ «السويكة» وقد تقدم الإشارة إليها (ص ٢٧٧). (المراجعون).

من خدمات مساعده، وعليه فقد استجبت للتهديد ووافقت على بقاء المساعد مع الاستغناء عن خدمات أحد البدو وكمية كبيرة من البضائع التي حملها المرافقون بغرض البيع والتكسب منها في نجران. ومع ذلك لم أكن على استعداد للمخاطرة وتعريض الشاحنة الخفيفة لعطب آخر. وبما أنني سأتكفل بنفقات الترحيل بالجمال، فلم أقبل من الرجل الحق في التذمر أو الشكوى.

أفادنا ناصر بن شماخ بأنه يعرف الطريق جيداً وعليه فقد صار دليل الرحلة، وبهذه الصفة الجديدة شاركني في المقعد الأمامي للسيارة. وما إن قطعنا حوالي الميل إلا ووجدنا أنفسنا تائهين وسط كثبان الرمال، وعندها عدنا أدراجنا حتى وجدنا آثار الجمال وتبعناها. عبرنا قرية أرض آل حويل التي تقع تحت جرف قمران، وهو جرف شديد الانحدار، ثم عبرنا قرية صغيرة أخرى وسلكنا بعدها طريقاً يتوسط المسافة بين الجرف وطرق الكثبان الرملية، وتبلغ المسافة بينهما حوالي ربع الميل. تمتد البقعة الرملية أمامنا على هيئة أصابع طويلة وتواصل انتشارها حتى سفوح المنحدرات الصخرية الشاهقة. وبعد أن سرنا مسافة قصيرة اكتشفنا أننا ندور في حلقة مفرغة وسط الكثبان الرملية المتحركة، وكان علينا -وللمرة الثانية- أن نعود أدراجنا سالكين طريقاً يمتد على أطراف المنطقة الرملية حتى وصلنا مشارف قرية صغيرة باتسة اسمها ربيعة، تطل عليها من جانب الجرف صخرة جيرية مستقيمة ذات منظر أخاذ وتسمى "عُرف الديك" لقد قطعنا مسافة عشرة أميال منذ أن تحررنا من هين، ولو كان سيرنا في طريق مستقيم فإن المسافة الحقيقية تبقى سبعة أميال فقط. لقد عانيت اليوم ما فيه الكفاية، ثم إن الشمس كادت أن تغيب، لذا فكرت في إقامة معسكرنا وقضاء الليلة في هذه القرية والتي تبدو مكاناً مناسباً للراحة والنوم، إلا أن مساكنها المتباعدة جداً والتي تشبه الحصون بدت خالية من السكان تماماً، بعد أن رحل أهلها بحثاً عن الكلاء والماء، خاصة بعد هطول الأمطار خلال الشهر الماضي.

وبينما نحن نشق طريقنا ببطء عبر القرية التي غطى بعض أجزائها العشب الأخضر بعد أن ارتوت الأرض بمياه الأمطار، لاحظنا حركة بأحد المنازل بالطرف البعيد للقرية توحى بوجود بعض الناس، وبينما نحن نقترّب ببطء من المنزل ظهر رجل فوق سطح المنزل يحمل سلاحاً نارياً. أوقفت السيارة على بعد حوالي مئتي ياردة من المنزل ونزل ابن شماخ من السيارة في انتظار ترحيب الرجل بنا، بينما نزلت أنا من الجانب الآخر للسيارة ولاحظت أن الرجل قد أسند سلاحه على حاجز سقف المنزل ووجه فوهة البندقية نحوي مباشرة، وعندها انسحبت إلى مؤخرة السيارة بعيداً عن أنظار الرجل وفي هذه الأثناء حاول ابن شماخ أن يوضح للرجل نيتنا في قضاء الليلة هناك، وبعد فترة -خلتها دهرأ- نزل الرجل من سطح المنزل وقرر استقبالنا. كان مضيفنا كبير السن بعض الشيء ولا يرتدي من الثياب إلا ما يستر عورته (الإزار)، إضافة إلى سلاحه الناري، وكان منفعلاً وهائجاً بعض الشيء ولا يوحى منظره العام بأنه سليم العقل تماماً. ومع ذلك أبدى شعوراً بالرضى والمودة والاستعداد لاستضافة هؤلاء الغرباء، وبعد هنيهة بدأ سكان المنزل في الظهور! وكان أول الخارجين من الدار شابان في مقتبل العمر، ثم امرأة مسنة يبدو أنها والدتهما، وظهرت أخيراً شابة ذات حسن وجمال وهي ابنة العجوز والتي يبدو أنها استثمرت لحظات التوجس والترقب في إكمال زيتتها حتى تظهر كأجمل ما تكون أمام الغرباء! كانت الفتاة ترتدي ثوباً جميلاً مصبوغاً بلون نيلي ومثبتاً عند الخصر بحزام مطرز ولم تكتف الفتاة بهذا، بل وضعت العديد من الحلبي الفضة اللامعة. ويبدو لي أنها كانت تأمل -مجرد الأمل- أن يتقدم أحدها ليطلب يدها. وعلى العموم فقد كانت الفتاة لطيفة وودودة بقدر ما أعطاهها الله من جمال فريد، وقد كانت تتحدث بطلاقة وبدون أي خجل أو حرج. وربما لا يكون لها أي اتصال يذكر بنساء أُنحر خارج نطاق دائرة العشيرة الضيق. تقدمنا بدعوة الفتاة وأنها لتناول طعام العشاء البسيط معنا وكان

مكونا من أرز إلا أنهما فضلنا مراقبتنا ونحن نأكل ويبدو أنهما لا تفضلان الأرز كطعام، وبما أن خرافهما ترعى بعيداً عن الديار، فلم يتيسر لنا الحصول على أي نوع من اللحم.

ينحدر سكان قرية ربيعة من آل جذنان وهي إحدى بطون عشيرة نهد. أخبرنا علي -الرجل العجوز- بأن لديه ثلاثة من أبناء إخوته يعملون في كيسمايو بالصومال الإيطالي، وأنهم يرسلونه ويمدونه بمساعدات مالية لتغطية نفقات الأسرة، وبهذا فالرجل مشدود -بصورة غريبة- إلى العالم العريض البعيد عن نطاق وعيه وإدراكه، وقد استمع الرجل وابنته -في تلك الليلة- ولأول مرة إلى صوت العالم يتحدث وسط أراضيهم اليباب، وبما يؤسف له أن الإرسال كان مشوشاً ومع ذلك فقد تعرف الرجل وابنته على لغتهم التي سمعوها من المذيع وقد اندهشوا أيما دهشة بما سمعوا. وبعد أن أنهيت الجلسة واستلقيت استعداداً للنوم، بدأت استعراض أحداث هذا اليوم الشاق، وبدأنا الاستعداد للرحيل في جو مفعم بالرضى والأمانى الطيبة.

كان خط سيرنا العام في اتجاه الجنوب الغربي نحو صخرة القليعة المنعزلة، وقمتي نكمن على مصب وادي سر. ويقع الجرف وكثبان الرمال خلف طريق سيرنا بحوالي ميل واحد تقريباً. واصلنا السير فوق هضبة تكسوها -إلى حد ما- أشجار السنط القصيرة وبعض الشجيرات الصحراوية الأخرى، وبعد أن قطعنا حوالي ستة أميال مررنا قريباً من بئر رشيدة وكانت تقع على يميننا، وبعد ذلك بقليل تخطينا قصر كردان، وهو يعد حصن قبيلة نهد. ويقع الحصن المذكور على يسارنا، وبعد مسافة خمسة أميال أخرى وصلنا بئر الجديدة وهي مثل القلعة من ممتلكات شخص اسمه عبدالله بن مبارك الكردان. يبلغ عمق البئر ثلاث عشرة قامة، وهي ذات فوهة ضيقة وقصية مصفوفة بالحجارة. وبعد حوالي ميل آخر في اتجاه الشمال الشرقي وصلنا إلى وادي مضلاب المنحدر من اتجاه الشمال بين أراضي مهباد -بعض الأحيان تسمى مضلاب- وميس، ويتلاشى الوادي رويداً رويداً في الرمال. وتدل غزارة المياه في

البثرين المذكورتين والهضبة المغطاة بالعشب الأخضر على الأمطار الغزيرة والسيول التي غمرت هذه المنطقة مؤخراً.

يتمد الوادي في هذا السهل ليلتقي بوادي سر الأكثر أهمية، حيث إنه يمثل شريان التصريف الرئيس للهضبة الشمالية والرافد الأكثر نشاطاً في أقصى الجهة الغربية ليلتقي بوادي حضرموت من الناحية الشمالية. ويتمد مجرى وادي سر حتى السهل الواقع بين هضاب ثكمين بالناحية اليسرى وخشم العفر بالناحية اليمنى، ويقع هذا الوادي في اتجاه الشمال الغربي من السهل الذي نسير فوقه الآن وهو -أي السهل- يشكل دلتا الوادي الذي تكسوه أشجار السنط الكثيفة. هناك خط من شجر الحرمل والفرد وبعض الأعشاب المختلفة يشكل المعلم الرئيس لمجرى مياه الوادي المكوّن من الرمل والحصى. ويوجد بجانبه وعلى هضبة صغيرة حصن بدر بوطويق -ويسمى أيضاً حصن سر-. لقد لاحظت أن طريق ريدة الصيعر، المركز الرئيس للفرع المستقر للقبيلة الموالية للشيخ يسلم بن جربوع، يعتلي الهضبة عن طريق عقبة شاهقة، لكن يبدو أنها ليست صعبة. وتقع قرية ريدة الصيعر في وادي المخية، وهو أحد أودية الهضبة التي تصب في اتجاه الشمال، وينتهي في السهل الكبير الذي يكثر فيه الحصى، وهو يمثل الحد الفاصل بين القرية والربع الخالي.

توجد أيضاً سلسلة من الجبال المنخفضة عند الطرف الغربي للدلتا، وقد تخطيناها عبر ممر ضيق وانحدرنا بالجانب الآخر حتى وصلنا الحصن الوحيد بتلك الجهة، وتحيط به أكواخ قليلة مصنوعة من أغصان مضمفورة بسيقان القصب والآبار الأربعة التابعة لحصن آل خويران. وتتميز هذه الآبار بفوهات ضيقة مع ضفيرة الحجر على طول البثر، وبها مياه وفيرة على عمق يتراوح بين ١٨-٢٠ قامة. التقينا في هذا الموضع مع مرافقينا الذين استقلوا الجمال من هين، هذه الجمال يمتلكها صاحب الحصن الذي قرر عدم مواصلة الرحلة معنا لمقابلة زوجته والاطمئنان عليها، وكانت

الزوجة وقتها تقوم بسقاية أغنامها عند البئر، وكنت أتوق إلى أكل لحم طازج، إلا أن الانتظار يعني ضياع وقت ثمين.

استرحنا حوالي الساعة واستنفدت خلالها ملء ترمس من الشاي بينما كان المرافقون الآخرون يشربون القهوة. وقد أخبرني مضيفنا عبد الله آل خويران أن المستر بيرن لم يصل في أسفاره إلى النقطة التي نجلس فيها الآن، وأنه عاد أدراجه من جوار بئر رشيدة. يقع أسهل الطرق لعبور الأرض الرملية -الجزء المعروف ببئر بابوس، احتمال أن يكون مشتقاً من اسم بئر قديمة بالمنطقة- على بعد حوالي ميلين أو ثلاثة في اتجاه الجنوب الغربي من آل خويران. والآن أستطيع أن أفهم لماذا انسحب البدو المرافقون للمستمر بيرن عند السهل ذي الأشجار الكثيفة وسلكوا ذلك الطريق إلى مدينة سبوة.

بدأت الأشجار تتباعد عن بعضها فوق السهل، بينما كنا نحن نقترّب من بئر الجديدة على بعد عشرة أميال غربي آل خويران. وجدنا فوق البئر مجموعة من الرعاة مع ماشيتهم من القمازين نهد ومعهم عدد قليل من الرعاة من المطاحلة -بطن آل زيد من قبيلة الكرب-، وبينما نحن في سيرنا تقدمت مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الرعاة يحملون بنادقهم في حالة استعداد لكنهم سرعان ما تعرفوا على شخصية عبد الله آل خويران الذي كان جالساً معي في المقعد الأمامي للسيارة كدليل بدلاً عن ابن شماخ. استقبلنا الرعاة بترحاب شديد وكانت بينهم بعض النساء اللاتي كن يسجن الماء من بئر بعمق خمس وثلاثين قامة. تقع هذه البئر على طرف الرمال مباشرة وتفصل بينها وبين الكثبان العالية مسافة تبلغ حوالي ربع ميل فقط. وعلى الجانب الآخر يرتد الجرف إلى خليج شبه دائري واسع يقع بين خشم معول بالناحية الشرقية وطرف العين بالناحية الغربية. وينحدر عبر هذا الخليج واديان هما: وادي ثاني ووادي عكبان. وتُغطي جزء الطرف الغربي لهذا الخليج جبال برق العين وهي جبال مبعثرة ومنخفضة الارتفاع، أما وادي أم السمر فيقع بين جبال برق العين وجبال طرف

العين وينحدر الوادي في اتجاه التربة الرملية. تكسو دلتا وادي ثاني وعكبان شجيرات وأعشاب شبه يابسة ويبدو أنه لم تنزل عليها أمطار منذ فترة ليست قصيرة.

توقف حجيج عام ١٨٦٤-١٨٦٥م عند هذا الموقع في منتصف النهار بعد وصولهم من قعوضة عبر رهطان -على طريق شبة- وقضوا ليلتهم في بايوس قبل مجيئهم بطريق دلتا سر ومن هنا واصل الحجاج سيرهم بطريق وادي المنفلقة وقرن الذياب حتى آبار العبر.

دخلنا الآن سهلاً واسعاً وأجرد تتفاوت طبيعة أرضه بين الرمل والحصى وتتواجد فيه غزلان بأعداد كبيرة. شاهدنا ظبية من نوع العفري وحاولت مطاردتها بالسيارة إلا أنها دخلت منطقة وعرة لكننا كنا أكثر حظاً مع ظبية من نوع إدجي بعد أن أطلقت عليها طلقة من سلاح الناري عيار ٤١٠ (والطلقة رقم ٧) بعد مطاردة قصيرة بالسيارة، وبعد حوالي ستة إلى سبعة أميال من بئر الجديدة وصلنا إلى بطن وادي أم السمر؛ حيث أصبح الطريق وعراً والسير صعباً بسبب الأشجار الكثيفة والغدران. كان طريقنا بهذا الوادي قريباً من جبل طرف العين ومن هنا ينحرف الجرف في اتجاه الشمال مسافة عشرة أميال أو تزيد قبل أن يتخذ مساره الغربي في اتجاه عبر وادي العبر وبعده يتلاشى في طرف حافة مصاير. وتتوافر هنا مياه الينابيع وأشجار النخيل التي لا تحتاج إلى سقاية في أعلى وادي أم السمر أو في واد جانبي بالناحية الشرقية وتسمى هذه المنطقة العين، ويمكننا أن نرى بوضوح معالم العبر على الجانب البعيد لخليج صحراوي واسع يمتد وتره من طرف العين حتى سلسلة جبال مصاير.

وبعد مسيرة أميال قليلة من أم السمر وصلنا إلى واد آخر اسمه وادي حجير. ويجتاز هذا الوادي السهل من الناحية الغربية لطرف العين وتنمو في هذا الوادي أشجار غزيرة وعشب أخضر وقد شاهدت بعض النساء مع أغنامهن إضافة إلى ثلاث

من الظباء، ذكر وأنثيين، تنام تحت ظل شجرة قريبة من حيث تقف النساء ويبدو أن ركبنا قد قطع على الظباء نومة الظهيرة الهادئة، لهذا انطلقت بسرعة البرق وأسرعنا نحن خلفها وركزنا على ذكر الظبي الذي كان أمامنا بمسافة غير قصيرة إلا أننا تمكنا من اصطیاده في نهاية الأمر. لدينا الآن ما يكفي من اللحم لفترة معقولة. واصلنا سيرنا في اتجاه قرن الذياب وهي أبعد نقطة كنت قد خططت للوصول إليها في اتجاه العبر. قطعنا مسافة ستة عشر ميلاً عبر سهل جو الطلع الذي تغطيه الرمال والحصى وكانت بعض أجزاء الطريق وعرة إلا أن سيرنا عموماً كان سهلاً وممتعاً مع اكتساء الأرض بالخضرة من وقت لآخر. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد الظهر وهو موعد الأكل والراحة.

تبعد منطقة قرن الذياب -والتي كنت أود أن تكون محطة استراحة الظهيرة- على بعد أقل من ميلين إلا أنه يفصلنا عنها شريط واسع من أرض جبلية، ولا يبدو أن الأمر يستحق مخاطرة تعرض سيارتنا لأي عطب أو تلف. وعلى كل حال فقد أصبح من الواضح تماماً أن طريق سيارات الحج لا بد أن يدور حول هذه الأرض الوعرة وذلك بالاتجاه غرباً إلى وادي العبر والسير في محاذاته حتى منطقة الآبار. وعليه انحرفنا جانباً عبر منخفض شبه مسطح تكسوه بعض الشجيرات التي استمتعنا بظلالها بنومة بعد الظهيرة التي استمرت حتى الرابعة مساءً. لقد قطعنا حوالي ستين ميلاً منذ أن غادرنا ربيعة في الصباح الباكر وقمنا بتفقد الطريق البري الذي سوف يسير عليه مستقبلاً حجاج حضرموت. بدأ سعد مباشرة سلخ إحدى الغزلان التي يكون لحمها وجبة دسمة سواء أكان مقلياً أم مشوياً وختمت هذه الوجبة بعلبة المانجو التي كانت من ضمن الهدية الشخصية التي قدمها لنا السيد أبو بكر. وقد سبق الوجبة وأعقبها كالعادة الشاي الذي لا يفارقنا أبداً.

عبد الله آل خويران شخصيته لطيفة جداً مع أنه كثير الكلام وقد أخبرني مرة أن إقليم نهد يمتد من منطقة قريبة من القطن بالجهة الشرقية حتى الخط الذي يربط بين

طرف العين وغالباً التي تقع هي الأخرى شمال وجنوب الحزام الرملي على التوالي .
وغرب هذا الخط تحتل الكرب المنطقة التي تقع جنوب حزام الرمال بينما تشغل الصيعة
المنطقة التي تقع شمال الرمال .

وتمثل الرملة ما يمكن أن يطلق عليه «الأرض التي لا مال لك لها» أي المنطقة
المشاعة للجميع مع أن الكرب تسيطر عليها سيطرة فعلية . ينحدر المنخفض -الذي
توقفنا فيه- ناحية الشمال لمسافة ميلين تقريباً حتى يصل إلى جرف كبير تحت أرض
خشم جاحم التي تقع على جانبها حدائق نخيل وينايع جاحم والقلب . تابعنا سيرنا
حول الجرف في اتجاه الشرق حتى وصلنا منطقة ماضييه (أم الضباء) التي تحفها حدائق
النخيل التي تروى بمياه الينايع ، وبعدها وصلنا إلى أم الكلاب بأشجار نخيلها
وينايعها ثم باقم بأشجار نخيلها وينايعها أيضاً ، ثم عبرنا عجل ومليحان حتى طرف
العين . هذه المناطق غير أهلة بالسكان وعلى الرغم من ذلك فإن إنتاج مزارع النخيل -
التي سبق الإشارة إليها- جيد ووفير . وقد علمت أن ملاك هذه الحدائق من قبائل
الصيعة يحضرون في مواسم الصرام لجني التمور ثم يعودون أدراجهم بأسرع ما يمكن
وذلك خوفاً من الأبخرة التي تنبعث من الينايع المتدفقة وأن البقاء والعيش في هذه
الأودية يعني لهم الموت بعينه .

واصلنا سيرنا بعد نومة القيلولة وعبرنا مجرى وادي جاحم الذي يتدفق من
أعلى المرتفعات حتى دلنا حجير على مسافة قصيرة من الحزام الرملي . ثم واصلنا
مسيرتنا في اتجاه الشرق حوالي ستة أميال فوق سهل من الحصى واسع حتى أصبحنا
على بعد حوالي ميل واحد من أرض باقم حيث تمكنا من رؤية بعض حدائق النخيل
المنتشرة في واديها . وتوجد في هذا الوادي أربعة ينايع -وتسمى الغيل وتشمل
المجاري المتدفقة منها- وهي : باقم ، الجاية -وبها حصن غير مأهول- ، أم الغربان
وآل فرج . وتنمو في كل من هذه الينايع حديقة نخيل يلاحق بعضها بعضاً . انحرفنا

الآن في اتجاه الجنوب على خط مواز للجرف، وسرنا أولاً عدة أميال فوق سهل منبسط من الحصباء حتى وصلنا وادي المنجور الواسع الذي تكسوه أشجار السنط والنباتات. ويبدو أن هذا الوادي أصبح نقطة تجمع للمياه المنحدرة من باقم والمرتفعات المجاورة لها، وتتدفق هذه المياه -عبر وادي المنجور هذا- حتى تلتقي بوادٍ آخر اسمه السديحات الذي ينحدر من خشم المنجور ويحتضن سفح الجرف حتى يصل طرف العين ثم يلتقي مع وادي حجر في طريقه إلى الرمال.

تبعد نقطة العبور المنحرف لوادي المنجور حوالي ثلاثة أميال وبعد ذلك أصبح طريقنا سهلاً ومن دون عوائق تذكر، ويمتد طريقنا فوق سهل تكسوه طبقة خفيفة من الحصى ويواصل امتداده غرباً على أطراف وادي العبر. ويسمى الجزء الشرقي من هذا السهل قحوضاً، ومن هنا وعلى بعد حوالي ثمانية أميال من باقم، عبرنا مساراتنا الخارجية ومن تلك النقطة سلكنا طريقاً في اتجاه الجنوب نحو أطراف الرمال التي تبعد حوالي خمسة أميال. ويقع الخط الأول من الكثبان الرملية على بعد حوالي ميل آخر غير أنه لا يبدو من الحكمة أن نتورط بالتوغل في هذه المتاهات الرملية ذلك أن الوقت قد تأخر بعض الشيء كما أن المنطقة خالية تماماً من أي أعشاب أو شجر، وبدأنا في التفكير فيما إذا كنا سنجد حطباً كافياً لتجهيز وجبة العشاء خاصة وأن معنا كميات كبيرة من اللحوم.

اتجهنا نحو الشرق على أطراف الحزام الرملي الذي تبرز منه نتوءات من الرمل الصلب. غابت الشمس من وراء ظهورنا وواصلنا سيرنا بدون استخدام مصابيح السيارة خوفاً من إثارة انتباه أي بدوي يكون في الجوار. وفجأة شاهدنا أمامنا وعلى مسافة قريبة أشكالا داكنة كما لو كانوا مجموعة من الرجال على ظهور جمال. إلا أن عبد الله تعرف على هذه الأشكال وأفاد بأنها نوع من أشجار السنط تسمى (الركاب) على أساس تشابهها العجيب برجال يركبون جمالاً وكانت هذه الأشجار خضراء

بمعنى أننا لن نجد فيها الوقود الذي نحتاجه، وواصلنا سيرنا ثلاثة أميال أخرى -مسافة تسعة أميال منذ أن اتجهنا شرقاً- حتى وصلنا منطقة غزيرة بالأشجار في حوض أو منخفض يسمى رأس الحب. وكان علينا إقامة معسكرنا هنا لقضاء الليلة، شئنا ذلك أم أينا؛ ذلك أن الظلام أصبح دامساً للحد الذي تعذرت فيه الرؤية تماماً ولم يسفر البحث المستمر عن أي عشب أو حطب جاف للوقود وعليه أويانا إلى مضاجعنا من دون وجبة اللحم التي كنا نمني أنفسنا بها! وكان معي على كل حال -وكالعادة- ترمساً مليئاً بالشاي الذي تم تجهيزه أثناء استراحة منتصف النهار. أعطيت مرافقي مجموعة من علب الأناناس واكتفيت بعلبة من سلطة الفواكه مع قليل من البسكويت، وطوبى لك يا أبا بكر، وعند الساعة السابعة والنصف مساءً هبت رياح يصحبها رمل ناعم وغير مريح وكانت بعض السحب تغطي السماء ومع ذلك تمكنت من تسجيل كل ملاحظاتي ومشاهداتي ثم أدت مؤشر الراديو واستمعت إلى موسيقى رقصة السبت كانت تُبث من فندق الملك داود في بيت المقدس وقد استمتع مرافقي، خاصة البدو منهم بهذه الموسيقى. ولقد قضينا يوماً طويلاً وشاقاً قطعنا فيه مسافة تسعين ميلاً تقريباً وأظن أننا جميعاً أخذنا ما نستحق من النوم والراحة تلك الليلة.

وفي صباح اليوم الثاني قمت بجولة حول المنطقة لمشاهدة بعض المعالم التي من حولنا غير أن هماً الأول كان تدبير وجبة الإفطار وملء بطون خاوية تماماً ووجدنا من حطب الوقود ما يكفي أغراضنا من الشاي والشواء. كونت الأعشاب التي عسكرنا حولها جزيرة واسعة منعزلة وسط بحر من الرمال المتحركة ببطء. وتوجد كتبان الرمال على بعد حوالي ميل واحد في اتجاه الجنوب بمنطقة تسمى شقاق الحرمل. ومن وراء هذه المنطقة وعلى مسافة بعيدة تمكنت من رؤية أعلى أراضي مجموعة وقويم ويمتد خط وادي أم السمر بأشجاره الكثيفة في منطقة داكنة من طرف العين حتى يصل حافة الرمال، وقد خمنت أننا لا نبعد كثيراً عن منطقة بشر الجديدة. لقد كانت لدي بعض

المخاوف من عبور الحزام الرملي الممتد أمامنا، إلا أن عبدالله الذي يعرف المنطقة جيداً أكد لي أننا لن نواجه أي عقبات أو مشاكل، ولم يتحرك ركبنا إلا حوالي الساعة التاسعة إلا ربعاً صباحاً. سرنا أول الأمر مسافة قصيرة على أرض رملية سهلة ومنتومة حتى وصلنا إلى حزام واسع تكسوه كثبان منخفضة وبدلاً من أن ننحرف جانباً لكي نتحاشاها، اندفعت وسط اثنين من هذه الكثبان وكنت أوصل القيادة بسهولة وأمان إلا أن محمداً -سائق السيارة الأخرى- اختار مجرى مغيراً وغرزت سيارته في رمال ناعمة. استغرقنا بعض الوقت حتى خلعنا السيارة من الرمل. ثم تقدمت سيارة محمد مرة أخرى متتبعاً بعض المجاري المتداخلة بطريقة سهلة، وانحرفنا تدريجياً من الشرق إلى اتجاه الجنوب الشرقي حتى وصلنا سهلاً رملياً ممتداً وكانت كثبان الرمل العالية على مسافة ليست بعيدة على جانبي طريقنا.

وبعد أن قطعنا مسافة أحد عشر ميلاً من نقطة انطلاقنا وصلنا إلى شبه وادي، أحواض طينية رملية متتالية تكسوها طبقة خفيفة من الحصى وبعض الشجيرات التي تتعرج عبر متاهة الروابي والكثبان الرملية. تسمى هذه المنطقة الفوة (الفم أو الممر) وبينما كنت أسأل نفسي متى الخروج من هذه المتاهة لمواجهة الصعاب والمشاكل الحقيقية التي تنتظرنا أخبرني عبدالله أن العبور قد انتهى وخاطبني عبدالله «انظر إلى تلك المنطقة ذات الحشائش»، وأردف قائلاً: «تلك هي مستوطنة عدة التي حدثتك عنها». وقد سبق أن أخبرني عبدالله والآخرين عن بثر حمد والأطلال التي تحيط بها والتي يرجع تاريخها إلى قوم عاد في عصور ما قبل التاريخ وفي بحثهم وسط هذه الأنقاض وجد العرب القدماء آثاراً قديمة مثل تمثال من الذهب لحصان وسيفين وأشياء أخرى. ومن الواضح أن هذه الآثار القديمة قد أرسلت إلى صنعاء أو حضرموت للبيع والتكسب واشتهر المكان وسط السكان المحليين بأن به كنوزاً مدفونة مع العلم أنه لم يرد لهذا الأمر ذكر في أوروبا.

لم نستغرق وقتاً طويلاً للوصول للأطراف الشمالية للموقع الأثري وهو ذو قيمة تاريخية مهمة. وتوجد العديد من الركائز والدعائم المغطاة بالحجر مع بقايا بناء صلب وكتل فخارية غير مصقولة، مع معثورات أخرى مختلفة. لقد تم بناء هذا الموقع على هيئة شهب مربعة طول كل ضلع منها حوالي نصف ميل أو أكثر، ومن الواضح أن البناء قد تم على أرض مرتفعة ذلك أن أطرافه تبدو مرتفعة عن بقية السهل المنبسط وربما كان مركزاً زراعياً - في العصور القديمة أو القرون الوسطى - على ضفاف وادي دهر السفلية وبسبب الزحف الصحراوي قد هجره سكانه بعد أن صعبت إن لم تتعذر الزراعة في المنطقة. وعلى كل حال فإن المنطقة التي نتحدث عنها تقع في خط وادي دهر. بينما يدخل وادي رخية المنطقة الرملية على بعد مسافة في اتجاه الشرق. ومن المحتمل أن تلقي الأواني الفخارية والآثار الأخرى بعض الضوء على تاريخ هذه المستوطن التي ربما يثبت أنها واحدة من العديد من المدن القديمة الضائعة، غير أنني لم أعثر على أي شيء من قبيل النقوش وسيكون من الصعب تحديد ومعرفة المكان. ويبدو أن الجهة الجنوبية لهذه المنطقة كانت محصنة تماماً للحماية من آثار سيل وادي دهر ويمتد السد الترايبي إلى الجهة الغربية أيضاً. أما الزاوية الشمالية الغربية التي تعلو بئر حمد فيبدو أنها كانت الحي السكني وتتناثر فيها العديد من بقايا أوان فخارية وقطع أثرية أخرى وقد جمعت ما استطعت من هذه الآثار وبعد ذلك اتجهت إلى البئر حيث اتخذ مرافقي معسكرهم وبدؤوا تجهيز وجبة الغداء بما تبقى من لحوم الغزلان التي اصطدناها بالأمس.

يوجد حصن طيني صغير تم تشييده لحماية بئر حمد التي تقع على مجرى أحد فروع وادي دهر المنحدر عبر الجانب الجنوبي للمنطقة الأثرية المهجورة حتى يصل فرع الوادي إلى منطقة مليئة بالأعشاب والشجيرات في محاذاة طرف الرمال. ويبلغ عمق البئر ثمانية عشر رجلاً (قامة) وبها ماء وفير حلو المذاق، وقد وجدنا فوق البئر ثلاث نساء ورجلاً من قبيلة نهد يسقون خمسة جمال ويرددون أغانيهم وأهازيجهم المعتادة

هيا، هبوا، هيا، هيا. شاركنا الرجل طعامنا بينما نهضت من مكاني حول المائدة وحملت فخذاً من لحم الغزال قدمته للنساء كما قدمنا لهن بعض الأرز إلا أنهن لم يرغبن فيه واكتفين باللحم. لقد أكلت نصف جورة هند أثناء فترة انتظار تجهيز الطعام وكانت هي آخر ما تبقى من زادنا الذي حملناه معنا من مدينة المعدي، إضافة إلى علة يوسفى وكوب شاي. لقد علمتنا حضرموت الإسراف والبذخ. وارتفعت درجة الحرارة أثناء الظهيرة وبلغت ١٠٤° فهرنهايت عند الساعة الثالثة مساءً إلا أن نسيماً عليلاً هب علينا ولطف الجو كثيراً.

استأنفنا سيرنا وعبرنا حاجزاً منخفضاً تكسوه الحجارة في سهل رملي يمتد تعلوه مجموعة من نتوءات متشابهة تمتد حتى أطراف المدينة القديمة. ويجوز أن تكون بقايا سد قديم أقيم عبر هذا الفرع من وادي دهر لأغراض الري، عبرنا الآن سلسلة من الكثبان الرملية المتموجة المغطاة ببعض العشب حتى وصلنا سهلاً تكسوه طبقة من الحصى. ويوجد على الجانب البعيد من هذا السهل كثيب رملي يمتد من خشم مجموعة حتى الحزام الرملي مكوناً عائقاً على طريق سيرنا. كانت الرمال التي نسير عليها صلبة وواصلنا سيرنا مع ذلك على طريق متعرج فوق كثبان رملية تقع بينها منخفضات صغيرة. وكلها تمتد في اتجاه الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. بعد ذلك واجهتنا كثبان رملية يصعب السير عليها بالسيارات، ولهذا غيرنا خط سيرنا حتى تخطينا هذه الكثبات تماماً وواصلنا سهلاً ممتداً و متموجاً تتناثر فوقه بعض أشجار السنط وتغير الكساء الرملي تدريجياً إلى أرض حصباء وانتهت مع نهايات مجرى فريجة (دهر) برماله الناعمة الكثيرة وشجيرات منخفضة اكتست خضرة ونضارة بعد الأمطار التي هطلت أخيراً. بعد ذلك عبرنا سهلاً واسعاً تكسوه طبقة من الحصى وكانت بعض أجزائه وعرة بعض الشيء. وواصلنا سيرنا عبر هذا السهل وتخطينا راية سحلال وكانت الشمس، من خلفها تقترب من الأفق مؤذنة بمغيب الشمس وقررت إقامة

معسكرنا في هذا المكان لقضاء الليلة هنا حتى أتمكن في صبيحة اليوم التالي من استكشافه من قمة الجبل.

كان السهل أجردً وقاحلاً وكان لا بد أن نستغني عن الطبخ ذلك المساء لعدم وجود حطب الوقود ومع ذلك لاحظت أن نباتات الفا الخضراء تغطي سطح المرتفع الذي نصبنا فيه معسكرنا. هذا النبات يوفر بيئة صالحة لتوالد الفئران ولهذا نصبت شراكي واتخذت من البسكويت الذي أحمله معي طعاماً لهذه الفئران. وأعتقد أن هذه الفئران تعتمد في غذائها على بذور نبات الفا التي تسقط على الأرض. تسقع هضبة قرن البنا التي استرحنا فيها في طريقنا إلى حضرموت على بعد عدة أميال في اتجاه الشرق، ويبعد عنا طرف الحزام الرملي بحوالي المسافة نفسها في اتجاه الغرب والشمال. استأذن عبد الله خويران لزيارة أهله وفارقنا عند بئر حمد للسير عبر الرمال إلى حيث تقيم عشيرته. لقد قطعنا حتى الآن حوالي عشرين ميلاً منذ مغادرتنا البئر. وفي صباح اليوم التالي (٢١ سبتمبر) صعدت بمفردي إلى قمة هضبة سحلال التي بلغ ارتفاعها حوالي مئتي قدم فوق سطح السهل. تتكون قمة الهضبة من حجر رملي مع غطاء رفيع وصلب جداً من الحجر الجيري، وبسبب الأحوال الجوية وعوامل التعرية الأخرى التي تعرضت لها الهضبة عبر العصور الغابرة فقد تناثرت قطع من هذا الغطاء الحجري وغطت أجزاء من المنحدر. وقد عثرت أثناء البحث وسط هذا الركام المتناثر على بعض الأشكال المتحجرة التي يرجع تاريخها لعصر الأيوسين. كذلك فإن المنظر الخلاب الذي استمتعت به من قمة الهضبة كان كافياً في حد ذاته عن ما سواه من الغنائم التي عثرت عليها.

جلست على الأرض للاستمتاع بهذه المناظر الجميلة وكان معي ما يشجعني على الجلوس والتأمل: ترمس الشاي وعلبة من شرائح الأناناس من جزر الهند الشرقية. وجهت بصري في اتجاه الشمال الغربي لأشاهد، على مسافة بعيدة، قمم مصاير الأربع، وجبل المخاري والبحرورة. وهذه المعالم أظهرت موقع آبار العبر ومنها يمتد

الجرف الشمالي الطويل الذي يمكن رؤيته حتى منطقة خشم مهباد وهضبة القليعة. أما في الاتجاه الآخر فيمكنني رؤية كل الأراضي المرتفعة حتى قعوضة بالناحية الشرقية وخشم رميدة بالناحية الغربية. وتقع بئر عساكر على مسافة قريبة فوق قمة الهضبة إضافة إلى مجرى وادي دهر الواسع المنحدر من بين هذه المرتفعات المصطفة في تناسق وانسجام بديع. وكان باستطاعتي رؤية وادي عساكر (وادي مطار) وهو يلقي عصا ترحاله الطويل أمام كثران الرمل وبالتالي لم يصبح رافداً مهماً لوادي حضرموت.

وفي حوالي العاشرة صباحاً نزلت من قمة الهضبة إلى المعسكر لمواصلة الرحلة عبر السهل الممتد أمامنا ولم يقطع رتابة سيرنا إلا مجرى وادي مطار. أسرعنا في السير فوق طريق مستقيم لحوالي خمسة عشر ميلاً قبل الوصول إلى نفطة توقفنا التالية عند سلسلة صخرية منخفضة مكونة من الحجر الجيري الصلب، وكنا نرى -حتى من هذه النقطة- قمم جبل مصاير التي تقع حالياً في اتجاه الشمال بالتقريب وعلى مسافة بعيدة خلف الكثران العالية في الرملة. وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة وصلنا إلى حيث توجد شجرة سنط وحيدة ناشفة بالقرب من طرف الرمال، وقد تمكنا من رؤية بعض الملامح المعروفة لإقليم شبوة.

وصلنا الآن نهاية وادي النقعة وتخطيناه بدون صعاب تذكر وطاردنا غزالة عفرية، كانت تسير بمفردها لمسافة حوالي خمسة أميال وأرديناها قتيلاً. بعد ذلك تحول السهل الرملي المغطى بالحصى إلى منحدرات رملية منخفضة تكسوها بعض الأعشاب الجافة. وتكسو أطراف مجرى وادي واديان نباتات غزيرة من نوع المرخ والخرمل ولم نندهش كثيراً عندما ظهر أمامنا -وعلى مسافة ليست قصيرة- مجموعة من البشر وسط هذه الصحراء القاحلة والموحشة على ظهور جمالهم. توقفنا ونزل ابن هضبان وابن قنير واتجها نحوهم للاستطلاع. تتكون المجموعة من رجل من قبيلة الصياعر ومعه شاب من الكرب. عرفنا أن الرجل الكبير سبق أن غادر العبر بمفرده في محاولة للوصول إلى منطقة العوامر البعيدة في اتجاه الشرق والتي يستغرق الوصول إليها مسيرة

أربعة أيام بالجمال. وهناك استولى على جمل وقفل راجعاً إلى آبار العبر بأسرع ما يكون وأخذ معه هذا الشاب ليدله على الطريق عبر الصحراء وبهذه الوسيلة تمكن من الهرب والإفلات بالغنيمة ويأمل التخلص منها في مخيمات كرب وآل بريك بوادي مقاة حيث جذبت المراعي الجيدة أعداداً كبيرة من البدو. إن لعبة الغارة والغارة المضادة التي تزاولها بعض القبائل ما زالت موجودة في هذه المناطق الحدودية البعيدة، وهذا من آثار ونتائج عدم الأمن والاستقرار الذي ساد هذه المناطق. وإن هذه القبائل تتطلع إلى نهاية سريعة لهذه المناوشات القبلية كما هو الحال في نجد.

شاهد أصدقائنا الجدد صيدنا الثمين على ظهر البئر وسألوا عن المكان الذي ننوي إقامة معسكرنا فيه وأشارنا إلى منطقة واسعة غنية بالأعشاب والأشجار في مؤخرة مجرى الوادي على مسافة من مكاننا. ولا يبدو كبير أمل في أن يتمكن الرجال من الوصول إلى مكان معسكرنا المرتقب في وقت يتوافق مع تناولنا وجبة الغداء المنتظرة، غير أننا واجهنا عوائق عديدة في الطريق مما أعاق تقدمنا. بعد ذلك أقمنا المعسكر تحت ظلال الأشجار وتمكن الرجال من الوصول إلى حيث نعسكر قبل أن نتناول طعامنا وقضوا معنا فترة ما بعد الظهر وبعدها افترقنا كل في طريقه. عبرنا دلتا وادي واديان ووصلنا سهلاً مسطحاً وواسعاً وكانت تهب علينا رياح شمالية متوسطة، تجرف أمامنا الرمال في هيئة صفائح بيضاء عريضة. وكان طريقنا ممتداً على خط مستقيم فوق قمة جبل النسر الشرقي السوداء وبعد أن قطعنا مسافة خمسة أميال كانت التلال ومناجم ملح مقاة على مسافة قصيرة على يسارنا، فيما حاصرتنا من الجهة اليمنى تلال ظل الفجا وفجعي. وتحولت التربة الرملية إلى سطح يكسوه الحصى وتتخلله مجاري ضحلة لتصريف مياه جرف حراد وحويرد وبينما كنا نقترّب من نصر الشرقي دخلنا منطقة كشبان رملية منخفضة تخترقها قنوات تصريف ضحلة. قطعنا مسافة حوالي نصف ميل ضمن تخوم الجبل المحاط بحجر رملي بلوري داكن اللون. بعد ذلك توغلنا بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي لمشاهدة هضبة الكمشة التي تقف

بمفردها في السهل المنبسط. أما الضريح الأبيض الخاص بمحمد بن بريك فقد كان واضحاً من النقطة التي كنا نقف فيها واتجهنا نحو الضريح على سهل صحراوي منبسط عبر هضبة مدعار.

ما تبقى من الطريق كان سهلاً وقبل غروب الشمس بدقائق بسيطة وصلنا إلى معسكرنا في شبوة وقد سعد الزملاء الذين كانوا بالمعسكر لوصولنا خاصة وأن أغلبهم كان في انتظارنا لأكثر من شهر. وقد شاركهم القرويون بهجة عودتنا. وعند نزولنا من السيارتين صافحونا بمد أيديهم وتقيل جباهنا وكان من ضمن المستقبلين وفد رسمي من عائلة آل عبد القوي وهي من بطون ميوان وقام ابن مدعار بمهمة تقديمهم وتعريفهم وأهدونا أغناماً لذبحها لوجبة العشاء وهذه كانت إشارة اعتذار وتصحيح خطأ عدم إكرامهم لنا وحسن وفادتنا أثناء زيارتنا السابقة لديارهم. وفي صباح اليوم التالي سجلت لهم زيارة خاصة وأهديتهم بدوري (هدية مناسبة). هذا وقد وصل لزيارتنا - في وقت متأخر من الليل - علي بن عفيشة وابنه وكان بصحبتهما نفر قليل من العشيرة وجلسوا حولي وعبروا عن سعادتهم البالغة بلقائي وأطنبوا في ذكر ما يمكن أن يقدموه لي من مساعدات لا تعد ولا تحصى. كما أكدوا استعدادهم بتزويدي بكل ما تقع عليه أيديهم من منقوشات ونماثيل وما شابه ذلك من قطع أثرية إضافة إلى الأغنام، وبذكر الأخيرة مرر يده فوق عنقه كناية عن الذبح. أجبته بعلامات مناسبة كانت مثار ضحك وتندر الجميع وليس هناك أدنى شك من أنهم أشعروني بأن وجودي معهم لقي قبولاً وترحاباً من الجميع وأخبرني هؤلاء الرجال بأن سكان شبوة نزحوا مع مواشيهم إلى المراعي الخضراء الناتجة عن الأمطار والسيول الأخيرة. وأبقيت زواري حتى تناولوا معنا طعام العشاء المكوّن من لحم الغنم وهريس الدخن. وبعد مغادرة الضيوف استغرقت في نوم عميق بعد يوم طويل وشاق قطعنا خلاله حوالي خمسين ميلاً.

أرض أز

في ساعة مبكرة من الصباح التالي، وكنت قد رجعت لفراشي بعد أداء صلاة الفجر، استيقظت من نوم خفيف إثر صوت إطلاق نار مصدره الأحياء المجاورة. وكان ذلك مدعاة للدهشة والانزعاج. وكنت على وشك شتم أولئك الذين تسببوا في مصدر هذا الإزعاج عندما علمت على التو أن ذلك الصوت لحمس بنادق أطلقت عدة أعيرة بغرض التحية على شرف مقدمي. وكان بيني وبين مكان إطلاق النار جمل صغير (حاشي) ملقى على الأرض ويتدفق منه الدم حيث تم نحره احتفاءً بي.

وعند وصولي مساء الليلة البارحة لاحظت بمزيد من الحزن والانزعاج أن صالح ابن حزيق لم يكن ضمن المجموعة التي تجمعت للترحيب بي مرة أخرى. وتوقعت أن يكون قد ذهب إلى المزارع. ولكن في المساء وصلتي رسالة منه مفادها أنه سيتصل بي في الصباح. ويعزو عدم حضوره مبكراً للترحيب بي إلى وجود ضيوف معه ليلة وصولي. وقد راودني إحساس بأنه كان يقصد به التجاهل ولكن تيقنت الآن أن ذلك لم يكن صحيحاً البته. وربما كان قد عرف أن مراسيم الترحيب بي لم تكتمل؛ لذا فقد اختار صالح أول فرصة في صبيحة اليوم التالي ليزجي لي تحية خاصة وذلك بذبح عجل سمين على أنغام عزف موسيقى. ولكنني كنت مرهقاً للغاية بسبب سفري طوال الليل وأخلدت إلى الراحة. ولم أتمكن -لسوء الحظ- من مشاهدة المراسيم التي أقيمت للترحيب بي.

وعندما صحوت وجدت صالح بن حزيق بجانبني. وهو رجل ضخم الجثة، تبدو عليه أمارات الأبهة والاعتداد بالنفس وعدم الاكتراث للآخرين. وكان يجلس بجانبه رجل صغير السن يرتدي ملابس غريبة وسرعان ما حيّاني الرجلان، ونهضت من فراشي لتحية الرجلين. وقدم لي صالح المدعو حمد بن ناصر القردعي. وهو أي حمد، من الهاريين من العدالة وكان يرتدي معطفاً قصيراً وسترة أهل اليمن. ويبدو

من نوعية ومستوى حياكة ملايسه أنه من عليّة القوم. وكان الأخير وأخوه المدعو عليّاً حكماً على كل من إقليميّ الجوبة وحَرِيب اليمن. وقبل ثلاث سنوات خلت غضب عليهم الإمام (حاكم اليمن) بسبب تمردهم على سلطته. وقام السيد عبدالله بن الوزير بإخماد تمردهم. وربما يُعرف عبدالله بن الوزير أكثر بأنه كان مندوب اليمن في المفاوضات التي أفضت إلى اتفاقية الطائف عام ١٩٣٤م. واعتقل علي وتمّ سجنه لكنه هرب لاحقاً، أما حمد فقد هرب فور إخماد التمرد. وأعلنت السلطات اليمنية أن كليهما هارب من العدالة وأنه يجب القبض عليهما أو قتلها عند رؤيتهما. وكان حمد يعيش في سلام وهدوء مع مجموعة من القبائل البدوية في وادي مرخة عندما علم بوصولي إلى شبوة؛ لذا فقد كان يريد مقابلي للتوسط لمنحه الحماية من ابن سعود. فكل ما أستطيع عمله وقتئذٍ هو إعطاؤه الحماية والأمان إلى نجران ومن هناك أخبر الملك عبر جهاز لاسلكي بموضوعه للبت فيه. ورفض الملك إعطاء الحماية تنفيذاً لبنود اتفاقية الطائف التي تحظر إعطاء حق اللجوء للهاربين من وجه العدالة.

ورجعوا إلى مناسبة لقائنا الأول، فقد ذهبت مع صالح وحمد إلى التل لمناقشة بعض الموضوعات الخاصة بخططنا المستقبلية. وخلال اللقاء -وبينما نحن نتشاور في بعض الأمور الهامة- كنت أشرق النظر إلى معبد عشتارت لإمتاع ناظري بمختلف زواياه. وتقول الروايات الشفهية: إن تدمير شبوة يعزى إلى عقوبة إلهية لقتل النبي صالح الذي دفن في وادي سر، بواسطة سكانه. وثمة إشارة هنا وهي أنه يوجد نبيان يحملان هذا الاسم «صالح» في الجزيرة العربية قديماً^(١). والأكثر أهمية هو صالح ابن عبيد الذي أدى اغتياله إلى تدمير مدينة النبطيين (ثمود) في مدائن صالح في الشمال. ويعزى سبب سقوط شبوة إلى صالح بن حيسة حمير.

(١) بما هو معروف لدى المسلمين أنه ليس هناك نبيان يحملان اسماً واحداً، وإنما المعروف أن هناك نبياً واحداً اسمه صالح -عليه السلام-، وليس إلى ما ذهب إليه المؤلف من وجه. (المراجعون).

والروايات العربية بحقل آب الابن وليس حفيد أرفحشد^(١). وهذا الدليل في حد ذاته ليس كافياً لترجيح الاحتمال بأن صالحاً هو جد هود كذلك من المستبعد أن يكون بنو هود في أسبانيا تربطهم صلة قرابية مع الأخير. ولكن إذا كان صالح قد تسبب في تدمير شبوة، فيبدو لي استناداً على الأدلة الظاهرة لأطلال شبوة أن الله القادر قد سخر زلزالاً أو حملة حربية لتدمير ذلك المكان انتقاماً لرسوله، ويمكن الاستنتاج من المعلومات التي يضمها أحد النقوش التي جمعتها من موقع القلعة والذي يشير إلى إصلاحات كثيرة لسقف معبد شبوة بعد انهياره نتيجة لزلزال. وفي كل الأحوال فقد هُجرت المنطقة وعمّ الخراب بسبب السيول لاسيما بعد أن أهملت وسائل الري.

وبينما كنا جلوساً نستمتع بمنظر المدينة تجاذبنا أطراف الحديث في المواضيع أعلاه فضلاً عن أمور أخرى عديدة. وكان حمد القردي في بيحان عندما رآها الرحالة ماكسويل دارلنج. وفي طريقه إلى وادي مرخة انضم إليه عبدالله بن صالح من عشيرة همام أحد فروع قبيلة العوالق الذي أحضر معه رسائل من قبيلته ومن عشيرة النسبين تدعوني لزيارتهم حيث إن كليهما كانا مندهشين بتفاصيل مغامرات ماكسويل دارلنج، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع التيقن من مصداقية تفاصيل قصة هذه المغامرات، إلا أنني سأوردها هنا كما سمعتها من ألسنة هؤلاء الرجال. ويزعم هؤلاء أن سلطات عدن كانت لديها أسبابها في إظهار غضبها تجاه الشيوخ في إقليم أحور في سلطنة العوالق السفلى؛ ولهذا فقد توقفت عن تقديم المساعدات والإعانات المالية التي كانت تقدم لهم باعتبارهم تحت حماية الحكومة البريطانية. وفي فترة لاحقة (في نهاية يونيو ١٩٣٦م) وصل ماكسويل دارلنج بَحراً إلى ساحل أحور بغية القيام برحلة إلى بيحان في

(١) هنا عاد المؤلف مرة أخرى إلى الخوض في تاريخ الأنبياء اعتماداً على مصادر ضعيفة مثل الروايات الشفهية أو الإسرائيلية وغيرها والتي لا يخفى على القارئ التحريف والخلط الظاهر فيها. وفي مصادرنا الأصلية القرآن الكريم والسنة النبوية ما يعني عن هذه الأقاويل التي لا تستند إلى أساس. (المراجعون).

منطقة العوالق. ويقول ماكسويل استناداً إلى خطاب وصلني منه: «كانت الرحلة متعبة خاصة وأن أهالي العوالق كانت لديهم أفكار مسبقة عن المال... وعليه كانوا يتوقعون نفحهم إتاوات للسماح لي بالمرور عبر أرضهم، فضلاً عن السيارة (ما يدفع نظير خدمات الأدلاء). ولم أكن مستعداً لتلبية هذا الطلب مما سبب لي بعض الإزعاج». وأظهر شيوخ أحور استياءهم من تصرف الحكومة البريطانية بإيقافها للإعانات التي كانت تقدمها لهم حين قاموا باعتقال الرحالة ماكسويل دارلنج وحراسه في وادي المنقعة حيث كان لهم فيه قريتان فضلاً عن بعض الأراضي الزراعية. وقد طلبوا المال ورفض طلبهم. وصلت الأخبار إلى يشيم، حيث طُلب من السلطان أن يرسل فرقة قوامها ٤٠٠ جندي قامت بفك ماكسويل وأدلته من الأسر مما مكّنه من الوصول إلى بيحان في سلام.

وأرسلت حكومة عدن طائرات عندما سمعت بأخبار هذه الأحداث من يشيم وبيحان، وذلك لضرب قرى أحور. ولكن حدث أن أخطأت الطائرات الهدف وأصابت قذائفها الجربة (مناطق زراعية) وهي تابعة لأقوام لا علاقة لهم البتة بأحداث الأهوار ونجم عن ذلك تدمير الحقول الزراعية ومقتل امرأتين. ونتيجة لذلك الحادث استشاط أهالي القتلى غضباً واحتجوا لسلطات عدن عن هذا العمل الاستفزازي. وفي نهاية الأمر اعترفت الحكومة بالخطأ واعتذرت للأهالي كما دفعت لهم تعويضات سخية. ويواصل صالح بن حزيق تفاصيل هذه القصة زاعماً أن الطائرات عاودت الهجوم مرة أخرى ودمرت القريتين بالقنابل، لكن لم يصب أحد من الأهالي بسوء؛ لأن القرى كانت قد أخليت قبل وقوع هذا الحادث. يدعي الحزيق -دون إشارة إلى مرجعية لمصدره- أن الطائرات الحكومية قد أمطرت المنقعة بلدة قبيلة أحور بالغازات السامة والتي لم تدمر المحاصيل الزراعية فحسب، بل جعلت هذا المكان غير صالح للزراعة لما يربو عن ثماني سنوات، ولا أجد نفسي مصدقاً لموضوع استخدام الغاز السام لتخريب منطقة قبيلة أحور بيد أن القصة -في تقديري- حقيقية في جوهرها.

وهي تعليق نبهه على رسائل بريطانيا في (الحماية) التي يطلب منا جدياً تصديقها. جاء في تقرير لمحاضرة أقيمت مؤخراً في القاعدة الجوية لمحمية عدن، إنه بعد شهرين من الإرهاب الجوي المستمر في منطقة أحور، أظهرت قبيلة صعبة المراس في هذه المنطقة رغبة في التخلي عن معاداتها للفاثحين. وفي تقديري إنه لا يمكن تصديق مثل هذه المقولة فضلاً عن قناعتي بأن هذه القبيلة نفسها لا تريد أن تعامل بهذا النهج. ولا يوجد إنجليزي واحد يشعر بالبهجة والسرور وهو يرى نوعية المعاملة التي عامل بها الطليان الأثيوبيين. وثمة إشارة هنا، وهي أن مقالاً افتتاحياً لجريدة التايمز (١٥ مارس ١٩٣٨م) أعلن «إن استمرار وسائل العنف تحت أي ظرف من الظروف لأجل المحافظة على الأمن ولو كان عملاً مشروعاً فإنه يدعو الأهالي إلى الاستياء وإدانة الحكومة البريطانية». فهل هذا هو الحال؟ وماذا عن فلسطين وحضرموت؟

وفيما يخص قصة الغاز السام، وكما ذكرت آنفاً، لا أصدق هذا الموضوع، لكن ماذا يتوقع المرء عندما تكون الحكومة البريطانية غبية ليس فقط في استخدامها للغاز السام المسيل للدموع ضد العرب في فلسطين لكن في إذاعتها ذلك الخبر للملأ ومن خلال أجهزة الراديو؟! ولا يستطيع المرء أن يتصور الفارق بين السم والغاز المسيل للدموع فكليهما يبدو عملاً مفزعاً.

ورجع ماكسويل بغتة من بيحان إلى عدن بالطائرة. وفي فترة لاحقة، وبينما حمد كان لا يزال موجوداً في بيحان وقبل أسبوعين من مقابلتي له وصلت طائرة بتعليمات من الأمير للبحث عن نورمان بيرن، الذي يتوقع وصوله إلى هنا في أية لحظة. وتبعاً للمعلومات التي أفادني بها حمد، فإن أخبار تجوالي قد وصلت بيحان من مصادر عربية في نجران وشبوة. ومن الواضح أن الكابتن هاملتون البوليس السياسي المسؤول عن تلك الأصقاع قد أحاطهم -كما رأينا سابقاً- بتحذير سلطات عدن لي بمغادرة المنطقة. ولكن هذا لا يمنعني من تلبية دعوة كريمة لزيارة بيحان

أرسلت إليَّ بواسطة عبدالله بن صالح الهمامي من حاكم بيحان وتوابعها القاضي أحمد بن عتيق البكري الأنصاري. والرسالة الخاصة بهذه الدعوة كتبت وأرسلت إليَّ من وادي مرخة كما تذكر الرسالة نفسها، حيث يتظرني حاكم بيحان هناك برفقة مجموعة من قومه. ولسوء الحظ لم أتمكن من الوصول إلى وادي مرخة إلا بعد أسبوعين من تاريخ الرسالة بسبب تأخير طويل في حضرموت.

وكانت الرسالة مكتوبة بهذه العبارات: «أمير الأمراء وعظيم العظماء المبجل الحاج عبدالله فيليبي... إلخ. أود أن أحيط مقامكم الكريم عندما أعلمنا الضابط السياسي بمقدمك ومعيتك من مرافقين إلى محميتنا الشرقية، فقد ابتهجنا بذلك متمنين من الله أن يجعل مقدمك فال خير وسلام لهذه المنطقة التي فقدت العدالة والطهارة. وقد قمت بالتحدث إلى أهالي هذه المنطقة وأسديت لهم النصح في شؤونهم الدنيوية والروحية ونبهتهم بضرورة الطاعة والولاء لسيدنا وملكننا إمام العصر وخليفة الزمان وخادم كلمة الله. فالإله يقدر العدل والرحمة، عبدالعزيز آل سعود، فليهبه الله النصر لأجل حقوق أهل المحمية التابعة لصاحب الجلالة ملك الحكومة البريطانية الرحيم المهيب والحامي لبلدنا من اعتداءات الأعداء، وخادمكم -يعني نفسه أي كاتب الرسالة- في شوق لمقدمك أنت وأتباعك في "أسفل مرخة" بكل الحب والتقدير، وأستميحك بالتعجل في القدوم لأن إبلنا في حالة يرثى لها ولا تجد علفاً تقتات به... لذلك فنحن في انتظارك... وهذه الرسالة كتبت على عجل، وأمل أن تقبل ذلك، وقد أصدرت تعليماتي إلى شيخين هما مبخت بن سالم بن شملان الهمامي وأحمد (عبدالله) بن صالح الهمامي لمرافقتك إلى أن تصل مرخة، لاسيما أن قبيلة همام لديها حق الحراسة وذات نفوذ فاعل...».

هذه هي الرسالة التي وصلتني من حاكم بيحان. وذهب مبخت ليعلن للملأ أنني لم أصل بعد أما عبدالله فقد بقي لمرافقتي إلى مرخة. وأخطرت سلطات الحكومة في

عدن بالاستناد إلى سلوكيات السلطات معي، بأني لا أنوي السفر إلى بيحان أو أرض سلطان العوالق. وعرفت من تحرياتي مع عبدالله أن عشائر همام والنسبين لا تعترف بحماية حكم سلطان العوالق أو السلطات البريطانية في عدن. وأكد ذلك لي لاحقاً كل من صالح الحزيق وحمد القردي. ورغم قبولي الدعوة إلا أنني قررت ألا أدخل أي منطقة تحت نفوذ حكومة عدن أو سلطان العوالق المحمي من السلطات البريطانية. واستفسرت من صالح عن صحة المعلومة التي وصلتني تلغرافياً من السلطات البريطانية في عدن ومفادها أن شبوة والكرب يقعان تحت نفوذ سلطان العوالق. وكان رده بالحرف: «هراء!»^(١) كذابون، هذه هي بلادنا ولا يوجد حاكم لها سوانا». ومن جهة أخرى، فإن سلطان شبام كان على رأي مؤداه أن شبوة تقع ضمن مناطق نفوذه وليس تحت حكمه مباشرة. ولذا لم يجرؤ أي من السلطانين على زيارتها دون إذن من أهلها. ولم تكن دعوة مرخة هي الأولى التي تلقيتها. وفي صبيحة يوم مغادرتنا شبوة في الطريق إلى حضرموت، جاءني صالح ورافقته رجل غريب المظهر، وعلى بدنه سترة من جلد الأسد ويتمنطق حزام حفظ الرصاص. وكان حديثه غريباً مع حركات تبدو كأنها نتاج إعاقة طبيعية. وكان هذا الشخص هو حمد بن عبد الله زعيم أهل الضباب من عشيرة وادي جردان وكان في طريقه لزيارة زوجته، من الفقراء، وأولاده الذين كانوا يقطنون في منزلهم بقرية حجر. وكان الرجل يتحدث بحماس عن الأطلال الكافرية التي تقع في منطقته، وادي البنا في أعلى عياذ بالقرب من النقطة التي ينتهي فيها وادي جردان ويتحول إلى سهل فسيح. وقدم حمد بمودة شديدة - دعوته لزيارة قبيلته -. ووعدني كحافز لذلك إهدائي علبة صفيح مملوءة بعسل جردان الشهير والغالي الثمن. ورغم أنني لم أكن قد عزمت رأيي بعد فيما يخص تحركاتي في المنطقة، إلا أنني أعطيته موافقتي المبدئية على هذه الرسالة ووعدته بأن أرسل له

(١) يخسون - كذابة. (المؤلف).

صالحاً - إذا سمحت الظروف بالزيارة - لتحديد ميعاد الحضور إلى ديار عشيرته . وفي فترة لاحقة اتفقت مع صالح بأن أזור مسخيم حمد في وادي أنصاب والذي سيمكث فيه بعض الوقت قبل أن يعود أدراجه إلى بلدته . وأرسلت إليه خطاباً بهذا المعنى لقابلتنا في المستقبل المنظور بمعية أعيان عشيرته .

وفي غيابنا جاء وفد من قرى وادي عرما الواقع أعلى وادي شبوة والكثيف السكان، مقدماً لنا دعوة لزيارة تلك المنطقة . وبالإضافة إلى طريق عقبيات الذي عبره جواً هلفريتز قادماً من شبوة ، فإن هناك طريقين آخرين للقوافل من حضرموت إلى مستوطنات عرما . فالطريق الأول يتفرع من طريق شبوة عند بئر مجوعة ماراً بوادي دُهر حيث يتناثر العديد من القرى الصغيرة . ويواصل الطريق مسيرته إلى وادي عرما . أما الطريق الثاني فيبدأ من وادي المطر من نقطة بئر عساكر ويدخل وادي عرما من أسفله . ومن المحتمل أن هلفريتز رجع عن طريق هذا الوادي بعد أن مكث قليلاً في قرية الضلع ولكن من الملاحظ أنه لم يعط تفاصيل لرحلته سوى ذكره لأسماء سبع قرى - إحداها لا أستطيع تحديدها في قائمة القرى التي أعطيت لي بواسطة عدة رواة من شبوة - . لكن المدهش أنه ذكر في كتابه المعنون «أرض بلا ظل» أنه لمح قرية عرما ولم يزرها . ولكن من المؤكد أن القرية التي يقصدها هي عياد وليس عرما . وفضلاً عن ذلك فإن زعمه بأن عرما كانت منطقة غير مأهولة بالسكان لا أساس له البتة . ومما يؤكد ذلك ما ذكره الملازم طيار أ . ر . م . ريكاردز عام ١٩٣٣م الذي زار منطقة وادي دُهر ووادي عرما وقام بمشاهدة وتسجيل أعداد كبيرة من القرى على امتداد هذه المنطقة . ويبدو أنه لم يحاول زيارة شبوة .

لم أكن أعرف شيئاً عن رحلة ريكاردز في ذلك الوقت ، ولم أكن متحمساً لأحدد أسفاري في ذلك الاتجاه . أدى التأخير الطويل في حضرموت إلى تعديل في برنامجي لأنه إذا أزمعت زيارة كل من جردان ومرخة فلن أجد متسعاً من الوقت لزيارة عرما ؛ لذا فقد أقنعت نفسي بأن أجمع أكبر معلومات ممكنة عن تلك القرى .

وجدير بالملاحظة أن الجرف الذي يقع موازياً لوادي شبوة يشكل الحدود الشرقية لقبيلة الكرب والتي تتبع لنفس مجموعة قبائل عرما . وأسفل وادي عرما تقطن عشائر المشايعة التي توجد قراها في الحمة والجيف والسمحاء ومسلب . وأكثر أهمية من هذه العشيرة هي مجموعة «آل عمرو» ، التي تقطن وادي عرما وتتجمع قراها في العقبيات وهي حيظ ، وحسن سندان ، والكويرة ومستوطنة كربية منعزلة وتسمى المافود . أما الوادي الذي يقع أمام هذه المنطقة فتسكنه عشيرة «آل بادخن» ، التي تتوزع في قرى الجُشم وبأكيلة والحرّة والأكواخ الصغيرة المتناثرة في وادي الحنكة وهو أحد ثلاثة أودية يكون التقاؤها في وادي عرما والاثنان الآخران هما ينجل وهو خال من السكان وسمرة والذي تقطنه عشيرة عبد الصمد من مجموعة الفقراء . ويفترض أن القنوات الثلاث المذكورة تنحدر من منطقة تقسيم المياه .

إضافة إلى المستوطنات التي ذكرت أعلاه ، فإن منطقة الفقراء (المشايع) تتناثر فيها العديد من القرى هي : الجيزة ، والخليف ، والضلع العليا والسفلى ، والصفاء ، والحصا ، والكورة ، والمنقلة ، والحرّة ومعلّا ، ويجدر التنويه إلى أن أكبر قريرتين وأهمهما في المنطقة هما المافود والضلع اللتان زارهما وصورهما الرحالة هلفريتز . وأما تحالف قبائل بلعبيد فهو ينحصر باستثناء قبيلة الكرب التي تحتل منطقة السهل في الأودية داخل هضبة حوق وتمتد مناطق هذا التحالف من أراضي جردان إلى أعلى وادي رحية .

وبعد الظهر ذهبت ومعني صالح وابنه الصغير حمد الذي أعطيته حلوى كنت قد أحضرتها من حضرموت . أخذت السيارة في زيارة تفقدية للأطلال التي أسماها صالح بئر حمد بن قطيان . سميت باسم الأخير لأنه قام بمحاولتين لحفر بئر قديمة في هذا المكان على مسافة ميلين أسفل قناة معشار الذي يصبح في هذه المكان وادياً رملياً واسعاً محاطاً بغطاء نباتي والعديد من أشجار العلب الخضراء . وفي الجانب الأيسر من ضفة الوادي يوجد جرف تعلوه الأطلال التي نود زيارتها . ويبدو أن هذه الأطلال

= الفصل الحادي عشر =

عبارة عن حصن يشغل مساحة تتراوح بين ١٧-١٨ قدماً وتتناثر حولها أكوام حجرية توحى بوجود كوخ صغير أو مجموعة من الأبنية الخارجية ذات العلاقة بالحصن . وهناك سبعة مداميك لا تزال شاخصة للعيان تشير إلى أن الحصن من الطراز السيكلويين ويشبه ما يناظره في روابي كمشة ومدعر، ويبدو أن هناك رابية صغيرة تم الحفر فيها إلى مستوى الصخر البكر لوضع الأساس الحجري للبناء الذي يبدو في مظهره في غاية الجمال مقارنة بما يحيط به من مناظر، ويلاحظ أيضاً أن أرضية الحصن تتناثر حولها كسر الفخار الأحمر في حين تقع البثر بين الجرف الصخري والحصن وهي مربعة الفوهة بقطر يصل إلى خمسة أقدام وذات قسبة مصفورة بكتل الأحجار الصغيرة كما توجد آثار لقناة ماء قديمة .

وغربت الشمس قبل رجوعنا للمعسكر . ولاحظت أن الجو هنا أكثر برودة مقارنة بحضرموت . وعند العشاء وصلت مجموعة الجمالين الذين رافقونا إلى شبة بقيادة جعمل الذي قال لي بالحرف: «التزمنا أن نأخذك من نجران إلى شبة وبالعكس، وإن جمالنا في حالة سيئة ومن الأفضل أن نرجع إلى نجران قبل أن تنفق . والآن تريدنا أن نذهب إلى مرخة وما شابهها . فلقد انتظرناك هنا لما يربو على شهر ونريد أن نرجع أدراجنا إلى عوائلنا، ولا نستطيع أن نصل إلى مرخة . وسوف لن نذهب معك» .

وكان هذا التمرد بواسطة الأدلاء كريهاً وبغيضاً كما أنه غير متوقع . ويجدر التنويه إلى أن الجمال كانت ترعى وكانوا لمدة شهر يرفلون في حياة هائلة وكانت كل مصروفاتهم على حسابي الخاص . وفي ظل هذا الوضع دعوت إلى اجتماع عاجل ضم كلاً من سعد بن معيلم، وصالحاً وآخرين، وفيه واجهني صالح قائلاً: «أنت الذي أفسدت جعمل بمعاملته كشيخ وهو لا يعدو أن يكون مجرد جمال . وهو ليس أفضل من الآخرين» . ولكن لم ينفرط عقد المودة تماماً بين النجديين وياهم وإن كانت الأخيرة كثيراً ما تتذمر من تعاملتي الحذر والذي كنت أراعي فيه مشاعر البدو . إن

المشكلة تكمن دائماً في المحافظة على تماسك العناصر المختلفة في المجموعة. فسعد ومجموعته من النجديين يتحكمون في توزيع المؤن كالقهوة والشاي والسكر. وفي الوجبات فإننا نأكل مع بعضنا ولا سبيل للتفرقة بالرغم من أن سعداً وأصحابه كانوا يرغبون في طريقة أخرى. ومهما يكن من أمر فإن الذئب التي آويناها بعناية كانت مستعدة للانقضاء علينا.

وهذا التمرد يجب أن يخمد أو يخفف من غلوائه بأي ثمن. ولكن لن أتنازل بسببه عن عزمي زيارة عياذ ومرخة. وللوهلة الأولى كنت على رأي وهو أن أتجاهل المتمردين وأتركهم وشأنهم ليذهبوا إلى ديارهم كما أعلنوا ذلك. وإذا ما تم ذلك فلسوف يخسرون ما تبقى لهم من أجر. ولكن صالحاً أكد لي أننا لن نستطيع أن نجد جمالاً تأخذنا إلى نجران أو حتى إلى الآبار على مقربة منها في ذلك الموسم. وكان البديل المتاح لنا هو أن نترك معظم المجموعة في شبوة أو يتحرك فوج صغير إلى مرخة بغية تجنب رحلة العودة. ولكن الأدلاء أكدوا لي عدم وجود طريق للعربات غربي طريق شبوة - عارين للقوافل. ولهذا فقد قبلنا على مضض خيار الرجوع إلى شبوة.

وسألت صالحاً عن الآبار في الجانب الآخر من الصحراء. وكان المتمرّدون من الأدلاء قد رغّبوا في الرجوع عبر أقصر طريق، وهو الذي أتينا عبره، ولكنني رفضت هذه الفكرة. وقال لي صالح: «الطريق إلى بئر بوع مباشراً وهي تقع على مسافة قريبة للجنوب من الضيف». وسألت: «هل هناك أي بئر في هذه المنطقة يمكن أن نصلها جنوب بوع؟». فأجاب صالح: «فقط مأرب» وقلت له: «حسناً، لا أريد الذهاب إلى مأرب لأن الحكومة اليمنية لديها موظفوها هناك. ولكن مسعودة هي المكان الأمثل لنا. ومن هنا نستطيع أن نذهب إلى مرخة ونرجع إليها مرة أخرى ومن ثم نتوجه إلى مسعودة». لذلك فقد بدأنا نتفاوض مع المتمردين الذين أظهروا في البداية مشاكسة. وكانوا يودون الرجوع إلى الضيف، ولم يكونوا على دراية ببوع أو مسعودة.

واعتقدوا أننا سنستدرجهم إلى مسيرة طويلة. وتحدث كل من صالح وسعد وابن مدعار إلى المتمردين في الوقت الذي ذهبت فيه للاسترخاء مع توقعي بأن كل شيء سيسير على ما يرام. وسوف تنتظرنا مجموعة الجمالة في شبوة ليأخذونا إلى مسعودة حيث توجد أنقاض أثرية كما يقول صالح.

قررت أن أترك كل مرافقي من النجدين خلفي وأنا في طريقي لزيارة منطقة قبيلة الكرب وذلك لعدة أسباب هي أولاً: أن جمالهم كانت تتبع لعشيرة يام المتمردة، وثانياً: لعدم حاجتي إليهم أثناء تجوالي في ديار الكرب وفي ضيافة كل من عشيرتي همام والنسين. علاوة على ذلك وبالنظر إلى رفض السلطات في عدن مرافقة نجدين مسلحين معي، انتابني شعور بأن أبرهن لهم بأنني يمكن أن أسافر في محمية عدن بسلام بهم ومن دونهم في الوقت نفسه؛ ولذا احتفظت بأكثر هؤلاء المرافقين أهمية وهم سائق وميكانيكي السيارة وفراج القحطاني لصيد الطيور، وسعد ابن عثمان لسلخها ومحمد بن هزيل للطبخ وإعداد المائدة. أما بقية الفريق المرافق فقد كان من الأهالي المحليين وهم صالح بن حزيق، وعبدالله بن مدعار ومعيض وجميعهم من قبيلة الكرب، وهناك ناصر بن شماخ من عشيرة المرادعة (نهد)، وحمد القردعي اليمني الهارب من وجه العدالة وعبدالله بن صالح الهمامي الذي وصل ضيوفه إلى مرخة. ويبلغ عدد المكورين حتى الآن اثني عشر فرداً ثمانية منهم يركبون في السيارتين والأربعة الآخرين على الجمال. وفي وادي أنصاب وعباذ انضم إلينا أحد أفراد قبيلة الكرب وآخر من عشيرة النسين كأدلاء للقافلة فأصبحت مجموعة القوة أربعة عشر رجلاً يتم تقسيمهم إلى مجموعتين ثمانية وستة أثناء المسير على أن تلتقيا فقط أثناء الليل في المعسكر. وفي رحلة العودة من وادي مرخة تستمر مجموعة الإبل إلى معسكر صالح في أنصاب وتأخذ السيارتان طريقاً مستقلاً.

وصحوت في صبيحة اليوم التالي بشعور مفعم بالراحة بأن مشاكلنا قد انتهت. وكان قد بدا على زعماء التمرد بعض الخجل لكنني تجاهلتهم. ومنذ الفجر وحتى

التاسعة صباحاً كنت مشغولاً ببعض الأمور الثانوية. فقد جاء علي بن عفيشة وهو يعلن صداقته الدائمة لنا وبادلناه عبارات التحية والتقدير. وفي أثناء ذلك جاء بعض المسؤولين من القرية وهم يتلهفون لمساعدة. وأخطرت سعد بن عثمان بأنني لن أقفل راجعاً إلى شبوة وعندما تصله رسالة مني تفيد برجوعي إلى أنصاب فيجب أن يستعد لاستقبالنا في عارين وهي المرحلة الأولى في رحلتنا عبر الصحراء. جاء سعيد الذي كان مع ماشيته لوداعنا وبما أنني قد أعطيته بما فيه الكفاية من قبل فلا أظنه يتوقع هدية إضافية. وعلي بن عفيشة كان هو أيضاً سعيداً وراضياً. وقد كنت أنا كذلك. وعند الساعة التاسعة والنصف بدأنا رحلتنا.

وتنتهي "جزيرة" شبوة شمالاً على شكل شاطئ شبه دائري يبلغ ٣٠٠ ياردة تقبع خلفه قناة محباض التي تتصل بقناة معشار كما يلتقي الأحياب ليصباً معاً في رمال قوصة والنسر الشرقي. وعند عبورنا لقناة معشار مررنا بشاطئ تحيط به جروف رسوبية ويقع غربه سهل رملي مغطى جزئياً بالحصى يسمى أم حامد. والأدلة على الزراعة القديمة في هذه المنطقة كثيرة وكافية وهي تمثل الواحاً حجرية لقنوات عتيقة. وخلف هذه المناظر يمكننا رؤية هضبة العرين التي تعد مقصدنا في الأيام التالية. وكنا في روح معنوية عالية في مستهل يوم عطلة ملؤه النشاط. ومناظر الغزلان الثلاثة التي ترعى في المكان مغرية لا تقاوم. طاردنا الوعل (ذكر الغزلان) في اتجاه طرق الرمال حتى دخلناها وبقينا بين الكثبان المتعارضة أو المنخفضات بينها. وأنقذ حياته وحل السيارة في نقطة ضعيفة من الرمال. وبعد جهد تمكنا من إخراج السيارة ورجعنا للسهل متجهين نحو عُقلة^(١). وتبدو كل هذه المنطقة الواسعة تحت الزراعة عندما كانت شبوة عامرة. وتحركنا إلى أعلى لصعود أحد الجبال حتى أتمكن من رؤية

(١) عُقلة: جبل بحضرموت بالقرب من شبوة، وهو غني بالنقوش الحميرية، كان يحتفل فيه الملوك الحميريون عند تواجدهم وإعلانهم اللقب الذي يتلقبون به بعد توليهم العرش. المقضي، معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ط ١٩٨٥، ص ٢٩١. (المراجعون).

المنطقة. صاح صالح يناديني بأنه قد وجد كتابات في بعض الصخور التي يعلو قممتها مبنى صغير. وفي أثناء ذلك كانت بقية المجموعة تبحث عن أماكن ظلية بين الصخور لتجهيز بعض المرطبات أو للنوم.

ويبلغ ارتفاع قمة هضبة عقلة حوالي سبع مئة إلى ثمان مئة قدم فوق مستوى السهل. ولم أتجراً بتسلق قممتها ولكنني التفت باتجاه الصخر لرؤية ما يحمله الخزيق والذي كان يشير إليه بصورة متقطعة. وقد ألجمت لساني الدهشة لما رأيت. فقد كان سطح الصخر الذي يواجهني مغطى بالنقوش. وعندما تفحصت النقوش ملياً تبين لي أن كل جوانب الصخر مزدانة بهذه الكتابات الصخرية. ويبدو أنها أهم المعثورات الكتابية في إقليم شبوة. وبدأنا نضحك بأصوات خافتة وساورنا شعور بأننا قد عثرنا على الكتابات التي رفض محمد أن يدلنا عليها. إلا إذا نفحته مبلغاً من المال ولم أر محمداً بعد ذلك إلا بعد رجوعنا من وادي مرخة إلى مخيم صالح حيث علم ببلوغنا منطقة النقوش. ففي الصحراء تصلهم كل الأسرار. وفي نهاية الأمر أعطيته ما كان يستغيه من المال. وكنت أقصد أن أعطيه المبلغ قبل أن يسألني وهذه عادة عندهم تزعجني. فعندما قررت شراء اللحم للغداء فاجأني هدية من زوجين من الغنم. ومثل هذه الهدايا تكلف الضعف!

وكانت صخرة عقلة التي وجدت عليها النقوش من الصخر الرملي، خشنة الملمس مربعة الشكل طول ضلعها يبلغ ٢٢ قدماً. وفي الجهة الشمالية الغربية تكون قاعدة مربعة ارتفاعها ثلاثة أقدام وعلى قممتها توجد أطلال أثرية. وهي عبارة عن حصن مربع الشكل يتكوّن من ألواح من الحجر الجيري الجيد التشذيب - يبدو أنها جلبت من مكان قصي عن موضعها الحالي -. أما الجانب الأوسط لكل جدار فيتشكل من ألواح غير مشذبة «دبش» من الحجر الرملي والأحجار الناعمة. وهناك سبعة مداميك من الألواح الحجرية ملتصقة مع بعضها بطريقة غير متقنة، لا تزال شاخصة للعيان حتى الآن. ويكون البناء الجزء الأكبر من أعلى قاعدة الصخرة ويشغل حيزاً

يبلغ عشرة أقدام مربعة. ولا يمكن الوصول إليه من الأرض إلا بواسطة مجموعة مدرجات مهدمة، تبقى منها نصفها مما استدعى أن تساعد بعضنا بعضاً بغية الوصول إلى البناء. ومن المؤكد أن البناء ذو طبيعة عسكرية أو مخفر شرطة خصص لحماية الأراضي المزروعة والتي يبدو أنها تمتد من شبة إلى هنا بحوالي عشرة أميال. ولوحظ وجود صهريج ماء مبني عند أسفل الصخرة في الجزء الجنوبي الشرقي منها، ويبلغ ضلعه عشرة أقدام وارتفاعه خمسة أقدام. ويبدو أنه استغل لسقيا الجمال التابعة للحصن. فإذا كان ذلك هو الحال، فمن المرجح أن المياه كانت تجلب من مكان آخر حيث إننا لا نرى أي أثر لبئر هنا، وقد أخطرني صالح مؤخراً بأن عشيرته التي تقطن في منطقة عقلة المجاورة عثرت على بقايا منازل وآبار عند أسفل الجبل في الجهة الشمالية. لذلك فإن عقلة التي عرفت في النقوش باسم «أنواد»، كانت بالتأكيد مستوطنة زراعية.

وفي الجهة الشرقية من صخرة عقلة، يوجد ١٤ نقشاً تتضمن ٩٠٨ حروف، يبلغ المتوسط ٦٥ حرفاً للقطعة الواحدة، وأطول هذه النقوش يضم ١٩٣ حرفاً وأربعة أخرى تحتوي على ما يزيد على ١٠٠ حرف. وتوجد نقوش تشمل ٨٧٨ حرفاً بمتوسط ٥١ حرفاً بينما أطولها يبلغ ٢٨٢ حرفاً، بينما نجد أن اثنين منها تضم فقط أربعة أحرف. وفي الجانب الجنوبي للصخرة يوجد ١٩ نقشاً أطولها يحتوي على ٩٩ حرفاً وثلاثة منها ذات أحرف تبلغ في المتوسط ٣٤. أما الجانب الغربي فقد وُجد فيه نقشان إحداهما يحوي ٤٦ حرفاً والآخر خمسة أحرف. وهناك صخرة منفصلة بالقرب من صخرة عقلة تقع إلى الغرب من قاعدة الحصن نفذت فيها ثلاثة نقوش تضم ٤ و ٢٢ و ٢٥ حرفاً. وتبلغ جملة النقوش في هذا المكان ٥٥ نقشاً تشمل ٢٥٣١ حرفاً بمتوسط ٤٦ حرفاً للنقش الواحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أنني بذلت جهداً كبيراً في تسجيل كل هذه المادة وكنت أعمل حتى مغيب الشمس ولقد هدني الإرهاق من عناء العمل المتواصل رغم الكميات الكبيرة من الشاي التي كنت

أحتسيها. ورغم ذلك كله، فقد كنت أشعر بالرضى عن النفس لهذا الإنجاز. وأهمية هذه النقوش تم التنويه بها بواسطة عالم الكتابات أ. ف. ل. بيستون من جامعة أكسفورد والذي نجد تقريره عنها منشوراً في ملحق لهذا المجلد.

ومن موقعنا في الحصن عند أعلى الهضبة يمكننا رؤية مناظر كثيرة. وبإمكاننا رؤية قبة (ضريح) ابن يوسف وجبال شبوة إلى الشرق، بينما تقع إلى الجنوب رابية عياذ بملاحاتها. وباتجاه الجنوب الغربي المعتم رأينا جبال عطفان الممتدة من وادي مرخة إلى بيحان. وكانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف عندما استأنفنا الرحلة وقطعنا حوالي أربعة أميال، توقفنا بعدها للتعرف على مناجم الملح في خروء التي أخذت اسمها من واد يهبط من مرتفعات الغبر وفي هذه المنطقة شقت العديد من الحفر التي تحتوي على صخور ملحية. ولوحظ أن هذه الحفر صغيرة وضحلة وغير منتظمة الشكل مثل مناجم شبوة. وهي مثل ملح المقعة يعمل فيها بدو الكرب أثناء رعيهم لقطعاتهم في الأودية المجاورة. تقع المرتفعات في اتجاه شمال جنوب وعلى بعد ثلاثة أرباع الميل من بعضهما ويقع المنخفض بينهما على نحو ثلاثين قدماً فوق مستوى السهل.

ومن هذه المنطقة تحركنا بجهة الجنوب عبر السهل. ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا في مطاردة قطيع يتراوح بين سبعة إلى ثمانية غزلان، ظفرنا باثنين منها. وبعد ذلك توجهنا قاصدين قرن الضييا عبر واد متسع تكسوه الشجيرات الصغيرة يسمى مذب آل جعفر، ويرتفع الجبل نفسه ١٠٠ قدم تقريباً فوق الوادي. ويبدو أنه مستودع كنز دفين حسب ما ترويه الإشاعة السائدة. لا يعلم أحد كيف انتشرت هذه الإشاعة ولكن صالحاً تلقى نقداً من عشيرته لرغبته في أخذي لذلك المكان. وقد سألتني بعض أعضاء بعثتنا في المعسكر إذا ما وجدت الكنز وكنت أخبرتهم بأنه لا يوجد شيء مثل ذلك.

يمثل هذا الجبل آخر نقطة من المرتفع الحصوي الذي يمثل الضفة اليسرى لوادي أنصاب. وهناك كتلة أخرى من الحصى في اتجاه الغبر المرتفعة مع منخفضات تملأ

المسافة بين أنصاب وجعفر حيث يكونان دلتا واسعة تخرج في مقابلة حزام السبعين الرملي.

كان وصول سيارتنا علامة لتجمع الأهالي المندھشين لرؤيتنا وقد أقمنا كالعادة في مكان فسيح على طرف معسكر صالح وأسرته. وقد غادر صالح المكان لقضاء بعض الأمور الخاصة بشؤون قبيلته. وبقينا لوحداً إلى أن حان موعد تناول طعام العشاء المكون من لحم الماعز وعصيدة القمح (البر). ويعد أن فرغنا من الطعام لم يكن هناك شيء يستوجب مناقشته مما دفعني للعودة لمواصلة عملي. وكان يقطع خلوتي فقط الزيارات المتقطعة من بعض الأهالي الذين كانوا يرمقوننا بنظرات محدقة وهم في حالة اندهاش لكنني لم أعرهم اهتماماً وواصلت عملي بدأب ونشاط، وكان ضمن هؤلاء الأهالي الابن الأكبر لصالح. ويبدو لي أنه فظ السلوك يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر. وقد جاءني في منتصف الليل ويصحبته زوجته المدعوة رحمة، والتي أحضرت لي طاسة من الحليب. وكانت هي التي جهزت لنا طعام الغداء عندما زرنا مخيمهم في هضبة الكوير وكان منظرًا لطيفاً، إذ توجد خيام البدو وسط الشجيرات وتتلألأ نيران المعسكر لتضيء وجوه الذين يجلسون بالقرب منها. تقف الأغنام هادئة والجمال تتأمل في أحداث اليوم!

عندما استيقظت على أثر صوت المؤذن للصلاة وجدت أن الرمل كان بارداً تحت أقدامي العارية وكشف فجر اليوم منظرًا جذاباً لخضرة النبات، لاسيما الثمام وغيره من نباتات الصحراء، التي دبّت فيها الحياة بعد هطول الأمطار مؤخراً. وكان أول من جاءني صباح ذلك اليوم سيدة تدعى محسنة هي والدّة المرأة الشابة. وقد أحضرت لي حليباً مع تضرعها لله تعالى بأن يسيغ عليّ بركته. ومن الحضور أيضاً الشيخ ناصر ابن قطيان. وتواصلت الزيارات فقدم إليّ حمد بن ناصر وهو في العقد الخامس من عمره، نصف أعمى وشبه أطرش وأعرج وقال لي: «ذبحنا لك خروفاً الليلة الماضية». وذكرت له أننا أحضرنا معنا غزالين ورغم ذلك أعطيته ريالين. وكان هناك

= الفصل الحادي عشر =

مجموعة من الشبان (البدو) يسألون في بعض الأحيان أسئلة تلزمها اللباقة، وكنت أرد عليهم بجدية. وبعضهم كان يسأل عن الهدف من وراء صيدنا لبعض الطيور وقلت لهم مجيباً بأننا نأخذها معنا إلى المتحف، فرد أحدهم مستغرباً: «ماذا قلت؟». فأجبت: «إنه -أي المتحف- بيت كبير في مدينتنا الكبيرة مليء بالحيوانات والطيور جلبت من أصقاع كثيرة من العالم». وغادرني وهو في ريبة من أمري، هل أنا كذاب أم مجنون؟

وكان صباح اليوم التالي جميلاً، وتعطل سيرنا بسبب تأخر صالح لمدة أسبوع لقضاء بعض شؤونه. واستفدت من فترة التأخير لأقوم بدراسة المنطقة المجاورة. واتضح لي أن الجزء الرئيس من سلسلة جبال غالب منفصلة عن الجزء المركزي من هضبة الحوق ووادي العطف يفصل بينهما. وخلف وادي أنصاب يوجد خليج واسع تشكله هضبة حصوية ويقع وراءه منظر منطقة زراعية تعرف باسم جربت الكافر حيث ذكر صالح بأنها مكان زراعة مشهور في السابق. وما يعزز ذلك الرأي وجود كسر لألواح حجرية متناثرة في المنطقة مساحتها حوالي نصف × ربع ميل وربما كانت بقايا لقنوات عتيقة. وفي أقصى يمين هذه المنطقة توجد بقايا ألواح حجرية لسد مائي ذي فتحات ضيقة يبدو أنها تسمح بتدفق المياه إلى الخزان من مكان عال خلفه. والغريب في الأمر أن هذا الخزان يستمر إلى أعلى قمم المرتفعات وعلى امتدادها لمسافة معتبرة. ومن الصعب التكهن بمغزى هذه الجدران المرتفعة. وإذا كانت فعلاً جزءاً من الخزان فإنه لا شك كان ضخماً ويحفظ كمية كبيرة من المياه. والخزان «حقن الشيطان» كان منشأة ذات أهمية قد لا تكون واضحة اليوم. وسألت الهمامي عن مذبح بعل وسلاسل الحديد المحيطة به والتي ذكرها ويان بيرى في كتابه «أرض أز». وقد أكد على كلام بيرى وقال إنها ما زالت موجودة في منطقة النسيين في باعلوان.

وخلف الهضبة الجنوبية لجربت الكافر، يظهر واد تكسوه شجيرات صغيرة يسمى وادي الفليق ويبدو أنه كان يمتد من منطقة جرف صخري بين الغبر والمكلا

ويتجه نحو الشمال الغربي باتجاه أراض رملية . وبعد مسيرة ميلين وصلنا إلى نقطة تقع على الجانب الأيسر لوادي أنصاب وتطل على منظر غابة في غاية الجاذبية والجمال . وعند أسفل الجرف الصخري تقع مجاري مياه أجفر الرخم الضحلة . وفي المنطقة السفلى والعليا للنهر الجاري نلاحظ أن الوادي تغطيه كميات كبيرة من الأشجار المظلة وشجيرات الأكاسيا الشوكية ترعى فيها قطعان من الضأن والجمال . وهناك مجموعات القبائل البدوية رجال ونساء تجوب المنطقة وترى حيناً وهي تمتح المياه من الآبار لسقيا الحيوان . ومكان السقيا يسمى الغدير ، على وجه التعميم . وعادة تسحب المياه من حفر ضحلة لا يزيد عمقها على قدمين وتسمى فضايا ومفردها قَصِيّة .

ونزلنا إلى منحدر وعر يبلغ عمقه ٢٢ قدماً ونحن حفاة وانضممنا إلى مجموعة الأهالي الموجودة قرب الآبار . ويلاحظ قرب كل بئر امرأة تقف وأرجلها ثابتة وهي تملأ الدلو بالماء الذي سرعان ما يغطس ثائية داخل البئر حالما يسحب إلى أعلى حيث تقوم امرأة أو اثنتان بتفريغه في الأحواض المعدة لذلك . وعلى أي حال هذا العمل سهل ويقضي القائمون به الوقت في الأحاديث والمزاح . ولو حظ أن النساء يلبسن ملابس بأكمام طويلة ذات لون أزرق غامق من جراء صبغة النيلة . ومعظم النساء يرتدين عقوداً ، وربما ترتدي إحداهن ثلاثة أو أربعة عقود في جيدها ، أما الأحزمة حول الخاصرة فهي مزدانة بالخرز والفضة والكهرمان وبعضها مزخرف بسلك على هيئة ثعبان من المعدن . ومعظم هؤلاء النسوة جميلات . والملاحظ أن أيديهن وأرجلهن مغطاة بالنيلة التي تحل في الإقليم الجنوبي محل الحناء . بيد أن أجمل هؤلاء النسوة امرأة من عشيرة آل بريك التي ترعى مواشيتها عادة مع مواشي قبيلة آل عويرة وبقية القبائل وهي جذابة ترتدي عباءة جميلة بلون داكن للغاية من جراء صبغة النيلة ولكنها جديدة ومن المؤكد أنها جزء من جهاز عروس . وهناك حزام على هيئة ثعبان وسلسلة من الفضة مزدانة بقطع زجاجية موضوعة حول الخصر . ومن المؤكد أنها بنت الشيخ ودون شك أنها ، سيدة خيمة الشيخ . ويجدر التنويه هنا إلى أن مهر الزواج لدى

الكرب والقبائل المجاورة لها يتراوح بين ٥٠-٢٠٠ ريال وفي أحيان أخرى ينخفض إلى أقل من ٥٠ ريالاً.

وبينما كان المرافقون لي منهمكين في ملء أوعية المياه الجلدية للرحلة (القرب)، أخذت بندقيتي وخرجت للصيد. وكان أول الصيد حصولي على نوع جديد من طائر القطا. وحصلت على آخر في المساء نفسه في عياذ. ولم أكن أدري أنني عثرت على نوع جديد ويظهر أنه مختلف عن أنواع القطا الأخرى بلونه الفاتح مقارنة بالنوع المعروف للعرب باسم القطاط، والذي يأتي عادة لشرب المياه بعد حلول الظلام. وثمة إشارة هنا وهي أن الكولونيل بوسكاوين جمع عدداً من هذه الطيور قبل سنة أو سنتين خلت. ولكن لم يعر المتحف البريطاني أي اهتمام خاص لما جمعته أنا وبوسكاوين من هذا النوع من الطيور. وبعد أشهر قليلة تحصلنا على مجموعة من هذه الطيور من و. هـ. إنجرام الضابط السياسي في عدن الذي جلبها من حضرموت. وتم الآن التعرف على هذه الطيور ووصفها وسميت انجرامز وتحصلت أيضاً على طائر الوقواق. ولاحظت أن الوادي مليء بالأنواع العادية من الطيور مثل: البلابل، الحمام، وما يعرف باسم طيور الشمس، وصائد الذباب والأبيض الحنجرة والنجوم السوداء... إلخ.

يمتد وادي أنصاب إلى هذه المنطقة من جرف الغرب في جهة الجنوب الشرقي. ومن هنا يتجه نحو الشمال. ويتكون بطن هذا الوادي من الحجر الرملي ذي اللون الأحمر وتبرز عند جوانبه الطبقات الرملية والحصوية. يتكون الفليق في الأجزاء المرتفعة على طول الضفة اليسرى للوادي. عبرنا بعد ذلك قنوات أسفل الغرغر وأسفل لظحة الهابطة أرض المكلا الرأسية. ومررنا في طريقنا إلى وادي غثن بالعديد من القنوات المائية تشمل الجفان وأم القفل. هنا أقمنا معسكرنا للقيلولة تحت ظل الشجيرات المحدود، وكانت درجات الحرارة عند الظل تتراوح بين ٩٨-٩٩ فهرنهايت مع مرور نسيم طيب. وينحدر هذا الوادي (غثن) من خليج صخري شديد الانحدار

بين مرتفعات المكلا والديس . وبعد الساعة الرابعة بعد الظهر اشتد هبوب الرياح من جهة الشمال وفي غضون ذلك كانت هناك بقع صغيرة من السحب تسبح في الفضاء . وفي الساعة الرابعة والنصف استأنفنا المسير مرة أخرى تاركين غثن باتجاه الجنوب الغربي وقاصدين عياداً ومرنا بسهل حصوي يقطعه في بعض الأحيان عدد من القنوات والسدود لاسيما في منطقة جردان حيث تمتد الأراضي الزراعية البدائية حوالي نصف ميل على جانبي قناة جردان - مذب جردان كما تسمى في هذه المنطقة - ولمسافة عدد من الأميال أعلى المجرى من خط طريقنا الذي يتبع الحد الأسفل من الحقول تصادياً للمشاكل . بعد مسيرة خمسة أميال من غثن واثني عشر من أنصاب وصلنا قناة جردان ذات الأشجار الكثيرة . تقع قرية عياد نحو ميل من هذه النقطة في اتجاه أعلى المجرى وبها مبنى وحيد يشبه القلعة - حيدان وجوية ربما لحماية حدود منطقة الزراعة .

وصلنا قرية عياد الساعة الخامسة والنصف . وعند مدخل القرية كان كل الرجال من أهلها - أربعون أو خمسون - قد تجمعوا لاستقبالنا . وأطلق عياران ناربان تحية لنا . وبعد ذلك نظم أهل القرية أنفسهم في صف طويل قبالتنا . ومن ثم تقدم حرس الشرف لتحيتنا وتبعهم الرجال لمصافحتنا . وكان بعض الرجال يحملون أطفالهم الصغار ربما لأهمية الزيارة التاريخية . أو قد يكون لخروج النساء من المنازل في يوم عطلة . وكان أحد الرجال مجذوماً ، أبيض ومصفر البشرة . ورغم ذلك لم يظهر أهل القرية أي نفور منه بل قام بمصافحتنا واحتسى معنا القهوة . وأحضر أهل القرية بعض الحصائر التي فرشت على الأرض وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ونحتسي القهوة إلى مغيب الشمس حيث تفرقنا للوضوء وأداء صلاة المغرب . وبعد انقضاء الصلاة أحضر أحد الرجال قطعة من الحجر الرملي عليها نقش باللغة الحميرية كلمة واحدة (عثتقان) "Athtobqan" وقال : إنه مجلوب من أطلال حجر عند أعلى الوادي . علاوة على ذلك ، فقد عرضت قطع أخرى ضئيلة الأحجام تشمل حلية نحاس صغيرة

= الفصل الحادي عشر =

وبعض العلامات التي يستعصي فهمها فضلاً عن حبة مثقوبة لنظم قلادة. وللوهلة الأولى رفضت زيارة هذا المكان الأثري الذي جلبت منه هذه المعثورات وذلك حتى لا أشجع الأهالي على الجشع والمطالبة بهبات مالية؛ لذا فقد جلست لكتابة مذكرات بعض الأمور الأخرى. ولم يعكر هدوء خلوتي سوى بعض خطوات المارة -جيئة وذهاباً- من على البعد. وفي وقت متأخر قليلاً من الليل قدم وفد كبير من أهل القرية برئاسة الشيخ وفي حوزته اثنان من الأغنام للعشاء. لقد طال الليل في انتظار العشاء كما زادت جمهرة الزوار. وتبعاً لهذا الوضع الطارئ أجلت فكرة المسوحات الفلكية التي كنت أنوي القيام بها إلى وقت متأخر. ومما عضد هذا الرأي بالتأجيل أن السماء كانت ملبدة بالغيوم في تلك الليلة. ونسبة لعدم ذهاب الغيوم فقد تركت الفكرة وأخذت حبة الدواء وخلدت للنوم عند الساعة الحادية عشرة والنصف ولم أكمل ملاحظاتي إلا في فجر اليوم التالي.

وبينما كنت أقوم بإرجاع جهاز المزواة -أداة لقياس الزوايا في المسوحات- إلى مكانه لحفظه وصل وفد متوقع من آل ضباب من ناحية وادي جردان يبلغ عدده ١٢ رجلاً. وكنت أرتجف عند رؤيتي لأشكال هؤلاء القادمين في الهزيع الأخير من الليل وهم عراة إلى الخاصرة كان عبدالله الهمامي من جهة أخرى يرتدي معطفاً من جلد الغنم، الأول من نوعه الذي رأيته في هذه المناطق. وكان المرء يتوقع أن تكون هذه عادة منتشرة في بلد مليء بالأغنام. وبعد استقبال الوفد تركت صالح بن حزيق يتسامر مع الزوار ودلفت إلى مضجعي لأخذ قسطاً من الراحة ولكن لم أذق طعم النوم قط.

ويشكل خط وادي أنصاب الحد الغربي لحدود قبيلة الكرب. وخلف هذه المنطقة تعيش عشيرة همام وهي أحد فروع قبيلة العوالق والتي لا تعترف بنفوذ سلطان العوالق في أنصاب. وتجدر الإشارة هنا أن هذا الاسم الأخير يظهر خطأ في خرائطنا باسم نصاب (Nisab) بينما نجد أن ميداك (Midak) مركز سلطنة العوالق العليا يجب أن تنطق أم عتق. وتشمل مناطق نفوذ عشيرة همام المستقلة المناطق السفلى من

وادي همام ووادي مرخة. وبين منطقتي الكرب و همام يعيش أهالي قرية عياذ وقرية
صعدة التي تبعد عنها بأميال قليلة عند أعلى النهر حياة شبه رعوية، حيث كانوا
يجوبون جانبي واديهم مع أغنامهم وضأنهم. ومثلما عليه الحال بالنسبة إلى المشايخ
في شبوة، فإنهم ينتسبون إلى عشيرة القراميش من بني جبر. وهم مهاجرون إلى هذه
المنطقة من اليمن، من منطقة مأرب ولكن لا توجد لديهم فكرة عن كيف ولماذا ومتى
كانت هجرة قبيلتهم؟. ويقولون: إن عياداً نفسها غير قديمة كما هو حال حيد ولكنهم
عاشوا في المنطقة لوقت طويل نسبياً خاصة وهم يملكون مناجم الملح في مرتفع حيد
عياذ القريب. ورئيس المجموعة شخص وجيه يدعى محسناً له وجه مأكراً مثل
الثعلب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاود زيارتنا شيخ القبيلة محسن مع ابن عمه ووجه لنا
دعوة لزيارة القرية. وتتكون مباني هذه القرية من الطين المتماسك، وتقع في منطقة
مرتفعة فوق الجرف الصخري المنخفض على الجانب الأيسر للوادي باتجاه الشمال. وفي
منطقة منفصلة عن القرية باتجاه الغرب، يوجد برج جيد البناء مربع الشكل. وللقرية
ثلاث آبار عمق كل منها ٢٠ قامة (١٢٠) قدم لكل واحدة). وإحدى هذه الآبار خارج
القرية ذات إمداد مياه موسمي والأخريان تنضبان عند حلول فصل الجفاف.

زرنا في البداية البئر الرئيسة حيث وجدنا الفتيات يعملن في أخذ المياه ثم مررنا
على القرية عبر شوارع متعرجة. وقد طلبت زيارة البرج الرئيس المجاور لمنزل متين
البنان مكون من طابقين. وعلمت أنه يتبع لزعيم القرية الثالثة المشاكس والذي ما إن
طرق محسن باب منزله حتى جاء للتو لاستقبالني ويبدو من قسمات وجهه أنه كان
غير راض أن يسمح لنا بزيارة البرج. وفي تقديري أنه كان يطمع في الحصول على
مردود مادي نظير ذلك. وقلت لمحسن: إن المنزل المشرف على البئر كافٍ ليسمح لنا
برؤية البرج عن قرب. ولم تؤرقني زيارة هذا المنزل لرؤية البرج لاسيما وأن هناك
رجالاً مدججين بالسلاح ينتشرون على سطح المنزل وعلى استعداد تام لمقاومة أي

شخص يدخل المنزل؛ لذا فقد صرفنا النظر عن زيارة هذا المنزل. وحالما وصلنا باب المنزل المجاور حتى استقبلنا صاحبه بالترحاب. ودخلنا المنزل وصعدنا بواسطة البرج المبني من الآجر الطيني الذي يقود إلى الطابق الثاني. ومن هناك تسلقنا درجات سلم خشبي آخر يقود إلى السطح. وسرعان ما امتلأ المكان بالزوار القرويين وكانوا طيبين ومستعدين لتقديم أية معلومات أطلبها.

وفي السطح تمتعت بمنظر رائع. وأمضيت الوقت في التعرف على كل مظاهر هذا الريف الواسع. وبإلقاء نظرة خلفية على المكان الذي أتينا منه، أستطيع رؤية مرتفعات غالب وجبل علفة والغبر في مقدمة وادي أنصاب. وباتجاه الجنوب هناك هضاب فخذ المنعزلة تبدو ماثلة للعيان من السقمة بينما تظهر مرتفعات نوخان التي تمثل بداية حدود منطقة قبيلة الحاضنة. وبين موضعنا الحالي والمرتفعات الأخيرة يتناثر العديد من التلال البركانية وهي غير مرتفعة كثيراً وتسمى القرون السود، وتعد حدود قبيلة القراميش^(١) في ذلك الجانب. وفي جهة الغرب وإلى الجنوب قليلاً تقع روايي كُبر والظهير. وهذه المرتفعات تفصل بين وادي همام عن منطقة سلطان العوالق وتطل على العاصمة أنصاب على بعد ميل منها. وعلى الجنوب الغربي يقف صخر حجر حيث ينحدر وادي مرخة من الجبال ويختفي في الرمال في الشمال الغربي من عياذ بالقرب من مرتفع يستار والأخير متنازع عليه بين الكرب وهمام. وفي أقصى الغرب نلاحظ الجرف الصخري لعطفان الذي يقود إلى بيحان والذي تسكنه عشيرة أهل سلاميش، فرع قبيلة النسيين الصعبة المراس، وباتجاه الشمال الغربي تقع مناجم عياذ الملح (حيد الملح) على مسافة أميال قلائل. وعلاوة على الحصنين اللذين ذكرا آنفاً وقع ناظري على حصنين آخرين، أحدهما حصن ظبي، الذي يقع عند قمة تلال منخفضة في وادي الشولة على بعد نصف ميل من مكاننا الحالي. أما حصن عصيفير

(١) القراميش: من قبائل بني جبر في خولان العالية. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢، ص ٦٤٨. (المراجعون).

فيقع إلى الجنوب الشرقي على بعد ميل واحد. وهناك أيضاً حصن المناقل (لابن حيدان) ويقع إلى جهة الغرب الشمال الغربي من هضبة (إرانام). وتشكل هذه الحصون دروعاً واقية للقرية ومزارعها من أي اعتداء عليها. وإذا ما جلنا ببصرنا باتجاه الشرق والجنوب الشرقي فيكتمل المنظر برؤية قرية صعدة على الجانب الأيسر من (وادي جردان). وهناك حصن البويردة الحديث ويقع في منتصف أطلال قديمة إلى الأمام. وترى صخور حيد - الضواحي المنعزلة والتي تقع عند منتصف القناة عند خروجنا من الجرف الصخري مباشرة. وعند أسفلها مباشرة توجد المستنقعات المعروفة باسم الكراف، والتي نجمت عن ركود مياه السيول. وأمام هذه المنطقة - كما قيل لي - موقعا حجر وبنا الأثريان ولكن تتعذر رؤيتهما من هذا المكان.

وبعد أن فرغت من هذا المسح، قررت أن أزور مناجم الملح بمفردي وأن أترك بقية المرافقين وسيارة النقل والجمال في المعسكر. وتفادياً لأية متاعب قد تقابلني اخترت أن يصطحبني كل من سائق السيارة وعبدالله الهمامي ومحسن وصالح بن حزيق، ولكن هذا الاختيار أفضى إلى هياج وسط المجموعة حيث أعلن كل من ابن عم محسن وزعيم الفرع الثالث لقييلته أن لهم الحق في مرافقتي إلى مناجم الملح لاسيما وأنهم أيضاً - على حد زعمه - شركاء في ملكيتها. وباءت كل محاولاتي بإقناعهم بعدم وجود مكان يتسع لهم في السيارة بالفشل. وفي نهاية الأمر رضخت لمطلبهم وانضم الاثنان إلى المجموعة رغم ضيق الحيز في السيارة وانطلقنا لا نلوي على شيء سوى مناجم الملح.

وتحركنا عبر مناطق تتخللها سدود مائية، ودخلنا سهلاً قاحلاً توجد عند نهايته رواابي وحيد الملح التي تبعد حوالي خمسة أميال من القرية. ومن هناك واصلنا السير عبر واد ضيق متعرج مؤد إلى قلب الجبال. وعند نهاية هذا الممر تركنا السيارة ومشينا بأرجلنا نحو خمس دقائق عبر أراض صخرية إلى موقع المنجم. واعتلى محسن صخرة على ارتفاع مئة قدم ليرى ما إذا كان الشاطئ ظاهراً. وذكر أنهم دائماً يحتلون

هذه النقطة المهمة كحماية لهم من البدو الذين يهاجمونهم أحياناً. وعند إشارته لنا تبعناه لتأخذ نظرة شاملة من أعلى حيث رأينا قمتي النسرخ خلف شبة في جهة وهضبة عطفان من الجهة الثانية. وبعيداً عنا في الرمال رأينا يستار والقرنين للشمال وقمة ثلوت من وراء عقلة. وكان عند موطئ أقدامنا حفرة يستخرج منها الملح كما وجدنا بعض الأكياس المملوءة بالملح مبعثرة عند طرف هذه الحفرة. وتعد هذه النقطة التي اعتليناها الجزء الأعلى من الهضبة ولها ثلاث أو أربع قمم. وتظهر طبقات الهضبة أرضية متموجة لكنها أقل وعورة مقارنة بنظائرها في شبة المقعة.

والمنجم الذي وصلنا إليه يقع في طبقات صخرية صلبة وعميقة ذات لون يميل إلى الرمادي. وتحتها مباشرة بعمق ٥٠ قدماً إلى شمال المدخل، وبحوالي ٣٠ متراً إلى اليمين، ما يزال العمل مستمراً. بينما يلاحظ أن الواجهة المقابلة للحفرة قد تم حفرها إلى أعماق بعيدة. وتجدر الإشارة إلى أن هناك عدداً من العبيد يعملون هنا. وعندما أدرك أحد هؤلاء أننا غرباء همّ بتناول بندقيته لمهاجمتنا ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة عندما تيقن أننا لسنا أعداء ومن ثم استمر في مواصلة عمله. وعند وصولنا إلى الحفرة التي كان يعمل فيها هذا الزنجي طلبت منه أن يحفر لي كتلة من الملح وأعطيته ريالاً. والشيء نفسه فعلته مع رفقاءه الأربعة. ثمة إشارة هنا وهي أن "المجبة" أو الرسوم التي يأخذها أهالي حصن الجوبية من تجار الملح تصل إلى ريال واحد نظير حمولة ثلاثة جمال بالإضافة إلى دفع ما يسمونه "مرسة" وهي دفع مبلغ ربع ريال على كل جمل محمّل بالملح. عدنا للسيارة وسرنا عبر التلال في الجانب الآخر. حيث دخلنا سهلاً رملياً كبيراً حتى وصلنا حقول عياد.

وقبل الذهاب إلى المناجم كنت قد تفاوضت مع وفد جردان وكان من ضمنه حمد بن عبدالله الذي قابلته في شبة. وكان الأخير قد أوفد كل فروع عشيرة أهل جردان وآل الفشر. وكان موضوع الرحلة إلى الأطلال في الوادي جذاباً كما أن ممثلي عشائر وادي جردان كانوا قد قدموا لي دعوة لقضاء ليلة في ديارهم. ووافقت على

الزيارة وأخطرتهم بأنني سأزور في البدء القرية ومن ثم مناجم الملح وبعد ذلك سأكون في إمرتهم. وعندما رجعت من القرية جاءني الأهالي ورفقاء حمد قائلين: «مرحباً بك في وادينا حيث توجد الآثار المدهشة لقدامى الكفار، ونحن نخاف من أنك ربما تفضل حمد على حسابنا وتلحق الضرر بنا؛ لذلك يجب أن تدفع لنا من المال كما تدفع له تماماً. وإذا فعلت ذلك فبالأكيد ستجد عندنا كل ترحاب». وكان الرد عندي «سوف لن أدخل معكم في أي شروط وتعهدات. وفيما يخص الهبة التي سأعطيك إياها فهي مسألة أقررها بنفسي ولا شأن لكم بنوعيتها، ولقد حضرت هنا عابر سبيل، ووقتي غال لأجل الإيفاء بوعدي لحمد بزيارة شبوة. ولقد أخطرتهم بأنني لن أزور الوادي إلا إذا كانت هناك موافقة جماعية على ذلك بين كافة فروع القبيلة؛ لذا فقد قدم إلى عياذ لمرافقتي. وأنا لم أعتد أن أساوم بالكرم مع العرب. ولن أساومكم أو أتبع السلوك في التعامل نفسه مع غيركم. ووقتي قيّم للغاية. ويجب أن أرجع إلى منطقة استخراج الملح بعد ساعة واحدة. وإذا أردتم أن أرافقكم فلن أفعل ذلك، فليذهب اثنان منكم مع الجمال في المقدمة ويتأخر أحدهم ليرافق السيارة». وعند رجوعي إلى المخيم لم أر شيئاً يوحي بأن رفقاء قبيلة جردان قد حزموا أمرهم. وقلت لهم بالحرف: «حسناً، طالما أنكم لا تزالون في هذا اللجاج، فلن أتدخل وأكون سبباً في هذا الانشقاق، ويمكن أن نفترق بسلام، وأنا حر في أن أعد حمد بأي هبة. كما أنني حر في أن أستمّر في سيري قاصداً مرخة. والآن بدأتم في حزم الامتعة، فإذا كانت وجهتكم وادي جردان أو حتى وادي مرخة، فالأمر عندي سيان، إنما الأهم هو أن الزمن أثمن من إهداره هكذا. وقد أخطرت مجموعتنا في شبوة بأننا سنحضر بعد أسبوع والآن نحن في اليوم الثالث!». وقد قمت بدفع المستحقات للمرافقين.

وكان رجال جردان ما يزالون في خلافهم المستمر. فطلبت من صالح أن يركب السيارة. وأدرت على الفور الماكينة وودعت محسناً قائلًا: «في رعاية الله» ورد علي بعبارة: «فليحفظك الله آمناً». وبدأت السيارة التي تقلنا تتحرك، لكن حدث أن تعطلت

سيارة النقل (البليك أب) التي تقلنا فجأة. وقدت سيارتي إلى مسافة ميل وبعدها تحركت خلفنا سيارة البليك أب. ولقد كنت سعيداً لمفارقتي هؤلاء من عشيرة القراميش.

الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو عدم زيارتي أطلال وادي جردان، وعلى الرغم من كل سلوكهم السيئ وجشعهم، فإن آكل الفشر استرعوا انتباهي كأحد أهم العناصر الجذابة في جنوب الجزيرة العربية. وهم في حقيقة الأمر إحدى المجموعات الثلاث الباقية من قبيلة بني هلال القديمة والأخريان هما أهل خليفة في الحاضنة والنسبين وعشيرة آل الفشر في منطقة جردان والتي تتكون من خمسة بطون هي آل ضباب ولهم الزعامة، فشيخهم هو صالح العقيل عم حمد بن عبدالله، وأهل حسن، وأهل عطيف، وأهل ساري، وأهل الخضراء. وفي أعلى الوادي يوجد بطن آخر هو أهل المقبر، ولكنه لا ينتمي إلى بني هلال -وهم من السادة الذين -دون شك- قد قطنوا هذا الموضع وباتوا الزعماء الدينين للقبيلة-.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لبني هلال سمعة أسطورية وهي أنهم أجمل الناس في الجزيرة العربية وكل المباني القديمة التي لا تعرف أصولها تنسب إلى هؤلاء الأقوام. وفي الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية فإن الأساطير التي تنسج حولهم هي الموضة الشائعة بالرغم من مزاعم التفوق للعدنيين والسبئيين والحميريين وغيرهم. وأبو زيد الهلالي بطلهم الشعبي هو الاسم الشائع الذي تردده كل الألسنة في تلك الأجزاء من الجزيرة العربية في حين أن أسماء مثل ملكة سبأ والشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى ليست إلا مجرد ذكريات عفا عليها الزمن. ومن هم بنو هلال؟. لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال. ولكن إذا كان أحفادهم هم الموجودون الآن في هذه المناطق من الجزيرة العربية، فليس بوسعي أن أجِد في أي منهم أي علامات فيزيقية أو لغوية أكثر من كونها سامية.

وحتى الآن فإنني الأوروبي الوحيد الذي زار عباداً فكل من هلفريتز وريكاردز لم يزوراها وإنما مرا بها من منطقة قريبة فقط. أما الباحث وإيمان بري فقد ذكر بصورة

عابرة في كتابه «أرض أوز - Land of Uz» إنه زار عياداً مرة واحدة. وأوضح أنه قام باستطلاع سريع وأرسل أحد الأعراب ليحضر له -خلصة- بعض النقوش ولكنه -أي وإيمان- نسي أن يقول لنا ما هو مصير هذا الرسول. والمعلومات التي يضمناها هذا الكتاب والخارطة المرافقة لا تؤيدان هذا الزعم. ومثال لذلك: أن شبوة -كما ذكر في الكتاب- لا يمكن أن تُرى من أي نقطة جنوب العقلة. ولو كان بري وصل إلى ذلك المكان لكان قد وجد النقوش التي عثرت عليها. فضلاً عن ذلك فإنه من غير المقبول أن لا تحتوي خارطته على موضع الحاضنة إذا كان فعلاً قد مر بها في طريقه إلى عياد. وقد أكد لي أهالي عياد أنهم لا يعرفون شخص (بري) بهذا الاسم قد زار بلدتهم. هذا على الرغم من أن «عبدالله منصور» الاسم الإسلامي لبري معروف في هذه الأوصاف في السنوات الأولى من هذا القرن وما زال يذكر بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ. وعلى أية حال وإلى أن تظهر أدلة أخرى أكثر إقناعاً فإن ادعاء بري زيارة عياد لا يمكن الوثوق به.

تحررنا تاركين الجانب الأيسر من أماكن استخراج الملح إلى أن وصلنا سهلاً فسيحاً. وأثناء سيرنا رأينا أحد طيور الحبارى وما إن اقتربنا منه حتى أسلم جناحيه للرياح هارباً ولم نفلح في اصطياده إلا بعد مطاردة قصيرة. وبعد مسير ثمانية أميال باتجاه الجنوب الشرقي في مرتفعات العلم، توقفنا لتناول وجبة الغداء تحت ظل بعض الصخور. ويلاحظ أن هناك هضبتين تقعان على محور جنوب شرق - شمال غرب بوضع متواز تقريباً، والمحور الأكثر ميلاً باتجاه الجنوب والذي توقفنا عند طرفه يتكون من صخور رملية متحولة ذات لون أرجواني في حين أن الآخر تتشكل طبقاته السفلية من الصخور نفسها وتعلوها طبقات جيرية ترجع إلى عصر الأيوسين. وهنا واد رملي ضحل وواسع يفصلنا عن مجموعة كتل صغيرة من الحجر الرملي تسمى إرنام. ويظهر في الأفق البعيد عند أقصى الوادي ما يشبه طابور النمل، إنه قافلة تتكون من ٣٠-٤٠ جملاً وهي تسير بتمهل في اتجاه قرية عياد. وفي ذات الوقت، فإن قافلتنا تزحف ببطء في الاتجاه المعاكس.

وعند التقاء القافلتين، جاءنا وفد من ثلاثة رجال وذهب عبدالله الهمامي لاستقبالهم. أما أنا فقد أخذت أمتعتي الشخصية لإصلاحها عند ظل مأوى صخري. وفي أثناء ذلك دعست على أحد أقيم غليوناتي فكسرتة. واتضح بعد ذلك أن الرجال الذين ذهب عبدالله لاستقبالهم من عشيرته. وكانوا قادمين من وادي مرخة وفي طريقهم إلى وادي جردان. وعند مقابلتهم قالوا لي: «اتجهنا لنرى الدولة عندما رأينا العربات واقفة في المعسكر وقلنا لأنفسنا: الدولة ربما تعطينا «فاش». وهذا الكلمة تعني إذن أو جواز مرور عابر سبيل. وبالتالي يقصدون هبة مالية ولكن إمكانياتي محدودة وهي من أجل الصرف على مرافقي والآخرين ممن أنفع بخدمتهم طوال الرحلة.

وبعد قضاء وقت القيلولة تحركنا الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر وسرنا حوالي ثلاثة أرباع الساعة في سهل رملي واسع يكسوه الحصى يسمى سهل الحراج. وهو في الواقع دلتا وادي همام وفي طريقنا أخذنا معنا خدم حمد الفردعي وكانوا قافلين إلى وادي مرخة وهم في حبور وسرور لقضاء الليلة معنا في المعسكر. واخترنا شجرة ضخمة ظليلة من نوع السرح، تسمى محلياً باسم المكادرمة لآخذ قسط من الراحة بجانبها. وكان معنا في المعسكر ثلاثة من النسبين انضموا إلى مجموعة الإبل بعد أن وفروا دوابهم وتركوا لي تقدير الأجر فيما بعد، وهكذا فقد كانت المجموعة كبيرة عند العشاء حيث قمت بتسليتهم باستعمالي للمذيع الذي أثار انتباههم. وقد أخبروني بمناجم الملح في عياذ في مؤخرة وادي بيحان ومنجم صغير في وادي أبراد الذي يتبع لعبدة مأرب وهم عشيرة من قحطان. وهو بالتالي المنجم الوحيد في سبأ الذي لم أزره. وفي البعيد -جنوباً- ترتفع سلسلة جبال كور وخلفها أنصاب بالإضافة إلى أور "urr" والقمم الأخرى التي تطل على البحر. وفي وراء بعيداً توجد بيحان حيث مرتفع السليمة الذي يكون الضفة اليمنى لودايها.

وكانت درجة الحرارة في صبيحة اليوم التالي (٢٦ سبتمبر) منخفضة تصل إلى

٥٨ في بداية اليوم. وغادر جابر بن مدعر ومعهم مجموعة بالجمال بعد تناول الإفطار

مباشرة إلى مقصدنا وهو مخيم النسبين همام في قرن الفقية في وادي مرخة. وكانت صخرة الجرانيت البارزة له حجر يحرق، هي التي توضح الموضع الرئيس للمخيم. وراودني شعور بأن من المؤسف أن نمر بالقرب من الحاضنة دون أن نعرف شيئاً عن المستوطنة؛ لذلك فقد قررت الذهاب إليها. فتحركنا حوالي الساعة التاسعة قبل الظهر باتجاه جنوب - شرق عبر أرض سهلية. وتوقفنا بعد بضعة أميال لقضاء بعض الوقت مع أعرابي كان راكباً ناقته ويسير وحيداً في هذه الصحراء. وبعد مسيرة تسعة أميال من نقطة انطلاقنا تغيرت طبيعة الأرض من حصوية إلى رملية. وفي الطريق قام رجال القافلة بمطاردة بعض الغزلان من إدمي. أما أنا فقد ركزت جهدي باتجاه صيد أحد الوعول. ولم أتمكن من الظفر به إلا بعد مطاردة مسافة أربعة أميال. وبعد فترة قصيرة وجدنا أنفسنا نسير في مفترق طرق عبارة عن خط تقسيم لتوعين من التضاريس: أحدهما عبارة عن سهل رملي على الجانب الأيسر والآخر هو الأكثر اتساعاً يتكون من رسوبيات وغبار بركاني. وبعد مسيرة ميل آخر وصلنا أسفل جبل الكرش الذي يبعد بما يزيد على عشرين ميلاً من المخيم الذي تحركنا منه في بداية الرحلة.

ومن الخارج يبدو جبل الكرش منخفضاً حيث يتراوح ارتفاعه بين ٢٠٠-٢٥٠ قدماً. وفي الجانب الشمالي الذي صعدنا عن طريقه إلى القمة نجد شقاً متسعاً تملؤه اللابة (الحمم) وتكثر فيه الكتل والطفوح البركانية. أما القمة فهي ذات شكل بيضوي ومحاطة بجدران شديدة الانحدار يصل ارتفاعها إلى ٢٠٠ قدم في المتوسط مع وجود أقسام أكثر ارتفاعاً عند الأركان. وحفرة البركان تظهر وكأنها بحيرة ذات لون رملي مصفر مخلوط بغبار البركان. وثمة ملاحظة هنا وهي أن المنظر العام للابة (الحمم) وشكل الجدران السليمة للفوهة يوحيان بأن عمر النشاط البركاني حديث نسبياً. وأخذت بعض عينات من ذلك البركان لفحصه بواسطة خبراء المتحف البريطاني. وعلى مقربة من هذا المكان وباتجاه الشمال الشرقي توجد هضبة ثماد البركانية. وفي

اتجاه الجنوب الشرقي تقع فوهة بركانية على هيئة رابية . وباتجاه الجنوب الغربي تقع فوهة جنداب في حين تقع كل من خرشفة ومورا وهما رايتان بركانيتان في اتجاه الغرب والشمال الغربي . وهذه السلسلة من الفوهات البركانية والتي تتوسطها فوهة كرش تقع في دلتا الحاضنة المحاطة بجروف جيرية من جهة الشرق ومرتفعات الباخدم وفخض من جهة الشمال .

وفي الجهة المقابلة لهذه المجموعة البركانية توجد سلسلة من المرتفعات البازلتية تبدأ من جبل القليعة الهرمي الشكل عند بداية الوادي وتتجه ناحية الجنوب الشرقي حيث تشمل ضنيحة ، وكبار الفهير وتستمر باتجاه حجر - يححر ومرتفعات مرخة التي تقع باتجاه الشمال الغربي . وخلف وادي مرخة تبدأ الجروف الجيرية مرة أخرى بدءاً من مرتفعات عفطان . ويبدو أن التحركات الأرضية القديمة قد قسمت المرتفعات الجيرية إلى قسمين وتركت عند الفجوة الفاصلة بينهما رايتين كونتا مع الجرفين على الجانبين ثلاثة أودية هي : الحاضنة وهمام ومرخة . وفي أقصى جهة الجنوب بعيداً عن هذه المرتفعات البركانية تمتد سلسلة جبال كور التي تبلغ أعلى قمة لها عند أور ، وعند أسفل هذه الجبال تقع مستوطنات حبان ويشبم وأنصاب .

وبعد أن سجلنا بعض الملاحظات عن المظاهر الطبيعية والتضاريس التي سجلتها الطبيعة في أحسن صورها أعدد الآن ما فعله الإنسان . والخط من كرش إلى القعيمة يمثل الحدود بين همام وأهل خليفة . فمن القعيمة باتجاه الغرب يمتد وادي وطاح ويشكل مع مرتفعات كُبار - الفهير التي تمثل الحدود بين همام وسلطنة العلاقي العليا . ويعد مجرى وادي وطاح الذي يصل خلف السودة والجنداب فرع وادي همام . والوادي الأخير يبدأ خروجه من المنطقة الجبلية بين كُبار والظهير . وهناك قبيلة أهل خليفة ، أو أهل الحاضنة كما تسمى نفسها أحياناً ، وهي كما ذكرنا فرع من بني هلال . وهذه القبيلة مستقلة النفوذ ولا تعترف بأي سلطة عليها سواء من قبيلة يشبم أو قبيلة أنصاب . وفي فترة لاحقة أقامت أحد عشائر هذه القبيلة (بني هلال) والمعروفة باسم

آل مهدي علاقات سياسية مع السلطات البريطانية في عدن وأسبغت عليها الأخيرة الحماية وكانت تتلقى منها الهبات.

وتقع قرى هذه العشيرة أسفل وادي الحاضنة. وترتيب هذه القرى ابتداء من أسفل الوادي إلى أعلاه يشمل: الشبكة التي تغطيها أعداد كبيرة من أشجار العلب، وهناك ثمد ونوخان. والأخيرة تقع قبالة الجرف الصخري. أما عدة القفل فتقع في وسط الوادي على بعد ميلين شرق كرش، وخلفها تقع قرى لحرم والصحفة باتجاه الجرف الصخري. وقرية باكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من كرش يوجد بها العديد من الأكواخ والحصون. ويوجد حصنان في كل من الشبكة -إلى الجنوب الشرقي- أسفل الجرف فضلاً عن أربعة حصون أخرى تشكل قرية الكريبية التي تقع إلى الجنوب قليلاً لكنها تتوسط الوادي وتوجد فيها قلعة جشم في الجهة اليمنى منها. أما السوق أو قرية الجابية فتقع على مسافة خمسة أميال من كرش على الجانب الأقرب من قمة مرتفعات القليعة. وتقع عتق على بعد نصف ميل إلى أسفلها، ولكنها لا ترى من كرش، القرى الصغيرة الخمسة وهي من خمر والقارة -على جانبي المرتفع- والعطف وباسودان وهات.

ويجدر التنويه إلى أن القرى الستة عشرة المذكورة أعلاه تشكل مجمل المستوطنات في وادي الحاضنة، ومن ناحية أخرى فإن القرى الواقعة إلى أقصى جهتي الشمال والجنوب من هذه المستوطنات هي الشبكة وهي تحت مشيخة طالب بن علي والقارة تحت إدارة ابن عمه أحمد بن علي وهما ينحدران من عشيرة أهل مهدي. وهذه القرى تقع تحت النفوذ والحماية البريطانية في حين أن بقية القرى مستقلة. وتتبع قرية الجابية إلى أهل سوا، الذين يدعون تميزاً خاصاً عن بقية العشائر لاسيما وأن السوق المحلي في المنطقة يقع تحت نفوذهم. ومن جهة أخرى، فإن أهل قفيش لهم السيادة على حصون باكبيرة الكريبية وجشم وأهل عبود تتبع لهم قرى لحرم والصحفة، بينما تتبع قرية الشبكة إلى أهل حمير وخمر إلى أهل الكاظمي، وقرى

هات وبا سودان لأهل منصور. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مجموع الرجال البالغين لا يزيد على ٣٠٠ رجل في حين أن مجموع السكان في كل هذه القرى يصل إلى حوالي ١٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال.

شيدنا مخيماً عند أسفل الجبل على مقربة من شجيرات الأكاسيا الشوكية. ومما يدعو للحبور الحصول على ظل بغية الاستجمام والراحة بعد عناء ساعتين من السير المتواصل في نهار قائف. وأمضينا القيلولة إلى أن انخفضت درجة الحرارة قليلاً قبل أن نواصل المسيرة. ولاحظت وجود معسكر لبدو يتكون من عشر خيام على مسافة نصف ميل. ولم يعر مروونا على مقربة منهم أي اهتمام. ويبدو أن هذه المستوطنة خالية من السكان. ومما يدل على ذلك أن العربي عادة يجلس في بيته وقت القيلولة ما لم يكن هناك سبب ملح يدعو للخروج منه.

ومن كرش واصلنا المسير الساعة الثانية بعد الظهر باتجاه الشمال الغربي ومررنا في الطريق بمجموعة من الطفوح البركانية المنعزلة تسمى أحاسيف. ويبدو وراء هذا المنظر مساحات واسعة من السدود المائية تتخللها أشجار العلب المسمى جريبة وهذه المناطق الزراعية تدخل في حوزة عشيرة همام التي تملك أيضاً مزارع دخن في واديهما. وعلى أية حال لا تملك هذه القبيلة أي قرى أو مبان ثابتة في منطقتهم لأن الغالبية العظمى من أفرادها تمتهن حرفة الرعي. ويعد أهل قربان أكبر عشيرة في بلدة كرش التي تتكون من عدة أفرع هي شملان وهي تحت رئاسة صالح بن عبدالله والد مرشد قافلتنا. وهناك أيضاً آل حسين وآل طالب وآل ذياب أما بقية العشائر المكونة للقبيلة فهم آل مسفر وآل حوال وآل مفجور وآل طهيف وآل عنين وأهل هجاري.

وفي المنطقة المجاورة لجزيرة توقفنا للحديث مع رجلين من عشيرة النسين في طريقهم من الحاضنة إلى حجر - يحرر. وأناخ الرجلان جمالهم على مسافة قريبة ووصلا إلينا سيراً على الأقدام. وعلى مقربة منا أطلق الرجل الأول من بندقيته طلقة في الهواء. وعلمت أن إطلاق هذه الطلقة في عرف هذه القبيلة يعني أن الشخص

القادم الذي يحمل بندقية قد أفرغ شحنتها وأن خزانة الرصاص خاوية. وسألني الرجلان: «هل يمكن أن يخترق الرصاص سيارتنا؟». فقلت لهم: «نعم يمكن ذلك إذا كانت السيارة قريبة، أما إذا كانت بعيدة فالله وحده يعلم ماذا سيحدث». وأخطرنا الرجلان أن قبيلتهم (النسين) منقسمة على نفسها إزاء زيارتنا. فالغالبية العظمى ترحب بنا، في حين أن القلة ترى أن زيارتنا لا جدوى منها وأن من الخير أن تبقى قبيلتهم في منأى عن أي علاقات ذات تداعيات سياسية.

وفي مسيرنا عبرنا بعض السدود المائية لوادي همام حيث تنتشر شجيرات الصمغ. وعلى يسارنا تنتشر الروابي البركانية ومن أبرزها مرتفع خرشيفة. وأكد لي عبد الله أن بمقدورنا عبور هذا المرتفع عن طريق نفق منخفض. ولكن وجدنا أن الرمال التي تؤدي إلى ذلك النفق ناعمة للغاية وشكلت عائقاً لسيارتنا. وأضعنا وقتاً طويلاً ونحن نحاول اجتياز الرمال دون جدوى. وقررنا في نهاية المطاف أن ندور حول المرتفع فقابلتنا امرأة قادمة من وادي مرخة أصيبت بالذعر عند رؤيتنا وولت هاربة رغم محاولات عبد الله طمأنتها. ومن ثم مررنا بمنطقة تعد الحد الفاصل بين قبيلتي همام والنسين. وعلى الجانب الأيسر -وعلى مسافة ليست كبيرة- نلمح قناة مرخة وهي تنتهي إلى سهل منخفض حيث تلوح في الأفق البعيد حجر - يحرر على بعد ٣ أميال. وعند الساعة الرابعة والنصف وصلنا إلى مخيمات همام - النسين في الوادي خلف رابية قرن الفقيه المنخفضة الارتفاع. حيث نصب مضيفنا خيمة لوفد المقدمة الذين وصلوا قبل الظهر.

وأثناء تقدمنا للأمام اصطف بعض البدو وأطلق ثلاثة منهم عدة طلقات نارية في الهواء وقاموا بتحيتنا ورددنا لهم التحية بالمثل ومن ثم دخلنا خيمة الضيافة التي رفعت أورتها للتهوية. وكان العدد الذي يقبع بداخل الخيمة كبيراً ومثيراً للدهشة. وكان مضيفنا هو عبد الله والبد صالح بن عبد الله وهو رجل كبير السن بيد أنه بصحة جيّدة. ولم يمض سوى وقت قصير على جلوسنا حتى استدعيت إلى خارج الخيمة لاستقبال

وفد عشيرة شملان وهي فرع قبيلة النسيين التي تقطن وادي همام. وهم من الذين اصطفوا لاستقبالنا. وفي البدء لم تكن هناك مواضيع مشتركة لتجاذب أطراف الحديث مع أفراد هذه العشائر أكثر من ترداد التحايا خاصة من نجران إلى الأجزاء الجنوبية. وجرت العادة عندما يلتقي أي فرد بمجموعة من الناس أن يحيي كل واحد منهم باسمه ويقول له على سبيل المثال: «كيف حالك يا صالح؟ الله يعطيك النجاة، فليحفظك الله، كيف حالك يا علي؟ الله يعطيك من فضله، الله يعطيك العافية، الله يقويك... إلخ هذه العبارات». وأثناء ذلك كانت تقدم القهوة العربية للحضور. وتبدأ جلسات الانس في شكل همس خافت ومن ثم تعلو الأصوات رويداً رويداً. وجلست بجوار العجوز صالح. وكان أفراد قبيلة النسيين يجلسون عند الركن المقابل في المجلس على جانبي شيخهم صالح بن هادي من عشيرة الشلامي. والأخير رجل قوي البنية عدائي وصعب المراس، ذو لحية رمادية اللون ويبدو كما لو أنه أكثر ميلاً للخصام منه إلى الأحاديث الودية.

وفي إجابة عن سؤال للشيخ صالح عن سبب تأخرنا في الوصول، أوضحت له أن ذلك كان بسبب مطاردتنا لبعض الغزلان، حيث تمكنا من اصطيد ثلاثة منها. وسألني صالح باندفاع: «هل هذه غزلان همامي أم غزلان النسيين؟». فأجبت قائلاً: «أعتقد أنها غزلان قبيلة همام». فسألني ثانية: «كيف عرفت ذلك؟ هل رأيت عليها وسم همام؟». فأجبت: «لا، ولكن أطلقت عليها النار في منطقة همام بين الجريبة والحاضنة». فرد علي ويبدو عليه شيء من القناعة قائلاً: «حسناً، ربما كانوا تابعين لمنطقة همام وإلا فقد تكون ارتكبت خطيئة بإراقة دماء النسيين». وواصل حديثه قائلاً: «لماذا حضرت أنت هنا؟ هل لمصلحة تتبغها لنفسك أم لمصلحة لنا؟». فقلت له: «جئت إلى هنا تلبية لدعوة تلقيتها من قبيلة همام وعشيرة الجردان (فرع عشيرة النسيين). ولقد كان الهدف من المجيء هو إشاعة الجبور والسرور في نفوس هؤلاء الذين قدموا لي الدعوة. ولكن ليس لدي زمن أضيعه هدرًا ولا رغبة لي في زيارة

أحد بدون دعوة. وأريد أن أرجع إلى نجران إلى ابن سعود». وقال لي صالح: «عند مجيئك هنا هل تمثل وتحدث باسم ابن سعود؟». وأجبت قائلاً: «لكن بدون نفوذ ابن سعود لن أستطيع أن أتقل في هذه البقعة كما فعلت الآن، فاسم ابن سعود جواز سفر آمن لأي شخص في الجزيرة العربية، انظر إلى نجران، كانت قبائلها في الماضي مجرد قطاع طرق لكنها الآن أكثر الناس طاعة في رعية ابن سعود. وقال ابن سعود لأهل نجران إنه لا يرغب في شيء منهم. وهو -أي ابن سعود- مسؤول عن بسط الأمن والطمأنينة والسلام ومنع ارتكاب الجرائم. إذا ترك هؤلاء أساليبهم القديمة، لكن الويل لمن ينتهك الحرمات ويرتكب الخطايا التي تلحق الضرر بالآخرين، ففي هذه الحالة فإن ابن سعود لن يتهاون في تطبيق الشريعة الإسلامية». وقاطعني الرجل قائلاً: «تعلم نحن أناس أحرار ولا نعترف بسيد علينا إلا الله سبحانه وتعالى. وإن أهالي بيهان والعوالق وبعض عشائر الخليفة لهم علاقات مع حكومة عدن، لكن نحن لا تربطنا بها أي صلة. نحن أحرار ولسنا تحت حماية أحد». وقلت له: «لكن أنا أعرف أن حكومة عدن تزعم أنكم تحت الحماية البريطانية ورعايا لسلطان العوالق» فصرخ في وجهي قائلاً: «كذابون!».

ورغبت في أن أغير موضوع الحديث مع صالح، وقلت له: «إن النسبين ينحدرون من قبيلة بني هلال مثل الخليفة وآل الفشر». فرد قائلاً: «هم كذلك ونحن بالتأكيد من بني هلال. لكن يجب أن تعرف أن عشائر جردان والحاضنة أيضاً من بني هلال. ولتعلم أنهم (عشائر الحاضنة) كانوا في الماضي يعملون في خدمتنا كجنود». وسألت عن مصدر المياه، لأن المعسكر فيه عشرات الخيم، فرد عليّ أحد الأفراد: «نحن نمتح المياه من «أسماع» وهي بئر قديمة تقع تحت رابية برقة إلى الشمال من حجر - يحرر. وكانت تسمى في الماضي جوفاً كما أن هناك العديد من الآبار القديمة التي انظمرت تحت الرمال». وقاطع حديثه رجل عجوز طالباً منه عدم إخطار الأجانب بأسماء هذه الأماكن والمعامل. وبعد هذا التعليق لزم الصمت وبقي في الخيمة حتى ذهابي.

وفي أثناء ذلك تعرفت ولأول مرة على عادة مسيحية قديمة ما زالت تنتشر بشكل واسع في جنوب الجزيرة العربية في المنطقة الممتدة من اليمن إلى حضرموت وهي غمس أرجل الضيوف في زيت الجلجلان أو السمس. وتقدم نحوي عبد أو خادم وهو يحمل ريتاً في إناء صغير من الجلد. وقام يدهن رجلي وأرجل كل من صالح الحزق وحمد القردي. وكان يقوم بمسح الأصابع كلاً على حده وذلك بتمرير يده المدهونة بالزيت عليها للأمام والخلف. وفي النهاية يقوم بمسح كل من قصبة (مقدمة) وربطة الساق بالطريقة نفسها. ويقولون: إن هذه العملية تريح تعب المسافرين. ونسبة لقرب غروب الشمس وجدت عذراً للانسحاب من أجل أداء الصلاة والنظر في المنطقة من حولي.

أحضر إليّ رجل مريض بأمل أن أقدم له مساعدة علاجية. وقام الرجل بكشف صدره حيث ظهر انتفاخ بحجم بالون الأطفال مع حلمة عند نهايته. وبدا هذا المرض في شكل انتفاخ بسيط في الصدر حيث كان الرجل في سن العشرين. وتدرجياً بدأ يزداد الانتفاخ إلى حجم الدوم ومن ثم تواصل الانتفاخ إلى أن وصل الصدر إلى ما هو عليه الآن من ضخامة؛ لذا فقد استمر يعاني من هذا الداء ما يزيد عن نصف عمره.

وفي المساء دعينا إلى عشاء يتكوّن من وجبة لحم ضأن وعصيدة وضعت في صحنون دائرية الشكل لهذه المجموعة الكبيرة من الناس - بما في ذلك عشيرة النسين-. ولاحظت أن الصحنون تحتوي على خمسة رؤوس خراف. وبإلقاء نظرة سريعة على الصحنون لوحظ أن مضيفينا بعد أن ذبحوا ثلاثة خراف وهي كافية للعشاء، قاموا بإحضار رأسين من خيمة أخرى ليدللوا على مدى كرمهم. وأثناء العشاء كان الأنس يدور حول الرحالة الأوروبيين الذين زاروا هذه المنطقة. وكان صالح يتذكر وإيمان بري بصورة جيدة ولكن معلوماته عن موضوع مخفر - بالتو قد أصابها بعض الاهتراء بسبب تقادم السنين. ومنظر آثار الهجوم الذي شنه أهل الكرب على الرحالة بري ومرافقيه يمكن مشاهدته بسهولة من داخل الخيمة التي نجلس فيها، ولكنني لم أر هذا

المكان. وتجدر الإشارة إلى أن عشيرة صالح بن حزيق (العويرة) هم الذين شنوا الهجوم على وإيمان بري والمجموعة المرافقة له. ولكن مرافقنا صالحاً لا يعرف تلك التفاصيل لأنه كان طفلاً يافعا آنئذٍ.

وثمة موضوع آخر تم التحدث فيه خلال هذه الجلسة داخل الخيمة وهو حادث الرحالة ماكسويل - دارلنج. وكانت المجموعة التي تسببت في هذا الحادث وأوقفت ماكسويل ورفاقه بغية السلب والنهب - كما ذكر القوم - هم الفقراء أحد عشائر (المشايع) أهل أحجام، التي تسكن منطقة المنقعة. ودخلت هذه العشيرة في صدام مسلح مع جماعة ماكسويل نتج عنه تدمير قريتهم. وبعد ذلك أوقف الاشتباك وتم تعويضهم بحوالي ٥٠٠ ريال و ٢٥ بندقية. وقتل في هذا الصدام الدموي اثنان من عشيرة الفقراء. وما يجدر ذكره أن الراوي للحادث كان لا يعرف شيئاً عن هوية كل من الرجل والمرأة اللذين فقدا في هذا الصدام ولا عن الصدام ولا عن التعويضات التي دفعت. وكان الرحالة ماكسويل قد قدم إلى هذه المنطقة عن طريق أنصاب، يرافقه ثلاثون رجلاً من عشيرة همام بالإضافة إلى ثلاثة جنود تابعين للسلطات البريطانية في عدن. وكانت هذه المجموعة قد خيمت على مسافة من هذا المكان كما فعل الكولونيل ليك في زيارته إلى بيحان قبل عدة سنوات. وكان يرافق الأخير عدد من جنود السلطات البريطانية في عدن بالإضافة إلى ٤٠٠ رجل من عشيرة همام. ولكن يبدو لي أن الرقم الأخير مبالغ فيه كثيراً.

والواضح بالنسبة لنا كان كما يلي: فعلاوة على أفراد عشيرة همام فإن مجموعة من قبيلة النسيين قد رحبت بنا كضيوف أيضاً. ولتنظيم رحلة حول وادي بيحان - كما اقترحوا - فإن من الضروري أخذ موافقة الفرعين الآخرين مع ممثلين لهم لاصطحابنا في هذه الرحلة. وأعلن صالح أنهم سوف يأتون معنا في هذه الرحلة وأن المدعو مبخت - وهو الذي أحضر لنا خطاب الدعوة من قاضي وادي بيحان - ذهب لإخطارنا بوصولهم المتوقع. وواصل صالح كلامه قائلاً: «عليكم بالصبر، فكلهم سوف

يحضرون، وهم يريدون ابن سعود، ومن المؤكد سوف ترى كتابات كفار حجر - ناب في رأس وادي مرخة». وأخطرتني صالح بأن تلك الكتابات تبعد بمسافة نصف يوم بالجمال. ويتوجب علينا أن نتوقف في كل قرية لتناول وجباتنا مما يزيد زمن الوصول إلى يومين وليلة. ويمكنني أن أوفر مثل هذا الوقت شريطة أن لا نتأخر في الرحيل من هنا. وقلت لهم: «حسناً سأقوم بالزيارة صباحاً لو جاء المرافقون في الصباح وخلافاً لذلك فسوف أبدأ رحلتي راجعاً إلى شبة». وقد تركت المشكلة لحلها في صباح الغد.

وهناك موضوع فيه كثير من الأهمية عند عشائر النسيين وهمام وبقية العشائر التي تسكن في هذه المناطق وهو الحج. ففي الظروف الراهنة فإن الحج للحضارمة سواء أكان عن طريق البحر أم البر ولليمنيين سواء أكانوا عصبة أم قوافل حج، يتوجب على هؤلاء الاقوام أن يدفعوا رسوم الحج. وكانت رعية ابن سعود معفاة من هذه الرسوم. وناقشني عبدالله في هذا الموضوع وتعهدت لهم بأنني لن أكو جهداً في إيجاد موافقة تسمح لأفراد عشيرة همام في الحج القادم (فبراير ١٩٣٧م) فور وصولها نجران بالمرور دونما مساءلة عن الجوازات والرسوم وهم في طريقهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج.

أما بالنسبة للمستقبل، فإن بوسع ممثلي هذه القبيلة مقابلة الملك في مكة لعمل الترتيبات الضرورية للحج^(١). وهذا التصرف تمت الموافقة عليه وتأيده من قبل ابن نشمي^(٢) حاكم نجران الذي أبلغته به. وقد علمت أنه لم يحضر أحد من أفراد عشيرة

(١) كانت رسوم الحج من الأمور التي تؤخذ على الحجاج نظير ما يقدم لهم من خدمات ورغم ما كانت تدره من دخل جيد للدولة إلا أن الملك عبدالعزيز أصدر أوامره الكريمة بإلغاء رسوم الحج وذلك اعتباراً من عام ١٣٧١هـ. (المراجعون).

(٢) تولى إبراهيم بن عبدالرحمن النشمي إمارة نجران فترتين: الأولى امتدت من عام ١٣٥٤هـ حتى عام ١٣٥٦هـ، والفترة الثانية من عام ١٣٧٥هـ حتى عام ١٣٨٥هـ. أوراق النشمي، داره الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

همام إلى مكة لحج عام ١٩٣٧م. وفي تقديري أن السبب في ذلك معروف وهو أن السلطات البريطانية في عدن والحكومة البريطانية في لندن أصبحتا أكثر اهتماماً بشؤون حضرموت. وعلى أية حال ففي العام ١٩٣٨م قام وفد صغير من عشيرة همام برئاسة صالح بن خميس بزيارة الأراضي المقدسة. وحدث أن أصيب ابن خميس بحمى خطيرة أثناء أداء مناسك الحج وتوفي ودفن في مكة.

وطلب مني أفراد عشيرة النسيين أن تشملهم المنحة المؤقتة نفسها التي أعطيت إلى عشيرة همام بالسماح لهم بالسفر إلى الأراضي المقدسة دوئماً لإجراءات سفر ورسوم طريق. فقلت لهم: إنني لا أستطيع أن أتعامل مع كل فرع من فروع القبيلة على حده. وإنه إذا شعرت أثناء سفري خلال الوادي -وادي بيحان- أن فروع قبيلتهم قد أظهرت مشاعر ود كتلك التي أبدتها عشيرة همام فسوف تشملهم هذه المكرمة المؤقتة لتسهيل السفر إلى الحج. وهناك متسع من الوقت للمجموعات المختلفة للقبيلة لتشكيل رأياً متحداً. وتجدر الإشارة إلى أن النسيين تتكون من ثلاث مجموعات بالإضافة إلى أقسام أخرى غير متحدة. وهناك مجموعة أهل حسن وتشمل الخميس وزعيمهم شماع بن خميس بالإضافة إلى أهل جردان وأهل المسك. والمجموعة الثانية وهي أهل آل راجي، وتنقسم إلى خمسة أقسام وهي: أهل عسار، أهل عبدالله بن راجي، أهل طالب بن راجي، أهل ناصر بن علي وأهل عقيل. أما المجموعة الثالثة فتضم الشوية وتنفرع إلى قسمين وهما: شلامش تحت زعامة صالح بن هادي وعوير تحت زعامة علي بن غازي. وبالإضافة إلى الأقسام الأربعة الذكر توجد خمسة فروع أخرى لا تصنف ضمن المجموعات الثلاث الرئيسية وهي: أهل آل قحيل، أهل سمي، أهل عليمي، أهل فريش وأهل حسن بن جول. ويبدو أن موضوع تجوالي أو عدمه في الوادي في انتظار قرار عشيرة أهل راجي، التي يعتقد أنها تميل إلى أن تكون في منأى عن أي ارتباطات أو تحالفات مع المجموعات القبلية الأخرى.

وتفادياً لأي انطباع سيء فقد عدلت عن أخذ الملاحظات عن طبيعة الوادي بجهاز الثيودلايت إلى منتصف الليل وفي الصباح. واتضح لي أن وادي مرخة يخرج من بين خُشاش والعجز. ويبدو أن الوادي يضيق في هذه النقطة حيث يتراوح عرضه هنا بين ٢٠٠-٣٠٠ ياردة ومن ثم ينحدر باتجاه المنطقة السهلية. وتتفرع من هذا المكان العديد من الحيطان على هيئة شكل مروحي حول الدلتا. ويعتقد بعض الأهالي أن هذه الأبنية عبارة عن بقايا حصون وقصور قديمة. ما عدا عدا برج مراقبة حديثاً نسبياً يعتلي رابية منخفضة الارتفاع على بعد أميال قليلة باتجاه الجنوب الشرقي من معسكرنا، ليس في مقدوري التعرف على علامة تدل على أنه بناء. وهذه الحيطان جيدة البناء مشيدة من قوالب الحجر المحلي وهو في الغالب حجر رملي أو بارلتي بأحجام متباينة. وهذه الحيطان مهدمة حيث تنتشر الكتل الحجرية بصورة غير منتظمة مختلطة بالرمال. والملاحظ أن هذه الحيطان طويلة وتختلف الأبعاد بين كل حائطين بدرجة كبيرة. ونلاحظ أن هذه الحيطان بعيدة نسبياً عن مخيمنا بحوالي ٣ أميال في حين أنها لا تبعد سوى ميل أو ميل ونصف عن المنطقة الزراعية؛ لذا فإنني على رأي مفاده أن الهدف من بناء هذه الحيطان تقسيم المنطقة المزروعة إلى مساحات معقولة تسمح بمرور المياه في طريقها إلى الخزان. والفائض من المياه يجري إلى الوادي خلف منطقة الصخور الرملية وهي مثل رابية قرن الفقيه تمثل الضفة اليمنى للقناة الطبيعية. أما الضفة الغربية فتكون الجناح الشرقي لجرف عطفان. وفي منتصف القناة توجد برقة وياحر اللتان أدتا دوراً بارزاً في ربط أنظمة الري القديمة. ومن المحتمل أن هناك خزاناً آخر يربط الممر الضيق بين هاتين الرابتين. وفي حين أن ياحر تقع في الضفة اليمنى نجد أن برقة تقع في الضفة اليسرى.

وفي الواقع لم تكن لدي أي خبرة شخصية عن نظام الري المشار إليه أعلاه. ولكن منذ أن رجعت من هذه الرحلة وجدت كتاباً يدعم ما وصلت إليه من ملاحظات، صاحبه مكتشف عربي نشيط يسمى نزيه مؤيد العظم. وسوف أناقش

تفاصيل أعماله في الفصل القادم. ولكن يلاحظ أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن عدد الفواصل المنظمة للري في مأرب يصل إلى ٢٢ فاصلة. ويبدو أن نظام الري في هذه المنطقة لا يمكن اعتباره نظام قنوات أو نظام أحواض إنما هو نوع من السيطرة والتوجيه الأمثل لمياه السيول بغية الاستفادة منها.

وبينما كنت منهمكاً في بحث موضوع أنظمة الري في المنطقة كما تظهر من منظر الحوائط الحجرية وصل وفد من قبيلة النسيين التي تقطن أعلى الوادي الساعة التاسعة والنصف وأطلق أفرادها طلقتين للتحية. وقد أوفدهم زعيمهم صالح بن هادي، وهو الآن لأسباب لا أدري ما كنهها قلق للغاية من عدم زيارتي للمستوطنات المختلفة في الوادي (حجر - واسطة، حجر - الصعدة، ديمة وحجر - ناب). وفي أثناء ذلك طلب مني صالح بن عبدالله أن أمكث حتى منتصف اليوم لتناول وجبة الغداء. وكنت قلقاً من أي تأخير ينجم عن دعوة لوليمة أخرى في ضيافة صالح بن هادي، لكن سمح لي في نهاية الأمر بالمغادرة قائلاً: «مرحباً بك وأنت حر طليق في أن تتقل في بلادنا كما تشاء».

وتأخر مسيرنا لسبب آخر وهو احتياجنا للمياه سواء لإعداد الطعام أو للسيارات. وقررت أن لا أزور عياداً مرة أخرى وأن أمضي ليلة واحدة عند أطراف الصحراء في وادي مرخة أو وادي جردان قبل الرجوع إلى مخيم صالح بن حزيق في أنصاب. ويجب أن تذهب جمالنا لموارد الماء للسقيا استعداداً للرحلة في فجر اليوم المقبل. وفي أثناء ذلك كان رفاقي منشغلين في تجهيزات الرحلة وهم يتحدثون ويتسامرون. وبعد شروق الشمس انفض سامرهم ولم يجتمع شملهم إلا عند الساعة الحادية عشرة ظهراً. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف وصلت قافلتنا إلى وادي بيحان عند ديار قبيلة النسيين تلبية لدعوة صالح بن هادي. وعند الظهيرة استودعنا أفراد هذه العشيرة وكافأنا صالحاً على كرمه واتجهنا ناحية الشرق فالشمال الشرقي عبر منطقة رملية تتناثر فيها أبنية الري القديمة ومن ثم دخلنا سهل همام الواسع. وبعد

مسيرة اثني عشر ميلاً وصلنا نقطة يضعف فيها مجرى الوادي وتصعب رؤيته . رأينا غزالاً عفرياً وتمكنت من صيده بعد مطاردة لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال . وبعد قليل وقرب نهاية وادي مرخة ظهرت لنا مجموعة من ثلاثة غزلان (ادمي) تمكنا من صيد إحداها . وصلنا نهاية الوادي وعلامته رقعة من شجيرات الأكاسيا . ويمكننا من هنا رؤية حجر-يامر على بعد ثلاثين ميلاً . أصبح لدينا الآن خمسة من غزلان الصيد ويمكننا أن نحتفظ بواحدة للعشاء ونأكل أخرى الآن . وسوف نبقي الأخريات كهدايا للناس - بمن فيهم - بالطبع - صديقتي في معسكر صالح .

وتوجهت قافلتنا شمالاً باتجاه طرف الرملة ، وعند اقترابنا منها مررنا بقطيع كبير من الجمال ترعى أعشاباً حديثة النمو عند أطراف الكثبات الرملية . وقد ابتعدنا عن هذا المنظر لاسيما أننا لم نتمكن من التعرف على هوية الرعاة . وفي نهاية المطاف وصلنا إلى حزام رملي يتكون من عدة كثبان يسمى أبو جنب . وتعبر القوافل عادة هذا الحزام الرملي من شبة إلى حريب عن طريق واد يسمى شعيب جميل في مسيرة يوم ونصف . وبعد حوالي الميل وصلنا إلى رملة ، وتعرف هنا باسم رملة الحذب ، بعد أن عبرنا أرضاً مرتفعة نسبياً على مقربة من الكثيب الرملي المسمى أبو جنب . ويلاحظ أن الكثبان الرملية المنخفضة شبه خالية إلا من نزر يسير من الأعشاب يسمى النصي .

وبعد أن توجهنا إلى الجنوب الشرقي قليلاً عبر منطقة خشم غبر السهلية المغطاة بالرمل والخصى الناعم . وكل هذا السهل الممتد من عُقلة إلى عطفان باسم جو الخديف . وتنتشر في السهل قطعان صغيرة تتراوح بين ثمانية إلى عشرة غزلان . ولم نجرو على مطاردتها لاسيما وأن الوقت قد تأخر وأوشك الليل أن يرخي سدوله . وبعد مسيرة خمسة أميال ونحن نقرب من وادي جردان تحولت طبيعة السهل الرملية إلى أرض خشنة نسبياً يغطيها سطح رملي متموج موشى بأعشاب النصي . ويلاحظ أن مجرى الوادي يميزه شريط عريض من شجيرات الأكاسيا الشوكية التي تبرز بشكل لافت للنظر من كثبان الرمل . وقد قطعنا الآن مسيرة ٧٥ ميلاً منذ أن غادرنا مخيم

النسبين وكنا سعداء في أن نقف للمبيت. وإنه لشيء رائع أن نتم بالسلام بعد أن انقشعت أيام المعاناة القاسية في كل من عياذ وحجر يحزر. ومنذ فترة الاعتدال الربيعي بدأت أجواء الخريف تزحف علينا فأصبح الليل بارداً كما أن الرؤية في الصباح الباكر كانت جيدة بصورة مذهلة. وبلغت درجة الحرارة في الساعة الحادية عشرة صباحاً ٦٦ وهبطت في المساء إلى ٥٧م. ورغم ذلك كان المكان مقفراً موحشاً إلى درجة أنه لم تمر أي حشرة باتجاه الضوء الذي كنت قد أشعلته خلال الليل. وأسراب الطيور الوحيدة التي عبرت فوق رؤوسنا هي القنبرة والصدرد (الدعناش). والنوع الأخير قادم من منطقة عفار. والقرار الذي أصدرته بخصوص حظر أكل اللحوم استمر سارياً ولذلك تناولنا فقط العصيدة في العشاء. وبسبب تقلص المؤن الغذائية التي بحورتنا منذ أن كنا في عياذ، فقد نفقت أحد الرجال بعض المال بغية الذهاب إلى بلدة الجابية في منطقة الحاضنة ليحضر لنا إمدادات غذائية. وطلبت من ابن مدعار أن يشتري له بعض الملابس النسائية ليأخذها معه كهدية لأسرته.

وعلى بعد ميلين من روابي القرنين اختفى تماماً أي أثر للوادي الذي كان مستمراً إلى الأطراف الرملية لمنطقة الرملة. ولم نبتعد كثيراً عن هذا المكان حينما لمحنا قطعاً صغيراً من غزال العفري يغري بالمطاردة. وانطلقت ومعني فراج خلف هذا القطيع. وأطلق الأخير أعيرة نارية تجاهه ولكن دون جدوى. وتمكن أخيراً من إصابة أحد أذني الغزال الذي انطلق مضاعفاً سرعته للهرب. وعندما شعر بالإرهاق اختفى داخل مجرى منخفض خشن التضاريس كيما يستجمع أنفاسه وكانت تفصلنا منه بعض الشجيرات. وأفرغ فراج عشر طلقات دون أن يصيب الغزال في مقتل. وتمكنت في الطلقة السابعة أن أضع نهاية لهذه المطاردة المثيرة التي أبعدتنا حوالي عشرة أميال من مخيمنا.

وتوقفنا عند أول رابية يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً وتغطي مساحة عدد من الأقدنة، وتشكل من الصخور الرملية المتوحلة وتتخللها الأكاسيا والشجيرات الشوكية

الأخرى. وأمدتني قمة الجبل بمنظر رائع للمنطقة المجاورة والممتدة من مرتفع عطفان في جهة الجنوب الغربي إلى خشم الرميد في جهة الشمال الشرقي. ومن هذا الموقع تختفي شبة تماماً من المنظر العام بسبب تداخل أجزاء اللسان الصخري والممتد نحو البحر لجبل قليب الكبير. ونلاحظ أن روايي القرنين تبدو وكأنها جزر صغيرة في محيط من الرمال. ويبدو أنها كانت تمثل منطقة جذب مدهشة للطيور المهاجرة التي من أبرزها طائر الوقواق وطائر الدج المغرد وطائر الأبلق (أبو بلق) واثنان من الطيور المعروفة باسم «أبيض الحنجرة».

وانطلقنا عبر السهل باتجاه الجرف الصخري بغية الوصول إلى الجزء الأعلى من وادي أنصاب قبل أن نصل إلى مخيم صالح. وحالما وصلنا إلى الأراضي الصلبة عند طرف منخفض فاليق استرعى انتباهنا أن اثنتين من النسوة كانتا ترعيان قطيعاً من الضأن في بقايا أعشاب وشجيرات حاولتا الهرب فور رؤيتنا. وذهب صالح لطمأنتهن وليعرف أخبار المخيم خلال فترة غيابه. وتابعنا المسير حيث اجتزنا منطقة يغطيها الخصى الخشن الذي يزداد خشونة كلما تقدمنا إلى الإمام إلى أن وصلنا إلى طرف مسجري وادي أنصاب الذي يوجد به العديد من الثقوب التي يتخذها طائر جنح أعشاشاً له. وتجدد الإشارة هنا إلى أن طريق القوافل من حزمموت إلى إقليم العوالق، ويشبم، وأنصاب يمر بهذا الوادي الذي تغطيه أشجار المشط الكبيرة والعلب إضافة إلى أعداد وفيرة من أشجار الأكاسيا الشوكية. وعلى جانبي هذا الوادي توجد الصخور المكسرة الخشنة الملمس تعلو صخوراً رملية حمراء تبرز هنا وهناك أحياناً على هيئة منكشفات صخرية.

وعند طرف الوادي وتحت شجرة ظليلة كبيرة الحجم، كان هناك طفل يصرخ بصورة مفعمة بالحياة في حين أن النساء كن منشغلات بسقيا أغنامهن. لذلك فقد أخذت معي بندقيتي وكانت وجهتي تجاه الوادي إلى منطقة العريجا التي تبعد نحو ميل بغية تزجية الوقت في اصطيد الطيور التي تتجمع هناك. وعلى النقيض من وادي

القرنين، فإن الطيور هنا كلها محلية^(١) وليست مهاجرة. وأهم أنواعها طائر الشمس وأكل النحل والبلبل وطائر البداية السوداء وقليل من طيور الغداف والهدهد. وعند رجوعي إلى أسفل الوادي حيث كان رفاقي يقومون بملء الأوعية الجلدية (القرب) والبراميل بالماء استعداداً لرحلة طويلة عبر الصحراء. وفدت إليّ ثلة من النساء جميلات وصغيرات السن وهن يحملن زبدية كبيرة مملوءة بالحليب، فأعطيتهن هبة سخية نظير هذا الصنيع. وقد أخطرني بوجود مورد ماء آخر مشاش، على مسافة نصف ميل في اتجاه مجرى وادي جنح. والوادي في هذا القطاع بين العريجا وأجفر الرخم يغطي مجرى مياه تحت الأرض ويمكن الحصول على مياهه من حفر غير عميقة.

وفي صبيحة اليوم التالي واصلنا الرحلة مبتعدين عن الأراضي غير المستوية والخصوية وذلك بالالتفاف حول منخفض جربة الكافر ولم يمض زمن طويل بعد الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وجدنا أنفسنا أمام مخيم صالح. وانطلق محمد برفقة سالم بن عايض من عشيرة العويرة إلى شبة لإحاطة «الجيش» علماً بملتقانا مساء اليوم التالي في عارين، حيث تواعدنا أن نمضي الليلة الأولى من مراحل عبورنا للصحراء. وسرعان ما رجعت السيارة وأخطرنا بالموافقة على هذا الملتقى. وتأخر ابن مدعار ومجموعته عن قافلة الجمال في مرخة بعد مغادرتنا لها وواصل مسيره متأخراً بعد الظهيرة مما جعله يصل إلى منطقة أجفر الرخم في ظهر اليوم التالي وانضم إلى بقية المجموعة عند مغيب الشمس. وأمضينا الليلة في ضيافة صالح ولم نذبح أي غزال واعتمدنا على الوجبات العادية رغم التذمر الذي أبدته المجموعة المرافقة.

(١) رأيت في زيارتي السابقة قبل أيام فقط عدداً من أنواع الطيور المهاجرة ولكنها على ما يبدو طردت من هذا المكان. (المؤلف).

الفصل الثاني عشر

أرض سبأ

وبعد أن قلت وداعاً لم يكن هناك ما يبرر أي تلكؤ في الرحيل. وجاءني محمد ابن قطيان في ذلك اليوم استناداً إلى إشاعة مفادها أنني عدلت عن قراري بالسفر. وكان يبتغي -في محاولة أخيرة له- أن يحصل على هبة إضافية. أما صالح فقد طلبت منه ألا يفشي موضوع زيارتنا لنقوش عقلة. ولكن صالحاً كالعادة نشر هذا الخبر على نطاق واسع. وقال لي بلغة غير ودية مشوبة باعتذار ظاهر: «ها قد رأيت صخوري المنقوشة، ألم تكن كما أخبرتك؟» فأجبت: «بالتأكيد هي كذلك» ثم قلت له: «إنني الآن قد رأيت النقوش فلن أعطيك شيئاً». فاستشاط غضباً وذهب خالي الوفاض وهو يندب حظه. فاستدعيته وقلت له: «انتبه! المعرفة لاثمن لها. وأنت تود بيعها لكن الله رودني بها دون مقابل. الآن خذ هذه التسعة ريالاً ولن أدفع لك شيئاً بخصوص النقوش». فأخذ الفلوس وذهب أدراجه في حيرة ظاهرة لكنه سعيد.

وفي الصباح الباكر خرجت محسنة وهي ملتفة بعباءتها الصوفية تهش أغنامها إلى المرعى. وهناك صالح الذي كان مشغولاً منذ الفجر وهو يجهز الاحتياجات الضرورية لأسرته قبل أن يفارقها في رحلة طويلة، ويبدو أنه لم يكمل تجهيزاته للسفر معنا حيثئذ. وإذا ما انتظرناه ليكمل كل تجهيزات العائلة، فإننا لن نتمكن من بدء الرحلة؛ لذلك فقد تركت السيارة (البيك أب) في المخيم لتحضره إلينا في وقت لاحق. وغادرت المكان بصحبة سالم بن حمد من عشيرة آل مسفر الذي جاء ليقول وداعاً وحمد القردعي الذي سيسافر معنا إلى نجران. وبعد برهة وصل صالح الذي أوضح أنه استطاع بصعوبة بالغة أن يشق طريقه إلينا وأن يخلص نفسه من أهله الذين كادوا أن يمنعوه بالقوة من الرحيل. وكان لأمه العجوز قصب السبق في معارضة سفره حيث كانت تتعلق وتبكي بحرقه ومرارة. وكان صالح يلهث من العراك ولكنه كان سعيداً بانتصاره والتحاقه بالمجموعة.

وتحرك ركبنا حيث مررنا بسهل فسيح لا تعترضه أية عوائق وتتخلله بعض الأشجار الصغيرة باتجاه وادي خروء حيث يقبع أنمار، الصخر الهائل وكأنه الحارس للضفة اليمنى لهذا الوادي الذي يبتعد قليلاً إلى الأمام من مرتفع غالب. ويجري الوادي باتجاه الشمال ثم يغير اتجاهه تدريجياً نحو عقلة عابراً أرضاً حجرية صلبة تتخللها هنا وهناك بعض الشجيرات وأنواع متباينة من النباتات الأخرى. وخلف الضفة الغربية الأخرى للوادي سلكننا سهلاً رملياً يحده من الجهة الغربية العديد من الكثبان الرملية. وتلوح على البعد باتجاه اليمين عفار حيث تظهر بعض أهم معالمها (شبة). وأثناء توقفنا هنيهة لنستمع بالمناظر الطبيعية انفجر أحد إطارات السيارة محدثاً صوتاً مزعجاً. أما سالم الذي كان من المفترض أن يودعنا ويذهب إلى القرية، جلس القرفصاء في الرمال ليناقد بعض المواضيع السياسية ذات الطابع المحلي مع صالح وحمد. وكنت حينها أتجول في السهل وألتقط كسراً فخارية وبعض العاديات القديمة التي تعود إلى حضارة عتيقة والتي ربما وصلت في أوجها إلى عقلة وربما أبعد من ذلك. ومن على البعد كنا نشاهد قافلة الجمال التي كانت تتهاذى بخطى متثاقلة وتتعرج مسيرتها خلال روابي شبة وكأنها قطار بطيء في طريقه نحونا.

وبعد أن أصلح محمد إطار السيارة واصلنا المسيرة دون أن يرافقنا حمد الذي قرر أن يصطحبنا إلى مكة لكن بعض الشواغل حالت دون تحقيق هذا الهدف. وقد أسفت لعدم تمكنه من السفر معنا. وتابعنا المسيرة باتجاه الشرق متبعين الألسنة المشنبة لـ «الرملة» إلى أن وصلنا دلتا المعشار، أو البقعة المسماة قوصة، بالقرب من النقطة التي نزلنا فيها بغية الراحة في بداية الرحلة، وبعد أن قطعنا بضعة أميال أصبحنا في الطريق القديم الذي يمر عبر عمر الشقيقات، بين منطقة الرمال الرئيسة إلى اليمين وامتداداتها الجنوبية باتجاه عقلة. وبعد فترة قصيرة من تغييرنا لاتجاه سيرنا القديم حدث أن انفجر إطار آخر للسيارة فتأخرنا لبعض الوقت لإصلاحه قبل أن نتوجه إلى العرين التي تقع على مقربة منا باتجاه الشمال الغربي. وترتفع كشبان الرمال إلى قمم

تشبه حد السكين وهي بركان وزاهر وعقلة. وكنا نرى أحياناً بطن الوادي القديم يتكشف في وسط الرمال. وفي مثل هذه البقع كنا نجد المحار القديمة وشظايا حجر الصوان كما رأينا من قبل.

وبعد أن سرنا حوالي عشرين ميلاً من قوصة وصلنا إلى عارين وهي عبارة عن هضبة مرتفعة من الحجر الرملي والصخور المتحولة ترتفع بحوالي ١٥٠-٢٠٠ قدم من المستوى العام للرمال. ومن المؤكد أنها تمثل بقايا مرتفع قديم والذي يبدو أن امتداداته على الجانبين تتصل بمرتفعات أريام وطرباق. ومن هذه البقعة الأخيرة تمتد هذه السلسلة الجبلية في الأزمنة القديمة إلى مجموعة جبال مصيعة التي تشرف على آبار العبر، والنقطة التي اتخذناها مكاناً لمخيمنا عبارة عن خليج رملي عميق يخترق الهضبة المدفونة أجنحتها جزئياً في الرمال والتي تظهر أطرافها الحادة المهذمة حيث يوجد العديد من الكتابات الثمودية للبدو الذين يسجلون ما يدور بخواطهم أثناء عبورهم هذه المنطقة. وقمت بنسخ الكتابات قبل أن أصعد الهضبة مع فراج بحثاً عن الطيور. في الوقت الذي ذهب فيه صالح لاحقاً عند قمة الجبل التي من خلالها استطعنا أن نحصل على منظر عظيم لمحيطات من الرمال تبدو فيها أجزاء الصخرة التي نعتليها عبارة عن جزر صغيرة. ويلاحظ أن محاور الكثبان الرملية حولنا منتظمة الشكل إلى حد بعيد باتجاه غرب شمال، غرب شرق، جنوب شرق. وارتفاعات هذه الكثبان ضئيلة مقارنة بالارتفاع الهائل للبقعة التي نقف عليها لمشاهدة المنظر العام للمنطقة. وتقع عفار باتجاه الشمال الغربي حيث نرى من البعد هضبة الشية حيث قررنا أن نمضي الليلة هناك. وتقع خلفنا غالب وعقلة والنسر كما يمكننا رؤية مرتفعات الرميد البعيدة. وبمقدورنا أيضاً مشاهدة منظر أريام وطرباق. وهناك على سطوح الكتل الصخرية يوجد العديد من النقوش القديمة التي أصابها بعض الاهتراء بفعل الرياح والأمطار. وعلى مسافة ليست بعيدة يوجد منخفض ضحل مسور بكتل

حجرية . وهذا المنخفض جاف حالياً لكنه في فصول الأمطار يستخدم كخزان للمياه التي تُسقى منها الجمال العابرة لهذه الفيافي .

حضر صالح وبمعيته اثنان من الرعاة يحملون كمية كبيرة من الحليب لتعويض النقص الذي نعانيه في إمدادات المياه . وفي الصباح الباكر أحضر لنا الرعاة كميات إضافية من الحليب حيث نفحتهم بعض المال . والرعاة في هذه البقعة من أهل شبة يعدون أتباعاً لبني سليم بن عفيشة حيث يقيمون مؤقتاً في أراضيهم . واثنان من هؤلاء القوم وصلاً حديثاً في قافلة تتكون من سبعة جمال قادمين من منطقة الجوف وهم يحملون غلالاً وفي طريقهم إلى شبة . وأخطرونا بأن أهل الجوف يأملون في أن يزورهم ممثلو ابن سعود لاسيما وأنهم غير راضين بسياسة حكم "السيد" المفروض عليهم من قبل "الإمام" .

مكثنا في قمة الهضبة إلى ما بعد مغيب الشمس . وتشكل المنكشفات الصخرية والشجيرات التي تتخللها مأوى لأعداد هائلة من الطيور وكلها مهاجرة ما عدا طائر القنبرة الصحراوي . وطائر الحلق الأبيض الذي يعد زائراً معروفاً في هذه البقعة إضافة إلى طيور الدج (السمنة) والأبلق (أبو بليق) والصرد (الدعناش) ذي الذيل الأحمر . وثمة نسر يبدو منشغلاً في مطاردة طيور الخطاف . ويلاحظ أن هناك آثار صخور جيرية عند قمة الهضبة . ولكن عملياً فإن كل صخور الإيوسين القديمة قد تآكلت بمرور الزمن وتحولت كما يبدو إلى ما نرى الآن من رمال ذات لون مائل للبياض يغطي كل هذه المنطقة . وتأخر وصول ركب المجموعة التي أوفدناها إلى شبة لإحضار بعض التموينات إلى منتصف الليل مما استدعى أن نؤخر مسيرنا إلى صبيحة اليوم التالي . ووصل الركب الساعة الثامنة صبيحة اليوم التالي حيث واصلنا المسيرة مرة أخرى . وكان منظر جمال القافلة بديعاً وهي تتهاذى نحونا بأذنان حمراء متدلّية من سروجها في رشاقة واضحة .

ثمة إشارة هنا وهي إننا اكتسبنا خبرة وإن كانت ضئيلة في السير عبر الطرق الرملية التي تتناثر فيها الكثبان. وخلف منطقة عارين فإن كل المنظر عبارة عن محيط من الرمال سواء على هيئة سطوح ملساء أو متموجة أو على شكل تجمعات رملية مختلطة أو آكام ترابية. وهنا تظهر مقاطع لقيعان أنهار قديمة. وقد أشار إليّ صالح - بتأكيد محير - صوب مضيق منخفض يقسم العائق الرملي في عرق الأبر والذي يمتد لمسافات كبيرة بجهتي الشرق والغرب.

وعند ذلك المضيق، توقفت لأخذ قراءات لاتجاهات بعض المعالم من قمة أحد الكثبان. ورغم أنني كنت حريصاً على التوقف في أسفل المنحدر إلا أنني نسيت لجم كابح السيارة فتهادت إلى أسفل. وكادت أن تحدث كارثة لولا أن رأى محمد المنظر فركض تجاه السيارة وقفز إلى القدمية (عتبة السيارة) في الوقت المناسب وأوقف السيارة قبل أن تحدث كارثة.

تتكون كثبان البثر الرملية من العديد من الروابي وتشكل فيما بينها عائقاً ممتداً عدا هذه النقطة حيث يوجد مخرج عرضه حوالي الميل. ولهذه الكثبان محاور متسقة تمتد بصورة خفيفة تجاه الشمال الغربي، والجنوب الشرقي. ويبلغ سمك العائق الذي يعترض طريقنا حوالي الميلىن. وخلف هذا المنظر بقعة مستوية تغطيها بعض نباتات الحاذ والركاضة الصحراوية وهي تظهر في طور السبات.

ويلاحظ أن أسفل الروابي تتناثر الحصباء وكسر حجر الصوان والأوبسيديان (الزجاج البركاني) وبقايات الصناعات القديمة التي تجرفها إلى أسفل مياه السيول. ونزلت عند أسفل هذه المنحدرات أتجول بحثاً عن الصوان بين الحصى. وفي أثناء ذلك كان محمد قد أوقف السيارة (البيك أب) محدثاً صوتاً لا تسيغه الأذن. وحلت بنا كارثة حيث انكسر المحور الخلفي للسيارة مرة أخرى. وتدرجياً أخطرت بتفاصيل الخراب الذي لحق بالسيارة. وبصعوبة بالغة تمكن محمد أن يحرك السيارة إلى أسفل المنحدر ومن ثم إلى الأرض المستوية. وكانت السيارة تتحرك ببطء وكأنها طائر مكسور

الجناح. وأشحت بوجهي عن هذا المنظر المؤلم وطلبت أن تفرغ السيارة من شحنتها. وقام المرافقون بعمل وسم ابن سعود وجمعوا حجارة على هيئة نصب (ركام) على شرفها. ومن المؤكد أن السيارة والنصب الركامي سوف يتقاسمان ذات يوم قبراً من الرمال طالما أن ذرات الرمل الصحراوي تلتف حولهما على مر الأيام مكونة في نهاية الأمر كثيباً. وفي أثناء ذلك كان الحدادون في الصحراء يرغبون في أن تكون العربة ركاماً من المعدن. وفي حج عام ١٩٣٨م قمت بنقل ملكيتي للسيارة إلى صالح بن حزيق. وقد كانت شيئاً مريحاً له.

وبينما لا نزال في حالة إحباط وكآبة شديتين جراء كارثة السيارة، تحركت قافلتنا عبر أرض رملية موحشة مسافة ستة أو سبعة أميال حيث وصلنا إلى أسفل واد واسع تكسوه قطع الحصى الصغيرة والحجارة البازلتية ذات اللون البني المحمر والتي ترتفع إلى ما يزيد على ٥٠ قدماً فوق مستوى سطح الأرض وتعرف محلياً باسم «أفاليل». وتكسو هذه الصخور رمال كثيفة تغطي طريقنا فيما يشبه العائق؛ لذا فقد توقفت برهة لاستطلاع الوضع من قمة أحد الروابي القريبة. واتضح لي أن السهل مغطى بكميات وافرة من محار المياه العذبة وشظايا الصوان والأويسيدان وكسر بيض النعام. ويبدو أن بمقدورنا اكتشاف آثار المزارع القديمة حيث تحدها السدود المنخفضة الارتفاع. ولا يستبعد أن تكون هذه البقاع على جانبي منطقة الثنية الصخرية تشكل منظرًا لمنطقة زراعية قديمة. وعند أقصى المنطقة الصخرية استرعى انتباهي منظر غريب لجلاميد ضخمة من البازلت توحى بوجود معبدٍ للشمس قديماً. وتشكل الصخور دائرة يتوسطها صحن محاط بالجلاميد يؤدي إلى مذبح حجرى عند الطرف الغربي. فهذا المنظر، فضلاً عن اتجاه الصحن والمحيط الدائري يوحيان بأنه من صنع الإنسان. ولكن في ذات الوقت لا نستطيع استبعاد احتمال كونها فلتة وأعجوبة من الأعاجيب. وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد أي علامات أو كتابات، والموجودات التي عثر عليها عبارة عن رقائق من الصوان

يبدو أنها ناتجة عن قطع حجارة بواسطة الإنسان في رابية الثنية. وإذا لم يكن للإنسان يد في صنع هذا الشكل المعماري «المعبد» فالأرجح أنه استخدم لغرض طقوس دينية. بأت جهودنا من أجل إيجاد مخرج من هذا العائق الطبيعي بالفشل. وكان صالح على رأي مفاده أن بإمكاننا اجتياز منطقة الرمال عند أقصى الجانب الجنوبي من منكشف «أفاليل» الصخري. ولكن بعد مسيرة ميلين بالسيارة في ذلك الاتجاه واجهنا عائقاً آخر وهو مضيق «شقت الجهيلي» الذي تتوسطه كتبان رملية مرتفعة. وبصعوبة تمكنا أن نتجه ناحية اليمين في ذلك الممر الضيق ورجعنا إلى نقطة البداية عند السهل الحصوي. ونجحنا عند الجهة الشمالية في إيجاد عمر ينتهي بنا إلى حجار «أفاليل» التي تشبه معبد. ووجدت ملتقطات سطحية عبارة عن حواف قرون حيوانات كما رمقنا ثلاثة غزلان من نوع الإدومي وهي ترعى في المنطقة المجاورة. وقد ثبت لنا أنها نوع فريد من الإدومي وهناك شك ضئيل أن تكون هذه الأنواع غزلان عربية توجد في صحراء سبأ.

وبعد مسيرة ستة أميال خلف حجارة الأفاليل، التفقنا حول مجموعة من الروابي سوداء منخفضة الارتفاع تسمى شحم البقر، والتي تبرز من الخط العام لسلسلة مرتفعات الثنية. وبين هذين الخطين من السلاسل الجبلية يبرز العديد من شجيرات الهد الصخرافية والتي يقبع خلفها حاجز رملي يشكل آخر عقبة قبل بلوغنا مقصدنا. وصلت الآن قافلتنا المحملة بالعفش والتي بدأت المسير من عارين الساعة السابعة صباحاً عابرة ثلاثين ميلاً في خلال عشر ساعات. وقبيل الساعة الخامسة مساء تحركنا عبر مضيق الثنية أو حيرة الثنية كما يسمونها، حيث خيمنا هناك وسط بقعة تكسوها أشجار السرح الكبيرة وشجيرات الأكاسيا الشوكية. وبعد أن أفرغنا شحنة السيارة طلبت من محمد وصالح أن يرجعا إلى مكان سيارتنا (اليك أب) المهجورة والذي يبعد بحوالي ٢٠ ميلاً من معسكرنا. ورافقهم كل من معيض ومسفر. وقفل الوفد راجعاً الساعة التاسعة ومعه بعض أجزاء من السيارة تشمل معشق التروس

والعجلات الخمسة بإطاراتها. ولم يكن في مقدورنا حمل هذه الشحنة معنا فاضطررنا أن نتركها مخبأة بين الجلايد على أن نستعيدها في وقت لاحق. ولم أر هذه الأجزاء من السيارة مرة أخرى. ولكنها وصلت لاحقاً إلى نجران عندما غادرت المكان في طريقي إلى مكة. وحدث أن عثرت مجموعة من بدو عبيدة من إقليم مأرب على أجزاء السيارة المخبأة بين الجلايد وأحضرتها إلى نجران حيث سلمتها لحاكمها. وترامى إلى مسامعي أن السيارة (البيك أب) قد تم تفكيكها ونقلت إلى مأرب بواسطة جمال. وثبت لاحقاً أن هذا الخبر عار من الصحة. وبرجعنا إلى نجران أوفدت إلى إبراهيم النشمي ناصر بن شماخ للتفاوض معه بغية استرجاع العجلات. ونجحت البعثة في مهمتها بعد مراسلات مطولة بين مأرب وصنعاء.

بعد العرب ثغرة الثنية - والتي يبلغ كل من طولها وعرضها حوالي ميل - مجرى وادي سبأ العظيم وادي عبيدة أو وادي أبراد، كما كانوا يسمونه. ويجدر التنويه إلى أن وفرة محار المياه العذبة وغيره من الرخويات يؤيد دون شك النقطة السابقة. لكن ثمة ملاحظة تدعو للدهشة وهي أن الأودية القديمة كانت تحفر مجاريها خلال الحاجز الجبلي (ثغرة الثنية) بدلاً من الالتفاف حول طرفه الجنوبي الذي يسعد بضعة أميال والمحمي بكميات وافرة من الرمال. ونشير هنا إلى أن مرتفعات الثنية تمتد شمالاً وجنوباً فوق الرمال بارتفاع يصل إلى ٣٠٠ قدم عن مستوى سطح السهل الرملي. وقاعدة هذه المرتفعات ذات لون داكن وتشكل من حجر الشيست الأردوازي. وتعتلي هذه القاعدة طبقات من صخر البازلت على هيئة أقواس تعمل على تثبيت وتدعيم بعض كتل الصخور فوقها والتي تبدو وكأنها رخام يتراوح لونه بين الأبيض الناصع إلى الأرجواني والأحمر والذي ينكسر ضوءه عند الدرجة ٤٠. والملاحظ أن سلسلة مرتفعات الثنية تنحني بشكل دائري مكونة قوساً منخفضاً باتجاه الغرب يضم في طياته الشمالية خلجاناً كبيرة من الرمال تصل في بعض الأحيان منحدراته السفلى. والجزء الشمالي لهذه السلسلة الجبلية يمتد باتجاه الشمال الغربي حيث يتفرع إلى عدة جبال

وروابٍ منعزلة يمكن رؤيتها من على البعد. وباتجاه الغرب وعبر سهل رملي واسع تقع سلسلة جبال الرويك المشابهة للثنية. وهناك قمم مرتفعات الريان والتي كنا قد خيمنا فيها في رحلتنا السابقة وهي تقع خلف الجناح الشمالي لمرتفعات الرويك باتجاه الشمال الغربي. نحن الآن في غرة شهر أكتوبر وأشعر أنني قد استفدت من عطلتي في كشف أسرار أراض شاسعة تفصل الطرف الجنوبي من الربع الخالي من الجبال العالية المشرفة على المحيط الهندي. ودون ريب استطعت الآن أن أجد العلاقة بين وادي حضرموت ومنابعه في جبال اليمن. وحالي يشبه حال ابن الملك في شعر فریمان حيث استطعت أن «أسكب أحلامي وناظري فوق السهل»، وأتخيل الجداول التي ضفرت في الماضي لبناء حضارة لم يستطع الإنسان إلا بشق الأنفس أن يجري عليها بعض التحسينات بعد مرور ثلاثة آلاف عام من المجاهدة غير المجدية. وأكبر تلك الجداول هي سبأ العظيم والذي ينحدر من صرواح إلى مأرب. وروافد هذا الوادي هي الجوف ورغوان من جهة الشمال والجوبة وحريب وبيحان من جهة الجنوب. وفي الأيام الخوالي كانت تلك الروافد تجري مغذية هذا الوادي بغية تأمين حياة الإنسان ولتدعم مملكة عظيمة كان صيت تجارتها موضع حسد العالم وسبباً للكثير من الحروب. واليوم تنتشر رمال الصحراء عطاءها فوق تلك الأرض التي كانت ذات مرة بقعة جميلة فتدفن أسرار عظمتها التي نسعى لإدراك كنهها.

وأثناء جلوسي برفقة صالح على قمة الهضبة الرخامية، كنت أجول بناظري لمشاهدة المنظر الشامل الممتد من عقبة طرباق - عارين - أريام في الشرق إلى مرتفعات العلم في الغرب والتي ستكون مقصدنا في ذلك المساء. وإلى الجنوب تقع بحار من الرمال تغطي مجرى وادي بيحان وروافده. وباتجاه الجنوب الغربي فإن تلال صافر الصخرية والتي تأكلت بفعل التعرية تظهر خلفها منجم الملح الذي كان يشكل دخلاً متواضعاً لعشيرة عبيدة شبه الرعوية التي تستوطن مأرب. وبين هذه النقطة التي نقف عندها ومرتفعات الرويك، فإن رمال الوادي تتلاشى ليحل محلها سهل

حصوي . وأصبحنا نسير في أرض قاحلة موحشة خالية من الماء تماماً . وتحركت قافلة الجمال التي تحمل أمتعتنا مبكراً مع تعليمات مني بأن يكون الملتقى في وادي مهياش في وسط جبل العلم في ليلة ذات اليوم . ومع هذه القافلة ذهبت كل البراميل التي كانت تحمل إمداداتنا المائية . أما قافلة الجمال النجدية فإنها تأخرت لتتحرك على مسافة ليست بعيدة منا لاسيما بعد أن فقدنا سيارتنا (البيك أب) وأصبح بحوزتنا سيارة وحيدة ؛ لذا فقد أصدرت تعليماتي بأن تسلك هذه القافلة طريق السيارة نفسه عند أطراف الرمال بقدر الإمكان تحسباً لأي طارئ .

كانت الساعة التاسعة صباحاً عندما تحركت بالسيارة وبرفقتي كل من صالح ومحمد وابن هضبان . أما بقية أفراد المجموعة وعفش السيارة (البيك أب) التي تعطلت فقد تم تحويلهم إلى مسيرة قافلة الجمال . وخلف مضيق الثنية اجتزنا أرضاً صلبة وصخرية تعلو المنحدرات الخارجية المنبسطة للثنية والتي يمتد وراءها سهل تغطيه طبقة خفيفة من الحصى . وفي الجهة اليسرى من مسيرنا كانت قافلة الجمال تخب بثاقل فوق الأرض الرملية حيث كان أفرادها يلوحون لنا عندما زدنا سرعة سيارتنا لأكثر من عشرة أضعاف سرعة القافلة . وواصلنا سيرنا بسرعة خمسين ميلاً في الساعة من أجل أن نصيد بعض بقر الوحش والغزلان والتي نحتاجها لطعام العشاء . وبعد مسيرة خمسة أميال من طرف وادي مرخة تعطلت السيارة بصورة مفاجئة حيث تدحرجت في حفرة قطرها يتراوح بين أربعين وخمسين ياردة مكوّنة غباراً شديداً النعومة ذا لون رمادي ويعتقد ابن هضبان أن هذه الحفرة لبعض البدو حيث يطلقون عليها اسم «نار صرصر» وهي «جهنم متقدمة» .

ويعتقد هؤلاء أن مصدرها باطن الأرض وتوجد هذه الحفرة فقط في وادي الجوف وتعرف عندنا باسم «دبل فرعون» أو مجرى فرعون . ودار بخليدي في ذلك الحين أن هذه الحفرة ما هي إلا فوهات براكين لم تفلح في اختراق القشرة الأرضية بعد . وهذه الحفرة ربما تكون مصدراً للخيال الشعبي في القرون الوسطى حيث يتداول

قصص «البحر الصافي» عندما تبتلع الرمال المتحركة أي شيء يجرو على المرور فوقها. ولم نتمكن نحن الأربعة من إخراج السيارة من هذا المنخفض. وبعد أن دعمنا قوتنا بأعداد إضافية من الرجال تمكنا أن نخلص أنفسنا من هذا المأزق بعد جهد كبير. وقمت بأخذ عينات من هذا الغبار الرمادي للفحص المخبري لاحقاً. وفي تقديري أن هذا الغبار ربما يكون بقايا غبار مثل ذلك الذي وجدته في قباب الملح في شبة والمناطق المجاورة لها. والاختبارات التي أجريت بواسطة خبراء المتحف البريطاني عن علاقة هذا الغبار بالفحم الحجري لم تصل إلى نتيجة موثوق بها وما تزال الاختبارات جارية. واتضح أن بالغبار بعض المواد العضوية والرمال العالقة من ذلك النوع الذي يتوقع جرفه بواسطة الأمطار من مرتفعات الرويك والثنية. والمادة العضوية ربما تمثل نباتات بحيرة قديمة أو مستنقع تحللت بفعل الزمن. وربما كانت هذه الحفرة ومثيلاتها بحيرات جافة تكونت في الأزمنة القديمة بفعل السيول التي تتخذ لها مجاري في وادي شيبان. ويبدو أن هذا الوادي كان مأهولاً بالسكان في تلك الأزمنة الغابرة.

وواصلنا السير مبتعدين عن الأرض الحصوية الداكنة والتي تبدو على السطح وكأنها متماسكة بشكل كاف لمرور السيارات لكنها في حقيقة الأمر تخفي تحتها تربة ليّنة؛ لذا فقد فضلت السير في البقعة الرملية التي توجد فيها طبقة تحت السطح أكثر صلابة لمرور السيارات. ولكن هذه التربة الرملية سرعان ما تتلاشى لتحل محلها تربة أكثر صلابة تكسوها الحصويات وتمتد إلى مرتفعات الرويك. والغطاء النباتي في أغلب الأحوال جاف وفقير لكن يلاحظ وجود بعض البقع التي تتخللها شجيرات حديثة النمو ونبات اللبان الأخضر. ويبدو أن هذه النباتات نتاج أمطار حديثة. وتبدو في الأرض آثار وعول. وبعد فترة وجيزة من المسير ظهر وعل ذكر يسير وحيداً باتجاه الشمال في أرض جيرية.

ونسير الآن باتجاه الغرب حيث كانت مرتفعات الرويك موازية لنا في الجهة اليمنى. ويلاحظ أن المنظر العام للأرض بعد مسيرة ١٥ ميلاً يظهر شجيرات شوكية

وقطعان من الأيائل تعدو فرادى أو على شكل قطعان. وفجأة ظهرت أمامنا أربعة غزلان فقمنا بمطاردتها في بقعة حصوية ثابتة تتخللها بين الفينة والأخرى مجارٍ مائية ضحلة منحدره من الجبال المجاورة وبعض الشجيرات غير المشذبة. وعند اقترابنا منها، أطلق ابن هضبان على إحداها (أنثى) طلقة أردتها أرضاً فوضعناها في السيارة راجعين إلى المخيم. وبعد ذبحها تقاسم كل من ابن هضبان وصالح الكرش حيث التهماها غير ناضجة. واتضح أن الغزالة (العفري) كانت في مرحلة متقدمة من الحمل لذا فقد احتفظت بالجنين لعمل المخلل. ولكن اضطررت لاحقاً للتخلص منه لعدم وجود مكان لحفظه لا سيما وأن أمتعنا كلها كانت ضمن حمولة قافلة الجمال.

واكتشف صالح فجأة اختفاء شنطته التي تحوي بعض مستلزماته الشخصية الخفيفة من الصندوق الخلفي للسيارة. فاضطررنا الرجوع لتتبع آثار مسيرنا بغية العثور عليها. ونجحنا في نهاية الأمر في الحصول على المستلزمات التي كانت مبعثرة على امتداد خط سيرنا. ووجدنا جيوب الشنطة خالية من محتوياتها. وبالقرب من الموضع الذي ذبحنا فيه غزالة العفري، استطعت أن أحصل على منظر شامل للمنطقة المحيطة. ووصلت إلى نتيجة يبدو أنها ستعمق سر رابية الثنية حيث اتضح لي من هذا الموقع أن هذه الرابية ذات شكل عادي ويتراوح ارتفاعها بين ٦٠-٧٠ قدماً من مستوى سطح الأرض. وعلى مقربة من الثنية توجد رابية الرويك التي تشابهها في تكوينها الجيولوجي حيث تتكون من صخر الشيست والرخام.

ثمة ملاحظة هنا وهي أن قمة رابية الرويك دائرية ذات شكل مستو. وفي الجانب الغربي من الرابية يوجد-دون شك- ممر عرضه ثلاث خطوات محاط على جانبيه بالوواح من الحجر الصخري الأحمر. ويبدو أن طول هضبة الرويك حوالي ميل أو يزيد تتخللها أشكال برجسية دائرية صغيرة غريبة تذكرنا بشكل الجدري في الحرب العظمى. فبينما يشير ناظري إلى أن هذه الأشكال من إبداع الإنسان فإن ما يعذبني حقاً هو أن هذه الأشكال البرجية تأخذ مسارها أسفل المنحدر الصخري على هيئة

خطوط طولية متقاطعة مع خطوط تحوي الأشكال نفسها لكنها تتخذ مساراً أفقياً؛ لذا لا أجد تفسيراً مقنعاً لهذه الظاهرة. واحتمال أن تكون هذه الأشكال ذات علاقة بأنظمة الري يضعفه شكلها الغريب ذو الهيئة الأفقية - الرأسية. وفي الوقت ذاته فإنه يبدو من غير المرجح أنها ذات غرض حربي لاسيما وأن أحجامها صغيرة حيث لا تتسع حتى لجندي واحد؛ لذا لا أتخيل غرضاً مقنعاً لهذه الأشكال الغريبة سوى أنها مكان عبادة شعائري للديانة السبئية. ولقد كنت متشوقاً للاقتراب من هذه الأشكال الغريبة. لكن وجودنا في قلب الصحراء مع نزر يسير من المياه فضلاً عن وعدنا لرفاقنا قافلة الجمال، الذين كانوا في انتظارنا عند نقطة التلاقي دفعاني لصرف النظر عن فكرة المبيت وتفحص هذه الأشكال الغريبة عن كذب بغية كشف لغزها المحير. وبقلب قملؤه الحسرة تركت ذلك المكان، يراودني حلم العثور على إجابة شافية لأشكاله الغريبة.

وسرنا باتجاه الغرب في سهل حصوي، وكما هو الحال في بداية المسير، فإن السطح الخارجي للأرض الذي يبدو متماسكاً يخفي تحته أرضاً زلقة تتخللها بعض مجاري المياه الضحلة. ثم ندخل أرضاً ذات تضاريس متباينة بين سهل وراية، وعلى أطرافها توجد المنكشفات الصخرية لكل من المنقضة والضبة والأشقر والتي ينحدر منها مجرى موسمي يسمى السديحات يحمل المياه من المناطق المرتفعة والسهول إلى القناة الرئيسة في وادي شيبان. وكانت أول علامة على هذا الوادي خط أسود من شجيرات الحمض التي تُرى على بعد نحو عشرة أميال في صحراء التيه. ومررنا في طريقنا بقطيع صغير من الغزلان (الإدمي)، حيث استطاع ابن هضبان أن يظفر بواحدة منها بطلقة واحدة بعد مطاردة قصيرة. وبعد أميال قليلة نزلنا في مكان تظله شجيرات سمر عند منخفض السديحات لتناول وجبة الغداء المكونة من لحم غزال العفري والأناس والحليب مع الشاي والقهوة. وكانت درجة الحرارة ونحن في المكان الظليل ٩٥ فهرنهايت ورغم ذلك لم نشعر بحرارة مفرطة. ويلاحظ هنا أن طبيعة الأرض

= الفصل الثاني عشر =

تتراوح بين البقاع الصلبة والرخوة تتخللها بعض شجيرات الأكاسيا الشوكية والأشجار الخفيفة الظل. وتتناثر هنا وهناك المنكشفات الصخرية المكونة من حجارة البازلت. وبعد فترة وجدنا أنفسنا بالقرب من أحد غزلان العفري. وبعد مطاردة في أرض لينة استطاع ابن هضبان أن يظفر بالطريد مستخدماً مديته. والآن أصبح لدينا كمية وافرة من اللحم تكفي لكل القافلة. وبعدها واصلنا المسيرة مسافة سبعة أميال نحو البقعة التي نمضي فيها ليلتنا..

وعند اقترابنا من الزاوية التي تكونها مرتفعات العلم والمعروفة باسم الأسود والأبيض، رأيت منظراً يدعو للدهشة والانبهار. وكان ذلك المنظر عبارة عن أرض منحدر مزيّنة بأشكال على هيئة أبراج تماثل تلك التي وجدت في مرتفعات الرويك. وعندما اقترينا من المكان، لاحظت وجود منشآت أمامنا عبارة عن مقابر. وبدأت أفكر في الأمر ملياً، فالمنحدرات الصخرية والروابي المجاورة كلها تزخر بآلاف الأشكال البرجية والتي نفذت بوضع رأسي وآخر أفقي. والآن بدأ يتابني إحساس بأنني في منطقة جبانة كبيرة وربما كانت الرويك جبانة أخرى. وكانت هناك خمس وعشرون مقبرة عند الطرف الخارجي لرابية العلم. وهذه المقابر دائرية الشكل بنيت بشكل متقن من ألواح حجرية مختلفة الأحجام غير مشذبة (دبش) من الحجر الجيري المحلي ويتراوح سمكها بين ١-٤ بوصات. وأكبر هذه المقابر يقع عند الركن الأيسر للمنحدر الصخري ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام وقطره ٢٥ قدماً ومحيطه حوالي ٨٥ قدماً. ومن الجلي أن يد العبت قد امتدت إليها بواسطة بعض لصوص المقابر. ويقع المدخل في الجانب الشمالي. وفحص العديد من هذه المقابر جعلني متيقناً إنه لا يوجد نظام معين للمداخل المطلة على ممر ضيق يتراوح ارتفاعه بين ٤-٥ أقدام فوق مستوى سطح الأرض. ويؤدي هذا الممر بدوره إلى غرفة وسطى بالارتفاع نفسه وبطول يتراوح بين ٦-٧ أقدام سقفت بواسطة ألواح حجرية كبيرة موضوعة بشكل متراكب ومغطاة بحصى غير متماسك ورمال. ورغم أن جزءاً من سقف الغرفة الداخلية قد أزيل

بواسطة العابئين، إلا أن الأطلال الشاخصة تبدو غير كافية لإعطاء صورة متكاملة عن طبيعة المنشأة. والملاحظ أنه لا يوجد أي أثر يشير إلى باب الغرفة الداخلية أو المدخل الرئيس، كما إنه لا يوجد أي أثر يدلنا على صاحب أو أصحاب هذا القبر. فلم نعثر على أي عظام أو نقوش.

والقبر الثاني المجاور للقبر المشار إليه أعلاه يقع في قمة المنحدر إلى جهة اليمين، يبلغ محيطه ٢٠ قدماً لكنه تعرض للتلف والنهب بدرجة كبيرة بواسطة لصوص المقابر. وهناك مجموعة من أربع مقابر متشرة على أبعاد كبيرة عند قوس المنحدر الصخري في حين أن هناك ثلاث مقابر كبيرة نسبياً تقع عند أسفل المنحدر الصخري ويتراوح قطرها بين ١٥-٢٠ قدماً. ولكن كل الجبانات الأخيرة لا توجد بها أي قبور للإنسان. وكل المقابر يبدو أنها منهوبة المحتويات. ولكن الشيء الوحيد الذي يرجح أن هذه المقابر من صنع الإنسان وجود حجر ضخيم يشكل فيما يبدو جزءاً من هذه المقابر على هيئة كبد، مجصص ومدهون بلون أحمر. ويصعب التيقن عما إذا كان ذلك دهاناً أو بقعة أو علامة طبيعية للحجر.

في الوقت الحاضر كنت مرتاحاً ومقتنعاً بما ظفرت به من بحث في ركن من الجبانة الكبيرة. وبينما كنت أقود السيارة لاحظت أن هناك أعداداً هائلة لا تحصى من المقابر من النمط السابق نفسه تتشجر في المنحدرات الصخرية لمسافة تزيد عن الميل. وفي طريقنا مررنا بمضيق يقسم هضبة العلم إلى قسمين. ودخلنا بعده وادي مهياش على الجانب الأيسر عند أسفل جرف العلم الأبيض حيث قضينا الليلة هناك. ويبدو أننا سنسبق قافلة الجمال قبل غروب الشمس. وأثناء ذلك كادت إمدادات مياهنا تنفذ. وكنت أصر أن نترك شيئاً من الماء للسيارة والباقي لاستعمالنا. وتبقت لنا قطعة أناناس واحدة ولكنها جفت، لذا فتحت إحدى علب اللبن التي بحوزتي. ووافقت على اقتراح سعد بأن تواصل قافلة الجمال المسير في منتصف الليل حتى تستطيع أن تبلغ مسعودة قبل أن ترتفع درجات الحرارة في النهار. ولم أعرف ما هو السبب الذي

جعل قافلة الجمال تتأخر في الوصول إلى نقطة الملتقى؟ هل يعزى ذلك إلى الصدفة المحضة أو كان ذلك عملاً متعمداً لاسيما وأن المجموعة النجدية للمرافقين لم تكن على وفاق مع مجموعة الأهالي المحليين.

وبقيت مجموعتنا الصغيرة مع سيارتنا الوحيدة في انتظار قافلة الجمال وهي تنفياً الفضاء الموحش الممتد من مرتفعات العلم إلى ساحل جبال اليمن البعيدة. وشعيب مهياش مجرى مائي موسمي (واد) ينحدر على امتداد أطرافه الجنوبية ومحاذياً للجرف الصخري ليتصل بمجرى مائي ضحل يسمى عضات الركع والذي يتصل بدوره بوادي أبراد الواقع أسفل وادي سيمرة والأخير ربما يكون المجرى المائي القديم لوادي الجوف. وعلى مسافة تبعد ٥-٦ أميال من موقعنا الحالي فإن المجاري المائية لكل من وادي مأرب ووادي الجوف تتحد لتكوّن وادياً واحداً. وثمة إشارة هنا وهي أن جبال الجوف التوأم البعيدة تحدد موضع مأرب نفسها والتي تقع مباشرة باتجاه الجنوب الغربي من موضعنا الحالي. وفي أقصى الشمال وفي خط سيرنا فإن لسان حيلان الصخري يحدد مخرج وادي رغوان من بين المرتفعات المجاورة. وباتجاه الغرب والشمال الغربي ترى مرتفعات اللوذ وقمتها المسماة زويرة والتي كنا قد رأيناها عن بعد في رحلة الذهاب للمرة الأولى استطعت رؤية قلب سبأ التي كانت مركز الحضارات المعينية والسبئية التي نعرف معلومات ضئيلة عنها. واندesh الآن، كم من هذه الأراضي والسهول الواسعة كانت في غابر الزمان مخضرة ومستزرعة بالحبوب وأشجار النخيل؟. واليوم نلاحظ أن الأطراف الشمالية والجنوبية لسبأ القديمة ترقد غير مستصلحة وخالية من الزرع تحت صفحات الرمال.

والجرف الصخري وراءنا يبلغ ارتفاعه ١٥٠ قدماً ويتشكل من الحجر الجيري وينحدر تدريجياً نحو الشرق بزاوية قدرها عشر درجات، وأطرافه السفلى باتجاه وادي مهياش تتناثر فيها بعض أشجار الأكاسيا. وتسلفت ومعني ابن هضبان الجرف الصخري لنواصل بحثنا عن المقابر القديمة التي رأيناها تغطي الأفق ونحن في

المعسكر. وإلى اليمين والشمال من موقعنا فإن الجبانة تبدو وكأنها تمتد على مدى البصر وبالتالي لم أستطع أن أتفحص سوى جزء ضئيل منها. ويمدنا المنحدر الشرقي من قمة الجرف الصخري على ارتفاع ٣٠٠ قدم بجانب من منظر الجبانة. وفي هذا الجزء الضئيل من المساحة استطعت أن أحصي ١٨٠ مقبرة مختلفة الأحجام في حين أن كل قسم من الجانب الشرقي المشرف على منحدرات العلم الأبيض توجد فيه مجموعات هائلة من المقابر. ويزعم صالح بن حزيق أن هناك مجموعة أخرى من المقابر عند أسفل مرتفعات الجدران في جهة الجنوب. أما الجبانة الأخرى الوحيدة في هذه المنطقة فهي الرويك. وتزعم الروايات الشعبية أن المقابر المعروفة باسم الرُدم أو النصب الركامية والتي تقع على امتداد الطريق من نجران إلى صعدة مساكن للكفار القدماء بنيت لتحميمهم من العقاب الإلهي الذي ظهر في الرجم الجوي بواسطة طيور الخطاف (السنونو). ومن الواضح أن القصة القرآنية بخصوص هلاك جيش أبرهة ذات تأثير واضح على هذه الرواية. ولم تحفظ الذاكرة شيئاً عن الماضي البعيد عندما كان موتى سبأ يكرمون بدفنهم في مثل هذه المقابر.

وجدير بالتنويه أن الإنسان العربي الحديث وهو يلحظ هذه القفار الموحشة لم يفكر ملياً ليتصور أن إنسان تلك الأحقاب القديمة الذي كان يقطن بالقرب من هذه الجبانات الكبيرة كان يعيش حياة مختلفة للغاية في ظروفها عن الوقت الحاضر. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن بقايا البحيرات المدرسة وآثار الأنهار القديمة والأماكن المرتفعة ذات الوضع الشعائري المقدس بالقرب من الرويك كلها آثار تعيننا على سبر أغوار الماضي وحل ألغازه. وهناك ظاهرة شبيهة بتلك المذكورة أعلاه نجدها في منطقة الخرج، وفي كل من الأفلاج ونجران، نجد أزمنة كانت فيها الأوضاع العربية تتباين تماماً والوضع الحالي، وهذا الوضع نفسه يمكن أن يماثل أوضاعاً في صحارى أخرى. تقع رابية العلم الأبيض باتجاه غرب الشمال الغربي وشرق الجنوب الشرقي. ويلاحظ أن الجرف الغربي لهذه الرابية يتميز بالانحدار الشديد ناحية الغرب وبانحدار

== الفصل الثاني عشر ==

معتدل ناحية الشرق حيث يقسم إلى عدة أقسام بواسطة الثنيات الضحلة الأودية الصغيرة. وتصطف المقابر على امتداد قشرة الجرف الصخري على شكل عناقيد لتكون ما يشبه المتراس. وبصورة عامة فإن هناك ١٢٠ منشأة حجرية صغيرة الأحجام مشيدة بواسطة ألواح حجرية. وبعض هذه المنشآت دائرية الشكل والبعض الآخر وضع على هيئة أكوام يتراوح ارتفاعها بين اثنين وثلاثة أقدام. والثمانون الأولى من هذه المنشآت والتي تبدأ من نهاية الجانب الغربي من الجرف الصخري تشكل خطاً متصلاً مع الثمانية والخمسين منشأة المهدمة والكبيرة الأحجام نسبياً. أما المنشأتان الحادية والثمانون والثانية والثمانون فهما منفصلتان عن بقية المنشآت بحوالي ثلاثين ياردة. وخلف المنشأة رقم ٨٢ يوجد صفان من المقابر الصغيرة التي تقع عند أقصى الخط الجنوبي المجاور لطرف الجرف الصخري.

ومن جهة أخرى فإن الخط الداخلي لهذه المنشآت يحتوي على ٢٠ مقبرة في اتجاه الشرق و ١٢٠ مقبرة باتجاه الغرب. ومن المقبرة رقم ٨٢ وباتجاه الشمال الشرقي توجد خطوط متوازية لكنها غير منتظمة من المقابر بأحجام مختلفة وتتجه ناحية وإد صغير إلى أسفل الجبل. وستة من هذه المقابر تقع في خط واحد يبدأ من المقبرة رقم ٨٢. أما المقابر بأرقام (١٢٧-١٢٨) فكلها بحجم واحد ويبلغ قطر كل منها ١٢ قدماً. وتتلو هذه المقابر المقبرة ١٣٤ في حين أن المقبرة رقم ١٢٨ هي أكبر هذه المقابر جميعاً ويبلغ قطرها حوالي ٣٠ بوصة ومدخلها في اتجاه الغرب. أما محيطها فهو مغطى بكتل الأحجار غير المشذبة (١٨ بوصة مربعة) وارتفاعها أعلى من سقف القبر. ويبلغ ارتفاع المدخل ٣ أقدام فوق مستوى سطح الأرض، ويصل اتساع ممر المدخل إلى ٣٠ بوصة وطوله ٦ أقدام. ويبلغ ارتفاع المنشأة الكلي سبعة أقدام ويتكون من ثلاث عشرة طبقة من صفائح الحجر المستوية. وبوسعي الآن ترجيح الاحتمال بأن الغرفة الداخلية سليمة لم يعثر بها ولكنها مملوءة بالرمال لارتفاع يبلغ قدماً. ويبدو لي أن هذا البناء هو أهم هذه المقابر جميعاً؛ لذا فقد قصدت أن أصفه بشيء من التفصيل

لإعطاء فكرة عن هندسة هذه المنشآت الحجرية. وهناك مقبرة أخرى تختلف في تصميمها الداخلي عن بقية المنشآت؛ لذا فقد استحققت انتباهاً خاصاً. وهذه المقبرة ذات شكل خماسي ولها خمسة ألواح ضخمة تشكل جدرانها وتسند السقف، ويبلغ كل من ارتفاعها وطولها أربعة أقدام واتساعها ثلاثة أقدام. وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن الفتحة المؤدية إلى الدهليز في تلك المقابر تتجه ناحية الغرب. وربما يعزى ذلك إلى الاتجاه الطبيعي للهبشة نفسها. وما يدعو للدهشة كما هو الحال في المجموعة السابقة، فإن هذه المنشآت تخلو تماماً من أي أثر لنشاط إنساني من عظام أو خرزة أو غيره. والشيء الوحيد الذي عثرنا عليه عظام ثعلب نفق فيما يبدو منذ زمان بعيد. وفضلاً عن ذلك توجد متحجرات من العصر الجيوراسي تربط جيولوجياً مرتفعات العلم بما يشابهها من الترسبات الجيوراسية بالقرب من عمران في اليمن وجبال طويق في أواسط الجزيرة العربية.

يقول بليني إن السبثيين كانوا لا يهتمون بدفن موتاهم حيث كانوا يلقون الجثث في نفايات مدنهم. ولكن هذه الأدلة المذكورة أعلاه تنفي هذه المقولة وتؤكد أن هناك نظاماً محكماً لشعائر الدفن. وربما كانت المجموعتان السابقتان للمقابر في الصحراء عبارة عن نصب جوفاء Cenotaphs أقيمت لموتى دفنوا في مكان آخر. ولكن من جهة أخرى فإن وجود كميات كبيرة من المياه في هذه الأصقاع في تلك الأزمنة يوحى بوجود أراض زراعية كبيرة ومجتمع رعوي على أطراف هذه الجبال. والمثال الذي أوردناه سابقاً من منطقة الخرج يؤيد هذه الحجة. وبالرغم من عدم وجود نقوش في كل هذه المقابر حتى الآن، فإن بعض النقوش الحميرية قد عثر عليها في منشآت حجرية مشابهة بالقرب من نجران. ويبدو أن تلك المنشآت ذات علاقة بالفينيقيين الذين ركبوا البحار واشتهروا بالتجارة والأسفار. وكما هو معلوم فإن الطلب المتزايد على التوابل والعطور في مصر القديمة كان سبباً في نشأة تجارة برية واسعة النطاق مع جنوب الجزيرة العربية. وكما هو معروف، فإن أقدم الأسر الحاكمة في هذا الجزء من

العالم هي أسرة المعينين وعاصمتهم معين في الجوف الجنوبية. وهذا الاسم (معين) يوحى بصلة مع المينويين Minoan في جزيرة كريت - والتي كانت لها صلات قديمة مع مصر-. لقد كان ملك مصر (شقيق) ملك الفينيقيين كما تقول الأسطورة. وهل يمكن القول إن هؤلاء المعينين بعد أن دانت لهم السيطرة على التجارة البرية للقوافل في الجزيرة العربية أقاموا علاقات تجارية بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك للاستفادة من مصادر ثروتهم في الجزيرة العربية؟. وتدرجياً استوطنوا في البحر المتوسط لتأمين نشاطهم التجاري. ورغم عدم وجود دليل قوي يؤيد هذه الفرضية إلا أن الصلات بين مصر وكريت وساحل بلاد الشام في الأزمنة القديمة لا يمكن إنكارها. كذلك كان للفينيقيين في سوريا -دون ريب- صلة بالبحرين وتمتد صلات الأخيرة حتى الخرج والأفلاج. وسبأ نفسها ليست بعيدة عن هذه المناطق خاصة إذا تذكرنا أحوال المناخ المواتية في ذلك الزمن. وهكذا فإنه ربما كان إقليم سبأ هو الموطن الأصلي للفينيقيين. ويمكن أن تكون الصورة عكسية، بمعنى أن الحضارة المعينية استمدت وهجها الحضاري من حوض البحر الأبيض المتوسط ومصر وجزيرة كريت. وهذا يعني أن الحضارة الأولى استمدت عناصرها من عنصر خارجي وافد من الشمال إلى هذه المنطقة بغية الحصول على الذهب والتوابل. ومع هؤلاء الفينيقيين جاءت ديانة القمر لتبقى حتى يومنا هذا في التقويم العربي بعد أن تبناها الإسلام من الموروث القديم؛ لذلك فإن الجبانات الكبيرة التي عثر عليها في الصحراء هي أهم الاكتشافات في رحلتي هذه. وحتى إن لم نهتد إلى معرفة لغز هذه المقابر فإنها على الأقل قد مهدت الطريق إلى أبحاث مستقبلية في هذا الموضوع. وإذا ما تمكنا من تحديد تاريخها ومنشئها فإن أحد أهم الأسئلة عن الحضارة الإنسانية قد وجدت طريقها للإجابة. وبالنسبة لي: ... «فيمكنني أن أنظر في البعيد وعبر أزيز الهواء فوق الجبال والأرض الشاحبة ومن وراء أقواس الرمال التي جرفتها الرياح إلى شارات مدينة في ضباب الفضاء والضياء».

وأقرب الأطلال السبئية لمسيرنا يعرف باسم خربة أبي السعد ويسمى في النقوش يلت YLT ويعد موقعه بما يزيد عن الأربعين ميلاً بقليل خلف وادي الجوف. وبعد مسيرة ميل أو ميلين من موقعنا في غربي هضبة العلم بدأنا نتحرك ببطء في منطقة وعرة يكسوها الحصى. وبعد ذلك وجدنا أنفسنا نسير في أرض سهلة مغطاة بأحجار صغيرة ناعمة وتتخللها في بعض الأحيان خطوط مصارف مائية متحدرة من جهة الشمال تقودنا إلى منطقة كثبان رملية ذات شكل أحمر ذهبي (هبل فريدة) حيث توقفنا هنيئة لاستطلاع الموقف وعمل مسح للمنطقة. ومن ثم واصلنا المسير حيث اجتزنا طريق القوافل المؤدي إلى مناجم الملح في صفرة بالقرب من مستوطنات الجوف المعروفة محلياً باسم (بلاد دهم). وراية هيلان الطويلة الواقعة بين فتحة وادي رغوان ومأرب بالمثل تسمى (بلاد نهم). وأثناء ذلك، هبت بعض العواصف الترابية حولنا أثناء جلوسنا عند قمة إحدى الكثبان الرملية مما سبب وضعاً بغيضاً.

وتعد زويرة أعلى قمة في رابية اللوذ الجرانيتية التي تبرز فوق سهل الجوف، بينما نجد في الجهة الجنوبية الغربية مجموعة من ست رواب صغيرة مستديرة تتوسط كثباناً رملية على الجانب الأيمن من وادي الجوف. وتعرف هذه الروابي باسم الكنائس.

وواصلنا سيرنا باتجاه الغرب - الشمال الغربي في سهول رملية. وبعد أن اجتزنا ٤٠ ميلاً بدأنا نقترّب من خط الكثبان الرملية المسماة (عريق). ومن هذا المكان واصلنا المسير حوالي ١٦ ميلاً حيث عبرنا مضيقاً غير وعر وجدنا بعده أنفسنا عند مجرى مائي واسع هو وادي الجوف، وتناثر حوله أشجار الأكاسيا الشوكية. وفي الجانب الأعلى من الوادي باتجاه الشمال الغربي توجد بعض الروابي الصغيرة، وأسفله باتجاه الجنوب الشرقي في الصحراء يميل الوادي إلى اتخاذ مجرى مستقيم وأواسط الوادي خالٍ من الغطاء النباتي. أما آخر وأوسع مجرى للوادي فهو ينقسم إلى عدة أقسام

== الفصل الثاني عشر ==

جداول بواسطة أحزمة حصوية. وعند الطرف الأقصى للوادي يوجد سهل صلب التربة، تغطيه الأشجار والنباتات المختلفة ويكون ما يشبه الدلتا لوادي الجوف وفروعه. وثمة إشارة هنا وهي أن قافلة الجمال التابعة لنا كانت قد توقفت في منطقة الأشجار إلى اليمين من معسكرنا لقضاء وقت القيلولة وذهب ابن هضبان لتسقط الأخبار منهم. وتابعنا السير لنلحق برفقائنا الذين تحرکوا أمامنا ولكن لغز (آل هندي) لا يزال دون حل. ولكنهم لم يمروا عبر هذا الطريق، لذا فقد انتابتنا الدهشة حول وجهة هؤلاء.

وبدأت سيارتنا الأولى تعاني من بعض الأعطال حيث انكسر المكبس (البستون) محدثاً صوتاً يشبه الخشخشة أو القعقة؛ لذلك فقد اضطررت لقيادة السيارة ببطء حتى نصل إلى مسعودة بسلام. وبعد مسيرة سبعة أميال خلف وادي الجوف وصلنا إلى الجزء الأوسع والطرف الأكثر وعورة من وادي المٌسيجد وهو أحد فروع مجرى مياه وادي رغوان. وتوالى المصاعب حيث أدى الطريق الوعر مع المكبس المكسور إلى صعوبات جمّة في حركة السيارة. وعندما اقتربنا من رابية عدوان توقف المحرك تماماً. واضطررنا إلى قضاء الليلة في هذا الموقع حتى وصلت قافلة الجمال. وأرسلنا بعض رجالنا للقيام باتصالات مع البدو في المنطقة ولجلب الماء لتأمين احتياجاتنا لبقية الرحلة.

وأجهض حادث تعطل سيارتنا بعض المخططات التي كنت أنوي تنفيذها والتي ناقشتها مع كل من صالح وابن هضبان خلال الرحلة. ويبدو أن يومين كافين لإكمال الاستعداد لما تبقى من الرحلة وذلك بإصلاح السيارة والحصول على مياه كافية. واستمر محمد في إصلاح السيارة بمساعدة كل من صالح وابن هضبان بينما كنت أقوم ببعض المسوحات لتقصي أحوال المنطقة. وكنت أتوق للوصول إلى سبأ لقضاء الليل هناك. وبعد أن وصلت الأمتعة التي تقلها القافلة استطعت أن أحصل على الأجهزة التي كنت استغلها ليلاً مثل: مصباح الضغط الذي كان مرشداً لقافلة الجمال وهي

تسير بعيدة عنا في بعض الأحيان. وحصلت على بعض علب الفاكهة والحليب المجفف التي كانت بحوزة مجموعة قافلة الجمال. وكانت هذه المواد الغذائية تجد ترحيباً خاصاً وسط المرافقين الذين كانوا معي في السيارة. وكانت كمية التبغ التي بحوزتي قد نفذت ولكن تمت معالجة هذه المسألة. وكان عليّ القيام ببعض الأعمال المساحية بمعاونة محمد الذي كان يحمل المصباح أثناء انهماكي في العمل. أما سعد فقد ذهب إلى البئر مع الجمال ليحضر لي صناديقي ولما لم يجدها فقد تأخر في العودة.

وكما لاحظت في العديد من الأماكن في هذه الصحراء الخالية من المياه فإن أوعية الماء الجلدية (القرب) التي ترشح بعض القطرات على سطحها الخارجي تجذب أعداداً هائلة من الفراشات التي تمتص الماء بنهم شديد ولم يكن باستطاعتنا اصطيادها. وذهبت للنوم وتركت كلاً من محمد وصالح يواصلان إصلاح السيارة وقد تخضبت أيديهما بالدهن، ولا أدري متى ذهبا للنوم؟.

وكانت درجة الحرارة قد بلغت ٥٢° ونحن على ارتفاع يبلغ ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. وتشرق الشمس الساعة السادسة لتزيل البرد وترتفع درجة الحرارة عند الساعة التاسعة صباحاً إلى ٩٠° فنهنايت. وفي الأفق البعيد تلوح أعلى قمم جبلية في اليمن (٩٠٠٠-١٠٠٠٠ قدم) والمسماة عشير، والواسط والخانق. وفي شمال ضيقة التي تمثل فوهة وادي رغوان حيث تمتد المرتفعات على شكل نصف دائري إلى جبال صفرة وحراب ومضرة والشهلا على الجانب الأيسر لوادي الجوف المنحدر من جبال حجاز بن جدعان. وإلى الجنوب من ضيقة فإن رابية هيلان تستمر مطلة على الصحراء إلى أن نصل مأرب. وتقع زويرة أعلى قمة في الجانب الأيسر من وادي الجوف ومن ورائها حليف وقدم وتحدد قمم خرج موقع مأرب إذ تقع مباشرة جهة الجنوب المائل للشرق قليلاً. وأعطاني وقوفنا الاضطرابي في عدوان فرصة طيبة لمعرفة جيدة بجغرافية سبأ.

ولم يستطع محمد أن يكمل عمله طوال الليل. وبعد أن احتسيت كوباً من الشاي استأنفت عملي في دراسة المنطقة التي حولنا. وساور كل من صالح وابن هضبان الخوف من المعلومات التي تحصلا عليها من امرأة ترعى الأغنام والتي تفيد بأن الصحراء الواقعة بين مسعودة ومأرب خالية من أي أثر للحياة. وكنا في ورطة حقيقية لاسيما وأن رفقاءنا من مجموعة الجمال لا يزالون عند البئر لا يعرفون ما هي وجهتنا التالية. وعلاوة على ذلك فإن محمداً لم يكن قادراً على الاعتراف بأن محاولاته لإصلاح السيارة قد باءت بالفشل. ورغم كل هذه الصعاب قررنا استئناف السير الساعة التاسعة صباحاً.

تحرك ركبنا بسم الله واجتزنا خمسة أميال على أرض صلبة تكسوها الكثبان الرملية وتتخللها بعض المسيلات المائية وتتناثر بجوارها بعض الشجيرات. وكنت أقود السيارة بحذر شديد باحثاً عن أي خط سير يكون أقل خطورة لسيارتنا. وكانت هناك بعض الغزلان تنسل من بين الشجيرات هنا وهناك ولكن كنا لا نعيها اهتماماً. وكان وضعي مثل طالب المدرسة الذي يريد أن يخطف فاكهة من البستان خلصة. وكان كل من صالح وابن هضبان أكثر عصبية وقلقاً مني في هذه الظروف العصيبة التي نجتاز فيها الصحراء. وكان يخيل إلينا أن كل صخرة كبيرة في الصحراء عبارة عن رجل يتجسس علينا. ولكن الحظ كان معنا. وفيما عدا الغزلان والطيور فلا يوجد مخلوق واحد في هذه الصحراء القاحلة.

وخلف منطقة المٌسيجد اجتزنا سهلاً حصوياً متموج الشكل، ومررنا ببعض أكام الكسعين إلى الجانب الأيمن من خط سيرنا. وتوقفنا هنيهة وصعدنا رابية تسمى صمدة للاطلاع على المنظر العام للمنطقة التي حولنا. ونحن الآن على بعد ثلاثة عشر ميلاً من المعسكر. ولاحظنا أن قمة رابية خرج الأيسر تقع مباشرة جهة الجنوب على بعد عدة أميال من موقعنا الحالي. ويعلم الجانب الأيسر من وادي أبراد ثلاثة هضاب صغيرة تسمى تدوين وهو إلى الجنوب الشرقي من مكاننا، ويقع كناس في جهة

الشرق على جانبي وادي الجوف. وبعيداً في جهة الغرب يوجد تل مرتفع في اتجاه صرواح التي كانت يوماً ما عاصمة للإمبراطورية سبأ. وما زالت مرتفعات زويرة والهضبة تقف ظاهرة في الشمال.

وعند منتصف الطريق تقريباً إلى قمم جبال خرج تتغير طبيعة الأرض حيث تظهر بعض البقاع التي تتأثر فيها حمم اللابة البركانية، بينما تفصلنا عن هذه الجبال طبقات سميقة من الرمال. وتجاوزنا هذه العقبة بعد عثورنا على فتحة يتراوح اتساعها بين ٢٠٠-٣٠٠ قدم تؤدي إلى سهل دائري يسمى قعاد محاط بكثبان عالية من الرمال، وعند الجانب الأقصى لهذه الرمال الواقع أقصى جبل خرج يوجد ممر جبلي منخفض بين الاثنين. وقمت بتحريك السيارة باتجاه المنحدر الرملي الذي يخفيها تماماً عن الأنظار. ووضعتها مواجهة لأسفل الجبل باتجاه ديارنا وذلك حتى تكون جاهزة للتحرك السريع في حالة الطوارئ. وبقي محمد مع السيارة بينما بدأ ثلاثتنا تسلق الجبل مباشرة.

وأول ما يسترعي الانتباه أن جبال خرج بركانية التكوين وترتفع حوالي ٤٠٠ قدم فوق مستوى سطح الأرض. ويشابه التكوين الجيولوجي لجبال خرج جبال كرش عند وادي الحاضنة حيث توجد كتل الأولفين واللابا عند جوانب الجبال. وعندما تسلقنا الجبل وجدت نفسي أمام فوهة بركان ذات جدران سليمة ترتفع حوالي مئة قدم فوق مستوى سطح الكثبان الرملية المحيطة بالمكان. وهذه الجدران على هيئة جوهرة تقع داخلها الفوهة ويصل قطرها إلى ٢٥٠ ياردة. والحمم البركانية في قمة الجبل ذات لون بني يشبه الصداً ومختلطة ببعض كتل الأولفين. ويرجح أن يكون هذا البركان حديثاً.

وصلنا إلى فوهة البركان عند طرفه الجنوبي الغربي. والآن تحركنا باتجاه الطرف الشرقي له الذي يمدنا بمنظر جميل للوادي. وأسفلنا مباشرة يوجد منظر لأكوام من الأطلال التي التقطت لها بعض الصور كما قمت ببعض الأعمال المساحية لمعرفة

الاتجاهات. وفي هذه الأثناء تحرك صالح ناحية الجانب الجنوبي من الفوهة لجمع معلومات عن الموقع. وبعد برهة اتجهت ناحية صالح جهة الجنوب الذي أشار إليّ نحو موقع مأرب، وهي الآن تختفي خلف رابية منخفضة، تشبه الحصن ذا الشرفات المفرجة القابع فوق قاعدة مربعة الشكل التي تشبه مدينة أرييل في العراق. والمباني الحديثة لمأرب بنيت من الأحجار القديمة. وعند أسفل الجبل إلى جهة اليمين يوجد مبنى على شكل حصن. ومن ناحية الحجم فإن القرية لا تبدو أكثر اتساعاً من شبة ولكن يبدو أننا لم نر سوى قلعة بارزة وسط حقل من الأطلال التي لم نعرف كنهها بعد والتي تبعد حوالي ثلاثة أميال من موقعنا الحالي. وأصبت بشيء من الإحباط لعدم تمكن أدلائي من إرشادي لأقرب نقطة لمنظر أطلال القلعة. والآن يستحيل إيجاد بدائل؛ لذا فقد جلست أسجل أقصى ما يمكن تسجيله عن هذه الأطلال الماثلة للعيان.

وإلى الجانب الأيسر من موقعنا الحالي، كما أجلنا النظر جنوباً ناحية مأرب، توجد تلال تدوين الثلاثة باتجاه الشمال الشرقي قليلاً. وباتجاه الجنوب - الجنوب الشرقي يقع مخروط بركاني صغير على مسافة تبلغ حوالي المليون والنصف من موقعنا الحالي. وعلى مقربة منا تقع قمة رابية دش وهي تقع جهة الجنوب مباشرة وتمتد أطرافها على الجانبين بحوالي نصف ميل. وإلى الجنوب الغربي يوجد عدد من الفوهات البركانية التي تظهر جزئياً جهة اليسار وتغطيها جبال خرج الأيمن جهة اليمين وتغطي مساحة قدرها ٥٠٠ ياردة على بعد ميلين ونصف من موقعنا. وقد كنت فعلاً أعتقد في البداية أن الركام الصخري هو أطلال المدينة القديمة.

وتقع مأرب على بعد نصف ميل خلف مخروط بركاني صغير الحجم شرق مرتفع الدش باتجاه ١٦٤ من نقطة نظرنا. وعند الجانب الأقرب من هذه الرابية تجري قناة وادي أبراد الرملي وعلى مسافة أبعد من ذلك قليلاً وخلف هذه الرابية يوجد وادي السد، وسمي كذلك نسبة للخزان الذي يخفيه عنا التقاء مرتفعي حيلان

والأويست وعند أسفل هذه المدينة يتفصل هذان الواديان بواسطة شريط من الكشبان الرملية. وباستطاعتنا تتبع خطوط مجاري هذين الوادين اللذين تتخللهما بعض الشجيرات الداكنة اللون. وعلى الجانب الآخر من وادي أبراد توجد عدد من المباني الحديثة تسمى حصن جلال تقع على المسافة نفسها من مجرى الوادي (أبراد) ومن المرتفع ذي القمة الحادة. وبالإضافة إلى تلك المستوطنات توجد أيضاً بعض الأحياء، معظمها لمجموعات مزارعين تتوزع في أعلى وأسفل وادي أبراد وأعلى مأرب توجد حصن الضيق، وذنة بالقرب من الخزان وعلى بعد خمسة أميال إلى اليمين من قمة دش وصرواح في أعلى وادي وذنة. وأسفل مأرب يرتبط توزيع المستوطنات بالمناطق التي يتوافر فيها السهل الفيضي العادي حيث تصبح أكثر انتشاراً في تلك الأماكن. وهذه المستوطنات تشمل شريف بن سعود، وحصن الأشراف (أهل عمير)، وحصن، وأهل طليب، وحصن الجلال، والحزمة، ورمزة (أهل سعد)، والجثوة (أهل جردان)، وسالم بن فهيد، وبجاش، وسريحي، وآل حتيك وأخيراً طهيل وهي آخر بقعة عند أسفل الوادي.

وخلف قناتي مياه مأرب تمتد أحزمة من الرمال الصفراء إلى الجملة والرضى المشرفة على وادي حريب وبلق وأويست وسهل ونلاحظ أن معظم آثار النشاط البركاني تتركز عند الجانب الشمالي لوادي أبراد. وساورني إحساس بأن تلك الحمم البركانية قد أدت دوراً في مأساة مأرب. وكما هو معروف فإن الأسطورة العربية تعزو انهيار سد مأرب إلى ما أحدثته الفئران في سدها العظيم حيث أصبح غير قادر على تحمل اندفاع مياه السيول الموسمية. وهناك بالتأكيد أدلة نقشية (كتابة) تشير إلى فترات تاريخية أجريت فيها إصلاحات في سد مأرب بواسطة العديد من ملوك سبأ وبصورة واضحة في فترة العهد المسيحي. ويبدو أن انهيار هذا السد الكبير نجم عن جائحة عظيمة. ومن المؤكد أن مأرب لم تغمر بطوفان اللابة البركانية مثلما كان عليه في

مدينة بومبي (إيطاليا)، ولكن كل من زار هذا المكان، استناداً على ملاحظات كل من أرنو وهالفى وجلاس^(١) الذين زاروا المدينة وسجلوا الكثير من نقوشها يميل إلى رأي مفاده أن انهيار المدينة (مأرب) والسد يعزى إلى زلزال. وثمة وجود براكين توجي بدورها بحدوث انهيارات في البنية التحتية لمنطقة السد في فترة زمنية غير معروفة على وجه اليقين. وفي المدينة لدينا دليل يقيني لحدوث انفجار بركاني مصحوب بانتشار واسع لحمم اللابة، ويعرف حتى الآن للعرب باسم لابات النار أو نهر النار، ويؤرخ إلى باكورة القرن الثالث عشر^(٢). وأخبرني أحد المسافرين في العصر الحديث بأنه قد جمع العديد من الصخور البركانية التي -من المؤكد- أنها ترجع إلى فترات تاريخية حديثة. ويعتقد الخبراء أن عينات الحمم البركانية التي أحضرتها من هذه المنطقة ومن وادي الحاضنة حديثة نسبياً لكن لم يحدد لها تاريخ معين. وكانت هناك قطعة صغيرة من الحجر الجيري، عثر عليها في هذا المكان، لا يوجد نوعها في المنطقة المجاورة لمأرب. ومصدر هذا النوع من الصخور الجبال البازلتية الواقعة بعيداً عن سد مأرب في هضبة خرخ الأيسر وهي دليل على أحدث تاريخ لهذه الحمم البركانية. وربما كانت هذه القطعة الحممية قد ارتفعت إلى قمة جبل خرخ بواسطة الانفجار الذي أدى إلى اندفاع اللابة إلى أعلى. وفي تقديري أن نظرية خراب سد مأرب بواسطة زلازل

(١) أرنو صيدلي فرنسي زار مأرب سنة ١٨٤٣م، وحصل على ٥٦ نقشاً، أما يوسف هالفى فهو يهودي زار اليمن سنة ١٨٧٠م وتزيا بزي يهود اليمن وتمكن من جمع ونسخ عدد من النقوش القديمة بلغت أكثر من ٦٨٦ نقشاً، أما أدورد جلاس فهو مستشرق نمساوي أستاذ اللغة العربية بفيينا قام بين عامي ١٨٨٢-١٨٨٥م بثلاث رحلات إلى اليمن كما قام بثلاث رحلات أخرى بين عامي ١٨٨٧-١٨٩٢م وجمع العدد من النقوش ونسخ الكثير منها.

وللتوسع حول الدراسات اليمنية القديمة انظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٨٥م، ص. ١١-٢٠. (المراجعون).

(٢) يعني المؤلف بذلك، البركان الذي حدث بالمدينة المنورة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، انظر عن هذا الحدث، الرحيلي «نار الحرة دراسة تاريخية» ضمن أبحاث الكتاب السنوي لقسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السنة الأولى، العدد الأول، ١٤٠٨هـ، ص. ٢٣١-٢٤٧. (المراجعون).

وبراكين تبدو معقولة لاسيما وأنها تستند إلى سند تاريخي قوي وهو أن البركان قد دمر الجزء القديم من المدينة في حين أن الزلازل قد وضعت نهاية للجانب الأحدث منها.

وفي كتاب " دليل البحر الأريتري " - نسخة و. هـ. سكوف، لكاتب مجهول الهوية من القرن الأول الميلادي، ص ١٥٩ - معلومات مثيرة عن الفينيقيين ذكرها المؤرخ جستن وأن سكان صور ينحدرون من الفينيقيين الذين هجروا موطنهم الأصلي بسبب حدوث بعض الزلازل وقطنوا في بعض الفترات في أرض مستنقعات في بابل (العراق)، ومن ثم هاجروا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث أسسوا مدينة اسمها صيدا - كلمة صيدا تعني السمكة في لغة الفينيقيين-. وبما أنه لا يوجد حتى الآن أي أثر لمركز حضاري فينيقي في البلاد التي يعتقد أنها الموطن الأصلي للفينيقيين ومنها هاجروا لسوريا عبر بابل بسبب الزلازل، لذلك تبدو نظرية أصل السبثيين أكثر ملاءمة لتفسير تنقلاتهم.

والاسم المعروف بالفينيقيين ما لم نربطه ببلاد بنت - كما يقترح سكوف يبدو كما لو أنه لقب للأقوام الذين عاشوا على سواحل الشام منذ أزمنة قديمة. وثمة إشارة هنا وهي أن العنقاء وهي اسم طائر الفينيقيين الخرافي الذي يبدو أنه قدم من الجزيرة العربية وكذلك شجرة النخيل والصنغ الأرجواني الذي كان شائعاً في التجارة الفينيقية؛ لذا يبدو من الجلي أن الفينيقيين عرفوا بهذا الاسم بسبب ارتباطهم بأحد هذه السلع. والاسم الأصلي لهؤلاء الفينيقيين يبدو أنه قد تلاشى بمرور الزمن ليعرفوا باسم الصوريين والصيداويين نسبة لأسماء دولهم الساحلية.

وهكذا نجد أن الفينيقيين قد ارتبطوا بشجرة النخيل وبالطائر العربي الخرافي وبفكرة حدوث هجرة من أوطانهم ناجمة عن حدوث الزلازل. ويقول جوزيفوس: تبعاً لأي سكوف أن أصل الفينيقيين يعود إلى ديدان أو دادان سنسلس بن رماح بن كوش. ويعد ديدان في تسلسل شجرة النسب في سفر التكوين أخ سبأ.

ومن المؤكد أن هذه مصادفات لافتة للنظر. وكما هو معلوم فإن معرفة الفينيقيين بالتجارة معروفة للقاصي والداني ولا تحتاج إلى حجج لإثباتها. وإذا كانت مصر هي أم الحضارة الإنسانية كما يزعم و.جي. بري في مؤلفه «ثو الحضارة» فإنه لن يمضي زمن طويل قبل أن تقيم علاقات تعاون مع جيرانها. ويجب أن تكون أهم احتياجاتها الذهب والتوابل وكلاهما سلعة عربية. فضلاً عن ذلك فإن تجارة العطور عن طريق القوافل البرية استمرت احتكاراً عربياً لفترة زمنية طويلة. وهذا بدوره أكبر حافز لتطوير وتنمية العلاقات التجارية مع الهند والأمصار الأخرى في الشرق بواسطة العرب. والباحث سكوف على رأي مفاده أن التجارة عبر المحيط الهندي بدأت بواسطة العرب وانتقلت إلى الهنود لاحقاً حيث أقاموا علاقات تجارية وطيدة مع الجزيرة العربية. ولعدة قرون اقتسم العرب والهنود احتكار هذه التجارة منافسين لكل من مصر ودول حوض البحر الأبيض المتوسط. ولو كان رأي سكوف عن الأصل الفينيقي للأبجدية البرافيدية مقبولاً فإن الحجة القائلة بالصلة القرابية بين التجار العرب القدماء بالفينيقيين تجد حظاً كبيراً من المصادقية.

وفيما يخص هوية كل من المعينيين والفينيقيين، فإن من المعلوم أن الهكسوس الذين حكموا مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة -القرن الثامن عشر إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد- ينحدرون من أصل عربي. ويميل الباحث سكوف إلى رأي مؤداه أنهم معينيون ويرجح رأياً للمؤرخ بليني بأن أرض المعينيين هي الطريق الوحيد لتجارة البخور عبر درب طويل ضيق، والمعينيون هم أول من طور تجارة البخور. والمعروف أن بليني يرى أن هناك إمكانية وجود علاقة بين المينوانيين في جزيرة كريت والفينيقيين الذين قطنوا في نهاية المطاف ساحل بلاد الشام مما يقوي الرأي القائل بأن المعينيين هم أسلاف الفينيقيين.

والبراكين التي وجدت في وادي سبأ قادتني إلى اختبار العديد من الفرضيات قبل الوصول إلى حكم نهائي لقصة سد مأرب. وحتى الآن كما أعلم فإن الرحالة

الأوروبيين الثلاثة الذين ذكروا آنفاً وهم أرنو وهاليفي وجلاسز لم ينبهوا إلى وجود وأهمية براكين مأرب. وثمة إشارة هنا وهي أن النشاط البركاني مستمر حتى يومنا هذا في اليمن لاسيما في المنطقة الممتدة بين صرواح ومأرب كما يدلنا على ذلك الباحث العربي نزيه مؤيد العظم الذي زار مأرب عام ١٩٣٦م في عهد الإمام. وبالرغم من أنه لم يجمع قطعاً من الحمم (اللابا) البركانية ولم ينوّه بأن هذه البراكين حديثة نسبياً، فإن مجرد ذكره للبراكين في هذه المنطقة مثير للاهتمام وجدير بالتقريظ. ويلزم التنويه إلى أنه أورد معظم تفاصيل أبنية مأرب بما في ذلك الأعمدة المستطيلة المصنوعة من الصخور البركانية البيضاء كما وصف أجزاء السد نفسه وذكر بأنها شيدت من نوع واحد من الصخر والذي دون شك هو الحجر الجيري كما بينا أعلاه.

وتجد أعمال هذا الباحث العربي نزيه مؤيد العظم الترحيب باعتبار أنها أول رحلة لمراقب كفء ومقتدر علمياً لمنطقة مأرب. ويلاحظ أن انتقاداته لتقرير الرحالة النمساوي جلاسز لها مسوغات منطقية. وما يدعو للدهشة أن العظم لم يكن مطلعاً على تقارير الرحالتين هالفي وأرنو وكلاهما أمدنا بمعلومات قيمة للغاية عن مأرب. وفي ذات الوقت تضمن تقريره قائمة مطولة لأسماء بعض المغمورين من الرحالة الأوروبيين الذين باءت محاولاتهم لبلوغ مأرب بالفشل بسبب اغتيالهم. ومن ضمن هؤلاء الأوروبيين الرحالة هرمان - بوركهارت. ويبدو أنه (العظم) كان ساذجاً لتصديقه لكل الروايات الشفاهية التي سمعها. فضلاً عن ذلك، فإن قائمته ضمت كل أسماء الضحايا الذين قاموا برحلات لليمن.

ولسوء الحظ فإن رواية العظم عن رحلاته نشرت بالقاهرة باللغة العربية وبالتالي ليست في متناول الأوروبيين من المهتمين بشؤون الجزيرة العربية. وفيما يخص أطلال مأرب يقول العظم بأنها تشمل أكواماً حجرية كثيرة مما يصعب دراستها وتحليلها بالتفصيل. ويذكر أن المنطقة المسورة ذات شكل مستطيل حيث يبلغ طولها ١٧٤٠ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧١٥ متر من الجنوب إلى الشمال. ونلاحظ أن قلعة مأرب

تتكون بشكل أساسي من أبنية حديثة نسبياً واستخدم في إنشائها مواد بناء قديمة في الطبقات السفلية وطفل (طين) في الطوابق العلوية. ويزعم العظم أن الأطراف الشرقية للمدينة برمتها تقع فيما يبدو داخل أسوارها. ولكن ملاحظتي الشخصية هي أن القلعة عند جانبها الغربي تقع أيضاً داخل أسوار المدينة. والجانب الجنوبي من القلعة تأثر بشكل واضح بالسيل في حين أن الجدران الشمالية والشرقية فضلاً عن بوابتين كانت سليمة كلها تقريباً.

وأورد العظم في تقريره معلومات عن أطلال معبد بلقيس والمدينة القديمة المعروفة باسم مدينة النحاس، وأطلال أخرى تسمى مروث. وكل هذه الأبنية تقع جنوب غرب مأرب وبينها وبين السد الذي يوجد على بعد عشرة كيلومترات من مأرب. ولم يجد العظم سوى آثار قليلة شاخصة للعيان في السد تشمل أحجاراً لبوابات التحكم في المياه التي تتدفق لتروي البقعتين المعروفتين باسم اللجنة الشمالية ونظيرتها الجنوبية. وتتضمن روايته مقولة أسطورية مفادها بأن وادي سبأ في الأزمنة القديمة كان مستزرعاً على امتداد المنطقة من مأرب إلى حضرموت. وكان أيضاً محمياً على امتداد هذه البقعة بأبراج مراقبة كانت تستخدم كخطوط تلغراف في ذات الوقت. ويذكر الكاتب (العظم) أن هناك سداً آخر إلى الشمال قليلاً من سد مأرب حيث يخدم وادياً ينحدر من هضبة هيلان. وهذا الوادي الذي لم يسمه العظم يبدو أنه وادي أبراد - وادي ذنة، أو وادي السد أو الوادي الأكثر قدماً وهو وادي سبأ. كان تعليق العظم على الرحلة الجوية التي قام بها الروائي الفرنسي أندريه مالرو بحثاً عن سبأ، مقتضباً لكنه قاسياً. وتقريره عنها نشره في عشر مقالات في مايو ١٩٣٤م في جريدة العنيد ولم تعجبني الصور التي نشرها عندما رأيتها لأول مرة. وتيقنت عندما رأيتها ثانية وصورة سبأ حية في ذهني، أن دعوى مالرو بأنه زار المكان وهو في طائرته، أمر لا يمكن أخذه بجدية. ومحاولته إعادة منظر المباني القديمة بمساعدة مهندس مختص أمر قريب من السخف. ليس هناك صورة واحدة من صورته يمكن

ربطها بمأرب. ولم ينشر مالرو خريطة توضح الطريق الذي سلكه. ونزبه العظم، الذي يمكن له أن يتحدث عن الأمر بموثوقية أكثر مني، لم يدع الشك في أذهان قرائه - بأن وصف مالرو لا علاقة له بالواقع الجغرافي والآثاري في مأرب.

وكتاب العظم نفسه^(١)، ينقصه خريطة الطريق ولم يكن دقيقاً في إعطاء ساعات السير. لكنه ذكر لنا أن مأرب تقع على مسافة ١٦٥ كيلومتر شمال- غرب صنعاء ومنه أخذ طريقه في اتجاه أعلى وادي السر حتى تقسيم المياه في ممر نقيط شجاع نحو ٨٢٠٠ قدم فوق مستوى البحر. كذلك لم يوضح بالتفصيل كيف سلك طريقه للوصول إلى صرواح العاصمة القديمة للحميريين على رأس أحد الأودية التي تجري هابطة نحو السد لتكون قناة سبأ. ولم يحدد بالتأكيد مكان وادي الجوبة ومعلوماتي تؤكد بأن هذا الوادي يقع جنوب مأرب وينبع وادي من الجبال مستقلاً، ويجري حتى السهل ليلتقي وادي سبأ بالقرب من مرتفع العلم الأسود. لا أستطيع أن أتحدث عن الجوبة بوضوح لأنني لم أزره. وهو واحة ذات أهمية ورفيقي حمد القردي كان حاكماً هناك حتى قبل سنوات قليلة. وعاصمة الجوبة تسمى جديد، ومن الواضح أنها مستوطنة حديثة تحوي السوق المركزي ومكاتب الحكومة. وأسفل المجرى منها توجد السوداء (ابن نمران) وديرة أهل مسعد، وفي أعلى المجرى يوجد نجا وفيها دفاعات أبشيل، ناصر بن زيد ومبارك بن زيد، وتأتي بعد ذلك البحري وضيقم وأخيراً حَسَم.

والى وقت قريب فإن حكومة اليمن مثل السلطات التركية في زمانها، لا تمسك بزمام الأمور في الأودية الشرقية، حريب والجوبة ومأرب ورغوان والجوف، وخب والتي تعد عملياً ذات استقلال ذاتي مع علاقة واهية مع السلطة اليمنية. وفي السنوات الأخيرة قام الإمام يحيى بمحاولات جادة لبسط نفوذه على تلك المناطق. وسيطرت

(١) خصص نزبة العظم الجزء الثاني من رحلته عن مأرب وأورد النقوش التي استطاع نسخها وعدداً من الصور للآثار التي قام بتصويرها. وقد طبعت هذه الرحلة. (المراجعون).

== الفصل الثاني عشر ==

قوات الحكومة اليمنية على مأرب بقيادة السيد عبدالله بن الوزير^(١) الذي كانت تحتل أسرته مكانة مرموقة في اليمن سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ م. وطلب من ابن الوزير أن يذهب إلى الطائف في ربيع ١٩٣٤ م للتفاوض بشأن معاهدة سلام بين اليمن والمملكة العربية السعودية لوضع حد نهائي لحرب الأسابيع الستة بين البلدين. وبعد ذلك أصبح حاكماً في اليمن محتفظاً بمكاتب رئاسته في مدينة الحديدة. وخلفه في مأرب التي يحكمها حالياً السيد محمد، الهجوة الكبسي. وكان أحد أعمامه قد حضر التتويج الملكي في لندن سنة ١٩٣٧ م ضمن الوفد الذي قاده سيف الإسلام حسين أحد أبناء الإمام يحيى. وتأسفت لأن الظروف لم تسعدني بزيارة السيد محمد. ولكن الملاحظ أن الفوضى السياسية والأمنية والتي كانت مستشرية قديماً في رغوان قد انتهت وحل محلها النظام والقانون. ولم تكن طبقة الأشراف القديمة في مأرب -بالتأكيد- راغبة في أن تصادر منها سلطتها التقليدية والتي لم تظهر أي مقدرة في ممارستها بصورة ناجعة لبسط القانون والنظام. وأحد هؤلاء الأشراف زار مكة لأداء فريضة الحج عام ١٩٣٧ م وبدون شك ليبحث أيضاً عن دعم سعودي لسلطته. وجاء هذا الشريف ليعاتبني لأنني لم أهيم له فرصة للالتقاء بمجموعتي بغية أن يقدم لنا واجبات الضيافة في مأرب. وأخطرتني أيضاً أن أحد أسلافه وهو الشريف خالد كان قد عين

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمد الوزير (١٣٠٧-١٣٦٧هـ) بدأت خدماته في دولة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين سنة ١٣٣٤هـ قاضياً في ذمار ثم تتابع توليه المناصب السياسية والعسكرية المختلفة وحاز على ثقة الإمام، ثم انضم إلى تنظيم الأحرار المعارض للإمام الذي دبر عملية قتل الإمام يحيى سنة ١٣٦٧هـ، أعلن بعدها عبدالله بن أحمد الوزير توليه مقاليد السلطة في اليمن وتسمى بالإمام الهادي، ولكنه لم ينعم بها كثيراً حيث استطاع ولي عهد الإمام المقتول (حمد بن يحيى) استعادة السلطة ونفذ حكم الإعدام في أعضاء تنظيم الأحرار وبدأ بعبدالله بن الوزير في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧هـ. وللتوسع في تلك الأحداث انظر: الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج١، ص ١٩٦-٢٠٧، ج٢، ص ٨١٧-٨٥٤، ج٣، ص ١٦٩٦-١٧٣٧. (المراجعون).

أميراً بواسطة الوهابي الكبير سعود^(١) في القرن التاسع عشر. وأعتقد أنه شريف النسب من الفرع الحسيني، واسمه بالكامل ولقبه هو الشريف محمد بن عبدالرحمن ابن محسن بن أحمد بن علوي بن خالد - وهو أول أمير في عشيرته - ابن حسين بن محمد. وختمه الذي يتعامل به هو «الشريف حسين بن محمد بن عبدالرحمن، أمير مأرب». وما حدث لهذا الشريف تكرر بالنسبة لأمرء عائلة القردعي في الجوبة وحريب وأبناء حمد وعلي الذين فقدوا سلطاتهم بسبب التطهير الذي طال الفوضى في تلك البقاع. والآن أصبح للإمام عدد من المسؤولين المحليين من أمرء وقضاة في تلك الأماكن بما في ذلك الجوف.

أمضينا ساعتين في قمة جبل خرَجَ لمعرفة الظواهر العامة للمناطق قبل أن نستأنف المسير. وبعد أخذ بعض العينات للحمم البركانية واصلنا المسير مسافة ١٥ ميلاً إلى طرف المسجد قبل أن نتوقف لأداء صلاة العصر. ومن ثم اجتزنا مسافة ستة أميال حتى وصلنا عدوان، دخلنا بعدها أرضاً حصوية وبعد فترة قصيرة وجدنا أنفسنا في بقعة رملية لكنها لم تشكل عائقاً في طريقنا. وبعد أن توقفنا لبعض الوقت لأخذ بعض القراءات المساحية ومعرفة الاتجاهات توجهنا نحو الجنوب حيث وصلنا إلى خربة أبي السعود، ومن ثم عدلنا اتجاهنا ناحية الشمال وبعد مسيرة ٧-٨ أميال من عدوان. والآن الساعة الرابعة مساءً وقد قررت أن نقضي ساعتين قبيل الغروب لتفحص الأطلال قبل أن نلتقي برفاقنا من قافلة الجمال عند بئر مسعودة الواقعة على بعد نصف ميل من موقعنا الحالي وغرب وادي الماس، وفي المساء كنت سعيداً لأخلد للنوم بعد نهار عمل مليء بالنشاط ولكنهم نادوا عليّ لمباشرة أحد مشاكلنا اليومية. وتبين لي أن كل المخزون من التموينات قد نفذ فجأة. وتساءلت كيف يقوم سعد بن معيلم بتبديد تموينات تكفي لمدة ثلاثة أسابيع في خلال أسبوع واحد مما جعلني

(١) المقصود: الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

أتشكك في نزاهته وفي كفاءته، ولكن علينا إيجاد الغذاء لبقية الرحلة؛ ولهذا قررنا أنه بعد العشاء أو في الصباح الباكر أن يذهب ابن مدعار إلى أسداس -إحدى القرى في وادي رغوان- ليأتي بما يمكن أن يحصل عليه. وفي الواقع لم يجد شيئاً هناك فذهب إلى خربة آل جدعان حيث أحضر منها التمر وحبوب القمح، وكذلك تحذيرات الأهالي هناك بأنهم لا يريدون رؤية وجوهنا. ولم يتبق لنا سوى قليل من الأرز في السيارة ونفذ كل ما عندنا من اللحوم لذلك ليس هناك ما يدعو للتذمر من الجوع طالما بددنا كل مخزوننا الغذائي.

وفي الصباح الباكر أخذت حماماً ساخناً واستبدلت ملابسي داخل تعريشة شكلت بواسطة شجيرات الأثل المتشابكة. وبعدها قمت بعمل مسح طبوغرافي ودراسة لوضع رحلتنا وطبيعة المناطق التي حولنا وعلى بعد ١٠٠ ياردة من المكان الذي أقف فيه عند قاع وادي مسعودة تقع بئر مسعودة الوحيدة وهي ذات فوهة واسعة خالية من أي دعامات حجرية وتصل إلى عمق أربع قامات. والحصول على المياه هنا يعتمد بصورة كلية على مياه السيول الموسمية أو ما يعرف بالكارة. ويجري الوادي باتجاه شمال شرق - جنوب غرب في هذه البقعة ويحد على الجانبين بضفاف رملية تكسوها بصورة مكثفة نباتات الأثل والراك والحرملة ونباتات أخرى. وينبع ذلك الوادي من مرتفعات حجاز أهل جدعان، وهي أرض تدخل في حوزة قبيلة نهم التي تعد جدعان أحد فروعها، وفي الطريق في اتجاه جنوب غرب تتصل أرض نهم بوادي حلحلان وهو اسم ورد في النقوش الحميرية التي جمعتها من هذه المنطقة بالقرب من مرتفعات عقشة حيث تعبر إلى وادي الجوف، ووادي رغوان نفسه -يسمى أيضاً وادي مخينيق- يأتي عبر ممر بين مرتفعات هيلان وجدعان حيث يمر بالجانب الأيمن من خربة آل جدعان.

وأسفل هذه المنطقة ينقسم وادي رغوان إلى فرعين رئيسيين (أو جنوباً) بواسطة قرية أسداس على جانبها الأيسر، ثم يدور بين الدريب وخربة أبي السعود حيث

يتصل بفرعه الشمالي الذي يمر عبر أطلال الفضية -عند جانبه الأيسر- والسحيل إلى الدريب على جانبه الأيمن. وكل هذه المنطقة تغطيها الأودية التي تكون دلنا عظيمة كانت في الأزمنة الماضية -اعتماداً على التحكم في مياه السيول بواسطة السدود- تشكل أرضاً زراعية واسعة تتخللها العديد من القرى. وتحولت الآن إلى أرض جرداء مقفرة تغطيها الكثبان الرملية التي تتخللها بعض البقاع الحصوية وإن كان وسطها لا يزال يمارس فيه بعض الزراعات البدائية. وثمة إشارة هنا وهي أن مستوى المياه الجوفية ضحل على مقربة من سطح الأرض ويمكن حفر الآبار دونما عناء. ويلاحظ أن السكان الحاليين للمنطقة قد فقدوا مقدرة أسلافهم في السيطرة على مياه السيول الموسمية والعنيفة أحياناً وياتوا يعتمدون في معيشتهم على الحبوب وحليب الأغنام والضأن. والشيء الوحيد الذي توارثوه عن أسلافهم هو الكرامة وعزة النفس.

وعلى مسافة قريبة إلى الشمال الغربي تقع سلسلة من الروابي المنخفضة تسمى النادر تشكل الحدود بين منطقة رغوان ومستوطنات وادي الجوف. وقد طلبت من ابن هضبان أن يرشدني إلى هذه الروابي لإلقاء نظرة على الجوف كما فعلنا من قبل في مأرب. وهذه المنطقة تستوطنها مجموعات بدوية. وأخطر ابن هضبان أن هناك جزءاً من قبيلته يجوب الآن هذه المنطقة. وكان لا يستطيع نسيان أن أحد أبنائه محتجز بواسطة الإمام في صنعاء مثل أبناء بقية زعماء العشائر في منطقة الأودية الشرقية. وذلك كضمان لاستمرارية ولائهم للسلطة المركزية. ولكن ابن هضبان لم يكن خائفاً من أن يقول الحقيقة في أنه يد يد العون إلى رجل (فيلبي) يتجول في هذه المنطقة. لذلك كان عليّ الاقتناع أن ما أشار إليه ابن هضبان هو حوض معين حيث توجد بعض قراه التي كانت يوماً ما مدناً عظيمة مثل الحزم وغيل ومتمة وغيرها.

ورافقني ابن هضبان في جولة تفقدية لأطلال مواقع رغوان حيث قضينا يوماً ممتعاً هناك. وبدءاً من مخيمنا وباتجاه المرتفعات الواقعة إلى أقصى الشمال من هيلان، عبرنا أرضاً زراعية صغيرة تقع في منخفض يبدو موقع مياه خلفي منعزل لوادي

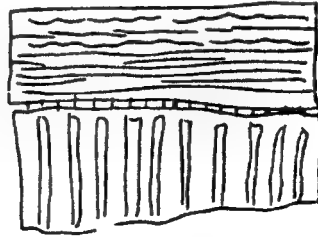
رغوان . وعند المنحدر الصخري عند أقصى هذا الوادي وجدنا مبنى ضخماً منعزلاً مبنياً بأحجار خشنة غير مشذبة (دبش). ويتكون من قسم كبير وأجزاء أخرى صغيرة الحجم . ولوحظ أن ثلاثة مداميك فقط من البناء الحجري ما تزال شاخصة للعيان . ويشغل البناء برمته مساحة قدرها اثنان وعشرون قدماً وربما كان مخفر شرطة لحماية أمن الأرض الزراعية أسفل الوادي . ولم نعث على أي نقوش في المبنى الذي يعرف باسم «الديرة» أو «ردم الديرة» .

وبعد مسيرة ميل إلى الأمام من موقعنا وعند أعلى رابية بين هذا البناء والجانب الأيسر للوادي ، دخلنا قرية كبيرة الحجم مهجورة وهي عبارة عن أطلال . وتبدو هذه القرية كما لو أنها كانت مأهولة بالسكان إلى عهد قريب . هذه القرية - كما أخبرت - تسمى الفاضية هجرت مثل قرية الدريب التي تقع عند أقصى أسفل الوادي . وعلى مقربة من هذه المستوطنة وجدنا بعض الرجال والنساء يسقون خرافهم وقد أبدوا امتعاضاً من وجودنا . ومباني هذه القرية مستطيلة الشكل بنيت من كتل حجرية غير مشذبة (دبش). وفي أحد الأركان الحجرية للمبنى الضخم يوجد حوض ضحل يضيوي الشكل يبدو أنه نحت في وقت قريب ليكون خزاناً لحفظ المياه . ويجدر التنويه إلى أن المستوطنات الزراعية في رغوان باستثناء خربة آل جدعان تتبع إلى أقسام مختلفة، دهم وآل مروان وآل شداد وهمدان من عشيرة ابن هضبان .

ومن هذا المكان (رغوان) يمكننا بسهولة رؤية أسداس المدينة الرئيسة لعشيرة دهم وهي تقع على بعد ميلين إلى جهة الجنوب الشرقي . وتحتوي هذه المدينة على منازل عادية ليست قديمة . لذلك قصدت أن لا أقف عندها واتجه فوراً نحو السحيل التي تقع على بعد ميل من موقعنا ويتوجب علينا عبور بعض المجاري المائية قبل بلوغها . وبصورة عامة فإنها تشبه خربة أبي السعود . وهي ذات شكل يضيوي وجدرانها الدائرية ما تزال سليمة وشيدت من كتل حجرية مشذبة من الحجر البازلتي الأسود . وتقع أطول محاورها موازية للوادي تقريباً باتجاه شمال شرق - جنوب غرب . وهناك

أثر لحنق كان يحيط بهذا الحصن؛ لذا يمكننا القول إنها قرية محصنة على جوانبها الثلاثة. وفي الركن الجنوبي وعلى امتداد الجدران المكونة للحصن فإن الرمال تغطي هذا البناء بشكل منحدر بحيث يتعذر رؤية المداميك السفلى. والملاحظ أن المخطط العام للجدران بجوانبها الأربعة بسيط ومسطح مع وجود زوائد مستطيلة موضوعة بشكل فواصل تبرز للأمام بحوالي ثلاثة أقدام من المخطط العام للبناء. ونجد أن الجدار الشمالي الشرقي متآكل بسبب الأمطار. ويبدو أن البوابة الرئيسة للحصن تقع في هذا الجانب. وعلى أية حال، فإن المبنى متهدم ومتآكل إلى حد بعيد بحيث يصعب إعطاء فكرة عن التركيب البنائي. ولكن نلاحظ أن أبرز مظاهر هذا البناء أربع لوحات تذكارية منقوشة بنقش واحد متكرر وموضوعة في وسط كل جدار من جدرانه، والنقش يسجل اسم صاحب البناء واسم المبني (أحد مكارب سبأ) واسم المكان، حرب (الاسم الحديث حريب جنوب مأرب). والجزء الداخلي لهذا الحصن يتكون من كتل من الأطلال دفنت في أكوام من الرمال. والعديد من هذه الأبنية تم تسقيفها وإصلاحها حيث استخدمها الرعاة والمزارعون في الأزمنة الحديثة، لكن من المستحيل -دون حفريات- إعطاء صورة صحيحة عن مخطط البناء القديم. وفي الجانب الشمالي الغربي لهذه الأبنية تشنت الكسر الفخارية وكتل خبث الحديد مما يوحي بوجود ورش في هذا المكان لإمداد سكان الحصن باحتياجاتهم من الأواني. وبما لا ريب فيه أن السحيل وخربة أبي السعود مستوطنات عسكرية بنيت بهدف الدفاع عن هذه المنطقة التي تعد الخط الأمامي لمملكة معين. ويوحي وجود هذه الحصون بحالة من عدم الاستقرار في الفترة التي كانت فيها سبأ القوة الصاعدة في الجنوب تهدد دولة معين، وبعد قرن أو نحوه دان لها الأمر. وربما يرجع تاريخ الحصنين إلى حوالي ١٠٠٠ ق.م. وبما أن حصن السحيل قد بني بواسطة مكرب سبأ، فرمما يوحي ذلك بأنه كان عبارة عن قاعدة عسكرية حدودية أكثر من كونها جهازاً دفاعياً في دولة معين.

وفيما يخص المنطقة حول السحيل وخاصة الجزيرة التي تكوّنت بفعل التقاء مجرى الوادي؛ تمتد بقعة واسعة من الرمال والترسيبات النهرية مما يوحي بوجود أراض زراعية واسعة قديماً، استمر السكان الحاليون في استزراعها ولكن بصورة غير متقنة ويعورها التنظيم. ودون ريب فإن التلال الحجرية في هذه المنطقة عبارة عن بقايا مساكن فلاحين أو أبراج مراقبة لحماية المحاصيل الزراعية من النهب.



وعلى مسافة تصل إلى حوالي الميل من موقعنا، تقع قرية الدريب التي نتجّه الآن نحوها عبر طريق رملي في الوادي. ومن الجلي أن قرية الدريب كانت مأهولة بالسكان في الأزمنة الحديثة. وأخلت هذه القرية نتيجة لانحسار السيول كما نوهنا لذلك آنفاً. وعلى أية حال، كان هذا المكان هاماً جداً في الأزمنة الماضية ومعظم أبنية هذه القرية مدفونة بكامل هيئتها تحت الطوابق العليا للمباني الطينية الحديثة. وفي معظم الحالات فإن الألواح والكتل الحجرية للمباني القديمة أعيد استعمالها لبناء أساسات المباني الحديثة التي تتكون من عدة طوابق على هيئة حصون. ويرجح أن يكون هناك معبد ذو أهمية عظيمة هنا، لاسيما وأنا عثرنا على إطار من حجر الرخام عليه نقش عند أعلى أحد مداميك الجدران القديمة الجيدة البناء والتي شيدت لتدعم الغرفة العليا التي بنيت من الطين. ويلاحظ أن هناك عدداً كبيراً من الألواح الحجرية الكبيرة التي تحوي نقوشاً استخدمت دون استثناء في بناء المساكن الحديثة. ولا يوجد

أي دليل على وجود جدار محيط بالمبنى وربما كان غير موجود ألينة في نظام البناء في هذا المكان. وتقع القرية عند تل مرتفع على الضفة اليمنى للوادي (السحيل) بعيداً بعض الشيء عن النقطة التي يلتقي فيها فرعاً الوادي. ويبدو أن الطبيعة المقدسة للمبنى كمعبد قد قللت الحاجة إلى تحصينه. وتشير النقوش التي بحوزتي إلى أن الاسم القديم لهذا المكان هو «كتل»، ويعني هذا الاسم حديثاً البيت (الصغير). وعلى الجانب الشمالي من المبنى توجد جبانة عربية تضم قبوراً ضحلة، وأعلى هذه القبور متآكل بفعل الزمن مما أدى إلى ظهور بعض الهياكل التي تغير لونها في بعض الأحيان. والموقع مغطى بالكسر الفخارية على هيئة أكوام نفايات كبيرة في المنطقة التي تقع بين القرية والجبانة.

والوصول إلى خربة أبي السعود من هذه المنطقة يتطلب اجتياز عقبة الكثبان الرملية المغطاة بالشجيرات الشوكية. وتبلغ المسافة إلى هذا الحصن الكبير خربة أبي السعود حوالي المليون باتجاه الشمال الغربي. أما حصن السحيل الذي تعد مبانيه سليمة نسبياً مقارنة بخربة أبي السعود فيبدو أنه مكتف ذاتياً ومسور حيث تحيط به أربعة جدران. وبالنسبة لخربة أبي السعود فيمكن القول إنها عبارة عن قلعة لمدينة واسعة يصعب تحديد أبعادها بسبب الكثبان الرملية الكثيفة التي تغطي أطلالها. ومن المحتمل أن المدينة كانت غير مسورة وتمتد حوالي نصف الميل من القلعة إلى رابية منخفضة باتجاه الغرب والتي دون شك تشكل درعاً واقياً للمدينة من السيول. والجوانب الشمالية والجنوبية - كما يبدو - غير محمية وتظهر للعيان كلياً أو جزئياً بعض أجزاء من المباني وكسر لالواح حجرية مخلفة. وفي الجانب الشمالي توجد جبانة عربية حديثة مغطاة بالرمال. وبينما كنت أتفحص أجزاء المدينة لفت انتباهي أحد المرافقين نحو شاهد قبر دفن ثلاثة أرباع أجزائه داخل الرمال ويبدو مربع الشكل، قصيراً وعليه نقش حميري. ولم أكن أود نبش القبر لأن هذه المسألة - بالنسبة للعرب مثل بقية الشعوب الأخرى - حساسة. لذلك ألححت إلى الرجل بأنه إذا استطاع أن

يحضر لي شاهد القبر في الخيمة سوف أعطيه ريالاً. وفعلاً أحضر لي شاهد القبر ليلاً والآن يقبع داخل المتحف البريطاني. ويعد نقش هذا الشاهد هو الوحيد الذي وجد خارج القلعة. ولكن قمت بنسخ العديد من النقوش سواء تلك التي وجدت على الأبواب الخارجية أو في العديد من الأطلال داخل المبنى والتي سوف أقدم وصفاً لها في الوقت المناسب.

وتبعاً للنقوش التي بحوزتي، فإن اسم هذا المكان هو يلت (YLT) -قارن إيلات، بالقرب من أزيون جبر في خليج العقبة-. واسمها الحديث هو أطلال سعود نسبة إلى الروايات المحلية التي ترجعها إلى أيام سعود الكبير الذي اجتاحت جيوشه الوهابية كل هذا القطر في العقد الأول من القرن التاسع عشر. وتجدر الإشارة هنا إلى عائلة من الأشراف في مأرب يبدأ اسمها بـ "ابن سعود". ويبدو أن هذا الاسم المسبوق ببادئة (ابن) تدل على النسب قد أعطي على شرف ذلك العاهل (سعود الكبير) في الزمان الماضي. وأنوه هنا إلى أن الفرد العربي سريع في تبني الأسماء الشائعة في زمنه لأطفاله. ومثال لذلك الاسم (فيصل) حيث إنه اشتق أصلاً من اسم أحد رجال العائلة السعودية الحاكمة ومن ثم أصبح شائعاً في الوقت الحاضر كتقدير وإجلال إلى ملك العراق الأول. والاسم (لورنس) كان يعد موضة لدى عرب ما وراء نهر الأردن^(١). وهناك أيضاً اسم فيليبي -أو كان لأنه لم يعيش طويلاً-، في نجد وحتى أسماء مثل كاماندر (القائد)، متر (سيارة) مألوفة^(٢).

(١) لورنس هو المعروف بـ «لورنس العرب» وهو أحد رجال المخابرات البريطانية الذين عملوا في البلاد العربية وكان وراء تأجيج الثورة العربية ضد الدولة العثمانية وللمزيد عن حياته وأعماله انظر:

لورانس في البلاد العربية، من تأليف ريتشارد الدغتون، ترجمة محمود عزت موسى مراجعة محمد أنيس، الدار المعربة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م. (المراجعون).

(٢) لم يشتهر في نجد ولا في غيرها من البلاد العربية أن تسمى أناس باسم فيليبي، وإنما اشتهرت أسماء مثل لورنس في شرق الأردن، وذلك راجع إلى أن هذا الاسم ومن تسمى به تجمعهم عقيدة واحدة وهي النصرانية، وإن تسمى به بعض المسلمين، فعن جهل منهم. (المراجعون).

تركت وصف قلعة خربة أبي السعود إلى نهاية هذا الفصل لأنها أهم مبنى أثري في منطقة رغوان وإلى حد ما لأنها الموقع الذي استطعت أن أقوم بفحصه بدقة في ليلة وصولي وعند نهاية اليوم الثاني لزيارتي لهذه المنطقة. وكما ذكرت سابقاً فإن هذا المبنى يقع وسط بحر من الرمال حيث تصل موجات هذه الرمال إلى جوانب جدران المبنى. وفيما عدا أماكن قليلة، فإنها تغطي المداميك السفلى للبناء المشيدة بحجارة البازلت السوداء. وكل حدود المبنى الخارجية كانت ظاهرة للعيان بالرغم من أن هناك العديد من الأقسام كانت تالفة ومتآكلة بصورة كبيرة سواء بواسطة الزلزال الذي يبدو أنه صدع الجانب الداخلي للمبنى أو بواسطة الإنسان أو بواسطة السيول، كما ينعكس ذلك في معظم الجزء الشرقي من الجدران. والحصن ذو شكل غير منتظم، يبلغ ارتفاع جداره الشمالي الغربي ٤٠٠ قدم رابطاً الركنين الشمالي والغربي للبناء. وعند الركن الشمالي للبناء يوجد جدار يبلغ ارتفاعه ٤١٠ أقدام يمتد باتجاه الجنوب الشرقي مع ميل قليل باتجاه الشمال. وبحوالي ١٠٠ قدم من هذا الركن نفسه، توجد البوابة الرئيسة للحصن والتي يبلغ عرضها أربعين قدماً، وهي الآن مجرد فجوة في الجدار دونما أي إيماء تشير إلى أنها كانت بوابة أو ملاحق لها. والجدار الشرقي يمتد باتجاه جنوب - الجنوب الشرقي لمسافة ٢٨٠ قدماً ثم باتجاه جنوب - الجنوب الغربي لمسافة ٣٢٠ قدماً ناحية الركن الجنوبي للبوابة.

والبوابة الثانية عرضها عشرة أقدام وتقطع الجدار عند ارتفاع ٩٠ قدماً من الركن الغربي وتشرف على البوابة الرئيسة التي ترتبط بها عن طريق شارع فسيح. وكما هو الحال في السجيل، فإن أقسام الجدار تقف خارج الخط العام لمحيط المبنى على هيئة فواصل موزعة على مسافات قصيرة وبعمق ثلاثة أقدام بحيث تسمح للجنود برمي منتظم للنار من أي نقطة. ويمكن القول استناداً على المؤشرات البادية للعيان إن الجدار الدائري حول المبنى يصل ارتفاعه ٢٠ قدماً ويستكون في معظم أجزائه من ١٦ مدماكاً من الأحجار الجيدة القطع الموضوعة بشكل متقن بالرغم من أن بعض أجزاء البناء

مشيدة من حجارة رملية غير مشذبة (دبش). ومعظم المباني العامة داخل الحصن مبنية من هذه المادة نفسها. وهذا المبنى لا يحوي أي شيء يمكن أن يقال: إنه يشكل أجزاء ناتئة أو أبراج تزيينية في محيطه الدائري. لكن يلاحظ بالجدار الغربي للمبنى قرب الركن الشمالي ممر يحيط به سور متهدم. ويبلغ عرض الممر ثمانية أقدام ويقود للدخل بمسافة ٥٠ قدماً. ويصعب التكهن بمعرفة الهدف من هذا الممر ولكن ربما كان مرتبطاً بحجارة حراسة، ويستخدم للدخول وخروج فرق الحراسة في الأوقات التي تكون فيها البوابات مغلقة. ولا نستطيع الجزم عما إذا كانت هناك بوابة ثالثة عند زاوية الجدار الشرقي بسبب الوضع الحالي لأطلال المبنى. ويبلغ السمك العام للجدار الدائري حوالي أربعة أقدام. وعثرت على ثلاثة نقوش على الجانب الخارجي لهذا الجدار في نقاط مختلفة، ويبدو أنها ليست في وضعها الأصلي.

لقد ذكرت سابقاً الطريق الرئيس الذي يربط بين البوابتين في خربة أبي السعود. ويلاحظ أن البوابة في الجانب الشمالي ذات فتحتين وبحالة سليمة. وهناك طريق ثان يبدو أنه يمتد من هذه البوابة بميلان عبر الحصن يحتله تل كبير الحجم يوحي بأنه موقع للحراسة. وعلى جانبي هذا التل توجد آثار طريق ربما كان حلقة الوصل بين هذا المكان والبوابة الشرقية من جهة والبوابة الغربية من الجهة الأخرى رغم أن الطريق الأوسط في الحصن يبدو مغلقاً بواسطة رديم أطلال المباني. ولا يستبعد أن يكون هناك طريق ثالث يبدأ من الركن الجنوبي للبوابة الرئيسة ليكمل حلقة المواصلات داخل الحصن. ويوجد كوم من الرديم يحتل المساحة في الركن الجنوبي للحصن وربما كان بيتاً للحارس. وعلى جانبيه علامات شارع ربما يوصل هذه النقطة بالمدخل الشرقي من جهة والمدخل الغربي من جهة أخرى. هذا بالرغم من نظام الطرق الداخلية في وسط الحصن قد طمرته رديم المباني المهتمة.

باتجاه شمال الركن الجنوبي توجد كتلة من الرديم تنحدر من الجدار الغربي باتجاه الطريق المتجه شمالاً. وعند منعطف الجدار الشرقي توجد كتل ضخمة من الرديم

وأخرى كبيرة من الحجر الصابوني تدعم الفرضية القائلة بوجود بوابة في هذه الجهة في حين أن هناك مجموعة من المباني الهامة المشيدة بالحجر الرملي توجد في الركن الذي يكوّنه التقاء كل من الجدار الشرقي ونظيره الغربي. وأكبر هذه الأبنية يبلغ ٤٠ قدماً طولاً و ٢٥ قدماً عرضاً مع وجود تنوء ضيق باتجاه الغرب، في حين أن المبنى الأصغر ينتصب في الزاوية التي تشكّلت مع هذا البروز. ويصعب الإجابة على السؤال عما إذا كانت هذه الأبنية الناتجة عن الجدار الدائري ذات أغراض دفاعية أو أن لها أهدافاً أخرى، وما عدا بعض هذه المباني الموجودة والكميات الكبيرة من كسر الأواني الفخارية والمعثورات الأخرى التي تشمل الهاونات والأحواض الحجرية، فإن الجزء الجنوبي من الحصن يخلو بتاتاً من أي مظاهر حضارية ذات أهمية.

والقطاع الشمالي الغربي من الساحة التي تحيط بها الجدران يعد أهم أجزاء المبنى حيث يقع بين البوابتين الرئيسيتين. وفي الجانب الغربي من الطريق -والذي يقع باتجاه جنوب غرب - شمال شرق- هناك من يفترض وجود مخفر حراسة. وفي الجانب الآخر بين الركن الغربي والبوابة الغربية ينتصب بناء حجري ضخّم طوله ٢٠ قدماً وعرضه ١٠ أقدام. وما عدا هاتين المجموعتين لا توجد منشآت غرب الطريق. لكن نلاحظ أن الفضاء بين هذا الطريق والجدار تغطيه كميات ضخمة من الألواح الحجرية والهاونات والكسر الفخارية وغيرها. وعند البوابة الغربية نفسها وداخل الجدار يوجد بناء من الحجر الجيري يوحى بوجود مبنى ذي حجم متوسط مع ألواح حجرية طويلة. وفيما يبدو أن هذا البناء يمثل بقايا بوابة كانت ذات أبعاد كبيرة. وفيما يخص البوابة الرئيسة لا توجد آثار شاخصة تدل عليها سوى فتحة ما تزال فسجوتها موجودة. ومن هذه النقطة تمتد مجموعة من التلال وأطلال حجرية على امتداد الجانب الشرقي من الشارع الرئيس بدءاً من كومة ردم صغيرة عند ملتقى الشارعين تؤدي إلى البوابة الشرقية والركن الجنوبي على التوالي. وعند هذه البوابة (الشرقية) يوجد هاون كبير من الحجر الرملي مهشم. وتوجد مباشرة خلف هذا الركام -وفي الزاوية التي تقع بين

== الفصل الثاني عشر ==

الجانب الجنوبي والشوارع الرئيسة- كومة صغيرة من الرديم يقبع خلفها تل تتناثر فوقه كسر فخارية حول حوض ضخم أو صهريج مياه من الحجر الرملي منشطر إلى قسمين. وبعيداً عن ذلك وباتجاه البوابة الغربية توجد العديد من التلال التي سأرجع لوصفها لاحقاً. وعند البوابة الغربية نفسها وعلى جانبها الجنوبي بالقرب من الجدار، توجد أطلال منشأة حجرية ذات واجهة يبلغ طولها ٢٠ قدماً على امتداد الطريق وعرضها ١٠ أقدام.

عند مغادرتي خربة أبي السعود عند نهاية المسح الذي أقوم به لمنطقة رغوان، سوف أترك وصف مبانيها العظيمة ليتضمنها تقريرى النهائي عن الأطلال. ومن بين العديد من التلال التي ذكرتها عرضاً، هناك معبد يلت الضخم (YLT Temple). وهذا البناء في الوقت الحاضر عبارة عن أطلال حجرية متناثرة ويبدو أنه قد تهدم بواسطة زلزال. ولا يزال هذا المبنى يحتفظ ببعض جماله وجاذبيته القديمة رغم أن أعمدته ومذابحه قد تناثرت على هيئة كسر وشظايا. وأعمدة هذا المبنى مربعة الشكل قطعت بنفس طريقة بناء سد مأرب وما جاوره من الأبنية. ومعظم بقايا هذا البناء من الحجر الجيري الأبيض اللامع الذي يشبه الرخام. وهذه الأعمدة الشاخصة للعيان يتراوح طولها بين ٨-٩ أقدام وأطولها يصل إلى ١٠ أقدام. والعديد من هذه الأعمدة تحمل نقوشاً معظمها مشطاه بسبب انشطارها. وهناك قطعتان من الحجر الجيري إحداها عليها نقش، وكلاهما قد يكون الطبقة العلوية التي كانت ذات يوم تحملها الأعمدة التي يبدو أنها ضعيفة ولا تحتل وزن تلك الكتل الحجرية التي يتراوح سمكها بين ١٥-١٨ بوصة. وكنت في ذلك الحين على رأي مفاده أن تلك الكتل الحجرية الضخمة عبارة عن مذابح حجرية رغم أنه لا يوجد أي دليل من مظهرها العام يؤيد هذه الفرضية. وبقية مباني المعبد مشيدة من الأحجار الجيرية لكنها صغيرة الأحجام. والتل برمته مغطى بكسر فخارية وخلخيل وقطع زجاجية وخرز وما شابه

ذلك . ويبدو أن المعبد لم يكن ضخماً ولكنه كان عبارة عن جوهرة من البهاء والجمال وسط الأبنية المدنية للحصن .

ورجعت إلى المخيم بعد مغيب الشمس منهكاً من جراء المجهود الذي بذلته في فحص الحصن (القلعة) والأطلال المكسوة بالرمال التي تحيط بها . ولقد كنت حزينا؛ لأن مرحلة من مراحل بعثتي (مهمتي) قد انتهت . وفي الغد سنرجع إلى موطننا عبر نجران بعد انقضاء شهرين مليئين بالإثارة وسنقول وداعاً، وداعاً إلى الأبد لسبأ .

ارتفعت أصوات الحزن من فضاءات الرمال البعيدة

شاحب وأخرس . . . ثم مرة أخرى وداعاً

ملقى في القبر مثل ضباب ساكن - وداعاً

وبينما كنت أقوم بتخزين الموجودات التي عثرت عليها في يلت (YLT) والمناطق المجاورة لها، بدأت أتأمل في ذكريات وأحداث الشهرين الماضيين المليئة بالإ إنجازات وذلك منذ مغادرتي نجران إلى عالم غير معروف يتوق للشهرة من خلال النزاع والشغب . وقد جئت إلى هذا العالم بالكثير من الأصدقاء لنقر بكلمة شكر، لا لنبدي ملاحظة خصام عن عدن الصاخبة .

لقد حققت هذه الرحلة نجاحاً عظيماً، وهنا سوف أقضي آخر ليلة لي في هذه البقعة التي لم يرها أوروبي سوى مرة واحدة . وكنت قد أخذت معي في هذه الرحلة تقرير هالفي عن رحلته في بلاد سبأ ونسخاً من نقوش هذه المنطقة . وضمن هذه النقوش توجد العديد من الكتابات التي توجد بها عبارة خربة أبي السعود . ولكن بعد اطلاعي على تقريره الخاص عن الطريق الذي سلكه عبر منطقة رغوان، شعرت في الحال أن ما كتبه هالفي بجانب الصواب . وما لا شك فيه أنه قد عبر هذه المنطقة من الجوف إلى مأرب وشاهد العديد من المواقع والأطلال الأثرية وجمع منها الكثير من النقوش . وأحد هذه النقوش يذكر اسم فاثيا Fathia - والذي افترض أنه يطابق اسم الفاضية Fadhiya المذكور أعلاه - وخربة آل السعود . ولا أستطيع أن أجد علاقة بين

وصف الطريق الذي سلكه وما أعرفه عن هذا الطريق استناداً إلى خبرتي . وقد تبادر إلى ذهني أن ذلك الاختلاف يعزى إلى أن الدليل الذي اصطحبه من مدينة الجوف قد أمده بأسماء عشوائية لمواقع لم يزرها قط . ويجدر التنويه إلى أنه لم يذكر أنه زار السحيل أو الدرب التي لا يمكن أن يكون قد أخفق في التعرف عليها وهو في طريقه من الفاضية إلى خربة أبي السعود . ورجعت إلى نقوشه ووجدت أن لا علاقة لها بالنقوش التي جمعتها من هذه المنطقة . ولم أتعرف في رحلتي على موقعي فضية وخربة أبي السعود اللتين ذكرهما في تقريره . ولكن ذكر لي ابن هضبان أن فضيا عبارة عن بئر في وادي أبراد . وبالنسبة لخربة أبي السعود فإنها - كما يرى هالفى - محطة يرتادها آل عبيدة في طريقهم لاستخراج الملح في صافر ويتزودون منها بالمياه . ولم أر خربة آل جدعان أو أسداس فكلاهما ومواقع أخرى غير مدونة ربما تكون قد أمدت خربة أبي السعود بهذه النقوش . من المؤكد أن لا علاقة البتة بين نقوشه والنقوش التي جمعتها . وذهبت للنوم مع اقتناعي الشديد بأنني - من المؤكد - أول من كشف أسرار يلت (YLT) وحرب (Harb) وكتل (Katl) مدن المعينين القديمة .

العودة

جاءتنا مجموعة صغيرة من رعاة عبيدة من عشيرة جردان خلال النهار للحصول على بعض الماء وأمضت الليل معنا وشاركتنا طعام العشاء. ورجع ابن مدعار قبيل غروب الشمس ومعه تموينات غذائية من خربة آل جدعان كما أحضر معه أيضاً خروفاً. وتأخر العشاء كثيراً بسبب احتياج اللحم إلى وقت الطهي. لذلك تأخرت خطتنا في أن نبعث بقافلة الجمال خلال الليل حتى تصل إلى بوع في اليوم التالي. لا أعلم إن كان بسبب العشاء الجيد أو الكسل المجرد فلم يبدأ "آل هندي" إلا عند السادسة صباحاً. ولهذا لم يجد الآخرون الاستعجال مناسباً. وعند الصباح تناولت طعام الإفطار بارتياح وكان يتكون من الخبز والبازلاء التي قام بطبخها ابن هضيل كما احتسنا بعض الشاي. وفي الليلة البارحة زارنا أحد الصبية من قرية عبيدة مع والدته وأعطاني زبدية من الحليب. ويعد أن تناولت طعام الإفطار عادني الصبي نفسه وهو يحمل طاسة من الحليب فنفضته هذه المرة جائزة مناسبة.

وبعد فترة وجيزة جاءني شقيقة الصبي وهي جميلة الوجه. وبعد أن وقفت لفترة وهي تتأمل السيارة ويجول ناظرها داخل المخيم تفحصاً لمحتوياته. ومن المؤكد أنها جميلة الوجه، جيدة البنية ويحتمل أنها تحت الثلاثين من العمر. وكانت تتحدث بأسلوب طيب وبصوت عميق أجش. وكان الجزء الأسفل من وجهها فقط هو الذي يغطيه النقاب مع وجود حلي فضية ونحاسية كانت تزين أذنيها. وفوق خمارها الأسود كانت تضع عقلاً يتدلى منه سلاسل. وكانت عباؤها تماثل نظائرها التي ترتديها نساء نجد، خشنة ومصبوغة بالنيلة الزرقاء. وخاطبتني قائلة: «هل سترحل اليوم؟» فأجبته قائلاً: «نعم، سترحل اليوم قاصدين مكة». وبشيء من الرغبة قالت: «أتمنى أن أذهب معكم إلى مكة» فأجبته: «لماذا إذن لا تذهبين معنا، سوف آخذك في سيارتي إذا وافق زوجك»، وقالت لي: «كنت متزوجة ولكن الآن طالق» فرددت

عليها: «إذن لماذا لا تتزوجين مرة أخرى؟»، فقالت: «لأنه لا أحد يرغب في الزواج مني»: «ولكن لماذا؟» فقالت لي بالحرف: «يقولون إنني ماني زينة». وعلى أية حال، كانت جميلة المنظر وامتنتعت عن مواصلة الحديث في هذا الموضوع واقترحت عليها أن تأخذ موافقة أمها لزيارتها المقترحة إلى مكة. وقد تأكدت إنها كانت واحدة ضمن خمسة عشر طفلاً، عشر بنات وخمسة أولاد، ينحدرون من أم وأب واحد. وأثناء وجودها معي جاءت والدتها لتري عما إذا كان قد أصابها مكروه. وأعطيت هذه الشابة بعض قطع الفضة والملابس كما حصلت والدتها على ريال ومن ثم اختفيتا عن الأنظار.

وعند الساعة التاسعة والنصف (في الخامس من أكتوبر ١٩٣٦م) تحركنا باتجاه الشرق على الجانب الأيمن من وادي الماس الذي ينحدر تدريجياً على يسار خط سيرنا. وتتميز التضاريس في هذه البقعة بأنها عبارة عن سهول غير مستوية تعلوها طبقات خفيفة من الحصى. وبعد مسيرة أربعة أميال تتغير التضاريس إلى كثران رملية إلى أن نصل المنطقة التي يلتقي فيها وادي الماس بمجرى مياه وادي حلحلان. وعبرنا المجرى الأخير الذي يقع على بعد سبعة أميال من معسكرنا وميلين من نقطة التقائه بوادي الماس. ويتجه هذا المجرى المائي حلحلان ناحية الغرب فالشمال الغربي ثم ينحرف إلى جهة الشمال الشرقي قليلاً عبر روابي عقشة ليتصل بوادي الجوف. وواصلنا المسير باتجاه الشرق فالشمال الشرقي عبر سهل حصوي تتخلله بعض أشجار السرح والأكاسيا حيث لمحنا سرباً من طيور الطيهوج. وأطلقت النار على إحدى هذه الطيور وعند إمساكها اندهشت لكمية المياه المتدفقة من فمها.

وصلنا إلى طرف مجرى وادي الجوف بعد مسيرة ١٢ ميلاً من بئر مسعودة. ومررنا بالعديد من فروع هذا الوادي إلى أن دخلنا غابة كثيفة من شجيرات الأكاسيا التي يتراوح ارتفاعها بين ١٠ إلى ١٥ قدماً. ولدهشتنا وجدنا جمالاً ترعى هذه

الشجيرات مع وجود دعامات الأمتعة على ظهورها واكتشفنا لاحقاً أنها جمالنا . وكانت الساعة الحادية عشر والنصف في وقت قاتظ الحر عندما سمح الجمالون -من عشيرة آل هندي- للإبل بأن ترعى وتقتات بعض العلف . واخترنا بعض الأشجار الظليلة لقضاء وقت القيلولة . ووصلت درجة الحرارة عندة الظهيرة إلى ٩٥° لكن كان الجو طيباً تحت ظلال الأشجار . وتناولت طعام الغداء الذي كان يتكون من المانجو واللبن المقلب والبسكويت والشاي وأخلدت بعدها للنوم . وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر تحركت قافلة الجمال التي يقودها أفراد من عشيرة آل هندي . وبعد ثلاث ساعات لاحقة تحركنا في اتجاه مسارهم .

ولم أمض وقتاً طويلاً لأخذ القراءات المساحية للوادي الذي كان يقع باتجاه الشمال الغربي - الجنوب الشرقي عبر مسارنا . وتتميز تضاريس الوادي بوجود رمال ناعمة يتخللها نزر يسير من شجيرات الأكاسيا . ونلاحظ أن منظر الأطراف الناتئة من رابية اللوذ يبرز للعيان على يسارنا ويستمر إلى مرتفعات زويرة . ويجدر التنويه أيضاً إلى أن كلا من هنا والجمرة تظهران للعيان بوضوح ضمن المناطق التي تقع أسفل الأودية في ذلك الاتجاه . وبإلقاء نظرة إلى الأمام باتجاه وادي الجوف والجبال على جانبيه باستطاعتي أن أرى المنطقة الجبلية التي نود بلوغها ، وتشمل اللوذ ، وقُدام وأم عربي وهي إما أن تكون منفصلة عن مرتفعات اليمن الرئيسية أو منطقة شبه منعزلة . والملاحظ أن المنحدرات الغربية لجبال هذا القسم تنحدر مياهها باتجاه الجوف . ولكن الجزء الأعظم من هذه المياه يتجه شرقاً ليتصل بالقنوات المائية التي تصب في وادي خب الذي يصب في رمال الربع الخالي شمال جبال الريان .

تغيرت التضاريس من سهل حصوي إلى أرض رملية حيث مررنا بمضيق يؤدي إلى منطقة جبلية . وفي طريقنا كنا نلمح بين الفينة والأخرى بعض الغزلان لكن لم نعرها اهتماماً . وعند الساعة الرابعة والنصف وصلت قافلة الجمال التي كانت تقل أمتعتنا بعد مسيرة ١١ ميلاً من مخيمنا . وهناك هضبة العراقيب الطويلة المنخفضة

الارتفاع وهي تقع إلى يسار مسار قافلتنا وخلفها يقع جبل اتكاما الذي ينحدر منه واد باتجاه الجنوب الشرقي ليتصل بوادي الجوف. وبعد فترة قصيرة لعبورنا هذا الوادي وجدنا أنفسنا عند أسفل وادي وسط أحد فروع وادي الجوف حيث بقينا لبعض الوقت. ووصلت إلى هذا الموقع الطلائع الأولى لقافلة الجمال بعد الساعة السابعة مساء مباشرة حيث اجتازت حوالي ٢١ ميلاً في خلال ست ساعات. ويبدو أن وعاء السفر عبر الصحراء قد جعلت أعضاء الفريق المرافق لي وكأنهم في الستين أو السبعين حيث باتوا يسكرون دوغماً نظام أو انضباط. أما سعد بن معيلم فيبدو أنه قد فقد السيطرة على نفسه. وكانت معظم الأمتعة الثقيلة على ظهور الجمال. وكان سعد لا يهتم كثيراً بأدلاء قافلة الجمال من عشيرة آل هندي الذين كانوا كثيراً ما يتذمرون من نقص القهوة والسكر بعكس مجموعة النجديين الذين كانوا لا يواجهون أية صعوبة في الحصول على هذه الأشياء التي كانت تعد من الكماليات. وربما كان الضغط النفسي الناجم عن الرحلة الطويلة سبباً لهذا التذمر. وربما كان ذلك يرجع إلى طبيعة العرب فعند اقتراب نهاية عملهم يكونون أكثر انفعالاً.

ووادي وسط في هذه النقطة يبلغ اتساعه نصف ميل في المنطقة الواقعة بين هضبة حجيبة على الضفة اليمنى وأسفل جبال الهضبة العليا. وتنتشر في الوادي الكثير من أشجار الراك والبال والأكاسيا الشوكية. وتكثر في هذا المكان فراشات الصحراء التي كانت تحوم حولنا محدثة أزيزاً وتحاول أن تمتص قطرات المياه المتدفقة من أوعية المياه الجلدية (القرب) التي بحورتنا. وفي الصباح الباكر رأيت أسراباً من طائر الشمس القادمة من وادي النيل وهي تحوم حول أغصان وشجيرات الأكاسيا. فضلاً عن ذلك، قمت باصطياد طائر من فصيلة الأبلق (أبو بليق) والذي رأيت مثيله في شوبة وفي مرتفعات العلم عند أقصى شمال نجران.

وقبل أن نستأنف رحلتنا صعدت إلى قمة هضبة حجيبة لعمل مسح للمناطق حولنا ومعظمها أراض جديدة لم نرها من قبل. وفي غضون ذلك تقدمت قافلة الجمال

أماننا نحو بوع مع تعليمات لإعطاء راحة لجمالنا التي أرهقتها الرحلة الطويلة. وذهب أيضاً ابن مدعار إلى عشيرته التي تخيم بين بوع والشضيف لهذا الأمر أيضاً. وثمة إشارة هي أننا الآن على ارتفاع حوالي أربعة آلاف قدم من مستوى سطح البحر وتبلغ درجة الحرارة ليلاً ٨٥. وفي منطقة آبار بوع التي ترتفع حوالي ٦٠٠ قدم تصل الحرارة إلى ما يزيد عن ٩١. وما لا شك فيه أن هناك فارقاً كبيراً في درجات الحرارة بين الليل والنهار في هذه الصحراء. وهنا وادي وسط الذي ينحدر من هضبة بوع الجرانيتية. وعلى مسافة ميلين ونصف الميل من مخيماً، يتصل هذا الوادي بشعيب مسياب من الهضبة العليا. ومن نفس المسافة السابقة أمام موقعنا يوجد وادي حضرة الذي يتشكل من التقاء كل من مجاري مياه شعيب عتبات من جهة الشمال - الشمال الشرقي ووادي بوع من جهة الشمال الغربي. والوادي الأخير يحد بجبال ضخمة ومجره مليء بالغابات. وهنا وادي أم سلام الذي ينحدر من مرتفعات نصيف العالية. وخلف هذه الهضاب يقع وادي غمير الذي يندمج مع وادي الملاحة ثم وادي أمواه إلى أن ينتهي في الصحراء.

وقبالتنا مباشرة من مكان جلوسنا في قمة هضبة حجيلة، فإن الضفة اليسرى لوادي وسط تتميز بوجود مناظر لروابي منخفضة وجبال برقاء الضاحي، الدحلات ومبادي الشريف، وبين هاتين المجموعتين من الجبال يوجد ممر رملي يقود إلى سهل جو المليس الصحراوي، ويلاحظ أن هضبة خسفة تفصل كلاً من مجرى وسط ووادي إتكاما الذي يصل إلى وادي الجوف بمفرده. وهناك مجموعة وادي بحر الشديدة الانحدار والتي تعد من أكثر المرتفعات البارزة في هذه المجموعة الجبلية. وخلف هذه المجموعة (بحر) توجد جبال شعب الأسود وروابي لبانات الواقعة قرب وادي الجوف وهي تقع مباشرة جنوب موقعنا الحالي في هضبة حجيلة. ومن هذه المنطقة أيضاً يمكننا رؤية أراضي سبأ وقمم خَرَج التوأم ولسان حيلان الصخري الممتدة نحو البحر فضلاً عن خربة أبي السعود ووادي عدوان. وأسفل روابي الدحلات على الضفة

الغربية من وادي وسط الذي تحده جبال الهضبة السفلى العالية وراية الصعرة. وعلى مقربة من جانبيها توجد مرتفعات نضلة حنيش. ولم نستطع أن نرى جبال العلم لكن إلى جهة الشرق مباشرة توجد مرتفعات الضلع، ورقمة، والنسرین والشهلا. وأشار إليّ ابن هضبان نحو -تقريباً ناحية الشمال الغربي- واحة خب التي تشمل قرى دحل أسفل الوادي. وأقرب قرية بالنسبة لموقعنا هي غيل سبتان أعلى الوادي. ومن جهة أخرى، فإن قرى محجل والمعقر تقع عند أقصى أعلى الوادي بالنسبة لقرى خب. وهناك الحزم في واحة الجوف التي تعد العاصمة الحديثة ومقر الحاكم وتقع باتجاه الغرب - الشمال الغربي بالنسبة لموقعنا الحالي.

كان مسيرنا غير منقطع عدا نصف ساعة قضيناها لإصلاح إطار السيارة. ووادي بوع وعر المسالك حيث تتخلله العديد من كتل الرمال التي تصلب شجيرات الثمام، علاوة على المجاري المائية الموسمية التي يجب أن نعبرها في طريقنا. وهناك العديد من شجيرات المرخ والأكاسيا. وعند اقترابنا من بشر للمياه في هذا المكان وجدنا العديد من الرعاة، رجالاً ونساء، كانوا يعرفون ابن هضبان حيث قدموا لتحيتته. ومن جهة أخرى كانوا يحذقون في وجوهنا. ونصبنا خيمنا عند ظل أحد الصخور حيث قام رفاقي بذبح خروفين وسلخهما لوجبة الغداء، واختاروا مكاناً جيداً بعيداً من البشر لنومي. وبعد الظهر وقبل الفراغ من إعداد وجبة اللحم احتسيت كوباً من الشاي لينعشني، ومن ثم ذهبت لإلقاء نظرة على البئر.

ووجدت بعض النسوة قرب البئر وهن يسقين قطيعاً صغيراً من الخراف، فجلست للتحدث معهن. وكانت منهن امرأتان من عشيرة دهم، إحداهما ترضع صغيرها بينما تمد دلواً جليداً للأخرى التي كانت تمتح الماء من بئر عمقها أربع قامات. ويلاحظ أن تجويف البشر الأسطواني الشكل مضفور بالواح جرانيتية. وضمن هؤلاء النساء كانت طفلتان إحداهما في الخامسة عشرة والأخرى في السادسة عشرة وهما من قريبات ابن مدعار. وسئلت عن سبب عدم حضور ابن مدعار معنا. وأجبت بأنه

حضر معنا هذا الصباح لكنه ذهب إلى أسرته للاطمئنان عليهم. وأعطتني المرأة التي كانت تحمل الطفل حليباً مما دفعني لمنحها وبقية النسوة هبات سخية.

وأثناء تجاذبنا أطراف الحديث جاءني اثنان من مرافقي الجمال من المجموعة النجدية وطلبا مني أن أشتري خروفين. وبرغم اعتراضي في بادئ الأمر على هذا الطلب بحجة أن الوجبة الغذائية قد تم إعدادها الآن وأن الوقت متأخر من الظهيرة، وبرغم عدم اقتناعي بأن المرافقين كانوا يعانون الجوع، إلا أنني رضخت في نهاية الأمر لمطلبهم لاسيما وأنهم عانوا كثيراً في الأيام الماضية. وتم شراء الخروفين بمبلغ ثلاثة ريالات للكل. وعند رجوعي للسيارة أحضر لي لحم مشوي بالصلصة كمقبلات أو وجبة خفيفة ريثما يتم إعداد وليمة لحم الخروف. وفي ذات الوقت قام بقية المرافقين بإعداد وجبة خفيفة لأنفسهم تشمل الكبد والقلب والكرش وأجزاء أخرى من الخروف. ولم أستطع انتظار الوجبة الرئيسية (لحم الخروف) وذهبت يرافقي ابن هضبان إلى الرابية الجرائسية التي تقع بالقرب من مكاننا لأخذ بعض المعلومات الجغرافية عن المنطقة حولنا. وعند عودتي أحضرت لي وجبة تتكون من رأس خروف وقطعة صغيرة من اللحم وضعت في صحن. لكن رفضت أن أكل بمفردي وانضمت إلى مجموعة المرافقين في الوليمة الجماعية. وبعد برهة بدأ الجميع الأكل. وكان رأس الخروف وقطعة اللحم التي أحضرت لي سابقاً تعتلي كوماً غير شهية من الدخن المطبوخ بصورة غير جيدة. وأثناء الأكل كانت أصابع المرافقين داخل الطبق تدفع يدي يمنة ويسره، وكان الجميع يلتهم الأكل بنهم وشراهة مصطنعة. وعندما فرغ أحد الرجال من الأكل حمد الله وكذلك فعلت أنا. ونظراً لكل المقاييس سيما العربية فإن تصرف بعض جماعتي ينم عن أخلاق سيئة. ومن غير الكياسة تجاهل ذلك. وقد أخطرت سعداً بما أراه عن سلوكه. وكنت آمل أن يكون سوء التفاهم الذي نشأ بيننا جراء هذه المسألة ربما يفضي إلى إصلاح ذات البين ولكن ذهبت آمالي أدراج الرياح.

وربما أكون قد سمحت لهذا السلوك النزق أن ينتشر بين أفراد القافلة . وكيفا يكون الحال فإن تراجعنا وتهاوننا أدى إلى تدهور الوضع بسرعة إلى شغب .

وكننت قد قمت بالتعرف على أحوال المنطقة التي حولنا حيث تبين لي أن الجبال عند الجهة الغربية لموقعنا لا تسمح لنا بأخذ صورة بعيدة من هذا الاتجاه . أما ناحية الجنوب ، فإن إقليم سبأ لم يكن ظاهراً للعيان . وفي الجهتين الشرقية والشمالية ، أمكننا رؤية مرتفعات وعير العالية والتي تقع خلف وادي خب فضلاً عن رؤية الربع الخالي الذي يمثل المد النهائي لإبصارنا من هذا الموقع . وفي هذا الاتجاه يبرز مرتفع الحيفض بشكل جلي . وبالنسبة للمظاهر الطبيعية التي تقع على مقربة منا ، فأمامنا مباشرة يقع وادي غمير يليه وادي أوبن . وعند الجهة الشرقية للطريق الذي يربطنا بهذه الأودية يوجد سهل السواد الذي تتخلله بعض المنكشفات الصخرية وحولنا توجد دائرة واسعة من الروابي تشمل مورة ، خيل ، أقطنة ، مجراب قمم جبال سنبله ، والشضيف . وداخل هذه الدائرة الجبلية تبرز أعداد هائلة من المرتفعات الجرانيتية تشمل طويل وبرادة وصابرين والصعرة والأحمر وصباح وغيرها . ويلاحظ أن مجرى وادي الخلفين يبدأ من فتحة جبلية من مرتفعات نصيف وخرشة ويعبر هذا السهل عرضياً ماراً بمجرباب وصابرين إلى منطقة الجو . ونجد خلف أوبن أن سلسلة جبال برم وقمم جبال ساندرد (سندر) التوام وفارح تحدد مجرى وادي سرحان الذي يتصل بمجرى وادي خب عند طرف الصحراء . ولأحظت بعض الكتابات على هيئة مخربشات في وادي بوع الذي يسعد حوالي الميل من البئر . وتشكل هذه المعثورات الأثر الوحيد للوجود الإنساني في هذه المنطقة القاسية والمضيافة في ذات الوقت .

وكان الليل بارداً بصورة تدعو للدهشة حيث وصلت درجة الحرارة إلى ٤٠ ° فهرنهايت . أما في الصباح الباكر فقد كان الجو منعشاً مع شمس غير مرئية تماماً تنعكس بعض أشعتها على قمم جبال الأحمر في هيئة وردة حمراء ناضرة . ولم يرجع ابن مدعار من مخيم عائلته حتى الساعة التاسعة صباحاً حينما تحركت قافلة الجمال

التي تضم الجمال الجديدة والتي تم تأجيرها لإكمال ما تبقى من الرحلة إلى نجران. ولم يحدد ابن مدعار قيمة إيجار الجمال لكن أصدقاءه رفعوا سعر الإيجار مستغلين احتياجنا الشديد إليها. واقترح سعد مبلغ خمسة ريالات كإيجار معقول لكل من الجمال الثمانية التي نحتاج إليها حتى الوصول إلى نجران. واقترح بقية أصدقائه أن يكون سعر إيجار كل جمل سبعة ريالات ورغم ذلك لم يتخذ ابن مدعار رأياً نهائياً في الموضوع. وتركهم يقررون ذلك بأنفسهم دون التدخل في هذا الأمر. وقرر المرافقون أن تكون وجبة العشاء لحوم الخروفين التي تم طبخها في الليلة الماضية. وفي نهاية الأمر قمت بنفسي بتسوية موضوع قيمة إيجار الجمال مع أصحابها دون الدخول في جدال مع المرافقين. وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً استأنفنا المسير وتسلقنا منطقة جبلية متحدرة تؤدي في نهايتها إلى سهل الأسود وتتخللها الكثير من النصب الركامية. وبعد مسيرة أربعة أميال وصلنا إلى وادي غمير الواقع بالقرب من شمال خرشة ثم قطعناه وتوقفنا لقضاء وقت القيلولة. الذي كان طويلاً على غير العادة، خاصة وأن الجمال ما زالت ورائنا. وبالقرب من معسكرنا وفي وسط الوادي يوجد نبع مائي صخري وقر يسمى مريم. ومن هذه النقطة الصخرية التي نقف عندها أمكنني الحصول على منظر مختلف للجانب الجنوبي الغربي خلف الجبال التي لم يكن من المستطاع الرؤية عبرها من موقعنا السابق.

وينحدر مجرى وادي غمير من المنحدرات الصخرية لشعب الأسود ويجري خلال ممر يفصل بين مرتفعات خرشة نصيف وحبل المركبة والذي يوجد في السهل الواقع أمام نبع مائي يحمل الاسم نفسه. وإلى اليمين من جبل المركبة في الجهة الجنوبية الغربية لموقعنا الحالي يوجد جبل محوة الأسود ومنحدر صخري جرانيتي يسمى شاري، وعلى مقربة منه توجد هضبة ريدان. وعلى يمينها نلاحظ جبل سويقة الذي يوجد أمامه نبع مائي يسمى دحيضة وهناك جبال قُدم التي شاهدناها من قبل من جهة الجنوب وهي تفصل هذه السلسلة من الهضاب عن مجموعة أخرى تكون

الضفة اليسرى لوادي الجوف، شرجاب مع العديد من المنكشفات الصخرية الجرانيتية تشمل الشهلا والمضرة ومرهينة. وخلف هذه المرتفعات تظهر جبال اليمن التي تتراءى من على البعد دون أن أستطيع تبين معالم واضحة من هذا المكان. وإلى الغرب والشمال الغربي من موقعنا توجد مجموعة هضاب وقمم جبلية تكون خط تقسيم مياه بين الجوف وشعيب أوبن- مفلح مع ثلاث قمم تشمل عارين مع سلسلة الرس، وخالص. ويظهر شعيب أوبن ووادي السرحان في الرس وخالص وهما يستقبلان روافد مائية من المنحدرات الأخرى المشار إليها أعلاه.

وبعد أن قمت بعمل مسح للمنطقة التي حولنا، نزلت إلى الوادي للحاق ببقية رفاقي في مخيمهم الذي أقيم عند شعيب ضحل تغطيه الشجيرات. ووجدت أحد الرجال وقد قام بالقبض على أرنب بري صغير كان ينام تحت ظل أحد الشجيرات. وتقع منطقة المعسكر بالطيور من مختلف الأصناف ومعظمها أكل النحل وطائر الصحراء المغني رغم أنني قد وجدت طائر الدغناش في اليوم التالي في وادي أوبن. والهضبة التي اعتليتها لأخذ هذه المعلومات تتشكل من الجرانيت ويغطي سطحها العلوي طبقة بازلتية. وكان أمامنا شعيب حرمان وهو رافد من وادي غمير الذي ينحدر من هضبة ريدان الصخرية الشديدة الانحدار. وواصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا سهلاً مستوياً لوادي أوبن. وهذا الوادي يتميز بالشجر الكثيف فضلاً عن أشجار الأكاسيا. وخلف هذا الوادي يوجد مجرى وادي الرس. وتركنا بقية رجالنا في المخيم وانطلقت وبمعيتي ابن هضبان واثنان أو ثلاثة من المرافقين لتسلق كتلة صخرية ناتئة من الجرانيت تقع بالقرب من مكاننا وذلك بهدف الحصول على منظر عام للمنطقة من على ارتفاع يبلغ ٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح الأرض. وكان مدى رؤيتنا يمتد من وراء وادي وغير في الشمال إلى اللوذ والهضبة العليا في الجنوب. وكنا نرى ضوء الشمس الأخاذ خلال المساء وهي تسلط أشعتها على سحابة عظيمة تظهر أطرافها كما لو أنها بركان يصب ناره في الفضاء. وقفنا راجعين إلى مخيمنا في المساء. ومن المؤكد أن سمعنا

كأناس نتسم بالشرافة في الأكل قد انتشرت على نطاق واسع. وأبرز دليل على ذلك أنني قبل أن أنزل من سيارتي متجهاً نحو المخيم اتجهت نحو ثلاثه وفود من عشائر محلية وهذه الوفود من بدو دهم وعبيدة وقد طلبوا مني أن أقبل منهم بعض الخراف كهدايا منهم إلينا. وأحد هذه الوفود أحضر بالفعل ستة خراف وبقية الوفود أحضر كل منها خروفين. وقد قمت باحتجاج على هذا الإسراف والتبذير، لكن أصر هؤلاء على قبول الهدايا، بل هدد بعضهم بذبح الخراف أمامي بدلاً من إرجاعها معهم. وبعد جدال طويل اخترت خروفين للعشاء الذي تأخر كثيراً عن مواعده، وأعطيت الموفدين هدايا سخية. وفي صبيحة اليوم التالي جاءني صبيان من مخيمات هذه القبائل وهم يحملون حلياً وفي المقابل منحتهم هبة سخية نظير خدمتهم.

وبينما يجري وادي غمير إلى جهة الجنوب من مرتفعات السنبلة التي تحدد مجموعة مناهل الشضيف - العريجا المائية. وفي نهاية المطاف يصبح اسم هذه المجموعة الملاحه - اسم بئر في مجرى الوادي - وتنضم إلى وادي أمواه خلف البقعة التي أمضينا فيها ليلتنا الأولى خارج الشضيف ووادي أوين اللذين ينضمان لوادي الرّس المار بين السنبلة ومرتفعات حمرة بحرة في اتجاه الشمال حيث يتغير اسمه إلى وادي الطرفاء. وخلف مجرى مياه وادي الرس، دخلنا في بقعة تتشكل من مرتفعات ومنكشفات صخرية من الجرانيت تتخللها بعض النصب الركامية الدائرية التي توحى بأنها آثار لحركة قوافل قديمة. وكما نوهت سابقاً، توجد مثل هذه النصب الركامية في المنطقة الممتدة بين بوع وأوين. وفي تقديري أن النصب شيدت لتكون معالم بارزة تحدد الطريق بين درب الجوف وواحة خب. ولاحظت وجود نقش مهترئ بالخط العربي الحديث في إحدى هذه المنكشفات الصخرية ويبدو أنه الوحيد من نوعه في هذا الطريق.

وخلف وادٍ واسع ضحل دخل واجهنا عقبة في طريقنا، تتمثل في رابية منخفضة حيث اجتزناها بصعوبة بالغة إلى أسفل وادٍ صغير متعرج يسمى أم الذياب. وتعرض مجرى هذا الوادي الشديد الوعورة أعشاب خشنة وكميات كثيرة من

الشجيرات الصغيرة التي تؤدي إلى أسفلها حيث يتصل بواي متسع هو وادي سرحان. والآن نتابع مسيرنا عبر الطبقات الرملية لمجرى الوادي الأخير (سرحان) خلال مجموعات متفرقة من أشجار الأكاسيا والمرخ. وتتصل بعض المجاري الصغيرة (المسيلات) بالوادي من الجانبين وهي تؤدي إلى اتساع الوادي بين رابية مشنة والأطراف الخارجية لهضبة البرم، وتسلقنا الهضبة الأخيرة -على ارتفاع ٤٠٠ قدم- لمسح منظر المنطقة التي حولنا حيث تمكنا من رؤية لمحات عدة لوادي خب على امتداد المنطقة الممتدة من القمم المشرفة على الواحة إلى موقع مخيمنا القديم. وفي جهة الشرق يمكننا رؤية مرتفعات المعو. وفي الجهة الشمالية نشاهد علامات حدود كل من أم الشداد والطويلة.

ونحن الآن في طريقنا إلى الخط الذي يقودنا إلى الطريق الخارجي المؤدي -في الوقت المناسب- إلى معسكرنا القديم في وادي خب. وهنا وهناك يلاحظ آثار السيارات التي عبرت هذا الطريق قبل شهرين إلا أن معظمها قد تلاشى. ومرتفعات أبو داعر التي تقع على اليمين من خط سيرنا ذات لون قرنفلي تحت أشعة شمس الظهيرة في حين أن كثبان قنفذ المموجة الساحرة على يسار الوادي تعكس لوناً برتقالياً ساطعاً. وبينما كنا جالسين في مخيمنا وسط الشجيرات يعترينا شعور الحنين بالعودة للأوطان إذ جاءنا مبعوث من نجران يحمل برقيات من الملك. ويدعى هذا المبعوث الصيعري من عشيرة تسكن في صحراء نجران وكانت لديه تعليمات لا تقتصر فقط على معرفة مكان وجودنا بل أيضاً الرد على البرقيات. ولم تكن تلك البرقيات تتضمن أشياء مثيرة حيث إنها تتعلق ببعض أعمالنا التجارية في مؤسستي في جدة. وانتهزت هذه الفرصة وأرسلت مع إجاباتي للبرقية رسالة إلى عائلتي تتضمن مسار رحلتي ونشاطاتي. وكان من المفترض أن تصل رسالتي للعائلة بواسطة أول بريد خارجي لكنها أعطيت إلى عامل اللاسلكي مع البرقيات. ورغم أنه يستطيع قراءة الحروف الإنجليزية الكبيرة، فإن كتابتي بالخط الصغير لم تساعده على قراءة خطابي؛

لذلك أرجعه إليّ فور عودتي إلى نجران معذراً عن عدم تمكنه من إرساله إلى لندن. وبما أنه من غير المحتمل أن يكون هناك بريد خلال أسابيع عدة قادمة، فإن ذلك لا يهم بتاتاً.

وبالرغم من زيارتنا إلى بوع فإن امداداتنا من المياه قد تقلصت إلى حد كبير بالرغم من تشككي في أن هذا الوضع ربما يكون ناجماً من عدم رغبة مجموعة أعضاء الرحلة في استعماله لغلي الدخن. وفيما يخص نصيب المجموعة التي ترافقني في سيارتي، فلدي عتز هزيلة كنت قد اشتريتها قبل مغادرتي أوبن وذلك للاحتفاظ بها كاحتياط في الوقت الذي كان فيه بقية أعضاء الرحلة يرون أنها يجب أن تكون مشاعة للجميع في حالة عدم توفر طعام. وأصدرت تعليمات بأن تكون العتز من نصيب أعضاء الفريق المتنقل بالسيارة وبقية المجموعة (قافلة الجمال) يقتصر طعامها على الدخن. ثم تحركت قافلة الجمال التي تحمل الأمتعة في الصباح الباكر للوصول إلى النقطة التي سنلتقي فيها عدا سعد بن معيلم وصاحبه النجدي اللذين بقيا معنا في المعسكر. بيد أنني أمرتهم باللاحاق ببقية القافلة تفادياً من أي تأخير في وصولهم إلى مكان اللقاء في منطقة الينابيع في الصبح.

وفي غضون ذلك توفرت كمية من اللحم كافية لعشائي. أما بقية لحم العنز فقد خصص لأعضاء القافلة في المخيم وهم الطباخ ومحنط الحيوانات والسائق وضيوفي وهم: فرج بن قرقاح وصالح بن حزيق وحمد القردعي، وحسن بن هضبان. ويجدر التنويه إلى أن الأخير قد طلب مني مراراً -خاصة في بوع مسعودة- أن أسمح له بترك العمل والعودة إلى أسرته. وعلى أية حال، كان هذا الرجل مهماً للغاية ومصدر قوة للرحلة بصورة لا تسمح لي بالتخلي عنه بسهولة. ورغم ذلك فقد وعدته بأن أسمح له بالمغادرة عند وصولنا إلى خب. والآن جاءت اللحظة التي نقول فيها وداعاً لأحد زملائنا الذي قضى معنا سبعين يوماً في هذه الصحاري الموحشة. وقد كنت آسفاً لأقول له وداعاً. وقمت بمساعدة ابن معيلم بتجهيز حسابات ابن هضبان فيما يخص

عمله كمرشد للقافلة وإيجار الجمال . وقد وصلت هذه المستحقات ٤٥ ريالاً وأعطيته فضلاً عن ذلك جنهين ذهبيين مضاعفاً الهبة . وكان قد حصل أثناء الرحلة في حضرموت على عدة هدايا . وفرح ابن هضبان بهذه الهبات السخية وأمطرني بوابل من الشكر والمديح على هذا الكرم . ومن المؤكد أن ابن هضبان كان أبرز شخصية من المرافقين لي . وفي المرة الأولى التي تعرفنا فيها عليه في الضيف كان ابنه - مثل بقية أبناء زعماء البدو في اليمن - رهينة في صنعاء لضمان حسن سير وسلوك والده . وعند وصولنا إلى مسعودة أخطرني ابن هضبان أن الإمام يحيى قد سجن ابنه كإملاء إلى عدم رضائه عليه (أي على ابن هضبان) لمرافقتنا في هذه الرحلة . ولم أصدق في ذلك الحين هذه المقولة ولكن منذ ذلك الوقت ترامي إلى مسامعي أن سلوكه يجد ما يبرره في زعمه أنه لا يستطيع أن يرفض طلباً للمساعدة وإكرام الناس الذين يفدون إلى هذه المنطقة من طرف ابن سعود .

وكان ملك اليمن غاضباً من زيارتنا إلى حضرموت حيث كان ينحو باللائمة على كل من السلطات البريطانية وابن سعود . ونفث الإمام حنقه وغيظه على قبيلة دهم وطلب منها إعطاء تفسير لسلوكها وتعاملها الكريم معنا . وتجدر الإشارة إلى أن الذين تلقوا رسالة الإمام من أفراد هذه القبيلة ولإظهار ولائهم له ، قرروا ذبحنا فور وصولنا إلى منطقتهم بعد أن يستلموا موافقة خطية منه . ولكن حدث أن تجاهلت حكومة الإمام هذا العرض بقتلنا وعلى العكس من ذلك تماماً استقبلنا بكرم فياض عند رجوعنا مثلما كان عليه الحال في زيارتنا الأولى . والآن أتمنى أن يكون جلالته قد اقتنع أن زيارتنا لإقليمه لم تكن بهدف شائن . وكان من نتائج هذه الزيارة الاعتراف بأن هناك حدوداً قبلية في الصحراء تساعد الحكومتين (السعودية واليمنية) لتحديد الحدود بينهما .

وفي هذا الوقت تبعاً للمعلومات الواردة من الصحراء فإن قبيلة يام السعودية تعد القبيلة الرئيسة وسط المجموعات العربية الأخرى التي ترعى مواشيتها في المنطقة

الواقعة إلى الشمال من وادي خب. وحلّ جعل من عشيرة آل هندي مكان ابن هضبان في السيارة في حين أن ابن مدعار أرسل إلى وادي أوبن لشراء تمر بمبلغ ستة ريالاً من سوق وادي خب الأسبوعي وسنلتقيه في منطقة الصبح. ولكن ثمة كمية وافرة من اللحوم كانت بحوزتنا بحيث إننا لن نحتاج إلى تلك التمر الجافة كثيراً. واكتشفت لاحقاً أن هذه التمر وما يماثلها يمكن أكلها لو حمصت في النار لأن الحرارة تسيل السكر فيها وتجعلها طرية وبالتالي مستساغة.

وبينما نحن نقترّب من خب تجنبنا طريق القوافل بمحاذاة الغور الواقع بين المنطقة الجبلية والكثبان الرملية عن طريق ثغرة دائرية في الأخيرة. وبعد عبورنا للوادي اتجهنا نحو فضاء من الرمال بين كثبان قنيفد وهضبة المضباح الأسود على شمالنا يقع وادي علّوب ووادي العينينة وسلسلة جبال وعير. وهنا وهناك كنا في بعض الأحيان نجتاز العديد من التلال الرملية التي تتناثر فوقها شجيرات العُبل والأكاسيا وبعض الأعشاب التي يصل ارتفاعها إلى ١٥ قدماً. وفي الطريق التقينا مجموعة من الرعاة من عبيدة قادمين من الشمال للرعي في منطقة خب. وواصلنا مسيرنا عبر وادٍ عريض رملي هو وادي قضمقاص المنحدر من هضبة العينينة والتي توجد عند طرفها الأقصى مجموعة كثبان عرق الطريف الرملية. وبعد اجتيازنا لهذه البقعة بدأنا نسير في أرض سهلية صلبة تتخللها تلال العبل وبعدها دخلنا في غابة من أشجار الأكاسيا الشوكية التي تمثل الضفة اليمنى للجانب الشرقي لوادي (عتمة). وهذه المنطقة ذات طبيعة معروفة. وأصبح بإمكاننا الآن الحصول على منظر واضح للصحراء الشرقية ذات الرمال الممتدة في فواصل منتظمة كما يوجد بها قليل من الروابي الصخرية البارزة مثل: الفهود، والقفل ومخرودان. وهنا وهناك توجد بعض الكثبان الرملية أبرزها عرق الذباب. وإلى الغرب يمكننا رؤية هضبة الظهر التي أقمتا مخيمنا عند أسفلها على مقربة من عيون ماء مضيق الصبح.

وبترك مجرى وادي اليتمة إلى جهة اليمين، اتجهنا أسفل الوادي لمتابعة السير في طريقنا القديم الذي تلاشت كل آثاره. ومن المرجح أن هذا المكان شهد هروب أدلاء الرحالة هالفي وهو في طريقه إلى نجران عام ١٨٦٩م إلى أن أنقذته قافلة قادمة من حضرموت. وهذه المنطقة تتجمع حولها أعداد كبيرة من القبائل البدوية بغرض رعي الأغنام. وتكثر هنا الآبار وسط جبال قراء، وشخير، والواضح والصحفة، والجوبة، والصيح، ومرتفعات أخرى. وبسبب عدم معرفة مواقعها الحقيقية فمن المتعذر الوصول إليها.

وبعد مرورنا بهضبة قدم وعبورنا لمجاري مياه شعيب -مدرك وأوبن التي تلتقي بوادي اليتمة، فإننا نبتعد تدريجياً عن الأخيرة لندخل بقعة من الروابي التي تقع على يمين وادي اليتمة. وهناك عمر واسع قادنا إلى تلك الروابي وعبر مجرى شعيب -الوجه -أحد فروع وادي اليتمة- المؤدي إلى بئر الصحفة عند رأس هذا الوادي في قلب جبل شخير مدرك. ووجدنا في هذه البقعة مجموعة صغيرة من الرعاة من قبيلتي يام ودهم تتناثر خيامها على امتداد الوادي. وهناك نرى رجلاً وامرأة يسقيان قطعاً صغيراً من الضأن من بئر ذات فوهة ضيقة وتجويف أسطواني مضافور بالحجر ويبلغ عمقها ٤٠ قامة وتسحب منها كميات قليلة من المياه. وتوقف ركبنا لقضاء وقت القيلولة ونحن ننفياً ظل شجر السمر. وأحضر لنا آنذاك أحد صبية قبيلة يام حلياً وعنزاً، فقبلنا الهدية الأولى وصرفنا النظر عن الثانية.

وجاءني بعد الظهر رئيس عشيرة دهم وهو محمد النوفي وذكر لي إنه ومنذ حرب اليمن فإنه قد انضم إلى السيادة والنظام السعودي مناصراً لقبيلة يام. وتقع بئر الصحفة في منطقة الصيح. وتتمتع القبائل في هذه البقعة بحرية حركة كبيرة خلال أيام السلم. وقد وجدنا مجموعات من عشائر بوع وعبيدة ويام ودهم شمال بوع فضلاً عن عشائر الصيعر. ولم تكن في جعبة النوفي أخبار هامة سوى أن وفد عشيرة جشم قد تحرك من نجران برئاسة أكبر أبناء سلطان بن منيف للرياض بغية زيارة الملك. وبعد

قضاء وقت القيلولة وجدت أحد الجمال وقد قام بوضع رأسه في فخذي. وبصعوبة بالغة تمكنت من تخليصها منه بعد أن أشعلت عود ثقاب على فكه المتنفخ مما دفعه إلى فك قبضته وسحب رأسه.

يتسم وادي الصحفة بالاتساع وتكسوه الحصوات الخشنة، وفي أعلاه توجد هضاب من الجرانيت الأسود مثل: النسر ومعطل وهضاب أخرى - والتي تنحدر منها مجاري مائية غزيرة المياه وتصب في اليممة، بين رابيتين متباعدتين. وخلف هذا الوادي باتجاه الغرب، فإن أودية سلبة وقعيف ونبيع تكون الأجزاء العليا لشريان مصرف المياه الرئيس لليتممة في المنطقة. ولمواصلة رحلتنا يجب علينا أن نختار - مع شيء من الحذر - أرضاً حصوية صلبة تتغير إلى بقعة رملية خلف روابي بردة السوداء أسفل الوادي. وبعد أن عبرنا قناة مائية غير مستوية المجرى وصلنا إلى وادي سلبة. ونلاحظ أن بعض أجزاء السطح الرسوبي لقاع الوادي ناعمة وزلقة في حين أن ضفتي الوادي تكسوها كميات كبيرة من الأعشاب الشوكية وبعض الأشجار الكثيفة التي يصل ارتفاعها في بعض الأحيان ١٥ قدماً. وفي هذه المنطقة قابلنا ثانية مجموعة من رعاة عبيدة الذين لم يندهشوا هذه المرة لسيارتنا رغم أنهم كانوا أكثر رغبة في التعرف عليها. ومررنا في طريقنا بمجاري وأودية قعيف ونبيع. والأخير تتميز إحدى ضفتيه بوجود شجيرات كثيفة والصفة الأخرى تغطيها كثبان رملية. وأخيراً وصلنا إلى أسفل وادي الصبح الرملي حيث خيمنا لبعض الوقت. وتحت رابية منخفضة بالقرب من الوادي عثرت على مقبرة صغيرة لم يعرف أهل المنطقة القاطنين حولها تاريخها. وفي تقديري أنها مدفن لضحايا المنازعات القبلية حول موارد المياه في المنطقة. ولا يوجد في هذه المقابر ما يشير الاهتمام سوى إنها كبيرة الأحجام ومبنية من كتل حجرية ضخمة ولبعضها شواهد ولكن تخلو تماماً من النقوش.



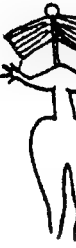
وعند الصخور التي تقع على مقربة من ينابيع المياه، عثرت على كميات غير قليلة من المخربشات ونقوش ترجع إلى فجر الكتابة العربية وبعضها يبدو عليه أثر الاهتراء بسبب الظروف المناخية. وعند رأس وادي الصيخ يظهر قوس مرتفعات الظهر الشديد الانحدار والذي تشكل قمته من الجرانيت اللامع. وتحت هذه السلسلة الجبلية توجد حفرة من الرسوبيات والحصويات تكون منخفضاً (خزان) ضخماً لتجميع مياه الأمطار لكنها جافة الآن. وتبلغ هذه الحفرة ٣٠ قدماً في العمق وأكثر من ذلك في العرض والطول وتشبه جوانبها التي على هيئة طبقات مدرجات المسرح. ووراء هذا الخزان ينقسم الجبل بواسطة مجرى مائي موسمي. ويرتفع المجرى إلى الداخل على شكل مدرجات صخرية لامعة، ناعمة الملمس بسبب السيول، وتتخلله بعض التشققات والصدوع، بعضها ضحل لكن البعض الآخر عميق بدرجة كبيرة بحيث تتجمع فيه المياه. وما لا شك فيه أن التنقيب في هذه البقعة سيسلط الضوء على مزيد من المعلومات عن تاريخ هذه المنطقة. وهناك ما لا يقل عن خمسين من طبقات التربة على هيئة دائرة يتراوح قطرها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قدم. وتقع هذه المنطقة بأسراب من حمام الصخر البري (Blue-Rock Pigeons) وأرانب الكوني (-Coney Rabbits) والفار ذي الشعر الذي يشبه السلك (Wire-haired mouse) والذي

يطلق عليه العرب اسم زبابة (Zababa) فضلاً عن طائر الحجل (Partridge) وطائر أبو قلنسوة (Back cap).

وفور وصولنا بقليل زارنا، جعلمل، شيخ آل وبران^(١) أحد فروع عشيرة آل هندي والذي أحضر معه ثلاثة خراف تكفيناً لبقية رحلتنا. ولكن حدث أن أحضر اثنان من الأدلاء النجديين المرافقين لي خروفين آخرين فرفضت أن أدفع لهما الثمن لأن تصرفهما هذا قد تم دون موافقتي. ولإظهار امتعاضي من هذا التصرف رفضت أن أشارك أعضاء الرحلة العشاء، وتناولت طعام العشاء بمشاركة كل من صالح بن حزيق وحمد القردي فقط. ونسبة لأن الجبال في تلك المنطقة عالية كالأبراج وتنحدر بصورة تغطي على مخيمنا لا نستطيع معها رؤية النجوم، فقد أخذت جهاز الثيودولايت (لقياس الارتفاعات والمسافات) ونزلت إلى أسفل الوادي لأخذ ملاحظاتي المساحية. وبعد رجوعي للمخيم لم أخلد للنوم إلا في وقت متأخر حيث قضيت وقتاً ليس بالقصير في ترقيم وحفظ الطيور والحشرات التي جمعتها خلال اليوم. وقد هبطت درجة الحرارة في الليل إلى ٥٧ فهرنهايت.

وفي صبيحة اليوم التالي تسلقت قمة الجبل المجاور مباشرة للمخيم، ويبلغ ارتفاعه ٥٠٠ قدم حيث استمتعت بمنظر جميل لسلاسل الجبال التي تشكل مستجمع الأمطار لوادي اليتمة والتي تمتد في الصحراء إلى جبال الفهود والقفل. وبدءاً من منطقة شخير والصحفة وحول المنطقة التي أقف عليها الآن، فإن المرتفعات تمتد على هيئة قوس مع وجود نتوءات لروابي تمتد على هيئة فواصل متتابعة كل اثنتين منها تحيط بفرع من الوادي الرئيس. وشمال الوادي الرئيس تقع سلسلة جبال الهضبة المكونة من متاهة من الصخور الشديدة الانحدار والكتل الناتئة. وباتجاه الشمال توجد سلسلة من الجبال تمتد من مجموعة الظهرة الصخرية (ارتفاعها ٣٠٠ قدم) إلى قمم

(١) آل وبران فرع من قبيلة العجمان من يام، وعن أقسام هذه القبيلة راجع، البلادي: بين مكة وحضرموت رحلات ومشاهدات، دار مكة، ط ١، ١٤٠٢ هـ، ١٢٥-١٢٩. (المراجعون).



يات غير
عليه أثر
ت الظهر
ة الجبلية
ميع مياه
ذلك في
راء هذا
ل على
بعض
ب حيث
س مزيد
التربة
ب من
Conc
والذي

جبال طيبة الاسم التي تحجب الرؤية عن قمة جبل ميهري ذي الصخر الرملي . وفي كل مكان في الفجوات بين الجبال بحار من الرمال تهب ذراتها باتجاه الصحراء العظمى . ويلاحظ أن الارتفاع العام للجبال حولنا لا يربو كثيراً عن ارتفاع قمة الهضبة التي نعتليها . ولكننا نجد أن أحد قمم الظهرة يبلغ ارتفاعه ٣٠٠ قدم على الأقل . وهناك نظائر لهذه القمة في مناطق ذات ارتفاع مشابه . ونزلنا من الهضبة سالكين درباً مختلفاً شديد الانحدار لتتمكن من مشاهدة منظر جميل للأخدود . ولكن في أغلب الوقت اتخذنا مسار الأغنام التي أوصلتنا إلى أسفل دون عناء كبير .

وبينما كنا نستعد لمواصلة الرحلة ، قدمت امرأة ترعى أغناما لها ، فهرع إليها جعلمل من عشيرة آل وبران وأحضر منها زبدية من الحليب ونفحته رياراً نظير تعبها . وبعد برهة وجدنا أنفسنا نسير أسفل مجاري أودية الصيح ونبيع والتي دخلنا بعدها أرضاً ذات كثبان رملية ثابتة ومنها انسللنا عبر مضيق غربي الهضبة نحو الراية التي أخذت منها ملاحظات في رحلتي الأولى . وإن كنا نسير في أرض معروفة لدينا إلا أن طبيعتها صعبة الاجتياز حتى وصلنا إلى ممر شقة القورا في الحريرة دون مشقة . وتوقفنا هنا لبعض الوقت قبل أن أتسلق أحد القمم الجبلية لإلقاء نظرة على سمات الطريق الجنوبي المؤدي إلى مدينة نجران . وصعدت الجبل يرافقني جعلمل . ولاحظت آثار أحد الغزلان على درب رملي مؤد إلى القمة التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم . وتشكل قمة الجبل من هضبتين من الحجر الرملي يفصلهما غور طويل . وتتخلل جوانب الجبل وقمته شجيرات العبل ونبات اللبان والأعشاب الجافة . ومحاور هذا الجبل باتجاه غرب جنوب ، غرب وشرق ، شمال شرق .

وتبعاً لمعلومات جعلمل ، فإن رواق (ممر) القورا والذي يبدأ من أسفل جبال طيبة الاسم على جانبها الشرقي يمتد دوماً انقطاع إلى بقعة المندفن عند جنوب جبل طويق على مسافة يومين بالجمال أو حوالي خمسين ميلاً . ويصل هذا الرواق جبل طويق جنوب الفاو عند نقطة تسمى خشبية في منطقة المندفن . ويقال : إن هناك العديد من

الآبار والأطلال المهجورة كما وأن المنطقة غنية بالنقوش. ودون ريب فإن هذا الموقع يمثل مستوطنة لجماعة من الناس ولكنه لا يمثل ألبتة مدينة كبيرة كما يتبادر إلى الذهن. ويجدر بالذكر أن آبار العويفرة يمكن وصفها بأنها وبر أو أوفر عفر كما أن القرية ليست بعيدة من المندفن في ثنية طويق. ومما لا شك فيه أن الموقع يستحق البحث والتنقيب وهو سهل الوصول على كل حال. وقررت أن أذهب في رحلة من نجران إلى هذه المنطقة رغم أن سيارتي ليست بحالة جيدة، وعدلت -بأسف بالغ- في نهاية الأمر عن هذه الفكرة، ومن ناحية أخرى، فإن حاكم نجران قد شاطرنى هذه الهم لاسيما وأن روايات البدو عن هذه الأطلال قد أثارت توقعاته بأنها تحمل في طياتها اكتشافات مثيرة وعظيمة^(١).

وتعد شقة القورا مجرى قديماً لوادي العطفين الذي يجري نحو الصحراء باتجاه الشمال بين جبال خليقا وعمر قورا الجبلي حيث تفصله كتيان قورا الرملية والهضاب المعروفة باسم عروق الأجاشر عن درزنة من الروابي الصغيرة السوداء البارزة على هيئة قوس يمتد من الجنوب الغربي إلى جهة الشمال الشرقي من النقطة التي أخذنا عندها ملاحظتنا. وهذه الأراضي الرملية تنفصل عن هضبة قورا بواسطة ممر مائي قديم (لوادي العطفين) وهو يجري لأمال قلائل إلى الشرق قليلاً قبل أن يتلاشى في رمال الصحراء. وروابي أجاشر بالرغم من أنها غير متصلة، فهي دوغما هذه القمم الجبلية تقذف بحبات من الرمال على هيئة ريش عندما تهب الرياح الشرقية المعتدلة في هذه المنطقة. وفيما عدا قمة جبل ميهل البارزة والتي لا تبعد كثيراً عن هذا المكان، فإن

(١) لعل مقصد فيلي قرية الفاو الأثرية، وقد أشار إليها فيلي في رحلته إلى غرب وجنوب الجزيرة العربية في عام ١٣٧١هـ بصحبة لينز وريكامنز والتي نشرت الدارة ترجمة لها إلى العربية في عام ١٤١٩هـ، وقد تم كشف الكثير من أسرار هذه القرية وأهميتها السياسية والتجارية، على طريق التجارة القادم من اليمن إلى شمال وشرق الجزيرة، وذلك بسواعد عدد من منسوبي قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود. وقد نشر عدد من البحوث عن هذه القرية ضمن مطبوعات الجامعة. (المراجعون).

السمات العامة لتضاريس هذه المنطقة يخفيها سديم من الرمال. ورغم ذلك نجحت في رؤية قمة جبل العر المشرفة على بئر الخضراء والتي سنصلها في اليوم التالي. وبعيداً إلى جهة اليسار، تقع قمة جبل مدرك.

ودخلت الحكومتان (السعودية واليمن) في مفاوضات بشأن الحدود بين البلدين منذ بداية مناقشة ملكية مورد مياه المايين. وأرسل إبراهيم النشمي -حاكم نجران عام ١٩٣٦م- جامعي الضرائب (الزكاة) لتقدير عدد الجمال والأغنام التي ترد إلى بئر المايين. وبهذه المناسبة، قام رسله بالتوغل في هذه المنطقة إلى أن وصلوا إلى بئر الحشوة في وادي العطفين حيث وجدوا الرعاة من قبيلة يام. ونجم عن هذه البعثة الموفدة من حاكم نجران قرار وهو أن المايين تابعة لقبيلة يام وكذلك قمة جبل ميهـر.

وبعيداً داخل الصحراء وباتجاه الشمال تقريباً، تقع جبال برقة متشككة وحولها إلى الشرق قليلاً توجد روابي غراميل ومن ثم هضاب ضيع التي تقع خلف سلسلة الهضبة. وهناك جبال برقة أئـمد التي تقع بيننا وبين سلسلة الجبال الأخيرة. ورجعت ومعـي جعلـم للمخيم للانضمام لبقية أعضاء الرحلة ومن ثم ركبنا السيارة نحو الجبال التي تحيط بوادي طيبة الاسم. وبعد مسيرة ١٢ ميلاً توقفنا في منتصف النهار لتناول طعام الغداء وللإستراحة تحت ظل شجرة ظليلة في منطقة تبعد قليلاً عن معسكرنا السابق عند مرورنا بهذه المنطقة في بداية الرحلة. وتحركنا الساعة الخامسة بعد الظهر عبر منطقة غير مستوية تكسوها الرمال صوب ممر في هضبة شعير على الضفة اليسرى لوادي العطفين. وبعد برهة دخلنا منطقة رملية تعطلت بها سيارتنا عن الحركة لكن تمكنا من الخروج من هذه الورطة دون عناء كبير. وبعدها واصلنا المسير عبر وادي مدرك فرع طيبة الاسم الذي يجري نحو وادي العطفين إلى أسفل، وأدى الجهد الذي بذلناه وسط الكثبان الرملية إلى إتلاف سيارتنا. وقبل أن نصل إلى معسكرنا في طيبة الاسم بعد الظهر لاحظت أن هناك مشكلة خاصة بزيت السيارة حيث انبعث دخان أسود من العادم (أسطوانة المحرك) في الهواء بواسطة الرياح الشرقية وغطى المكان

برائحة كريهة. وأثناء توقفنا قام محمد بإخراج الزيت المتسخ وملا الماكينة بآخر ما تبقى لنا من زيت يكفي لإيصالنا إلى مدينة نجران. وعلى أية حال لم يكن محمد دقيقاً في قفل الفتحة عند أسفل صهريج الزيت مما أدى إلى انخلاعها إما بواسطة الأعشاب في الطريق أو بواسطة الرمل عندما تتعطل السيارة. وقام محمد بقفل الثقب بواسطة نوى التمر لكن لم تكن هذه الوسيلة مجدية مما جعلنا نتوقف بين الحين والآخر لملاء صهريج الزيت بماء للمحافظة على منسوب الزيت بقدر الإمكان فوق نقطة التسرب. وقد كانت هذه الوسيلة الذكية من محمد هي أفضل ما يمكن عمله للمحافظة على الزيت مما أدى إلى وصولنا إلى نجران بسلام بعد مسيرة ١٦ ميلاً دون أن تحترق ماكينة السيارة. والجزء الأخير من هذه الرحلة تم بمحاورة طرق وعرة في منطقة يجري فيها مجرى المايين الذي ينحدر من أعالي الجبال ليتصل بوادي العطفين الرئيس.

غمرتني فرحة لا حد لها حينما قادت سيارتي نحو المخيم في منطقة تكسوها الشجيرات، وعبر وادي محاط بالصخور عند أسفل جبل ميهـر في آخر ليلة من أيام مغامراتي في جنوب الجزيرة والتي بدأت منذ الليلة الأولى ليوم ٢٦ يوليو، عندما خيمنا لأول مرة على مقربة من هضبة خرطوم الصعرة قبل شهرين ونصف خلت. واليوم كان ١١ أكتوبر. وأثناء ذلك سمعت إذاعة القدس تعلن لعرب فلسطين على وقف أعمال المقاومة حتى يتسنى للورد بيل وزملائه من أعضاء الوكالة الملكية لدراسة الوضع الذي سينتهي بتقديم تقرير عن الأحداث. والهدنة التي أعلنت كانت مؤقتة إلا أنه كان لتدخل الحكام العرب في هذه المناسبة حجر الزاوية في تاريخ شبه الجزيرة العربية. وأثناء كتابتي هذه الأسطر فإن الحكومة البريطانية ما زالت ومنذ عدة شهور تسعى بدأب من أجل إيجاد حل لمشكلة المواجهة للقوى المتنازعة في فلسطين ولكن دون طائل.

بعد تناول طعام عشاء، دعوت زملائي إلى الاستماع (عبر الإذاعة) إلى برنامج للرقص في فندق الملك داود في القدس وكان اليوم السبت، حيث كان الجميع في حالة نشوة واسترخاء مع الإحساس بأنهم سيغادرون صباح الغد إلى الوطن. وعليه فقد قررت أن أكمل ما تبقى من الرحلة بالإبل خاصة وأن سيارتنا سوف تنعطف بشكل كبير نحو أخبأش لتتخذ الطريق الطويل الذي سلكته سابقاً. فضلاً عن ذلك فإن رحلة الجمال ستمكثني من رؤية بقاع لم أرها من قبل كما أنه من غير المحتمل أن تصل السيارة بئر الخضراء اليوم التالي. وتأخرت السيارة بالفعل إذ كنا في حاجة للزيت أو بديل له يسمح بالتحرك. وكان السائق محمد له رأي مفاده أن الزيت الناتج من الدهن (الزبد) الذي يستخدم في الطبخ يمكن استخدامه للسيارة. فذهب جعلل واشترى بعض الزيت من الرعاة من قبيلة يام ببلغ ريالين. وأخيراً وصلت السيارة إلى الخضراء. ومن هنا أرسل جعلل رسالة إلى حاكم نجران يطلب منه أن يرسل لنا زيت سيارة على جناح السرعة. وفي غضون ذلك تحرك البقية منا بالجمال من المخيم الساعة السابعة والنصف باتجاه وادي الماين نحو النقطة التي تتجه جنوب العطفين. ومن هنا انحرف مسار القافلة باتجاه الشمال الشرقي عبر رواق مكون من عدة روابي منخفضة على جهة اليسار وجبال الماين على جهة اليمين. ويسمى هذا الممر: الضيق تتخلله بعض التلال الحجرية التي يعدها الناس هنا مقابر الكفار أي مقابر حقبة ما قبل الإسلام. وبالرغم من أن هذه المقابر كانت بدائية في تركيبها إلا أنها لم تكن مختلفة عن مقابر الجبانة الكبيرة في العلم الأبيض. ويمكنني القول: إن هذه المقابر تمثل مجهودات للمجتمع البدوي البدائي، ومن المؤكد أن الفنانين هم الذي نفذوا الرسومات التي توجد على قمة جبل ميهر، لتقليد الأساليب المتقنة للمقابر وطقوس الدفن الجنائزية للمجتمع السبئي.

يلاحظ أن مجرى وادي الضيق الذي يتصل بوادي العطفين عبر جبال الماين - كما ذكرنا آنفاً- يضيق ويصل اتساعه حوالي ١٠٠ ياردة بين الضفاف الصخرية.

ويزداد المجرى ضيقاً إلى الأمام قليلاً، فابتعدنا عنه باتجاه مضيق جبلي على الجانب الأيمن من المجرى حيث عثرت على عدة مقابر ذات أحجام كبيرة. وتوقفنا برهة عندما انزلق سرجي الذي يعود لأحد رفاقي النجديين، فلاحظت أن هناك مجموعة أخرى تمتد أسفل منحدر رابية منخفضة. وعند حافة هذه الرابية يوجد عمر رملي عبر الجبال على الجانبين. وفي فترة لاحقة عبرنا مجرى وادي شعيب منحة الذي يحتوي على فرع من وادي إمارة. وثمة إشارة هنا وهي أن الأودية في هذه المنطقة أشبه بمتاهة ولغز محير لاسيما وأن البدو لهم أسماء محلية لمراعيهم. لكن بصورة عامة يمكن القول: إن الفرعين الرئيسيين اللذين يكونان وادي العطفين -الاسم يوحي بوجود قناتين- هما حشوة وإمارة، والأخير أطول وأكثر أهمية بينما نجد أن هناك العديد من المسيلات المائية تنحدر من المرتفعات لتصب في هذين الواديين. وهناك وادي منحة الذي تحيط به أشجار الأكاسيا ونباتات أخرى. ويجري هذا الوادي باتجاه جنوب غرب - شمال شرق من جبل إمارة إلى خرطوم الصعرة. ويتصل بهذا الوادي مجرى مائي آخر يسمى «شحا» والذي عبرناه للوصول إلى مرتفعات علّوب المرتفعة نسبياً عن الهضاب المحيطة بها والمكون للضفة اليمنى لواد بنفس الاسم، والآخر عبارة عن متراس في مواجهة بحار الرمال العظيمة للربع الخالي.

وهناك طريق قصير شديد الانحدار يبدأ من هذه الهضبة إلى عقبة علّوب ومن ثم إلى طرف الصحراء الموحشة. وتوقفنا في هذه المنطقة لبعض الوقت لتفحص المقابر التي تنتشر على طرف الهضبة. وهناك منشأة حجرية بارزة وسط هذه المقابر. والجزء الأعلى من هذه المنشأة مهدم في حين أن قاعدتها مربعة ومشيدة من أحجار موضوعة بشكل متقن ويبلغ طول كل من أضلاعها سبعة أقدام. ونحن على هذه القاعدة عثرنا على نقش مهشم وهو الوحيد الذي عثرنا عليه في المنطقة الممتدة من هذه البقعة وإلى المايين. وعند منتصف المسافة أمامنا يوجد وادي نجران المخضّر الذي يجري باتجاه الشمال الشرقي نحو الصحراء حيث يتلاشى هناك. وبين هذا الوادي (نجران) والمنطقة

== الفصل الثالث عشر ==

التي نحن فيها الآن، يوجد خليج واسع من الرمال شبه محاط بالأطراف الخارجية للجبال المجاورة -تنصاب، زفين وجبال أخرى- والتي تعلو دلتا صلة. ويتجه صوب الأخير وادي الفرع المنحدر من مرتفعات وائلة، وباتجاه الشمال يمكننا رؤية الجروف الصخرية المنخفضة لوادي جبونا خلف هضبة تصلال وروابي بني أكلب. وفي غياب جعل مع السيارة طلب كل من محمد بن قنير وأحد الجمالين من عشيرة آل هندي من سالم بن حيران أن يقود الركب نحو منطقة الخضراء. ورغم أن كليهما يعرف الطريق إلا أنهما لم يستطيعا تحديد أي علامة واضحة على امتداد الطريق أمامنا. وخلال معظم اليوم، فإن أفراد عشيرة آل الهندي كانوا يمضون راجلين أمام الجمال لإعطائنا راحة من عناء الأحمال والسفر. ورغم وعناء السفر، فإنهم قد أمضوا شهرين كاملين وهم يتمتعون بوجبات طعام منتظمة ودسمة لم يعهدوا مثلها من قبل.

وبخروجنا من الطريق الواقع طرف الدلتا، وجدنا أنفسنا نجتاز طريقاً رملياً يقع بين عقبات صخرية على يسارنا وهضبة عالية ذات لون برتقالي على يمين خط سيرنا وتقع خلفها هضبة عقط وفي غضون ذلك كانت هناك مجموعة من بدو آل هندي من عشيرة أهل منصور من التابعين إلى رجلاً في وادي نجران تعبر المنطقة في طريقها إلى المايين. وتتكون هذه القافلة من عشرين جملاً. وأحد هذه الجمال عليها محفة -تعرف هنا باسم مظلة لكن تعرف أيضاً باسم قين في الشمال-. وكان رجال القافلة يسرون على الأقدام ويتبادلون معنا التحايا مثل «الله يجازيك، والله يعطيك العافية». وتدرجياً خرجنا من طريق الرواق الجبلي إلى منطقة رملية واسعة وواصلنا المسير إلى أن بلغنا رابية الرزيزة الصخرية غرب هضبة زفين حيث توقفنا لتناول الغداء ولأخذ قسط من الراحة. وانتهزت هذه السانحة لعمل مسح للمنطقة التي حولنا. ويلاحظ أن قمة جبل العريق يقع باتجاه الشمال الغربي في حين أن هضبة تصلال تقع خلفها باتجاه الشمال مباشرة. وعند الجهة الغربية، خلف جبل صلة الثار تقع سلسلة جبال نجران المثلمة والكبيرة في أم خرق عبلة والمرحاً وتوقفنا لقضاء وقت القيلولة عند كهوف منطقة

الرزيزة الجبلية الجرانيتية حيث كانت جمالنا ترعى أعشاب النصي والعلقي بينما كنا نأخذ قسطاً من الراحة. وتبلغ درجة الحرارة في الكهوف ٨٦ درجة فهرنهايت في حين أن الجو يبدو بارداً طيباً تحت ظل الكهوف.

واستأنفنا مسيرنا الساعة الثانية بعد الظهر نحو النقطة الأولى التي تحركنا منها في بداية الرحلة عند بئر الخضراء. وهناك وادي صلة الذي توجد على مقربة منه رابية صغيرة لكنها أصغر من رابية الرزيزة وهو يقع مباشرة أمامنا. وتتميز منطقة هذا الوادي بوجود بحار هائلة من الرمال، تمتد من زفين وتتطور في شكل وسائد متحركة بارتفاع خمسة عشر إلى عشرين قدماً. وهناك تظهر خطوط مرتفعة من الرمال أجبرتنا على تغيير مسارنا ونحن نتحرك باتجاه تنصاب. فضلاً عن ذلك فقد تخطينا عدة عقبات في وادي صلة تمثلها شجيرات العبل فوق كتبان الرمال العالية والشجيرات الخفيفة الأخرى. وإلى اليسار من موقعنا يرى وادي الفرع وهو ينحدر من الجروف الصخرية الجرانيتية. وخلف الوادي مباشرة يقودنا سهل ذو رمل خشن إلى وادي الفرع الذي تكسوه أشجار الأكاسيا. وتحت ظلال أحد هذه الأشجار، وجدنا أحد الرعاة ومعه زوجته. وكان لدى الزوج صقر وكلب سلوقي لمساعدته في الصيد بينما كانت زوجته ترعى خرافها.

وإلى اليسار من موقعنا يوجد جدول يخترق جبال العر والهضب وبعض المرتفعات الأخرى الجرانيتية الداكنة. ويكون هذا الجدول ما يشبه الرواق في المنطقة الممتدة من روابي يعلين وإلى وادي نجران أسفل المناجم. وعند وصولنا جبل العر اتجهنا نحو صخرة حدودية ذات فتحة عند طرف الجبال الشمالية، ولكن سرعان ما وجدنا أن الطريق مقفل بواسطة الجلاميد المتناثرة والتي تكون حاجزاً أمام وادي نجران. وفي أحد هذه الجلاميد عثرت على مجموعة من النقوش الثمودية والعربية الحديثة لكن معظمها متآكل بحيث يصعب نسخها. واتجهنا ناحية الشمال الشرقي حيث عثرنا على مخرج على هيئة ممر عبر كسر بعض الجلاميد الصخرية. وتوجب علينا أن نسير على

الأقدام وأن ندع جمالنا تعبر هذه العقبة على حركة التفافه حول الممر. وبعد رحلة طويلة وصلنا إلى بئر مهجورة الساعة الخامسة بعد الظهر حيث توقفنا لقضاء المساء عند مأوى صخري من حجر الجرانيت. وهو المكان نفسه الذي بحثنا فيه عن النقوش قبل أحد عشر أسبوعاً. وكنا قد أرسلنا رسالة إلى نجران لإحضار زيت لسيارتنا التي قطعت حوالي ٤٦ ميلاً من المايين عبر طريق أكثر مباشرة من ذلك الذي سلكناه في بداية الرحلة. وكان الجو طيباً للغاية في الليل حيث بلغت درجة الحرارة ٥٧° فهرنهايت مقارنة بشهر يوليو الذي وصلت فيه درجة الحرارة إلى ٧٠° فهرنهايت. وثمة إشارة هنا وهي أن زملاءنا من أفراد القافلة الذين أمامهم رحلة طويلة للوصول إلى نجران سوف يرتاحون غداً من وعثاء السفر ويذهبون إلى أسرهم أو إلى زوجاتهم وأطفالهم بعد أن يغتسلوا من أوساخ السفر ويلبسوا ملابسهم النظيفة. وتحركت قافلة الجمال الساعة التاسعة صباحاً نحو نجران، وتخلفت وبمعتي صالح بن حزيق وحمد القردي ومحمد عن هذا الركب لنلحق بهم عندما تتمكن من ذلك.

وجاءت مجموعة من الرعاة - امرأة واحدة ومجموعة من الرجال - لتسقي أغنامها وخرافها في البئر التي تقع على مقربة من مخيمنا. وبعد برهة قليلة وصل زوجان. وكانت المرأة فتاة ممتلئة الجسم، مفعمة بالصحة وترتدي ثوباً خارجياً رث الهيئة، فضفاضاً بحيث يكشف عن تفاصيل جسمها أثناء عملها. وبعد فترة وجيزة امتلأ المكان بالناس وهم يمتحون الماء من البئر للسقيا وكانت البنات في حالة مرح وحبور كثير. وفي غضون ذلك وصل زيت السيارة الساعة العاشرة والنصف صباحاً حيث تحررنا باتجاه نجران وصوت راعي الأغنام يشنف آذاننا بأهازيجه: يا هب، يا هيبا- هيبا- هيبا- يا هيبا - إوب- أوب هيبا- هيبا- إوب، هيا، هيا. والآن انتهى فصل من رحلتنا العظيمة. وبالنسبة للأيام القادمة سوف ننعيم بضيافة نجران لنجهز بعدها أنفسنا لأعمال قادمة.

ملحق

بقلم: أ. ف. بیستون *

من النقوش، التي نقلها فيليبي في رحلته، عدد كبير منها، ننف قصيرة (مخربشات) كما هو متوقع، أو مجرد أشياء لا معاني لها. وما أمكن ترجمته منها كان أسماء أعلام عادة أو في بعض الحالات كلمات متفرقة^(١) وعلى أي حال، فإن كثيراً من هذه الكلمات في رأي البروفيسير ريكانز لا يمكن قراءته قراءة مرضية. إن خط معظمها من النوع الثمودي - اللحياني^(***) - يصعب على المرء أن يكون أكثر دقة من ذلك-، ولكن بعضها بالخط السبئي^(****)؛ أحدها من الخضراء يشابه الكوفي؛ ومجموعة صغيرة من قرب ظهران بالعبري.

وتقابل هذه مجموعتان من النقوش الرسمية. أولاها، مجموعة باللهجة الحضرية القديمة، من الصخرة الصغيرة التي تعلوها أطلال برج في العقلة (انظر ص ص ٣١٤-٣١٥ أعلاه) ومن أطلال شبوة^(٢). ثانيها بعض النقوش المتنوعة بالسبئية من الأساحل، وخربة أبي السعود، والدريب، وشبوة^(٢).

* ملحوظة: ترجم الملحق الخاص بالقشور التي اكتشفها فيلبي أ.د عبدالقادر محمود عبدالله، وسوف يشار إلى تعليقاته باسم (المترجم)، وراجعه د. سعيد السعيد، وسوف يشار إلى تعليقاته باسم. (المراجع).

(١) على سبيل المثال، في شعب عرجان، وفوق رسم لجمل وردت: 𐤌𐤍𐤏𐤃 قارن «وسم» العربية. (المؤلف).
 (§§) إن كافة النقوش التي اكتشفها فليبي في جنوب الجزيرة العربية كتبت إما بخط المسند أو بقلم الخط الشمودي، أما قول المؤلف هنا بأنها مكتوبة بالعلم اللحياني فقد جانبه الصواب، إذ لم يثبت حتى الآن أن الخط اللحياني، الذي انتشر استخدامه في شمال الجزيرة العربية، وخاصة في منطقة العلا وما جاورها، قد امتد استخدامه إلى تلك المناطق البعيدة. (المراجع).

《海錄》 إن تسمية هذا الخط «بالخط السبئي» غير دقيقة، فمن المعلوم والثابت أن القلم الذي كتبت به اللغة السبئية

يسمى خط المسند، وقد يطلق عليه تجاراً مسمى خط جنوب الجزيرة العربية القديم. (المراجع).

(٢) تلك النقوش من شبوة كان قد نشرها ريكرمانز في *Le Museon*, 50, pp. 245-251.

النقوش السبئية. وهي نقوش بناء أو هبة من النوع المعروف، من بينها نقش يبدو أنه عقد. وحين يذكر الحكام فإنهم يحملون لقب مكرب (جمعه مكاربة) (*)؛ الشيء الذي يعيد هذه النقوش إلى الفترة السبئية المبكرة أي نحو ٧٠٠ ق.م.

إن جميع نقوش الأساحل لها صيغة واحدة. انظر أدناه في بعض نقوش مختارة رقم ٧٧. وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك نقشاً يخلو من اسم المكان في آخره، وأربعة حل محل اسم المكان فيها أسماء أخرى نحو **د ذ م**، **مرجم ذ ه**.. (أو **ذي..**)، و **ي. ي. ث** (**يل[ل]يلث؟**). ويبدو أن فلقة من الدرب تحتوي على الصيغة نفسها، إلا أن صاحب النقش هو **كرب إل وتر** (**)، واسم المكان هو **ريمن**.

إن كل نقوش **خربة أبي السعود** تنف ناقصة قليلة الأهمية ثلاثة منها نسخ من أجزاء من النقش المرسوم CIH 496. ومثلها واحد من الدرب أيضاً.

بين نقوش الدرب ثلاثة ذات أهمية خاصة؛ انظر أدناه ٧٨، ٧٩، ٨٠. وهناك آخر تشابه صيغته CIH 366 مشابهة شديدة؛ لكن صاحبه هو المكرب **كرب إل وتر بن ذمر علي**.
نقوش العقلة. لا شك أن هذه أهم نقوش المجموعة كلها. لكن بها معضلات كبيرة في الترجمة. فالكلمات نفسها تتكرر وفي كافة السياق نفسه وفي كافة النقوش تقريباً، مما يجعل حالنا في ترجمتها ليس بأفضل مما لو كانت العبارات هي **ἀπαξ λεγόμενα** (المعنى الواحد نفسه).

وعلى الرغم من ذلك فإنه لمن الواضح أن بأيدينا فئة من النقوش لأسرة ملوك حضرموت حيث زار كل واحد منهم هذه البقعة (التي يبدو أنها كانت تسمى **أنود** آنذاك)، للقيام ببعض الأعمال التي تخلدها هذه النقوش. ففي حالتين اقترن أحد أعضاء هذه الأسرة بالملك آنذاك وإن لم يكن نفسه ملكاً. وبالإضافة إلى هذه النقوش، فهناك عدد من النقوش الأخرى ذات الصيغة «فلان بن فلان (واحد أو أكثر) رافق سيده (سيدهما/ سيدهم) فلان، ملك حضرموت عندما (قام بهذه الأعمال)». والفعل المستخدم لوصف أعمال هؤلاء الأشخاص هو **١٥٥٣** أو **١٥٩٣** (صيغتان يبدو أنهما غير مختلفتين)، وفي حالة واحدة **١٥٩٤** "ساعد".

(*) مكرب: لقب كان يحمله الحكام في جنوب الجزيرة العربية، وقد تلقب به الحكام السبئيون في فترات حكمهم

المبكرة، ثم ما لبثوا أن استعاضوا عنه إبان القرن السادس ق.م بلقب ملك. (المراجع).

(**) أحد حكام مملكة سبأ. (المراجع).

ولقد أعطي مثالان لذلك، ٨١، ٨٢. وبعض النقوش تأتي صيغته: "فلان رافق سيده" فقط وبعضها الآخر مجرد أسماء.

إن الكلمات الأساسية التي تصف أعمال هؤلاء الملوك هي 𐩦𐩣𐩪𐩥𐩢𐩪𐩣 أو في بعض الحالات (٨٧، ٨٥) 𐩦𐩣𐩪𐩥𐩢𐩪𐩣. ومن هذه الكلمات الثلاث واحدة فقط، هي 𐩦𐩣𐩪𐩥𐩢𐩪𐩣، معروفة من قبل في العربية القديمة الجنوبية؛ وبما أن هذه الكلمة تتعلق بالمباني ("سقف" 340 CIH 'بناء' 2666 CIH؛ "مسكن" بالنقش نفسه^٤)، وكان رودو كاناكس (Studien, ii, 35) قد ترجمها بما يوافق **صلال** "قطع من الحجارة" الحضرمية الحديثة، فإنني ملت في أول الأمر إلى عد الكلمات الثلاث أفعالاً خاصة بتقنيات البناء، وأنها ربما كانت تصف إصلاحات عملت في الحصن.

ولكن ريكمانز ينهني إلى بضع اعتراضات على هذا التفسير هي أن الملك موصوف بأنه سائر (𐩦𐩣𐩪𐩥𐩢𐩪𐩣) إلى العُقلة للقيام بهذه الأعمال؛ وأنه "رافقه" بعض الشخصيات، كان من بينها في إحدى الحالات مبعوثا الملك السبئي (٨٢)؛ وأن الأفعال ليس لها مفعول به مباشر يحدد بالتحديد المبنى أو الجزء من المبنى الذي تم إصلاحه^(٤)، وهو تحديد مألوف في نقوش البناء المعروفة لنا. ولهذه الحجج أضيف حقيقة ملفتة للنظر هي أن كل ملك يُذكر مرة واحدة بأنه قام بهذه الأعمال؛ وستكون صدفة فريدة أن يحتاج البرج لصيانة واحدة فقط في كل عهد.

لذا فإنني في بحثي عن معاني أخرى لهذه الكلمات ملت لأن أتخذ الفعل 𐩦𐩣𐩪𐩥𐩢𐩪𐩣 منطلقاً لي. إن الجذر لقب معروف في اللغة العربية، وله معنى واحد هو "اسم، لقب". فإن اتبع المرء هذا المفتاح فإنه سيروق له تأصيل الكلمتين الأخريين في ملل "تكلم" السريانية و صلّ "أصدر صوتاً" العربية، وترجمة العبارة بشيء نحو "نادى بنفسه ملكاً وتلقب بهذا اللقب". لذا فإن المرء يستنتج أن العُقلة ربما كانت المكان الذي تقام فيه مراسم ارتقاء هذه الأسرة العرش.

(٤) باستثناء حالة واحدة؛ حيث جعلت طمسة في الوسط التركيب النحوي مشكوكاً فيه.

وأخيراً، هناك نقشان من نوع مخالف للبقية. إن ترجمة أحدهما، ٨٩ أدناه، غير مؤكدة، ولكنني أحسبه نقش بناء من النوع المعروف؛ والآخر، ٨٤ نقش بناء، لكنه يذكر بعض القرابين المثيرة.

الأسرة الملكية الحضرية. باستثناء إل عذ يلط "L.D.YLT بن عم ذخر، فإن الأسماء الملكية الواردة في نقوش العقلة يمكن ترتيبها ترتيباً أسرياً. والأسماء هي ^(١):

(١) يدع إل بين بن رب شمس، في ٨٤.

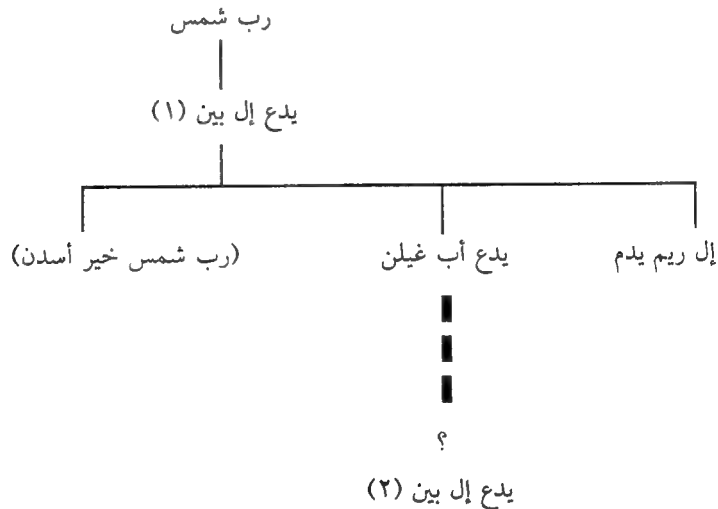
(٢) إل ريم يدم بن يدع إل بين، في ٨٥.

(٣) يدع أب غيلن بن يدع إل بين، في ٨٧.

(٤) (ربما يدع إل بين بن يدع أب غيلن، الذي في نقش ركانز ١٦٩ كذلك؟).

بالإضافة إلى شخص ما اسمه رب شمس بن يدع إل بين، الذي يرد مرة واحدة أحياناً للثاني (٢) في النقش ٨٦، ومرة واحدة أحياناً للثالث (٣) في ٨٨، ولم يرد باللقب الملكي أبداً.

ويجوز ترتيب هذه الأسماء ترتيباً ظنياً في الهيكل الآتي:



(١) نشر د. جواد علي قوائم حكام حضرموت لعدد من الرحالة الأوربيين ومن ضمنهم فيليبي. انظر: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج ٢، ص ١٦٧. (المراجعون).

يبدو أن العبارة خير أسدن لقب من نوع ما. ومن الواضح أن الأسرة الملكية كانت لها صلات ما بقبيلة أسد، وذلك لأن ختن الملك موصوف بأنه "أسدي" في أحد النقوش. وإنه لشيء ذو دلالة ألا يكون رب شمس موصوفاً بذلك خلال حكم إل ريم يدم. ولعل التفسير الذي يطرح نفسه لهذا هو أن هذا اللقب كان يحمله أقرب إخوة الملك إليه - بافتراض أن إل ريم يدم، ويدع أب غيلن، ورب شمس كانوا الأول والثاني والثالث، بهذا الترتيب، في تولي الملك.

تأريخ نقوش العقلة. إن النقطة التي تلفت نظر المرء لأول وهلة هي أن إل عذ^(٥) يلط يظهر في النقش ٨٢ كمعاصر لملك سبأ وذي ريدان؛ لذا فلا بد من جعله في زمن ما بين ١١٥ ق.م، حين اتخذ ملوك سبأ هذا اللقب، وبين ٣٠٠م، حين فقدت حضرموت استقلالها في آخر الأمر وذابت في الامبراطورية السبئية. وإنه لمؤسف ألا يمكن تحديد علاقته بالآخرين. وبالرغم من ذلك، فإني أرى أنه بالإمكان اقتراض عدم بعده عنهم في زمنه.

ومن الناحية الأخرى، فإنه يجوز جعل بداية هذه النقوش بعد الفترة النصرانية، إن صحت ترجمتي المقترحة للنقش ٨٤. فإن جاز ذلك فإن لدينا ذكراً لتأسيس شبة على يد أول ملوك هذه الفئة. ثم إن Sabota التي ذكرها استرابون على أنها حاضرة حضرموت (Lib. xvi, cap. 4, § 2, ed. Meineke). وصحيح أن أسماء البلدات هذه عرضة لتصحيفات كثيرة في النصوص الكلاسيكية. ولكن بما أن استرابون يؤيده في هذه الحالة "Sabota" (سَبْتَة) عند بليني (vi, 155)، وأهم من ذلك Sabota في دليل البحر الإريتري (27)، فإنه يحق لنا أن نفترض صحة الاسم.

وعلاوة على ذلك فإننا لا نستطيع أن نجعل بداية الفئة قبل الميلاد مباشرة، بحيث يشمل معظمها النصف الأول من القرن الأول الميلادي، وذلك لأنه في سنة ٢٩م كان يحكم شخص ما اسمه إل عذ يلط بن سلفن، أو علهن.

(انظر: Handbuch der altarabischen Altertumskunde herausg. V. D.

(Nielsen, i, 103). لذا فلا بد أن تنتهي فئتنا قبل سنة ٢٩م.

(٥) طبع L'D YLT خطأ، بالبدال (D) بدل الئال (D)، في البحث. (الترجم).

وكذلك، فإننا في الفترة السابقة بقليل لسنة ١١٥ ق.م. لدينا شخص اسمه يدع أب غيلن تلاه آخر اسمه عج (المرجع نفسه، ١٠٢). لذا، فإن كنا سنعد يدع أب غيلن هذا هو ذلك المذكور في نقوشنا يتطابق مع ذلك المذكور في نقش ريكمائز ١٦٩، والذي هو الد يدع إل بين، فإنه سينبغي علينا عد الأخير أخاً لإل عذ.

وبذلك تصبح لدينا ثلاثة احتمالات. فمن جهة يمكننا الأخذ بالاقترح المقدم لنوه، فنتتهي نقوشنا بنحو ١١٥ ق.م. ومن ناحية ثانية يجوز لنا أن نعد يدع أب غيلن الذي في نقوشنا شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي سبق إل عذ، وفي هذه الحالة يستحيل على فنتنا أن تشمل الفترة التي تساوي جيلاً قبل ١١٥ ق.م وجيلاً بعدها. ولكنها قد تنتهي جيلين أو أكثر قبل ١١٥ ق.م (ولكن ليس بأكثر من ذلك لثلا تبتعد بأكثر مما يجب عن إل عذ يلط بن عم ذخر)، أو تقع في الفترة البائدة قليلاً قبل ١١٥ ق.م إلى قليل بعد الميلاد.

مجموعة مختارة من النصوص^(٦)

٧٧ «السحيل»

1910-4 ያህል በገንዘብ ምርት ምርመራ

በ)ሆ፤(X))፡ከነገርባለበት ሐላፊ ሂ

يشع أمر بين بن سمه على مكرب سبا سور حروب باستحكامات (*) .

٥)) (X): هذه الصيغة جديدة. والمفرد (I) يعني «حصن جبلي» (تماماً كما تعني عُرر في اليمن اليوم، حسبما جاء في (Rossini, Glossary) في CIH 74⁴، إلخ. والجمع (II) مستخدم في RES 3945⁸، مقابل (III) «واديان زراعية». ولكي أعطى هذه

(٦) إن النقوش التي نشرها ريكمائز في Le Museon, Vol. 50، قد وصفها Philby 1-14. وثمة مجموعة أخرى تالية لها، أعطاهم الأرقام Philby 15-76، ستشر قريباً في المجلة نفسها. لذلك فإني أعطيت هذه المجموعة أرقاماً تلي الأخيرة هذه. (المؤلف).

(*) من خلال النص السبئي فإن الترجمة تكون: حصن حرب. (المراجع).

1𐎧𐎠𐎡𐎢𐎣𐎤𐎥𐎦𐎧𐎨𐎩𐎪𐎫𐎬𐎭𐎮𐎯𐎰𐎱𐎲𐎳𐎴𐎵𐎶𐎷𐎸𐎹𐎺𐎻𐎼𐎽𐎾𐎿𐏀𐏁𐏂𐏃𐏄𐏅𐏆𐏇𐏈𐏉𐏊𐏋𐏌𐏍𐏎𐏏𐏐𐏑𐏒𐏓𐏔𐏕𐏖𐏗𐏘𐏙𐏚𐏛𐏜𐏝𐏞𐏟𐏠𐏡𐏢𐏣𐏤𐏥𐏦𐏧𐏨𐏩𐏪𐏫𐏬𐏭𐏮𐏯𐏰𐏱𐏲𐏳𐏴𐏵𐏶𐏷𐏸𐏹𐏺𐏻𐏼𐏽𐏾𐏿𐐀𐐁𐐂𐐃𐐄𐐅𐐆𐐇𐐈𐐉𐐊𐐋𐐌𐐍𐐎𐐏𐐐𐐑𐐒𐐓𐐔𐐕𐐖𐐗𐐘𐐙𐐚𐐛𐐜𐐝𐐞𐐟𐐠𐐡𐐢𐐣𐐤𐐥𐐦𐐧𐐨𐐩𐐪𐐫𐐬𐐭𐐮𐐯𐐰𐐱𐐲𐐳𐐴𐐵𐐶𐐷𐐸𐐹𐐺𐐻𐐼𐐽𐐾𐐿𐑀𐑁𐑂𐑃𐑄𐑅𐑆𐑇𐑈𐑉𐑊𐑋𐑌𐑍𐑎𐑏𐑐𐑑𐑒𐑓𐑔𐑕𐑖𐑗𐑘𐑙𐑚𐑛𐑜𐑝𐑞𐑟𐑠𐑡𐑢𐑣𐑤𐑥𐑦𐑧𐑨𐑩𐑪𐑫𐑬𐑭𐑮𐑯𐑰𐑱𐑲𐑳𐑴𐑵𐑶𐑷𐑸𐑹𐑺𐑻𐑼𐑽𐑾𐑿𐒀𐒁𐒂𐒃𐒄𐒅𐒆𐒇𐒈𐒉𐒊𐒋𐒌𐒍𐒎𐒏𐒐𐒑𐒒𐒓𐒔𐒕𐒖𐒗𐒘𐒙𐒚𐒛𐒜𐒝𐒞𐒟𐒠𐒡𐒢𐒣𐒤𐒥𐒦𐒧𐒨𐒩𐒪𐒫𐒬𐒭𐒮𐒯𐒰𐒱𐒲𐒳𐒴𐒵𐒶𐒷𐒸𐒹𐒺𐒻𐒼𐒽𐒾𐒿𐓀𐓁𐓂𐓃𐓄𐓅𐓆𐓇𐓈𐓉𐓊𐓋𐓌𐓍𐓎𐓏𐓐𐓑𐓒𐓓𐓔𐓕𐓖𐓗𐓘𐓙𐓚𐓛𐓜𐓝𐓞𐓟𐓠𐓡𐓢𐓣𐓤𐓥𐓦𐓧𐓨𐓩𐓪𐓫𐓬𐓭𐓮𐓯𐓰𐓱𐓲𐓳𐓴𐓵𐓶𐓷𐓸𐓹𐓺𐓻𐓼𐓽𐓾𐓿𐔀𐔁𐔂𐔃𐔄𐔅𐔆𐔇𐔈𐔉𐔊𐔋𐔌𐔍𐔎𐔏𐔐𐔑𐔒𐔓𐔔𐔕𐔖𐔗𐔘𐔙𐔚𐔛𐔜𐔝𐔞𐔟𐔠𐔡𐔢𐔣𐔤𐔥𐔦𐔧𐔨𐔩𐔪𐔫𐔬𐔭𐔮𐔯𐔰𐔱𐔲𐔳𐔴𐔵𐔶𐔷𐔸𐔹𐔺𐔻𐔼𐔽𐔾𐔿𐕀𐕁𐕂𐕃𐕄𐕅𐕆𐕇𐕈𐕉𐕊𐕋𐕌𐕍𐕎𐕏𐕐𐕑𐕒𐕓𐕔𐕕𐕖𐕗𐕘𐕙𐕚𐕛𐕜𐕝𐕞𐕟𐕠𐕡𐕢𐕣𐕤𐕥𐕦𐕧𐕨𐕩𐕪𐕫𐕬𐕭𐕮𐕯𐕰𐕱𐕲𐕳𐕴𐕵𐕶𐕷𐕸𐕹𐕺𐕻𐕼𐕽𐕾𐕿𐖀𐖁𐖂𐖃𐖄𐖅𐖆𐖇𐖈𐖉𐖊𐖋𐖌𐖍𐖎𐖏𐖐𐖑𐖒𐖓𐖔𐖕𐖖𐖗𐖘𐖙𐖚𐖛𐖜𐖝𐖞𐖟𐖠𐖡𐖢𐖣𐖤𐖥𐖦𐖧𐖨𐖩𐖪𐖫𐖬𐖭𐖮𐖯𐖰𐖱𐖲𐖳𐖴𐖵𐖶𐖷𐖸𐖹𐖺𐖻𐖼𐖽𐖾𐖿𐗀𐗁𐗂𐗃𐗄𐗅𐗆𐗇𐗈𐗉𐗊𐗋𐗌𐗍𐗎𐗏𐗐𐗑𐗒𐗓𐗔𐗕𐗖𐗗𐗘𐗙𐗚𐗛𐗜𐗝𐗞𐗟𐗠𐗡𐗢𐗣𐗤𐗥𐗦𐗧𐗨𐗩𐗪𐗫𐗬𐗭𐗮𐗯𐗰𐗱𐗲𐗳𐗴𐗵𐗶𐗷𐗸𐗹𐗺𐗻𐗼𐗽𐗾𐗿𐘀𐘁𐘂𐘃𐘄𐘅𐘆𐘇𐘈𐘉𐘊𐘋𐘌𐘍𐘎𐘏𐘐𐘑𐘒𐘓𐘔𐘕𐘖𐘗𐘘𐘙𐘚𐘛𐘜𐘝𐘞𐘟𐘠𐘡𐘢𐘣𐘤𐘥𐘦𐘧𐘨𐘩𐘪𐘫𐘬𐘭𐘮𐘯𐘰𐘱𐘲𐘳𐘴𐘵𐘶𐘷𐘸𐘹𐘺𐘻𐘼𐘽𐘾𐘿𐙀𐙁𐙂𐙃𐙄𐙅𐙆𐙇𐙈𐙉𐙊𐙋𐙌𐙍𐙎𐙏𐙐𐙑𐙒𐙓𐙔𐙕𐙖𐙗𐙘𐙙𐙚𐙛𐙜𐙝𐙞𐙟𐙠𐙡𐙢𐙣𐙤𐙥𐙦𐙧𐙨𐙩𐙪𐙫𐙬𐙭𐙮𐙯𐙰𐙱𐙲𐙳𐙴𐙵𐙶𐙷𐙸𐙹𐙺𐙻𐙼𐙽𐙾𐙿𐚀𐚁𐚂𐚃𐚄𐚅𐚆𐚇𐚈𐚉𐚊𐚋𐚌𐚍𐚎𐚏𐚐𐚑𐚒𐚓𐚔𐚕𐚖𐚗𐚘𐚙𐚚𐚛𐚜𐚝𐚞𐚟𐚠𐚡𐚢𐚣𐚤𐚥𐚦𐚧𐚨𐚩𐚪𐚫𐚬𐚭𐚮𐚯𐚰𐚱𐚲𐚳𐚴𐚵𐚶𐚷𐚸𐚹𐚺𐚻𐚼𐚽𐚾𐚿𐛀𐛁𐛂𐛃𐛄𐛅𐛆𐛇𐛈𐛉𐛊𐛋𐛌𐛍𐛎𐛏𐛐𐛑𐛒𐛓𐛔𐛕𐛖𐛗𐛘𐛙𐛚𐛛𐛜𐛝𐛞𐛟𐛠𐛡𐛢𐛣𐛤𐛥𐛦𐛧𐛨𐛩𐛪𐛫𐛬𐛭𐛮𐛯𐛰𐛱𐛲𐛳𐛴𐛵𐛶𐛷𐛸𐛹𐛺𐛻𐛼𐛽𐛾𐛿𐜀𐜁𐜂𐜃𐜄𐜅𐜆𐜇𐜈𐜉𐜊𐜋𐜌𐜍𐜎𐜏𐜐𐜑𐜒𐜓𐜔𐜕𐜖𐜗𐜘𐜙𐜚𐜛𐜜𐜝𐜞𐜟𐜠𐜡𐜢𐜣𐜤𐜥𐜦𐜧𐜨𐜩𐜪𐜫𐜬𐜭𐜮𐜯𐜰𐜱𐜲𐜳𐜴𐜵𐜶𐜷𐜸𐜹𐜺𐜻𐜼𐜽𐜾𐜿𐝀𐝁𐝂𐝃𐝄𐝅𐝆𐝇𐝈𐝉𐝊𐝋𐝌𐝍𐝎𐝏𐝐𐝑𐝒𐝓𐝔𐝕𐝖𐝗𐝘𐝙𐝚𐝛𐝜𐝝𐝞𐝟𐝠𐝡𐝢𐝣𐝤𐝥𐝦𐝧𐝨𐝩𐝪𐝫𐝬𐝭𐝮𐝯𐝰𐝱𐝲𐝳𐝴𐝵𐝶𐝷𐝸𐝹𐝺𐝻𐝼𐝽𐝾𐝿𐞀𐞁𐞂𐞃𐞄𐞅𐞆𐞇𐞈𐞉𐞊𐞋𐞌𐞍𐞎𐞏𐞐𐞑𐞒𐞓𐞔𐞕𐞖𐞗𐞘𐞙𐞚𐞛𐞜𐞝𐞞𐞟𐞠𐞡𐞢𐞣𐞤𐞥𐞦𐞧𐞨𐞩𐞪𐞫𐞬𐞭𐞮𐞯𐞰𐞱𐞲𐞳𐞴𐞵𐞶𐞷𐞸𐞹𐞺𐞻𐞼𐞽𐞾𐞿𐟀𐟁𐟂𐟃𐟄𐟅𐟆𐟇𐟈𐟉𐟊𐟋𐟌𐟍𐟎𐟏𐟐𐟑𐟒𐟓𐟔𐟕𐟖𐟗𐟘𐟙𐟚𐟛𐟜𐟝𐟞𐟟𐟠𐟡𐟢𐟣𐟤𐟥𐟦𐟧𐟨𐟩𐟪𐟫𐟬𐟭𐟮𐟯𐟰𐟱𐟲𐟳𐟴𐟵𐟶𐟷𐟸𐟹𐟺𐟻𐟼𐟽𐟾𐟿𐠀𐠁𐠂𐠃𐠄𐠅𐠆𐠇𐠈𐠉𐠊𐠋𐠌𐠍𐠎𐠏𐠐𐠑𐠒𐠓𐠔𐠕𐠖𐠗𐠘𐠙𐠚𐠛𐠜𐠝𐠞𐠟𐠠𐠡𐠢𐠣𐠤𐠥𐠦𐠧𐠨𐠩𐠪𐠫𐠬𐠭𐠮𐠯𐠰𐠱𐠲𐠳𐠴𐠵𐠶𐠷𐠸𐠹𐠺𐠻𐠼𐠽𐠾𐠿𐡀𐡁𐡂𐡃𐡄𐡅𐡆𐡇𐡈𐡉𐡊𐡋𐡌𐡍𐡎𐡏𐡐𐡑𐡒𐡓𐡔𐡕𐡖𐡗𐡘𐡙𐡚𐡛𐡜𐡝𐡞𐡟𐡠𐡡𐡢𐡣𐡤𐡥𐡦𐡧𐡨𐡩𐡪𐡫𐡬𐡭𐡮𐡯𐡰𐡱𐡲𐡳𐡴𐡵𐡶𐡷𐡸𐡹𐡺𐡻𐡼𐡽𐡾𐡿𐢀𐢁𐢂𐢃𐢄𐢅𐢆𐢇𐢈𐢉𐢊𐢋𐢌𐢍𐢎𐢏𐢐𐢑𐢒𐢓𐢔𐢕𐢖𐢗𐢘𐢙𐢚𐢛𐢜𐢝𐢞𐢟𐢠𐢡𐢢𐢣𐢤𐢥𐢦𐢧𐢨𐢩𐢪𐢫𐢬𐢭𐢮𐢯𐢰𐢱𐢲𐢳𐢴𐢵𐢶𐢷𐢸𐢹𐢺𐢻𐢼𐢽𐢾𐢿𐣀𐣁𐣂𐣃𐣄𐣅𐣆𐣇𐣈𐣉𐣊𐣋𐣌𐣍𐣎𐣏𐣐𐣑𐣒𐣓𐣔𐣕𐣖𐣗𐣘𐣙𐣚𐣛𐣜𐣝𐣞𐣟𐣠𐣡𐣢𐣣𐣤𐣥𐣦𐣧𐣨𐣩𐣪𐣫𐣬𐣭𐣮𐣯𐣰𐣱𐣲𐣳𐣴𐣵𐣶𐣷𐣸𐣹𐣺𐣻𐣼𐣽𐣾𐣿𐤀𐤁𐤂𐤃𐤄𐤅𐤆𐤇𐤈𐤉𐤊𐤋𐤌𐤍𐤎𐤏𐤐𐤑𐤒𐤓𐤔𐤕𐤖𐤗𐤘𐤙𐤚𐤛𐤜𐤝𐤞𐤟𐤠𐤡𐤢𐤣𐤤𐤥𐤦𐤧𐤨𐤩𐤪𐤫𐤬𐤭𐤮𐤯𐤰𐤱𐤲𐤳𐤴𐤵𐤶𐤷𐤸𐤹𐤺𐤻𐤼𐤽𐤾𐤿𐥀𐥁𐥂𐥃𐥄𐥅𐥆𐥇𐥈𐥉𐥊𐥋𐥌𐥍𐥎𐥏𐥐𐥑𐥒𐥓𐥔𐥕𐥖𐥗𐥘𐥙𐥚𐥛𐥜𐥝𐥞𐥟𐥠𐥡𐥢𐥣𐥤𐥥𐥦𐥧𐥨𐥩𐥪𐥫𐥬𐥭𐥮𐥯𐥰𐥱𐥲𐥳𐥴𐥵𐥶𐥷𐥸𐥹𐥺𐥻𐥼𐥽𐥾𐥿𐦀𐦁𐦂𐦃𐦄𐦅𐦆𐦇𐦈𐦉𐦊𐦋𐦌𐦍𐦎𐦏𐦐𐦑𐦒𐦓𐦔𐦕𐦖𐦗𐦘𐦙𐦚𐦛𐦜𐦝𐦞𐦟𐦠𐦡𐦢𐦣𐦤𐦥𐦦𐦧𐦨𐦩𐦪𐦫𐦬𐦭𐦮𐦯𐦰𐦱𐦲𐦳𐦴𐦵𐦶𐦷𐦸𐦹𐦺𐦻𐦼𐦽𐦾𐦿𐧀𐧁𐧂𐧃𐧄𐧅𐧆𐧇𐧈𐧉𐧊𐧋𐧌𐧍𐧎𐧏𐧐𐧑𐧒𐧓𐧔𐧕𐧖𐧗𐧘𐧙𐧚𐧛𐧜𐧝𐧞𐧟𐧠𐧡𐧢𐧣𐧤𐧥𐧦𐧧𐧨𐧩𐧪𐧫𐧬𐧭𐧮𐧯𐧰𐧱𐧲𐧳𐧴𐧵𐧶𐧷𐧸𐧹𐧺𐧻𐧼𐧽𐧾𐧿𐨀𐨁𐨂𐨃𐨄𐨅𐨆𐨇𐨈𐨉𐨊𐨋𐨌𐨍𐨎𐨏𐨐𐨑𐨒𐨓𐨔𐨕𐨖𐨗𐨘𐨙𐨚𐨛𐨜𐨝𐨞𐨟𐨠𐨡𐨢𐨣𐨤𐨥𐨦𐨧𐨨𐨩𐨪𐨫𐨬𐨭𐨮𐨯𐨰𐨱𐨲𐨳𐨴𐨵𐨶𐨷𐨹𐨺𐨸𐨻𐨼𐨽𐨾𐨿𐩀𐩁𐩂𐩃𐩄𐩅𐩆𐩇𐩈𐩉𐩊𐩋𐩌𐩍𐩎𐩏𐩐𐩑𐩒𐩓𐩔𐩕𐩖𐩗𐩘𐩙𐩚𐩛𐩜𐩝𐩞𐩟𐩠𐩡𐩢𐩣𐩤𐩥𐩦𐩧𐩨𐩩𐩪𐩫𐩬𐩭𐩮𐩯𐩰𐩱𐩲𐩳𐩴𐩵𐩶𐩷𐩸𐩹𐩺𐩻𐩼𐩽𐩾𐩿𐪀𐪁𐪂𐪃𐪄𐪅𐪆𐪇𐪈𐪉𐪊𐪋𐪌𐪍𐪎𐪏𐪐𐪑𐪒𐪓𐪔𐪕𐪖𐪗𐪘𐪙𐪚𐪛𐪜𐪝𐪞𐪟𐪠𐪡𐪢𐪣𐪤𐪥𐪦𐪧𐪨𐪩𐪪𐪫𐪬𐪭𐪮𐪯𐪰𐪱𐪲𐪳𐪴𐪵𐪶𐪷𐪸𐪹𐪺𐪻𐪼𐪽𐪾𐪿𐫀𐫁𐫂𐫃𐫄𐫅𐫆𐫇𐫈𐫉𐫊𐫋𐫌𐫍𐫎𐫏𐫐𐫑𐫒𐫓𐫔𐫕𐫖𐫗𐫘𐫙𐫚𐫛𐫜𐫝𐫞𐫟𐫠𐫡𐫢𐫣𐫤𐫦𐫥𐫧𐫨𐫩𐫪𐫫𐫬𐫭𐫮𐫯𐫰𐫱𐫲𐫳𐫴𐫵𐫶𐫷𐫸𐫹𐫺𐫻𐫼𐫽𐫾𐫿𐬀𐬁𐬂𐬃𐬄𐬅𐬆𐬇𐬈𐬉𐬊𐬋𐬌𐬍𐬎𐬏𐬐𐬑𐬒𐬓𐬔𐬕𐬖𐬗𐬘𐬙𐬚𐬛𐬜𐬝𐬞𐬟𐬠𐬡𐬢𐬣𐬤𐬥𐬦𐬧𐬨𐬩𐬪𐬫𐬬𐬭𐬮𐬯𐬰𐬱𐬲𐬳𐬴𐬵𐬶𐬷𐬸𐬹𐬺𐬻𐬼𐬽𐬾𐬿𐭀𐭁𐭂𐭃𐭄𐭅𐭆𐭇𐭈𐭉𐭊𐭋𐭌𐭍𐭎𐭏𐭐𐭑𐭒𐭓𐭔𐭕𐭖𐭗𐭘𐭙𐭚𐭛𐭜𐭝𐭞𐭟𐭠𐭡𐭢𐭣𐭤𐭥𐭦𐭧𐭨𐭩𐭪𐭫𐭬𐭭𐭮𐭯𐭰𐭱𐭲𐭳𐭴𐭵𐭶𐭷𐭸𐭹𐭺𐭻𐭼𐭽𐭾𐭿𐮀𐮁𐮂𐮃𐮄𐮅𐮆𐮇𐮈𐮉𐮊𐮋𐮌𐮍𐮎𐮏𐮐𐮑𐮒𐮓𐮔𐮕𐮖𐮗𐮘𐮙𐮚𐮛𐮜𐮝𐮞𐮟𐮠𐮡𐮢𐮣𐮤𐮥𐮦𐮧𐮨𐮩𐮪𐮫𐮬𐮭𐮮𐮯𐮰𐮱𐮲𐮳𐮴𐮵𐮶𐮷𐮸𐮹𐮺𐮻𐮼𐮽𐮾𐮿𐯀𐯁𐯂𐯃𐯄𐯅𐯆𐯇𐯈𐯉𐯊𐯋𐯌𐯍𐯎𐯏𐯐𐯑𐯒𐯓𐯔𐯕𐯖𐯗𐯘𐯙𐯚𐯛𐯜𐯝𐯞𐯟𐯠𐯡𐯢𐯣𐯤𐯥𐯦𐯧𐯨𐯩𐯪𐯫𐯬𐯭𐯮𐯯𐯰𐯱𐯲𐯳𐯴𐯵𐯶𐯷𐯸𐯹𐯺𐯻𐯼𐯽𐯾𐯿𐰀𐰁𐰂𐰃𐰄𐰅𐰆𐰇𐰈𐰉𐰊𐰋𐰌𐰍𐰎𐰏𐰐𐰑𐰒𐰓𐰔𐰕𐰖𐰗𐰘𐰙𐰚𐰛𐰜𐰝𐰞𐰟𐰠𐰡𐰢𐰣𐰤𐰥𐰦𐰧𐰨𐰩𐰪𐰫𐰬𐰭𐰮𐰯𐰰𐰱𐰲𐰳𐰴𐰵𐰶𐰷𐰸𐰹𐰺𐰻𐰼𐰽𐰾𐰿𐱀𐱁𐱂𐱃𐱄𐱅𐱆𐱇𐱈𐱉𐱊𐱋𐱌𐱍𐱎𐱏𐱐𐱑𐱒𐱓𐱔𐱕𐱖𐱗𐱘𐱙𐱚𐱛𐱜𐱝𐱞𐱟𐱠𐱡𐱢𐱣𐱤𐱥𐱦𐱧𐱨𐱩𐱪𐱫𐱬𐱭𐱮𐱯𐱰𐱱𐱲𐱳𐱴𐱵𐱶𐱷𐱸𐱹𐱺𐱻𐱼𐱽𐱾𐱿𐲀𐲁𐲂𐲃𐲄𐲅𐲆𐲇𐲈𐲉𐲊𐲋𐲌𐲍𐲎𐲏𐲐𐲑𐲒𐲓𐲔𐲕𐲖𐲗𐲘𐲙𐲚𐲛𐲜𐲝𐲞𐲟𐲠𐲡𐲢𐲣𐲤𐲥𐲦𐲧𐲨𐲩𐲪𐲫𐲬𐲭𐲮𐲯𐲰𐲱𐲲𐲳𐲴𐲵𐲶𐲷𐲸𐲹𐲺𐲻𐲼𐲽𐲾𐲿𐳀𐳁𐳂𐳃𐳄𐳅𐳆𐳇𐳈𐳉𐳊𐳋𐳌𐳍𐳎𐳏𐳐𐳑𐳒𐳓𐳔𐳕𐳖𐳗𐳘𐳙𐳚𐳛𐳜𐳝𐳞𐳟𐳠𐳡𐳢𐳣𐳤𐳥𐳦𐳧𐳨𐳩𐳪𐳫𐳬𐳭𐳮𐳯𐳰𐳱𐳲𐳳𐳴𐳵𐳶𐳷𐳸𐳹𐳺𐳻𐳼𐳽𐳾𐳿𐴀𐴁𐴂𐴃𐴄𐴅𐴆𐴇𐴈𐴉𐴊𐴋𐴌𐴍𐴎𐴏𐴐𐴑𐴒𐴓𐴔𐴕𐴖𐴗𐴘𐴙𐴚𐴛𐴜𐴝𐴞𐴟𐴠𐴡𐴢𐴣𐴤𐴥𐴦𐴧𐴨𐴩𐴪𐴫𐴬𐴭𐴮𐴯𐴰𐴱𐴲𐴳𐴴𐴵𐴶𐴷𐴸𐴹𐴺𐴻𐴼𐴽𐴾𐴿𐵀𐵁𐵂𐵃𐵄𐵅𐵆𐵇𐵈𐵉𐵊𐵋𐵌𐵍𐵎𐵏𐵐𐵑𐵒𐵓𐵔𐵕𐵖𐵗𐵘𐵙𐵚𐵛𐵜𐵝𐵞𐵟𐵠𐵡𐵢𐵣𐵤𐵥𐵦𐵧𐵨𐵩𐵪𐵫𐵬𐵭𐵮𐵯𐵰𐵱𐵲𐵳𐵴𐵵𐵶𐵷𐵸𐵹𐵺𐵻𐵼𐵽𐵾𐵿𐶀𐶁𐶂𐶃𐶄𐶅𐶆𐶇𐶈𐶉𐶊𐶋𐶌𐶍𐶎𐶏𐶐𐶑𐶒𐶓𐶔𐶕𐶖𐶗𐶘𐶙𐶚𐶛𐶜𐶝𐶞𐶟𐶠𐶡𐶢𐶣𐶤𐶥𐶦𐶧𐶨𐶩𐶪𐶫𐶬𐶭𐶮𐶯𐶰𐶱𐶲𐶳𐶴𐶵𐶶𐶷𐶸𐶹𐶺𐶻𐶼𐶽𐶾𐶿𐷀𐷁𐷂𐷃𐷄𐷅𐷆𐷇𐷈𐷉𐷊𐷋𐷌𐷍𐷎𐷏𐷐𐷑𐷒𐷓𐷔𐷕𐷖𐷗𐷘𐷙𐷚𐷛𐷜𐷝𐷞𐷟𐷠𐷡𐷢𐷣𐷤𐷥𐷦𐷧𐷨𐷩𐷪𐷫𐷬𐷭𐷮𐷯𐷰𐷱𐷲𐷳𐷴𐷵𐷶𐷷𐷸𐷹𐷺𐷻𐷼𐷽𐷾𐷿𐸀𐸁𐸂𐸃𐸄𐸅𐸆𐸇𐸈𐸉𐸊𐸋𐸌𐸍𐸎𐸏𐸐𐸑𐸒𐸓𐸔𐸕𐸖𐸗𐸘𐸙𐸚𐸛𐸜𐸝𐸞𐸟𐸠𐸡𐸢𐸣𐸤𐸥𐸦𐸧𐸨𐸩𐸪𐸫𐸬𐸭𐸮𐸯𐸰𐸱𐸲𐸳𐸴𐸵𐸶𐸷𐸸𐸹𐸺𐸻𐸼𐸽𐸾𐸿𐹀𐹁𐹂𐹃𐹄𐹅𐹆𐹇𐹈𐹉𐹊𐹋𐹌𐹍𐹎𐹏𐹐𐹑𐹒𐹓𐹔𐹕𐹖𐹗𐹘𐹙𐹚𐹛𐹜𐹝𐹞𐹟𐹠𐹡𐹢𐹣𐹤𐹥𐹦𐹧𐹨𐹩𐹪𐹫𐹬𐹭𐹮𐹯𐹰𐹱𐹲𐹳𐹴𐹵𐹶𐹷𐹸𐹹𐹺𐹻𐹼𐹽𐹾𐹿𐺀𐺁𐺂𐺃𐺄𐺅𐺆𐺇𐺈𐺉𐺊𐺋𐺌𐺍𐺎𐺏𐺐𐺑𐺒𐺓𐺔𐺕𐺖𐺗𐺘𐺙𐺚𐺛𐺜𐺝𐺞𐺟𐺠𐺡𐺢𐺣𐺤𐺥𐺦𐺧𐺨𐺩𐺪𐺫𐺬𐺭𐺮𐺯𐺰𐺱𐺲𐺳𐺴𐺵𐺶𐺷𐺸𐺹𐺺𐺻𐺼𐺽𐺾𐺿𐻀𐻁𐻂𐻃𐻄𐻅𐻆𐻇𐻈𐻉𐻊𐻋𐻌𐻍𐻎𐻏𐻐𐻑𐻒𐻓𐻔𐻕𐻖𐻗𐻘𐻙𐻚𐻛𐻜𐻝𐻞𐻟𐻠𐻡𐻢𐻣𐻤𐻥𐻦𐻧𐻨𐻩𐻪𐻫𐻬𐻭𐻮𐻯𐻰𐻱𐻲𐻳𐻴𐻵𐻶𐻷𐻸𐻹𐻺𐻻𐻼𐻽𐻾𐻿𐼀𐼁𐼂𐼃𐼄𐼅𐼆𐼇𐼈𐼉𐼊𐼋𐼌𐼍𐼎𐼏𐼐𐼑𐼒𐼓𐼔𐼕𐼖𐼗𐼘𐼙𐼚𐼛𐼜𐼝𐼞𐼟𐼠𐼡𐼢𐼣𐼤𐼥𐼦𐼧𐼨𐼩𐼪𐼫𐼬𐼭𐼮𐼯𐼰𐼱𐼲𐼳𐼴𐼵𐼶𐼷𐼸𐼹𐼺𐼻𐼼𐼽𐼾𐼿𐽀𐽁𐽂𐽃𐽄𐽅𐽆𐽇𐽋𐽍𐽎𐽏𐽐𐽈𐽉𐽊𐽌𐽑𐽒𐽓𐽔𐽕𐽖𐽗𐽘𐽙𐽚𐽛𐽜𐽝𐽞𐽟𐽠𐽡𐽢𐽣𐽤𐽥𐽦𐽧𐽨𐽩𐽪𐽫𐽬𐽭𐽮𐽯𐽰𐽱𐽲𐽳𐽴𐽵𐽶𐽷𐽸𐽹𐽺𐽻𐽼𐽽𐽾𐽿𐾀𐾁𐾃𐾅𐾂𐾄𐾆𐾇𐾈𐾉𐾊𐾋𐾌𐾍𐾎𐾏𐾐𐾑𐾒𐾓𐾔𐾕𐾖𐾗𐾘𐾙𐾚𐾛𐾜𐾝

١٦١١: إن هذه التتفة المنزلة في وسط مكان مطموس لا يمكن إكمالها أو ترجمتها إلا ظناً. فعلى افتراض أن ١٦١١ هي الكلمة التي تعني "صنم"، فإن المرء قد يفترض أن الكلمة السابقة لها فعل، يصف شيئاً ما متعلقاً بنصب صنم - قارن RES 3946⁷ حيث يذكر، من بين أشياء أخرى تعبدية، نصب صنم من الذهب لعشتر. لذا فإنني أميل إلى اختيار هذا الإكمال، [١٦١٣]، وهو الفعل الذي كنت قد أعطيته المعنى "أعلن... مقدساً، حرّم: في RES 4176³ (J.R.A.S. 1937,65).

٨٠ (الموضع نفسه)

إن ذكر "شهود" في الآخر يثبت أن عقداً ما هو موضوع هذا النقش، وربما كان من نوع CIH 570 نفسه.

(77)

ህግ፡ ሃገረኛነትና የጥያቄ ስርዓት ስርዓት ስርዓት
ዘገናኝ የሆነውን ስርዓት ስርዓት ስርዓት

(78)

ጥቅምት ፩ ፳፻፲፱
ጥቅምት ፩ ፳፻፲፱
፳፻፲፱

(79)

ሀገረኛነት የሚጠይቅ የሥነ ምግባር ምርምር ሲሆን
 ይህም የሥነ ምግባር ምርምር ሲሆን የሥነ ምግባር ምርምር
 ሲሆን የሥነ ምግባር ምርምር ሲሆን የሥነ ምግባር ምርምር

(80)

[illegible]

ادت

۱
شید

RE

خدام

مقابلية

فَقُّوْا

(81)

ማገዳገሚያ ስራ ላይ
 ገንዘብ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ

(82)

ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ

(83)

ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ
 ስራ ላይ ስራ ላይ ስራ ላይ

(84)

x∞n314y77w155y∞n7674H155nH99155w515nH3n515n1Xw55w161w749n17509959
 w556n19873∞14w51∞755w14w9814n/∞5n81Xw1474y1n1778756314X9n1450∞
 w4∞55141474y7n1451659X∞5w8∞w9n91953∞1X4w5∞|∞5∞w195449∞9X8∞

(85)

Xw55w167w1w991w9575
 w5167w149n17509914n
 46w5n177873∞177XwXw5
 n674y1w4∞55414y

(86)

49n17509914n14w53n5
 51w5177Xw1Xw55w1675
 55w167w1w991w9575
 w167w1w99n17509914n1Xw
 n674y1Xw55

(87)

x 2 8 5 1 6 7 2 1 4 9 1 1 7 3 0 4 9
 2 1 x 2 8 5 1 6 7 2 1 4 9 1 1 7 3 0 4 9 1 4 7
 ∞ 1 4 7 4 9 5 8 1 1 7 7 3 0 1 1 7 x 2 1 x
 8 4

(88)

4 1 1 4 4 4 4 1 1 4 1 4 2 3 1 1
 1 8 5 1 6 7 2 1 4 9 1 1 7 3 0 4 9
 9 1 4 4 4 1 2 0 1 7 7 x 2 1 x 2
 8 5 1 6 7 2 1 4 9 1 1 7 3 0 4 9
 1 1 4 1 4 1 x 2 1 1

(89)

0 1 1 4 1 1 2 1 4 4 4 4
 4 2 1 7 0 4 1 2 1 1
 4 0 4 4 1 1 4 4 1 1 2 1

IX9>φ : هذه الصيغة جديدة، ولكن قارن قرين في ¹445, 80¹ CIH.

IX>ϩH : عنصر متكرر معروف في الأسماء المركبة مع أسماء المعبودات، ولكنه

جديد في وروده منفرداً. I1h0Πh : العنصر 1h0 جديد؛ قارن، بلا شك، "فال" العربية.

Iψσϣ : قارن اسم القبيلة IX&5, RES 3945⁸، وغيره.

IX& : هيئة حضرمية تقابل المعينية والقبتانية.

I>9h : سار العربية.

h : صيغة حضرمية أخرى تطابق في السبئية (قارن RES 26875) I9h, I9h.

I4Y14Y7 وكما في ٨٥ و ٨٧، فلإن هذه الزائدة في أول الاسم تحل

محلها 40ψ& "برج"، ولعل هذه الكلمة مرادفة لتلك. يرى البروفيسير مرغليوث جواز

مقارنة هذه الكلمة بكلمة مجدال "برج" في العبرية، الشيء الذي يبدو جازئاً.

٨٢

1 [I4Π0>I4ΠI4ψ&>ϩ0I4ΠI4ψI4Y14Y7

2 1Y14Y7[0>I4I4Y14Y7>ϩI4Y14Y7>I4Y14Y7

3 7I4hI>9hIXI4I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7

4 hIXI4ΠI4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7

5 ϩI4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7

6 hI4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7

7 I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7>I4Y14Y7

يدم بن رطبم ومرثدم من قبيلة [.]، الحميريان، رافقا سيدهما إل عذ يلط ملك

حضر موت ابن عم ذخر حين سار إلى الصخرة أنودم (لينا دي نفسه ملكاً ويتلقب بلقبه؟)،

حين كان سيدهما يعب ثأرن يهنعم ملك سبأ وذو ريدان قد جهزهما في سفارة (؟) ليرافقا

حليفه [إل عذ يلط ملك حضر موت ابن عم ذخر].

١- I4ΠI4Y14Y7 : (١٠) جديدة. قارن رطب العربية.

٢- I4Y14Y7 : ربما جاز إكمالها لتكون يثو (قارن اسم المكان يثو يران، ⁵314 CIH)،

أو رثو (اسم المكان رثو، ⁵4176 RES).

إل عذ يلط ملك حضرموت، بن عم ذخر سار إلى حصن أنودم ليتلقب (بلقبه؟).
 IXΘQ>BΨ: لقد وصف هومل (في Handbuch, 102, note 4) هذه الكتابة بأنها، في
 خطها، أقدم من IXΘQ>BΨ زمناً. ولكن الاختلاف لهجي فقط لا زمنياً، وذلك لأن هذا
 النقش، الذي كان صاحبه معاصراً "لملك سبأ وذي ريدان"، بالضرورة متأخر في زمنه
 عن CIH 308، الذي لا يزال فيه علهن نهفن "ملك سبأ"؛ والنقش الثاني فيه IXΘQ>BΨ.
 فالتفسير إذن هو أن ذلك النقش سبئي، الذي ترجع التهجئة بالحرف Φ فيه إلى عصور
 المكارية (RES 3945¹²).

لا يبدو أن الاسم في آخر النقش جزء منه. إن نسخة اليد تقرأ ثمر بن سل. ولعلها
 تصحح لتقرأ كما هو أعلاه؛ قارن ثمر¹ RES 2743.

٨٤

84 H I > h n p y i > > p h i n i s q z n > i n i x q > b p i s [1] q i y n i i h o [q] i
 X o p z i y y > 7 y i > > y o i n i s h
 I o 7 > y o i y q i s i y n i o > n g i x q i y i s y . i i i s i > s i y x i n i s > b o
 q > > s i n i s i z o i x s h y
 h i x o y q s o i q i n i s i > z o i x s h y o i o p o y i y y [q] s o [i] i x s o
 q i o y h i y i s y 7 n i s y o

يدع إل بين ملك حضرموت، ابن رب شمس، من أحرار يهبار - الذي أسس مدينة
 شبوة واستعمرها وبنى المعبد من الحجر - وعرش بالحجر ...؟... عندما خربا
 بالإنهيار (*)؟ وذبح ٣٥ ثوراً، و ٨٢ خروفاً و ٢٥ ظبياً و ٨ أفهد بحصن أنودم.
 ١- I > h n p y i : اسم قبلي جديد؛ لعله من الجذر بثر.

RES 3114 I n i s h : هذا الجذر معروف في غير هذا النقش كجزء من الاسم I h n i s
 الذي يعين جزءاً من معبد، ترجمة رودو كاناكس بلفظه "الداخلي" (Kahlan)
 34). وعلى افتراض أن الجذر هو "داخل، وسط"، فإنني أرى أن هذا الفعل
 المزيد يعبر عن تأسيس مدينة كبيرة في منطقة ما كانت تعمرها من قبل قبائل
 وقرى متفرقة، ضمن أهلها بعضهم إلى البعض إلى مركز.

(٧) وزن تفاعل. (المترجم).

(*) يترجم المؤلف جملة: م ت ا ث ب ر و ا ب ن ا ص ي د م ن ا بقوله: عندما حرب بالإنهيار، ولكن
 الصواب هو: عندما عادو من (رحلة) الصيد. (المراجع).

-Y

-3-

-3-

: رأ

س
ل

•

-1

-Y

— 2 —

6

•

د
ن

i

— 1 —

- Y

-2-

- 3

ن

-1-

— 2 —

— 3 —

4

— 0 —

١٥٩٤ بوضوح = خير العربية. ويبدو أنها لقب من نوع ما.

19

[illegible]

٢- 42103129 طريقاً محيطاً بفناء

-٣- ዳወኒክበላሃየ? (?) فى أنود NWD.

اسم موجود في التمودية؛ عرف المؤث أذنت فقط من قبل في السبئية.

١٧٢٨: إن صحت قراءتي، يقرن بالعربية ضاراً يضير، وباللغة المألوفة

٨١) "حرب، عدد".

بالنسخة ، ولأن الجذر **هول** لا يعرف في غير هذه الحالة من العربية القديمة

الجنوبية، ولا يوحى بأي ترجمة مرضية له، فقد صححت الحرف إلى ٣ لا ترجمها "بنى

١١٥٣؛ والأخير وصفه رودوكاناكس (*Studien*, ii, 32) بأنه "كان قد بنى على السور

الداخلي، أو كان يسير فوق الجزء العلوي من السور كمنبر يصل بين الأبراج.

١٦٤٩>٢٥ : أشعر بشك كبير نحو هذه الكلمة؛ ولكن إن صدق حدسي بأنها

لفظ عربي ينبغي أن تكون لفظة تشير إلى بناء، فإن المرء ربما يصححها إلى ١٩٤٢٣٦

ويقارن بها العربية حراً - انظر تاج العروس: "يقول المرء نزل بحراه، يعني نزل بساحته".

CIH= Corpus inscriptionum Semiticarum, pars quarta, inscriptiones himyariticas continens. Paris. 1889.

Conti-Rossini Glossary = C. Conti-Rossini, *Chrestomathia arabica meridionalis epigraphica*, pp. 99-261. Rome, 1931.

JRAS = Journal of the Royal Asiatic Society.

RES = Repertoire d'epigraphie semitique.

Rhodokanakis AST 11=N. Rhodokanakis, *Altsabaische Texte* 11, Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 39, pp. 173-226.

____ Kohlan = Die Inschriften an der Mauer von Kohlan-Timna, Sitzungsberichte der Wiener Akademie, 200 (2).

= بنات سبأ

-
-
- _____ KTB 1 = Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft 1, Sitzungsber. d. Wiener Akad. 194 (2).
- _____ Studien 11= Studien zur Lexikographie un Grammatik des Altsudarabischen 11, Sitzungsber. d. Wiener Akad. 183 (3).

كشاف مفردات النقوش •

(١) الأسماء:

(٢)	(١)
ذمرم ٨١، ٢.	أب فال ٨١، ٢.
[هـ]د عب ٧٨، ١.	[أ]دعب ٧٨، ١.
هكحد ٨١، ٣.	أجنم ٨٩، ١.
هلك أمر. دعب ٧٨، ١.	ألقه ٧٩، ١.
والم ٨١، ١.	إل عذ يلط ٨١، ٤.
دعب إل ٨١، ٢.	٨٢، ٢؛ ٨٣، ١.
حمير ٨٢، ٢.	إل قشم ٨١، ٣.
حرب ٧٧، ٢.	إل ريم يدم ٨٥، ١؛ ٨٦، ٣.
يدم ٨٢، ١.	أنود ٨٩، ٣.
يدع أب غيلن ٨٧، ١؛	أنودم ٨١، ٦؛
٨٨، ٤.	٨٢، ٤؛ ٨٣، ٣؛ ٨٤، ٣؛
	٨٥، ٤؛ ٨٧، ٣.

يدع إل بين ٨٤،

٤١

٨٥، ٢؛ ٨٦، ١؛	أسدن ٨٨، ١.
٨٧، ٢؛ ٨٨، ٢.	أصيرم ٨٩، ١-٢.
يذمر إل ٨٠، ١٠.	بيد إل ٨٠، ١.
يهثر ٨٤، ١.	[يـ]شو ٨٢، ٢/٢.
شهرم ٨١، ١.	

(*) في ترتيب أبجدي، بتصرف معروف في المؤلفات الأفرنجية، هو مجسئ المفردات البادئة بالذال بعد الدال، والحاء بعد الحاء، والطاء بعد الطاء، والضاد بعد الصاد، والثاء بعد التاء، رغم كون الذال، والحاء، والطاء، والضاد والثاء في آخر الأبجدية.

يشع أمر بين ٧٧هـ ١. ثارن يعب يمنعم ٨٢، ٥. (المترجم).

مهمقم	١١، ٨٠	(ب) الجذور، وغيرها	
مرثدم	١، ٨٢		
سبأ	١، ٧٩؛ ٢، ٧٧	أد	٨١، ٧؛ ٨٢، ٣؛ ٨٣، ٣
سبأ وذوريدان	٦، ٨٢		
أخ	٨٢، ٦؛ ٨٦، ٢-٣		
سمه علي	١، ٧٧		٣، ٨٨
عمر ذخر	٨١، ٥؛ ٨٢، ٣؛ ٨٣، ٢	أتو: هاتلو	٢، ٧٩
	٢، ٨٣	بيتن	٢، ٨٤
عم ذراً صدق	٨٠، ٢٠١	بني	١، ٧٩؛ ٢، ٧٨
قریت	٢، ٨١	بعل	٢، ٧٨
رب شمس	٨٤، ١؛ ٨٦، ١؛ ٨٨، ١	بقر: بقرم	٢، ٨٤
رطبم	١، ٨٢	برج: [بـ]ترح	٢، ٨٩
شبوۃ	١، ٨٤	جنأ	٢، ٧٧
شبعن	٧٨، ٢-٣	خير	١، ٨٨
جدل: جندلن	٨٣، ٣؛ ٨٤، ٣	خمعت	٢، ٨٤؛ ٣، ٢
	٨١، ٦؛ ٨٢، ٤	خرر	١، ٨٤
درر: مدررم	٨٠، ٨	ظبیم	٣، ٨٤
ذقن: مذ[قن]ن	٣، ٧٨	کل	٢، ٧٨
هجرهن	١، ٨٤	کرب: مکرب	١، ٧٩؛ ٢، ٧٧
هدل: [أ] هدلن	٢، ٨٤	لقب	٨٢، ٤؛ سلقب
هورو	٣، ٨٤		٨٣، ٤؛ ٨٥، ٤
هرجو	٢، ٨٤		٨٦، ٥؛ ٨٨، ٥
[حـ]جر	٣، ٧٩	ملل: مثلل	٨٢، ٤؛ ٨٥، ٣
حول	٢، ٨٩		٨٦، ٢؛ ٨٧، ٣
حفد: محفدهن	٨٥، ٣؛ ٨٧، ٣		٣، ٨٨
حردتن	٨٠، ٥	مت	٨١، ٥؛ ٨٢، ٢؛ ٨٤، ٣
حرر: أحرر	١، ٨٤		٨٤، ٢؛ ٨٧، ٢-٣
حري: محريهن	٨٩، ٣	نخل	٨٠، ٢

سيز	٨١، ٦٤، ٨٢، ٣؛	نر: هنر	٧٩، ٢.
	٨٣، ٢-٣.	ضرس	٨٤، ٢.
سلح	٨٢، ٤.	قبل: تقليم	٨٢، ٦.
سمعم	٨٠، ٩.	قيف	٧٩، ١.
سقي: [م]سقي	٨٠، ٣.	قلب: سقلب	٨٤، ١.
عررم	٨٠، ٧. عررتم	شوعو	٨١، ٤٤، ٨٢، ٢.
	٧٧، ٢.	شيع	٨٢، ٦.
عشري	٨٤، ٣.	شلتى	٨٤، ٢.
فهد: أفهد	٨٤، ٣.	شقر	٨٤، ٢.
فتح	٨٠، ٦.	ثبرو	٨٤، ٢.
صدم: صيدمن	٨٤، ٢.	من: ثل[م]نهي	٨٤، ٣؛ ثمنوت
صود	٨٠، ٣.	(الموضع نفسه)	
صلل	٨٤، ٢؛ ٨٥، ٣؛ ٨٧، ٣.	ثي	٨٤، ٣.
صلم	٧٩، ٣.		

ملاحق الصور



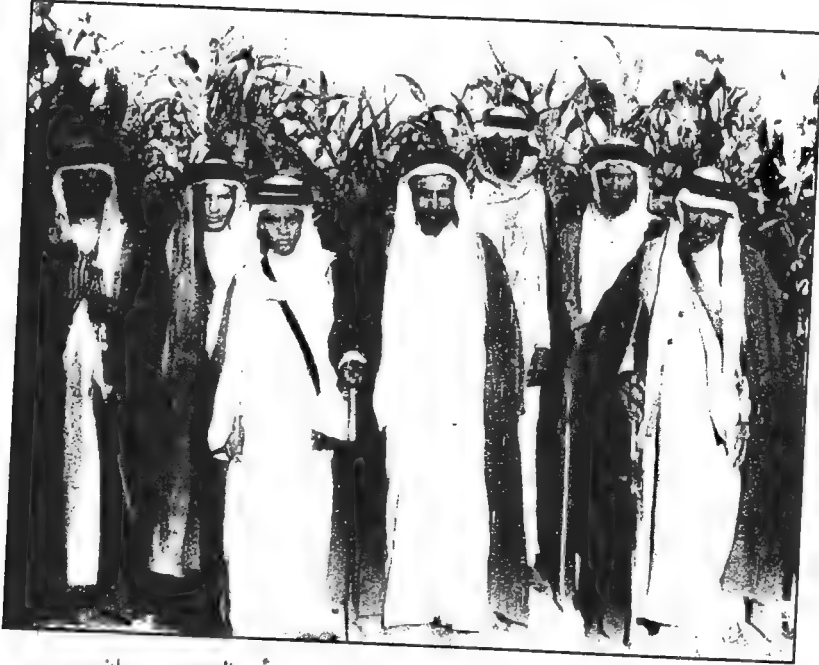
بالعام وسليمان وملكة سبأ

تمثال في كاتدرائية تشارترس (تصوير بي آرثود جرينوبل) (**)

(*) لا يجوز تحديد صورة النبي سليمان -عليه السلام- بهذا الشكل التخيلي . (المراجعون).



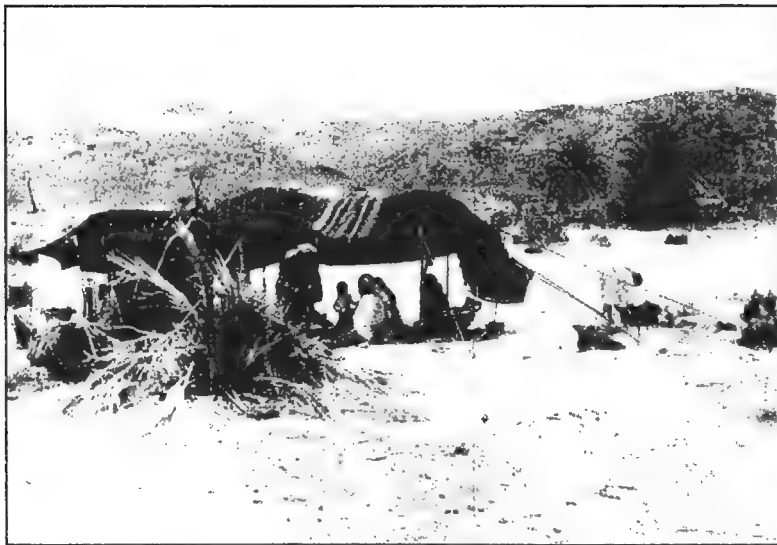
المؤلف مع فهد ابن الأمير سعود وبنذر الدويش على اليمين



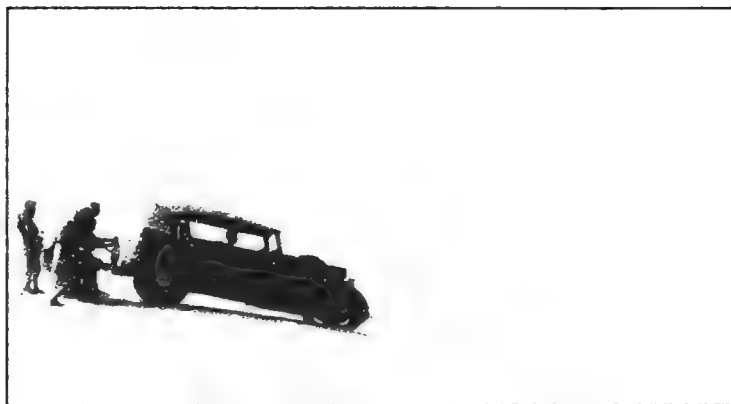
إبراهيم الشمي وجماعة أمام حقل ذرة في قصر أبي السعود بنجران



بئر الخضراء - أول مجموعة تسقي عند الفجر



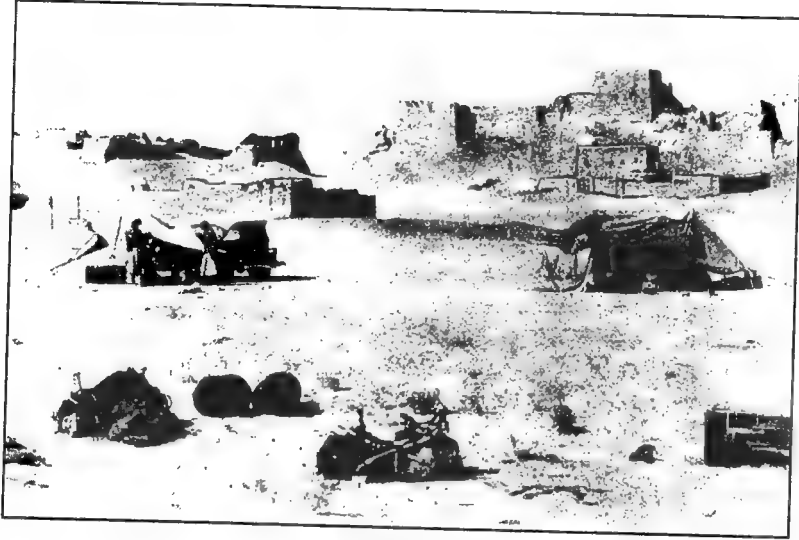
خيمة ابن حديان وعائلته في وادي الطرفاء



دفع السيارة لتتخطى من منحدر رملي في تلال السبعين



شبة - قرية هجر ، باتجاه الجنوب



المخيم أمام قرية هجر، شبوة



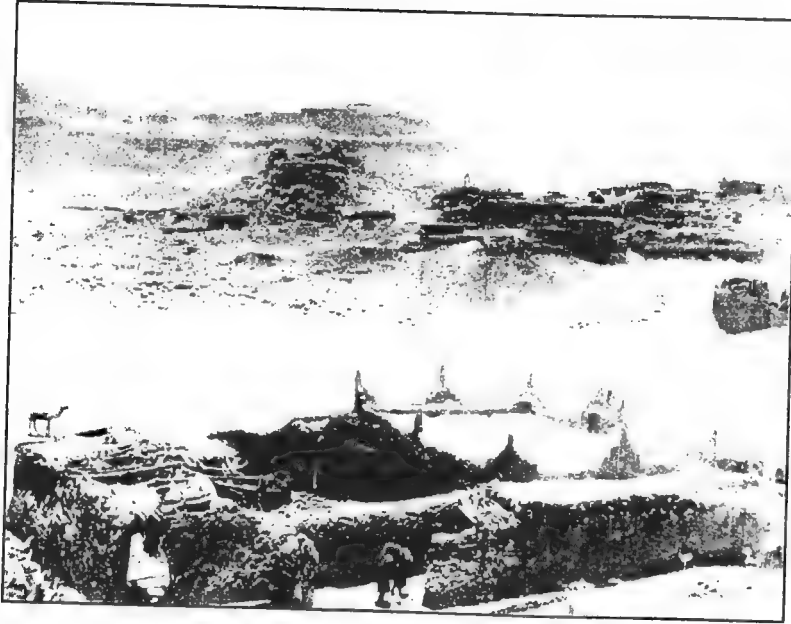
معبد عشتار في شبوة - قواعد أعمدة



مسجد مثنة في شبوة



سور قصر قديم في هجر - شبوة



مسجد هجر والقلعة خلفه في شبوة



هجر من منظر من قلعة شبوة



بقايا مبنى قرب السور الغربي لشبوة



بئر ديبان في وادي معشر، شبوة



منظر عام للآثار في شبوة



من الجنوب للغرب من سنقار



بوة



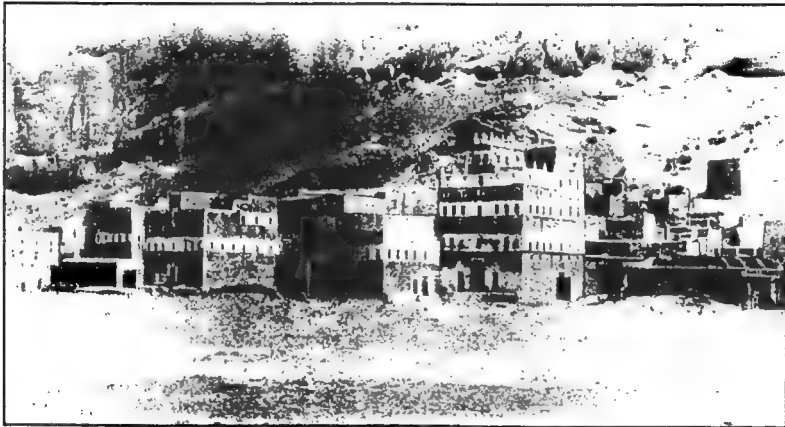
آثار عقم بالقرب من شبوة قنوات ري



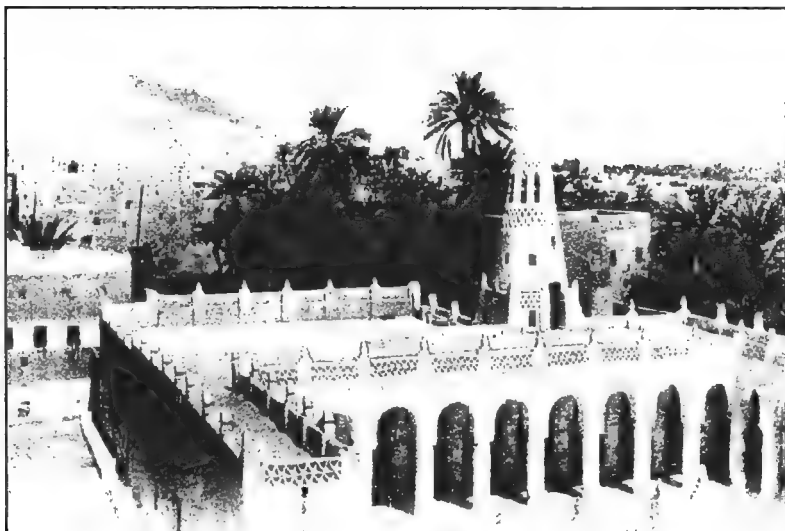
داخل منجم مغيرة للملح - شبوة



ضريح محمد بن بريك - شبوة



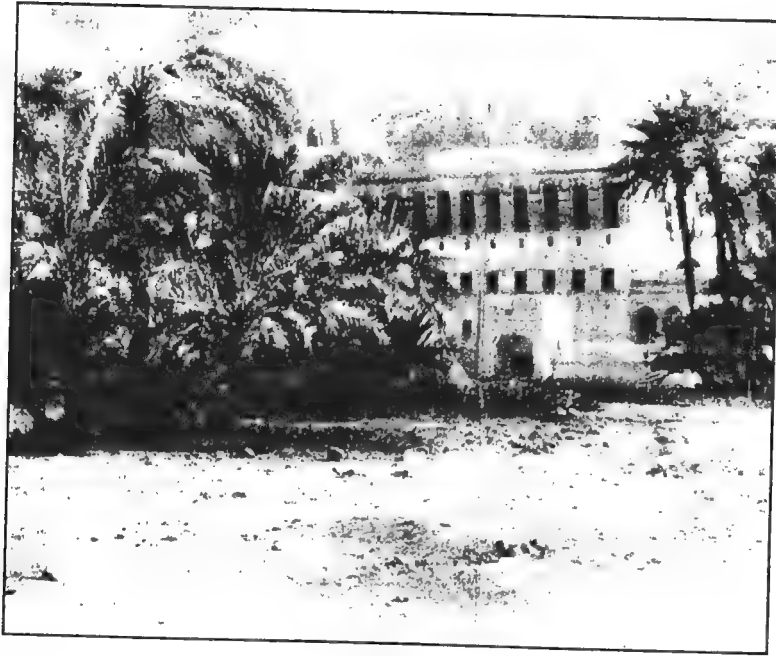
قرية هين عند مدخل وادي حضرموت



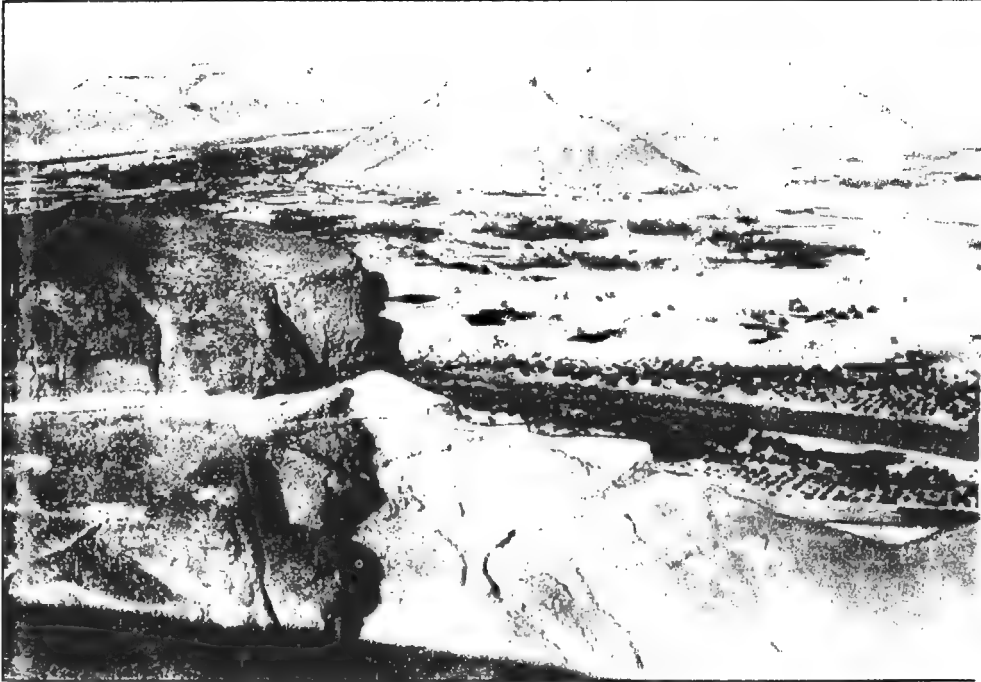
مسجد القطن، وادي حزموت



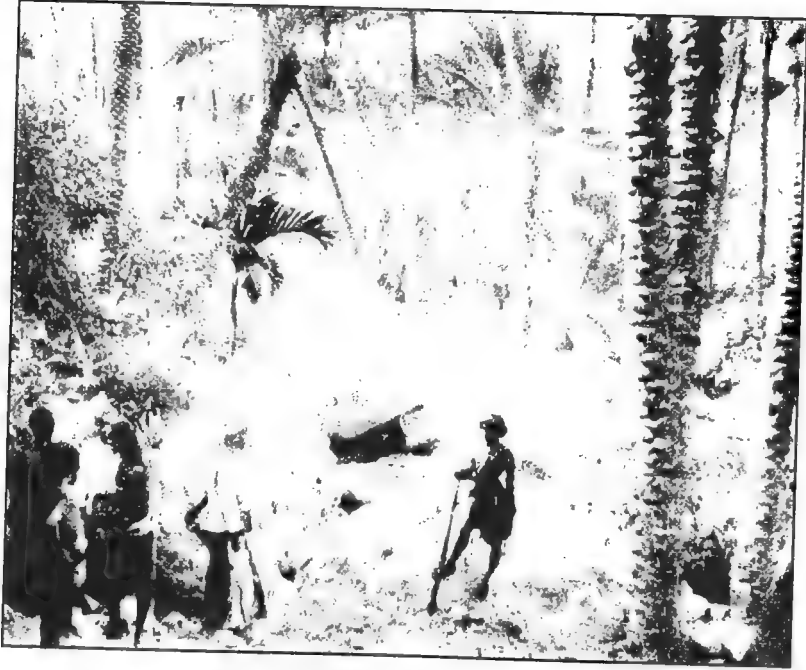
بنات السلطان علي بن صالح في القطن



أحد بيوت آل الكاف في تريم



الطريق إلى العقبة قرب تريم



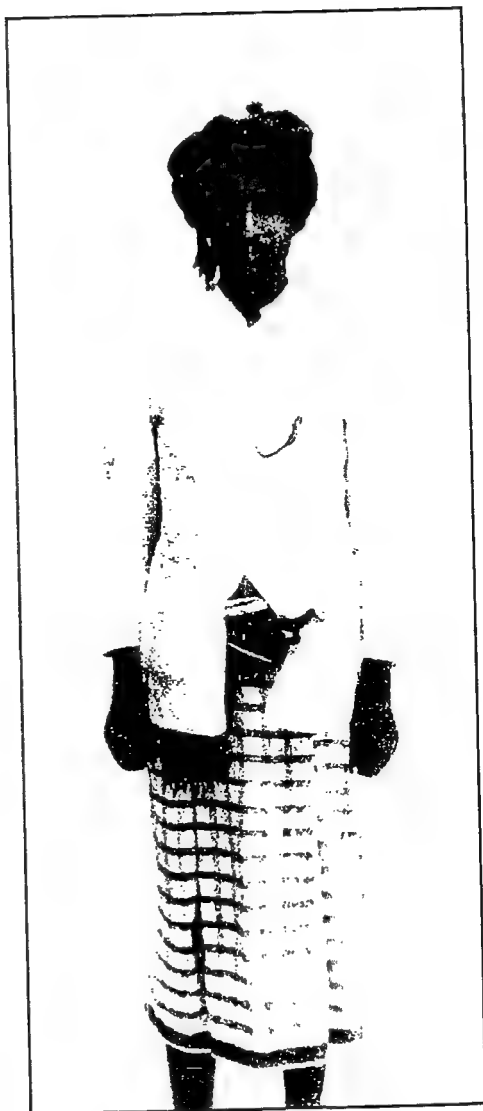
واحة المعدي - بالقرب من المحيط الهندي



الصندل (نوع من المراكب في طريقه إلى الباخرة (كاوسجي) في الشحر



البوابة الغربية وسور المدينة من الشحر



أحمد ناصر البطاطي - حاكم المكلا



وادي عشرة أثناء السيول



الصويري والريضة - تطل على صدى قرب تريم



ترميم - سيد عبدالرحمن آل كاف مع أعضاء البعثة العلمية المصرية



قرية ربيعة وتل عُرف الديك



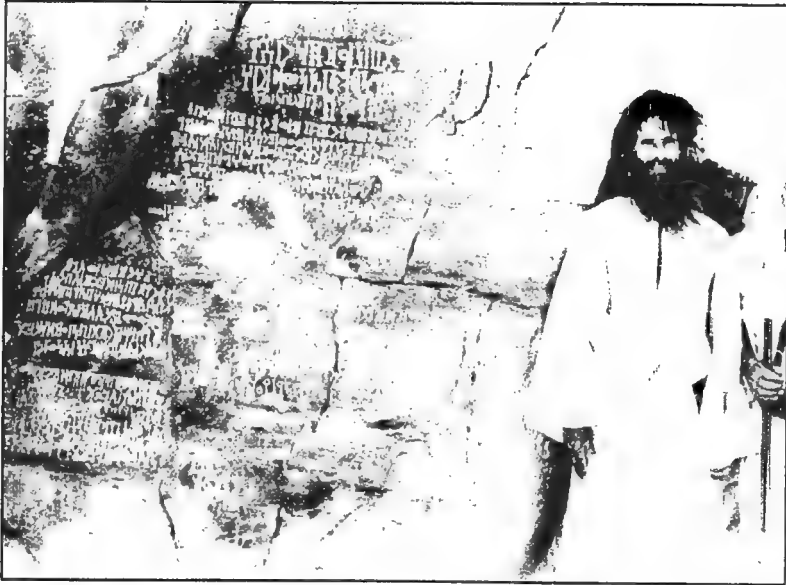
بشر الجديرة



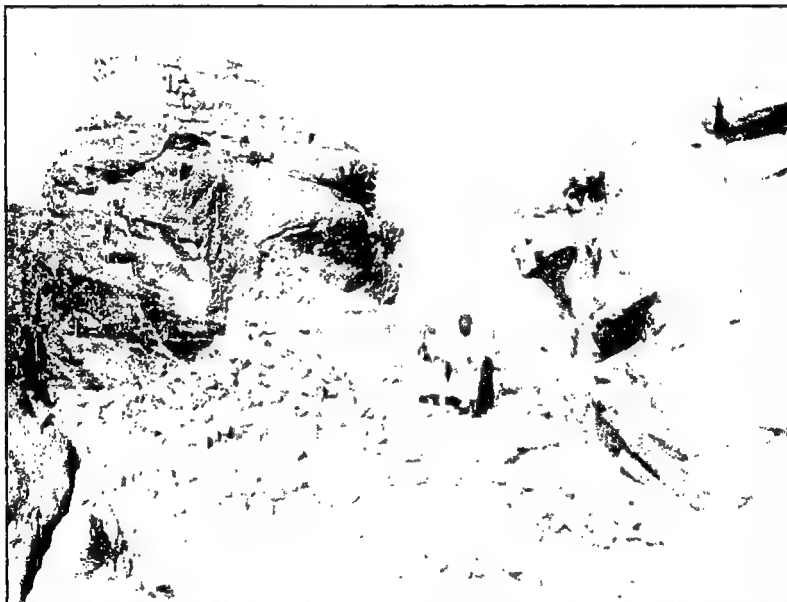
سحلل والمخيم من الشرق



رجل وولده مع ثلاث إبل قابلونافي الصحراء قرب الواديان



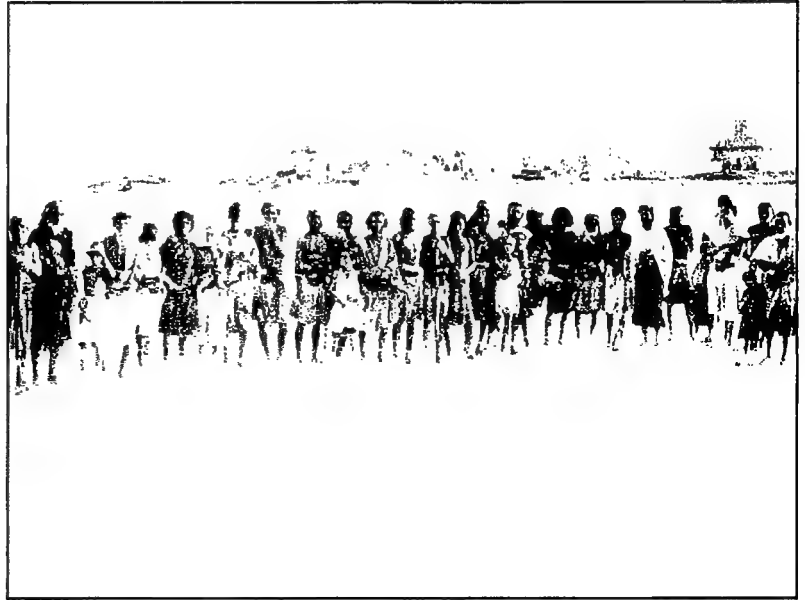
نقوش على صخرة قلعة قديمة في عقلة الناصية الجنوبية ويظهر الشيخ صالح الحديق من شوبة



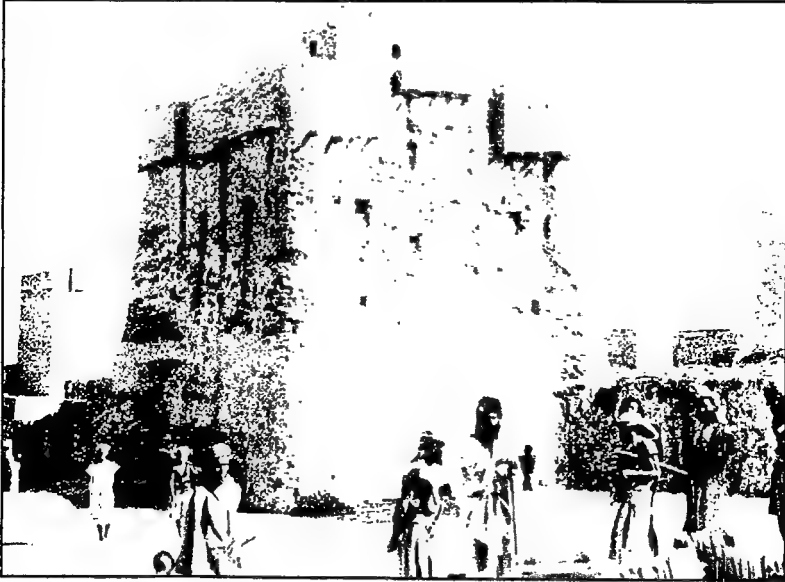
قلعة عقلة الصخرية من الغرب



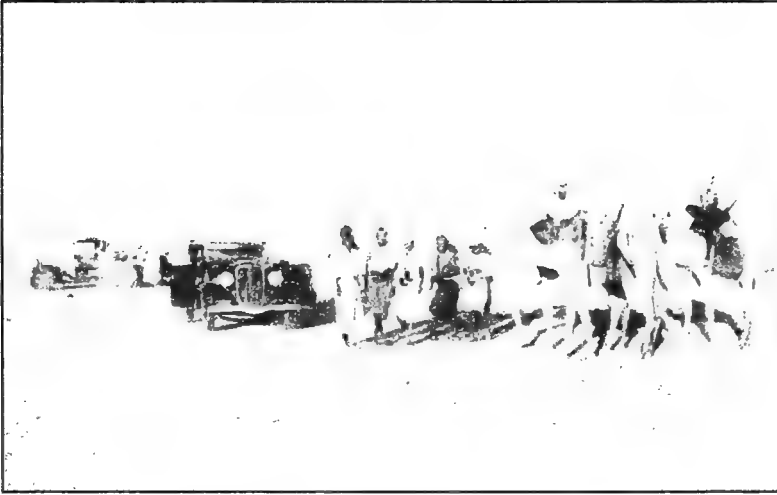
آبار أجفر الرخم في وادي أنصاص



الاستقبال في عياد



البئر والحصن الرئيس في عياذ



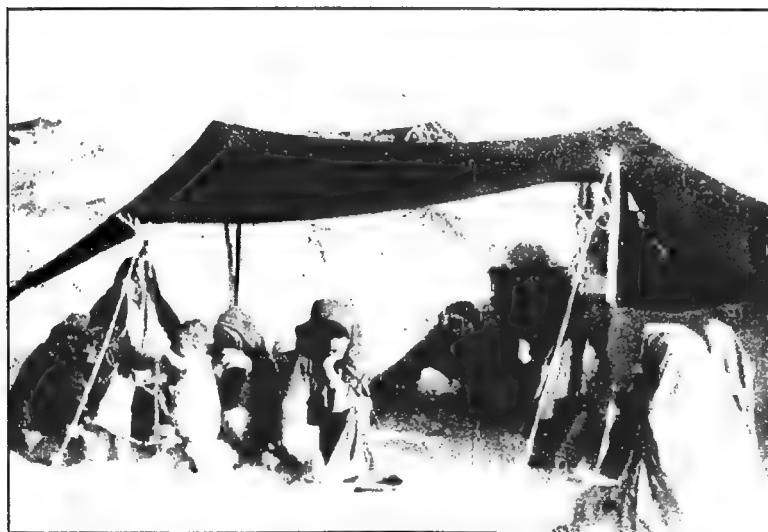
السيارات والإبل تتقابل في صحراء خرج



داخل فوهة البركان - تل الكرش



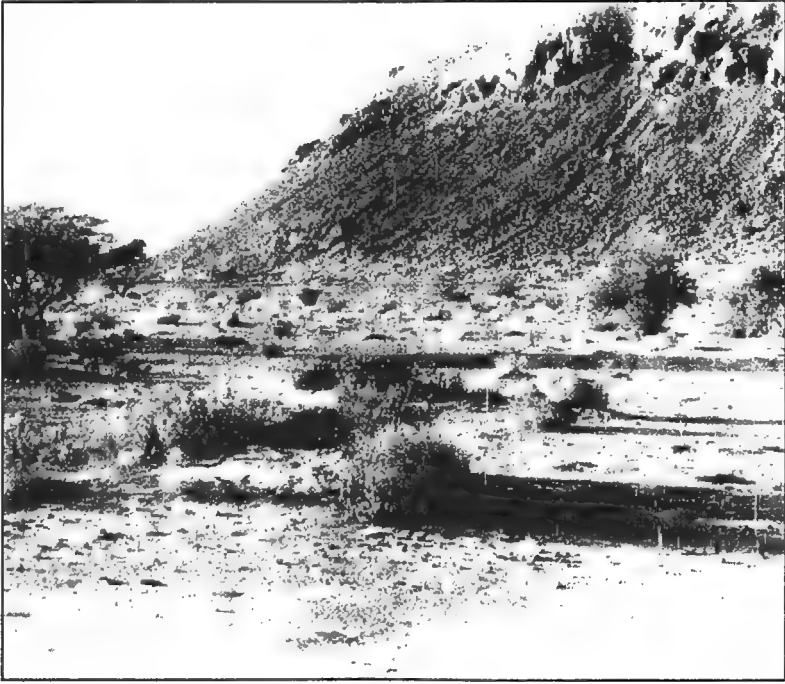
وادي مرخة - بقايا سلودري قديمة



استقبال مُحسنة - في المخيم في وادي أنصاص



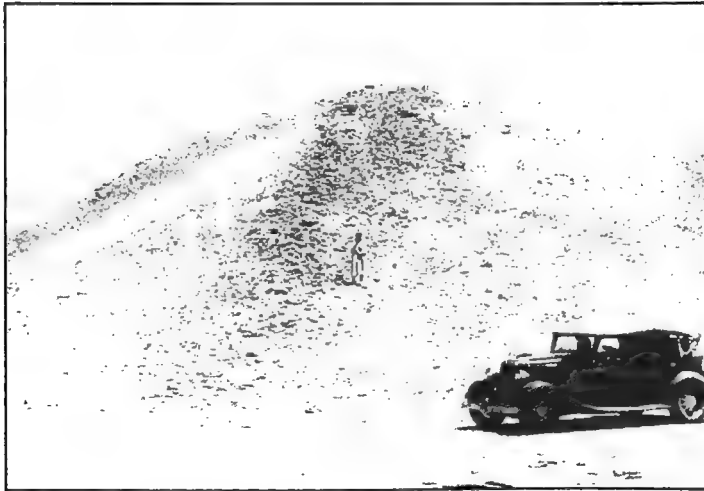
أضرحة أفاليل - الصحن والمحراب من الشرق



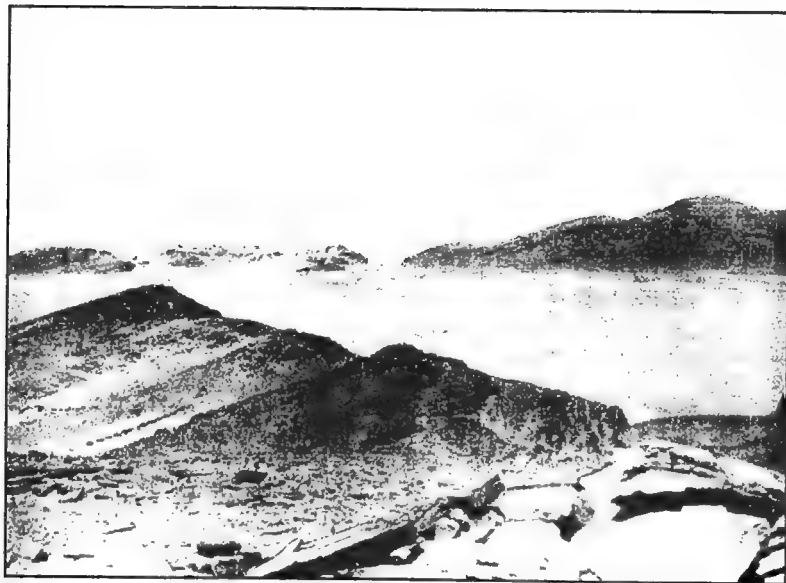
المخيم في حرة الثنية - النظر عبر فجوة الثنية من الجنوب



صالح الحذيق فوق قمة الثنية في اتجاه شمال غرب



راية فوقها طريق مسوّر عند طرف الرويك



سلاسل تلال الرويك



قبور على سلسلة تلال العلم الأبيض



أحد قبور العلم الأيضا



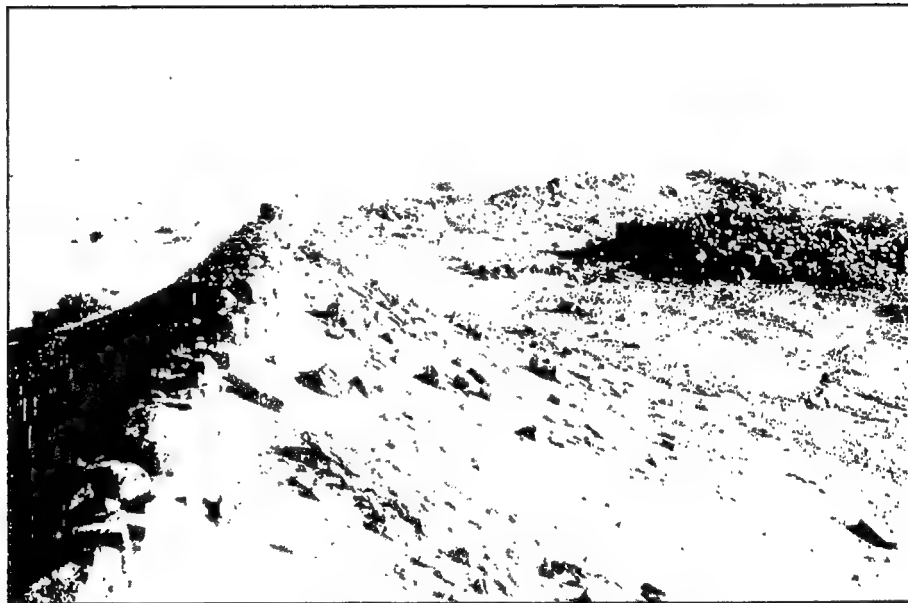
«جيشي» عند آبار مسعودة



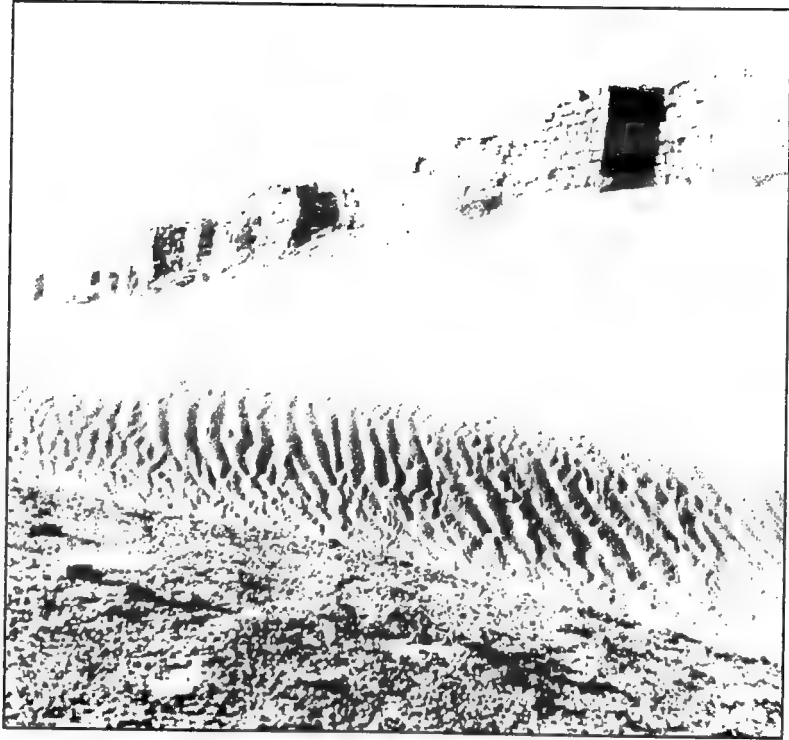
آثار فضية - النظر شمال - غرب من الركن الجنوبي الشرقي



قلعة السحيل من الداخل من الجنوب



آثار خربة أبي السعود - النظر جنوب - شرق على طول السور الشرقي من الداخل



السور الغربي لخربة أبي السعود - النظر شمال - غرب



خربة أبي السعود: ابن حديان بجوار مذبح حجري في المعبد



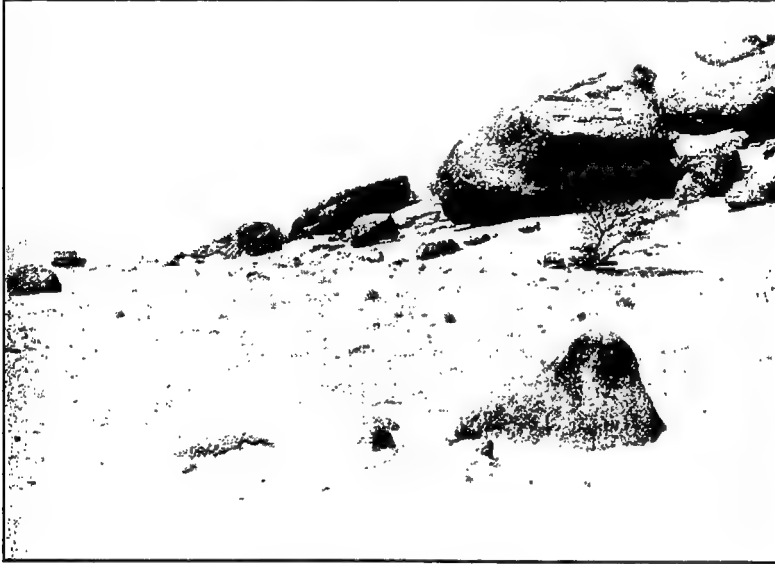
بثربوع وجبال الأحمر في الخلف



تلألأوين



شعيب أم الذياب



سلسلة تلال هريرة وكثبان عرق القورة



بئر الخضراء في منتصف النهار

الكشاف

كشاف الأعلام

(١)

إبراهيم، ١٩٨ .

إبراهيم النشمي: الأمير، ٣٨، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٦١، ٨٥، ٣٨٧، ٤٢٢،

٤٣٨، ٥٠٠، ٥٠٢ .

أبشيل، ٤٦٣ .

ابن إسماعيل، ١٣٦ .

ابن حزيل، ٧٩، ٩٣، ٩٥، ٤٧٩ .

ابن ركاض، ٣٥٦ .

ابن سعود (الملك عبدالعزيز)، ١٦، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٦١، ٩٧،

١٢٠، ١٣٥، ١٤٨، ١٨٨، ١٩٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٤١، ٢٦٢، ٢٦٣،

٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٠، ٣٥٢،

٣٥٤، ٣٥٦، ٣٨٤، ٣٨٨، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٦٥، ٤٧١، ٤٩٠،

٤٩٢، ٤٩٤ .

ابن عفيشة، ١١٦ .

ابن علي، ٢٠١ .

ابن المجاور، ٣١٤ .

ابن مدعار = عبد الله بن مدعار ٦٨، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٣٨١، ٣٩٤،

٤٢٩، ٤٦٦، ٤٧٩، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩٣ .

- ابن ناصر بن قطيان، ١٥٥ .
- ابن يوسف بن محمد بن بريك، ١٢٤، ١٣٤، ١٤٨، ١٦٠، ١٧٠ .
- أبو بكر بن حسين بن الشيخ آل كاف، ٢٠٥، ٢٣٢، ٣٤٧، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨ .
- أبو بكر بن عبدالرحمن الكاف، ٣٥١، ٣٧١، ٣٧٤ .
- أبو زيد الهلالي، ٤٢، ٤١٠ .
- أبولو، ١٩١ .
- الأيوبيون، ٣٨٧ .
- أحمد الحدادي، ٢٤٧، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٥٥ .
- أحمد بن سعيد، ٣٣٥ .
- أحمد بن عتيق الأنصاري، ٣٨٨ .
- أحمد بن علي، ٤١٥ .
- أحمد بن عيسى، ٢٢٢، ٢٣٥ .
- أحمد بن عيسى العلوي، ١٣٥ .
- أحمد بن منصور القعيطي، ٢٢١ .
- أحمد بن ناصر البطاطي، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٧ .
- أحور (قبيلة)، ٣٨٦، ٣٨٧ .
- أنجم (أهل)، ٤٢١ .
- آدم، ١٩٩ .
- أرفخشذ، ٣٨٥ .

أرنو، ٤٥٨، ٤٦١ .

الإغريق، ٣٢٨ .

إنجرام، ٢، ٤، ٢٣، ٢٥، ٢٩٧ .

أنصاب (قبيلة)، ٤١٤ .

إيدن، أنتوني، ٣٠٠ .

(ب)

آل باجري، ٢٥٥ .

باحسن الحمومي، ٢٧٤، ٢٧٩ .

آل بادخن، ١٣٩ .

باركر، هـ، و، ٢١ .

باريت، ٢٩٤ .

قبيلة بالحارث، ١٦٢ .

بالنشير، دم، ٣٣ .

البرتغاليون، ٢٤٦ .

بيتسون، أ. ف. ل، ٢٢ .

بيتش، الكابتن، ٣٠٣، ٣٤٩ .

آل بدر، ١٨٢ .

بروير، الكابتن، ٣٣٥، ٣٣٦ .

- البريطانيون، ١٦، ٣٣٢، ٣٥٤ .
- آل بريك، ١١٩، ٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٦١، ١٦٢، ٣٨٠، ٤٠١ .
- البريكي (قبيلة)، ١٠٠، ١١٦، ١٣٥، ١٣٦ .
- آل بطاطي، ٢١٧، ٣١٦، ٣١٧ .
- بطليموس، ٣١٥ .
- بلال الميكانيكي، ٤٥، ٣٦٤، ٣٩٤ .
- بلانت آن، ٢٥ .
- آل بلعيد، ١٨٢، ١٩٢ .
- بلقيس، ٤٦٢، ٤٦٩ .
- بليني، ٣٢، ٣٤، ٥٨، ١٠٠، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٠، ٢٢٦، ٤٤٩، ٤٦٠، ٥١١ .
- بنت، ثيودور، ٢٥٣ .
- بوركهارت، هرمان، ٤٦١ .
- بوسكوين، الكولونيل، ١٥٥، ١٩٣، ٢١٥، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٠٣، ٤٠٢ .
- ماركو بولو، ٣١٤ .
- بيتس، ج. ل، ٢٢ .
- بيتسون، أ. ف. ل، ٣٩٨ .
- بيري، لويغان، ٢٨٦ .
- بيرن، نورمان، ١٦٩، ٢١٥، ٢٦٤، ٣٠٤، ٣٤٢، ٣٦٠، ٣٦٩، ٣٨٧ .

- بيري، وإيمان، ١١٢، ٢٨٦، ٤٠٠، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٠، ٤٦٠ .
بيل، اللورد جيرترود، ١٦، ٢٥، ٦٠، ٥٠١ .
اللورد بيلهافن، ١٦٩ .
بيلي، برنارد، ٢٧٤ .

(ت-ث)

- تبع (ابن تبع)، ٣٤ .
تميم، ٢٨٠ .
م. توفيق المصري، ٣٣٢، ٣٥١ .
توماس، بيرترام، ١١٤، ٢٩٦ .
آل ثابت، ٢٦٢ .
ثمود، ٣٨٤ .

(ج)

- آل جابر، ٢٢٥، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٤ .
جابر بن موعذ، ٤١٢، ٤٢٧ .
إيليلوس جللوس، ٣٢، ٥٨، ٢٣٤ .
جايم، ب. م، ٢١ .
بني جبر، ٤٠٥ .
قبيلة الجبيري، ٣٤٨، ٣٥٩ .
آل جذنان، ٣٦٧ .

جستن، ٤٥٩ .

جشم، ٤١، ٤٩٤ .

عشيرة وادي جردان، ٣٨٩، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٧٩ .

آل جعفر، ٣٩٨ .

جعمل آل هندي، ٤٩٣، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٤ .

جعمل الويري، ٤٩٧، ٤٩٨ .

جعمل اليامي، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٢،

٦٥، ٦٦، ٧٨، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٩، ٣٩٢، ٤٩٣، ٤٩٧ .

جلاسر، ٤٥٨، ٤٦١ .

جوزيفوس، ٤٥٨ .

جولييت، ٢١٨ .

(ح)

بني حام، ١٤٣ .

ال حامد، ١٣٦، ١٣٧ .

حامد بن أبي بكر بن حسين، ٣٢١، ٣٣٥ .

حتيرش، ١٨٢ .

حديجان، ١٨٢ .

حرام (ملك صور)، ٣٢ .

حسن بن هضبان، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢،
٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٣٧٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤،
٤٤٦، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٦٧، ٤٧٨، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٢ .

أهل حسن بن جول، ٤١٠، ٤٢٣ .

أهل حسين، ٤١٦ .

حسين بن أبي بكر بن حسن، ٣٢١ .

حسين بن جعفر، ٣٣٦ .

حسين شبة، ٣٥٤ .

حسين بن الشيخ آل كاف، ٢٦١ .

حسين بن صالح بن سالم، ١٣٨ .

حسين بن صلاح القعيطي، ٢١٦، ٣٥٦، ٣٥٩ .

حسين بن عبدالله القعيطي، ٢٤٨ .

حسين آل عجام، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٨، ٢٣٦، ٢٤١، ٣٦٠ .

الشریف حسين بن علي، ٢٩٩ .

الحسين بن علي بن أبي طالب، ٣٥٢ .

حسين بن علي القعيطي، ٢٢١ .

حسين بن منصور القعيطي، ٢٢١ .

الحضرميون، ١٤١ .

آل حکمان، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٦٢ .

- أهل خمب . الصبي حمد، ١٥٦، ١٥٨ .
- ماكسويل . حمد السوري، ١١٣ .
- الميجور د . حمد بن صالح الحذيق، ١٥٥، ٣٩١ .
- داوتي، حمد بن عبدالله القردي، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩،
- قبيل ٣٩٤، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٦٣، ٤٩١، ٤٩٧،
- ٤٩٢ . ٥٠٦ .
- قبيلة الدو حمد بن عبري، ٢٤١ .
- ديدان أو حمد بن ناصر، ٣٩٩ .
- ذياب، ٢ قبيلة الحموم، ٢٧٩، ٣٤٠، ٣٥٩ .
- آل ذياب أهل حمير، ٤١٥ .
- دكتور را الحميريون، ١٢٧، ٣١٣ .
- آل راجي آل حوال، ٤١٦ .
- رامسبوتو آل حويل، ١٨٢ .
- رحمة بن عشيرة الحيمة، ٢٨٠ .

(خ.د.ذ.ر.ز)

- روميو، خرج بن قرقة، ٤٩١ .
- رومبولد آل خرشان، ١٨٢، ١٨٤ .
- ريكاردرز أهل الخضراء، ٤١٠ .
- ريكمانز، أهل خليفة، ٤١٠، ٤١٤، ٤١٩ .

- أهل خميس، ٤٢٣ .
- ماكسويل دارلنج، ٧٨، ٣٠٣، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٢١ .
- الميجور دالي، ٣٢٤ .
- داوتي، ١٣، ١٤ .
- قبيلة دهم، ٤٥، ٥٥، ٦٠، ٦٨، ٧٤، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٤٦٨، ٤٨٤، ٤٨٩، ٤٩٢، ٤٩٤ .
- قبيلة الدواسر، ٤١ .
- ديدان أو دادان سنسلس بن رماح بن كوش، ٤٥٩ .
- ذياب، ١٨٢ .
- آل ذياب، ٤١٦ .
- دكتور راينز، ٣٣٢، ٣٣٣ .
- آل راجي، ٤٢٣ .
- رامسبوتوم، ج، ٢١ .
- رحمة بنت حديان، ٧٣ .
- الرسول صلى الله عليه وسلم، انظر أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم، ١٠٠ .
- رومي، ٢١٨ .
- روميولد، هوراس، ٦٠ .
- ريكاردس، أ. ر. م، ١٩٣، ٢٩٤، ٣٠٣، ٣٩٠، ٤١٠ .
- ريكماتز، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٢ .

ريللي، بيرنارد، ٢٨٧ .

الزبدة (عشيرة)، ٢٢٤ .

زيد، (آل) ١٦، ١٢٠، ١٩٣، ٣٦٩ .

زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ٣٥٢ .

(س)

ساري (أهل)، ٤١٠ .

سالم بن أبي بكر بن حسين، ٣٢١ .

سالم بن جعفر، ٢٣٨ .

سالم بن حسين، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥ .

سالم بن حمد، ١٥١، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ٤٣١، ٤٣٢ .

سالم بن حيران، ٥٠٤ .

سالم بن عايض، ٤٢٩ .

سالم بن عفيشة البريكي، ١٠٠، ١٣٨ .

سالم بن علي القعيطي، ٢٠٧ .

سالم بن علي بن مقصف، ١٨٢، ١٨٤ .

سالم بن مانع، ٢٣٦ .

سالم بن يوسف بن محمد بن بريك، ١٣٨ .

السبثيون، ١٤١، ١٤٣، ٤٤٩، ٤٥٩ .

سترايو، ٥٨، ١٤١، ٢٢٦، ٥١١.

السرطان، ١٨٢.

سعد بن عثمان، ٤٥، ٧٩، ٣٩٤، ٣٩٥.

سعد بن معيلم، ٤٤، ٤٥، ٥٤، ٦٣، ٦٨، ٧٥، ٨٥، ١١٩، ١٣٥، ١٥٤،

١٧٣، ١٩٧، ٣٧١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٤٥، ٤٥٣، ٤٦٥، ٤٨٢، ٤٨٥،

٤٨٧.

سعد بن ناصر، ١٩٦، ٢١١، ٢٣٨.

سعدان، ٥٥.

الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد، ٩٩.

سعيد البريكي، ١٢٥.

سعيد بن حسين الكاف، ٧٨، ٢٦١.

سعيد الراعي، ٣٩٥.

سعيد بن عجم، ١٤٤.

سعيد بن عفيشة، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨،

١٢١، ١٢٤، ١٣٨، ١٤٩.

سعيد بن نشوان، ٣١٥.

سقاف بن السيد أبو بكر، ٢٣٢، ٢٣٦، ٣٥٦.

- آل السكارين، ١٨٢ .
- الجزال سكوت، ت. إي، ١٩٥، ٢٩٤ .
- سكوت، موديسون، ٢١ .
- سكوشنق، ١٦ .
- سكوف، و. هـ. ٤٥٩ .
- السلطان عبدالله بن محسن، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢ .
- السلطان عمر القعيطي، ٣٣٥، ٣٣٦ .
- السلطان محمد، ٢٣٦ .
- سلطان بن منيف، ٤٩٤ .
- سليم بن عفيشة، ٤٣٤ .
- سليمان حزين، ٣٣٢ .
- سليمان (الملك سليمان بن داود)، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٦٩ .
- سمي (أهل)، ٤٢٣ .
- سهابيل (عشيرة)، ١٨٢ .
- سوا (أهل)، ٤١٥ .
- قبيلة سودان، ١٠٠ .
- السويدة، ١٨٢ .
- سيف الدين حسين، ٤٦٤ .
- شبله، ٢ .
- آل شبيب
- الشيخ ال
- آل الشح
- آل شداد
- شريف ب
- الشريف
- شعاع بن
- ن. شكر
- شلامش
- أهل شلا
- عشيرة ش
- جماعة
- آل شنافر
- السي فو
- عشيرة ا
- شيبان،
- شيخ بن
- الشيعة،

(ش)

- شبلّة، ١٦٢، ١٦٣ .
- آل شبيب، ١٨٢ .
- الشيخ الشثيري، ٣٠٧، ٣٤٢ .
- آل الشحابلة، ١٩٢ .
- آل شداد، ٤٦٨ .
- شريف بيحان، ١٠١، ١١٢ .
- الشريف خالد، ٤٦٤ .
- شعاع بن خميس، ٤٢٣ .
- ن. شكري، ٣٣٢ .
- شلامش، ٤٢٣ .
- أهل شلاميش، ٤٠٦، ٤١٨ .
- عشيرة شمالان، ٤١٨ .
- جماعة الشميلي، ٢٨١ .
- آل شنافر، ٢٥٥ .
- السي فون شوسكو شتق، ٣٠٥ .
- عشيرة الشوية، ٤٢٣ .
- شيبان، ١٩١، ١٩٢ .
- شيخ بن محمد بن بريك، ١٣٧ .
- الشيعة، ٣١١ .

(ص، ض، ط)

صاحب الجلالة (الملك عبدالعزيز)، ٥٢٨، انظر الملك عبدالعزيز، انظر ابن سعود.

النبي صالح، ٣٨٤ .

صالح بن بريك، ١٤٤ .

صالح بن جعفر، ٢٣٧ .

صالح العقيل، ٤١٠ .

صالح بن حيسة بن حمير، ٣٨٤، ٣٨٥ .

صالح بن سالم بن يوسف، ١٣٨ .

الشيخ صالح صقر، ٣٠٨ .

صالح بن عبدالله، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٥ .

صالح بن علي القعيطي، ٢٠٧، ٢٤٧ .

صالح بن عبيد، ٣٨٤ .

صالح بن عمر، ١٣٨ .

صالح بن غالب، ٢٠٢ .

صالح بن محمد القعيطي، ٢٥٢ .

صالح بن محمد بن صالح القعيطي، ٢٥٢، ٣٢٧، ٣٢٨ .

صالح بن حزيق، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦،

١٥٨، ٣٢٩، ٣٨٣، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦،

٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٥،

٤٤٧، ٤٤٢، ٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٣٤، ٤٣٢، ٤٣١، ٤٢٩، ٤٢٨

٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٩١، ٤٩٧، ٥٠٦ .

صالح بن هادي، ٤١٨، ٤٢٣ .

الصبرات (قبيلة)، ٢٣٥ .

الصوريون، ٤٥٩ .

الصيداويون، ٤٥٩ .

قبيلة الصياعر، ٤١، ٤٥، ٥٩، ٦١، ٧٨، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٧، ٩٨، ٩٩،

١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٥٥، ١٩٣، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٧٢، ٤٩٤ .

أهل الضباب، ٣٨٩، ٤٠٤، ٤١٠ .

قبيلة الصبيري، ٣٥٠ .

أهل طالب، ٤١٦ .

طالب بن راجي، ٤٢٣ .

طالب بن علي، ٤١٥ .

طالب المعري، ٢٧٢، ٣٤٨ .

الطليان، ٣٨٧ .

طناف بن محمد بن رميدان، ١٠١ .

آل طهيف، ٤١٦ .

(ع - غ)

قوم عاد، ٣٧٥ .

عبدالرح-

آل عامر، ٢١٨ .

عبدالص-

أهل عبدالله، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٨ .

عبدالفتاح

عبدالله والد صالح، ٤١٧ .

عبدالفتاح

عبدالله بهوي لاجي، ٣٣٦ .

عبدالفتاح

عبدالله بن جعفر، ٢٣٧، ٣١٠، ٣١١ .

عبدالفتاح

عبدالله بن حسن الفقيه، ٢٣٥ .

عبدالفتاح

عبدالله آل خويران، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٨ .

عبدالرح-

عبدالله راجي، ٤٢٣ .

آل عبر

عبدالله بن سالم بن معقل، ١٠١ .

عبود ا

عبدالله بن صالح الهمامي، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٤، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤١٢،

عشيرة

٤١٣ .

آل عبيد

عبدالله بن عون بن (ملهي)، ١٠١ .

عييدة

عبدالله بن عمر القعيطي، ٢٢١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٢، ٢٦٤، ٣١٢،

آل ع

٣٥٥ .

عجيم

عبدالله بن مبارك، ٣٦٧ .

الع

عبدالله بن مشاري بن قملة، ٩٢، ٩٩ .

د

عبدالله بن منصور، ٤١١ .

عرفان

عبدالله بن الوزير، ٣٨٤، ٤٦٤ .

- عبدالرحمن الكاف، ٢٢٨، ٣٥٤ .
- عبدالصمد (عشيرة)، ٣٩١ .
- عبدالقادر الجيلاني (البغدادى)، ٢٨٠ .
- عبدالقادر الخادم، ٣٣٦ .
- عبدالقادر الكاف، ٢٦١، ٢٦٥ .
- عبدالقادر بن محمد بن بريك، ١٢٣، ١٣٧ .
- عبدالقوي، ١٣٨، ٣٨١ .
- عبدالمحسن بن سليمان رفاضي نجران الخريدلي، ٤٣، ٤٤ .
- آل عبري، ١٨٢ .
- عبود الطباخ، ٧٧، ١٢١، ١٢٨ .
- عشيرة العبيد، ١٣٦، ٣٩١، ٤٣٨، ٤٣٩ .
- آل عبيدة، ٤٧٨، ٤٧٩ .
- عبيدة مأرب (عشيرة)، ١١٣، ٤١٢، ٤٨٩ .
- آل عجاج، ١٨٢، ١٨٧، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٤٤، ٣٦٠ .
- عجيم بن عمر، ١٣٨ .
- العرب، ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٤٣، ١٨٣، ٢٣٧، ٢٦٣، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٤ .
- ٣١٥، ٣٨٧، ٤٠٩، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٧١، ٤٨٢ .
- عرفان، ١٨٢ .

- أهل عسار، ٤٢٣ .
عطير، ١٨٢ .
أهل عطيف، ٤١٠ .
أهل عقيل، ٤٢٣ .
آل علوي، ٢٢٨ .
علوي بن أبي بكر الكافي، ٣٥٤ .
آل علي بن جابر، ٣٦٠ .
علوي سعيد، ٢٢٢ .
عفيشة بن عمر، ١٣٨ .
علي آل جفنان، ٣٦٧ .
علي بن سالم بن كرب، ١٣٨ .
علي بن صالح، ٣٢٧ .
علي بن صلاح القعيطي (السلطان)، ١٣٦، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢،
٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨،
٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤،
٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٨١، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٠ .
علي بن أبي طالب، ٣٥٢ .
علي بن عفيشة البريكي، ١٠٠، ١٢٣، ١٣٨، ١٥٠، ١٦٠، ١٦٣، ١٧١، ٣٨١ .
علي بن عوض بن حمد بانعميان، ٢١٦ .

- علي بن غازي، ٤٢٣ .
- علي بن منصور، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٣٢، ٢٦١ .
- علي بن ناجي بن بريك، ٢٤٧، ٢٤٨ .
- علي بن ناصر القردعي، ٣٨٤ .
- أهل عليمي، ٤٢٣ .
- آل عمر، ١٣٨ .
- عمر بن أبي بكر بن حسين المحضار، ٣٥٣ .
- عمر بن حسين بن صالح، ١٣٨ .
- الشيخ عمر بن عبيد الجبيري، ٢٣٦، ٢٣٧ .
- عمر بن عوض القعيطي، ٢٤٧، ٢٦١، ٣٢٨، ٣٣٦ .
- عمر الكاف، ٢٢٨ .
- عمر بن محمد بن بريك، ١٣٧، ١٦٣ .
- عمر المخيرش، ٣٤٠ .
- أهل عمرو، ٢١٨، ٢٥٥، ٣٩١ .
- آل عتين، ٤١٦ .
- قبيلة العوالق، ٢٨٨، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٩، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٩ .
- العوامر، ١٠٢، ٢٥٥، ٢٨٠، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧٩ .
- عوض بن عمر القعيطي، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٨، ٣٢٦، ٣٢٧ .
- ٣٣٥، ٣٢٩ .

- عوض المعدي، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧ .
 العوقلي، ٢٤٧، ٣١٧، ٣٦١ .
 آل عوير، ٤٢٣ .
 عشيرة العويرة، ١١٦، ١١٩، ١٢٥، ١٥٢، ١٩٢، ٤٠١، ٤٢١، ٤٢٩ .
 السيد عيدروس بن عمر بن أبي بكر بن عبدالله، ٢٦٢، ٣٥٣ .
 غالب بن عوض القعيطي، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٦١، ٣٢٦، ٣٣٢ .
 غالب بن محسن، ٢٤٧، ٢٥١ .
 بني غسان، ١٥٨ .

(ف)

- فاطمة، ١٦٢ .
 ليوبولد فايس، ٥٣٥ .
 فراج القحطاني، ٣٩٤، ٤٢٧، ٤٣٣ .
 فرج بن قرقاح، ٤٥، ٥٣، ٥٤، ٦٠، ٦٢، ٣٧٢، ٤٩١ .
 كاتيا فرياستارك، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٧٧، ١٦٤، ١٦٥، ١٩١، ٢١٥، ٢٦٤، ٢٩٤،
 ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٥ .
 أهل فريش، ٤٢٣ .
 فريمان، ٤٣٩ .
 آل فشرة، ٤٠٨، ٤١٠ .

- فضل بن علي القعيطي، ٢٠٧ .
قبيلة الفقرا، ١٠٠ .
الملكة فكتوريا، ٢٥١ .
ثيودورفنت، ٢٥، ٢٨٦ .
الكولونيا آدم جورج فوربس، ٢٤٩ .
روزيتا فوربس، ٢٩٥ .
أدولف فون ريد، ١٦٧، ٢٥٤ .
فون فيسمان، ١٩٨ .
فيصل الأول بن الحسين، ٤٧١ .
فيصل بن سعود (فيصل بن تركي)، ٨٧، ٩٢، ٩٩، ١٥٥، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٥ .
فيلبي، الحاج عبدالله فيلبي(*)، ٢٢، ٢٤، ٢٩٢، ٣٨٨، ٥٠٧ .
الفينيقيون، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٩، ٤٦٠ .

(ق)

- قادر التركي، ٣٥٦ .
القتبانيون، ١٤١، ١٤٢، ٥٢١ .
قتبان، ١٣٦ .
قحطان، ١٨٢ .

(*) لم يتم تكثيف اسم فيلبي إلا إذا ورد صريحاً، أما روايته لرحلته في الكتاب فهي تضم الكتاب كله.

- قبيلة قحطان، ٤٥، ١٠٠، ٤١٢ .
آل قحيل، ٤٢٣ .
القرامطة، ٢٢٢ .
عشيرة القراميش، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٠ .
أهل قربان، ٤١٦ .
آل القردي، ٤٦٥ .
قس بن ساعدة، ٣١٥ .
آل قطبان، ١٢٥، ١٤٧، ١٦٢ .
آل قعيطي، ٢٢٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩،
٢٦٠، ٣٠٣، ٣٥٢، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠ .
أهل قفيش، ٤١٥ .
القمازين، ١٨٢، ٣٦٩ .
قنير (علي، محمد ابنا)، ٦١، ٧١، ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٩٧، ١٠١، ٣٩٧، ٥٠٤ .

(ك.ل)

- آل كادي، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩ .
أهل الكاظمي، ٤١٥ .
آل كاف، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥،
٣٠٢، ٣٠٧، ٣١٢، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٤٨،
٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٩ .
رودو كاناس، ٥٠٩، ٥١٤، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦ .

- آل كثير، ١٨٧، ٢٢٥، ٢٤٦، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٨، ٣٥٣ .
- آل الكثيري، ١٣٦، ١٩٢، ٢٠٣، ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٧، ٢٤٨ .
- ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٩، ٣٠٣، ٣٥٨، ٣٥٩ .
- قبيلة الكرب، ٤٥، ٦٨، ١٠٠، ١٠٣، ١١٦، ١١٩، ١٣٦، ١٥١، ١٧١، ١٧٣ .
- ١٨٢، ١٩٢، ٢٩٠، ٢٩٨، ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٤ .
- ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٢٠ .
- الكرباني (قبيلة)، ١٠٠ .
- كلب (بني)، ٤٢، ٥٠٤ .
- ن. ب كثير، ٢٢ .
- بيرسی كوكس، ٢١، ٢٥، ٢٦ .
- إل. جي. كومري، ٢١ .
- آر. إتش. كيرنان، ١٦٧ .
- لاركن، ٣٦ .
- كاري لورد: ١٦ .
- لورنس، ١٣ .
- لي، ٢٨٦ .
- ليتل، ٢٥٣ .
- إم. سي. ليك (الكولونيل ليك)، ٢٥، ١٥٥، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣ .
- ٢٩٤، ٢٩٨، ٣٢٩، ٤٢١ .

(م)

مالرو أندريه، ٤٦٢، ٤٦٣ .

هـ. ف. مايلين، ٢١ .

مبارك بن زيد، ٤٦٣ .

مبارك بن صالح، ١٠٠، ١٠٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٤، ١٣٨،

١٩٠، ١٩١ .

مبخت بن سالم بن شمالان الهمامي، ٣٨٨، ٤٢١ .

مبخوت الصيعري، ١٠٢ .

مبروك بن محمد بن ناصر، ٧٤ .

محبر بن حسين، ٣٥٤ .

محسن بن غالب آل عبدالله الكثيري، ٢٥، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦١ .

محسن القراميش، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٩ .

محمد بن إبراهيم بلفقيه آل علوي، ٢٣٥ .

محمد بن إبراهيم النشمي: ٤٤ .

الشيخ محمد باجنيد، ٣٢٢ .

محمد الباقر، ٣٥٢ .

محمد بن بريك، ٢٢، ١١٧، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٦٣، ٣٨١ .

محمد بن حسين الكاف، ٢٦١، ٣٥٤ .

محمد السائق، ٤٥، ٦٠، ٧٩، ١٠٩، ١١٩، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٧٠، ٣٢٢، ٣٢٣،
٣٤٩، ٣٥٤، ٣٦٤، ٣٧٥، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٥٢،

٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٦ .

الإمام محمد بن سعود، ٤٦٥ .

شيخ محمد بن سيد آل مرتع، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩، ٣٦١، ٣٦٤ .

محمد بن صالح بن محمد القعيطي، ٢٥٢ .

محمد بن عبدالله الحبشي، ٣٢٨ .

الشريف محمد بن عبدالرحمن، ٤٦٥ .

محمد بن عبدالرحمن النشمي، ٤٤ .

محمد بن علي بن جعفر الصادق، ٣٥٢ .

محمد بن علي بن عمر، ٣٥٢ .

محمد بن علي الكاف، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣ .

محمد بن عمر القعيطي، ٢٤٧ .

محمد بن قطيان، ١٢٥، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ٤٣١ .

محمد بن القعيطي، ٢٥٢ .

محمد بن محسن، ٢٣٢ .

محمد بن ناصر بن قيطان، ١١٩ .

محمد النوفلي، ٤٩٤ .

محمد بن هاشم، ٢٣٤، ٢٣٥ .

- محمد الهجوي الكبسي، ٤٦٤ .
محمد بن هضيل، ٣٩٤ .
الدكتور محمود خواس، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٤٢ .
المرادعة، ٦٣، ١٧٨، ٣٩٤ .
المرازيق، ٧٤ .
ابن مرتع، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٤٠ .
آل مرتع، ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٤٠ .
مرغليوث، ٥٢١ .
آل مروان، ٤٦٨ .
آل مسفر، ١٥١، ١٧٣، ١٧٥، ١٩٢، ٤١٦، ٤٣١، ٤٣٧ .
أهل مسعد، ٤٦٣ .
أهل المسك، ٤٢٣ .
المشايع، ٤٢١ .
قبيلة المشايعة، ٣٩١ .
اتحاد المشقااص، ٢٧٩ .
مصطفى شيبه، ٣٥٤ .
المصلي، ٢٨٠ .
مضر (قبيلة)، ٣٢١ .
المطاحلة، ٣٦٩ .

آل معدى، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٨ .

قبيلة المعارة، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢ .

معروف، ٢١٦ .

آل معروف، ١٠١ .

معزى أبوب، ٢٤ .

معيض، ٣٩٤، ٤٣٧ .

المعينون، ١٤١، ٤٦٠، ٤٧٨، ٥٢١ .

آل مفتجور، ٤١٦ .

آل المفشر، ٤١٩ .

المقاديم، ١٨٢ .

أهل المقبر، ٤١٠ .

المقداد بن الأسود، ١٠٠ .

مقيزع، ١٨٢ .

مكماهون، هنري: ١٨، ٢٠، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠ .

الملك (الملك عبدالعزيز): انظر ابن سعود، ٢٩ .

الملك العربي (ابن سعود): انظر ابن سعود، ٢٤ .

الملك الوهابي: انظر أيضاً ابن سعود، الملك عبدالعزيز، ٢١٦ .

ملكة سبا، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥ .

المناهيل (قبيلة)، ١٠٢، ٢٨٠ .

منصر بن عبدالله القعيطي، ٢٤٨ .

أهل منصور، ٤١٦، ٥٠٤ .

منصور بن غالب آل عبدالله الكثيري، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦١ .

قبائل المنقعة، ٣٠٣ .

آل منيف، ١٨٢ .

أهل مهدي، ٤١٥ .

مورقمان، ٥٢٤ .

موسوليني، ٢٤ .

فان دير مولين، ١٩٨، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٨٦، ٣٥٣ .

ميتفوخ، ٥٢٤ .

المينواين، ٤٥٠، ٤٦٠ .

آل ميوان: ٣٨١ .

(ن)

ناصر، ١٤٦ .

ناصر بن زيد، ٤٦٣ .

ناصر بن شماخ، ٦٣، ٧٩، ١٧٨، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٩٤، ٤٣٨ .

ناصر بن علي، ٤٢٣ .

ناصر بن قطيان، ١١٩، ٣٩٩ .

النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ٢٥٥ .

- النجديون، ١٤٤، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤ .
 نزيه مؤيد العظم، ٤٢٤، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣ .
 نسيب بن علي بن عبدان، ٢١٦، ٢١٧ .
 عشيرة النسيين، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩٤، ٤٠٦، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٧،
 ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٧ .
 ك، نمي، ٣٣٢ .
 قبيلة نهدي، ٦٣، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٥،
 ١٩٨، ٢٠١، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٠٣، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٦ .
 قبيلة نهم، ٤٦٦ .
 كارستين نيبور، ٣٣٢ .

(هـ)

- آل هادي، ٤٢٥ .
 جوزيف هالفي، ٣٠، ٣٧، ٥٧، ٥٨، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٩٤ .
 جي. سي. هاملتون، ١٦٩، ٣٨٧ .
 هتلر، ١٦ .
 آل هجاري، ٤١٦ .
 الهكسوس، ٤٦٠ .
 قبيلة هلال، ٤١٠، ٤١٤، ٤١٩ .
 هانز هلفريتز، ١١٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٩٣، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٧٥،
 ٢٨٦، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٤، ٣٩٠، ٣٩١، ٤١٠ .

قبيلة همام، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٩٤، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤،

٤١٦، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٥ .

آل همدان، ٤٦٨ .

آل هندي، ٤٥٢، ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٩٣، ٥٠٤ .

الهنود، ٤٦٠ .

هوجارث، ١٣، ١٦٧ .

هود (عليه السلام)، ٣٨٥ .

هيرش، ليو، ٢٥٣ .

(و-ي)

قبيلة وائلة، ٤١، ٥٤٩ .

ريكاردرس وانغرام، ٢٨٦ .

لي وادنر، ٢٥٣، ٢٥٨ .

آل وبران، ٤٩٧، ٤٩٨ .

بني وزع، ١٨٢ .

ورانر ولتل، ٢٨٦ .

قبيلة يشبم، ٤١٤ .

عشيرة اليافعي، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٦٠ .

ياقوت، ٣١٤ .

قبيلة يام، ٤١، ٤٥، ٥٣، ٥٥، ١٧١، ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٠٠، ٥٠٢ .

الإمام يحيى حميد الدين، ٧٣، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٩٢ .

الشيخ يحيى بن عبد الحميد بن علي جابر، ٢٠٩ .

آل يزيد، ١٨٢ .

يسلم بن جربوع، ١٠١، ٣٦٨ .

يماني، ١٨٢، ٢٨٠ .

يوسف شريف، ٣٣٥، ٣٣٦ .

يوسف بن محمد بن بريك، ١٣٧ .

بي. بي يوفاروف، ٢٢ .

كشاف الأماكن

(أ)

الآبار المحدثنة، ٢٨، ٣٥ .

أبا اكسرح، ٩٦ .

الأبتر، ٤٣٥ .

أكبراد (وادي)، ١٠٠، ١١٠، ٤١٢، ٤٣٨، ٤٤٦، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٦٢،

٤٧٨ .

ابن علي (وادي)، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٦٠ .

ابن لنجم، ٣٩ .

أبها، ٢٧، ٣١، ٣٦، ٤٥، ١١٨ .

أبو جنب، ٤٢٦ .

أبو قعب، ٩١، ٩٣ .

أنكالا، ٤٨٢، ٤٨٣ .

أثمد، ٥٠٠ .

أثينا، ٣٣ .

إثيوبيا، ٢٧ .

الأجاشر، ٤٩٩ .

- أجفر اكرخم، ٤٠١ .
الأحمر، ٤٨٦ .
أحور، ٣٨٥ .
أخباش، ٥٠٢ .
الأخضر، ١١٠ .
آدم (فريّة) ١٩١ .
أديس أبابا، ٢٧، ٣٢٨ .
أربيل، ٤٥٦ .
الأردن، ١٦، ٤٧١ .
أرغد، ٩٦ .
أرناد، ٤٠٧ .
أرنام، ٤١١ .
أريام، ٤٣٣، ٤٣٩ .
أز، ٣١، ٤٠٠، ٤١١ .
أزيون جبر، ٤٧١ .
الأساحل، ٥٠٧، ٥٠٨ .
إسبانيا، ١٨، ١٢١، ٣٢٢، ٣٨٥ .
أسداس، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٧٨ .
اسطنبول، ٣٥٧ .

- أسماع، ٤١٩ .
 الأسود، ٤٨٣، ٤٨٧ .
 الأشراف (حصن)، ٤٥٧ .
 أطلال سعود، ٤٧١ .
 أفاكيل، ٤٣٦، ٤٣٧ .
 أفريقيا، ٢٤٨ .
 الأفلاج، ١٣٦، ٤٤٧، ٤٥٠ .
 أفطنة، ٤٨٦ .
 أقباد، ٩٠ .
 أقسفورد، ٢٢ .
 آل بقري (ديار)، ٣٦١ .
 آل حتيك، ٤٥٧ .
 آل باحسن (ديرة)، ٢٧٠، ٣٤٨ .
 آل حويل (فرية)، ٣٦٥ .
 آل علوي (فرية)، ٢٢٤ .
 آل عمر (فرية)، ٢٦٨ .
 آل همام (وادي)، ٤١٧، ٤١٨ .
 ألمانيا، ٢٠ .
 أم خالد، ٣٩٥ .

- أم خرق، ٥٠٤ .
أم سلام، ٤٨٣ .
م: أم اكسمر، ٩٥، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٤ .
أم اكشداد، ٥٧، ٦٢، ٤٩٠ .
أم اكضباء، ٣٧٢ .
أم اكضبعة، ١٠٣ .
أم عتق، ٤٠٤، ٤١٥ .
أم عربي، ٤٨١ .
أم اكغربان، ٣٧٢ .
أم اكففل، ٤٠٢، ٤١٥، ٤٩٣، ٤٩٧ .
أم اككلاب، ٣٧٢ .
إلارة، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٠٣ .
البح (وادي)، ٤٩ .
الألير (درب)، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦ .
ألواه (وادي) ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧٩، ٨٠، ٤٨٣ .
آلون (ديرة)، ٢٧٠ .
الأناضول، ٢٤ .
إنجلترا، ١٩، ٢٤، ٢٦، ١٦٥، ٣٤١ .

أنصاب، ١١٢، ١٥٢، ١٩٣، ٣٩٠، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١،

٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٢، ٤١٤، ٤٢١، ٤٢٨ .

أنمار، ٤٣٢ .

أهل سعد (حصن)، ٤٥٧ .

أهل طليب (حصن)، ٤٥٧ .

أهل عبود (حصن)، ٤١٥ .

أهل عمير (حصن)، ٤٥٧ .

أهل فاس (فرية) ٢١٨ .

أوبن، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٤ .

أور، ٤١٤ .

أوريا، ٢٨، ٣٠٣، ٣١٥، ٣٧٥ .

الأوكيمب (جبال)، ٣٣ .

الأويسط، ٤٥٧ .

إيطاكيا، ١٧، ٢٠، ٢٥١، ٣٠٠، ٤٥٨ .

إيفرست (جبل)، ٢٤٣ .

(ب)

با بكر (فرية)، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨ .

بابل، ٤٥٩ .

اكباخدم، ٤١٤ .

- بئر علي، ٣١٣ .
باسودان، ٤١٥ .
باشعنون، ١٦١ .
باعشمين، ٢٣٠، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١ .
بافاريا، ١٦٧ .
بافم، ١٠٣، ٣٧٢، ٣٧٣ .
باقبيرة، ٤١٥ .
باقيلة، ٣٩١ .
باكعتو، ٤٢٠ .
بالماري، ٩٥، ٩٨، ١٨٢ .
بلحارث، ٤١، ٢٩٠ .
باكيت، ٢١٧ .
بابوس، ٣٦٩، ٣٧٠ .
بتافيا، ١٩٨، ٢٣٤ .
بئي، ٢٢٦، ٢٧٠ .
بحباش، ٤٥٧ .
اكبحر الأبيض المتوسط، ٢١٢، ٢٤٣، ٤٥٠، ٤٦٠ .
اكبحر الأحمر، ٣٠٠، ٣٣٣، ٣٤١ .
بحرة، ٤٨٩ .

اكبحري، ٤٦٣ .

اكبحرين، ٣٠١، ٣٢٤، ٤٥٠ .

بلدر، ٤٤ .

بدو (فرية)، ٢٦٣ .

برادة، ٤٨٦ .

برق اكعين، ٣٦٩، ٣٧٠ .

برفة، ٤١٩، ٤٢٤ .

برفة (برفاء الأشقر) ٩٣ .

برفة المُلعلل، ١٠٥ .

برقان، ٤٣٣ .

اكبرم، ٤٨٦، ٤٩٠ .

برهوت، ٢٣٣، ٣٥٣ .

بريدة، ٢٤ .

بريطانيا اعظمى، ١٤، ١٧، ٢٣، ١٨٣، ٢٥٠، ٢٥١، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤،

٣٨٧، ٣٠٥ .

اكبريمية، ٩٦ .

اكبطاطي (حصن)، ٣١٦ .

بعرورة، ١٠٢، ١٠٣، ٣٧٨ .

بغداد، ١١٣، ٢٠٧ .

بويقي،

اكبري (ديار)، ١٩٠ .

يح

اكبرين (فريه)، ٣١٩ .

٠

اكقع، ٤٩ .

١٩

بكري (ديار)، ٢٠٢ .

بيرين،

بلحماس، ٣١٧ .

بيشه،

بليق، ٨٢ .

اكنا، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٢، ٣٨٩، ٤٠٧ .

تاديه،

بني جعاس، ٨٢، ٨٤ .

تباكه،

بني قلب (تلال)، ٤٢ .

اكبيقول

بني هود، ٢٣٣ .

تثليث،

بودو (اكصمرية)، ١٨٦ .

تدلر،

بور (فريه)، ٢٦٢ .

تدوين،

بورسودان، ٢٥٤ .

تريس،

بوشهر، ٣١٤ .

تري

بوطيرق، ٣٦٨ .

٨

بوع، ٨٠، ٤٧٩، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٤ .

١

بولباي، ٢٣٦، ٤٥٨ .

٣٥

اكبيردة، ٤٠٧ .

تسكانيا

اكويش (وادي)، ٣١٨، ٣٣٧ .

بوقي، ٩٠ .

يحان، ٧٨، ١١٠، ١٤٥، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٠، ١٩٣، ٢٨٩،
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٨، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٨، ٤٠٦، ٤١٢،
٤١٩، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٣٩ .

بيرين، ٣١٩ .

يشة، ٣١، ٣٥، ٣٦ .

(ت-ث)

تادبة، ٢٢٥ .

تباكة، ٢٨٢، ٢٨٣ .

اكتيقول (قرية)، ٢٣٦ .

تثليث، ٣١، ٣٦ .

تدلر، ٣٢ .

تدوين، ٤٥٤، ٤٥٦ .

تريس، ٢١٨، ٢٥٥ .

تريم، ٢٠٢، ٢١١، ٢١٢، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦،
٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٥٥،
٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣٢٠، ٣٣٢،
٣٣٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٣ .

تسكانيا، ٢٨٥ .

تصلال، ٥٠٤ .

تلون، ٤٠٨ .

تمنع، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣ .

تنصاب، ٥٠٤، ٥٠٥ .

تهالة، ٢٨، ٣٥، ٦١ .

اكتوأم، ٤٨٣ .

اكتار (جبل)، ٤٢ .

ثاني (وادي)، ٣٦٩، ٣٧٠ .

ثكمين، ٣٦٧، ٣٦٨ .

ثماد، ٤١٣، ٤١٥ .

لدينة ثعنة، ٢٢٦ .

ثمود وشميد، ٣٥٥ .

اكنية، ١٥٢، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢ .

ثوم (فرية)، ٢٢٠ .

(ج)

الجابية، ١٠٣، ٣٧٢، ٣١٥، ٤٢٧ .

جاحم، ١٠٣، ٣٧٢ .

جالع (جبل)، ٥٧، ٨٠ .

جاجة، ١٩٦، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٤، ٣٤٠، ٣٥٦ .

الجب، ٥٧ .

الجنوة، ٤٥٧ .

جحيقة، ٣٦ .

جدة، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٧٨، ٨٥، ٢٤٣، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٥،

٣٢٣، ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٦٣، ٤٩٠ .

جديد، ٤٦٣ .

الجديدة، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٥ .

جربة اكسر، ١١٥ .

جردان، ١١١، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٥، ٤٢٦ .

جُرف، ٩٥ .

الجربية، ٤١٨ .

جذر اكهند اكشرفية اكهوكندية (إندونيسيا)، ٢٠٧، ٢٦١، ٣٧٨ .

الجزيرة اكربية، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٣٢، ٣٦،

٣٧، ٤٢، ٧١، ٨٧، ١١٣، ١١٤، ١٣٣، ١٣٦، ١٤١، ١٤٦، ١٥١، ١٥٥،

١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٩٣، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٩، ٢٤٣، ٢٤٧،

٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٩، ٣١٣، ٣٢٨،

٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٥٩، ٣٨٤، ٤١٠، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٤٩،

٤٥٠، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٩، ٥٠١، ٥٢٤ .

الجُشم، ٣٩١، ٤١٥ .

- الجويبية . جعل الأبيض، ٤٧، ٤٨ .
 الجزيرة، . جعل الأسود، ٤٧ .
 الجيف، . جعفر، ٣٩٩ .
 الجفان، ٤٠٢ .
 حائل، . الجلال (حصن)، ٤٥٧ .
 الحاضنة . جميل، ٤٢٦ .
 الحاكف . جنح (وادي)، ٤٢٩ .
 الحالي . جنداب، ٤١٤ .
 الحاوي، . الجو، ٤٨٦ .
 حبان، . جو الخديف، ٤٢٦ .
 حبران، . جو الخط، ١٠٥ .
 الحبشة، . جوطلع، ١٠٣ .
 حبونا، . الجوبة، ٣٨٤، ٤٣٩، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٩٤ .
 حبيظ، . جوعة آل لهنا، ٢٠٠ .
 الحجاز، الجوف، ٢٤، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٩، ٨٠، ١١٠، ١١١، ١١٣، ٣٣٢، ٤٣٤،
 حجاز أ . ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٦٣، ٤٦٦، ٤٦٧،
 حجة، . ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٨، ٤٨٩ .
 حجر، . جو المليس، ٨٢، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ٤٨٣ .
 الجويبية، ٤٠٨ .

الجويية، ١٠٣ .

الجيزة، ٣٩١ .

الجيف، ٣٩١ .

(ح)

حائل، ٢٤، ٢٥ .

الحاضنة، ٢٩٨، ٤١٠، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٥٥، ٤٥٨ .

الحاكف، ٣٥٥ .

الحالي (عين)، ٢٨٣ .

الحاوي، ٣٥٥ .

حبان، ٤١٤ .

حبران، ٨٠ .

الحبشة، ١٧، ١٨، ٢٠٠، ٢٥١، ٣٢٨ .

حبونا، ٣١، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٧٨، ١٠٥، ٥٠٤ .

حيظ، ٣٩١ .

الحجاز، ٧٨، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٣١، ٢٦٤ .

حجاز أهل جدعان، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٨، ٤٧٩ .

حجة، ٣٣٢ .

حجر (فرية)، (وادي)، ٣٧٣، ٣٨٩، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٤، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٩،

٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧ .

- حجر يالر، ٤٢٦ .
الحجف، ٤٧ .
الحجل، ٦٤ .
حجير، ٣٧٠، ٣٧٢ .
حجيلة، ٤٨٢، ٤٨٣ .
الحد (ردم)، ٥٥ .
الحذب (رلة)، ٤٢٦ .
حديجان (بئر)، ١٨٦ .
الحديدة، ٢٥٤، ٤٦٤ .
حواب، ٤٥٣ .
حرب، ٤٧٨ .
حراد وحويرد، ٣٨٠ .
الحرة، ٣٩١ .
حزلان، ٤٨٨ .
حرو (وادي)، ٢٦٧، ٢٦٨ .
الحروة، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٤٤ .
حريب، ٣٨٤، ٤٣٩، ٤٦٣، ٤٦٥ .
الحريرة، ٤٩٨ .
الحزم، ٦٠، ٨٢، ١٩٩، ٢١٦، ٢٥٣، ٤٦٧، ٤٨٤ .
الحزلة، ٣٥، ٤٥٧ .

حزيم، ١٨٦ .

حسرج، ٦٤ .

حسم، ٤٦٣ .

الحسوة، ١٤٧، ١٧٥، ١٨٤ .

الحشوة (وادي)، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٠٠، ٥٠٣ .

الحصا، ٣٩١ .

الحصينية، ٧٨، ١٤٥ .

الحضارم، ١٨٧ .

حضرة (وادي)، ٤٨٣ .

حضرلوت، ١٩، ٢٤، ٢٥، ٣٠، ٤١، ٤٥، ٥٧، ٦٤، ٦٦، ٧٧، ٨٢، ٨٦،

٨٧، ٩٤، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣،

١٢٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٣، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩،

١٦٠، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٩،

١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠،

٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤،

٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠،

٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،

٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١،

٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٥،

٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣١١، ٣١٣، ٣١٧، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢،

حوظة اكة	٣٤٦، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٥.
الحوق، ٢	٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٢٠.
حوية (و)	٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٦٢، ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٠٨، ٥١١، ٥١٦، ٥٢١، ٥٢٣.
حيد (هيد)	٥٢٥، ٥٢٦.
حيدر آباد	حضر، ٤٥٧.
الحيس (ف)	حقل اكشيطان، ٤٠٠.
الحيص (و)	حلحلان، ٤٦٦، ٤٨٠.
حيلان،	حليف، ٤٥٣.
خل، ١١	حما (وادي)، ٣١٦.
الخائق،	الحمة، ٣٩١.
خب (وا)	حمد بن فطيان (بئر) ١٨١، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٩١.
٨٩	حميرا، ٣٤، ١٤٣.
خباش،	الخنكة (وادي)، ٣٩١.
خبث الح	الحوا (فرية)، ٢٨٢.
خديد،	حوا (وادي)، ٩٦.
الخرب (و)	الحوارث (حصن)، ٢٢٤.
خربة أبيي	حورة، ٢٠٠.
٧٦	الحوطة، ٢٣٦، ٢٤٤.
	حوطة سلطنة، ٢٢٤.

حوظة اكقمعطي، ٢٠٢ .

الحوق، ١٢٢، ١٨٢، ١٩٢، ٣٥٦، ٣٩١، ٤٠٠ .

حويرة (وادي)، ٣١٥، ٣١٦ .

حيد (هيد) ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٥٦ .

حيدر آباد، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٢، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٨، ٣٤٠ .

الحيس (فريّة)، ٢٨٢، ٣١٦ .

الحيص (جبال) ٦٦، ٨٢، ٢٣٥، ٤٨٦ .

حيلان، ٤٤٦، ٤٥٦، ٤٨٣ .

(خ)

خل، ١١١ .

الخائق، ١٥٦، ١٥٧، ٤٥٣ .

خب (وادي)، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٧٨، ٨٠، ٢٣٥، ٣٧٤، ٤٨١، ٤٨٦،

٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢ .

خباش، ٤٢، ٤٨ .

خبت الخاكي، ١٥١، ٤٨٤ .

خديد، ٣٣٢ .

الخرب (حصن)، ٢٦٧ .

خربة أبي اكسعود، ٣٢، ٤٥١، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٤،

٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٣، ٥٠٧، ٥٠٨ .

الخرج، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٦٥، ٤٨٣ .

خرشة، ٨٠، ٤٨٧ .

خرشفة، ٤١٤ .

خرشيفة، ٤١٧ .

الخرص (فرية)، ١٠٣ .

الخروة، ٢٧٤، ٣٩٨، ٤٣٢ .

خسفة، ٤٨٣ .

خُشاش، ٤٢٤ .

خشالر، ٢٠٩، ٣٦٠ .

الخشعه، ١٧٤، ١٨٧، ١٩٠ .

خشم رصيد، ١٧٤ .

خشم عسافر، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩ .

خشم اكعفر، ٣٦٨ .

خشم عندل، ١٨١ .

خشم لعول، ٣٦٩ .

خشم لهباد، ٣٧٩ .

خشبية، ٤٩٨ .

الخضراء، ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥٩، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٥، ٥٠٧ .

الخط (رلة)، ١٠٥ .

الخلفين، ٤٨٦ .

الخليج اعرابي، ١٩٣، ٣٠١، ٣٣٣ .

الخليف، ٣٩١ .

خليقا، ٤٩٩ .

الخليلة، ٨٤ .

خمر، ٤١٥ .

خميس لسيط، ٣١، ٣٦ .

خويران (فريّة)، ١٦٨، ٣٦٩ .

الخنية، ٢٠٢ .

خيبر الجنوب، ٣٦ .

خيران، ١١٤ .

خيل، ٤٨٦ .

(د.د)

داجل، ١٧٥ .

دار اكراك، ٢٠٩ .

داعر، ٦٤، ٦٥، ١١٤، ٤٩٠ .

اكديس، ٢٨٣، ٤٠٣ .

دحل (فري)، ٤٨٤ .

اكدهلات، ٤٨٣ .

دحيضة، ٤٨٧ .

اكديرب، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٨، ٥٠٧، ٥٠٨ .

دسبة (وادي)، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤ .

دشر، ٤٥٦، ٤٥٧ .

دلشق، ٢٤، ١١٣، ٢٧٤ .

دلنان، ١١١ .

دلون، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٦٤، ٣٥٥ .

دُهر (وادي) ١٠٥، ١٥١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٣٦٧،

٣٧٧، ٣٧٩، ٣٩٠ .

دهم، ٤٥١ .

دواثر، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٨ .

دوعن (وادي) ١٦٧، ١٩٠، ٢٠٠، ٢١٥، ٢٣٣، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٥٣ .

دويد، ١٨٦، ١٨٧ .

ديبان، ١٤٦ .

ديجون، ٣٣ .

اكديس، ٢٨٣، ٣١٩ .

ديمة، ٤٢٥ .

ذي اكفيجة . ١٧٤ .

اكذياب (فرن)، ١٠٣، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٨٩، ٤٩٣ .

(و-ن)

اكرع الحـاكي، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٤٨، ١٠٢،

١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٥٦، ١٦٧، ١٧٩، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٥٥، ٣٦٨، ٤٣٩،

. ٤٨١، ٤٨٥، ٥٠٣ .

ربيعه، ١٦٠، ٣٦٠، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧١ .

رجلا، ٥٠٤ .

اكرجلاء، ٨٢ .

اكرخم، ٤٢٩ .

رخية، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٣٧٦ .

اكرس، ٤٨٨، ٤٨٩ .

رسب، ٢٦٩، ٣٤٩ .

اكرشيد (للمح)، ١٥٩ .

رشيدة، ٣٦٧، ٣٦٩ .

رصع، ٢٧٢، ٢٧٤ .

رغوان، ٤٣٩، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٦٣، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٣، ٤٧٦،

. ٤٧٧ .

رفعه، ٤٨٤ .

رقب (وادي)، ٣١٩ .

رلارم، ٩٥ .

- رلزة، ٤٥٧ .
- اكرللة، ١١٥، ١٨٣، ١٨٧ .
- اكرُيد، ١١٥، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩ .
- رنية، ٣٥، ١٣٦ .
- رهطان، ١٨٧ .
- رولا، ١٦٣، ٣٦٤ .
- اكرويك، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٧ .
- اكرويكية، ٤٧ .
- اكرياض، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٦١، ٩٨، ١٦٩، ٤٩٤ .
- اكريسان، ٦٦، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ٤٣٩، ٤٨١ .
- ريدان، ٤٨٧، ٤٨٨، ٥٢١، ٥٢٣ .
- ريدة، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨١، ٣١٤ .
- ريدة آل بلليث، ١٠١ .
- ريدة آل حاتم، ١٠١ .
- اكريضة، ٢٠٢، ٢٢٥ .
- زاهر، ٤٣٣ .
- زبون (وادي)، ٢٦٩، ٣٤٨ .
- اكرزيرة، ٥٠٤ .

زفين، ٥٠٤، ٥٠٥ .

زنقر، ٨٣، ٨٩، ٩٠ .

زنيفر، ٩١ .

زويرة، ٨٠، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٨١ .

(س)

سابوتا (انظر شبوة) أو سُبْتَة، ١٤٢، ٥١١ .

اكسادة (لدينة)، ٢٢٧ .

ساكم بن فheid (حصن)، ٤٥٧ .

ساندر، ٤٨٦ .

سبأ، ٢٢، ٢٣، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٧، ٨٧، ١١٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣،

١٦٣، ١٨٢، ٢١٥، ٢٤٣، ٣٠٤، ٤١٠، ٤١٢، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٦،

٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٩،

٤٧٠، ٤٧٧، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٦، ٥١١، ٥١٤، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣ .

سبتان، ٤٨٤ .

اكسبعتين (رللة)، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٣،

١١٥، ١٤٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٣، ٣٩٩، ٤٢٦،

٤٢٧، ٤٣٢ .

سحلابا، ٣٧٨ .

سحيل، ١٦٨، ٢٣٨، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٨، ٥١٢ .

سمرة،

اكسد (وادي)، ٤٥٦ .

سميرة،

اكسدة، ٢٤٧ .

اكسيلة

سدى، ٣١٩ .

سنديان

اكسديحات، ٣٧٣ .

سغافو

سر (وادي)، ١٨٢، ١٨٤، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠،

سهلة)

٣٨٤، ٤٦٣ .

اكسواد

سر اكيماني (وادي)، ٩٤، ٩٥ .

اكسوداء

سرحان (وادي)، ٦٤، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠ .

اكسودة

سريحي، ٤٥٧ .

سوريا،

اكسغم (وادي)، ٣١٩، ٣٣٣ .

اكسوير

سقطري (جزيرة)، ٣١٣ .

سويقة

اكسيلية، ٩٦ .

سيال،

سلبا (وادي)، ٥٥، ٥٨ .

سيثور

سلبية، ٤٩٥ .

ع

سلتوة، ٢٦٩ .

سيبي

سلى، ٤٨ .

اكسيق

سلىل شيريم، ١٧٨ .

سيق الم

سلىل لعني، ١٧٤ .

اكسمحاء، ٣٩١ .

- سمرة، ٣٩١ .
 سُمَيْرَة، ٤٤٦ .
 اكسنبلة، ٤٨٩ .
 سنديان، ٣٩١ .
 سنغافورة، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٦١، ٣٥٦ .
 سهلة (وادي)، ١٥٢، ١٥٦ .
 اكسواد، ٤٨٦ .
 اكسوداء، ٤٦٣ .
 اكسودة، ٤١٤ .
 سوريا، ٢٦٣، ٤٥٠، ٤٥٩ .
 اكسويري، ٢٢٥ .
 سويقة، ٥٧، ٤٨٧ .
 سيال، ٣٠٠ .
 سيئون، ١٦٥، ١٦٦، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠،
 ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤٣،
 ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٥، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨ .
 سبي (لدينة)، ٢٢٦ .
 اكسيق، ٢٨١ .
 سيق المري، ٧١ .

سيلان، ٢٧٥ .

اكسيلة، ١٨٤ .

(ش)

شاري، ٣٣٤، ٤٨٧ .

اكشام، ٤٥٠، ٤٥٩، ٤٦٠ .

شيام، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣،

٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠،

٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٩٨، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٠،

٣٢٦، ٣٢٧، ٣٥٤، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٩ .

شبوقة، ٢٦، ٣٠، ٣١، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٧٧، ٨٠، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧،

١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠،

١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤،

١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،

١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦،

١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٣٤،

٢٣٨، ٢٤٤، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣١٣،

٣٣٠، ٣٤٢، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٨٥،

٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٥،

٤٠٨، ٤١١، ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٤١، ٤٥٦، ٤٨٢، ٥٠٧،

٥١١، ٥٢٣ .

شبي، ٢٢٦ .

شحا، ٥٠٣ .

اكشحر، ١٣٦، ١٦٩، ١٨٣، ١٩٢، ٢٣١، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩،

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،

٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠،

٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٧،

٣٥٥ .

اكشحير، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٧ .

شمبير، ٤٩٤، ٤٩٧ .

شرجاب، ٤٨٨ .

شري (جبل)، ٥٧ .

شريج، ١٨٦، ١٨٧ .

شضب، ٣١٧ .

الشضيف، ٦٣، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ١٠٤، ١١٢، ٢٣٥،

٣٩٣، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩٢ .

شعشاء، ٤١ .

شعيب اكبدعة، ١٧٤ .

شعيب اكبييرة، ١٧٤ .

شعير، ٥٠٠ .

- شقة الخيل، ٨٣ .
 صغيفان،
 شقاق الحرلل، ٣٧٤ .
 شقبان، ٦٧، ٦٩ .
 اكشقيقات، ١١١، ١١٢، ٤٣٢ .
 شنة، ١١٤ .
 اكشهلا، ٨٢، ٤٨٤، ٤٨٨ .
 اكشوكة، ٤٠٦ .
 شيبان، ٤٤١، ٤٤٣ .

(ص-ض)

- صافر، ٤٣٩، ٤٧٨ .
 صباح، ٤٨٦ .
 صبرين، ٨٠، ٤٨٦ .
 اكصحفة، ٤١٥، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٧ .
 صمبير، ٥٧، ٥٩، ٦٠ .
 صرو (وادي)، ٣٥٠ .
 صرواح، ٤٣٩، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٦١، ٤٦٣ .
 صعدة، ٢٣٥، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٢٥، ٤٤٧، ٤٥٤ .
 اكصعرة، ٤٩، ٤٨٤، ٤٨٦، ٥٠٠، ٥٠٣ .

- . صعيقان، ٨٠ .
- . اكصفاة، ٣٩١ .
- . صفرة، ٤٥١، ٤٥٣ .
- . صغير، ٣٥ .
- . صلة، ٤١، ٤٢، ٤٨، ٥٠٥ .
- . صنعاء، ٥٧، ٧١، ٧٣، ٢٩٢، ٣٧٥، ٤٣٨، ٤٦٣، ٤٦٧، ٤٩٢ .
- . اكصولال، ٣٦٧ .
- . صوير (وادي)، ٢٨٢ .
- . صيح، ٥٧، ١٣٦، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٨ .
- . صيدا، ٤٥٩ .
- . اكصيعر، ٣٦٤، ٣٦٨ .
- . اكصين، ١٨، ٢٠ .
- . اكضاحي، ٤٨٣ .
- . اكضاع، ٢٩٠ .
- . ضب ضب (الدينة)، ٢٨٢ .
- . ضبع، ٥٠٠ .
- . ضبعان، ٢٠١ .
- . ضنيحة، ٤١٤ .
- . ضبوع (فرية)، ٣٥٠ .
- . اكضيا، ٣٩٨ .

ضحل، ٤٨٨ .

ضدح، ٤٩ .

اكضرلة، ١٠٥ .

اكضلع (فرية)، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٨٤ .

ضنتة، ٢٧١ .

اكضياق، ٥٠٢ .

ضيقم، ٤٦٣ .

(ط.ظ)

اكطائف، ٢٦، ٢٧، ٣٦، ٣٨٤، ٤٦٤ .

طاح، ٤١٤ .

طرياق، ١١١، ٤٣٣، ٤٣٩ .

طرف اكعين، ١٠٣، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤ .

اكطرفاء، ٦٨، ٤٨٩ .

اكطرفة، ٧٢ .

اكطريف، ٤٩٣ .

طويل، ٤٨٦ .

طويق، ٤٤٩، ٤٩٨، ٤٩٩ .

اكطويلة (جبل) ٥٧، ٨٠، ٤٩٠ .

طيبة، ٥٣، ٥٤، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠ .

ظفار، ٣١٣ .

ظبي، ٤٠٦ .

ظهان، ٣١٧ .

ظهران، ٥٠٧ .

اظهاره، ٤٩٧ .

ظهيل، ٤٥٧ .

(ع)

عارين، ١١١، ١١٣، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٢٩، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٨٨ .

عاصم، ١٨٦ .

عالر (بئر)، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨ .

عباسة، ٤٩ .

اكعبر، ٨٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٢،

١١٥، ١٢٠، ١٦٨، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٢، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٣٤، ٣٦٣،

٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٤٠٠، ٤٣٣ .

عبلة، ٥٠٤ .

عبيدة، ٤٩٣، ٤٩٤ .

عتبات، ٤٨٣ .

اكعجز، ٤٢٤ .

عجل، ٣٧٢ .

عرق الأحمر	عدة، ٣٧٥ .
عرق اكساف	عدم، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٤ .
عرق اكضار	عدن، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ١٥٥، ١٦٩، ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٦، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩،
عركا، ٥٠	٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،
اكعرلرم (٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،
اكعريجا (٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥،
عريق، ١	٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٨٥، ٣٨٦،
عساقر، ٧	٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤١٥، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٧٧ .
عسير، ٨	عدوان، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٦٥، ٤٨٣ .
عشتارت،	اكعر، ٥٠٠، ٥٠٤، ٥٠٥ .
اكعشرة،	عراب، ٤٨٦ .
عشقة، ٦	اكعراق، ١٦، ٢٠٧، ٢٣٧، ٤٥٦، ٤٥٩ .
عشير، ٣	اكعرافيب، ٤٨١ .
عشيرة،	عربة (وادي)، ١٨١ .
عصب،	عرشة، ٢٧٤، ٢٨١ .
عصيفير،	عرف، ٢٨١ .
عضيات	عرف اكديك، ٣٦٥ .
اكعطفى،	عرفات، ٢٢١ .
عطفان،	اكعرفضاء، ٢٢٤ .

- عرق الأحمر، ١١١ .
عرق اكسافية، ١١٢ .
عرق اكضاحية، ١١٢ .
عركا، ١٥٠، ١٦١، ١٧١، ١٧٩، ١٩٤، ٣٩٠، ٣٩١ .
اكرلرم (رللة)، ٩٤، ١١٣، ١١٤ .
اكريجا (وادي)، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٥، ٩٨، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٨٩ .
عريق، ٤٥١ .
عسافر، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ٣٧٩، ٣٩٠ .
عسير، ٢٨، ٣١، ٣٦، ١٥٢ .
عشتارت، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ٣٨٤ .
اكعشرة، ٢٦٩، ٢٧٠، ٣٤٨ .
عشقة، ٤٦٦، ٤٨٠ .
عشير، ٤٥٣ .
عشيرة، ٢٧ .
عصب، ٣٠٠ .
عصيفير، ٤٠٦ .
عضات اكرقع، ٤٤٦ .
اكرمطى، ١٢٢، ١٦١، ١٣١، ٤٠٠، ٤١٥ .
عطقان، ٣٩٨، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١٤، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨ .

اكعطين (وادي)، ٥٠، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣ .

عفر، ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٣٣ .

اكعقة، ٤٧١ .

اكعقدة، ٢٣٦ .

عقط، ٥٠٤ .

عقلة، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١١، ٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٢، ٥٠٧،

٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٦ .

اكعقم، ١٥٧، ١٦٠ .

اكعقييات، ٣٩١ .

عكبان (وادي)، ٣٦٩، ٣٧٠ .

كعلم، ٤١١، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٦٣، ٤٨٢،

٤٨٤ .

اكعلم الأبيض، ٥٠٢ .

علوب، ٤٩٣، ٥٠٣ .

علي (بئر)، ١٤٢ .

عُمان، ١١٣، ٣٠١ .

عمد، ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٠ .

عمدان، ٣٣٢ .

اكعواق، ١٥٢، ١٩٢، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٨، ٣١٦، ٤١٩، ٤٢٨ .

عياد، ٦٣، ٢٩٨ .

عياذ، ١٩٤، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٨،

٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤٢٥، ٤٢٧ .

عيديد، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٦١، ٢٦٣، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٥ .

عير، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٣، ٤٩٧ .

اكعين (جبال)، ٦٩ .

عينات، ٢٠٢، ٢٣٣، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣ .

اكعينية، ٤٩٣ .

(غ)

غاتر، ٢٦٦ .

غارة الملح، ١٥٩ .

غاكب (جبال)، ١٥٦، ١٥٧، ٤٠٠، ٤٠٦، ٤٣٢، ٤٣٣ .

اكغير، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٢٦ .

غثن، ٤٠٢، ٤٠٣ .

غرايليل، ٥٠٠ .

اكغرغر، ٤٠٢ .

اكغرف، ٢٢٥، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٥٥ .

غريتتش، ١٩٧ .

اكغصن (وادي)، ٣١٧ .

- غمير، ٦٦، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩ .
 غنم (وادي)، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١ .
 غيضة الكعقة، ٢٧٥ .
 اكغيل، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٦٧، ٣١٧، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٤٦٧ .
 غيل ابن يمين، ٢٦٧، ٢٧٤، ٣٥١ .
 غيل باوزير، ٣٣٦ .

(ف)

- فارح، ٤٨٦ .
 فاكيق، ٤٢٨ .
 اكفاو، ٤٩٨ .
 اكفجا، ١٧٤، ٣٨٠ .
 فمذ، ٤٠٦ .
 فمض، ٤١٤ .
 فرت، ١٩٢ .
 فرساي، ٣٥٩ .
 اكفرش (فناة)، ٦٢ .
 اكفرع (وادي)، ٤١، ٤٢، ٥٠٤، ٥٠٥ .
 فرنسا، ١٧ .
 فريحة، ١٨١ .

- فريدة، ٤٥١ .
فريع، ٤٧ .
اكفضية، ١٠٣، ٤٧٨ .
فغمة (وادي). ٢٢٣، ٢٢٤ .
اكفرا (جبال)، ٢٦٩ .
اكفقيه، ٤١٣، ٤١٧، ٤٢٤ .
فلسطين، ١٦، ١٩، ٦٠، ١٢١، ٢٩٣، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٨٧، ٥٠١ .
اكفليق (وادي) ٤٠٠ .
فليك (وادي)، ٣١٨ .
فندق الملك داود، ٣٧٤ .
اكفهود (تل)، ٦٢، ٤٩٣، ٤٩٧ .
اكفهير، ٤١٤ .
فوة، ٣١٨، ٣٣٤، ٣٧٥ .
فورت، ٢٠١، ٢٠٢ .

(ق)

- اكفارة، ٤١٥ .
اكفاضية، ٤٦٨، ٤٧٧، ٤٧٨ .
اكقاهرة، ٢١، ٥٩، ٩٧، ٤٦١ .
فباب الملح، ٤٤١ .

- فيرهود، ٣٥٣، ٣٥٥ .
اكتبل، ٦٢ .
فحوض، ٣٧٣ .
فُدام، ٤٨١ .
اكتلس، ٢١، ٥٩، ٩٧، ١٨٣، ١٩٧، ٢١٦، ٢٩٣، ٣٧٤، ٥٠١، ٥٠٢ .
فدم، ٤٥٣، ٤٨٧، ٤٩٤ .
فراء (وادي)، ٥٧، ٥٨، ٦١، ٤٩٤ .
اكتراين، ٩٠ .
فُرّة، ٢١٠، ٢٤٧ .
اكترطي، ١٧٧ .
اكترن (ديرة)، ٢٧٠ .
فرناء، ١٤١ .
اكترنين، ٤٠٨، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩ .
اكترون اكسود، ٤٠٦ .
فرون اكغنم، أو رؤوس اكشاة، ٢٦٧ .
فريون، ٢١٧ .
اكتزة، ٢٧٠ .
فسم، ٢٣٣ .
اكتصعة، ١١٢، ١١٥ .

اكقصيف (وادي)، ٥٥ .

فضقااض، ٤٩٣ .

فطر، ٣٠١ .

فطن، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٣٥٩،

٣٦٠، ٣٧٢ .

فعاد لحاط، ٤٥٥ .

اكقعاقيات، ١١٤ .

فعوضة، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣٤،

٢٣٥، ٣٧٠، ٣٧٩ .

اكقعييف (وادي)، ٥٨، ٤٩٥ .

اكقفال، ٤٨ .

ففض، ١٧٧ .

فلعة أبو زيد، ٥١ .

فليب، ٤٢٨ .

اكقليعة، ٨٢، ٣٦٧، ٣٧٩، ٤١٤، ٤١٥ .

فليل (ديرة)، ٢٧٠ .

فمران، ١٨٦، ١٩٠، ٣٦٥ .

فنا، ٣١٣، ٣١٥ .

فناو، ٨٢ .

- اكقنفذة، ٢٣٥ .
فنيفذ، ٤٩٠، ٤٩٣ .
فوايم اكسر، ١٨٤ .
فوجراتي، ٣١٠، ٣١١ .
اكقورا، ٤٩٨، ٤٩٩ .
فوصة، ٣٩٥، ٤٣٢، ٤٣٣ .
فوع، ٨٤ .
اكقويد، ١١٥ .
فويم، ٣٧٤ .
فيسين، ٨٢ .

(ك-ج)

- قتل، ٤٧١، ٤٧٨ .
قثر، ١٨٦ .
اككثمين، ١٨٤ .
قثير (وادي)، ١٩٩ .
قردان، ٣٦٧ .
م. اككرش (جبال)، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤٥٥ .
اككريبة، ٤١٥ .
قريت، ٤٥٠، ٤٦٠ .

- قریف ضبوعة، ٢٦٧ .
 اکسعین، ٤٥٤ .
 قمران، ٢٦٨ .
 اکمشة، ٣٨٠، ٣٩٢ .
 قناس، ٤٥٤ .
 قوخ اکشیمة (آثار)، ٢٧٢ .
 قور (جبال)، ٤١٢، ٤١٤ .
 اککورة، ٣٩١ .
 اککویت، ٣٠١ .
 اککویر، ١٤٥، ١٥٢، ٣٩٩ .
 اککویرة، ٣٩١ .
 قیسمايو، ٣٦٧ .
 کبانات، ٤٨٣ .
 کُجربت اککافر، ٤٠٠ .
 لخرم، ٤١٥ .
 کظحة، ٤٠٢ .
 کغدم، ٦٢ .
 کقیلاء، ٤٧، ٤٨ .
 کندن، ٢٤، ١٦٨، ٢٧٤، ٤٤٣، ٤٦٤، ٤٩١ .

م. اكلوذ، ٨٠، ٨٢، ٤٤٦، ٤٨١، ٤٨٨ .

كيسر، ١٩٠، ٢٠٠ .

كيبيا، ٢٤ .

(م)

لا بين اكنهرين (انظر: اكرعراق)، ٢٦ .

الماء (حصن)، ١٤٥ .

لأرب، ٣١، ١٠٠، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٤١، ١٤٥، ٣٣٢، ٣٩٣، ٤٠٥،

٤١٢، ٤٢٥، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨،

٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٧ .

الماس، ٤٦٥، ٤٨٠ .

لافود، ٣٩١ .

لاكك (فرية)، ١٨٦ .

المايين، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٦ .

لبادي اكشريف، ٤٨٣ .

لبارك (حصن)، ١٨٧ .

لشكرة، ٥٠٠ .

لتمة، ٤٦٧ .

لثاوير اكبوع، ٢٢٤، ٣٩٣ .

المثناه، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٢ .

- المجاف، ٣٥٥ .
 المجري، ٤٩ .
 لجراب، ٤٨٦ .
 لجوعة، ١٨٤، ١٨٥، ٣٧٤، ٣٩٠ .
 لحايل، ٢٣٥ .
 لحباض، ١٢٢، ١٣١، ١٣٢، ١٥١، ١٦٠، ١٧٤، ٣٩٥ .
 لحجل، ٤٨٤ .
 لحجوبة، ٦٤ .
 لحر، ٨٠، ٤٨٣ .
 لحسنة، ٤٣١ .
 المحضار (لسجد)، ٢٣٠ .
 لحيجر، ٧٩ .
 المحيط اكهندي، ٢١٢، ٢٤٣، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٨٣، ٣٠١، ٤٣٩، ٤٦٠ .
 لحيميد، ١٨١، ١٨٢ .
 المخاري، ٣٧٨ .
 المخاضة، ١٠٣ .
 لمرودان، ٤٩٣ .
 المخية، ١٠١، ١٠٢، ٣٦٨ .
 لمينيف، ٤٦٦ .
 لدعار، ٣٨١ .

لدرك، ٥٨، ٤٩٤، ٥٠٠ .

المدرى، ٩٦، ٩٨ .

لذنيب، ١٨٤ .

لرهنية، ٤٨٨ .

لرة، ٥٧، ٦٢ .

المرحأ، ٥٠٤ .

لرخة، ١١١، ١٤٦، ٢٨٨، ٢٩٨، ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤،

٣٩٦، ٣٩٨، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٧، ٤٢٢،

٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٤٠ .

المرقبة، ٤٨٧ .

لرصاص، ٩٤، ٩٥ .

لرو، ٢٦٧، ٢٦٨ .

لروارأ، ٣١٩ .

لروث، ٤٦٢ .

لريعة، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٥٥ .

لسعودة، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٨٠، ٤٩١، ٤٩٢ .

لسلب، ٣٩١ .

لسياب، ٤٨٣ .

المسيجد، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٦٥ .

- المسيلة، ٢٦٦ .
- المشايع (حصن)، ١٦١ .
- لشطة، ٩٥ .
- لشهد، ٣٥٣ .
- لشنيقة، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩٠، ١١٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٣٦٣ .
- لصاير، ٩٥، ٩٦، ٣٧٠، ٣٧٨، ٣٧٩ .
- لصر، ١٤١، ١٨٣، ٢١٥، ٢٣٤، ٢٦٥، ٣٠٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦٠ .
- لصيرم، ١٧٧ .
- لصيعر، ٤٣٣ .
- المضباح، ٤٩٣ .
- لضرة، ٤٥٣، ٤٨٨ .
- لضلاب، ٣٦٧ .
- لضلاب ليس، ٣٦٧ .
- لطاو، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٩٠ .
- المطابق (جبل)، ٥٤ .
- المطر، ٣٩٠ .
- لعاد، ٢٨٩ .
- المعارة، ٣٤٨ .
- معدي، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٧٧ .

== كشف الأماكن ==

المعشار، ١١٥، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥١،

١٧٤، ٣٩١، ٤٣٢ .

لعطل، ٤٩٥ .

المعو (جبال)، ٥٧، ٦٥، ٦٦، ٨٠، ٤٩٠ .

المعوان، ١٢٤، ١٣٤، ١٤٨، ١٥٨، ١٦٠ .

المعوس، ٣١٩ .

المعيان، ٣١٦ .

لعين، ٤٥٠، ٤٦٧ .

لعين (دوكة)، ٤٦٩، ٤٧٠ .

المغيرة (للح)، ١٥٩ .

لفلح، ٤٨٨ .

لقاة، ١٧٤، ١٧٥، ٣٨٠ .

المقعر، ٤٨٤ .

لكة، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٣٥، ٨٦، ٩٨، ١٢١، ١٦٤، ١٧٠، ١٧٣، ١٨٨، ١٩٥،

٢٠٢، ٢٠٣، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٧٤، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٥٤، ٣٦٣، ٤٢٢،

٤٢٣، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٦٤، ٤٨٠ .

المكلا، ٢٦، ١٦٨، ١٩٢، ٢٠٢، ٢١٢، ٢١٣، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦،

٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠،

٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣٠١،

٣٠٨، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١،
 ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٦،
 ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٦٠، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣ .

الملاحه، ٤٨٣ .

الملايو، ٢٠٨ .

للحه، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٩ .

للزق، ٩٥، ٩٦ .

لليحان، ٣٧٢ .

المملكة اكعربية اكعودية، ٣٠، ٤٩، ١٠١، ١١٩، ٢٥١، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٢٢،

٣٣١، ٤٦٤، ٥٠٠ .

المنافل، ٤٠٧ .

المنجور (وادي)، ٣٧٣ .

لنحه، ٥٠٣ .

المندفن، ٤٩٨، ٤٩٩ .

لنقه، ٣٨٦، ٤٢١ .

المنخلقه، ٣٧٠ .

المنقله، ٣٩١ .

لهباد، ٣٦٧ .

المهري، ٢١٨ .

لهياش، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٤٦ .

لورا، ٤١٤ .

لورة، ٤٨٦ .

لوشا (بئر)، ٣١٣، ٣١٥ .

ليفعة، ١٠٣ .

ليلاوي، ٥٣٥ .

ليهز، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ١٠٨، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١ .

(ن)

ناب، ٤٢٢، ٤٢٥ .

ناجل، ٣١٩ .

اكتادر، ٤٦٧ .

ناعط، ٣٣٢ .

نايفة، ١١٤ .

اكنبي هود، ١٠٢، ٢٦٦، ٣٥٣ .

نبيع، ٤٩٥، ٤٩٨ .

نجاء، ٤٦٣ .

نجد، ١٠١، ١٧١، ١٧٩، ٢١٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٩، ٣٥٦، ٣٨٠، ٤٧١ .

نجران، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧،

٤٩، ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٦١، ٦٨، ٧٨، ٨٥، ١٠١، ١٠٢، ١١٣، ١٢١، ١٤٨،

١٥٣، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٨، ١٩٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧،
 ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٦٤، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٣، ٣٢٠،
 ٣٣٢، ٣٦٣، ٣٥٦، ٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٣١،
 ٤٣٨، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٧٧، ٤٨٢، ٤٨٧، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٤، ٤٩٨، ٤٩٩،
 ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦ .

نجية (لدينة)، ٢٢٦ .

اكنجير، ٢٢٦ .

اكنحاس، ٤٦٢ .

اكنسر، ١١٢، ١١٥، ٤٩٥ .

اكنسر اكشرفي، ١١٥، ١٧٤، ٣٩٥، ٤٠٨، ٤٣٣ .

اكنسر اكغربي، ١١١ .

اكنسرين، ٤٨٤ .

نصلة حنيس، ٤٨٤ .

اكنصي، ١٠٥ .

نصيية، ١٠٧، ١٠٨ .

نصيف، ٨٠، ٤٨٧ .

اكنقعة، ١٧٧، ٣١٩، ٣٣٥، ٣٧٩ .

اكنقعية، ٣٣٧، ٣٤١ .

نقيل شجاع، ٤٦٣ .

اكنمسا، ٢٠ .

نهد، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٦٢، ٣٠٣، ٣٧١ .

نهم، ٤٥١ .

نوخان، ٤٠٦، ٤١٥ .

اكنويدرة، ٣٥٥ .

اكنويري (غار)، ٨٢ .

اكنيل (وادي)، ٤٨٢ .

(هـ)

هات، ٤١٥ .

هجر، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٧، ١٥١،

١٥٢، ١٥٩، ١٦٠ .

هجرين، ٣٦٥ .

هريرة، ٥٥ .

همام، ١١١ .

اكهملايا، ٢٤٣ .

اكهند، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٣ .

هوكندا، ٣٣٦ .

هيلان، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٦٧ .

م. هينن، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠،

٢٠٥، ٢٠٦، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٢، ٢٩٨، ٣٢٠، ٣٦١، ٣٦٣،
٣٦٥، ٣٦٨.

(و)

وائلة، ٥٠٤.

وادي اكدواسر، ٣٥، ٨٤.

وادي الموت، ١٦٤، ١٧١.

واديان، ١٧٥، ٣٧٩، ٣٨٠.

اكواضح، ٥٥، ٥٦، ٤٩٤.

اكواسط، ٤٥٣.

م. واسطة، ٤٢٥.

م. اكوجه، ٤٩٤.

م. وحيفض، ٨٢.

م. وذنة، ٤٥٧، ٤٦٢.

ويشيم، ١٥٢، ٣٨٦، ٤١٤، ٤٢٨.

(ي)

ياب، ٢١٧.

اكيابان، ٢٠، ٣٥٦.

م. ياحر، ٤٢٤.

يام، ٣٩.

اكيمة (وادي)، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٧ .

م. يحرر، ٤١٩، ٤٢٧ .

م. يستار، ٤٠٦، ٤٠٨ .

يعلين، ٥٠٥ .

م. يلت، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨ .

اكيماي، ٩٤ .

م. اكيمن، ٢٤، ٣٠، ٣٥، ٤٩، ٥٥، ٦١، ٧٧، ٩٣، ١٠١، ١١٠، ١١٣،

١١٩، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٨، ١٥٢، ١٦٦، ٢٠٤، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٦٣، ٢٩٢،

٣٠٠، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٦٣، ٣٨٣، ٣٨٤، ٤٠٥، ٤٢٠، ٤٣٩، ٤٤٦،

٤٤٩، ٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٨١، ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٠٠، ٥١٢ .

م. ينجل، ٣٩١ .

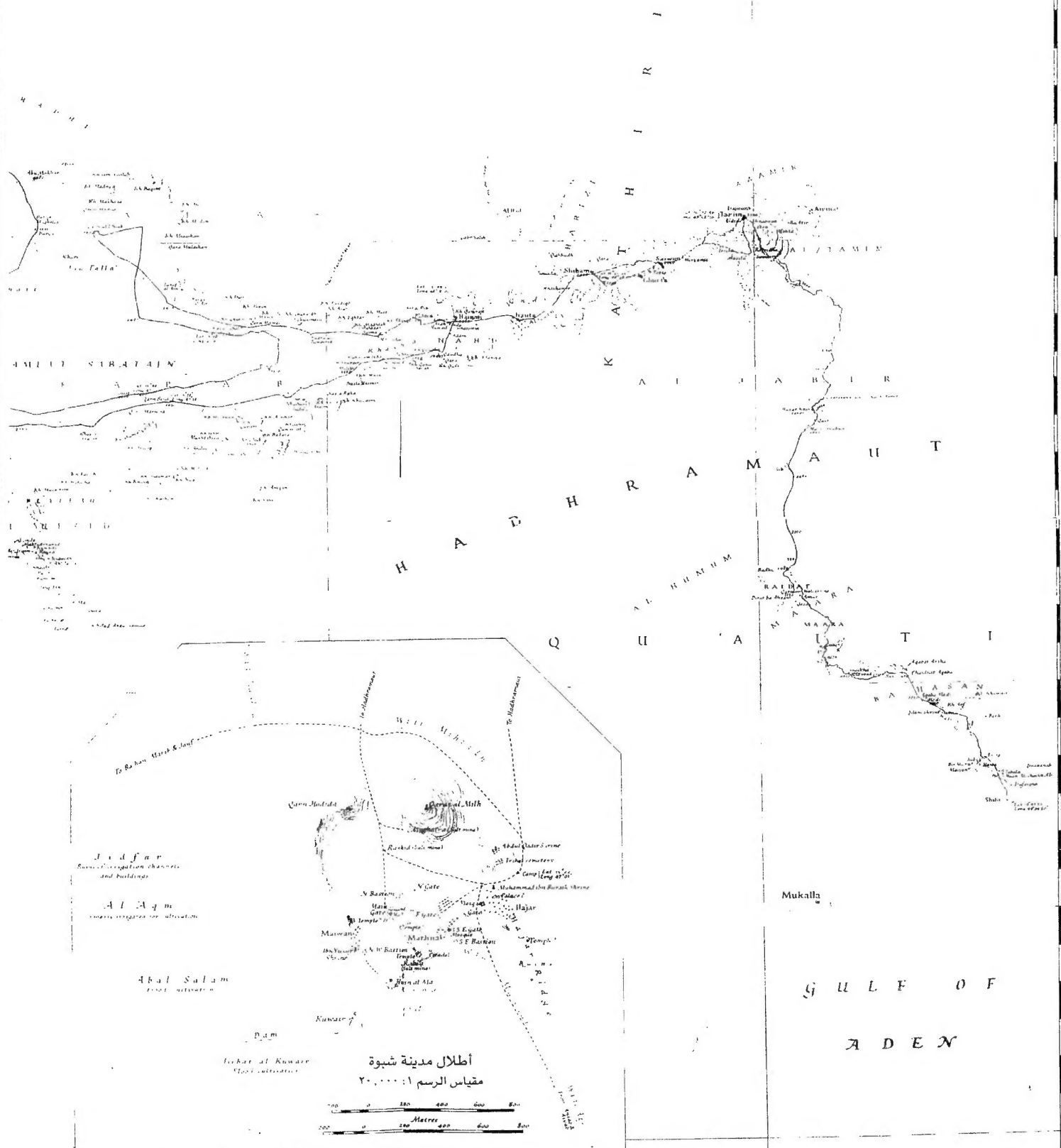
٨٥٥٠٦

الطرق في جنوب غرب الجزيرة العربية

مأخوذة من مخططات وضعها سانت جون فيليب عام ١٩٢٦

تم تعديل الحدود والفواصل لتلائم خطوط العرض التي وضعها المؤلف

وحددت خطوط الطول بالنجوم والإشارات وبالأوضاع المقبولة لشهر وتاريخ وشيخ



أطلال مدينة شبوة
مقياس الرسم ١:٢٠,٠٠٠

